ج.آن جيير

أمير حرب العصابات

القصة غير المعلنة لفيدل كاسترو

ترجمة : أسامة عبدالحليم زكي

أمير حرب العصابات

القصة غير المعلنة لفيدل كاسترو

* ج. آن جيير: أمير حرب العصابات.
* الطبعة العربية الأولى: ١٩٩٣.

* الناشر: دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث.

Makarios Avenue,
sic House Building- office No. 4.
(357 5) 387463
(357-5) 387464
ssol- Cyprus

شكر

أود بادىء ذي بدء أن أتوجه بالعرفان والشكر، لا للخبراء والمختصين، بل لمئاتٍ من الأفراد في أرجاء العالم ممن كانوا أسخياءً فيما أتاحوه لي من وقتهم ومما يعلمون، ويرجع ذلك إلى الطبيعة الجديدة للنهج المسيطر على هذه السيرة، نهج «التاريخ الشفهي». فمن أجل هذا الكتاب خاصةً تم تدبيرُ مئاتٍ خمس من اللقاءات في ثمانية وعشرين بلداً ـ امتدت من كوبا إلى الاتحاد السوڤيتي، ومن الهند إلى قبرص، ومن فنلندا إلى نيكاراجوا وبنما والسلڤادور. كما اعتمدتُ ـ إضافةً إلى ذلك ـ على ما لا يقل عن أربعمائة لقاء آخر كنتُ قد أجريتها على مدى الأعوام الستة والعشرين التي عملتُ فيها كمراسل خارجي وكصاحب عمود ينشر في العديد من الصحف والمجلات.

وقبل الشروع في هذا الكتاب، أخبرني أناس من أصحاب النوايا الطيبة أنه قد يكون من المتعذر «الوثوق» في معظم أولئك الذين رغبت في إجراء مقابلات معهم؛ ففي الواقع إن أي شخص استغرقته سيرةُ فيدل كاسترو العامرة بالبطولة والمغامرة كان لا بد من أن تكون له هذه النوعية من الأفكار المشبوبة والمتقدة حماساً إلى حد من شأنه أن يميل بميزان معظم الإجابات إلى مبالغة أو أخرى. غير أنه لم يحدث شيء من هذا. إذ بدا وكأن الناس يتريثون وقد نحّوا جانباً مشاعرهم الشخصية المفهومة تماماً، ومن ثَمّ راحوا يتحدثون في صراحة وصدق باعثين على الإعجاب. لقد بدا لي أنهم يدركون أنه قد آن الأوان كي يعرف العالمُ مَن كان ذلك الرجل على الحقيقة ـ وإني لشاكر من أجل هذا بشكل خاص.

ومع أن اللقاءات الشخصية والحكايات الشفهية كانت أمرًا هاماً في كتاب كهذا عن رجل شديد التكتم والتخفي، إلا أن ما يقرب من الستمائة كتاب والسبعمائة قطعة من أدب الدوريات كانت من الأهمية بمكان في العمل على حل المعميات التاريخية التي تحيط بهذا الرجل، ومن ثم العمل على إكمال صورته. وكان شروعي في عمل

الكتاب يرجع إلى عدم وجود مؤلَّف واحد عن فيدل كاسترو له صفة الكمال والدقة، فقط كانت هناك كتب عديدة إنكليزية واسبانية وبرتغالية آثرت أن تتخذ لنفسها رواية أو حكاية منقولةً عن شخص، أو أنها كانت تنطوي على بذور جيدة لحكاية ذات صبغة تاريخية أو لتفسير ذي طابع تاريخي. وإني لأعترف بديني لجميع أولئك الكُتّاب المؤلفين ـ سواءٌ المؤرخون المشهورون منهم والمؤلفون المغمورون ـ ممن كانوا على مدى كل هذه الأعوام يلملمون شتات اللغز خدمةً لسائرنا.

وفيما يتعلق بأمر البحث والتنقيب عن هذه الكتب والمصادر، فإني مدين على الأخص لوليام راتلف William Ratliff ولمكتبة معهد هوفر Hoover بجامعة ستانفورد، ولمارك روزنبرج Mark Rosenberg وجامعة الولاية بفلوريدا، ولجمي سكليكي Jaime Suchlicki وجامعة ميامي، ولمكتبة الجامعة الأميركية وللمكتبة في جامعة جورج واشنطن. كما أوجه شكراً خاصاً إلى دولورس مويانو مارتن Dolores Moyano Martin بمكتبة الكونجرس على ما أسدته لي من قويم النصح وعلى فائق إدراكها لما هي المراجع والمصادر المؤكدة النفع والقيمة لهذا الكتاب.

وفي عامي ١٩٨٧، ١٩٨٨، حين كنتُ قد قطعتُ في الكتاب شوطاً بلغ بي إلى منتصفه، وقعت أحداث كانت في السابق مما لا يُمكن التصديق به وقد أفادتني تمام الفائدة. إذ مع سياسة الإصلاح والمكاشفة التي أتى بها ميخائيل جورباتشوف، التقى ـ ولأول مرة ـ مسؤولون رسميون سوفيت ـ من أمثال سيرجو ميكويان وسيرجي خروشيشيف ـ في جامعة هارفارد مع مسؤولين في إدارة كنيدي السابقة ليتدارسوا الحقائق الكامنة وراء الغوامض التاريخية المتخلفة عن أزمة الصواريخ. فلم تقف هذه الأحداث عند حدود ما أتاحته فعلاً من معلوماتٍ جديدة فريدة وما طرحته من اعترافات، كان لها أثرها فيما أحدثته من تغيير جذري فيما أعرضه هنا من تاريخ، بل لقد غدا المسؤولون في موسكو الآن ـ وللمرة الأولى ـ على استعداد للحديث عن كوبا بصراحة.

ولقد كان المفكرون والمؤرخون وغيرهم من كُتّاب السير والتراجم الأميركيين من أصل كوبي ـ الذين بدا وكأن هذا العمل الغير التقليدي قد أذهل أخيلتهم ـ من الصراحة والعون والكرم بما يصعب عليَّ معه أن أوفيهم حقهم، ويضيق المجال هنا عن ذكر سائرهم. وأول مَن يجب عليَّ البدء بشكره إرنستو بيتانكورت Ernesto Betancourt الذي كان أول رفقاء كاسترو المقربين وقت الثورة ثم أصبح فيما بعد مديراً لإذاعة راديو مارتي Marti ـ وليس هذا فقط من أجل ما قدمه من نظرات نقدية

للكتاب في كل زاوية من زواياه عملت على نفث الحيوية فيه، بل ومن أجل ما قدمه من عون حقاً في الحث على إنجاز الكتاب، وما كان يتفضل به دائماً ـ في هدوء ونزاهة ـ من توضيح للجوانب المبهمة من عقل كاسترو. أما اللورد هج توماس Lord Hugh Thomas فقد عرض وقدَّم ذهن المؤرخ وفهمه الفائض القيمة هداية للصحفي في سعيه نحو مطلبه ذي الصبغة العملية الأكثر. كما وضع رافائيل دياز بالارت Rafael Diaz Balart عقله وذاكرته وأعملهما بسخاء. كما أذكر لإنريك تروبا Enrique Trueba أنه أرشدني بلا كلل أو ملل إلى مصادر ما كانت تخطر لي ببال قط. أما كارلوس البرتو مونتانر Carlos Alberto Montanar فقد عمل دومًا على إتاحة وتقديم ذلك النوع الخاص من حساسية الشاعر ودقه شعوره. كما أن جستو كاريللو Justo Carrillo لم يعطني وبسخاء من وقته وفكره فحسب بل ومن معرفته التاريخة الواسعة عن كوبا. أما لويز إ. أجويلار Luis E. Aguilar وإرڤينج لويس هورويتز Irving Louis Horowitz فقد قاما بقراءة قسمي الكتاب وأدارا بشأنهما ـ وعن اقتدار ـ ملاحظات نقدية، وقد وضع جاك سكيللي Jack Skelly معرفته المتخصصة عن كوبا في خدمة الكتاب وكان العوْن منه بطرائق هي من الكثرة بما لا يأتي عليه ذكر. . وأما المؤرخان ريتشارد ليوبولد Richard Leopold وميخائيل بشلوس Mechael Beschloss فقد أتاحا لي من التشجيع والنُصح العملي ما فاقت قيمتُه كل قيمة، بينما بث فيّ الكسندر جورج Alexander George الشجاعة على كتابة السيرة، وذلك بالإشارة إلى أن «للصحفيين امتيازاً يحرزونه على المؤرخين من حيث قدرتهم على معرفة موضوعاتهم».

ولما كان هذا الكتابُ مُغرقًا في طابعه النفسي، قيض اللهُ لي عدداً من أرباب الطب النفسي والعقلي يوضحون لي الطبيعة النفسية الدقيقة لفيدل كاسترو، من هؤلاء دكتور فاكندو ليما Facundo Lima ودكتور مارشيلينو فيل Marcelino Feal ودكتور جيرولد بوست Jerrold Post ودكتور روبن داريو رامبو Ruben Dario Rumbaut وآخرون. كما أود أن أشكر بوجه خاص أستاذي القديم النابغه في موضوع السلطة الكارزمية الدكتور هاينز كوهت Heinz Kohut ذلك الذي شّكل في صبر هذا الصحفي المبتدىء وراح «يلقنه العلم» بلا حد في شيكاغو فترة السبنات والسبعينات. فمن كل هؤلاء الرجال والنساء وجدتُ الإحاطة والتشجيع، فكم من مرة قالوا لي إنك قادرٌ على هذا العمل مستطيع له في وقت ظننتُ فيه أن لا طاقة لي علبه ولا قدرة. وإلى آخرين كثيرين ممن لا حيلة لي في الإتيان هنا على ذكر أسمائهم

لضيق الحيز، أتوجه إليهم بالشكر على ما بذلوه من وقت وعلى ما أبدوه من شجاعة في مد يد العون لعمل جانَبَ المألوف وخرج على التقليد. وإني لأعتذر لهم عن العديد من الحكايات الرائعة التي قدموها لي إذ إنه لم يكن لها متّسع من المكان ولا شيء غير ذلك (فهي حكايات هامة، منها مثلاً رحلة جوزيا بب فيجورس José Pepe Figueres إلى كوبا عام ١٩٥٩) وكثيرون ممن ورد ذكرهم قد لا يوافقون على اختياراتي لمادة الموضوع ولا على ما بسطه من تفسير؛ وواقع الأمر أن جميع الأحكام التي وَجَدت لها تعبيراً إنما هي تخصني وحدي وربما تكون في مواضع كثيرة مناقضةً لمعتقدات وآراء أولئك الذين أوردنا ذكرهم هنا.

وأخيراً، أعرب عن عميق عرفاني لدار نشر ليتل وبراون وشركاهما، وعلى الأخص إلى فريدريكا فريدمان Fredrica Friedman، صاحبة القلب الجسور التي قامت بتحرير الكتاب، على إدراكها ما عليه هذا الكتاب من أهمية واختلاف، كما أحيي مساعدتها ربيكا ماكدوجال Rebecca Macdougall على ما بذلته من عمل دؤوب؛ كما أتوجه بالشكر إلى مايك ماتيل Mike Mattil، المحرر المهذب التابع لهيئة الناشرين، على قيامه بتجميع الكتاب؛ كذلك أشكر مُحاميّ وممثليّ للقانوني السيدة بللا لندن Bella Linden ذات الحكمة والفصاحة؛ وشكري وعرفاني إلى مستشاريَّ القانونيين من أصحاب النباهة ممن يعملون على تأمين حياتي، وهم: موريس ليبمان Morris Leibman وجويل ويزمان Joel Weisman وجيمس ريدي James Reidy؛ وشكري إلى محرر كتبي القديم الدمث جيم موريس Jim Morris على ما بذله من أجل استمراري والعناية بي، وإلى جميع أفراد أسرتي وأصدقائي (خاصةً ماري كودر Mary Coder وإليس ماكورميك Eliss Mccormick وجورجيا لامبهير Georgia Lamphear وهاريت إليس Harriet Ellis) الذين عاينوني شخصياً وأنا أخوض في حكايات من العذاب والألم تبدو وكأن لا نهاية لها. وما كان للكتاب أن يأخذ سبيله إلى الإنجاز - ناهيك عن الفراغ منه - لولا العمل الدؤوب لمجموعة من الأفراد هم: سينثيا جالافر Cynthia Gallagher وأنابل هتشكوك Annabelle Hitchcock وربيكا كودر، تلك الجماعة الوحيدة التي عكفت على العمل بإيمان راسخ فكانت في قلب المغامرة من المبتديء إلى المنتهى، وكذلك السيدة ليندا ماتيوز Linda Mathews. الكاتبة على الآلة الكاتبة. وأخيراً، فإنه ما كان للكتاب أن يكون على ما هو عليه من أسلوب وشكل لولا ذهن ويد كارول تارلو Carol Tarlow المتخصص إلى درجة تفوق تصور العقل في فن التحرير.

مقدمــة

لقد توازت حياة فيدل كاسترو وحياتي وتشابكتا على نحو غريب في قدريته.

فلقد سافرتُ إلى كوبا لأول مرة عـام ١٩٥٠، وكان ذلـك برفقـة والديَّ. كنتُ وقتها في الخامسة عشرة من العمر، وقد أدى افتتـاني بكوبـا ذلك العصـر ذات التأنق والحيوية والهدوء إلى إرساء قواعد افتتاني اللاحق بسـائر أمـريكا الـلاتينية. في ذلـك العـام (١٩٥٠) كان فيـدل الشاب غيـرُ المعروف يشق طـريقـه بقـوة خـلال الـدوائـر السياسية لجامعة هاڤانـا، وفي عام ١٩٥٥ بـاشرت دراستي في كليـة مكسيكو سيـتي الجـامعية بمـدينة مكسيكـو سيتي. في ذلك العـام (١٩٥٥) كان الشـابُ النـاشيء فيـدل ذو النـزعـات الثـوريـة مـوجـوداً بمكسيكـو سيتي هــو الآخــر، مشغــولاً بــالعمــل على تنظيم حركته الثورية الجديـدة. وأخيراً ـ وكـان ذلك في الستينـات ـ أمضيتُ في هاڤانـا بضعة شهـور إلتقيتُ خلالهـا بكاستـرو وحادثتـه أربع مـرات. ومع واحـدة من منظمات حرب العصابات التي كانت تعمل بوحي منه عشت في مرتفعات جواتيمالا، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً بدا وكأن الحياة العملية المهنية تدور في فلك متابعة الأثـر الذي يُحدثه فيدل كاسترو في أرجاء العالم. فإن ما لكاسترو من قدرة وعقلية تكتيكيـة واستراتيجية كان من الممكن تتبع أثرها في كل مكان سواء في جواتيمالا أو أنجولا أو نيكـاراجـوا أو السلفـادور أو ڤيتنـام أو بنمـا أو البـرتغـال أو لاوس أو بـولنـدا أو مـوزامبيق أو أورجواي أو شيلي أو جـامايكـا أو جرينـادا أو الاتحاد السـوڤيتي ـ فهـذه القدرة وتلك العبقرية كانت دائماً ما تتراءى كخنجر مُشهر في وجه الولايات المتحدة. ففي الحق لقد كانت كوبا كـاسترو قـد أصبحت بالفعـل النموذج المحتـذى في حرب العصابات والمذهب غير الـرسمي الآخذ بـأسلوب العنف لتحقيق الأهداف المنتشـرة في أرجاء العالم الثالث.

ولكن، لماذا دُفعتُ ـ وهذه هي الكلمة ولا كلمة غيرها ـ إلى كتابة هذا الكتاب الذي لا يتوقع له الوفاء بالغرض المطلوب منه، وأن أعـري ـ بقدر مـا يُمكن أو بقدر المسموح به انسانياً ـ الكثير من الحقائق عن رجلٍ وجودُه مطلوب كله ولا وجودُه هـو

المعروف؟ بنظرة إلى الوراء أرى أن الأمر كله قد بدأ في ٢٦ يوليو ١٩٦٦، يومها ظللتُ لعشر ساعات واقفاً على قدميّ في ساحة الثورةPlaza De La Revolucion في هافانا وشاهدتُ كاسترو «يتحدث» إلى الشعب الكوبي في الذكرى السنوية لهجومه على مونكادا Moncada. وبينما كانت الساعاتُ تمر وهو لا يكف عن التوجه إلى الجمهور الحاشد متودداً ومتوعداً وآمراً، لم أستطع مجرد أن أتبين ماذا كان هذا الذي كُنت أشاهده. فقد أخذت الاندفاعات العاتية للموجات الانفعالية تسري متنقلة من الزعيم القائد إلى كتل الجماهير وبالعكس على نحو لا هوادة فيه. وبعد أيام من ذلك أخبرني طبيب متخصص في الطب العقلي وهو كوبي تلقى تدريبه في أمريكا ويُدعى دكتور كلوديو بالاسيوس Claudio Palacios ـ أخبرني عما اعتقد أنه كان يحدث، فقال: «ثمة في الساحة نوعٌ من الحوار الدائر بينه وبين الشعب. با لله، إن جمهور الناس لا ينطقون، لكنهم من حين إلى حين يضجون بالتصفيق. إنهم يجدون أنه يقول ما يدور في فكرهم تماماً». وعلى فرض أن هذا الأمر لم يكن عندي غريباً بدرجة كافية، فإن ما بدا لي أكثر بعثاً للضيق أيضاً هو أنه في الوقت الذي بدا فيه كلُ من عرفتهم من رجال ونساء آخرين في هيام عبودي بكاسترو، لم أكن أنا كذلك. ففي الساعات الأولى التي أمضيتُها معه لم أشعر نحوه بحب أو بكراهية، إلا أنه بعث في نفسي الحيرة بشدة لافتة للانتباه. ومن ثَمّ رحتُ أبحث عن الطبيعة الحقة لصلته بهذا الجمهور الواسع العريض وعن هيمنته عليه.

وفي غضون ذلك، منذ سنوات الستينات تلك وحتى هذه اللحظة راح مجالُ بحثي واستقصائي يتسع بشكل كبير، ودائماً ما كان يتمحور حول هذه النوعيات من الزعماء والقادة: ديكتاتوريو العالم الثالث، والزعماء الجُدد، والثوريون «الماركسيون» ورجال حرب العصابات من سكان المناطق الريفية، والزعامات الكاريزمية التي على شاكلة: خوان بيرون وسلفادور اللندي وعمر توريخوس وآية الله الخميني ودانيل أورتيجا وسيزار مونتس ومانويل نورييجا... ولقد بدأتُ أدرك بسرعة كافية ما قد تأتي لماكس ڤيبر أن يقوله لي من أن هذه النوعيات من الزعماء يبقون مجهولين لأنهم في حاجة إلى أن يظلوا مجهولين. إن ما يشكل الأساس في التوجيه الانفعالي أو الوجداني لدى الزعامة الكاريزمية إنما هو المسافة، عدم القابلية لأن تُعرف، الإبهام والنأي.

ومن ثم فإنه منذ أواخر السبعينات فصاعدا أخذت تستحوذ عليّ فكرة كتابة سيرة عن كاسترو لها طابع الدقة والتحديد ـ الدقة سياسيا، والدقة تاريخيا، ولكن قبل كل

ذلك الدقة سيكولوجياً. وقد تأتى لي ـ من خلال عملي في منطقة أمريكا اللاتينية منذ عام ١٩٦٤ وما تلاه من أعوام ـ معرفةُ الكثيرين ممن كانوا على معرفة بكاسترو في مختلف مراحله، وغالباً ما كانت معرفه حميمة وثيقة؛ فرحتُ استمع عنه إلى حكايات تفوق حدود العقل والتصديق، كان لمعظمها ميزة الصدق والحقيقة. وكلما واصلتُ التطواف حول العالم كلما غدوتُ أعمق انطباعاً وأكثر اندهاشا مما كان عليه نفوذ الرجل من اتساع. وبالتدريج نما في داخلي إدراك بأن كل ما كانت الولايات المتحدة تعانيه بالفعل من أزمات خطيرة في السياسة الخارجية في كافة الأرجاء، كان من الممكن أن تقع فيها على أصابع فيدل كاسترو (كان من الممكن في واحدة من هذه الأزمات على الأقل ـ كأزمة الصواريخ ـ أن يكون موضع التعقيد حاسما ومصيرياً)

ولقد استهللتُ الكتاب بوضع الأسئلة التي أملاها عليَّ في الواقع حضورُه في العالم: فما الذي كان يحدث هناك في الساحة على وجه الدقة؟ وماذا كانت طبيعة ذلك السلطان الطاغي الذي أحكم كاسترو نسج خيوطه حول «جماهيره»؟ وكيف أمكن لرجل قادم من جزيرة صغيرة لا وزن لها ولا طول أن نواتيه القدرة على أن يحقق هذا القدر الهائل من النفوذ والقوة بحيث تسنى له أن يتحدى ـ وعن اقتدار ـ القوة الأمريكية المتفوقة ذاتها؟

ولقد شرعتُ في هذه المغامرة الذهنية والسياسية ذات الطابع الأوديسي المثير إلى داخل روح ونفس هذا القائد الغامض المجهول، وانتهجت في ذلك نهجاً صحفياً منظماً. فما الذي وقع لي اكتشافُه؟ كان أول مااكتشفته هو أن ما يدور حوله من المسائل الأكثر شعبية بل والأكثر استحواذا على الأذهان بشكل مضجر في إملاله إنما هي برمتها تفريباً لا صله لها به. فمتى أصبح شيوعياً؟ ومتى كف عن أن يكون ديمقراطياً؟ وهل الذي دفعه إلى أحضان الماركسية هو الولايات المتحده ودوايت أيزنهاور؟ وهل كان الروس يخطبون وُده قبل قيام الثورة؟ لقد وجدتُ أن معظم «الحقائق» التي تدور حوله وتلقى قبولاً كانت مجانبةً للصواب إما كلها أو جلها. ذلك أن فيدل كاسترو الذي نلقاه في الواقع شخصاً «جماهيرياً» بشكل لافت للنظر بعلنه ظاهر الحال، هو في الحقيقة شخص كتوم متحفظ على نحو صادر عن الوساوس، وهو عبقرية تكتيكية واستراتيجيه بعير مبدأ إنساني على الإطلاق، يعرف بمكر ودهاء كيف ينسج الأساطير المفيدة ويغزل الأكاذيب التاريخية ـ ثم إنه هو نفسه، مع مرور الزمن، يصدق بها. فهو يبقى بالنسبه للولايات المتحده بل وبالنسبة لشعبه أيضا ـ وبدرجة تدعو إلى الاستغراب والدهشة ـ مجهولا اليوم بنفس القدر الذي كان به

مجهولاً في كوبا عام ١٩٥٩ التي شرع في العمل على تغييرها بإشارة من يده الماكيافيلية «القديرة» وعلى نحو لم يُر في أمريكا اللاتينية من قبلُ قط - أو حتى في معظم أرجاء العالم في هذا الصدد.

ومنذ عام ١٩٥٩ قليل هم أولئك الكوبيون الذين توقفوا ليسألوا من هو «فيدل» حقاً؟ (أو إنهم اجترأوا بهذا الشكل على التوقف) وذلك بسبب قبضته المسيطرة عليهم. فلقد قبلوا بالبُعد، وذلك - في الأغلب الأعم - حتى يعفوا أنفسهم من اختراق السلطان وتبديد النفوذ الذي يعطي لحياتهم الشكل والمعنى؛ لقد قبلوا - أساسا - المسافة الفاصلة وما يصاحبها من سيطرة وتحكم. بيد أن تلكم الأسئلة قد ثوت في داخلهم أيضاً. فمثلاً، كنت في ذات يوم من عام ١٩٨٥ مصاحبا لنفر من المسؤولين الديبلوماسيين الكوبيين في واشنطن على طعام الغداء مؤملا في أن أفلح في إقناعهم بمساعدتي على الرجوع إلى كوبا ثانية. وقد أصر الديبلوماسيون بشدة في البداية على أنه في الوقت الذي كان فيه كتاب يتناول الجانب الشخصي من كاسترو أمرا يروق للولايات المتحدة، «فإنه ما من أحد في كوبا - بطبيعة الحال - له دراية المتخصص بأمور الحياة الشخصية لفيدل، ولا بحياته الخاصة. . . ». لكنهم في نهاية الغداء راحوا يتوسلون إليَّ وعيونُهم تلتمع وأصواتُهم تتهدج بالانفعال، متسائلين: «أعرف الزواج قط؟ وهل لديه أبناء؟ وأين يسكن؟ أقلت إن والده قد قدم من جاليشيا Galicia؟». في تلك اللحظة سرت رعدةٌ في أوصالي، فلقد كان كاسترو هو ذلك الرجل الذي سيطر عل كل لحظة يقظى في حياتهم ومع ذلك فإنهم لم نكن لهم عنه وعمن كان هو في الواقع أدنى فكرة؟

وبفعل من الدفع والحث الذي أحدثته مشاهد من هذا القبيل، قمتُ أنا ومجموعتي في العمل بحمل عصا الترحال نحو كل حدب وصوب خامرني إحساسٌ بأنني قد أجد فيه شيئاً ذا أهمية في تحصيل علم عن ذلك الرجل الذي صنعته الأوهام والتعرف إليه. فذهبتُ مرتين إلى والده أنجيل كاسترو في جاليشيا بشمال غرب أسبانيا، حيث يُوجد له عمٌ وأقاربُ آخرون، بل ويُوجد فيها منزل انجيل الحجري الذي يُحرك فيك الشفقة لما عليه من فقر، وهو البيت الذي شهد طفولة انجيل البائسة المُعدمة وصباه. كما أن بوجوتا وميامي ونيويورك ولوس أنجلوس وهيوستُن ولكسينجتون ودايتونا بيتش وأوستن وقلعة لاودروالي وسنانفورد وسان فرانسيسكو ومدريد ووارسو وتيجوسيجالبا ومانجوا وباريس وميونخ وڤانكوڤر ونيودلهي والقاهرة ونيقوسيا وكينجستون ولندن وكالي وكاراكاس وسانت دومينجو ومانيللا وسان حوان

ينما سيتي وسان سيلڤادور وسان خوسيه ومكسيكو سيتي وموسكـو وهلسنكي ـ جميع
ذه العواصم أصبحت منافذ للبحث والتقصي.

وقد جرت العادة على أنه من أجل الإطلاع على ما حدث في مراكز القـوة في
لعـالم فإننـا نستطيـع التعويـل على التاريـخ المـألـوف وعلى المؤرخين التقليـديين،
كذلك على الوثائق المحفوظة بالسجلات وعلى مـذكرات الثقـات من الناس. ولكن
ي الوقت الذي لا يزال فيه العـالم الأرحب والأكثر تقليـدية ينعم بـالكتابـات الكبرى
مؤرخينا، يبقى ثمة في القرن العشرين أيضاً ـ بل ويسيطر وبهيمن ـ عالمٌ جديد «شاذٌ
و غيرُ قياسي» من رجـال حرب العصـابات الكـامنين المستترين، ومن رجـال مليشيا
من لا أسماء لهم، ومن دول غُفل من الوثائق، فيهـا تكمن السجلات التـاريخية في
دمغـة وأيد لمستبـدين غير شـرعيين. ولعمـري فـإن القـطاع من العـالم الـذي قمت
تغطيته منذ عام ١٩٦٤ إنما هو ـ وبـاضطراد ـ هـذا العالم الشـاذ غير القيـاسي. فلقد
عاينتُ بلاداً كنا نراهـا في قطيعـة دائمة لا عن المؤرخين فحسب بـل وعن الصحفيين
ايضـاً. ومن خلال هـذا كله انتهيْت إلى ادراك أن علينا اصطنـاع طـرائق في البحث
جديدة، هذا إذا كنا لا نعمد ساخرين إلى ترك عشـرات الملايين من النـاس بعمهون
في «عصر المعلومات المبهمـة» رهن محبس ليس لهم معه أي علم أو معـرفة تـأتيهم
من الخارج ودون اعتراف بما هم فيه من عذاب ومعاناة.

ولكن، كيف تـأتى لي ـ اخر الأمـر ـ صياغـة أحكام وتقـريرات «عمـا عساه أن
يكون حقيقيًا؟» فيما يتعلق برجل مثل كاسترو له هذه القـدرة المحكمة على المـراوغة
والخـداع؟ إنني ببساطـة قد تنـاولتُ هذا النـوع من «التـاريـخ» وتعـاملتُ معـه بنفس
الـطريقة التي بهـا يتعين على المرء مبـاشـرة نـوع من الصحـافـه المعقـدة العـويصـة
الغامضة. فبعـد أن قمتُ بجمع سـائر مـا يخصني من وقائـع ومعلومات وتفسيـرات،
قـارنتُ بعنايـة ودقة روايـات التاريـخ واستخـدمت الـذوق الفـطري وأعملتُ حسـاب
الاحتمالات.

وأحياناً ما كنت اشعر بانني قد احـطتُ علماً بـه على خير مـا تكون الإحـاطة.
فكان يتكشف لي «فيدلا» في العديد من قـادة العالم وزعمـائه. فلقـد كان في العـالم
الغربي من أمريكا اللاتينية صديقـا مزامـلاً «للقائـد العزيـز» مانجستـو، سفاح أثيـوبيا
الدموي. كما كان صنـوا لشخصية الأسقف مـاكاريـوس الكارزميـة في قبرص، ذلـك
الذي توازت «حواراته السقراطيه» مع الجماهير وتساوقت إلى حـد بعيد مـع «حوارات
فيدل». وأخيراً فإنه كان قريبـاً ـ قربـاً مخيفاً ـ مـن مـاوتسى تونـج، في اندفـاعه ـ في

الظلام والخفاء ـ نحو الإعدامات بل وفي نمط من ثورة ثقافية كوبية على النمط الماوي. إلا أنه ـ قبل كل شيء ـ كان ـ على طول الخط ـ ذلك الموجود السياسي القديم/ الحديث، إنه القائدُ الذي يُمسك بمقاليد الأمور في بلد وهو يعمل على تغييره بأن يجعل من نفسه ومن الشعب شيئاً واحداً ثم القيام بوضع كل شخص اخر موضع المنبوذ الأجنبي الذي يُمكن سحقه ومحقه. لقد كان دائماً القوة المحركة الموجودة ليس للشيوعية فحسب ـ وليس للديمقراطية بالتأكيد ـ بل وللعدوان البشري التقليدي لامرىء وُلد بالطبيعة مستبداً بالبشر.

وقد تحقق لي ـ آخر الأمر ـ أن أفكاري الأولى عنه قد كانت في محلها. فإن الأسئلة التي كان العالم قد طرحها ـ وبإلحاح شديد ـ منذ عام ١٩٥٩ وبتكرار المستظهر غير الفاهم (كالسؤال عن «متى أصبح شيوعياً»؟ و «هل ساهمت الولايات المتحدة في دفعه إلى أحضان الشيوعية؟») إنما كانت هي الأسئلة التي لا تعلق لها بالموضوع تماماً. فإن كل شيء وقع في ظن الناس أنهم قد علموه عن فيدل، ما كانوا به على علم. وكل الذي لم يظفروا عنه بعلم إنما كان هو المهم. ولذا فإني أعتقد أن ذلك هو السبب الذي من أجله أرادت المخابرات الكوبية ـ بل وحاولت ـ زهاء عامين أن تسرق النسخة الخطية للكتاب أو أن «تحصل» عليها.

ولعل ذلك يفسر لماذا قال كاسترو لأحد الصحفيين كان قد التقى به في عام ١٩٨٦: «كلا، أبداً لن أتحدث عن حياتي الشخصية، ولكن قريباً جداً سيُعرفُ كلُ شيء، دون أن يكون لي ضلع في ذلك».

إنني أرغب في جعل كل شيء معروفاً، ومن أجل هذا وضعتُ الكتاب. وأتمنى أن يقول الناسُ ـ بعد فراغهم من قراءة الكتاب ـ «طبعاً، ولكن...» ثم يقولون: ـ «أوه.. يا إلهي».

جورجي ان جيير

واشنطن ١٩٩٠/٦/٢٧

الجزء الأول: فيدل

الفصل الأول
العام الثلاثون

إن النـاس جميعًا يحلمـون، ولكن ليسوا على نحـو واحـد.
فـأولئك الـذين يحلمون ليـلاً في مغـاور عقـولهم المغبـرة،
يستيقظون في الصباح ليجدوا أن حلمهم كان وهمـاً باطـلاً.
أمـا الـذين يحلمـون نهـاراً فهم أنـاسٌ خـطرون لأنهم قـد
يُباشرون أحلامهم بأعين مفتوحة.
ـ ت. إ. لورانس

إلى معظم أنحاء العالم

كان فيدل كاسترو، في الأول من يناير عـام ١٩٨٩ ـ وهو يـوم الذكـرى الثلاثين للثـورة ـ لا يزال بـطل القرن العشـرين الثوري المحـرك للوجدان. إذ كـان قـد أنـزل بفولجنشيو باتيستا Fulgencio Batista ـ ذلـك الديكتـاتور العتيق المرهوب الجـانب ـ ضربةً قـاضيةً، ومـرغ في الوحـل الولايـات المتحدة الأمـريكية على مـا هي عليه من عظمة وقوة و«حرر» مـواطنيه الكـوبيين. كما كـان قد دفـع بمئات الآلاف من خـاصة ضباطه وجنوده ونحواً من عشرين ألفاً من رجال حرب العصابات بحملون اثنتي عشرة جنسية، تلقى جميعُهم ندريباً فائق العناية على يده، ليجتاحـوا العالم من أقصـاه إلى أقصاه بشكل يُذكر بنابوليون، وليقوضوا دعائم حكومات من الداخل وليُنشئوا شرعيات جديدة يفرضونها من الخارج على نحو لم يُؤثر عن أي قوة في التاريخ. فمن مكسيكو إلى موسكو إلى مانجوا، ومن جامعة مينيسوتا إلى جـامعة مـاينز ومينسـك، ظل فيـدل كاسترو الثوري الوحيد المعاصر ذا الأهمية المركزية.

وبحلول الذكرى السنوية الثـلاثين للثورة كـانت لكاسـترو في أرجاء العـالم من القوات ما يفوق في عدده ما كان لسائر الزعماء الشيـوعيين الأخرين مجنمعين. فلقـد كـان يملك أكبر قـوة عسكريـة في أمريكـا اللاتينيـة، حتى لقد كـانت أكبر من القـوة العسكـرية التي للبـرازيل. ويـرجع الفضـل إلى ضخامـة معدلات إمـدادات السـلاح

والدعم السوفيتي أن بلغ تعداد الجيش الكوبي ١٤٥,٠٠٠ رجل، إلا أن هذه الأعداد الضخمة إنما كانت مدعومة - من قبل ذلك - بنحو ١١٠,٠٠٠ من الاحتياطي المستعدين، وبأكثر من مليون رجل وامرأة من قوات الميليشيات المحلية. إن كوبا - التي تربو قليلاً عن العشرة ملايين نسمة - كانت تقريباً أكبر بلد في العالم من حيث ما يملكه من قوة عسكرية بالخارج. فهناك ٥٧,٠٠٠ من القوات في أنجولا، ومن ٥,٠٠٠ إلى ٧,٠٠٠ في أثيوبيا، وهناك بضع مئات وبضعة الاف من القوات فيما بين نيكاراجوا وموازامبيق وغينيا الإستوائية وتانزانيا وغينيا بيساو وكوريا الشماليه وساوتومي والجزائر وأوغندا ولاوس وأفغانستان وسيراليون.

وما الأعداد إلا رسمٌ تصويري لشكل القوة الفريدة التليدة التي لهذا الرجل من رجال العصر الحديث. ومن الضروري - كيما نفهم عملية انتشار الفوات - أن نلقي نظرة على ما حققته حربُ العصابات من نتائج على مستوى العالم في القرن العشرين. فعلى الرغم من أن جذور «الحرب الصغيرة» الخاصة برجال العصابات واستعمالها تضرب بعيداً في التاريخ، إلا أن كاسترو كان هو الذي ابتدع كل واحد ن تكتيكات حرب العصابات أو أكمله أو وسع استخداماته، وكذلك كل أسلوب من أساليب الإرهاب التي تم التوسع في الأخذ بها بشكل استثنائي وعلى نحو مثير من قِبل الإيرانيين ورجال حرب العصابات في أمريكا الوسطى. فما كان من الممكن أن تقوم لرجال الساندانستا في نيكاراجوا قائمةٌ بغير توجيه ودعم فيدل كاسترو، ولا كان غزو لجرينادا، ولا كانت حركات لحرب العصابات من السلفادور إلى أوروجواي وشيلي، ولما كان ثمة تدمير للنظام الديمقراطي في كوني Cone الجنوبية، ولما كانت أنظمةُ الحكم الماركسية في أنجولا أو في موزامبيق أو في أثيوبيا. ولما كان هناك في منطقة جنوب أفريقيا توازنٌ جديد للقوة ذو طابع سياسي وأيديولوجي واستراتيجي، وما كانت هناك «دولةُ مخدرات» تعلو على سلطة الدولة، يذود عنها رجال حرب العصابات اليساريون الذين تلقوا تدريبهم على يده، لينتشروا كالوباء وكأنهم بقعة الحبر في اختبار روشاخ فينشرون الخراب والدمار في ربوع أمريكا اللاتينية، ويُنزلون الأذى بجيوشها وحدودها. ولولاه لما كان هناك - وللمرة الأولى - امتداد وانتشار لتأثير أمريكا اللاتينية في داخل الولايات المتحدة، ولما كانت هناك - بالدرجة الأولى والثانية - دولةٌ ذات توجهات ماركسية لينينية في النصف الغربي من الكرة الأرضية. وباختصار، إن كاسترو قد ابتكر في الواقع كل تكتيك القرن العشرين الذي أمكن به الآن للضعيف قتال القوي. ومنذ عام ١٩٥٩ فصاعداً، ما

كان للولايات المتحدة من أزمة حاسمة في السياسة الخارجية في أي مكان إلّا وكان لأصابع كاسترو المحركة وجود فيها.

بل إنه فد أتى بما هو أكثر من ذلك. لقد غيَّر وجه الشرعبة؛ فهو - مثلاً - قد خطا الخطوة الأولى نحو «منطق جديد» خوّل به لغير الرسميين من الإيرانيين أو أجاز لهم «محاولة» اختطاف رهائن أمريكيين من طهران إلى لبنان. لقد كان صانعاً للقانون، وطبيب العصر المتخصص في التحطيم وكاهنه الفاعل للانهيار. إذ عندما تم حساب كل شيء، لزم أن يسجل في وثائق التاريخ أنه كان العامل الرئيسي المسؤول عن سقوط نيكيتا خروشوف، لما فعله فى أزمة الصواريخ من دفع للعالم نحو شفير حرب نووية، وأنه كان المسؤول عن قتل جون ف. كنيدي، والمسؤول عن حركة الهجرة الضخمة المُهدِّدة لحدود تكساس والقادمة من أمريكا الوسطى، والمسؤول عن تجليل أمريكا بالخزي والعار فى خليج الخنازبر (وهو ما قاد أمريكا مباشرة إلى مستنقع ڤيتنام)؛ كما أنه مسؤول أيضا عن التهديد بفضيحة إيران - جتIran gate ومن ثم العودة إلى الانحياز إلى الخليج الإيراني. يا له من شيطان، إنه قام ذات مرة بالإطاحة بحكومة كانت قائمة في زنزبار.

ولكن مع كل هذه الإنجازات التاريخية غير العادية ذات الطابع الجيو - سياسي كان متألم النفس ثائراً بينما كان يقف فوق المنصة العالية المشرفة على ساحة الثورة في هاڤانا في ذلك اليوم الأول من يناير عام ١٩٨٩. فقد خامره شعورٌ بأن انتصاراته تفلت منه أو تنسل من يده. إذ علم - هذا على فرض أن العالم بأسره لم يعلم - أنه بالرغم من إنجازاته الفذة الشجاعة الخارقة للمألوف كان لديه ما يدعوه إلى التفكر والقلق، وأن يخطط للقادم من الخطوات بعناية وحذر لم يعهد من نفسه الحاجة إلى إعمالها هكذا من قبل.

ففي ذلك النهار المتلألىء على نحو مثير من أيام شتاء كوبا، ومن موضعه العالي فوق رؤوس الجماهير، كان يمكنه أن يرى مشارف المباني السيريالية المقفرة المتجهمة البيضاء، وفي زهو وخيلاء تنتشر صور لبواسل وحُكماء من أمثال شي جيڤارا ولينين وإنجلز، وكأنهم حراس اسبارطيون في «كوبا الجديدة». وكان الميدان لا تزال عليه سيماء الفخامة والنظافة والثورية على نحو ملائم. ولكن في الأفق البعيد، كانت هاڤانا - وهي التي كانت ذات يوم المدينة الاستعمارية الإسبانية المفعمة نشاطاً وحيويه - تغوص - بمعنى الكلمة - في ما عمها من بلى وخراب.

إن إفريز الطريق الخاص الذي كان يحف بالكاريبي كغادة ممدة في تثنٍ

والتواء، قد كان ذات يوم بهجة للسائرين بمحاذاته ـ قد غدا الآن مقفراً نال التحطيمْ منه والتصدع. لقد كانت هاڤانا ـ يوماً ما ـ بستان الكاريبي المزدهر بورود سماوية رائعة في غرابتها ـ غدت اليوم هاڤانا المتقشفة التي تنتظر في صفوف من أجل الطعام، وفي المطاعم تنتظر من أجل مقادير صغيرة من اللبن، وحصص من اللحم غير كافية، وأحذية لا تفي بالغرض. وفي كوبا فيدل «الاشتراكية» المتحدية، فإن من كان من حقه أن يتسلم علاوة إضافية قميص نوم من كانت عروساً، وكذلك أيضاً من كانت امرأةً حاملاً، ولك أن تهتز بضحك ساخر غير وفور أن تلاحظ أنه قد كانت هاتان هم الحالتان اللتان فيهما ـ لا غير ـ تُعوز المرأة علاوةً كهذه.

وبعد الثلاثين عاماً لم يكن هناك في أي مكان كراس للمراحيض، كما أن فندق هاڤانا الحرة Havana Libre Hotel ـ وهو هيلتون سابقاً ـ كان لا يزال يستخدم نفس الفوط والمناشف المستهلكة التي كانت مستخدمة منذ عام ١٩٥٩ ـ فإن الحرفين HH (هيلتون هوتل) المشغوليين أو المنقوشين على أطراف الفوط فضحت أمرها ودلت عليها. وإن المنفيين الكوبيين الذين أُذِن لهم بالعودة إلى كوبا خلال السبعينات وأوائل الثمانينات وقد دفعت بهم إلى العودة رغبةٌ شديدة من أجل إحياء ذكرياتهم وبعثها من جديد، لكنهم ملئوا رعباً وقرفاً مما وجدوه من تغيرات وتبدلات لا غير. فمما هالهم أنهم وجدوا ـ خلافاً لكل توقع ـ أن لا شيء تقريباً قد تغير أو تعدل. فكل شيء كما كان، وقد ظل صحفي كوبي شاب من المنفيين في إسبانيا ـ ظل يكرر لنفسه عندما عاد إلى البلاد، قائلاً: «إن كل شيء على ما هو عليه، إن كل شيء على ما كان عليه تماماً». هذا الصحفي هو إميليو جارسيا ماراس، وقد كانت لديه صور فوتوغرافية عن أيام طفولته، وقد صُعق ذات مرة لأن يجد للمرة الثانية نفس الصور والمشاهد هي هي. «إن النوافذ الزجاجية التي هناك هي هي وكذلك الحمامات. وكانت الثلاجات هي هي من عصر همفري بوجارت. لقد كان شيئاً أشبه بحلم مزعج رديء، لقد كنا كمن نزل بمدينة مسحورة. لقد كان كل شيء على حاله كما كان. ربما الأفضل لو أنني لم أكن قد كبرت أيضاً».

غير أنه في ساحة الثورة في ذلك اليوم من عام ١٩٨٩، انزاحت مشاكل كاسترو عن منكبيه العريضين. فها هو مرة أخرى وقد تنفس بعمق أنفاس القوة والسلطان اللذين خلعهما عليه الشعبُ الكوبي. ها هو مرة أخرى وقد صوب نظراته إلى أسفل فوق ما يربو على المائتي ألف من الرؤوس الصغيرة وهي تضطرب وتموج ثم تلقى السمع في إنصات مصغية. أجل فإن «جماهير شعبه» المحبوب قد كانت

هناك لا تزال. إنهم لم يهجروه أو يتحولوا عنه، وذلك لسبب جد بسيط هو أنهم ما كانوا للتحول مستطيعين. لقد كانت ساحةُ الثورة - بحق - هي موضع القداسة والإجلال من عالم فيدل الظاهر والباطن. ففي الساحة، وفي جو التجاوب مع «المؤمن الأمين»، صادف الحب الحقيقي الوحيد الذي عرفه. لقد كانت هي المرآة التي تعكس رغباته وزعامته. وفي ساحة الثورة كان قد خط في رمال عصره لشعبه أشد المقاييس السياسية والمعنوية شذوذاً ثم أرسل بجماهيره إلى الخارج ليضربوا في الأرض باسمه غزاةً فاتحين.

وقد استهل الخطاب.

لقد كان خطاباً استثنائياً ذا طابع خاص، فهو - على النحو الذي رتبه به - يضع العلامات المميزة لسنوات عقوده الثلاثة المحددة في مجال «التحول والتغيير». وهو - متى نظرت إليه من أسفل - وجدته لا يزال فارع القامة كنخلة تمر متين البنيان كشجر السنديان، لقد كان لا يزال قادراً - بشكل غامض - على الإمساك بزمام الجماهير في يديه اللتين هما من الرقة بما يدعو إلى الغرابة والعجب. كما كان قادراً على تشكيل الجماهير وقولبتها وفق هواه وإرادته. وكما هي الحال دائماً راح يُلقي خطابه العالي النبرة بصوت لم يكن يتغير إيقاعه إلا نادراً. وقد راحت يُمناه ترسم في الهواء دوائر كبيرة، ثم تهوي داقةً على المنصة، وقد أخذت تصدر عن اصبعه الثانية إشارات التأكيد والتوكيد، ليدفع بكلمانه المرعدة دفعاً إلى عقول المنتظرين المتلقين، وكان - من حين لآخر - يبدو متودداً، بل ومداعباً مازحاً، وحتى مغازلاً معابثاً للجماهير، فقد احبوا منه ذلك، وأحب هو أيضاً ذلك، وذلك لأن الجماهير لم تُمده فقط بالرجع الإنساني الذي يؤكد على الإرادة القوية فيه، بل لقد كانوا كل ما يملك من اتصال إنساني حقيقي.

لقد كان جزءاً من نفكيره العبقري أنه عندما كان بصدد التخطيط لتلك الصورة الفذة للقوة، كان قادراً - في ذات الوقت - على جعل الشعب مشفقاً عليه خائفاً من أجله، وكان من شأن هده الصورة المزدوجة من القوه والقابلية للتعرض لخطر السقوط أن قيدت إليه الجمهور على نحو جهنمي. فعلى الرغم من أنه لم يكن قد جاوز من العمر الثانية والستين، إلا أن جمهور الناس الذين كانوا في ساحة الميدان ذلك اليوم الاحتفالي الجديد من عام ١٩٨٩، قد اسطاعوا ان يروا أنه كان قد شرع في الهرم سريعاً وعلى نحو مباغت، فتولاهم القلق عليه، وأخبروا الزوار أنه يجب عليه الا يبرح كوبا «لأنهم» في الخارج (وهو التعبير الذي كان قد أصبح دالاً تقريباً على أي

فـرد من «خارج البـلاد» قد يقتلونـه. لقد شـاهدوا أن لحيتـه كانت قـد اكتست لونـاً رمادياً، ثم ها هي ذي وقد ابيضت، وكأن «تحولاً» مباغتاً قد شرع ـ على نحـو يحرك دواعي الخوف ـ في التغلب على رجل كوبا القوي.

ولكن ثمـة قلقاً رهيباً على أمور صحتـه كان قـد بدأ ينمـو بـداخله، وإن كـان الشعب الكـوبي لا يعلم عن ذلك شيئاً ولا يسمع العـالم عنه إلا شـائعات تـتردد عن أزمـة قلبية أو سـرطان في الـرئة أو في المستقيم. فقـد أسرت طبيبـة أمـراض النسـاء الخاصة بزوجته السابقة ميرتا Mirta ـ أسرت إلى خاصة أصدقائها في مدريد بأن ميرتا كانت قد أسرت لها بأن فيدل كانت قد انتابته أزمةٌ قلبية. وأن طبيبـاً مصريـاً اخصائيـاً في سرطان المعدة قد أرسل فجأة إلى هافانـا، وقد «أكـد» أطباء وكـالة الاستخبـارات الامريكية CIA بشخوصهم المستترة المحجـوبة أنـه قد أصيب بسـرطان الـرئة، وهـو الأمر الذي اكتسب درجةً من إمكانية التصديق والانتشار عندما أقلع فجأة عن تـدخين سيجاره المفضل من نوع روميو وجولييت، والذي كان قد قال عنه متفكهاً «إنه سيكون آخر ما أسهم بـه في الثورة». بـل إن السوفييت أيضـاً قد سـربـوا أخبـاراً للصحـافـة الأمـريكية ذات طـابع منـذر بالخطر عن أنهم كانـوا يـرغبـون في إدارة الحـديث عن «الخلافة» القادمة بعد كاسترو.

وفي الـذكرى السنويـة الثـلاثين لاحظ محللو وكـالـة المخـابـرات الأمـريكيـة المستورة أسماؤهم أن خطابه كان ينطوي على المـزيد من الغضب بلغ حـد الانفعال الجنوني العارم. فبدلاً من التودد إلى جماهير الشعب المحتشـدة هناك في العـراء في شمس الميدان اللاهبة، فإنه كان «ينحو بالـلائمة على الشعب» أكثـر فأكثـر فعلاً. لم يعد المفسر الصبور للعالم أمـام شعب طيب مستقل قـادر على الاستيعاب، لقـد كان بالأحرى قادماً ليُلقي عليهم محـاضرة، وليُعنفهم ويـوبخهم، كما لـو كانـوا هم الذين خذلوه أو خانوه. كان قد أصبح زعيماً مهموماً بسفر الرؤيا، متفكراً في شبابه الـداوي الآفل، ومشغولاً ـ بشكل مرضي ـ بأن الجيل القادم من الكوبيين قد يتصدى بالمقاومة لأوامره من أجل تعبئة أخيرة ليوم حساب فاصل.

ثم، في تلك اللحظة الحاسمـة من يوم الـذكرى السنـوية، لاح في الأفق شيء على غير المألوف بل هو نذير سوء. فمنذ ميلاد الثـورة قبل ثـلاثين عامـاً، كان دائمـاً يُنهي خطابه بألفاظ فخمة يأخذها عن «رسـول» الخلاص الكـوبي جوزيـا مارتي Jose Marti من عمله الأدبي «الـوطن أو الردى» Patria O Muerte. ولكن في ذلك اليوم، تـوقف أولاً ـ على ما لـه من قـدرة هـائلة على التفنيـد والـدحض ـ لإحـداث التـأثيـر

ـدارمي، ثم مسح العـرق عن وجهـه المتقلب المتغضن وعن لحيتـه المستـرسلة ثم جال بصره للحظة عبر ساحة الميـدان، ثم ـ وفي نبرة صـوت مغايـرة ـ صاح هـاتفاً: الماركسية ـ اللينينية أو الموت».

ما الذي كان يرمي إليه؟ وللحظة نطقت وجوه الكـوبيين بالحيـرة والارتباك، ثم ضت الحيـرة إلى حال سبيلهـا. وكما هي الحـال دائماً تقبلت الجمـاهيـر «منـطق» بدل. لقد كان ـ في الواقع ـ منطقاً شديد البساطـة. فقد كـانت لعبةُ كـاسترو الأثيـرة ى نفسه على مدى الثلاثين عاماً أن يعابث العالم من خلال السؤال عمـا إذا كان قـد سار «شيوعياً» ومتى كان ذلك. لقد كـان شيوعيـاً أول الأمر، ثم عـدل عن ذلك، ثم رتد شيوعياً مرة أخرى. وفي حين كان السوفييت قد شرعوا في عمـل مراجعـة نقديـة جذرية وعميقـة لاتجاهم الشيـوعي، كان كـاسترو ـ في هـذا التوقيت بعينـه ـ يُعلن ـ ساخراً، وإن كان جاداً أيضاً ـ أن هافانا ڤاتيكان جديدة للعقيـدة الماركسيـة القويمـة، قصياً بذلك عن عمد «سادته» الروس إلى هامش أيديولـوجي غائم يقـع في منتصف لطريق بين الديمقراطية الاشتراكية والحزب الجمهوري.

ولكن في تلك الأمسية ذاتها كانت هناك علاماتٌ وامارات أو نُذُر لحقيقة مغايرة ِاحت تتفجر وتسفر عن نفسها من وراء كلماته مُهدِّدةً منـوعدةً. وقـد اتبع التليفـزيون لكوبي صيحة كاسترو «الماركسية اللينينية أو الموت» ببرنامج استهله بعرضٍ لشـريط يديو أمريكي بعنوان «أغرب عن أحلامي، وادخل عربتي».

لـم تكن مشكلات كاسترو نابعة من الداخـل فقط، وإنما كـانت تياراتُ التغييـر نطبق عليه تاريخياً من الخارج اتيةً إليـه من مواضـع لم يكن ليتوقعهـا. فهو لم يشعـر نحو الروس بحب قط، لكنه كان يـأمل ـ في شـك ـ في أن يجدهم هنـاك دفاعـاً عن مصالحهم. والسوفييت ـ شأنهم شأن الأمريكيين ـ لم يحتاجوا إلى أن يكونوا «موضـع حب»، وإنمـا أرادوا منه فقط أن يُـوسع من حـدود إمبراطـوريتهم ودائـرة نفـوذهم في أقطار العالم الثالث الذي أحب كاسترو وكره السوفييت، أما الآن فإن المـوجود هنـاك هـو ميخائيـل جـورباتشـوف، إنـه دمتـري العصـور الحـديثـة المـارق، الـذي ينشـر الديمقراطية ويعمل على إقامة الحرية والإصـلاح. إن روسيا الأم الغـامضة والمخيفـة كانت الآن تطرح عنها إهابها القديم سواءً من حيث ما كانت عليه من جنـون العظمـة ومن الحماس الثوري. بل والأكثر من ذلك ان جورباتشوف قد قام بإجراء الانتخابات في الاتحاد السوفييتي لأول مرة منذ أن قام لينين ـ عن حكمة وحصـافة ـ بـإلغائهـا في عام ١٩١٧. وكان من المفتـرض أن «الجماهيـر» في تلك البلاد البـاردة التي تعوزهـا

حرارةُ العاطفة جامدة عن الحركة ثابتة على ما هي عليه أبداً؛ ومع ذلك فإنه في قلب مدينة لينينجراد التاريخية خرج «الناس» وسجلوا بخط كبير على أوراق الاقتراع علامة (X) الدالة على رفضهم لزعماء الحزب الشيوعي. فإذا ما كان هذا النوع من العصيان أو التمرد الغادر قد كمن وتوارى كل هذا الوقت داخل الشعب الروسي المتقشف والملفوف في أسماله البالية، أما كان من المستطاع أن يكون ثمة تمرد مثله ثاوياً متوارياً في ضمائر أولئك الكوبيين أيضاً ممن كانوا يهتفون بحياته في ساحة الميدان؟ وإذا كان قد وسع جورباتشوف فعل هذه الأمور التي لا غفران لها - حتى بجعله السؤال الشهير عن شيوعية كاسترو غير ذي موضوع - فما هو الأساس أو المطلق الذي بقي له هو نفسه(جورباتشوف) ليعتمد عليه في التأثير على العالم فيما بعد؟

وعندما حلَّ جورباتشوف - أخيراً - بهافانا في الثالث من ابريل عام ١٩٨٩، بدأ نسيج من الحكايات المثيرة التي تند عن التصديق تتعقد خيوطه ويعسر فكها حول ذلك الربيع الحاسم المنذر بعظائم الأمور. إذ إن جورباتشوف - الربان الجديد الممسك بعجلة العلاقات العامة - أخّر عن عمد طائرته لمدة ساعة عن الاقلاع من ايرلندة ليتزامن موعد وصوله تماماً مع نشرة الأخبار المسائية الامريكية - فقد كان جورباتشوف يُناور الصحافة الامريكية، وهو العمل الذي كان فيدل قد استأثر به لنفسه زمناً طويلاً. إنه (جورباتشوف) الزعامة الروسية الآن، التي تمثلت في رجل أصغر سناً، إنه الزعيم «الجديد» ذو الأفكار «الجديدة». وقد بدا اللقاءُ وُدياً في البداية.

ولكن بينما كان كاسترو - برحابة صدر وبمظهر هادىء مستسلم - يصحب جورباتشوف إلى دُور الخالدين بالريف المحيط بهافانا الخربة، سرعان ما تجمعت شواهد دالة على انشقاقات في الرأي غير مشجعة. ولكن عندما كان الزعيم الروسي وجه خطابه إلى المجلس الوطني الكوبي فإن تصدع الأيديولوجية الهائل وانهيار نوايا لقوة والهيمنة قد بدت واضحةً أمام العالم الذي راح يتابع وقائع الجلسة بأكملها. لقد كانت قاعةُ المجلس غاصةً بالرسميين الكوبيين، غير أنهم كانوا قبلاً يجلسون بصراحة وجدية وفي استقامة واعتدال وهم يصغون إلى قائدهم الأعلى وإلى الزعيم السوفييتي الجديد، أما في هذا العهد الجديد فإنهم جلسوا في تراخ، وراحت أصواتهم تعلو بالسعال، ودار الكلام بين بعضهم البعض. وقد استغرقت الكلمة التي «قدَّمَ» بها كاسترو الزعيمَ الروسي خمسين دقيقة كاملة، فهي قد وازت في الطول - تقريباً - خطابَ جورباتشوف بكامله. وفي كلمة التقديم أذى كاسترو مشاعر جورباتشوف بحدة بما وجهه إليه من انتقادات غير مستحبة ترمه بالنزعة السنالييه،

وهي أكثر المآخذ في العالم إيلاماً بالنسبة لهذا الزعيم الروسي.

وعندما وقف جورباتشوف أمام المجلس، أثنى أولاً على كاسترو واصفاً إياه بأنه «أسطورةٌ حية». إلا أن «الأساطير الحية» عادةً ما تنتهي إلى أن تصبح ـ على نحو لا يخلو من خطورة ـ خرافاتٍ ميتة. ومن بعد ذلك تحدث جورباتشوف معارضاً لأي مزيد من الدعم أو العون لمنظمات حرب العصابات التي على طراز كاسترو، وهنا طفح كيلُ كاسترو واستشاط غضباً. لقد كان الروس الان يتهددون دم الحياة فيه في الصميم. لكن جورباتشوف واصل في ثبات واندفاع مُعرجا على «إنهاء أو إيقاف المساعدات العسكرية لكل الفرقاء في أمريكا الوسطى» وكان السوفييت ـ على صعيد أعمق ـ يعملون على تنبيه كوبا إلى أن التعبئة بدون النسبة قد بلغت نهاياتها، وأن الأسلحة النووية قد أدت إلى تغيير طبيعة الحرب إلى درجة وجب معها التخلي عن دعم حروب التحرير، وأن الاتحاد السوفييتي كان يُعاني من حالة «عسر هضم بالغ الحدة».

وعلى الصعيد المباشر، كشف جورباتشوف ـ ولأول مرة ـ أمام الكوبيين عن الإصلاحات بل وحتى عن الانتخابات التي كانت تجري في داخل الجبهة السوفييتية. لقد كان جورباتشوف ـ في الواقع ـ يدفع نهجه في المكاشفة أو الانفتاح إلى عقر دار كاسترو ـ في قلب بلد كاسترو. كما أن جورباتشوف كان ـ على صعيد أعلى ـ يحيط الشعب الكوبي علماً بأن فيدل كاسترو قد قبدهم ـ طيلة ثلاثين عاماً ـ إلى أيديولوجية فاشلة، بل وانه كان عليهم في الوقت الراهن أن يحاكوا الأمريكيين إذا أرادوا عيشاً وبقاءً.

لقد استقل لينين عربة قطار مقفلة عبوراً إلى ألمانيا ليبدأ الثورة الروسية. أما جورباتشوف فقد ركب ـ في صمت ـ عند خروجه من هافانا في السادس من أبريل سيارة مغلقة بإحكام. وقد اشتكى الكوبيون الذين اصطفوا على طول الشوارع من أنهم لم يستطيعوا أن يميزوا السيارة التي كان فيها جورباتشوف. وقد رد كاسترو تفسيراً لذلك بأن السوفييت قد طلبوا سيارة مغلقة لأنهم «كانوا يخشون على جورباتشوف من نزلة برد»، الأمر الذي كان يشبه بعض الشيء القلق على نابليون من أن تصيبه ضربةُ شمس وهو على الطريق إلى موسكو. وعندما وصل جورباتشوف لندن قادماً مباشرة من هافانا كان ـ وعلى مدى ثلاثة أيام ـ ترتسم على محياه ـ ولأول مرة ـ ابتسامة عريضة. فها هنا الآن كان بلداً استطاع هو أن يفهمه ـ بلدا تُجرى فيه الانتخابات، وبه اليات السوق الحره، وفيه مارجريت ناتشر الجديدة بكل حب والتي

حكمت على جورباتشوف بأنه «رجلٌ أستطيع الدخول معه في صفقة».

وأما ما تلى زيارة جورباتشوف من نتائج فقد انهالت على كاسترو الذي وقع في الحصار فجأة ولشهور؛ ففي كل أسبوع يمر يزداد تيار الصعوبات تفاقماً على نحو يُنذر بالسوء. إذ كان قد اعتمد على ألمانيا الشرقية في مجال تدريب جهاز المخابرات، وعلى تشيكوسلوفاكيا في مجال التسليح. وفي خريف عام ١٩٨٩ تصدع بنيان أوروبا الشرقية «الشيوعية» كبيت خادع صُنع من ورق أمام عينيه. فإلى أين يتعين عليه أن يذهب الآن؟

منذ هذه اللحظة فصاعداً ـ أي منذ رحلة جورباتشوف العاشرة ـ وكاسترو على وعي تام بأنه لم يعد له ألبتة موئل أيديولوجي، ومنذ ذلك الربيع الفاصل الحاسم الذي صادف الذكرى السنوية الثلاثين للثورة ـ تردت كوبا في هاوية من الجحيم وإلى درك من وحشية مميتة بحيث ان البلاد لم تشهد لذلك مثيلاً من قبل حتى في أسوأ ما مر بها من أيام. إن ماوتسي تونج ـ الزعيم الثوري الصيني ـ حين اكتشف أن «خلوده الثوري» آخذ في الذبول والأفول، أطلق بعنف الثورة الثقافية المروعة من عقالها، مُدمراً بذلك جيلاً كاملاً من حملة الفكرة. وعندما عاين أدولف هتلر أن الرايخ الثالث الذي أقام بنيانه يفشل وينهار، قذف بآخر زلزال مروع من مخبأه الحصين في برلين. وعندما رأى فيدل كاسترو أن تقدم السن وفشل الشيوعية يُطبقان عليه ويُحدقان به، راح يتحول بلا رحمة ضد أخلص وأطهر ضباط جيشه، مُعملا فيهم القتل والإعدام باسم «الفساد». لكن الحقيقة أن ذلك من أجل تطرقهم للسؤال عن بديل له.

لقد هب عليه خريف ١٩٨٩ ـ ذلك العام الحاسم ـ كربيع عاصف مدمر. ففي السنوات العشر الأخيرة على الأقل كان كاسترو قد اعتمد فيها على حكومات لا خلاق لها تعاقبت على بنما تُهرب إليه التكنولوجيا والمخدرات والأدوية والسلع الاستهلاكية. ففي البداية تلقى العون والمساعدة من جنرال بنما المنتمي إلى حزب الشعب عمر توريخوس؛ ومن بعد موت توريخوس في عام ١٩٨١، كان نورييجا ـ الجنرال الصغير الماهر الوحشي ذو الوجه المليء ببثور الجدري ـ يعضد كاسترو بقوة في مواجهة الولايات المتحدة. وكانا معاً ـ كاسترو ونورييجا ـ تجمعهما الثقة بأن الأمريكان الأنذال Gringos ما كانوا يغزون بنما قط، إذ كانا على يقين من أن الولايات المتحدة قد اكتوت بنار ڤيتنام تماماً وأنها لم تعد الان إلا لاعباً سلبياً على مسرح العالم. ولكن من أجل تأمين نورييجا وحمايته قام كاسترو برسم خطة للحماية مُحكمة بارعة للذود عن نورييجا، تضمنت نصب شراك خداعية ضد الأمريكيين

وإقامة بنية عسكرية تقوم على نظام التبادل والتوازي معاً داخل بنما، وهو ما عُرف بـ «كتائب الكرامة والشرف».

وعلى مدى تاريخ الأنظمة والتهديدات العسكرية «الفذة» المبتكرة فإن هذا التنظيم يبرز بوصفه أحد تنظيمات كاسترو التي أُجيد تصميمها بجمال ومهارة. فلقد جمعت الخطةُ كل ملمح من ملامح التهديد النفسي، عاملةً ـ بالفعل ـ على تحريك الحساسيات المرتبطة بقناة بنما وبالوجود التاريخي الأمريكي في بنما، كما استخدمت دعاة الإصلاح البنميين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة المعارضين لنورييجا. وكان كاسترو في ربيع عام ١٩٨٨ قد بدأ في إرسال مدربين بشأن تدريب كتائب يتم تأليفها من عناصر شديدة الفظاظة والعنف يؤتى بها من سكان الأحياء الفقيرة القذرة، إضافةً إلى عمال المدينة العالة على غيرهم، إلى جانب مجموعة صغيرة نسبياً من اليساريين الدائمين. وكان المدربون الكوبيون مدعومين بعدد لا بأس به من مستشارين من نيكاراجوا، خصوصاً من أولئك الذين كانوا قد قاموا على تدريب «الخلايا المقدسة» التي كانت تُستخدم في فض تجمعات المعارضة في ماناجوا باللكمات والهراوات. وهو دائم الإلتفات أبداً إلى أن وصوله إلى السلطة والحكم إنما كان عن طريق حركة حرب العصابات التي أنشأها في سلسلة جبال مايسترا Maestra منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٥٩، وقد عمل بذكاء شديد على إقناع مانويل نورييجا بأنه حتى لو قام الأمريكيون الأنذال بغزو فعلي، فإن كتائب المقاومة كانت كفيلة بقيادة وتوجيه مئات الآلاف من البنميين إلى الجبال.

لكن في ذلك الخريف من عام ١٩٨٩ كان نورييجا قد بدأ الجنون يذهب به كل مذهب، فمن عجب أنه بعد ذلك ـ أي في العشرين من ديسمبر عام ١٩٨٩ ـ وقعت الواقعة ـ لقد نفذت الولاياتُ المتحدة الغزو فعلاً. وقد علم فيدل بخبر الغزو عندما كانت مجموعات الطائرات الأمريكية المقلعة من نورث كارولينا تندفع في أفواج محومة حول كوبا. وقد ظل كاسترو لدقائق على يقين بأنه كان المقصود بالغزو لذا راح في إجراء يائس يضع الجزيرة برمتها في حالة استعداد قُصوى مفاجئة. إلا أن أسراب الطائرات عبرت غرباً.

وكان الغزو نوعاً جديداً ومبتكراً من الهجوم إنطلق في ظلام الساعة الأولى من الصباح وعلى نحو لم يكن الأمريكيون في السابق من السرعة والبراعة بما يكفي للقيام به، لقد شل الهجومُ ـ في الواقع ـ «كتائب الشرف والكرامة» عن الحركة. وبينما كانت قواتُ الدفاع البنمية التابعة لنورييجا تتبدد وتتلاشى تدريجياً، وبينما راح

نورييجا نفسه يهيم على وجهه في الشوارع والطرقات حيرةً وارتباكاً أربعة أيام وذلك قبل أن يُسلم نفسه آخر الأمر، راحت الكتائب التي دربها كاسترو تقاتل بلا هوادة ولكن في النهاية لم تعد هناك جدوى فاستسلموا هم أيضاً، أما عن «المحررة أو المذبحة» التي كان نورييجا وكاسترو قد خططا لها لتقع بين الطبقات الوسطى والزعماء الديمقراطيين فإنها لم تقع.

لا أحد - في البداية - حبذ التصديق بـ «فكرة المذبحة». ولكن عندما وضعت القواتُ الأمريكية يدها على خمس وستين ألف قطعة سلاح كوبية، لا تزال ملفوفة بإحكام في غلافها الكوبي، أخذ أفراد الطبقة المتوسطة مسألة التهديد بوقوع مذبحة مأخذ الجد آخر الأمر، وفي ذاك الشتاء أخبرني جيلبرتو ارياس Gilberto Arias - رجل المال البنمي والسياسي الرفيع المستوى - قائلا: «لقد كنا نتوقع هذا الأمر، فلقد كان نورييجا دارساً لهتلر كما كان مفتونا بفكرة الإبادة الجماعية، وإنه كان سبيله إلى قتلنا جميعاً». لم يكن نورييجا من حزب كاسترو، لكنه كان مُعجباً بتكتيكات كاسترو وأساليبه، وأضاف ريكاردو آرياس كالدرون Richardo Arias Calderon - نائب الرئيس الجديد لبنما -: «إن نورييجا كان يأخذ عن كوبا اليه الضبط والتحكم ولا يأخذ عنها الأيديولوجية» وكان من الواضح أنه يخطط لحرب عصابات مستمرة في حالة قيام الولايات المتحدة بالغزو. وعندما قام قائد القوات الأمريكية الخاصة ستيف سلاد Steve Slade بـ «تحرير» منزل نورييجا الصيفي - «السري» - وجد على المنضدة المجاورة لسريره كتابين، واحد في تاريخ هانيبال، والآخر - وهو الأمر الذي لم يكن متوقعاً - هو كتاب «الأمير» لنيقولا ماكيافيللي.

وبينما كانت «سيطرة» كاسترو تنهار أنقاضاً على الصعيد السياسي، فإنه كان يخسر أيضاً الدعم المعنوي أو الفكري. ففي كل مكان تراءى فيه كان يلقى انتقادات من المعجبين السابقين به بل وممن كانوا يتملقونه. غير أن ما أقلق كاسترو بعد ذلك، في تلك السنوات وإلى عام ١٩٨٩ إنما كان قضية رجيس دبراي Regis Debray. فقد تذكر كاسترو تماماً كيف أن الشاب الفرنسي، سليل إحدى أسرات الطبقة الراقية ذات الميول الديجولية والطالب النابه بمدرسة المتفوقين - كان قد قدم إلى كوبا عام ١٩٦٥ - وهو العام البالغ الأهمية - وقد جاء بوصفه واحداً من أكبر المعاونين - للب، وقتها كان كاسترو - تنظيمياً وأيديولوجياً - في أوج وضعه لعالمه عن حرب العصابات في مكانه الملائم الصحيح.

في تلك السنوات كان دبراي قد غازل الشيوعية أو لعب معها دوراً، وقد طاف

حول العالم، وتألم من أجل «الثورة» في الوقت الذي كان فيه يرتدي المعاطف الانكليزية القصيرة المصنوعة من نسيج التويد الصوفي الخشن ويرقص في سانت تروبيز St.Tropez. وسرعان ما وقع الاختيار عليه شخصياً ـ فبورك واصطفي ـ ليجلس عند أقدام كاسترو، بينما راح كاسترو في صلف وعنف يلقي على مسامعه الأفكار التي لم تكن تزيد عن كونها مذهب كاسترو الجديد والشعبي في الماركسية. ذلك المذهب الذي وضعه من أجل أمريكا اللاتينية والعالم الثالث مع استبعاد السوفييت. لم تكن أفكاره إلا بحثاً صغيراً هزيلاً في كُتيب عن أعمال حرب العصابات بعنوان «ثورة على الثورة». إلا أنه كان ذا تأثير على العالم هائل. ففي أوج المرحلة الرومانسية والبطولية لدولة حرب العصابات كان الكتابُ بمثابة قانون الإيمان في عقيدة كاسترو الثورية وتجربته، ووثيقة إعلان عن نواياه في فرض صيغة مذهبه على سائر بلدان أمريكا اللاتينية.

ولكن حوالي عام ١٩٨٦ كان دبراي قد عاد إلى باريس ليعمل في خدمة الرئيس الاشتراكي الدمث «الجدير بالاحترام» فرانسوا ميتران، وليكتب ببرود وبأكبر قدر من نكران الجميل أن عهود «حروب التحرير الوطنية» قد أوشكت على الأفول في كل مكان، إذ كتب يقول: «إن القوة تغدو اليوم أقل اعتماداً على المقاييس الشاذة بدنياً ومادياً (من إرهاب وقُوى عسكرية) وأنها أكثر اعتماداً على عوامل تتصل بالقدرة على خزن المعلومات وإدارتها وتوزيعها وابتكارها، ومع ذلك يبقى الاتحاد السوفييتي قوة عظمى بالمعنى التقليدي، هو لا قوة له إلا في إطار القوات التي على الطراز القديم مثل وحدات المدرعات والأساليب التقليدية لنشر القوات». وما كان للفرنسي التافه المشاكس أن يترك الأمر عند هذا الحد. لقد راح يصوغ حكماً عن «أن العالم الثالث يقول وداعاً للسلاح، إنه ينشد الله ويسعى وراء الحاسبات الآلية أكثر من سعيه وراء بنادق الكلاشينكوف. وإني إنما أقول إن العالم الثالث ينشد الله ذلك لأن الثقافات التقليدية تعود فتظهر على السطح ـ فهي تُعد أكثر من الأيديولوجيات ملاءمة لملء الفراغ أو الخواء الناشيء عن الفورة التكنولوجية والاقتصادية. . .». لقد اختنق الكلام في حلق فيدل غضباً وحنقاً.

لقد كان نكران الغرباء للجميل من السوء بما فيه الكفاية، غير أن هذا النكران كان الآن الأسوأ والأقسى، إذ بعد ثلاثين عاماً كان شباب كوبا ـ وهم الزهرة اليانعة في شجرة كاسترو الثورية ـ قد بدأوا يشيحون بوجوههم عنه. فمن الواضح أن طبقة التكنوقراطيين الجُدد كان قد ألم بها الضجر من جراء ما حل بكوبا من عجز ونقص

في الكفاءة، كما أن هذه الطبقة كانت قد استنزفت واستهلكت بفعل عملية تضحية كانت قد أصبحت غارقةً في البيروقراطية. لقد كانت عبارتُهم المفضلة التي يتهامسون بها عن كاسترو هي: «إنه يشبه الشمس؛ فمن على البُعد يُدفيء، لكنه مع القُرب يحرق».

بل لقد كان الأمر أكثر سوءاً مع الشباب الذي نال من التعليم حظاً أقل، وكان كاسترو شخصياً قد شاهد دراسةً فلمية مسجلة على شريط ڤيديو عن الشباب الكوبي، قامت بها الإدارةُ القومية للشرطة التابعة له. وقد كشفت الدراسةُ عن أن ٤٨٪ من الشعب الكوبي الذين دون الخامسة والعشرين كانوا أناساً فاتري الهمة خائبي الأمل، ولقد قدمت الدراسةُ عنهم صورة مفصلة وبدرجات من الصدق متفاوتة. وقد ضمنت الشرطةُ الدراسة صوراً لكوبيين يمارسون الجنسية المثلية، أولئك الذين كان كاسترو دائم المقت لهم والاشمئزاز منهم والتعرض لهم بالاضطهاد (وذلك لأمر واحد هو أنهم كانوا قادرين ـ وبشكل فريد ـ على مقاومة سحر وقوة «فحولته»)، وقد رصدتهم الصور في مجون وفي رقصات ديونيسية داعرة. كما سجلت الدراسةُ عبارات منقولة عن شُبان لم يكونوا يعرفون حتى من كان رئيس كوبا، بالإضافة إلى صور فوتوغرافيه «لأصحاب الشذوذ» من ذوي الشعور المرسلة على الأكتاف والظهور والسراويل الجينز الملتصقة بالجسم أولئك الذين أمعنوا ـ قدر ما استطاعوا ـ في البُعد عما كان يجب أن يكون عليه «الشاب الشيوعي» المهذب القويم المنضبط.

بل لقد غالى هؤلاء الشبان في السخرية من الرموز المقدسة للثورة. فقد أذاعت أغنيةٌ شعبيةٌ كوبية جماعية أهزوجةٌ جذابة خادعة تقول «ذلكم رجلٌ مأفون»، وكان من المفترض أنها عن رونالد ريجان. ولكن بدلاً من ذلك بدأ جمهور الشباب الكوبي يتغنون بها كلما طالعهم على شاشة السينما أو التليفزيون وجه كاسترو العجور الهرم، وقد أقبلوا ـ في نهم شديد ـ على الاستماع إلى الاذاعات التي تبث من الولايات المتحدة، كما أهانوا كاسترو في أشد مشاعره أهمية عندما راحوا يصفون موجة الانطلاق نحو العيش على قارعة الشوارع والطرقات بأنه «اللحاق برجال حرب العصابات» وفي الوقت الذي كان فيه فيدل يتمشى جيئةً وذهاباً في مكتبه ذي السقف العالي بالقصر، متوقفاً ـ بين الحين والآخر ـ ممعناً النظر في نموذج ضخم لسلسلة جبال مايسترا Maestra موضوع على واحدة من المناضد الطويلة، حيث خلّفت جميعُ معاركه الكبرى والمذكورة أثراً دقيقاً لها على كل مُرتفع وقمة جبل، وكان أولئك الشباب الكوبي المقيتون المكروهون يغشون أزقة هاڤانا القديمة ودروبها الضيقة

وكأنهم حيوانات برية، يلقون اللوعة والأسى في قلب زعيمهم بتطلعهم إلى السُوَّاح القادمين من الغرب بجيوب مملوءة دولارات يرجون البيع لهم.

ثم كان هناك أولئك الآخرون الذين كانوا «يرحلون عنه» منتحرين: أوزڤالدو دورتيكوس Osvaldo Dorticos أولُ رئيس لكوبا الثورية، وأوجستو مارتينيز سانشيز Augusto Martinez Sanchez وزير العمل، والبرتو مورا Alberto Mora وهو سفير كوبي . . . لقد كانت الانتحاراتُ دائماً جزءاً من المشهد السيريالي لكوبا، أما الآن فقد أصبح الانتحار هو السبب الرئيسي فعلاً لموت الكوبيين ممن تقع أعمارُهم بين الخامسة والأربعين والتاسعة والأربعين.

وإن كان للثورة بطلةٌ حقيقية لكانت هي هايدي سانتاماريا Haydée Santamaria بوجهها العريض البسيط الصادق وبعيني المتنبيء الحزين، فعندما ادركت أن فيدل كان قد أحيا ذكرى هجوم عام ١٩٥٣ المروع في مونكادا Moncada أمكنها أن تتحدث بصراحة لتعلن عن أحاسيسها بقوة، فأخذت تكتب قائلةً: «إننا باللقاء معه وسعنا أن نبدأ الحديث عن حقيقة وعن واقع؛ لقد تأتى لنا أن نبدأ بشيء ـ إذ لم يكن لنا شيء من قبل». ولكن بعد ذلك، وفي يوم من عام ١٩٨٠، دخلت إلى الحمام، وصوبت بندقية إلى رأسها، فأودت بقدرات عقلها وانطفأت شمعة الحياة فيها. وقد أُعلن عن وفاتها في الثامن والعشرين من يوليو، غير أنها كانت قد قتلت نفسها فعلياً وطقوسياً في السادس والعشرين من يوليو، وهو اليوم الموافق للاحتفال السنوي المهيب بذكرى المونكادا. وقد ذهب البعضُ إلى القول بأن زوجها كان قد هجرها من أجل امرأة شابة أصغر منها سناً؛ وقال بعضُ اخرون إن فيدل كان قد سخر منها عندما أجاز لزوجها الزواج ثانية، في وقت كان فيه فيدل على علم بأنها كان بمقدورها أن تسمع له وهو يصفها بـ«العجوز الخرفة. . .». وأياً ما كان المصدر الذي أودع اليأس في روحها، فإن هايدي سانتاماريا ـ وهي المتحمسة المؤمنة بكاسترو وثورته ـ قد أماتت نفسها بيدها.

وأيضاً فإن كاسترو قد علم ـ من خلال هذا المرجل الفوار بالانفعالات المتضاربة والعلاقات المتصارعة سياسياً وسيكولوجياً ـ أن سطوته وقوته كان لها أن تدوم وتستمر فقط بقدر عدم علم العالم به على الحقيقة. وكان هذا مدعاةً للسخرية، ذلك لأن كل الناس ظنوا أنهم قد «أحاطوا علماً» بفيدل. وفي الواقع لقد كانت حياته خُدعةً أُجيد حسابُها بدقة، وتم تنفيذُها بحيث تستبقي ما يتعلق به وبتكوينه النفسي من حقائق بعيداً دائماً تمام البُعد. فلقد رتب حياته فعلاً على نحو لم يكن يتسنى معه لأحد أن يعرفه ألبتة حق المعرفة.

لقد كانت أساليبه في التودد والتملق والتزلف غايةً في الذكاء والدهاء. فقد جعل من الناس شركاءً له فيما يقترف، فراحوا يظنون أنه كان لهم صديقاً. لقد أنشأ حوارات لم تُفض إلى شيء، ولكن ما الموضوع؟ إن زياراته التي يقوم بها في ساعة متأخرة من الليل قد خُطط لها بإحكام بحيث يبقى الناسُ في انتظار وبحيث يتسلط سلطانُه عليهم، وعند وصوله كان ـ بتعاطف ومودة ـ يُجزل لهم الشكر والاطراء وترضية الخاطر. فمن ذا الذي كان يستطيع الرجوع إلى بيته دون أن «يتملى بالنظر إلى فيدل»؟ وكم كان فيدل طيباً شفوقاً. لقد تودد إليهم على نحو شديد الكياسة، بما يحقق فيهم الشعور بالقرب من القوة المطلقة. كان يكرر البيانات الإحصائية بشكل ممل، حتى إنه لم يكن يباريه في ذلك أحد. وفي الأحاديث المرسلة كان يوجه لنفسه حديثاً ينطوي على قدر من التهكم فيه انتقاصٌ من الذات، فكان الناسُ يتهامسون فيما بينهم: «أنظر كم هو صادق ومتواضع. إنه لا يقوى على الاستمرار في أخطائه لأنه يطرحها أمام الغير دائماً».

ولكن أتمت معرفةُ شيء عن أي من هذه الأخطاء حقاً؟ ما الذي ألموا به من علم عن ميرتا Mirta، زوجته الوحيدة؟ من ذا الذي عرف أنها كانت تعيش الآن في عزلة في مدريد مع زوجها الثاني المحافظ الغيور؟ ومن ذا الذي عرف أنها لو جرأت أبداً على الكلام عن «الرجل الكبير» الذي كانت قد أحبته واقترنت به، فإنها كانت لن ترى ابنها منه مرة ثانية أبداً؟

وما الذي عرفوه عن إيزابل كستوديو Isabel Custodio المراهقة الاسبانية الجذابة ذات الميول الجمهورية والتي كان قد رغب في الزواج منها في المكسيك؟

وما الذي كانوا يعرفونه عن سيليا Celia ـ سيليا شانشيز التي لا يمكن استبدالها بغيرها؟

وما الذي عرفوه عن ناتي ريفولتا Naty Revuelta، الرائعة الجمال، اللعوب، الشبقة، التي مولت الثورة ثم ارتكبت بعد ذلك خطأ شنيعاً برفضها عرضاً من فيدل بالزواج قبل أن يكون قد بلغ سُدة الحكم؟ وما الذي يعرفونه عن إبنة ناتي منه، ألينا Alina المغيظة المحنقة، التي ورثت الجمال عن أمها ورداءة الطبع عن أبيها، والتي هتفت في وجهه فعلاً ذات مرة «إنك شخص قليل البراعة». وما الذي عرفوه عن جلوريا جيتان Gloria Gaitan، زهرة بوجوتا السمراء؟

وماذا عرفوا عن داليا Dalia، «المرأة القادمة من ترينيداد»، وعن الأبناء الخمسة التي ولدتهم لفيدل؟

وفي هذا الصدد أيضـاً، ماذا عـرفوا عن راقصـة التروبيكـانا، وعن المـرأة التي قالت إنه كان يدخن «كل الوقت»، وعن الفتاة البغيضة التي جـرأت على الشكوى من أنـه لم يكن يخلع حذاءه قط، وعن مـارتيا لـورنـز Martia Lorenz التي حـاولت قتله بشكـل أخرق تعـوزه الدقـة والبراعـة، وعن الممثلة الكوبيـة التي أفضت إلى متـرجم فيدل بدخيلة نفسها فقالت: «انك لا تستطيع أن تتصور مقدار ما هـو عليه من جـلافة وفظاظة، وكم هو وحش أناني، فهو بمجرد أن يخلع عنه سرواله، يفرغ بسـرعة». إلا أنها ابتسمت بعد ذلك قائلة: «ولكن الوحش لا يستطيـع ـ بطبيعـة الحال ـ أن يتحكم فيما أشعر به من لذة علماً بأن الوحش هو فيدل كاسترو!»

وإن نفس الغمـوض والسريـة التي أحاط بهـا فيدل ـ بـدقة وإحكـام ـ علاقـاتـه الشخصية فعل مثلها أيضاً فيما يتعلق بأماكن سكنه. ففي الأيام الأولى كان الكـوبيون والأجـانب ـ على السواء ـ يعـرفون أنـه كان قـد أقـام في أحـد طـوابق عمـارة سيليـا المشهـورة الكائنـة بشارع كـالي أونسي Calle Once بحي ڤيدادو Vedado من أحيـاء هاڤانا. كما أنهم كانوا يعرفون أنه قد كانت له هنـاك حجرةٌ لا أثـر للترف فيهـا، تضم سريراً واحداً، وبها شرفةٌ ذات تجهيزات آلية، ومكتبـاً خشبياً صغيـراً. وعلى نحو مـا لاحظته زوجةُ السفير الهندي فإنه كان واثقاً من أنه قـد خلق في الشعب انطبـاعاً بـأنه كان في متناول الشعب الكـوبي وقريبـاً منهم، ذلك لأن منـزل سيليا الصغيـر لم تكن تقوم دونه أكمـة أو دغل، ومن ثم كـان على سيارتـه أن تتخذ مـوقفاً لهـا على الطريق مباشرة، هكذا بوضوح وبمنتهى «العلنية» والعفوية، إنها خارج المبنى وأمـامه تمـاماً. وقد أشارت مسز أمبيكا سوني Ambika Soni إلى «أن هناك ذلك الشيء النفسي الذي يوقع في نفسك الشعور بأنك لست معزولاً أو مفصولاً عن المكان بشاسع الأدغال ولا بـالرسـوم والمراسم التي تميـز بيتا لـرئيس دولة أو رئيس وزارة». غيـر أنها بعـد ذلك أطرقت مفكرةً للحظة، وقد بدى عليها انصرافُ الذهن إلى حقيقـة مغايـرة تمامـاً. إذ انها بالهام مباغت أضـافت قائلة: «كـلا، لقد كـان ظاهـراً للعيان، لكنـه لم يكن في المتناول».

والأمر الذي لم يعرفه معـظم الناس في كـوبا أنـه في الوقت الـذي لم يكن فيه لزعيمهم دار حقيقية، قد كانت له بالفعل سلسلة من الدُور غير عادية. إذ كان له قصر منيف في بلدة سيبوني Siboney التاريخية قُرب سانتياجو، واخر في الشارع رقم ٤٩ بهاڤانا. كما كان في كاندلاريا Candelaria مبنى «الدسيادا La deseada»، وعلى بُعد نحو عشر كيلومتـرات من هذا المكـان توجـد له ضيعـة ضخمة لهـواية الصيـد تُعرف

باسم «الأفعى» La Vibora، وهي تشبه بدرجة كبيرة تلك الضياع الشاسعة التي كان زعماء أوروبا الشرقية قد استولوا عليها من أيدي الارستقراطيين القُدامى في السنوات الأولى من الحكم الشيوعي. وعندما كان فيدل يذهب ليصطاد هناك، كان يصدر تعليماته إلى سلاح الجو الكوبي بإرسال طائرة صغيرة أو طائرة مروحية لتستطلع أشجار المانجروف ولتثير الفزع في أسراب البط البري حتى يُمكن قنصها بسهولة أكبر، فإذا ما لقي طياروه حتفهم في مغامرات كهذه فإن ذلك كان شرفاً لهم. بل إن البعض من منازله كان يضم صالات للعب البولينج تم تصنيعها في اليابان.

وكانت له قُرب كايو لارجو Cayo Largo جزيرة كاملة هي «الجزيرة الرملية» Cayo Piedra وقد كانت مقصورة على المقربين جداً من القائد الأعلى وعلى علاقاته الغرامية الشخصية. ومن وجوه الرفاهية المكلفة أنها كانت تشتمل على كافة صنوف اللعب والتسلية بالإضافة إلى بحيرة دافئة للسباحة. وقد أفاد هذا «الوكر» في خدمة مقاصد أخرى إلى جانب الاستجمام والتودد الهادىء للزائرين الأجانب ومن يأتونه حُجاجا ومتوسلين. إذ إن عمليات فيدل في بنما ـ وهي صفقات مالية كانت تمثل جزءاً من «النزعة الرأسمالية للزعيم» ـ كانت تتم في سرية تامة في أماكن على شاكلة الجزيرة الرملية Cayo Piedra وفي منتجع بارلوڤينتو Barlovento العجيب الذي يشبه ما ورد في قصص أورويل الخيالية وهو منتجع مفتوح على البحر إلا أنه معزول عن كوبا بالكامل. في هذه الڤيلات المريبة الغريبة المخصوصة القائمة بجوار البحر كان بوسع مغامرين وقراصنة دوليين مريبين من أمثال روبرت ڤيسكو Robert Vesco أن يروحون ويذهبون كيفما شاءوا في عالم قد خلا من قوانين للهجرة أو تأشيرات الدخول، ويعيشون في راحة ورغد يفوق الخيال غرابة، في عالم انعدم فيه نظام الدولة، عالم مثير في الزمان والمكان، ويزودون فيدل كاسترو بكل ما كان يحتاجه تقريباً، من عدادات جمع التفاح إلى البنادق الآلية الأمريكية.

إن عشرات الملايين من الدولارات قد تسربت عبر «المؤسسات والشركات» الكوبية كشركة سيمكس Cimex وهي واجهة تجارية كانت تساعد وزارة الداخلية الكوبية في الحصول على دولارات لكوبا في مقابل القيام بكل أنواع «الأعمال» من تزييف للتأشيرات (التي بلغت في الفترة ما بين عامي ١٩٨٥/١٩٨٩ وحدها ١٤٢,٠٠٠ تأشيرة مزورة) إلى الاتجار غير المشروع في جثث الموتى. لقد أصبحت كوبا في الواقع بلداً تُمنح فيه الامتيازات من أصحاب الحول والطول لزمرة كاسترو في كل مكان.

ولكن بالرغم من كل هذه الامتيازات وسائر صلاحيات السلطة والقوة غير العادية المستبدة والوحيدة، فإنه ما ان بدأ عقد التسعينات الجديد إلا وكان الخوف قد استولى على كاسترو. فلم يكن ما يُضيق الخناق عليه هو الحضارة والاقتصاد الأمريكيان فقط، بل و «عصر المعلومات» أيضاً، جاعلةً إياه يفقد ـ شيئاً فشيئاً ـ سيماء الكاهن المسيطر على مجريات الامور بسحره والذي لا تعرف الهزيمةُ سبيلاً إليه. إنه كشجرة قديمة معمرة خبر فن البقاء، إلا أنه في حاجة الآن إلى العمل من أجل الإبقاء على رعاياه في عزلة بإلحاح اخذ في التزايد من أجل أن يتحقق له الشعور بالأمان. وفوق هذا كله فإن أحلامه عن غزو العالم وقهره من خلال رجال حرب العصابات من ذوي الجنسيات المتعددة والذين يتبعون له ـ وهي تلك الأحلام التي هزت العالم في الستينات والسبعينات هزاً عنيفاً ـ هذه الأحلام كانت قد بدأت تتهاوى من حوله كأوراق الشجر الذابلة.

فكيف تأتى لكل ذلك أن يحدث؟

الفصل الثاني

المزاج المعقد وجذوره

> إن الواحد من أهل جاليشيا Gallego يقتات من البر والبحر وهو دائماً ما يكون حالماً، عاشقاً للغوامض والأسرار، مؤمناً بأن ليس كل ما يُدفن يُقال له ميت.
>
> ألفارو كونكويره: مؤلف من حاليشيا

على اللسان البحري لجاليشيا القائم في أقصى الغرب، في ذلك المكان الخافي الكئيب من إقليم شمال اسبانيا، حيث مجموعة من الجروف والمنحدرات الصخرية صامتةً غامضة تواجه نفس البحر الذي قاد كريستوفر كولومبوس إلى العالم الجديد. هنا تشق الأمواجُ البيضاء العاتية طريقها تحت وطأة ظروف قاسية من فصول شتاء طويلة مقبضة، ولكن في فصل الصيف تتلألأ الأرضُ بذلك اللون الزمردي المميِّز لأرض أيرلندة أو اسكتلندة التي تعزف على مزاميرها ذات القرب. وفي سالف الأزمان كانت تلك الجروف الصخرية تُسمى رأس فينيستير Cabo Finisterre. كان هذا هو الرأس الذي يظن سكانُ جاليشيا المؤمنون بالخرافات ـ أو الجاليجويون Gallegos وهو الاسم الأكثر شعبية والذي دائماً ما يتسمون به في كوبا ـ أن عنده «ينتهي العالم».

وتبدو جاليشيا ـ حتى اليوم ـ موضعاً لم يكتمل على نحو يدعو إلى الغرابة. إنها موضع لا استقرار فيه، موضع للوداع أو للتوديع إلى الأبد. فالكثير من المنازل بعد ولم يتم الفراغ من بنائها، إنها نصفُ مكتملة. والعديد من الدُور الأكثر حداثة تقوم على عُمد أو ركائز بحيث يُمكن للحيوانات ولمعدات الزراعة أن تجد تحتها موئلاً وملاذاً وقت العواصف الجائحة. إنه مكان يتسم بالهدوء والعزلة وعدم التغيير، مكان فيه كلُ شيء ينتظر عودة رجال جاليشيا من المنفى الذي فرضوه على أنفسهم ولكنهم ما عادوا قط. لقد قر قرارُهم على أن يتركوا أصولهم الطبيعية والسياسية ويرحلوا إلى مكان آخر.

في هذه البلدة وفي تلك
في كل البلدات، الكل قد رحل.
إن جاليشيا خلو من الرجال الذين كانوا فيها ماكثين
إنهم عن عملٍ لأنفسهم يبحثون.
وفي المقابل ثمة يتامى وأيامى.
ومراعٍ ترتع فيها الوحدة.
وأولئكَ الذين ما كان لهم من ولد
وأولاد ليس لهم من بلد
وقلوبٌ تتفطر عذاباً وغيابٌ طال به الأمد
إن مشاهد اللاشيء والموات
هيهات أن تجد لها عزاء.

إن روزاليا كاسترو لا تمت إلى فيدل بصلة القُربى، لكنها مشهورة تمام الشهرة في بلدتها الموحشة. إنها شاعرةُ جاليشيا الاسبانية المثيرة للشجن، إنها هي التي نظمت تلك الأبيات الرائعة عن البلدة التي لا أمان لها تلك التي أنجبت الصبي الذي كان اسمه يعني في الاسبانية - توسعا - «المؤمن».

لقد كانت اسبانيا هي المكان الذي منه أبحر كريستوفر كولومبوس صوب العالم الجديد. إلا أن الكاستيلي - سكان كاستيل في الإقليم الجنوبي من اسبانيا والذين استوطنوا معظم أنحاء أمريكا اللاتينية - قد رحلوا عن إرادة منهم، وأبحروا شوقاً إلى الذهب والعقيدة. أما عندما نزح سكانُ جاليشيا عن الجزء من اسبانيا الذي يخصهم فإن ذلك إنما كان منهم لأسباب مغايرة تماما.

يا لها من هجرة؟ العام هو ١٨٥٣، زمن جفاف ومحنة زراعية. فهاجر مليونان من السكان متجهين صوب العالم الجديد. لقد أجبروا على الرحيل. لقد ذهبوا في معاطف سوداء وعيون غشيتها الكآبة ووجوه هجرها الابتسام، عالمين بأنهم لن يعودوا أبداً. وبالفعل فإن شركة الباسيفيك للملاحة وضعت على السفن إعلاناً بأن «الرحلات عبر مضايق ماجلان. . . ثم إلى هافانا وبنما والإكوادور. . . ». لقد رحل المهاجرون وقد طووا جوانحهم على أن جاليشيا أرض الخدعة والوهم. إنها تبدو في جملتها ذات خضرة وخصب، وبها أبقار ترعى العشب وقطع صغيرة من الأرض الزراعية قد حُدِّدت حدودها بأوتاد نُظمت على نحو مُعجب لطيف، هذا في الظاهر، ولكن من وراء ذلك فإن الأرض صخرية مجدبة شحيحة الغلة محدودة المساحة. لقد

تولى السكان حزنٌ لا لأنهم حاق بهم قهرٌ أو اضطهاد كذلك الذي لحق باليهود أو «بهراطقة» البروتستانتية. فإن شيئاً من ذلك لم يلحقهم. إنهم لم يُدفع بهم بعيداً عن أرضهم بفعل حرب أو غزو. بل لقد استولى الحزنُ على أشقاء روزاليا لأنهم أقصوا أنفسهم بأنفسهم بعيداً.

وفي الثامن من ديسمبر عام ١٨٧٥، سُجل اسم آنجيل ماريا باوتيستا كاسترو آرجيوز في سجل المواليد بلانكارا، وهي قريةٌ صغيرة تقع في أحضان الجبال الجميلة - لكنها جدبية - لمقاطعة لوجو Lugo حيث جاليشيا. وقد وُلد الصبي الصغير لأبوين من فلاحي الجاليجو من درجة فقر متطابقة في كنف دار من حجر رمادي على الطراز الجاليشي ذات طوابق علتها القذارةُ والأتربة. وحتى عندما كان البيتُ جديداً كان يميل متكئاً على تل ترابي صغير، كما لو كان قد نشأ واهناً مُتعباً.

وعلى بُعد ساعة واحدة فقط، وفي مدينة فيرو دل كاوديللو Ferro Del caudillo الصغيرة الواقعة بمحاذاة البحر، إلى الشمال الشرقي من مدينة لاكورونا La Coruna الكبيرة، وُلد في الرابع من ديسمبر عام ١٨٩٢ صبي آخر من أبناء الجاليجو، كان عليه أن يثبت - آخر الأمر - أن له نفس خصائص أبناء الجاليجو الملفتة للانتباه بغرابتها شأنه شأن آنجيل كاسترو. ولم يكن من المستغرب حقاً - كما قد يبدو - أن يأتي كلا الاثنين - آنجيل كاسترو، والد فيدل، وفرانشيسكو فرانكو - من مكان قصي من العالم كهذا المكان المنسي والذي يصعب الوصول إليه كما هو حال جاليشيا. ففي الحقيقة لقد جاء ظهورُ سائر المستبدين والطغاة المحدثين في العالم من أطراف وضواحٍ من المعمورة مغمورة خاملة الذكر؛ فنابوليون أتى من كورسيكا، وهتلر من النمسا، وستالين من جورجيا.

وقد شب آنجيل كاسترو وسط قوم عُرفوا بالتحفظ والكتمان، فضلوا أن يومئوا قائلين - وقد غابت البسمة عن وجوههم -: «رجُل ذلك الذي يملك زمام سرائره ويحبس نفسه مع كلماته». لقد كانت بيئة قوامها اعتداد بالنفس مبالغ فيه وشعور عميق دفين بالاستهزاء يكمن كالظل وراء ذلك الاعتداد. وقد عبر جمهور الجاليجو عن أنفسهم سياسياً من خلال زعماء اسبانيا السياسيين التقليديين، فهم رجال احتفروا الحلول الوسط، وكانوا من بواسل الفرسان ومن عظماء الخطباء مولعين بالقوة والشرف، وهم رجال كان صدق الشهادة التي يؤديها الشخصُ ومصداقيتُها بالنسبة لهم أكثر أهمية على الاطلاق من صدق البرهان العلمي. ولكن كان وسط رجال جاليشيا كذلك أناس كان يُطلق عليهم اسم الكاسيك Caciques (زعماء قبائل مكسيكية).

وكان للكاسيك ـ خلافاً للزعماء القبليين التقليديين ـ سياسيـون دُهاة ـ كـانوا أصحـاب نزعات خيرية محلية سياسية ولا يختلفون عن أعضاء المجالس المحليـة في نيويـورك أو في شيكـاجو ـ وهـم الـذين فهموا تمـاماً ذلـك المثل الشعبي الجـاليجي المتـداول «حماك الرحمن من جاليجي ذي سلطان».

وقد عمل آنجيل كاستـرو وهو صبي في سن المـراهقة كعـامل يـومية لفتـرة من الوقت في الحقول القريبة من نهر نيرا Neyra الزاخر بأسماك التونة، وقـد أولع بلعب القمار. ففيما تلى ذلك بسنوات قام قسُّ لانكارا Lancara العجـوز رامون لـوبيز نيـرا Ramon Lopez Neyra بـوصف انجيل الشـاب بأنـه «عاطفي، مغنٍ، بـارع في لعب الورق ـ فهو لـم يخسر قط»، غير أن انجيل قد أدرك ـ وقد شارف طـور الرجـولة ـ أنـه ليس ثمة مستقبل ينتظره في جاليشيا. ومن ثم قرر ـ وهـو في العشرين من عمـره ـ أن يصبح «جندياً لاسبانيا» في كوبا البعيدة. إنه فقير لكنه مغامر، فقد تلقى انجيل بضعة آلاف من البيزيتات مكافأة من عـائلة صبي من أثريـاء الأسبان ليحـل محل الصبي في القتال ضد الامريكان.

ولقـد كانت اسبـانيا على الـدوام ـ دينياً وحضـارياً وعـاطفيـاً وعـرقيـاً ـ مُعـادية للبروتستانتية ولحركة الإصلاح وللرأسمـالية. لقـد كانت اسبـانيا هي أول طفـل يولـد لحركة الإصلاح المضاد، كمـا كانت في الـوقت نفسه من أشـد عشاق هـذه الحركـة حمـاساً. إذ كـان بروتستـانت الشمال في نـظر الأسان المقبمين في العـالم الجديـد هراطقةً خُلص، كما كانت اسبانيا أصدق ابن للعقيدة الكاثوليكيـة التابعـة لكنيسة الأم المقدسة، لكن الأمر الأكثر أهمية هو أن اسبانيا التي تحدر انجيل كاسترو عن أرومتها كـانت في الواقـع أول نظام استبـدادي في العصور الحـديثة، كـانت تفرض على أي امرىء يعرض في طريقها عقيدةً شاملة بقـوة السلاح وبسلطة محكمـة التفتيش العليا. ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت اسبانيـا ـ على نحو مـا قد كتب عنهـا الكـاتبُ النابـه ڤ. إس. بريتشت V.S.Pritchett ـ «بلداً غيـر عـادي»، وإنمـا كـانت «سيـدة الجنس البشري في العـالم، وبنوهـا هـم المؤسسون لأول امبـراطوريـة كبـرى تخلف الامبراطورية الرومانية المقدسة... ولقد ناضـل أهلها من أجـل الحفاظ على روح العصـور الوسـطى، واستطاعـوا فعلاً أن ينجحـوا في ذلك ردحـاً من الزمن ليس بالقصير وفي ذلك كان نصرهم، وكان تميزهم، وكانت مأساتهم».

كـانت اسبانيـا ذات طابـع أرستقراطي، بـطولي، فخم ضخم، معتـدة النفس، جسورة، ذات شهامة وكرم. وقد بذ الاسبانُ غيرهم في الخـطابة والفـراغ. ومن جهة

أخرى كانت الفضائل البروتستانتية الآتية من الشمال «فضائل هشة واهسة» تتعلق بالتقشف والكد والحرص على الشكليات والتعقل والمثابرة والأمانة والثقة. وفي العالم الجديد، عالم القرن الثامن عشر، كان الاسبان لا يزالون يحتكمون إلى المبارزات دفاعاً عن الشرف، على حين كان البروتستانتيون الموجودون إلى الشمال منهم يصيغون مذاهب وآراء في كفالة العيش والحرية وتحصيل السعادة وتحقيق مساواة جميع الناس أمام القانون.

ولم تقو هذه الفروق البالغة جميعاً إلا على خلق نوع من الغيرة والحنق والسخيمة ـ آخر الأمر ـ في قلب الاسبان نحو القوة الآخذه في التعاظم لجيرانهم البروتستانتيين الموجودين إلى الشمال منهم، وما هي إلا الحرب وقد اندلعت عام ١٨٩٨، وذلك عندما فقدت اسبانيا الاستعمارية ـ وهي في النزع الأخير ـ كوبا، اخر وأغنى مستعمراتها، ولتقع كوبا في أيدي جماعات اليانكي Yankees من الأمريكيين الخارجين على أمريكا. أولئك الذين غزوا الروح الاسبانية وتغلغلوا فيها كسرطان ناخر. ولا يزال اسبان جاليشيا إلى يومنا هذا يشيرون إلى الحرب الاسبانية الأميركية على أنها كارثة.

وقد أبحر آنجيل كاسترو راحلاً عن «رأس نهاية العالم» بقصد الاشتراك في القتال دفاعاً عن اسبانيا «وفضائلها العظمى»، وقد فعل الكثيرُ من إخوته الشيء ذاته. وقد ظل يحمل معه أبداً ذلك الحزن الداخلي الخاص وتلك الروح المتهكمة المتشائمة، لكنه حمل أيضاً إصرار الجاليجي التاريخي العنيد العاقد العزم على أن يصيب النجاح على الشواطىء الأجنبية، وعلى أن يكفل لأبنائه تعليماً. ولقد قفل آنجيل راجعاً إلى جاليشيا من أقصر طريق وذلك بمجرد أن وضعت الحربُ أوزارها وخرجت كوبا من يد اسبانيا، فوجد أن بلدته لا تزال أرضاً لا أمل فيها، فعاد إلى كوبا ابتغاء للأفضل.

في تلك الأيام الهائجة المائجة المضطربة من أيام التحول إلى قرن جديد وعصر جديد، كان خليجُ نيبي Nipe القائم على الساحل الوعر العاصف في شمال شرق كوبا واحداً من أكثر أرجاء كوبا جمالاً. فقد كان الخليجُ وما يحف به من شطآن منطقة وسنانة من أرض منخفضة تموج بخضرة وارفة، وذات أنهار متعرجة وسلاسل جبلية حانية هادئة، لقد كانت شيئاً شديد الاختلاف عن قسوة جاليشيا وتجهمها، وقد تخير آنجيل المنطقة عن حكمة وتعقل، ذلك لأن هذا الجزء من كوبا ـ وهو المعروف بالركن الشرقي Oriente أو بالشرق فقط ـ كان في هذه الآونة بالذات قاب قوسين أو

أدنى من حركة الكشوف التجارية. ولكن عندما قدم آنجيل إلى المكان ـ عاملاً بائساً مفلساً ـ كان المكان أرضاً برية منبسطة، تجاهلها الكوبيون من أهل هافانا المتأنقين المحبين للمرح أصحاب البذات البيضاء الخالية من العيوب، تماماً كما أهملت مدريد أمر جاليشيا.

وقد بقيت السلطةُ في كوبا بعد الحرب في أيدي الاسبان بعناد وإصرار، إذ ظل الاسبانُ أصحاب سطوة في مجال الاقتصاد وقد شاركهم في ذلك الامريكان الذين كانوا قد شرعوا إذ ذاك في توسيع مشروعاتهم الصناعية ونشرها في كل ربوع كوبا، هذا بالاضافة إلى الأثرياء من الكوبيين، أما فقراء الفلاحين والمفكرون والزنوج ـ ممن كانوا يُسمون بالعامية الكوبية Mambises ـ فقد عانوا من الخسران والإخفاق على كل الأصعدة. وعندما قرر انجيل البقاء في كوبا للمصلحة والخير، استهل حياته العملية بالعمل كأجير باليومية لدى المتحدة للفواكه التي كانت صورة رمزية متطرفة للنزعة التوسعية الأمريكية والتقدير المسبق الواضح للهدف. ولكن بقوة جلد لا نهاية لها على العمل وبطموح الجليجي غير المحدود، استطاع الشابُ الناحل البنية القوي العزيمة ذو التعبير اللفظي الثابت والمحدد أن يقفز سريعاً ليصبح متعهداً لتجارة قصب السكر يأتمر بأمره نحْو من خمسين إلى ستين رجلاً عملوا في مهمة تقطيع أعواد القصب، وهي مهمة قاسية في صعوبتها ومشقتها. ولقد أحس كلُ فرد بأن انجيل كان رئيساً متزعماً، وإن كان «الرئيس» الحقيقي للمنطقة هو مادة السكر ذاتها، ذلك السُكر الذي كان بسبيله إلى أن يصبح «ملكاً»، منه أتت كوبا الثروةُ واللعنةُ، إنه السُكر الذي وسوس لابن آنجيل وأثاره وأفسده آخر الأمر. فعلى الصعيدين القومي والشخصي فإن التبعية الناشئة عن صناعة السكر قد مهدت السبيل منذ البداية للديكتاتورية والاستبداد في كوبا، ذلك لأن صناعة السكر قد أبقت على قوة العمل في وضع عبودي بعد أن كان النظامُ العبودي نفسه قد ألغي بزمن طويل. حقاً لقد كان السُكر هو الباعث الرئيسي لوصول كوبا اخر الأمر إلى نزعة قومية، إذ عمل على خلق روح قومية يعوزها الثبات في نفوس الكوبيين نالها مزيد من التعقيد والارتباك الناشىء عن حقيقة أن نقطة الارتكاز لكوبا لم تكن أمريكا اللاتينية، كما لم تكن اسبانيا بالفعل، بل كانت الولايات المتحدة الامريكية.

وعلى كُل، فقد كان انجيل كاسترو شخصاً غير عادي في المجتمع الكوبي. لقد كان الغريب اللامنتمي دائمًا. كان قد بقي «جندي اسبانيا» في كوبا عنيفة مندفعة ذات وضع استقلالي جديد. ولكن بطاقة فذة نادرة وبقسوة لا تعرف الرحمة استطاع

آنجيل في زمن وجيز أن يكسب لنفسه ـ بالجهد المتواصل ـ مكاناً ومكانة في هذه الأرض الغريبة الكريهة. وكان آنجيل ـ شأن الكثيرين من جيرانه في «الشرق الموحش» من كوبا ـ شديد البُعد عن تحري الأمانة فيما يتعلق بالطريقة التي وسع بها من أملاكه. إذ كان يخرج في الليل برفقة نفر من رجاله على ظهور الخيل، وفي الظلام الدامس كانوا «يزحزحون السياجات» الدالة على حدود الأراضي عن مواضعها، وبذلك راح يوسع من رقعة أرضه ويمتد بها في الأراضي التي ليس لها مالكون يطالبون بها. وقد توسل ـ لفعل ذلك ـ بدفع الرشاوى وعلى نحو أو اخر أصبح يسيطر على طاقم من الخفراء القرويين من ذوي البأس والقوة، وفي غضون سنوات قليلة غدت مساحة مزرعته ـ التي عُرفت باسم ماناكاس Manacas ـ عشرة آلاف فدان وليسيطر بذلك على منطقة بلغت حتى سلسلة جبال مايارى Mayari.

كما تزامنت حركته التوسعية مع التعاظم السريع في اقتصاديات السكر الذي حدث في أعقاب الحرب العالمية الأولى. فصار آنجيل غنياً موسراً لديه مئاتٌ من الرجال يعملون في خدمته. وقد ظل على ثرائه حتى عندما انتكست حالة الازدهار الاقتصادي؛ ذلك لأن آنجيل كاسترو الحذر لم يكن يضع أمواله لدى البنوك والمصارف بل في خزانة مصفحة لديه. وقد قال السيد، هودج كينز Hodgkins، أحد أصدقاء آنجيل المخلصين وأحد القائمين بأعمال الإدارة في المتحدة للفواكه. وهو يراجع ذكرياته بعد عشرات السنين «لقد كان آنجيل فلاحاً حقيقياً في جلد أبيض Guajiro» مستخدماً في الدلالة على ما يريد تعبيراً عامياً دالاً. إن هذين الرجلين المختلفين ـ آنجيل وهودج كينز ـ القادمين من مجتمعين شديدي الاختلاف أحدهما عن الآخر، تعلق الواحد منهما بالآخر وأحبه. فقد كانت لانجيل عادة «العمل على كسب» ود أو صداقة أحد سائقي الجرارات لدى المتحدة للفواكه وذلك بين الحين والآخر والعمل على صبغ هذه الجرارات بلون مختلف. فلم يكن من النادر بعد أن يكون الرجلان قد شربا معاً زجاجة من شراب الكونياك، أن يكون قد تعين على هودج كينز أن يتجول متفقداً مزارع آنجيل، وينزع هناك شيئاً من الطلاء عن واحد من الجرارات، ثم يعود بعد ذلك ليُدخله ـ وهو ثمل ـ إلى «المبنى الرئيسي» للمتحدة للفواكه.

وكانت حياة آنجيل الزوجية تقوم على الزيف شأن كل شيء اخر في حياته، فقد تزوج أولاً من مدرسة محترمة تُدعى ماريا لويزا ارجوتا Maria Louisa Argota وقد رزقا من فورهما بطفلين هما بدرو إميليو Pedro Emilio وليديا Lidia.

غيـر أن الزواج بـدأ يتعثر عنـدما ضمت الأسـرةُ إليها ـ في مستقـرها النـائي المنعزل ـ خادمةً جديدة تُدعى لينا روز Lina Ruz، التي من المحتمل جداً أن تكون قد قـدمت من منـطقة غـابة النهـر Pinar Del Rio في الإقليم الغربي القصي من الجـزيرة، ومن المرجح أن قد كانت لينا في نحو الرابعة عشرة من العمر لم تجاوزها عنـد مجيئها إلى بيت كاسترو؛ وعندما اكتشفت ماريا لويزا ما للفتاة من علاقة غـرامية آثمـة مع زوجهـا (ربما عن طريق خطاب من مجهول)، ما كان منهـا إلا أن هجرت البيت. وقـد أبدت إحدى الجارات اشمئزازها، وقد راحت تهز رأسها عند استرجاع الذكرى قـائلةً «كنت تجد رجلاً تقدمت به السنُ يعيش مـع فتاة شـابة كهـذه»، وما هي إلا سنـوات قلائـل تلت مجيء لينا حتى كان طلاق آنجيل وماريا لويزا قد تم.

وقد راحت لينا تـطوف في أرجاء مـزرعة كـاسترو على صهـوة جواد، بجسمهـا المهـزول وأنفها الـطويل وشعـرها البُني المشـدود إلى ظهرهـا، حاملةً معهـا مسدسـا وبندقية صيد، وكانت تدعو الأسرة إلى تناول الوجبات باطلاق أحد العيارات النـارية، وكانت ترتدي حذاءً برقبة طويلة تحت رداء فاضـح في غير مبـالاة، وقد كـانت تغشى مخـازن كاسـترو ومحـلاتـه حيث كـان بمستـطاع عمـالهم أن يشتـروا مـا يلزمهم من تموينياته بنوع من الإيصـالات أو الكوبـونات أو بكمبيـالات أو بإذن كتـابي صـادر عن آنجيل. وفي الوقت الذي بدى فيه الجميع محبين للينا، إلا أن أحداً منهم لم يصفهـا بأنها ربةُ بيت فاضلة أو جيدة. لقد كان منزل كاسترو أقرب شبهاً إلى «دار» رعاة البقر في الغـرب، إذ كانت مبنيـة من خشب غُفـل، مستـديـرة الشكـل وقـد انتصبت فـوق دعامات أو ركائز، على نحو يشبه منازل جاليشيا الكئيبة الحزينة. كـان ثمة سلم غيـر مصقول يفضي صعوداً إلى بوابة وُضعت بهدف الحماية من اللصوص والسُـطاة الذين كمنوا في سائر أرجاء تلك المنطقة، أما داخل المنزل فقد عكس مـظاهر الاضـطراب والفوضى التي سرعان ما أصبحت سمة واضحة في كـل ما تتبـادله سـائر الأسـرة فيما بينها من أعمال. فقد كان الـدجاج يجلس دون حـرج على المقاعـد أو فوقهـا دون ما مبرر، وبحيث كان على الزوار قبل أن يجلسوا أن يُزيحوا عن المقاعد كل ما قد كـان متروكاً عليها من دجاج وصنوف أخرى من الحيوان.

وكثيـراً ما كـان يستولي الـدهشُ على الزوار من أن أفـراد عائلة كـاسترو كـانـوا يفضلون تناول طعامهم وهم وقوف (بعد أن أصبـح فيدل كـاسترو حـاكماً على كـوبا، فإن أحداً لم يستطع أن يفهم السبب في أنه كان غالباً ما يتناول طعامـه وهو واقفـا). ولكن إذا كان البيتُ قد اتسم بالقذارة، فإن حجرة انجيل كانت في تأنق ونظام دقيق.

فالمنضدةُ كان يعلوها مفرش، كما كانت هناك في بعض المواضع طفايات للسيجار، إذ كان آنجيل مغرماً بتدخين السيجار. كما كانت هناك نقطة مراقبة في أعلى سطح البيت حيث اعتاد أن يصعد ليعاين مزرعته من على بُعد. لقد اعتاد الجاليجي أن يقف هناك مرسلاً بصره إلى أملاكه وهو يدخن سيجارة، بنفس الأسلوب تماماً الذي سوف يأتي مع فيدل فيما بعد وهو يعاين بناظريه كوبا كلها (وربما قُدّر لهذا الكاسترو الصغير في يوم صفي جوه أن يلقي بنظرة خاطفة ـ وعلى نحو فيه مماثلةٌ رمزية ـ على امبراطوريته التي تقوم بعيداً هناك ـ في أنجولا وأثيوبيا ونيكاراجوا).

وفي الوقت الذي كان فيه آنجيل لا يزال ـ من الوجهة الرسمية ـ زوجاً لماريا لويزا، شرعت لينا تحمل منه بزمرة من الأطفال جاءوا خارج نطاق الزواج الشرعي وهو ما شمل آخر الأمر راؤول Raul وإيما Emma وجوانيتا Juanita وانجيلينا Angelita ورامون Ramon، حتى جاء ١٣ أغسطس ١٩٢٦ بفيدل اليخاندرو كاسترو روز Fidel Alejandro Castro Ruz (الذي تسمى تبعاً لصديق عمل ثري من أصدقاء آنجيل هو فيدل بينو Fidel Pino). وعلى الأقل فإنه بحسب ذاكرة فيدل الصديق فيما بعد، فقد وُلد فيدل الابن في الثانية صباحاً في وقت إعصار مدمر. وقد ذكر فيدل بعد ذلك بسنوات لقس برازيلي ـ فيري بتو Frei Betto ـ قائلاً: «لقد وُلدتُ رجل عصابات، ذلك لأنني وُلدتُ في الليل، لقد كان الأمر شبيهاً إلى حد ما بالمؤامرة».

ولقد كان هناك شيءٌ ما في عائلة كاسترو مختلفٌ تماماً عما في الكوبيين الآخرين؛ فعلى الرغم مما كان يجمع بينهم من حياة ثرة غنية التنوع، إلا أنه لم يكن لديهم إحساسٌ أسري. كانت العلاقاتُ بينهم صراعيةً إلى أبعد الحدود، كما لم تكن علاقات متوائمة. والكوبيون الذين ظلوا يعاينونهم لسنوات وتدارسوا أمرهم بل وأحبوهم، كانوا في حيرة من هذا النقص في الشعور الأسري، وهو الأمر الذي كان شديد التفشي في معظم الكوبيين إلى حد أنه لم يكن من الممكن التعبير عنه بالكلمات. وعندما ـ في زمن لاحق ـ بدأ بيدرو Pedro ـ نجل انجيل من زواجه الأول ـ في تقديم مسلسل إذاعي عن أسرته بعنوان «ال كاسترو من بيران»، زوّع الكوبيون الآخرون بما صُوِّر على أنه الحد الأدنى من سلوكيات هذه العائلة. (وبشكل نموذجي، قام آنجيل ـ آخر الأمر ـ برشوته بحوالي اربعين الف دولار على الأرجح، كيما يوقف المسلسل). لقد عاش أفراد عائلة كاسترو معاً في بريئة الشرق الجديدة، عائلةً بلا ماض، وبلا دين، وبلا إدراك أو وعي بالهوية الكوبية الحقيقية، كجماعة قبلية صغيرة لا عهد لها بالتحضر؛ إلا أنهم كانوا ـ لما يملكونه من ثروة ـ

وفقاً لعرف قديم «أصحاب امتياز». ومما لا شك فيه أن فيدل قد أدرك هذا العُرف ووعاه وذلك عندما قال فيما بعد لكارلوس فرانكي Karlos Franqui رفيقه في الثورة: «لقد وُلدتُ في ترف وبحبوحة من العيش في أسرة من مُلاك الأراضي . . . وقد صب كلُ واحد منهم اهتمامه على شخصي، فأثنوا عليَّ وعاملوني على نحو يختلف عما عاملوا به الصبية الآخرين ممن كنا نلعب معهم حين كنا أطفالاً. كان أولئك الأطفال الآخرون يمشون في الطرقات حُفاةً في الوقت الذي كنا نحن فيه نضع الأحذية في أقدامنا. . .».

ومع ذلك، فلقد كان هناك العديد من الصراعات والتناقضات التي كان لها آثار وانسحابات على فيدل صبياً، لم يتحدث هو عنها قط، كان ميله إلى الإنجاب غير الشرعي - ولا شك - أثراً رئيسياً من آثارها. فلم تؤثر عن فيدل - في أي مكاتبة أو في أي مقابلة أو في أي مرجع - إشارة عن حقيقة أنه هو وإخوته كانوا أولاد زنا غير شرعيين في كوبا التي كانت على الكاثوليكية الرومانية كما كانت على التزمت الاسباني، فضلاً عن الفهم الثابت السائد عن لا شرعية النسب. ففيما بعد بسنوات عدة أبدت باربارا جوردون Barbara Gordon - وهي صديقة لزوجة فيدل في منطقة بانز Banes القريبة - بملاحظة قائلةً: «لقد كان بوسع الكوبيين أن يجعلوا فيدل يشعر بالاستياء وذلك بمجرد ذكر أمه، ففي كوبا إن مجرد القول «أمك» بطريقة معينة إنما كان يُعد إهانة مروعة». كما أخبرني جوزيا بيب فيجورس José Pepe Figueres - رئيس كوستاريكا ومن أوائل المؤيدين الداعمين لفيدل - أنه «في أمريكا اللاتينية، وبخاصة في المكسيك وكوبا، إذا أردت أن تهين شخصاً فإن كل ما عليك فعله هو أن تذكر أمه، حتى لو اقتصر ذلك على اسم الأم! وربما كان فيدل حالةً شديدة التطرف. فلقد كان يبرح به الألم من كون أنه ابن سفاح».

بل إن فيدل قد عانى أكثر من حقيقة أنه كان وُلد لأب كان قد قدم إلى كوبا كـ«جندي لاسبانيا». لقد آلمه هذا الأمرُ بكل المقاييس، في المدرسة تندر به الأولاد بوصفه غير شرعي من وجهين - سياسياً وشخصياً. فقد ذكر رافائيل دياز - بالارت Rafael Diaz-Balart - شقيق زوجته والذي كان في وقت من الأوقات من أكثر أصدقاء فيدل قرباً - أن فيدل كثيراً ما تحدث بما يشبه الحسد عن عائلة دياز - بالارت ذات التراث الاجتماعي الارستقراطي. «فكثيراً ما قال لي: إنك يا رافائيل ذو سمعة طيبة وصيت اجتماعي؛ أما أنا فليس لي صيتٌ اجتماعي طيب، إن لي سمعةً بغيضة مرفوضة. وهكذا فقد كان فيدل يكره لغير ما سبب». وهكذا فإن هذا الرجل الذي

ليس له من عراقة الاسم نصيب، قد أوجد لنفسه آخر الأمر اسماً وصيتاً أيضاً؛ لقد جعل من اسم فيدل كاسترو اسماً مرادفاً لثقافة كوبية تامة الاختلاف وسياسة مختلفة، بل ديناً مختلفاً لم يكن له من قبل.

إن المرحلة التاريخية لكوبا الحديثة التي عملت ـ آخر الأمر ـ على تشكيل فيدل كاسترو إنما كانت قد بدأت في عام ١٨٦٨ مع حرب السنوات العشر فى سبيل الاستقلال؛ ولو كانت أية حرب حرباً على سبيل المقدمة أو الاستهلال، لكانت هي هذه الحرب. فعلى المستوى الفكري والعسكري، كان يعوز هذه الحرب ـ شأن الكثير من أمور الحياة في كوبا ـ المعنى والترابط. فهي حرب اقتضت الآلاف من القتلى والجرحى إلا أنه لم تكن هناك معارك كبرى. ومن الواضح ـ بطبيعة الحال ـ أن الكوبيين عن غير خطة منهم قد ارتدوا بعفوية إلى ما عرفوه من اسبانيا الأم، ممثلاً في حرب العصابات أو «الحرب الصغيرة» التي كانت واحدة من ابتكارات اسبانيا، كما كانت قد استخدمتها بنجاح كبير في مواجهة فيالق نابليون المختلطة المترابطة الخطوط. وفي ظل قيادة القائد ماكسيمو جوميز Maximo Gomez، القائد النابه المجدد، الذي تولى قيادة الحرب من مركزها في الشرق، [illegible] حرب العصابات الكوبيون من اسبانيا سخرية مرة وساموا القوات الاسبانية [illegible] سوء العذاب من جانب إلى آخر من جوانب الجزيرة، مضرمين النار في [illegible] والممتلكات ومعملين التخريب والتدمير لكل شيء في الطرقات، وترك البلد [illegible] أرضه أكثر من مائتي ألف قتيل من كلا الجانبين غير أن [illegible] السنوات العشر. كما أن الدمار قد أتى على الجزيرة، بيد أن [illegible] عام ١٨٩٥ كانت الانتفاضات والثورات قد اشتدت وقويت، خاصة في [illegible] الدرامي المثير للـ «الرسول أو الداعية» جوزيا مارتي Jose Marti [illegible] في شخص الرجل الضئيل الجسم ذي الشارب الأسود، رجل العاطفة [illegible] المستنير، كان المخلص والقائد ومصدر الهام فكرة الاستقلال [illegible] جوزيا مارتي ـ ذلك المفكر الكوبي الوطني الذي لا يعرف الخلل ـ هو [illegible] اسمه على كل جيل «القوة» في عام ١٨٩٥، وهو من أول «الأجيال» [illegible] التي ستكون علامة على مراحل التاريخ الكوبي على نفس [illegible] الحملات الانتخابية علامة مميزة على مراحل التاريخ في أمريكا الشمالية. [illegible] جوزيا مارتي هو من كان فيدل كاسترو يفضل الاقتباس عنه والنقل من كتاباته، [illegible] هو الرجل الذي يفهمه ويُسيء فهمه أكثر من أي شخص آخر في التاريخ الكوبي.

وُلد مارتي في هافانا عام ١٨٥٣، وقد بدأ يعلن عن عدائه للاسبان ويُصرح به لما يتجاوز السادسة عشرة من العمر. فزُج به في معتقل اسباني، حيث أُجبر هناك على العمل في المحاجر الصخرية، فعاش في رعب لن ينساه على مدى العمر كله. عند نفيه من كوبا راح يتنقل بلا استقرار من بلد إلى بلد: إلى اسبانيا ليستجلي سبل القابض على زمام الأمر، وإلى المكسيك الجياشة بالانفعالات والمفعمة بالثورية على الدوام، وأخيراً إلى الولايات المتحدة، التي كان له معها علاقة اختلط فيها الحبُ بالكراهية بعمق. وكان من المثير للسخرية أنه سعد غاية السعادة في منفاه نيويورك. فهناك راح يجمع من حوله الأنصار والمؤيدين، ملقياً بخطبه الثرة المتنوعة ومُقلباً في خلال الكتابات الوطنية الضخمة الخليقة بأن تلهم جيلاً بأكمله. وفي عبارات عامة منطبقة على كوبا الصغيرة، تحدث مارتي في حماس اخر الأمر عن الحرية وعن الروح الإنسانية وعن الأمل وعن الوطن، حين كان بصدد تكوين الحزب الكوبي الثوري، وهو اسمٌ استنسخته الأحزاب لنفسها فيما بعد، كما كان دائم الحديث عن الموت. وفجأة اثر الانتقال من الشعر الاستثاري العالي النبرة إلى الدعوات المفرطة الحماس إلى الموت بغموض وخفاء. لقد أراد أن يموت وهو «يواجه الشمس» بوجهه، هذا ما قاله، وقد وجدت العبارة طريقها ليس فقط إلى الحركة التابعة له بل إلى أنشودة فرانكو «وجه الشمس» وقد أخذت دعوته الشهيرة إلى امتشاق السلاح في بيان مونتكريستي Montecriti على نحو رهيب كئيب قائلاً «النصر أو القبر».

ولكن إذا ما كان مارتي رجل حلم وخيال، إلا أنه كان يملك أيضاً جانباً عملياً ماكراً مخاتلاً. فقبل أن يتوارى في كوبا، كان من الكياسة بما يكفي لأن يعطي حديثاً لجورج إ. برايسون George E.Bryson ـ المراسل الحربي المعروف لجريدة النيويورك هيرالد ـ ملخصاً فيه للأمريكيين أهداف الحركة.

ولم يكن هبوط مارتي على الساحل الكوبي عند رأس مايسي Cape Maisi في الحادي عشر من أبريل عام ١٨٩٥ أمراً خارجاً عن المألوف. فالقدوم بحراً «لتحرير كوبا» كان من الحقائق الثابتة في الحياة السياسية الكوبية. ففي واقع الأمر أنه طالما لم يكن هناك في كوبا سبيل للتغير مكفول دستوريا على غرار النهج الأمريكي، فإن الثوار والمصلحين ـ الصادق منهم والزائف ـ قد اختاروا دائماً كمنهج لهم في إثارة الروح الثورية «الهبوط من البحر» وهو الأمر الذي كان يعني تحدياً للسلطة بطولياً وجسوراً، ثم التحرك ضد السلطة القديمة والوثوب والإجهاز عليها بسلطة جديدة، وعلى الرغم من القلة العددية لجماعة مارتي، إلا أنها عملت بالفعل على الأخذ بكل

دافع أو باعث ممكن من شأنه السير بإرادة الكوبيين حثيثاً نحو القتال، وفي هذه الحرب الثانية كان الاسبان قد عينوا الجنرال ڤاليريانو ويلر Valeraano Weyler قائداً عاماً، وسرعان ما أصبح يُعرف باسم «الجزار»، وذلك عندما كدس بضع مئات من آلاف الرجال والنساء والأطفال في معسكرات الاعتقال حيث لقي عشرات الألوف منهم ميتات مروعة.

ولقد كان على فيدل كاسترو ـ وهو الابنُ الروحي لمارتي ـ أن يستخدم هذه «التجاوزات» في حق من يُعادي أو يناوىء مصلحته. وفي الواقع فإن جوزيا مارتي «الرسول الداعية» كان أول كوبي على الإطلاق يختار الانتحار.

لقد انتهى كل شيء سريعاً في مشادة صغيرة، في الأيام التسعة والثلاثين التي كانت قد أعقبت هبوط مارتي إلى التراب الكوبي. لم يكن قد حدث شيء «دو بال». وقد أوتي بالجنرال ماكسيمو جوميز ـ مرة أخرى ـ قائداً للقوات الكوبية. وعندما اندلع القتال طلب جوميز إلى مارتي أن ينتقل إلى مكان أكثر أمناً، إلا أن مارتي ـ الذي لم يكن من قبل قد خبر هذا الريف الكوبي وقليل الخبرة جداً بحرب رجال العصابات الشاملة ـ اتجه بالفعل صوب العدو. اندفع إلى قلب صفوف الاسبان، وهو يمتطي ظهر جواد أبيض، ولم يكن من غير المتوقع أن تُطلق عليه النار ويُردى قتيلاً.

وفي الأعوام التي أعقبت مصرع مارتي، بدأ الشعبُ الكوبي يكتشف بالتدريج عمق انفعاله الداخلي. إن سكان هذه الجزيرة الصغيرة «العديمة الأهمية» المنسابة إلى حد ما بين حلم النوم وحلم اليقظة كانوا مهيئين للشعور الكاذب بالعظمة والجلال، وهو الأمر الذي أوقع بهم آخر الأمر في شرك واحدة من القوى العظمى وفي معاداة الأخرى. وكما أوضح جويلليرمو كابريرا Guillermo Cabreera ـ ابنُ ملك اسبانيا والشاعر الكوبي ـ فإنه باختيار مارتي ـ لموته الذي ينطوي على فعل من أفعال التضحية ـ لنوع من «الرصاصة الفضية» يكون «قد حمل الجمهورية الكوبية الوليدة على أن تولد وقد التفت حول رقبتها جثةٌ، هي ثقل ميت لم يكن مجرد انتحار خفي وإنما كان ازدراءً أسرياً».

في هذه الأثناء، بينما كان الوطنيون الكوبيون قد ألم بهم الاضطراب من جراء موت مارتي الذي وقع في ظرف من الوقت غير مناسب، واصلت حُمى الحرب تصاعدها في الولايات والأقاليم، ولقيت الشوڤينية أو المغالاة في الوطنية دعماً وتعضيداً من جانب صحافة لاهبة ملتهبة، وذلك بتأثير من جريدة «العالم» World لصاحبها جوزيف بوليتزر Joseph Pulitzer ومنشورات ويليام راندولف William

Rand ذات الأثر القوي في التنبيه على الغلو في الوطنية، ومن ثَمّ فإنه في
خامس عشر من فبراير عام ١٨٩٨ رست بميناء هافانا سفينة روسية ضخمة تحمل
سم ماين Maine، نُسفت في ظروف غامضة وقُتل فيها ٢٦٦ من رجال البحر
'مريكيين، فصرخت الأمة الامريكية الشابة «لا تدعو السفينة ماين تغيب عن
كرتكم» وقد استجابت أمريكا للذكرى بالذهاب إلى الحرب.

فقد نجم عن ذلك في الأول من يوليو عام ١٨٩٨ اندلاع المعركة البرية
وحيدة من نوع الحرب الخاطفة، في مكان ليس بالبعيد عن الموضع الذي استشهد
به جوزيا مارتي، وقد باشر تيودور روزفلت ـ المعروف باسم تيدي Teddy ـ قيادة
ذه المعركة في اتجاه مرتفعات سان خوان San Juan هو و«فرسانه الأشداء»، وفي
واقع فإن هذه المعركة قد تأيدت مكانتها في التصور التاريخي لأسلوب الهدف
مصيري الواضح بما لا يُمكن معه إنكارها. فإذا بالتاريخ يلفي الامريكيين يتسلقون
لجبال في شجاعة في مواجهة قوة النيران الاسبانية. صحيحٌ أن الكثيرين من جنود
لولايات المتحدة كانوا قد فقدوا خيولهم وكان عليهم أن ينتشروا فوق الجبال
ترجلين. فما أبهوا لذلك. لقد كان الأمريكيون هم رجال العصر الأشداء المتفوقون،
ل إنهم كانوا يجدون متعة بالغة في أكثر الملمات تطرفاً وشدة. وفيما بعد كتب تيدي
روزفلت عن اليوم المشهود، قال: «داهمنا الاسبان بالأمس وكان لنا معهم قتال
شرس دام لساعتين ونصف الساعة. وقد أجاد الاسبانُ الرمي والضرب، إلا أنهم لم
يقووا على الصمود عندما اندفعنا مهاجمين. فكان لنا معهم قتال عنيد».

وما هو إلا شهر تلى أو يكاد إلا وكانت الهدنةُ قد وُقعت وهي هدنة فصلت
تماماً هذه القاعدة من قواعد أمريكا اللاتينية عن الامبراطورية الاسبانية.

وها هم الآن القادة الامريكيون، في احتفال منهم بما «حققوا» من نصر، ركبوا
بمفردهم دون حلفائهم من الكوبيين، وقصدوا إلى مدينة سانتياجو التاريخية ـ وهي
المدينة التي كانت معقل التمرد والثورة الكوبية. وهناك، وفوق قصر الحاكم، رفع
الأمريكيون علمهم ـ لا العلم الكوبي ـ في مشهد مُهين للقومية الكوبية الهشة بحيث
كان على القوميين الكوبيين ولسنوات تلت أن يمعنوا الفكر في الواقعة في كل لحظة
من لحظات يقظتهم تقريباً. وفي خارج المدينة وقف القائدُ الكوبي كاليكستو جارسيا
Calixto Garcia هو ورجاله في يأس ومذلة بينما كان الامريكيون المناهضون
للاستعمار يستولون لا على كوبا بل على الاستقلال الكوبي.

وبموجب معاهدة باريس التي تلت تلك الأحداث، أحس الكوبيون تماماً بمزيد

من الذل والهوان، فقد تم إقرار المزيد من الحقوق للأمريكيين فوق كوبا، ثم دعم هذه الحقوق، والتسليم بها آخر الأمر. ففي الحقيقة لم تكن كوبا الآن ـ بالنسبة للأمريكيين ـ سوى مقدمة أو عمل تمهيدي، ففي غضون الثلاثين عاماً التالية على ذلك، وفي قلب القرن العشرين تماماً ـ وهو زمن العصر الأمريكي ـ كان على الامريكيين الشماليين أن يتحركوا إلى جمهورية الدومينيكان وإلى هاييتي ونيكاراجوا ـ وكانوا يجعلون ذريعتهم في ذلك أفضل النوايا الطيبة، من حماية لتلك الدول الصغيرة المسرفة من الدائنين الأوروبيين وذب الآخرين بعيداً عن نصف الكرة الغربي، إلا أن هذه التدخلات قد خلفت آباراً عميقة من الضيق والضجر كان عليها أن تنتظر كامنةً حتى تتفجر ينابيعها في المستقبل لدى الأجيال القومية الشابة التي ظهرت في الخمسين سنة التالية.

وعندما وضعت الحربُ الاسبانيةُ ـ الأمريكية أوزارها، كان من غير الممكن أن يندلع الشقاق علنا بين الولايات المتحدة وكوبا. إذ كانت الولايات المتحدة الشريك الأكثر أهمية لكوبا، فقد استثمرت في اقتصاد كوبا ما يربو على الثلاثين مليون دولار. وعلى الرغم من معارضة مجلس الشيوخ الأمريكي الذي صوَّت ضد الاحتلال الأمريكي للجزيرة حالما تكون الأعمال العدائية قد انتهت، إلا أن نهاية الحرب أتبعت بثلاث سنوات من الاحتلال العسكري، ولم تصبح كوبا مستقلةً في الظاهر إلاَّ في عام ١٩٠٢.

وحول هذا الوقت ـ في عام ١٩٠١ ـ فرضت الولايات المتحدة على الدستور الكوبي إدخال تعديل بلات Platt. وهو التعديل الذي تسمى باسم السيناتور الجمهوري أورفيل بلات Orville Platt عن ولاية كونيكتو Connecticut، وقد خول التعديل للولايات المتحدة الحق في التدخل عسكرياً في الجزيرة مرة أخرى في حال اندلعت الحربُ الأهلية أو في حالة ما إذا كانت كوبا قد ضربها الخطيرُ من الوباء (وهما الأمران اللذان يتهددان الأمريكيين دائماً، وبهما اشتُهر الكوبيون). وقد فرض التعديلُ مزيداً من القيود على قدرة الحكومة الكوبية على استجلاب القروض وعلى الدخول في معاهدات مع قوة ثالثة، كما أن التعديل مكن الولايات المتحدة من إقامة قاعدة بحرية لها في جوانتانامو Guantanamo، وقد كتب المؤرخ البريطاني الكبير هف توماس Hugh Thomas كاشفاً عن أن «هذه القيود والحدود كانت من القسوة على كوبا قدر قسوة معاهدات واتفاقات ڤرساي وسانت جيرمان في عام ١٩١٩ المفروضة على ألمانيا والنمسا المهزومتين ـ كما أنها كانت مثيرة للحنق على نحو بالغ»، وكان الفارق هو أن كوبا كانت ـ ظاهرياً ـ قد «كسبت» الحرب.

وبعد ثلاثة عقود من التاريخ شب فيها فيدل كاسترو في عصر أبطال Martiano فراح يُقلب في ذهنه دائماً فكرة الخروج من الماضي. لقد دخل كاسترو عنفوان الرجولة في معترك كوبي صراعي متألم بمرارة من إحراز نصف الحريات والظفر بانتصارات محزونة كاسفة، لقد كان ـ دائماً وأبداً ـ تواقاً إلى استرداد العظمة التي وقر في علمه أنها عظمةُ كوبا وسؤددها والتي لم يتوقف جيله قط عن الحديث عنها في غير كلل أو ملل. ومع ذلك فإن جيله من الكوبيين الذين تستبد بهم الأفكارُ على نحو مسرف في مرضيته «قد عرفوا» أن الذنب والجريرة فيما كانوا عليه من حال ما كان يُمكن أن يكون ذنبهم أو جريرتهم ـ إنه لا بد قد كان أمراً شديد الفظاعة أضاف عبئاً ثقيلاً إلى كاهل أناسٍ ذوي طبيعة تشبه طبيعة سيزيف في الأسطورة اليونانية القديمة قد تجشموا حمله في الماضي. كلا، إن الذنب يجب أن يكون ذنب الأمريكيين والوزر يجب أن يعود على الفضول الأمريكي وعلى القادة الأمريكيين الذين استولوا على سانتياجو لحساب الكوبيين المغاوير ـ ثم استولوا عليها منهم.

الفصل الثالث

التوسل إلى الظفر

لقد رأيته صبياً ذا طموحات عديدة. لقد تعلقت رغبته بالنجاح في كل شيء. وقد وصفوه بـ «فيدل المجنون»، غير أنه كان جذاباً ساحراً. كان مزيجاً شديد الغرابة. فلقد كان ـ بادىء ذي بدىء ـ صبياً من أبناء الريف، ولكن من عائلة موسرة. وكان صبياً فظ الطبع جذابه معاً، مزاجُ خليط جمع بين اسبانيا وكوبا. . .

الأب آرماندو ليونيتي،
المدرس الخصوصي لفيدل كاسترو
بمدرسة الجيزويت العليا

في ذلك الطرف الشرقي البعيد من كوبا، وفي قرية بيران Biran، ظهر أبناء كاسترو إلى الوجود ليتشكلوا بحسب أهداف المجتمع الكوبي وكأنهم أوراق شجرة انفرط عقدها وذلك قبل عصف رياح التغيير التي لا ترحم ولا تلين.

ومنذ نعومة أظفاره كان فيدل طفلاً عفيف الطبع حاد المزاج بشكل غير عادي، ففي المدرسة كان يطلق لخيال عقله العنان، فراح هناك ـ وعلى مدى ساعات وساعات ـ يبتكر للحرب ألعاباً. وقد أحب الألعاب الرياضية وكان يجد متعة كبيرة فيما تثير هذه الألعاب من روح المنافسة، ولكن ما كان يحصله من متعة في مضمار القوة العضلية كان يخسره في مضمار المعرفة العقلية. فهو ـ مثلاً ـ كان صاحب رمية قوية في لعبة البيسبول، لكنه كان ذا قدرة على الضبط والتحكم ضعيفة. ففي أحد الأيام قال له روبرتو مارتينيز Roberto Martinez المدرب وقد كانوا يلعبون في عصر يوم حار في بيران: «كفى يا فيدل كفى».

فتساءل كاسترو الصغير مغضباً: «ولماذا؟».

فأجاب روبرتو قائلاً: «لأنني نال مني الإعياءُ والتعب، فأنت عندما ترمي بالكرة عالياً نحتاج إلى فردين للحاق بها من بعدك».

وقد أراد فيدل ذات يوم - وقد كان في سن المراهقة - أن يستخدم سيارة آنجيل. فأبى آنجيل عليه ذلك، فما كان من فيدل إلا أن خرج من البيت مسرعاً في حنق شديد. وبعد ذلك بوقت قصير إذا بأحد المستخدمين يندفع إلى داخل البيت وهو يصيح في إلحاح وعجلة قائلاً: «سيدي آنجيل، إن فيدل يحاول إدارة السيارة. وإنه يقول إنه لو تعذر عليه إدارتها فإنه سوف يضرم فيها النار؟». وقد أوقف فيدل في الوقت المناسب، إلا أن أحداً ممن شهدوا الواقعة لم يساوره أدنى شك في أنه كان سيضرم النار في السيارة بالفعل.

وقد وردت عن جوزيا باردو لادا Jose Pardo Lhada - وهو صديق حميم لفيدل ثم أصبح بعد ذلك معارضاً سياسياً له - حكايةٌ تقول إن واحدةً من ألعاب فيدل المفضلة في تلك الأيام الباكرة في الشرق كانت انتظار القطار الذي كان يعبر جسراً مُقاماً على نهر مايارى Mayari، فكان فيدل عندما لا يكون بين القاطرة والجسر إلا بضع ياردات قليلة يثب قافزاً إلى المكان الضئيل الضيق الموجود في أسفل القضبان الحديدية ذات الصرير، وبحماس بالغ كان يقف هناك في انتظار مرور القطار القوي فوق الجسر. وقد كتب باردو لليادا في ذلك يقول: «لقد كان من شأن هذا أن يجعل سائر بدنه في حالة اهتزاز شديد، وكان عليه طيلة الوقت أن يظل متدلياً معلقاً من يديه ممسكاً بالعارضة الخشبية (الفلنكةُ) التي كانت تحميه».

أما الأولاد الآخرون فكانوا مختلفين تماماً، خصوصاً (وعلى نحو رمزي تقريباً) أخيه الأصغر راؤول Raül، ففي حين كان فيدل ضخم الجثة صاخب الطبع غير منضبط السلوك، كان راؤول ضئيل الجسم منطوي الطبع عاقلاً في سلوكه. بل إن راؤول - حتى وهو طفل - قد تمثل الحضارة والحياة الأسرية، فهو على طرف النقيض من فيدل الذي انخلع من جذوره مبكراً ولم يكن مطبوعاً أساساً بطابع اجتماعي، وان راؤول هو الذي كان مهتماً بقضايا العدل الاجتماعي والتنظيم الأيديولوجي، في حين كان فيدل التجسيد الصميم لفعل أو عمل كان يسعى بدأب دائم لتلمس الحدود والمظاهر الخارجية للهيمنة الشخصية والسيادة العليا.

وما دام ليس في الإمكان التثبت من الحقيقة، فإن الشائعات التي من الاتساق بحيث يتعذر إغفالها أو تجاهلها قد تحدثت لسنوات في بيران وفي غيرها من الأماكن بالقول بأن راؤول كان من صلب أب اخر، ربما كان ضابطاً مغموراً بعض الشيء يدعى كابتن فيليب ميرابال Felipe Mirabal، الذي كان على رأس قاعدة للجيش الكوبي قرب بانز Banes المعروفة بالمدينة المتحدة للفاكهة United Fruit Town.

بالإضافة إلى أن النقاش الذي دار باضطراد قد تطرق إلى «آباء» آخرين محتملين. فمن المؤكد أن الأعراف والعادات الجنسية في بيران كانت من التساهل والتسيب بما فيه الكفاية وأن الأمر يزيد على مجرد احتمال أنه في مكان كهذا منفتح ولا يقيم وزناً للتمسك بقواعد السلوك الفاضل القويم أن تكون امرأةٌ على شاكلة لينا Lina لها عُشاق أو أمكنها أن تجد لها عشاقاً من وقت لآخر.

غير أن «الدليل» الوحيد على وجود أب آخر إلى جانب آنجيل أو معه إنما كان المعاملة التمييزية الشاذة، حيث إن ميرابال ـ وهو أحد ضباط باتيستا Batista ـ قد أودع السجن بمجرد استيلاء فيدل على السلطة. فقد أُلقي القبض عليه وسرعان ما أفردت له زنزانة وحُكم على ميرابال بالموت، ولكن من عجب أن الحكم لم يُنفذ فبه قط، في الوقت الذي كان فيه جميعُ المحيطين به يسقطون كحيوانات بائسة مطاردة في أيدي فرق الموت التابعة لفيدل وراؤول.

وأياً ما كانت القصةُ الحقيقية، فإن أصدقاء الأسرة قد درجوا دائما على المصادقة على مسألة الأصل الأبوي لراؤول، وفي كل وقت كان يُطرح فيه موضوعُ راؤول على ميرابال في السجن كان يغدو بارداً ساكناً بشكل غريب وما كان ينطق ببنت شفة.

ومن المؤكد أن فيدل قد تلقى في مزرعة آنجيل كاسترو أولى أفكاره عن العدالة الاجتماعية (على ما كانت عليه هذه الأفكار من فجاجة وعدم تبلور) وكذلك أولى تجاربه مع السياسة الديمقراطية (على ما كانت تنوء به من أخطاء وتجاوزات). فقد شاهد أباه ـ وقد أصبح الآن نسخة جاليجية لزعيم قبلي كوبي من الكاسيك ـ وقد راح يصرف من خدمته انتقاماً «القيادات السياسية أو الكوادر السياسية» أولئك الذين كانوا يجرون وراء المنصب والمكانة، وكان كلٌ منهم يتحكم في المئات من أصوات الناخبين. وقد قال كاسترو لصديق له هو كارلوس فرانكي Carlos Franqui «في ذلك الحين كانت الأمور السياسية تحت رحمة الدعم المالي، وإني لأتذكر الأناس الداخلين والخارجين من الحجرة حيث المكان الآمن بالبيت، . . . لقد كان ينفق على كل حملة سياسية ما بين ثمانية أو عشرة آلاف بيزو Pesos. ولقد تشكلت في ذهني عن هذا كله فكرةٌ ضعيفة واهنة». وكانت لينا هي الأخرى تشجب على الدوام عمليات التسريح من العمل لأسباب سياسية ـ قالت هذا للطماعين من رجال الصحافة ورجال السياسة ـ إلا أن ذلك ـ كما بينه فيدل بلطف ـ إنما كان منها بسبب «نوازع البخل والتقتير فيها».

وفي الواقع إن فيدل لم ير قط في صباه أي مظهر من مظاهر نظام ديمقراطي عامل، وإنما رأى نظاماً ريفياً للسلب والنهب، فيه كل فرد مهتم بالأخذ أما المكاسب فهي تذهب إلى الأقوى، كما أنه أبان عن حياته بكاملها بأن وَحَّد في هوية واحدة تلك «الديمقراطية» المفترضة على ما بها من زيف وفساد وديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية التي هي أكثر حقيقة وأبعد غوراً في صدورها عن الذات، والواقع أنه صادف في شخصية والده ـ الزعيم القبلي الاسباني Cacique ـ الباردة المتسلطة نموذج الرجل الأقوى في محيطه، وقد كان يروفه ويمقته في آن معاً؛ ولكن على الرغم من هذه الاستجابات المتعارضة المتصادمة إلا أنه كان قد تعلم عن آنجيل الكثير. فعن آنجيل تشرب مبادىء ازدرائه لأنظمة «القانون» المتعارف عليها ـ بل وأخذ عنه النموذج الفائق النجاح في كيفية أن يصنع المرءُ قانونه الخاص. ومن آنجيل اكتسب ازدراءه للأنظمة البيروقراطية في العالم، ومن انجيل تعلم كل ما في التجارة من خداع وحيلة بهدف وضع اليد على تلك التحفظات والقيود السائدة السائرة والانتقاء منها وتدميرها لحساب ميول المرء وشهواته.

إن آنجيل ولينا ـ لو تُركا وشأنهما ـ فربما ما كانا قد تزوجا قط، ولكن بما أنه كان لا بد لأولادهما أن يتعلموا في المدارس الكاثوليكية، لذا فقد كان على الاثنين ـ آنجيل ولينا ـ أن يضفيا على علاقتهما شيئاً من الشرعية والقانونية.

ومرت سنواتٌ عديدة، وراح فيدل يعود بالذاكرة إلى المدرسة الصغيرة في بيران ثم إلى كلية لا سال La Salle وكلية دولورس Dolores، فحكى قائلاً: «لقد قضيتُ معظم وقتي في المدرسة مشاكساً. وربما يرجع ذلك إلى ما كانت عليه عائلتي من مكانة ووضع اجتماعي مرموق، أو ربما كان يرجع إلى طبيعة سني، وأذكر أنني كنتُ عندما لا أرضى عن شيء قالته لي مُعلمتي أو عندما كان يستبد بي الغضب، كنتُ أسب المعلمة وأغادر المدرسة من فوري منطلقاً في العدو بأسرع ما كنت أستطيع... وفي أحد الأيام كنتُ قد سببتُ المعلمة لتوي، ورحتُ أندفع جارياً هابطاً الممر الحجري، فوثبت إلى الأمام فإذا بي أهوى على طاولة طعام عليها صندوق من حلوى الجوافة وقد برز منها مسمار حاد. وفي أثناء وقوعي انغرس المسمار في عضلة لساني. وعندما عدتُ إلى المنزل، قالت لي والدتي: «لقد عاقبك الربُ على ما وجهته إلى المعلمة من سباب». فلم يساورني أدنى شك في أنه قد كان ذلك صدقاً وحقاً».

إن فعاله الصارخة والعنيفة أحياناً والتي يبدو أنها كانت تشيع فيه قدراً كبيراً من

البهجة لغرابتها المتطرفة وبالأحرى لما كانت تخلفه من أثر بارز ملحوظ على حدٍ سواء، هذه الفعال سرعان ما جفت عليها القوالب. فقد تمرد وانقلب على كل شخص وراح يكيل الإهانات مرات جد كثيرة ـ لقد كان يذهب إلى المدرسة، لكنه ما كان يحفل بالدرس ـ إلى حد أنه أخبر القس فري بيتو Fre Betto ـ فيما بعد ـ بتلذذ واضح قائلاً: «لقد كنتُ في السابق خبيراً في تلك الأمور».

إن الحرب العالمية الأولى كانت قد خلفت في أعقابها ملايين عشرة من الرجال صرعى على التراب الأوروبي المشبع بالدماء، إلا أنها لم تطل كوبا النائية البعيدة. صحيح أن مطالع العشرينات كانت علامة على عصر فيه توقفت نزعة الولايات المتحدة المحدودة نحو استعمار كوبا نزولاً على ما للولايات المتحدة من مقومات العظمة الخالصة وتحملت أعباءً كثيرةً. إذ يجب إسداء الشكر للأطباء الأمريكيين والكوبيين عندما تفشت حمى الصفراء، كما يجب إسداء الشكر للساسة الأمريكيين، إذ من المفترض أن تكون المؤسسات والتنظيمات الديمقراطية قد نبتت على حساب الأنظمة والمؤسسات الضعيفة الواهنة في الجزيرة الاسبانية. كما أن السائحين من الأمريكيين يسعون في كل وقت بحثاً عن أحذية جلد التمساح وعن أقمشة مصارعة الثيران الجميلة وعن أمسية يمضونها في ملهى ليلي كوبي زاخر بالإثارة والحياة، مما جلب على الجزيرة دولارات أمريكية من حيث لا تدري ولا تحتسب. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ارتفعت أسعار السكر ارتفاعاً كبيراً جنى منها الكوبيون والأمريكيون ثروات خرافية، ومنهم آنجيل كاسترو، إلى حد بلغ الوصف بأنه «رقصة الملايين» الهيستيرية. وكان أن ظهرت في تلك السنوات السابقة مباشرة على عام ١٩٢٦ ـ عام ميلاد فيدل ـ القصور الكبرى والملاهي والمنتديات ونوادي هافانا المحلية وكذلك تلك المدينة البيضاء المتلألئة على زرقة الكاريبي، بقلعتها المغربية التاريخية المتألقة في إطلالتها فوق ميناء المدينة كأثر كئيب باق على الصراعات القديمة التي لم تستقر بعد، وقد أصبحت واحدةً من أكثر المدن بهاءً وجمالاً في نصف الكرة الغربي ـ وواحدةً من أكثر المدن تمسحاً بالصبغة الأمريكية.

وذات يوم في هويوستون أبحر معي في حديث الذكريات عالمُ النفس الكوبي المرموق الدكتور روبن داريو رامبات Ruben Dario Rumbat، متنهداً عجباً من حدة التاريخ الذي كان قد تعلمه صبياً، «آه، العشرينات. لقد كانت زمن رغد ورخاء لكوبا. لقد وُصفت العشريناتُ بأنها سنوات «البقرات السمان». فلقد كانت لنا فيها سبع سنين رخاءً ووفرة. فقد علت قيمة السكر بشكل مضطرد الزيادة ـ لقد كان قلباً.

كان ثمة رخاء مفرط. وقتها كان الجنرال جيراردو ماشادو Gerardo Machado قد استولى على السلطة. وكان في بداية أمره رئيساً ذا شعبية محبوباً. ثم جاء زمن البقرات العجاف. لقد غاص ماشادو في لجة من الملق والمداهنة، ذهبت بلبه. فقد بدأ كصاحب نزعة قومية وعسكري معتدل حاذق ذكي. وعلى يده تم بناء وتشييد معظم العاصمة. ثم شرع في تكميم فم الصحافة، وقد أعاد صياغة الدستور بما يحقق بقاءه في السلطة. . .».

وكانت رئاسات «كوبا الجديدة» فيما قبل ديكتاتورية ماشادو، قد راحت تتقلب بين حزبين رئيسيين، هما حزب المحافظين وحزب الأحرار، مع أقل قدر من السيادة الشكلية والظاهرية للأمة مروراً ـ آخر الأمر ـ بجماعة قليلة من الرجال الذين كانوا قد أبلوا بلاءً حسناً في حرب الاستقلال. إلا أن الديمقراطية السياسية الناشئة ـ بقد ما كانت هشة واهنة ـ لم تقو على الاستمرار فماتت مع خضوع جماهير الشعب الكوبي لرجل هو زعيم الحزب الشيوعي الكوبي خوان مارينللو Juan Marinello، المعروف باسم «موسوليني الاستوائي».

وحين راح زبانية ماشادو يطوفون بأرجاء البلاد، أردى الموتُ مئات من الناس لمجرد الاشتباه في عدم ولائهم لماشادو. وقد أصبحت جامعةُ هافانا مركزاً للمعارضة وقد أغلقت في عام ١٩٣٠ بشكل دائم هي وجميع المدارس العليا ودُور المعلمين الابتدائية. وكرد على القمع المتزايد تشكلت تنظيماُت سرية للطلبة والحرفيين، وكانت أهمها حركة الـ A B C التي بقي اسمها الحركي في العادة طي الكتمان الشديد. وعندما كان فيدل كاسترو السريع التأثر يدرج أطوار النضج في كوبا، شرعت منظمة الـABC ـ وهي جماعة من الطلاب والحرفيين على غرار ما ظهر مؤخراً من منظمات كمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان ومنظمة توباماروس في الأروجواي ومنظمة الـF M L N في السلفادور ـ في استخدام «إرهاب المدن» في سائر ربوع كوبا ـ فقاموا بوضع المتفجرات في الطرقات، وتعرضوا لرجال الشرطة بالقتل، كما ظنوا أنه في حدود أزمة على الصعيد السياسي مع استخدام الإرهاب ما يكفي لإغراء الولايات المتحدة أو حثها على التدخل في كوبا للإطاحة بحكم ماشادو الذي لم يعد في مقدوره الحفاظ على «النظام» الذي أحبه الأمريكيون الشماليون حباً جماً.

إن الكثير من التكتيكات المؤخرة التي مال كاسترو إلى استخدامها كانت قد بدأت ـ إلى حد بعيد جداً ـ مع جماعة الـ ABC. وقد حذت الـABC حذو الجماعات السرية المبكرة التي تشكلت في فرنسا فيما قبل الثورة الفرنسية، فكان

لها ـ على غرار التنظيم الشيوعي ـ نظام «الخلية» باعتباره الوحدة الأساسية في البنية التنظيمية. وفي الحركات السرية التي نظمها فيدل مؤخراً، لم يكن أفرادُ الخلايا يعرف الواحدُ منهم الآخر، كما كانت تظاهرهم فرق إرهاب حقيقي على استعداد للموت في سبيل الثورة. وكانت لجماعة الـ ABC فلسفةُ جموحٌ طموحٌ ولكن يعوزها التبلور والنظام وهو ما أعوز فلسفة فيدل من بعد ـ فَمُني الجيلُ السابق بالفشل والهزيمة في العمل على ضرورة إقصاء المد الاستعماري عن الاقتصاد الكوبي، وكذا في العمل على تحقيق استقلال كوبا عن الولايات المتحدة، وعلى مدى كل «الأجيال» الثورية تناقلت هذه البيانات البسيطة وأدارت الحديث حولها جميعاً.

وفي رأي خوستو كاريللو Justo Carrillo ـ رجل السياسة الكوبي الديمقراطي والمفكر ـ أن كوبا قد ظهرت نتيجة للحرب الإسبانية الأمريكية كأمة قعد بها العجز أو قل كأمة «ذات سيادة قاصرة أو محدودة». وقد استخدم الرجلُ تحديداً الكلمة الاسبانية الغير المألوفة Atimia ذلك لأنها تعني «فقدان المكانة أو تدهورها»، وهو ما يتلاءم تماماً مع كوبا في سنواتها الأولى، وقد أردف الرجلُ قائلاً: «لقد ولدت كوبا مشلولة الإرادة». حقاً، إن نزعة قومية كوبية هشة قد ظهرت من بين انقاض الحرب ضد الإسبان الذين كانوا قد أحكموا سيطرتهم على كوبا لأربعة من القرون. وقد كتب الكاتبُ الكوبي كارلوس ألبرتو مونتانر Carlos Alberto Montaner متابعاً أفكار كاريللو ومعمقاً لها، قال: «ومع ذلك، فإنه على فرض تحقق هذا الهدف فإن الروح القومية الكوبية قد أصبحت مشدودةً على نحو يتهددها بالخطر إلى عارضة مرمى واحد: الولايات المتحدة، شأنها في ذلك شأن صبي صغير يُعد لقتال كبير. وكان موضع السخرية قائماً في أن كوبا قد دانت ـ وبدرجة كبيرة ـ للبلد نفسه (الولايات المتحدة) باستقلالها السياسي وبرخائها النسبي في الاقتصاد. ومن هنا كان الضعف والتناقض اللذان يشوبان الروح القومية الكوبية. . .».

ولكن لم تفعل الولايات المتحدة شيئاً في ظل الأحوال الراهنة، فقد كان ذلك طوراً جديداً في شخصية الأمريكيين المخلصين، تلك الشخصية التي لا يُمكن التنبؤ بسلوكها حقاً، كما أنها دورية التقلب من حال إلى حال، وهي تقلبات كان يُمكن للدول الأصغر أن تضرب عنها صفحاً بباعث من عدم الفهم التام. فأحيانا ما بدا الأمريكيون وكأنهم مدفوعون بباعث من القوة الخالصة، وأحياناً ما بدوا وكأنهم مقموعون بالشعور بالذنب، وطوراً ما يكونون مدفوعين قُدماً بفعل ما يحدوهم من أحلام في تقدم العالم وخلاصه ـ ومن ذا الذي كان بوسعه أن يعرف في أي طور من

الأطوار هم؟ في تلك الآونة كان فرانكلين د. روزفلت رئيساً، مع ما واكب عصره من كساد كبير مقترن بالبطالة داخل البلاد و «سياسته في حسن الجوار» إزاء أمريكا اللاتينية في خارج البلاد. أما عن الموقف في كوبا، فقد قام مكتب التحقيقات الفيدرالي بتقديره عام ١٩٣٣، فمما يدعو إلى السخرية ويؤدي إلى خيبة أمل العديد من الكوبيين أنه الآن «لم يكن هناك اعتراض ممكن على عمل من أعمال التدخل».

وفي أغسطس من عام ١٩٣٣ أزيح ماشادو أخيراً عن السلطة بواسطة قوة ائتلاف عسكري ومدني. غير أن دراما أحداث الثلاثينات لم تكن إلا على أعتاب البداية فقط. فبنهاية الحكم الديكتاتوري الذي كان قصيراً لكنه كان متميزاً بمرارة، كان قد حل محل «جيل عام ١٨٩٥» جيلٌ جديد من الكوبيين تشكل وفقاً لأساليب جديدة من الناحيتين السياسية والفكرية. وهو جيل يُسمى بحق «جيل الثلاثينات»، كان عليه أن يُمسك بزمام الحياة السياسية في كوبا حتى عام ١٩٥٩.

وفي ذات يوم وقت أن كان فيدل في سن المراهقة بكلية دولورس Dolores (كلية الآلام) بمدينة سانتياجو، جلس فيدل وخط خطاباً وجهه إلى الرئيس فرانكلين د. روزفلت. وقد كتب الخطاب بأسلوب فيه من التصنع والتذلل الواضح قدر ما في الأسلوب الذي كان عليه أن يستخدمه بنجاح مع جماهير الشعب فيما بعد، حيث قال للرئيس الأمريكي: «صديقي العزيز روزفلت، إن معرفتي بالانكليزية ليست كبيرة. إلا أنني أعرف منها بقدر ما اكتب لك. إنني محبٌ للاستماع إلى الراديو، وإني لأشعر بسعادة غامرة لما سمعتُه في المذياع من أنكم سوف تكونون رئيساً لفترة رئاسة جديدة. وأنا وإن كنتُ صبياً صغير السن إلا أنني كثير التفكير، بيد أني لا أظنني أكتب إلى رئيس الولايات المتحدة. فلو تفضلتم بأن ترسلوا لي ورقة نقد أمريكية خضراء من فئة العشرة دولارات في مظروف خطاب، ذلك لأنه لم يقع لي قط أن رأيتُ ورقة نقد خضراء أمريكية من فئة العشرة دولارات وإني لأود أن تكون في حوزتي واحدةٌ منها» وقد طلب إلى الرئيس أيضاً أن يضع توقيعه على الورقة المالية. وعلى الفور، أُرسل بالبريد على لوحة الإعلانات في دولورس خطابٌ من فرانكلين روزفلتْ، وفي الخطاب شكرٌ من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى فيدل كاسترو على ما في خطابه من «تأييد وتهنئة».

وقد فُتن لويس أجويلار Luis Aguilar ـ وهو زميل دراسة لفيدل، وهو شاب صغير في عينيه بريق وفي مظهره وسامة، وهو سليل أسرة موسرة من سانتياجو ـ بهذا الزميل الطالب الذي كان من الجسارة بحيث يكتب إلى فرانكلين د. روزفلت. اقترب

لويس من فيدل ذات يوم عندما كان يلعب كرة القدم. لقد كان على لويس أن يعرف السبب الذي حدا بصبي بسيط في كلية دولورس في سانتياجو أن يفعل شيئاً كهذا وقد فسّر فيدل الأمر ببساطة بأنه كان قد قرأ في الصحف عن انتخاب روزفلت فعزم أمره على أن يكتب له، إلا أنه أخبر لويس بأنه قد مُني بخيبة أمل، ذلك لأن روزفلت لم يكن قد بعث له إلا بخطاب دون مال.

وحتى في ذلك الحين كان فيدل يعدُّ نفسه مناضلاً ـ وإن كان غراً قليل الخبرة إلا أنه حاد جاد ـ يخوض معركة ضد الظلم الاجتماعي وفي سبيل «الطهر» الاجتماعي. وكان الصبيةُ الذين من جزيرة ساللي Salle عندما يريدون الذهاب إلى جزيرة رنتي Rente القريبة للنزهة بصحبة آباء الكنيسة في ساللي على متن قاربهم البخاري رأس الزاوية Cateto، كان عليهم أن يعودوا في المساء عبر شوارع اصطفت على جوانبها الحانات والمواخير. وكانوا وهم يسيرون في صفين على أحد جانبي الطريق، كانت العاهرات وزبائنهن يظهرون من النوافذ ويغرونهم بالدخول. وفي السنوات الأخيرة، كان فيدل نفسه يُؤمِّن على كراهيته الحميمة الملحة على نفسه للأحياء ذات الأضواء الحمراء التي يدين لها بهذه الصدمة الأولى الباكرة، وإن كانت أفكاره الأخيرة المسيطرة على ذهنه شأن مكافحة الدعارة أكثر عمقاً وأشد تعقيداً بما يفوق تلك الخبرة الباكرة البريئة.

وفي عام ١٩٤١، وهو أحلك أعوام الحرب العالمية الثانية، انه العام الذي شهد هجوم أدولف هتلر على روسيا، وكان فرانشيسكو فرانكو في السلطة في اسبانيا، ووقع فيه الهجوم الياباني على بيرل هاربر. وفيه دخل فيدل كاسترو واحدة من أعلى المدارس قدراً في كوبا.

وفي حي المال بهافانا قامت كلية الميلاد المقدس Belen شامخة كالقلعة دفاعاً عن الثقافة الاسبانية إلى حد الرجوع إلى نظام محكمة التفتيش. فقد بُنيت عام ١٩٢٦، وقد ظهرت إلى الوجود في مبنى أمامي مسطح ذي أربعة طوابق، له واجهة قوية معمارها من طراز الباروك. وفي الخلف كان المبنى مستدير الشكل، ذا أجنحة صغيرة راحت تمتد وتتسع كالجذور الاجتماعية في العديد من مستويات المجتمع الكوبي. وأحياناً ما كانت الكلية تُسمى «الصرح الحقيقي للتربية والتعليم»، فقد وفرت واجهة فكرية فخمة للجيزويت الذين كانوا كلهم تقريباً من متشددي المحافظين الاسبان في تلك السنوات، كما أن جميعهم تقريباً كانوا من أنصار فرانكو الذي كان قد وُلد في جاليشيا في وقت قريب من وقت ميلاد آنجيل كاسترو. وقد تعرف أنصار

فرانكو هؤلاء إلى فيدل الشاب الـذي كان قـد أظهر ميـلا شخصياً واضحـاً إلى النظام الشمولي والسيطرة الشمـولية، الأمـر الذي كـان لا يتلاءم فعـلاً وبيئة متـرعة بـأسباب الترف والراحة.

وفي جـامعـة الميـلاد المقـدس Belen كـان لفيـدل على مـا يبـدو شخصيـات متعـددة؛ متخالفـة ومتناقضـة، بل إن الـواحدة منهـا كثيـراً مـا تكـون في صـراع مـع الأخـرى. فقد بـدا أحيانـاً فتى عادياً محباً للعب مقبـلاً على الحياة، يجـدُ في طلب العلا ولكن بشكل فج غير متقن، ويسعى وراء أن يجد ذاته. ولكن في أحيـان أخرى كان جانبه الأكثر سواداً وقتامـة يظهـر وكأنـه سحابـةُ عاصفـةٌ وقد تجمعت على نحـو مفـاجىء. وكان على أصـدقائـه في تلك الفترة أن يلوحـوا برؤوسهم في يـأس ـ بعـد سنوات ـ من محاولة عقد الصلة بين شخصيات فيدل المختلفة.

وكـان معلمـه الخـاص ـ الأب آرمـانـدو لـورنتي Armando Llorente ـ ذلـك الاسباني اليسوعي الصارم التفكير، أول من أبدى له فيـدل أول جوانبـه، وهو جـانب الفتى الصغير المحب للألعاب البدنية وللجبال وللمغامرة والـذي كثيراً مـا يبدو قـادراً على الإتيان بباسل الأمور.

وبعد سنوات، في ذات صبـاح في ميامي قـال لي الأب لورنتي وهـو ينظر عبـر البحـار التي تفصله الآن عن كوبـا وعن القليل ممـا بقي من جامعـة الميلاد المقـدس Belen (فشكراً للفتى الطموح بعينه) ـ قال: «فيما بعـد عندمـا كان في السلطة، كنتُ أعرف بالدقة ما الذي كان ينوي قـوله، إذ كـان الأمرُ ممـا يُمكن التنبؤ به تمـاماً. لقـد كان طالباً جيداً... لم يكن غامضاً ولا عميقـاً، وإنما كـان حدْسيّ الإدراك. كـان له من نفسه رادار و....» وتوقف الأبُ لـورنتي هنيهةً ثم استـطرد قائـلاً: «كما كـانت لديه أيضاً قسوة الجاليجي وفظاظته. أما الكـوبي فهو لـطيف ودود. إن الكوبي يجنـح إلى التنحي عن العمل قبل أن يرمي بالشعب في وهدة العذاب. أمـا الاسباني سليـل الشمال فهو قاسٍ شديد التصلب».

غيـر أن الأب لورنتي قـد أحب الصبي أنذاك ـ واستمـر دوماً على حبـه له على نحو أو آخر، شأنه شأن الكثيرين من الناس الذين وقعوا تحت تأثير الافتتان بفيدل.

إن الأب لورنتي الذي كانت قد راودته أحلامٌ بشأن العمل على إعـداد وتشكيل الشباب ممن قد يصبحون حُكامَ المستقبـل وقادتـه ـ هذا الأب لـورنتي تحت إشرافـه وتوجيهه قام نفر من الطلبة في كلية الميلاد المقـدس Belen بتكوين نـاد عُرف بـاسم

نـادي الـرواد Exploradores. ولـم يتسنّ الانضمــام إليـه إلا لسبعين فتى من خيــرة الفتيان. وفيه أصبح فيدل رئيس جماعة. وقد نظمهم الأبُ لورنتي على غرار التنـظيم العسكري، إذ غالباً ما كـان عليهم أن يضربـوا لهم مخيماً في الجبـال حيث كان ثمـة خطر من جهة الخنازير البرية، ومَنْ يعلم ماذا غير ذلك؟

وفي واحدة من رحلاتهم ظلت السماء تمطر طيلة اليوم كله، فأدى ذلـك بالنهـر الذي هو في العادة هادىء بذاته إلى أن يصبح في فيضان عـاتٍ. فـإذا بفيـدل والقس قد ألفيا نفسيهما على جانب من النهر، بينما الصبيـةُ الأصغر سناً وجميع مـا لهما من أشياء كانت على الجـانب الآخر. فقـال فيدل: «أيهـا الأبُ الصالـح، إنها ليست إلا ستـون متراً بيـد أن النهر من الهيـاج المخيف بحيث مـا كـان حتى لفـلاح على ظهـر حصان أن يجتازه»، فأجابـه الأبُ لورنتي «أيهـا الطيب فيـدل، إن علينا أن نعبـر ذلك النهـر. فإن الفتيـة الصغار على الجـانب الآخر من النهـر. وعليـك أنت يـا فيـدل أن تذهب أولاً».

فأتى فيدل بحبـل، ووضع طـرفه في فمـه، وراح يسبح عبـر الأمواج الخـطرة، عاضاً بأسنانه على الحبل بشدة، وبمجرد أن بلغ مأمنه على الجانب الآخر من النهر، بدأ الأبُ لورنتي في اجتياز النهر، متشبثاً بقوة بالطرف الآخر من الحبل. إلا أنه انزلق فجأة وهوى سـاقطاً فـوق الصخور، وكـان على وشك أن تجـرفه ميـاه النهر لـولا أن فيدل ـ وهو السباح الشديـد المراس ـ قـد وثب إلى إنقاذه بقـوة وسرعـة. وما إن بلغـا «الجانب الآخر من النهر» بسلام حتى طوى فيدل القسّ في حضنه بحرارة قـائلاً لـه: «أيهـا الأبُ، إنها لمعجـزة، دعنـا نـردد ثـلاث مـرات تـرتيلة سـلام جبـريـل لمـريم العـذراء»، في تلك اللحظة السـاحرة التلقـائية، وتحت سمـاء غشيها الـظلام، ركـع الاثنان على الأرض وأخذا في ترديد السلام المريمي ثلاث مرات.

وعلى الـرغم من لحظات ووقـائع كهـذه إلا أن فيدل لم يكن قط ذا حس ديني حقاً. ففيما تلى من حياته قد أولى ثقته للقس البرازيلي ذي النزعة اليسارية فري بيتـو Frei Betto بحيث «إنني لم يكن لي قط شعورٌ بالإيمـان الديني ذلـك لأن كل مـا لي من جهد ووعي إنما كان مكرساً طيلة حياتي من أجل تحصيل إيمان بمعتقد سيـاسي، وهو ما وصلتُ إليه آخر الأمر من خلال ما نما في داخلي من قناعات خاصة».

وإذا كانت رغبته العارمة في الحيـاة لم تتسع حقـاً للدين أو لأي معتقد روحي، فإنها قد اتسعت فعلاً لمجالات أخرى وامتدت إليها ـ بولوع شـديد دائمـاً وبوحي من

عنف خاطف أبداً. فقد حكى زميله في الدراسة جوزيا إجناسيا راسكو José Ignacia Rasco قائلاً: «لقد عرف كل شيء عن ظهر قلب، فقد اعتاد في المدرسة أن يلهو معنا ويمازحنا. كان يقرأ من الكتاب صفحة ثم يطوح بها بعيداً.. وفي نهاية الأمر لا يبقى من الكتاب سوى فهرسه. ومع ذلك كان بوسعنا أن نسأله قائلين عن ماذا يتحدث كتابُ علم الاجتماع في صفحة ٥٣ يا فيدل؟» وكان بمقدور فيدل أن يخبرنا بما فيها. لقد كانت لديه حقاً ذاكرة فوتوغرافية».

أما عن جانبه العنيف الجامح، فإن وقائعه القنالية قد اكتسبت فيما بعد صبغة أسطورية. ففي الواقع إن حدة طبعه وشدة انفعاله كانت على ما يبدو على أهبة الاستعداد دائماً، في انتظار أن تتفجر في وجه كل من جرأ على أن يناوئه أو يتحداه. ففي ذات يوم في كلية الميلاد المقدسBelen كان فيدل يتحادث مع بعض الفنيات في غير كلفة، عندما غاظه رامون ميستريRamon Mestre ـ وهو زميل دراسة ـ بأن دعاه بـ«المجنون». فاندفع فيدل في هياج غاضب، ودخل مع رامون في عراك بالايدي ـ ولمرة من مرات قليلة في حياته خسر العراك. وقد ذكر رامون ميستري «لقد ضربني فيدل على ذراعي اليسرى». وعندما فض الاشتباك بين الشابين، إندفع فيدل جرياً إلى غرفته وأحضر منها مسدساً له، راح يلوح به مهدداً في جنون إلى أن قام أحد القساوسة بالفصل بينهما. إلا أن فيدل لم ينس الأمر قط. فعندما أصبح فيما بعد حاكماً مهيمناً على كوبا بأسرها، فإنه بعث بميستري إلى السجن، إن لم يكن بسبب العراك السابق فقط، فإنه في الغالب بسببه يقيناً.

وفي يوم آخر، قبل أن يكون اليوم الدراسي قد بدأ، راهن فيدل بخمسه دولارات زميلاً له على أنه كان في مقدوره أن يصطدم بدراجته البخارية بجدار دون أن يناله من ذلك أذى. وعندئذ شرع في قيادة دراجته عبر بهو واسع به أعمدة. وقبل أن يمضي وقت طويل إرتطم أعلى رأسه بواحد من الأعمدة، فأنزل بنفسه جرحاً بالغاً اضطر معه إلى البقاء في المستشفى لعدة أيام.

وكان نفس هذا الشغف المستمر بأن يفعل ويكون، دونما اكتراث بهدف أو نتيجة، ممتداً إلى مجال الألعاب الرياضية. فعندما قدم إلى الكلية لأول مرة لم يكن يعرف كيف تلعب كرةُ السلة. ولكن بما أن كرة السلة قد أصبحت مما يروق للذوق الاجتماعي الرفيع، لذا صمم فيدل على أن يصبح أفضل لاعب في هذه اللعبة. فشرع في التدريب ليلاً ونهاراً، مما حمل القساوسة ـ اخر الأمر ـ على تزويد ساحة الفناء بالاضاءة من أجل «فيدل المجنون». وكانت رغبته في الفوز من التطرف بحيث

إنه في عدة مناسبات قد نسي فيها بالفعل مع أي الفريقين كان يلعب أو لصالح مَن من الفريقين كان يلعب، فكان يُغير من فريق إلى فريق وسط المباراة مسجلاً هدفاً لصالح الفريق الآخر.

إن أوتيليو كابي كامبوزانو Oti. Capi Campuzano - وهو المدرب الرياضي للمدرسة - كان يحب الرياضي الذي يرغب في الفوز مهما كلفه الأمر. إلا أنه أقر بأن هذا الشاب الصغير قد أفقده الصبر. فقد ذكر قائلاً: «لقد دفع بي فيدل إلى الجنون، كان دائماً ما يسألني عما يجب عليه عمله كيما يكون المُقدَّم والزعيم، وعما يجب عليه فعله كيما يحقق لنفسه الشهرة وذيوع الصيت. لقد كان يقول عن نفسه إنه في الخطابة أعظم حتى من زعماء كوبا وإنه كان يحس من نفسه القدرة على فعل شيء ما كبير».

وفي الكلية حاول فيدل - يائساً - أن يصقل أو يشحذ مهارته الخطابية - أو قُل: عدم مهارته في ذلك الوقت. فعلى الرغم من تبجحه، فإن هذا الرجل الذي قُدِّر له فيما بعد أن يؤثر في الملايين ويحركها بصوته المجلجل. كان - في ذلك الحين - متحدثاً عيي اللسان بشكل ملحوظ. فأبدى رغبته في الالتحاق بجمعية الخطابة، وهي جمعية أفيللاندا الأدبية Academia Literaria Avellaneda، وهي جمعية تسمت باسم أفيللاندا الشاعرة الكوبية المبرزة، ولكن كيما يتم له الالتحاق بالجمعية كان عليه أن يلقي خطبة لمدة عشر دقائق إرتجالاً. وبعد الاخفاق مرات عدة بسبب العصبية والانفعال، قبل آخر الأمر.

وقد لاحظ البعض أن فيدل عندما كان في الكلية، كان يتحدث باسبانية منمقة. ولكن فيما بعد عندما أصبح في السلطة خفف من اسبانيته وتبسط فيها، مُشبهاً في ذلك كثيراً جمال عبد الناصر الذي عندما أصبح في السلطة كزعيم ثوري في مصر تخلى عن فصحى العربية واستخدم عربية رجل الشارع. وعلى أية حال لم يكن «النقاش» على أي صورة من صوره أمراً مستحباً قط عند فيدل. فحتي في السالف مال إلى تقرير الأمر من الأمور وأن يتلقى من فوره موافقة عليه وإجماعاً، وهو يقول مكرراً ومشدداً على مخارج الحروف: «ذلك لأنني أرى القول به؟».

وعندما بلغ الأمرُ إلى مرحلة التخرج، كشف فيدل مرة أخرى عن قدرته على أن يحصل بطريقته الخاصة على ما أراد. إذ كان على الطلاب كيما يتم لهم التخرج من كلية الميلاد المقدس Belen أن يجتازوا امتحاناً رسمياً عاماً إضافةً إلى امتحان

المدرسة الخاص. وكان فيدل - في آخر سنة له - قد حُرِم من حصص اللغة الفرنسية والمنطق معاً وذلك لسبب وجيه هو أن تحصيله لهما كان ضعيفاً. أعمل فيدل فكره في الموقف قليلاً، ثم وصل مع مدرسه إلى صيغة اتفاق: أنه إذا ما حصل على ١٠٠٪ في الامتحان الرسمي العام وجب أن يُسمح له بدخول الامتحان المدرسي الخاص، وعلى ذلك انكبّ على الدرس حوالي ساعات الدوام الرسمية لمدة ثلاثة أيام استعداداً للامتحان الرسمي العام، فحصل على الدرجة النهائية (١٠٠٪) في موضوعي الدراسة كليهما، فسُمح له عندئذ بالتقدم إلى الامتحان المدرسي الخاص، الذي اجتازه بنجاح أيضاً.

وقد أمضى راؤول كاسترو في كلية الميلاد المقدس Belen فترة من الوقت، ولكن - على نحو ما حكى الأبُ لورنتي - «كان في ظل أخيه دائماً وكان دائم الاستعداد للذود عن فيدل، لأنه بغيره لم يكن شيئاً مذكوراً». وقد فُصل راؤول من الدراسة بعد عام واحد فقط، مفسحاً بذلك المجال أمام تخمينات الكوبيين المؤيدين لكاسترو والمعارضين له بأنه كان مصاباً بداء الجنسية المثلية Homosexual. وأخذا بكل الاعتبارات فإن هذا الإدعاء عارٍ عن الصحة، وإن كان ثمة أصدقاء من المقربين باقين على إصرارهم على هذا الإدعاء. راؤول كان يبدو - على العكس من ذلك - بين أترابه زير نساء حقيقي كما أن الأب لورنتي نفسه يقول إن راؤول قد رحل «بسبب مستوى تحصيله فقط».

وفي غضون كل هذه الفترة كان هناك فيدل اخر، هو فيدل الذي يبحث عن فلسفة، أو عن أيديولوجيا، أو عن ركيزة فكرية للطاقة القلقة التى أحس بها تضطرب في داخله بعنف شديد والتي بدا وكأنه يعرف بالفطرة أنه لا بد ممارستها يوماً ما. وفي هذه الآونة من التاريخ - بل وفي مسار تاريخه - وجد فيدل بين أوساط الفاشيست الأوروبيين ما كان يبحث عنه.

فمنذ الحرب العالمية الأولى كانت فلسفةُ الحركة الفاشية قد أملت إرادتها الوحشية المتعصبة على أوروبا على قطاع كبير من العالم. وكان أدولف هتلر قد دعا إلى إلغاء معاهدة فرساي المهينة المبرمة في عام ١٩٢٣، كما أنه في عام ١٩٣٣ كان قد أعلن نفسه رئيساً لوزراء المانيا في الوقت الذي كان فيه فرسانه وشيعته يخوضون معارك وحشية شرسة في شوارع ألمانيا وقد ساروا في مواكب على ضوء المشاعل البغيضة؛ وقد قالت عنه جريدة النيويورك تايمز أنه كان في أوجه أكثر قوة ونفوذاً مما كان عليه جنكيز خان وأنه قد جعل من نفسه - في ان معاً - السلطة التشريعية

والتنفيذية لالمانيا (على نحو ما فعله كاسترو في كوبا). كما كان بنيتو موسوليني قد أسس حزبه الخاص «حزب المقاومة الفاشيستي» وكان ذلك عام ١٩١٩ وكان في عام ١٩٢١ قد جعل من نفسه «قائداً أعلى»؛ وبتنسيق مع «حركة التطرف اليميني» زحف أربعون ألفاً من أنصاره من ذوي القمصان السوداء على العاصمة روما وهم مسلحون بالحراب وكان ذلك في عام ١٩٢٢ واستولوا بذلك على الحكم. . وفي عام ١٩٢٣ أمسك الجنرال ميجويل بريمو دي ريفيرا Miguel Primo de rivera بزمام السلطة في اسبانيا.

وفي الواقع لا يجد المرءُ عسراً في فهم السبب الذي من أجله كان لا بد لفتى على شاكلة فيدل أن ينقب في دوائر الفاشيين طلباً لدراسات في الهيمنة والسلطة وتحصيلاً للوسائل التكتيكية الموصلة إلى السلطة. ذلك لأن الدولة الفاشية قد رفضت تلك الديمقراطية الهرمة المضجرة بنزعتها الانتخابية «الزائفة»، وحسبت ومجدت فكرة الدولة المركزية Statism التي هي الدفاع والتبرير لحكومة الدولة الشاملة السائدة المستولية على الكل، والتي كان على المزيد من الجماهير أن يروا فيها السبيل الأوحد لتحويل «المصادفات المكانية البحتة في التاريخ» إلى دول أمم حديثة. أما ما كان ـ آخر الأمر ـ أكثر جذباً لفيدل من ذلك كله هو أن «الرجال الجُدد» الفاشيست كانوا من العسكريين. بل إن أدب الحركة الفاشية كان مترعاً بالاستعارات والتشبيهات والكنايات ذات الصبغة العسكرية بدءاً من الدستور الفاشيستي لإيطاليا الذي نص على «إن الفاشية حرس وطني في خدمة الأمة».

وبهذه الخلفية الأيديولوجية التي كانت سائدة في العصر، اكتشف فيدل بوضوح من هم أبطاله الذين كانوا فاعلين في مسيرة حياته الشخصية. فكان يمشي في رزانة ووقار متجولاً في أرجاء الحرم الجامعي وقد وضع تحت إبطه نسخته من كتاب ماين كامبف Mein Kampt بعنوان La Lucha؛ كما كان يحتفظ في غرفته بخريطة، وعلى الحائط وضح عليها بشكل بياني حركات ونجاحات جيوش المحور عبر أرجاء أوروبا؛ وكان يقف لساعات طويلة أمام مرآة ممسكاً بجهاز تسجيل من طراز بدائي قديم ومقلداً موسوليني في خطبه مراراً وتكراراً.

ومع ذلك لم يكن شيء من ذلك مستغرباً بالفعل. فمنذ سنوات مضت أخبرني الطبيب النفسي الكوبي المرموق الدكتور مارشيلينو فيل Marcelino Feal بأن «للدكتاتوريين جميعاً نفس النهج والأسلوب، وكان فيدل في الغالب حريصاً على دراسة سلوك ونهج الديكتاتوريين جميعاً: من موسوليني إلى هتلر وبريمو دي ريفيرا

ولينين وتروتسكي وستالين وبيرون، وكل امرىء كان بوسعه أن ينقل عنه خصلة يحاكيها وسجية يستفيد منها».

ومن هتلر صادف فيدل زعيماً كان يناصب التراث الأنجلو- ساكسوني العداء بعمق وقوة كما أنه الزعيم الذي خلق قاعدة نفوذ وقوة من أدنياء الطبقة الوسطى التي عانت العزلة والتشرذم شأن العمال والفلاحين الذين كانوا ينتظرون في كوبا - التي لم تنصقل بعد - ظهور «مسيح أو مُخلص» على شاكلة هتلر. ولكن كان جُل ما استوعبه فيدل عن هتلر هو الدرجة التي كان بها - عن تكلف وتعمل - «المرآة التي تعكس لاوعي كل ألماني . . . . ومكبر الصوت الذي يُضخم الهمس غير المسموع للروح الألماني حتى يمكن لهذا الهمس أن يُسمع باذن الالماني اللاواعية . . .» على حد تعبير س. ج. يونغ C.J.Yung وهو تعبير دقيق ومُبين.

أما موسوليني المتهور الوقح فقد قدم لفيدل دوراً يُحتذى لا يزال بالنسبة له أكثر استهواءً، فقد كان قد علّم شعبه مؤخراً أن يهتفوا له قائلين: الأخ القائد العام، وهي كلمات شديدة الشبه إلى حد غريب مع وصايا موسوليني إلى جماهيره: الإيمان، الطاعة، الكفاح. وقد كان موسوليني دائم التطرق لموضوع الأمم الغنية في مواجهة الأمم الفقيرة، كما كانت براعةُ موسوليني في التودد إلى الشعب (وفي إزدرائه له) من خلال ما يلقيه من خطب شديدة الشبه جداً ببراعة فيدل في هذا المجال. وكان القائد (موسوليني) قد قال ذات مرة: «عندما تكون الجماهير مثل كتلة الشمع اللدن بين يديَّ، أو عندما أجعل الإيمان يضطرب فيهم، أو عندما أمتزج بهم بل وأبدي افتتاناً بهم، فإنني أشعر بنفسي جزءاً منهم. وفي نفس الوقت تماماً يلح عليَّ في داخلي شعور بالمقت الشديد، وهو ذلك المقت الذي يشبه المقت الذي يحسه الفنان التشكيلي إزاء عجينة الصلصال التي يُشكلها».

ولكن كان الفاشي جوزيا أنطونيو بريمو دي ريڤيرا - الزعيم والمفكر الاسباني الذي أسس الحزب الفاشي الاسباني - هو الأنموذج المثالي الأول لفيدل وأول صورة للبطل ارتسمت في ذهنه، وظل الأمر كذلك إلى وقت متأخر - إلى حد كبير - في حياته، كما أن جوزيا هذا هو الذي أسس الكتائب الاسبانية Falange Espanola في اكتوبر من عام ١٩٣٣؛ وقد امتدت الحياةُ بجوزيا من عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩٣٦. وإن «جوزيا أنطونيو» - الذي أتى فيدل المتأخر على صورته ومثاله - قد شاعت أفكاره وذاع أمره وعُرِف لدى الجماهير المفتونة به بأسمائه الأولى؛ وقد نبعت أفكاره مباشرة من أفكار أبيه الجنرال ميجويل بريمو دي ريڤيرا الذي حكم اسبانيا بقبضة من حديد

منذ عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٣٠. ولم يكن لبريمو فقط نفس الإدراك الحدسي الذي يندّ عن التصديق شأن الحال عند كاسترو، بل إن مؤرخين من أمثال ريموند كار Raymond Carr أطلقوا على نهجه السياسي اسم «المذهب الحدسي» Intutionism. أما عن عناية بريمو ريڤيرا الأكبر الأبوية بشعبه وأمته فقد اقتربت من حد الشذوذ وغرابة الأطوار. فقد كان الإسبان يلتهمون من الطعام الشيء الكثير جداً - ومن ثم فقد نُصحوا بأن «يتناولوا وجبة واحدة كبيرة مرةً واحدة في اليوم فيما بين الخامسة والسابعة، دون وجبة غداء». فيا لحجم التشابه مع فيدل فيما بعد، الذي سعى إلى أن ينظم بصفة شخصية كل شيء في كوبا بدءاً من التلقيح الصناعي للأبقار إلى متابعة الشروط الصحية لشقق المزاج الحكومية Posadas التي كان بمقدور الكوبيين الجوعى أن يمارسوا فيها الحب لساعة أو لنصف ساعة.

وكان أيضاً لعبارة بريمو اللماحة الدقيقة عن «الاستفتاء الدائم للرأي العام» أن تصبح التصور الأساسي لفكر فيدل كاسترو السياسي وأصلاً مباشراً «للديمقراطية المباشرة» عند فيدل.

إن جوزيا أنطونيو - خلافاً لأبيه - لم يتبوأ مقعد الحكم قط، فهو لم يكن في الواقع سوى عضو بالبرلمان. غير أنه كان لبريمو الأصغر - بكتاباته الوعظية أساساً - تأثير وجداني هائل. وقد نادى كأبيه بفكرة أسبنة الشعوب الاسبانية Hispanidad، وهي حركة تدعو إلى وحدة كل الأقطار الناطقة بالاسبانية، وفي مقر مدرسي عن تاريخ أمريكا اللاتينية كان يُدرس في كلية الميلاد المقدس Belen دافع الأب البرتو دي كاسترو Alberto De Castro - وهو قسيس كان له تأثيره البالغ على جيل فيدل - عن فكرة وحدة البلدان الناطقة بالاسبانية بحماس بالغ، مما أتاح لفيدل الشاب عدداً من العلل والفلسفات والمبررات لفشل أمريكا اللاتينية في مواجهة نجاحات الأمريكيين المتعاظمة. فلقد أمدت فكرةُ وحدة العالم الناطق بالاسبانية فيدل الشاب بواحدة من أكثر مرتكزاته الفكرية السياسية عمومية في سبيل إيجاد إرادة إسبانية كلية قادرة على الصمود في مواجهة الأمريكيين. فقد ذكر الأبُ لورنتي أنه «قد راودت فيدل أحلام عن الأمة الاسبانية الكبرى. وقد أثارت الفكرةُ كوامنه بشدة».

وفي آخر الأمر ألقي القبض على جوزيا أنطونيو عند اندلاع الحرب الأهلية الاسبانية وتمت له محاكمة عاجلة، وحُكم عليه بالإعدام - لكن الذي أعلى من قدره وراح يعامل جوزيا أنطونيو كشهيد إنما كان هو الجنرال فرانشيسكو فرانكو، تماماً

شأن فرانشيسكو فرانكو بالنسبة لفيدل الـذي كان مجهـولاً تمامـاً هو نفسـه لفرانكـو لكوكبة كبيرة من سكان العالم.

وعنـدما تم لفيـدل التخـرج من كليـة الميـلاد المقـدس Belen في ربيـع عـام ١٩٤، قدمت الأسرةُ كلها للاحتفال بهذه المنـاسبة. فقـد ذكر الأبُ لـورنتي أن «قد ان ثمة سعادة، وإنه لم يقع لسمعك قط تصفيق بهذا القدر من الشدة وكنتُ الوحيـد لذي خط بقلمه كاتباً أسفل صورته الفوتوغرافيـة المنشورة في الكتـاب السنوي». ثم قف الأبُ عن الكلام هنيهة شارداً بفكره للحظة، ثم أضـاف قائـلاً بهدوء «لقـد كان يئاً مختلفاً». ثم أطلعني على نسخة الكتاب السنـوي المشهـود. في أسفـل صـورة وتوغرافية لشاب جاد في مقتبل العمر ذي أنف جاليجي طويل وعينين فيهما شيء من تشامخ، كان مكتوباً: «لقد بذ فيدل أقرانه دائماً في كل موضوعات الدراسة المتصلة الآداب. طالب قمة وعضو في محفل الأبرشية المقدس، كما أنه أيضاً رياضي مبـرز ائم الدفاع عن مواقف المدرسة ووجهات نظرها بشجـاعة وافتخـار. فظفـر بإعجـاب لجميع وحبهم. وإننا لعلى ثقة من أنه ـ بعد إتمام دراسـاته الحقـوقية ـ سـوف يحقق نفسه إسماً لامعاً مرموقاً. فإن لفيدل من المزايا والسجايا ما يأخـذ بالألبـاب ويستحوذ لى الانتباه ولسوف يصنع من حياته شيئاً ذا بال».

لقد كان الأبُ لورنتي دائم التذكر لتلك الأيام الساحرة العجيبـة عندمـا كانت لا زال في كوبا مسحة من البراءة والنقاء. «لقد قلتُ له مـرات عدة: لقـد وُلدتَ لتؤدي جلائل الأعمال يا فيدل. وكان بـوسعي أن أرى أن ذلك راقـه كثيراً. فـأنت مع فيـدل حتاج دائماً إلى أن تتحدى إمكانياته. فهو أمام التحدي يصبح عملاقاً جبـاراً. فهو لا نوي الكفاح ضد هاييتي أو جمهورية الدومينيكان. . .».

وبعد ذلك استعاد الأبُ لورنتي ـ في تـأثر وشجن ـ ذكـرى المرات التي شـاهد يها فيدل وهو يصلي في الكنيسة. وابتسم ابتسامة يسـوعية حذرة حكيمـة وقال «لقـد ندِّر لي وحدي أن أراه وهو يصلي في الكنيسة الصغيـرة، ولقد علمتُ مـا الذي كـان يصلي من أجله ـ فمن أجل أن يفوز كان يصلي».

الفصل الرابع

سنوات الدراسة الجامعية
«أنت وأنا»

كان أسوأ ما يُمكن حدوثه في ذلك الحين أن يضطر فيدل إلى التحول إلى الشيوعية. لأنه ـ أول كل شيء ـ لم يكن بمفرده، فمن أفكاره علمتُ ذلك جيداً؛ وإن كان ـ من منظور سياسي ـ لا مفر له من ذلك التحول.. وفي ذلك الوقت كان الحزب قد تبنى فكرة خوض الجماهير للنضال، وكان فيدل قد أخذ بفكرة العمل الخاطف والمباشر ـ أي في أمر عام مفهوم من الكافة.

(ألفريدو جيفارا Alfredo Guevara، عضو الحزب الشيوعي؛ وزميل فيدل في الجامعة وصديقه).

في ذلك الصيف الطويل اللاهب من عام ١٩٤٥ عاد فيدل إلى موطنه في بيران، وقد أدرك هو ووالده على السواء أنه قد كانت هذه هي اخر مرة تكون فيها بيران له موطناً بالفعل. وقد طاف في غير كلل بأطيان أبيه الدائمة الإتساع وغشي ملاعب طفولته ومرابعها. والحربُ العالميةُ التي انكبّ على دراستها بحماس قد وضعت أخيراً أوزارها. غير أنه لم يبدُ أن خسارة دول المحور قد أزعجته في شيء؛ ولأن فيدل لم يكن ذا ميول أيديولوجية أساساً لذا فقد كان تلميذاً دارساً لأساليبهم التكتيكية وليس لأفكارهم ومعتقداتهم دائماً أو بالضرورة. وكان عليه الآن أن يدرس ما حاق بالمحور من فشل وإخفاق.

ومن سخريات الأمور أن والده ووالدته كانا قد أجمعا أمرهما على أن يرسلانه إلى جامعة هافانا لأنهما كانا على قناعة بضرورة أن يصبح رجل قانون وأنه كان عليه أن يحمي أملاكهم ويدافع عنها. فيا لقلة ما عرفاه عن ابنهما؟ وفي داخل أروقة الجامعة المليئة بالصخب والزاخرة بالاضطرابِ والحركة كان على فيدل أن يكتشف عالماً جديداً تماماً للعمل السياسي ـ وعالماً جديداً من العنف السياسي أيضاً.

في ذلك الصيف، بدت والدةُ فيدل مسرفة التباهي والفخر بابنها، ولكن لا

ال ثمة صيفٌ آخر باقٍ على النزاع أو الخلاف بين آنجيل وفيدل. وهـو الأمر الـذي ، يكن توقعه مستبعداً. فعلى مدى الحياة حافظ فيـدل ـ في أحسن الظروف ـ حيـال به على موقف النقيض من النقيض، وفي أسوأ الظروف تـراوح هذا المـوقفُ ما بين مبالاة فاتـرة واستياء غـاضب. ومع ذلـك فقد كـان فيدل عنـد مواجهتـه لأب مستبد غاضب أحياناً، قادراً في العادة على ترويض إرادتـه العنيدة الحـرون. فقبل يـوم من موعد الذي كان محدَّداً لرحيل فيدل إلى هافانا وإلى حياته الجديـدة هناك، استسلم جيل لتوسلات ابنه واشترى له ـ بالرغم مما كان يراه الأبُ من رأي أصوب ـ السيارة أمريكية الجديدة التي تعلقت بها رغبتُه بشدة.

في سنوات الإزدهار تلك بدت كوبا من الخارج جزيرة سعيدة هانئة، خصوصـاً ، نظر الأمريكيين المخلصين Americanos الأكثـر تقشفاً وتـزمتاً وجلداً في العمـل. ـد كانت كـوبا «خليلةً» جـديرة بـالاحترام من جـانب أمريكـا لأنها على جمـال أكثر مرغوب فيها أكثر. كان البلدُ الصغير ينعم بازدهار ووفرة، وقد بدا الكوبيون في أعين سُواح الزائـرين الذين وفـدوا على الجزيـرة ليستمتعوا بـزيارة حـوض إصلاح السفن Varader وبالأجواء المـدارية ـ (ولا نتحـدث عن عاهـرات كاللي تـروكاديـرو Calle Trocader وعـروض «السوبـرمان» الشهـوانية الفـاحشـة التي فيهـا يقـوم رجـل على مسـرح وأمام الجمهـور يسافـد امرأة وأنثى حيـوان) ـ أنـاسـاً يكـادون أن يثبـوا على أرض مرحاً في حياتهم، فلقد كـانت لديهم تلك القـدرة الرائعـة على أن يعيشوا في رح. ومن ثم فقد راح الأمريكيون المخلطون الذين هم أقل «حُباً للحياة» وأكثـر دفعاً نفقـات وأدنى رتبة في العيش يتسللون كـالزئبق نـزوحاً إلى هـافانـا كيمـا يختلسـون حظات قليلة وضاءة يـأخذون فيهـا بقسط ضئيل من تلك الـروح الكـوبيـة المتـوثبـة بهجة. وكانت جـوزفين بيكـر Josephine Baker قـد عـادت ثـانيـة للغنـاء في ملهى تـروبيكانـا وفي حانـة سلوبي جوي Sloppy Joe الأثيـرة إلى همنجواي. كـانت أنبـذة ـديكوري daiquiri تلذ الشـاربين، وكـانت الحـرب قـد وضعت أوزارهـا، وعـادت أضواء للسطوع مرة أخرى في كافة أرجاء العالم.

لم يقع في خاطر الأمريكيين قط ألا يكون الكوبيـون سعداء حقـاً على نحو مـا ـدوا لهم عليه. ومـع ذلك فـإنه بينمـا وقع في ظن أهـل أمريكـا الشمـاليـة أنهم قـد أحـاطوا» بكـوبا علمـاً، فإن واقـع الأمر كـان يشهـد بـأنـه لم يكن ثمـة في الحقيقـة ؤرخون نابهون من أمريكا الشمالية أو متخصصون في العلوم الاجتمـاعية قـد توفـروا على دراسة كوبا. فلم تكن كوبا ـ في نظر صـانعي القرار السيـاسي الأمريكيين ـ بلداً

يُؤخذ بحق مأخذ الجد، خصوصاً في تلك الفترة الراهنة التي تلت الحرب والتي كان فيها «العهد الأمريكي» يطير قاصداً أوج قوته ورخائه الذي لا مراء فيه. ومع ذلك، فأي شيء في العالم كان بوسعه أن يجعل العالم «الكبير» يتراءى له ولو في حلم بعيد أنه كان بوسع «كوبا ذات الوضع القليل القيمة» أن تكون شيئاً ما ذا أهمية وقيمة؟

إن الأمريكيين الظافرين، سادة العالم وأهل الحكم فيه، لم يكسبوا الحرب وحسب، بل إنهم قد نفذوا إلى لغز الانشطار النووي وحرروا البشرية من عبوديتها الأولى للتفاعل النووي. وكانوا عازمين الآن على أن يُنظموا العالم برمته وفقاً لتصورهم الخاص؛ ومن ثم فقد بدأوا في العمل على إعادة بناء المانيا وإصلاح اليابان، وكذلك العمل على إنشاء هيئة الأمم المتحدة كان عليها أن تكفل للكافة السلام والنظام العالمي. وبينما راح الأمريكيون يباشرون خططاً تستهدف مستقبل العالم والبشرية، استمر بهم التفكير في الحرب والعنف على صعيد واسع من القتال في أوروبا وحوض الباسيفيك. لقد حاولوا بناء السلام ـ مرة أخرى ـ بحيث لا تعود الصراعات بين الدول الكبرى إلى الظهور قط، في وقت كانت فيه الطبيعة الدفينة للصراع تنحو نحو نمط الحروب غير النظامية ونحو الصراعات الأقل حدة ونحو حرب العصابات على النهج الكوبي.

إن هذا الفيدل الذي ذهب في أكتوبر من عام ١٩٤٥ إلى جامعة هافانا قد وقع من رفاقه «الطلبة» موقع الإعجاب والنفور في آن معاً، أولئك الطلاب الذين أتى البعضُ منهم فقط للدرس والبحث، فلقد كان من شأن نظام جامعي تقليدي لجامعة من أمريكا اللاتينية أن خُصص نصفُ الوقت فيها للتحصيل العلمي، وخُصص قريبُ من النصف الآخر للوقت لتنشيط وتحريك العمل السياسي. وقد بذ فيدل أقرانه جسمانياً. إذ كان طويل القامة على نحو لافت للنظر في بلد عُرف رجاله بالقصر بشكل عام. فقد حكى ماكس لسنيك Max Lessnick ـ صديق عمره الحميم ـ قال: «إنه لم يكن يشبه الكوبي المألوف المتعارف عليه، لقد كان أشبه باليوناني الحقيقي أو الاسباني، أو برجل من جاليشيا» غير أن لسنيك قد حكى أيضاً أنه على حين كان الوجود الجسماني لفيدل مؤثراً في بعض المجالات، إلا أنه كان ينزل بصاحبه إلى درك يشبه فيه الغوريللا أو إنسان الغاب، وفي السنوات الأخيرة أبدى لسنيك دهشته من ملاحظة المشية العسكرية الممشوقة لصديقه.

وسرعان ما تجلى بوضوح أن فيدل في عاداته الشخصية كان ابناً للينا. فلقد كان من القذارة بحيث سرعان ما أطلق عليه اسم «كتلة الزيت والشحم». ومع ذلك

كان الطلبةُ في بعض المناسبات يرون فيدل وقد رفل متأنقاً في أجمل البزات والحُلل. لقد بدا وكأنه يحاول أن يُخرج عن نفسه صوراً مختلفة ويطرحها على العالم.

وفي كاللي Calle أقام فيدل في بيت يوفر لنزلائه الإقامة والمأكل بثمن شهري محدد، وهو بيت «إلي» Ele الكائن على ناصية الشارع السابع عشر. وبموجب كل الروايات فإن حجرته قد عكست عاداته المضطربة الحادة، عدا مكتبته عن جوزيا مارتي التي كانت أثيرة إلى نفسه وفي تزايد مستمر، فقد تعهدها بشيء من العناية والاهتمام. وقد حكى برناردو ڤييرا Pernardo Viera - وهو صديق آخر لفيدل - قال: «لقد كانت هناك صحف قديمة وعلى الأرض والمنضدة كانت توجد أعقابُ سجائر. . كما كانت هناك خمس أو ستُ قطع من الملابس الداخلية المتسخة وقد أُلقيت في زاوية من الحجرة. وان قميصه الأبيض ما كان من الممكن أن يتقبل مزيداً من العرق فوق ما عليه من قذارة». وفي السنوات الأخيرة عندما كان ڤييرا في المنفى بفانزويلا لان نفس هذا الصديق بعينه كان قد قال لي ضاحكاً «إنني الآن أسمع في كل مرة من بعض من زار كوبا أن البلد يُعاني من القذارة، يبدو لي أن فيدل ببساطة قد امتد بأبعاد تلك الحجرة لتشمل كوبا كلها».

ولكن، إذا كان فيدل في تلك الأيام شخصاً متناقضاً، فإن هذا أيضاً كان حال جامعة هاڤانا مكاناً للمتناقضات، إن الجامعة التي يمتد عمرها لمائتي عام كانت مُجمعاً من مبانٍ استوائية أنيقة امتدت منبسطة في رشاقة فوق عدد من التلال التي تقع في الوسط تماماً من مركز تجاري وسياحي جديد في الحي الأنيق المجاور لفيدادو Vedado. وقد أحاطت أعمدة فخمة من الطراز الإغريقي بمعاهد العلوم والفلسفة والآداب والقانون وفنِ العمارة والهندسة. وقد أفضت إلى «سطح المدرج» Escalinata الشهير ثلاثُ وستون ومئة درجة سلم، وهو ذلك السطح الذي هيأ خلفية لمسرح إغريقي الطراز للأعمال المسرحية العديدة التي كانت تُقدم عروضَها هناك، والأهم من ذلك للوقائع التي كان من المعتاد وقوعها هناك.

وقد كانت الجامعات - بموجب التقليد اللاتيني - تتمتع في المجتمع الكوبي بالاستقلال الذاتي. فكان محظوراً على الشرطة الدخول إلى الحرم الجامعي، وهو الأمر الذي وفر «ملاذاً امناً» ليس للأفكار فحسب بل وايضاً لجمهور الناس من أصحاب الميول السياسية على اختلاف مشاربهم. وفي الواقع فإن الكوبيين ممن عاصروا كوبا في تلك الأونة قد رأوا القوى المناوئة لهم في تمركزين اثنين أشاروا

إليهما بأنهما «هضبتان أو كـومتان. . كـانت إحداهمـا تقابـل وزارة الدفـاع الأمريكيـة (البنتـاغون)، وتُسمى القـاعدةُ العسكـرية الـرئيسية بـاسم معسكر كـولومبيـا. وكـانت الهضبة الأخرى هي هضبة الجامعة «ذات القداسة والإجلال» ـ وهي هضبة فكرية وإن كانت لا تقل عن ذلك وزناً في الأمور السياسية. وفي ظل حكومة على هـذا القدر من الفساد أصبحت الجامعةُ معتركاً ومسرحاً لمعظم العمل الدراماتيكي والرمـزي الناشيء عن أوضاع الحياة السياسية.

عشق فيـدل الجامعـة، فقد وجـد فيها بيئـة ذاتـه. وفي هـذا الـوقت ـ كمـا في التاريخ الكوبي دائماً ـ كان ثمة أمل براق في أن هذا الجيل قد يجد الطريق المفضي إلى الإجابة عن مسعى كوبا الدائم وراء الشرعية.

وفي غضون ذلك قدم فيدل إلى الجامعة في نهـاية تلك الفتـرات مباشـرة وهي الفترات التي شهدت «السياسة التي يصنعهـا الجيل»، وهي تلك الفتـرات التي ميزت عقـود التـاريخ الكـوبي منـذ «جيـل عـام ١٨٩٥» ـ وهـو جيـل مـارتي ـ إلى «جيـل الثـلاثينـات». ففي عـام ١٩٤٤ قـام رامـون جـراو سـان مـارتين Ramon Grau San Martin ـ زعيم الحزب الديمقراطي ـ بتوجيه مناشدة على الصعيد الجمـاهيري لأهـل الثقة الأصلاء، مما أدى إلى فوزه بالرئـاسة. وكـانت قائمـة تعهدات حـزبه ومقـاصده عالية وذات طابع تقدمي. وقد شرع الأصلاء فعلاً ـ بمجرد بلوغهم السلطة ـ في تنفيذ الكثير من برنامجهم. ولكن آنذاك أطلت لعنـةُ الفساد القـديمة بـرأسها القبيـح وامتلأ الرئيس جراو بالنقائص والآثام، وهو الذي كان في الأيام الأولى المُنظِّر الإيـديولـوجي الذي التفّ من حوله جموعُ الطلاب ممن ملأ الأملُ نفوسهم.

في هذا الجو، سرعان ما قام فيدل بتوسيع دائرة «عصابة» أصدقائه، وهـم الذين كانوا ـ أول الأمر ـ صبية أخيـاراً، ينتمون إلى عـائلات من الـطبقة المتـوسطة ـ إنهم ـ مجتمعياً واجتمـاعيـاً ـ على النقيض تمـامـاً من الفتيـة الـذين كـان عليـه أن يلتقيهم ويختـارهم ويتشكل بهم فيمـا بعد في أول مـراحل الثورة. لقد كـان الأصدقـاء الأولُ السـابقون ذوو أسمـاء وسمعة حسنـة مثل خـوستو فـونتيس Justo Fuentes وألفـريـد «الصيني» إسكـويفـل Alfred «Chino» Esquivel وراؤول «الـرقيق» جـرانـادوز Raul «Flaco» Granados ورافائل دل بينو Rafael Del Pino وباوديليـو بيليتو كـاستيللانوس Baudilio Bilito Castellanos وألفـريـدو جيفـارا Alfredo Guevara: كـان الفـريـدو عضواً في الحزب الشيوعي أصلاً كما كان الوحيد الذي ظل مع فيدل على مدى ما مر به الأخير من تحولات كثيرة أيـديولـوجياً وسيـاسياً ـ أمـا معظم الأخـرين فإنهم إمـا أن

يكونوا قد رحلوا عن كوبا أو ذووا في أحد سجون فيدل.

وكما هو شائع في أمريكا اللاتينية فإن إخراج هؤلاء الطلاب إلى الشوارع كان شيئاً عادياً في سهولة الصعود إلى عربة للرحلة. فلقد كان أول ظهور لفيدل على مسرح الأحداث السياسية في كوبا عن طريق تنظيم مظاهرة مناهضة لجراو في أوتوبيس للرحلات، وبذا بدأ تعاظم أمره المفترض فيه حسنُ النية. ففي ذلك اليوم قامت مجموعة كبيرةٌ من الطلبة بمسيرة في الشوارع حاملةً علماً كوبياً ضخماً. وعند ملتقى شارعي إنفانتا Infanta وسان لازارو San Lazaro أمرتهم الشرطةُ بالتوقف، وأخذت في ضربهم بالعصي والبنادق، وقد نالت فيدل من ذلك جراح منكرة لكنه بعد أن ضمد جراح رأسه في المستشفى قام هو وراؤول بالأولى من عديد الزيارات إلى الصحف ومحطة الإذاعة. وكما هو العهد به دائماً، عرف فيدل جيداً كيف يستغل الموقف ويستثمره.

بعد ذلك بثلاثة أيام أعلن الطلبة عن مظاهرة أخرى، وفي هذه المرة كان الخوف والقلق قد استبدا بالرئيس جراو بحيث أدى به ذلك إلى الموافقة على استقبال زعماء الطلبة في وفد للتفاوض. ولم يتقرر إلا في اللحظة الأخيرة ضرورة أن يلحق فيدل بالوفد أيضاً ذلك لأنه طبع على وجهه ببراعة ذلك المظهر المؤلم لرأسه التي لا زالت تعلوها الجراح كرأس المومياء، وقد ذهبوا إلى القصر للقاء الرئيس العجوز الذي يفتر ثغره دائماً عن ابتسامة ودود مشجعة وهناك كشف فيدل عن واحد من ميوله الغريبة.

ونظراً إلى أن ذلك اليوم كان دافئاً بعض الشيء، فقد دعاهم الرئيس جراو إلى أن يخرجوا إلى شرفة مكتبه لاسترواح الهواء الطلق. وفي أثناء ذلك قام مساعدو الرئيس جميعاً بمغادرة المكان، ومن ثَمّ شهدت اللحظةُ خلوا رمزياً للسلطة في هذه اللحظة أسرّ فيدل همساً ـ وعلى نحو مباغت ـ إلى شركائه في التآمر والخداع قائلاً: «إن لديَّ صيغة للاستيلاء على السلطة وللتخلص مرة واحدة وإلى الأبد من ابن الزانية هذا العجوز». وقد استولى الذهولُ على رفاقه بينما راح هو يشرح الأمر قائلاً: «فعندما يعود الرجلُ العجوز، علينا ـ نحن الأربعة ـ أن ننتزعه من على الأرض انتزاعاً ونلقي به من الشرفة. ومتى لقي الرئيس حتفه فإننا سنعلن انتصار ثورة الطلاب ونتحدث عبر الراديو إلى الشعب» فرد عليه تشينو إسكويفل قائلاً: «اسمعوا، أيها الإجلاف، إنكم حمقى مأفونون». وعندما ألح فيدل على خطته المثيرة للدهشة، قام إنريك أوفاريس Enrique Ovares ـ أخيراً ـ بفض المسألة بأن قال: «لقد حضرنا إلى

هنا طلباً لتخفيض أجرة المركبات العامة، لا لنقوم باغتيال». وجدير بالذكر أن جراو ـ مع كل ما له من مثالب ـ لم يكن ديكتاتوراً بل كان واحداً من زعماء كوبا الأوائل المنتخبين ديمقراطياً.

وفي هذه الفترة كان فيدل قد بدأ في التحدث إلى الجماهير جهاراً وعلانية كما كان قد بدأ ينضو عن نفسه الخوف الذي كان قد غلبه على أمره في كلية الميلاد المقدس Belen وقت أن سعى إلى الالتحاق بنادي جماعة الخطابة. وقد خطط لأول خطاب له في ٢٧ نوفمبر من عام١٩٤٦ ،ولم يكن هذا التاريخ تعسفياً أو اعتباطياً، ففي التراث الاسباني، كان الكوبيون، دائمي النظر ـ بعاطفة ووجد ـ إلى أكثر اللحظات مأساوية في تاريخهم. هذه اللحظات ليست أزمنة انتصار، بل مثلت لديهم لحظات المجد «الحقيقي». وقد وقع اختيار فيدل الآن على واحدة من أشد اللحظات سطوعاً في الذاكرة. فقد حدث في ٢٧ نوفمبر من عام ١٨٧١ أن قامت السلطات الاستعمارية الاسبانية المقيتة بإعدام ثمانية من طلبة الطب في جامعة هافانا اتهموا بانتهاك حرمة قبر ضابط اسباني. وكان الاسبان قد أقدموا على تنفيذ الاعدامات بثاً للخوف في نفوس الناس وترويعهم، لكنهم ـ بدلاً من ذلك ـ كانوا قد هزّوا مجتمعاً مكافحاً في صميم أعماقه.

وفي السنوات الأخيرة قال رافائيل دياز ـ بالارت Rafael Diaz-Balart ـ صديق فيدل ـ وهو يستعيد ذكرى خطبة فيدل في ذلك اليوم: «إعلم أن «التعذيب الاسباني» كانت ذكراه بالنسبة لنا كشيء حدث بعد ظهيرة الأمس». لقد كان رافائيل هو ـ في الحقيقة ـ الذي كتب الخطبة في معظمها. ففي باكورة صباح يوم (وكان ذلك في نحو الرابعة فجراً) عندما كان الطلبةُ عكوفاً على دروسهم طلب فيدل فجأة قائلاً: «اكتب لي خطبة يا رافائيل». وعلى الرغم من أن صديقه قد انتابه الضجر، إلا أنه تحمس للمغامرة السياسية وكذلك لفرصة الإعلان عن الرأي، لذا فإنه كتب الخطبة كلها إلا آخر فقرتين فيها ـ وقد ألقيت الخطبة في جبانة للمدافن بهافانا وشهدتها جماعةٌ قليلة من الطلبة ـ بطريقة يسميها الكوبيون بالطريقة المسرحية Acto، وهو أداء ذو طابع دراماتيكي أو وقع محمس للشعور الوطني.

كان فيدل واعياً ـ على نحو يلفت النظر بغرابته ـ بطموحاته السياسية حتى في تلك الأيام الأولى الباكرة. لقد أطلع كل من كان في محيطه عن نواياه ومقاصده. وربما كانت هذه الطبيعة الساذجة الصريحة فيه هي بذاتها قد أسلمت الكثيرين إلى شعور بعدم أخذ بواعثه ونزعاته مأخذ الجد. فقد حكى الدكتور ماريانو سورف مارين

Mariano Sorf Marin ـ وهـو طبيبٌ كوبي كـان يقدم لفيـدل العون ـ قـال: «وقع مني فيدل كاسترو في ذلك الوقت موقع الحب. فلقد كـان مثلي ـ سياسيـاً متحمساً عـلاوة على أنه كان حاد الذكاء. إنه امرؤ مصاب بجنون العظمة يسيطر عليه شعور مبالغ فيـه بالعظمة والجلال! إنه لم يستطع قط أن يكون رئيساً ديمقراطياً، لكنه ـ على المستوى الشخصي ـ كان امرءاً جذاب الشخصية ساحر الطبع ـ فعنـدما كنت تجـد نفسك معـه فإنه مما كان يروقك ـ أو مما يجعلك أكثر رضا عن نفسك ـ أن تكون معه».

ثم شرع فيدل في إبداء طرائق شخصية مميزة في السلوك شدت الجماهير إليه في ذلك الحين، وقد حكى ماكس لسنيك Max Lesnick عن تلك الأيام قائـلاً: «كان دائماً ما يبتكر شيئاً ما يجعل به من نفسه شيئـاً متميزاً، بحيث يبـدو فائق الكـل. كان يسعى إلى قهـر وإخضاع كـل من كان يتـوسم فيه القـدرة على مساعـدتـه في تحقيق خططه. ثم اعتاد أن يقول «أنتَ وأنا»، لأن فيدل عندما كان يتوجه بالحديث إلى أحد كان دائماً ما يقول «كلا، لأنك وأنا الوحيدان هنا». ودائماً ما كـانت الـ «أنت» تتغير ـ أما الـ «أنا» فكانت دائماً هو. فهو عندما يكون معي يقول «ماكس، بما أنك وأنا ههنـا في الجامعة، وأننا الوحيدان اللذان يمكنهما أن. . .». ثم كنت تراه في الركن الآخـر مـع والتريـو كـاربـونيـل Walterio Carbonell يقـول لـه «لأنـك يـا والتـريـو وأنـا الـوحيدان. . .» ثم كنـا فيما بعـد نرى كلنـا الواحـدُ منا الآخـر فنبتسم ونقول: «أنت وأنا. . .»

ولكن إذا كـان زملاؤه في الـدراسة قـد تبسموا عن ـ استمتـاع وتسـري عنـدمـا يكونون على بُعد منه، فإنهم لم يجعلوا منه أضحوكة يتندرون بها. فهو ما كان يسمح بـذلك، أو يتسـامح فيـه ـ إنه لم يكن يعـذر ذلك أو يغتفـره قط. وقد أضـاف لسنيك قائلاً: «إنني لأعتقد أن فيدل كان أميل إلى أن يغفر عدواناً ينتهك حرمة جسده من أن يتندر به أحدٌ أو يستخف به».

في هـذه الفترة واصـل فيدل البحث والتنقيب عن أفكـار بريمـو دي ريڤيرا عن وحدة الشعوب النـاطقة بـالإسبانيـة. وفي ذات يوم كـان فيدل ولـويس أجويللار Luis Aguilar ـ صديقه الألمعي المرح من كلية دولورس Dolores بسانتياجو ـ يناقشان معاً كتاباً شعبيـاً جديـداً لكاتب أوروبي عـاش في كوبـا هو جـوستاڤـو بيتالـوجا Gustavo Pitaluga وكـان الكتابُ بعنـوان «محـاورات عن القـدر والمصيـر» Dialog Ues over Destiny. فعلى نحو يثير العجب قدّم الكتابُ وصفـاً عن صورة كـوبا عن نفسهـا من حيث كونها ليست كبلد آخر من بلاد أمريكا اللاتينية بل بحسبانها الدرع الامبراطوري

لاسبانيا، وقد اشتط بعيداً حيث راح يلمّح إلى أن كوبا وحدها هي البلد ذو القدر المهيب، وقدرُها يجعل منها زعيمة على رأس إتحاد لدول الكاريبي. وقد تجادل أجويلار وفيدل، فاحتج أجويلار قائلاً إنه لمن المشكوك فيه أن ترغب جامايكا الناطقة بالانكليزية أو هاييتي الناطقة بالفرنسية في الانضواء تحت لواء كوبا. لكن فيدل أبدى اعتراضه، وقال إن بيتالوجا قد حدد الهدف لكوبا على الوجه الصحيح ـ وفي الوقت الذي نطق فيه فيدل بذلك ارتسمت على وجهه سيماء الحالم أو القارىء للمستقبل.

ومع ذلك فإن هذا الحالم بوحدة الشعوب الناطقة بالإسبانية كان طالباً مهملاً لدروسه فيما كان يتصل بمقرر التاريخ الفعلي للأمريكتين. فقد حكى أستاذُه هرمينيو بورتل فالا Herminio Portell Vala قال: «لقد كنتُ مضطراً إلى إسقاطه في الامتحان. فهو لم يتواجد قط. فهل أبدى اهتماماً بأمريكا الإسبانية؟». وضحك الرجل العجوز، وهو جالس آنذاك في «الفرساي»، مطعمه الكوبي المفضل في ميامي، بينما راح يقول لي: «لقد حاول أن يظفر بها، لا أن يدرسها».

لقد أراد فيدل ـ قبل كل شيء ـ أن يكون رئيساً لإتحاد طلاب الجامعة F E U الذي هو جسر عبور إلى السلطة السياسية في البلاد. غير أن فيدل لم يكن موفقاً في الفوز في الجامعة بأي منصب انتخابي رئاسي. وكان في الجامعة دائم الانسلال بخفة إلى الخارج أكثر مما كان عليه الأمر في مدرسة كلية الميلاد المقدس Belen ـ ومن ثَمّ فقد اضطر دائماً إلى أن يتوسل إلى السلطة بخطط وطرائق جديدة. لقد كان ثمة في الواقع تقارب من حوله فكان رفيقاً ممتعاً مسلياً، لكنه في الواقع لم يكن أبداً واحداً في جماعة تربط أفرادها مصالحُ مشتركة. ولم ينس هو ذلك، وكان عليه يوماً ما أن يجعلهم يدركون ثمن عدم سماحهم له بأن يكون واحداً منهم.

وقد أفصح إنريك أوفاريس Enrique Ovarees ـ الذي عمل لخمس سنوات رئيساً لمدرسة الهندسة المعمارية كما كان رئيساً لإتحاد طلاب الجامعة FEU لفترات ثلاث ـ عن السبب في عدم انتخاب فيدل وهو أنه لم يكن يستطيع العمل مع آخرين. لقد كان شديد النزوع نحو الاستقلال في العمل وإطراح كل القيود. كما قال أوفاريس أيضاً أنه قد كان ذلك هو السبب في أن الشيوعيين ـ الذين كانوا قلة في العدد إلا أنهم كانوا ذوي أقدام راسخة في الجامعة، إن لم يكن في كوبا كلها ـ لم يعطوا تأييدهم لفيدل. قال أوفاريس: «إن أي امرىء تابع عن قرب تطور فيدل السياسي منذ كان طالباً يعرف أن فيدل لم يحتفظ في أي وقت من الأوقات بعلاقات

مع الشيوعيين. لقد كان فيدل. . . نموذجاً سلبياً في أعين الحزب لأنه كان امرءاً يؤكد اليوم على أن شيئاً من الأشياء «أبيض» وليقول عنه في الغد «إنه أسود» ويقول عنه بعد غد «إنه رمادي». إنه امرؤ منفلت من كل قيد تماماً، وضبطه من الأمور غير الممكنة».

وعندما التقى فيدل لأول مرة بألفريدو جيفارا Alfredo Guevara، تهكم فيدل قائلاً إنه يود أن يصبح شيوعياً على الفور، ولكن على شرط واحد ـ «إذا كان لي أن أصبح ستالين؟».

إن الحقيقة البسيطة المجردة هي أن فيدل كاسترو كان حتى ذلك الحين رجلاً بغير أيديولوجيا تماماً وبشكلٍ تقليدي. لقد كان رجل عمل وإثارة، رجل تكتيكات واستراتيجيات. لقد كان ابناً لمحاكم التفتيش والباحث عن السلطة المطلقة؛ فهو لم يكن قط ـ ولا حتى من على بعد ـ ابناً لموسكو المضجرة ولا للنزعة الشمولية الصارمة. ومن الممتع بما فيه الكفاية أن ليس ثمة أدنى اختلاف في الرأي حول هذا التصور بين أصدقائه في الجامعة. وهذه الحقيقة من شأنها ببساطة أن تجعل من غير المعقول أن ينجذب شابٌ متمرد طموح شديد النزوع نحو الفردية على شاكلة فيدل إلى الحزب الشيوعي ذي الأفكار الرجعية العتيقة، الغارق في تشدده الأيديولوجي، والطافح بالتنظيم المسمّر لنقابات واتحادات العمال وفقاً لحاجة موسكو.

وعلى الرغم من أن محاولاته للفوز بالانتخابات قد باءت بالفشل، إلا أنه لم يستسلم أو يتخلى عن الأمر، فقد اتصل تقريباً بكل فرد كان بوسعه أن يسلكه في الحركة السياسية الطلابية، ولم تعرف جهودُه من أجل النجاح الكلل أو الملل. فقد اعتاد أن يمشي شارع المشاة Avenida Infanta ذهاباً وجيئة، متوقفاً عند ناصية ڤيكي Vicki ـ وهو مقهى مفضل لدى الطلاب حيث كانوا يحفرون أسماءهم على المناضد الخشبية جلباً للحظ. كان عليه أن يلتقي بالناس، وأن يناقش، ثم يلتقي بالمزيد من الناس، وذات يوم فكر في أن يعضد مساعيه السياسية بأن يبيع للطلبة لحماً مقلياً Fritas، وكان هذا اللون من الطعام بمثابة هامبرجر كوبي، وبقدر ما تُطلعنا عليه المدونات والسجلات، فقد مثل هذا الأمر محاولة فيدل الأولى والوحيدة والفعلية في مجال «الرأسمالية». وربما كان من سوء حظ العالم، أن فيدل اضطر إلى إغلاق مائدة الهامبرجر في غضون شهر واحد لأن المشروع لم يدر عائداً. . وقد لخص تشينو إسكويفيل الأمر قائلاً في حزن: «فتى غريب المنظر التهم اللحم كله».

إن ثمة أمرين بالتحديد قد نتجا عن محاولته الفوز في الحياة السياسية الطلابية

الانتخابية. إذ عندما علم آنجيل بأن أمور السياسة قد استغرقت فيدل، فطع راتب الخمسمائة دولار التي اعتاد إرسالها له شهرياً، مضطرا فيدل بذلك إلى الانتقال إلى بيت آخر من بيوت الطلبة أقل تكلفة، وفي مناسبات كثيرة توسل فيدل إلى أخيه رامون Ramon في طلب نقود أزيد، وكان رامون هذا لا يزال يساعد انجيل في أعمال المزرعة، إلا أن هذا لم يُحدث في نفس انجيل إلاّ المزيد من الغضب. أما الأمر الثاني الذي جناه من محاولته فكان شعوراً بالإزدراء والكراهية تجاه السياسة القائمة على الانتخاب أعمق من إزدرائه وكراهيته التي كانت لديه أصلاً تجاه [illegible] لوالده ولأصدقاء والده السياسيين في بيران Biran.

ولكن إذا كان فيدل قد أخفق في الفوز بانتخابات الجامعة في تلك السنوات التكوينية المشحونة بالأحداث، إلا أنه مع ذلك قام بقفزة كبيرة قربت به من مستقبله فقد أخبر رافائيل دياز ـ بالارت ذات مرة أن صاحب عصابة ال كابوني كان رجلاً أحمق ذلك لأنه لم يشكل قط أية صيغة أيديولوجية. وقال فيدل إنه لو كان في مكانه لكان سيصبح ذا شهرة، وما كان سيُعرف كرجل عصابات وحسب. وفي عامه الثاني بجامعة هافانا، وكان قد بلغ العشرين من عمره، أصبح فيدل شخصاً ذا أهمية وخطر؛ وثمة قلة من أناس أحياء سوف يشهدون على صدق ما حدث ذلك اليوم والذي لم يطرق هو بات الحديث عنه ولا حتى من بعيد ـ لقد أصبح فيدل رجل عصابة من الطراز الأول. ولقد كان لفيدل ـ خلافاً لال كابوني الأسلوب عامة ـ صيغته الأيديولوجية، التي تمثلت في مشروعية الأساليب الماكيافيللية الخالصة.

الفصل الخامس

العنف التعويضي

إن الكثيرين ممن لقوا حتفهم كقطاع طرق، هم ضحايا لوهم خادع، واليوم ينبغي النظر إليهم باعتبارهم أبطالاً

فيدل كاسترو

في وقت متأخر من بعد ظهيرة أحد أيام ديسمبر من عام ١٩٤٦ ظهر فيدل فجأة على باب غرفة رافائيل دياز ـ بالارت في هافانا. كانت ملابسه أكثر إهمالاً واضطراباً مما هو مألوف فيه وكان على وجهه تعبير رجل يترنح فوق حافة. ثم انفتل قائلاً: «اسمح لي بالدخول يا رافائيل، لقد قتلت للتو ليونيل جوميز Leonel Gomez».

فقال رافائيل ـ وقد كان كمن نزلت به صاعقة ـ: «أنت ماذا؟ وعن ماذا تتحدث؟».

وقد حكى رافائيل، أنه قبل ذلك بأسابيع قليلة فقط، كان فيدل قد أخبره ـ وهما منهمكان في واحدة من مناقشاتهما الحادة التي لا نهاية لها وكانت عن القوة والموضع السياسي ـ أن ليونيل جوميز ومانولو كاسترو Manolo Castro ـ والإثنان معروفان خاصة بأنهما من زعماء جماعات المعارضة الطلابية الميالين إلى العنف ـ كانا يشكلان «عقبة» بالنسبة له. فكان أن هز رافائيل رأسه وأعلن اختلافه معه في الرأي. قال رافائيل له «كلا، ليس مانولو. إن ليونيل جوميز هو العقبة، ذلك لأنه في سبيله إلى الفوز بانتخابات إتحاد الطلبة». فوافقه فيدل على ذلك وأصر ـ فجأة ـ على ضرورة تدبير هجوم على ليونيل جوميز، غير أنه لم يخطر ببال رافائيل قط أنه عازم بالفعل على تنفيذ مثل هذه الفكرة الطائشة الرعناء. ويقول ماتشيو Macho إن أمرا كهذا كان في جامعة ذاك الوقت سهلاً ميسوراً.

والآن وقد أصبح فيدل في أمان داخل غرفة رافائيل، أكد على أن الاغتيال لم يكن قد خُطط له. ففيدل قد كان واقفاً فوق قمة ربوة بالجامعة مع اثنين من خلصاء مانولو كاسترو ـ هكذا راح فيدل يشرح لرافائيل ما حدث في عصبية وانفعال ـ وأن ثلاثتهم قد رأوا ـ على حين فجأة ـ سيارةً خارجة من الشوارع المجاورة أسفل منهم عند شارع ريوندا Rionda. وكانت السيارةُ تخص ليونيل جوميز ـ زعيم الجماعة المنافسة ـ وقد راحوا يراقبونها الآن في صمت مليء بالمعاني والدلالات، وقد تسمرت أعينهم على السيارة التي انعرج الطريق بها ببطء من أسفل منهم كثعبان. وقد راحت السيارةُ تغذُّ السير كما لو كانت رؤية في منام جميل، وقد سارت على طول شارع ريوندا، وهو طريق مسدود النهاية لا مخرج له. ولعلمهم بأن على جوميز أن يعود بالضرورة من نفس الطريق كيما يخرج من الدائرة التي احتبسته الآن، إذا بنوع من رغبة دموية جامحة قد استبدت بالرجال الثلاثة الذين كانوا من قبل ذلك بدقائق لا أكثر واقفين على قمة الربوة في غير مبالاة بشيء.

فما هي إلا أن قال أحدُهم: «هيا بنا نقتله؛ فإنه مجبر على أن يقفل راجعاً».

وقال فيدل: «لا بأس»، وارتد طرفه إلى الضحية يرمقها. وعندما استدارت السيارة راجعة، بدأ ثلاثتهم في إطلاق النار بشراسة فأصيب من جراء ذلك عددٌ من المارة من دونهم بجراح. أما فيدل فقد توقدت عيناه. وقد أخبر رفائيل بأنه كان هادئاً تماماً إذ ذاك. لقد صوب السلاح وأطلق النار. وفي غضون دقائق كان قد أعلن على موجات الراديو نبأ اغتيال ليونيل جوميز بشكل ينطوي على إثارة للشعور العام وكان فيدل قد فر هارباً إلى ملاذ رافائيل قلقاً يترقب شراً.

من بين سائر مراحل حياة فيدل الأولى على كثرتها، فإن أشدها غموضاً وأكثرها عرضة للجدل والاختلاف هي تلك الفترة الخاصة بنزعة لعصابة من قطاع الطرق في سنوات الدراسة الجامعية. وليس من المستغرب أن ينكر المعجبون به والمدافعون عنه التوقيت أو يرفضونه، إلا أن شهادة الشهود الذين كانوا على معرفة به انذاك هي شهادةٌ ساحقة ماحقة.

فأول كل شيء، إنه ليس من غير المألوف أو مما يحيد عن القواعد المقررة للسلوك، أنه قد كانت جماعاتُ العنف ـ وتُسمى أيضا جماعات الإرهاب أو جماعات العمل الاستثاري أو عصابات الرجال الموهوبين في الضغط على الزناد ـ هي الفكرة الملحة على سلوك العصور الراهنة. ففي كوبا زمن الاربعينات، كان هناك إحساسٌ بالعنف من حيث هو ضربٌ من التعويض، أو بمعنى أنه فكرةٌ عن علاج رومانتيكي

بـالكي من خلال العنف لمجتمـع نال منـه الـداء، وهـو معنى كـان على نفس النحـو السلف والمصدر لنوع الغضب المقدس المبرر ذاتياً وفقاً لقواعد أخلاقية والذي نجده لدى الميليشيات اللبنانية في السبعينـات والثمانينـات. وعن تلك الأيام كتب الكـاتب الكوبي المعروف جويلرمو كابريـرا إنفانتي Guillermo Cabrera Infante فقـال: «إن عصابات قـطاع الطرق قـد أعملت السلب والنهب في الشوارع الترابية المـظلمة من هـافانـا القديمـة، وكانت تقتتـل إحداهـا مع الأخـرى من أجل أفكـار هي أكثر ظُلمـةً وإعتاماً من الشوارع ذاتها. . .». وقد لمَّح فيـدل نفسه ـ عنـدما استـولى على السلطة عام ١٩٥٩ ـ إلى أن أعوامه الخمسة التي قضاها في جامعة هافانا دارساً للقانون، إنما كـانت ـ ويا لسخـرية القـدر ـ «فترةً فـاقت في خطورتهـا كثيراً خـطورة كل الفتـرة من الوقت التي أمضيتُها في سلسلة مرتفعات مايسترا وأنا أقاتل ضد باتيستا Batista».

أمـا بالنسبـة للكثيرين من الـطلبة ذوي المشـاعر الـرقيقة الـذين لم يجـدوا في العنف متعة ولا هم قد سعوا إليه، فكـان الوضـعُ لديهم زمنـاً لكابـوس مستمر. وقـد كتبت تيريزا «تيتي» كاسوسو Teresa «Tete» Casuso ـ الشابةُ الجميلة المتمركزة حول ذاتهـا والتي تنتمي إلى أيام دراسيـة أسبـق وإن كـانت بتلك الأيام أشبـه وهي التي قد أصبحت فيما بعد شريكة مقربة لفيدل في أعماله ـ كتبت عن الأحوال السائدة للعصـر بأسًى طاغ فقالت: «في كل يوم كان يُقتل واحد أو آخرُ من رفاقنـا. وإني لأذكر ذلـك اليـوم الذي توجهت فيـه لمنزلي كيمـا أستذكـر دروسي استعدادًا لـلامتحان في مـاده الأحياء، وكان ذلك بعد مقتل صديق عزيز جداً كنا منذ أقل من نصف ساعة نقف معه على درجـات سلم الجامعـة نتحادث. وكـان قد تـزوج حديثـاً وكـان سعيـداً. فتحتُ الكتابَ وقرأتُ عبارة كلود برنـارد «إن الموت ظـاهرةٌ دالـة على تمام النضـج والاكتمال». فامتلأت عينيَّ بصـورةِ جثمان صـديقي وكانت قـد حُملت إلى مستشفى الجامعـة وما تزال بعدُ دافئة. فنحيتُ الكتاب عني في عنف».

إن الجماعات الطلابية كانت قد غُـرِست جذورُهـا حقاً في أثنـاء حكم ماشـادو الاستبـدادي، إلا أنهـا ازدهـرت وأثمرت في أجـواء خيبـة الأمـل التي جـاءت مـع «الديمقراطية» التي سارت في ركاب الزعيم القوي الشكيمة. فمنذ أن فشلت التدابير القضائية التي نظمها باتيستا في أعقاب حكم ما شادو في إنزال العقاب بأولئـك الذين أهانوا المواطنين واستباحوا دماءهم في ظل حماية ماشـادو، إذا بجماعـات من الشبان والشـابات وقـد ظهرت بمجـرد رحيل بـاتيستا عن السلطة في عـام ١٩٤٤ في أرجـاء الجزيرة ليعـاقبوا الـطغاة بـأنفسهم. وقد أثـارت هذه الأمـور غضب الطلبـة الفخورين

بشجاعتهم وإقدامهم ومسوغ العنف لديهم لما كانوا عليه من «ثورية». وقد ابتكروا للحركة الثورية لغة راحوا يتحادثون بها، ما كان يستطيع معرفتها إلا الداخلون في عضوية الحركة. وقد أوجدت الروحُ المريضه لهذا العصر «أبطالاً» خرافيين في مجتمع ظل باستمرار يتخوف مما يربطه بالواقع. وكان ياسوع جونزاليس Jesus Gonzalez ـ أحد الزعماء ـ يُوصف بأنه العجيب الخارق Flextrano وكان يستقبل المبتهلين له والمتوسلين به وهو جالس على عرش وضوء خافت غريب يلقي بشعاعه على وجهه.

في هذه الأثناء كان جراو Grau ـ الذي كان قد تقلد المنصب الرئاسي عام ١٩٤٤ معلناً في شموخ وحسم «أنه في هذا اليوم تكون جماهير الشعب هي التي أمسكت بمقاليد السلطة» ـ قد نأى بنفسه سريعاً بعيداً بينما راح موظفوه ومستخدموه يؤلفون قوات خاصة تتصدى للجماعات الأخرى وتدافع عن مناطق الكسب غير المشروع الخاصة بها وما استولوا عليه من امتيازات خاصة. وجراو ـ الذي انتهى به الأمر إلى ترك المنصب بعد ما يُزعم عن اختلاسه لما يربو على ١٧٤ مليون دولار ـ اشتكى فيما بعد بمرارة من جحود أعضاء الجماعات.

منذ وقت ميلاد فولجنسيو باتيستا زالديفار Fulgencio Batista Zaldivar وقد بدى على نحو غريب أنه المقدر له أن يكون هو «الرجل» ـ كان أتباعه يسمونه «الرجل» El Hombre، في إشارة منهم إلى فحولته Macho القوية ـ الذي كان على فيدل كاسترو أن يضع نفسه في الخندق ضده. وكان باتيستا وُلد قرب بيران، في ذات القطاع الشرقي الذي وُلد فيه أبناءُ كاسترو وتربوا وكبروا، بل إنه قد اشتغل ذات مرة في خدمة آنجيل كاسترو. غير أن باتيستا لم يكن جاليجي الأصل؛ لقد كان نموذجاً للشرقي الخليط من أصول هندية وزنجية وإسبانية، وهي حقيقة ظلت تعذبه طيلة حياته، وكان إنجازه الأكبر في مستهل حياته بعد إلتحاقه بالجيش الكوبي الحديد أن عُين ضابط شفرة بالقصر الجمهوري. لكنه بلغ مكانته الخاصة به فعلاً في أعقاب «ثورة الضباط» الناجحة التي أمكنها ـ آخر الأمر ـ أن تسقط ماشادو عن كرسي الحكم عام ١٩٣٣.

في تلك الأيام الأولى كان باتيستا متأنقاً وسيماً عن اضطرار ـ كانت له مثل تلك الابتسامة التي تنمُّ عن شهوة بحيث كان يُلقب بـ «الخلاسي اللطيف» ـ أما عن فحولته المثيرة فقد وجدت تمثيلاً لها في الجاكيت الجلدي الأسود الذي كان يحب ارتداءه، مع مسّدسه في جرابه بطبيعة الحال. ومن عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٤٠ كان باتيستا ـ

من الناحية الرسمية ـ قـائد كتيبـة في الجيش، وكان ـ في حـد ذاته ـ يفـوق أي رئيس قوةً؛ ثم أمسك بمقاليد الرئاسة من عام ١٩٤٠ إلى عـام ١٩٤٤، حيث أطيح بـه عن السلطة في انقلاب أبيض. وفي عام ١٩٤٤ خسر مرشح باتيستـا للرئاسـة، وبشجاعـة «أجـاز» باتيستـا ـ تحت إلحاح من سفيـر الولايـات المتحدة سبـرويل بـرادن Spruille Braden ـ رامـون جراو ـ الـذي كان قـد حقق الفوز ـ ليشغـل منصب الرئيس، وكـان برادن في ذلك متابعاً لخطة إدارة الاستخبارات الفيدرالية FDR في العمـل على دعم التحول الديمقراطي في أمريكا اللاتينية.

عندئذٍ رحل باتيستا إلى منفى مريح لكنه مؤقت على شـاطىء دايتونـا Daytona بفلوريدا.

على هذه الأرضية المريرة من خيبـة الأمل والعنف المحيط، حـدث أن ظهرت براعةُ فيدل في الخداع من خلال واقعه قتل ليونيل جوميـز الذي يعـد موضـوع دراسة في فهم قدراته على البلوغ للسلطة.

فعندما دخـل فيدل إلى الجـامعة، بـدأ من فوره يمعن النـظر ويدقق الفكـر في زعمـاء أكثر الجمـاعـات أهميـة ـ وفي طـريقتهم التي كـانـوا بهـا صنفـاً مؤثـراً من الأشخاص. كان الكثيرون رجالاً أكبر من الحياة وأكثـر شراً من الكـل. فكان رولاندو ماسفيرر Rolando Masferrer صـاحب الحركـة الاشتراكيـة الثوريـة .M.S.R ـ على وشك أن يصبح أسوأ تابع لباتيستا ومن أكثر القتلة مهارة وخبرة. كـان له ولـوع طبيعي بـالقتال فقـد قاتـل ـ شأن الكثيـر من الكوبيين ـ في صف الاتجـاه الشيوعي في أثنـاء الحرب الأهلية الاسبانية. فهو رجل إرهاب من الطراز الأول، وكان ضالعـاً في «لعبة» العنف الكوبي سعياً وراء السلطة وليس سعياً من أجل الأيديولوجيا ولـذا فإنـه لم يجد مشكلة على الإطـلاق في التحـول من الحـركـة الجمهـوريـة الاسبـانيـة إلى النـزعـة العسكرية لباتيستا. وإلى جانبه كان مانولو كاسترو ـ الشخص القوي الأخر في الحركة الاشتـراكية الثـورية ـ الـذي تـرأس إتحـاد الـطلبـة على مـدى معـظم وقت فيـدل في الجامعة. كان مانولو كـاسترو مصـدر قلق لفيدل الـذي فعل كـل شيء ممكن لكسب مرضاته ـ غير أن هدف فيدل إنما كان لا أن يصبح صديقاً له بل حليفاً له.

أما الجماعة الهامة الأخرى، الاتحاد الثوري للعصيـان المسلح .U.I.R، وهي الجماعةُ التي كان ينتمي إليها ليونيل جـوميز، والتي كـان يترأسهـا إميليو تـرو Emilio Tro الذي قاتل في الباسيفيك ضمن صفوف القوات المسلحة للولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية. والرئيس جـراو، علماً منـه بأنـه لم يكن يستطيـع للجماعـات

ضبطاً ولكن مع رغبته في استخدام الجماعات لصالح منافعه المالية، لذا كثيراً ما راح يخلع على زعماء الجماعات وظائف لا يؤدون فيها عملاً. وكانت هذه الوظائف تعرف باسم «الزجاجات الفارغة».

ولكن، ما السبب الذي من أجله قام فيدل بإطلاق النار على ليونيل جوميز وقتله؟ لقد أجهز فيدل على زعيم الاتحاد الثوري للعصيان المسلح .U.I.R وفقاً لمذهبه الماكيافيللي المثالي، وذلك من أجل لفت انتباه مانولو كاسترو زعيم الحركة الاشتراكية الثورية .M.S.R وليفوز بالحظوة عند مانولو آخر الأمر. ولكن - جرياً على عادة فيدل - لم تظهر هذه الحقيقة الأميل إلى البساطة حتى وقت جد متأخر وبمرور الوقت كان دهاء فيدل وخداعه قد غيَّر الصورة وأفسد نظامها.

ذلك لأن ليونيل جوميز لم يمت في الحقيقة. لقد كان فيدل قد أطلق عليه النار فأصاب منه الرئة، إلا أنه ظل حياً لبعض الوقت في المستشفى. وللإتحاد الثوري للعصيان المسلح أعطى جوميز اسم فيدل وكذلك اسم اسكويفيل باعتبارهما الشخصين المسؤولين عن الإعتداء عليه. وبالفعل، فقد وُجه الاتهامُ في جلسة خاصة عقدها الاتحادُ الثوري للعصيان المسلح إلى فيدل بالهجوم وإطلاق النار. هنا عاود فيدل من جديد حسنُ طالعه وقدراته الفذة وسحرُ شخصيته ليرقص في الحلبة مرة أخرى. كان هدفه من وراء إطلاق النار على جوميز قد أنجز، ولكن بالتواء ساخر. ففيدل لم يفز بمرضاة مانولو كاسترو، كما أنه لم يُدع إلى الانخراط في سلك الحركة الاشتراكية الثورية. لكنه (وهو الأمر الذي ينِدُّ عن التصديق به) كسب فعلاً صداقة إميليو ترو - رئيس الاتحاد الثوري للعصيان المسلح .U.I.R الجماعة التي ينتمي إليها ليونيل جوميز.

وقد أجمل ماكس لسنيك - صديق فيدل - الأمر فقال: «يبدو أنه قد خامر إميليو ترو حيال فيدل شيءٌ من التعاطف، وبمعزل عن التصرف وفقاً لنتائج الهجوم أو الاعتداء الذي عانى منه أحدُ رجاله، فإن ترو كان قد تحول إلى نصرة كاسترو والدفاع عنه». وبدءاً من هذه اللحظة تم قبول فيدل كاسترو عضواً في الاتحاد الثوري للعصيان المسلح .U.I.R وقد أبدى سروراً واضحاً بالنتيجة التي أدت إليها «مكائده» البارعة.

بل إن فيدل - بعد أيام قليلة من لقائه بترو TRO - حضر إلى الجامعة في واحدة من سيارات الاتحاد الثوري للعصيان المسلح في إعلان منه عن علاقته

الجديدة بالجماعة. كما أن المسدس الجديد الذي امتشقه الآن بزهو يفوق ما كان يحسه من زهو مع مسدسه القديم من عيار ٤٥ ميللي أعطاه له ترو. وهكذا فإنه بقليل من الحظ وكثير من الذكاء تخلص فيدل من الاتهام بـ «الاغتيال» لتربطه من بعد ذلك ـ علاقةٌ حميمة بزعيم الرجل «المغدور به».

بيد أنه إذا كان قد كسب صديقاً في شخص إيميليو ترو، فإنه كان قد تحول أيضاً عن زعيمي الحركة الاشتراكية الثورية القويين: رولاندو ماسفيرر ومانولو كاسترو. ولم يخف هذان الرجلان احتقارهما لفيدل. ومع ذلك فإن خلافاتهما مع زميلهما في العصابة الإجرامية قد غُض الطرف عنها مؤقتاً في غمرة أحداث كبار كانت في الواقع فصل الختام في الأعمال المثيرة التي كان فيدل كاسترو لا يزال يقوم بها.

في هذه الآونة كان كل من لينا وآنجيل كاسترو في حنق من ابنهما وغضب. لقد أرسلاه إلى أفضل المدارس كلها؛ وقد عملا ليل نهار على تربيته وتعليمه شأن ما يفعل أولياء الأمور في جاليشيا، ولم يحرماه من السيارات، وكانا يبذلان له المال بسخاء حتى عندما كان يقوم بدور رجل العصابات في الجامعة. غير أن هذا التطور الجديد كان مجاوزاً لكل حد ـ فإن أملهما الأكبر، وأذكى وأشجع ابن لهما، وهو فيدل، قد انخرط في تنظيم كوكامامي Cockamamy الذي يعمل على غزو جمهورية الدومينيكان المجاورة ومن الأمور الأكثر بُعداً عن التصديق، أن الغزو ـ في رأي الجانب الكوبي ـ إنما تم الإعداد له وتنظيمه على يد ألد عدوين لفيدل وأشدهما مقتاً: رولاندو ماسفيرر ومانولو كاسترو.

وقد كان على رأس حملة جزيرة الحلوى Cayo Confites Expedition ـ وهو الاسمُ الذي صار يُعرف به الغزو ـ المفكر اللاذع المتحمس والوطني الدومينيكاني جوان بوش Juan Bosch الذي طالما ناصر وأيد فكرة الإطاحة بالديكتاتور المكروه رافائيل ليونيداس تروجيللو Rafael Leonidas Trujillo. وقد جمع بوش الآن ـ من مركز قيادته الرئيسي في فندق صغير بهافانا ـ تحالفا فريداً.

إن جزيرة السكر ـ وهي جزيرةٌ رملية أو جزيرة منخفضة تشبه كثيراً أية بقعة أخرى من الأرض الرملية القاحلة التي تظهر فجأة من بين المياه اللازوردية اللامعة في هذا الجزء الشمالي من حوض الكاريبي ـ كان قد تم اختيارها لتكون نقطة تجمع مجموعة متباينة من الرجال كان عليهم أن يتدربوا على عمليّة الغزو تحت أشعة شمس قاسية الحرارة. وتُعَدُّ الحملة نقطة تحول تاريخي ذلك لأنه لم يحدث قط قبل ذلك أن التأم شمل الكوبيين والدومينيكانيين والفنزويليين وأهل كوستاريكا ليحاربوا

معاً كجماعة واحدة من مقاتلي أمريكا اللاتينية. لقد شكلوا مشهداً مستقبلياً حقيقياً لذلك الذي كان على كاسترو نفسه أن يعمل على خلقه أو إيجاده في وقت لاحق. لقد كانوا في الواقع ـ ودون علم منهم بذلك ـ طلائع لألوية كاسترو الثورية العالمية. ولكن كان على فيدل ـ بعد إطلاعه على ما حدث في جزيرة السكر ـ أن يعمل على تنظيم مجموعاته بعناية أكبر وحرص أشد.

وعندما تناهت إلى آنجيل ولينا أخبار اشتراك فيدل المزمع فيما كان يدور في جزيرة السكر، تملكهما الغيظ والغضب، فقصدا من فورهما إلى هافانا وقاما بتوجيه نداء إلى بوش الذي وافق على الاتصال بفيدل في جزيرة السكر وأن يطلب إليه العودة في اليوم التالي لاجتماع سيعقده.

كان فيدل بادي التحدي والجرأة وهو متوجه إلى غرفة القيادة في الفندق الذي ينزل فيه بوش، وكان لابساً للزي الرسمي أصلاً. وقد أبدى آنجيل على الفور استياءه من هذا الابن الصعب المراس، بينما راح بوش اليقظ يراقب الموقف بانتباه وحذر. إن آنجيل الذي كان عادةً جم الحيوية والنشاط قد بدا فجأة مرهقاً هرماً منسحق النفس، رفض في عناد أن ينهض واقفاً لتحية فيدل عندما دلف هذا الأخير داخلاً، واكتفى بأن أشاح ببصره بعيداً. أما لينا ورامون ـ وهو الأخ الأكبر لفيدل ـ (ويعرف تدليلاً باسم مونجو Mongo) فقد احتضنا فيدل وعانقاه، غير أن لينا كانت ـ على عادتها دائماً ـ واضحة في مشاعرها، فهتفت بابنها قائلة: «ليس تروجيللو هو الذي سيوردك موارد التهلكة، بل هو ماسفيرر».

فما كان من فيدل إلا أن انطلق يتحدث بهدوء وبساطة على ذلك النحو «الألمعي البارع» الذي طالما أفاده فيما بعد في توجيهاته الطموحة أيما إفادة، مبيناً أن هذا الأمر كان بالنسبة له «واجباً أخلاقياً». هنا انبرى آنجيل ليعرض عليه سيارة أخرى ـ إذ يبدو أن السيارات كانت مادة التبادل بين الأب والابن ـ كما أنه رَغِبَهُ ـ كبديل عن كل شيء ـ في الذهاب خارج البلاد إلى «الولايات المتحدة».

فما كان من فيدل إلا أن انتفض ناهضاً في اعتداد أخلاقي بالذات وقال في جلال مصحوب بقدر أكبر من العُجب والغرور: «يبدو ـ يا أبتي ـ أنك لا تدرك الأمر على وجهه الصحيح، لقد تحررت كوبا بفضل جهود كبرى بذلها جنرال من الدومينيكان هو ماكسيمو جوميز Maximo Gomez. وإنني راغب في سداد هذا الدين، وإلى ذلك يرجع السبب في رغبتي في أن أقاتل ضد تروجيللو».

وعندما تحادثتُ في السنوات الأخيرة إلى جوزيا باردو لادا José Pardo Llada قال لي إن فيدل قد امتلأ إيماناً بهذا التخريج. قال باردو: «أحياناً ما يكون فيدل غامضاً محيراً. فمن الحق تماماً أنه قد كانت فكرةُ «حوض كاريبي واحد» ذي قوات مسلحة كاملة تحارب جنباً إلى جنب ضد الحاكم المستبد جزءًا وطيداً راسخاً من رغبة شاملة واسعة لديه عن حركة تحرير قومي شاملة».

وقد انتهى اللقاءُ إلى نهاية جافة فظة. فقد انصرف فيدل خارجاً دون أن يلقي حتى تحية، وقفل راجعاً إلى حيث جزيرة السكر النائية، تلك الجزيرة الرملية القاحلة التي كان فيها منذ وقت مضى مئتان وألف من الرجال من جنسيات شتى يتلقون التدريب فعلاً.

وأما عن مسألة أن القوة الكوبية كانت برئاسة أعدائه من رجال الحركة الاشتراكية الثورية .M.S.R فهو أمر لم يمثل عائقاً له في الواقع. فقد احتاط للأمر بما له من فهم نظري مثالي للموضع الذي ينشد فيه مأمنه والكيفية التي يستخدم بها القوة تحقيقاً لحماية ذاته، وكان أول ما فعله فيدل هو أن ذهب مباشرة إلى خوان بوش الذي كان قد ظفر ـ بشكل خاص ـ بتأييد مخلص واضح من الشاب الكوبي الذي رغب في «أن يموت في سبيل تحرير سانتودومينجو». وقد وافق بوش على التحادث مع الزعيمين الكوبيين: مانولو كاسترو ورولاندو ماسفيرر. وبضغط من بوش حملهما ـ آخر الأمر ـ على أن يصادقا بالموافقة على إمكان ذهاب فيدل إلى الجزيرة بالإضافة إلى ضرورة تأمينه منهما على الأقل أثناء وجوده هناك.

لكن فيدل ـ بما له من حس فائق بأين ومتى يوجه ضغوطاته ـ اتخذ احتياطات مزدوجة بأن ذهب أيضاً إلى إيزيك أوڤاريس، رئيس اتحاد الطلاب و «قائد» قوات الطلائع في عملية الغزو، وطلب إليه أن يتحدث بدوره مع مانولو كاسترو. وقد قام أوڤاريس بنقل رغبة فيدل في كفالة قدر من «الضمان أو التأمين» إلى مانولو، وهو ألا يلحقه أذى إن هو التحق بالحملة. وقد رد مانولو «أن فيدل شخص قذر، لكنه صاحب حق. وإني سوف أخاطب بشأنه كل الناس ولسوف يذهب فيدل إلى المعسكرات».

ويبدو أن فيدل كان لا يزال غير مقتنع كل الاقتناع. ذلك لأنه أعد ـ في ذلك الحين ـ بكتابة قدراً من «الوصية الأخيرة والعهد».

دائماً ما كان بوش الناحل الشديد الرقة والدماثة يعتقد أن الكوبي التقليدي امرؤ

ركز نشاطه واهتمامه «بإخلاص في غزو السعادة عن طريق نزعة لذيّة تنطوي على شدة البهجة. فإن للكوبي موهبةً في المتعة والمسرة». أما الآن، وفي تلك البقعة النائية من الصحراء، رأى فجأةً نوعيةً جديدة تماماً للإنسان الكوبي، وقد راح خوان بوش بعد ذلك بسنوات عدة يستعيد معي في سانتودومنجو ذكريات تلك الأيام وذلك الفتى فيدل كاسترو الذي كان وقتذاك في بداية التعرف عليه والذي امتلأ به إعجاباً فيما بعد.

«في أحد الأيام كنا نتجاذب أطراف الحديث فإذا بصوت عيار ناري هناك. وبدأ البعض في الجري والتقصي. وكان الذي حدث هو أن أحد الرجال كان قد أصابه من بندقيته جرحٌ وكانت معدته بكاملها مدلاةً إلى الخارج. وكان لدينا فريق طبي تولى أمر الرجل على الفور. وقد قمتُ طيلة هذا الوقت بمراقبة فيدل جيداً. لقد ثبت نظرته على وجه الرجل الجريح. وقال أحدُهم «ادفع بالمعدة إلى الداخل»، وكان ثمة فزع ارتسم على وجه الرجل. أما فيدل فقد ظل يداوم النظر، وهو شديد جمود الملامح، لا ينم وجهه عن شيء. ومات الرجل، كان حادثاً مؤسفاً. لكنني سأظل أذكر دائماً أن فيدل كان شديد الفتور صافي النفس من أي انفعال. فالحق أنه لم تلح عليه أية أمارة انفعال، وهو يواصل السير على هذا النهج».

وقد شارك في حملة جزيرة السكر سائر زعماء حوض الكاريبي والكثير من أميركا اللاتينية، من أنصار النزعة الشعبية والنزعة الديمقراطية الجديدة على حد سواء؛ فمنهم رومولو بيتانكور Romulo Betancourt زعيم ڤانزويللا وخوان جوزيا اريڤالوا Juan José Afevalo زعيم جواتيمالا وجوزيا بيبي فيجويريس José Pepe Figueres زعيم كوستاريكا... وعلى الرغم من العنف الضمني والتوجس إلا أن الجماعة المتباينة العناصر كانت على قلب رجل واحد وذلك بفضل نوع من الكراهية العنيفة لشخص تروجيللو، على حين أن بقية منطقة حوض الكاريبي، والتي كانت ممثلة في هذه الحملة ذاتها، كانت تتحرك بدافع أمل قوي جديد نحو شكل من أشكال الحكم النيابي، كانت جمهورية الدومينيكان تحت زعامة رافائيل ليونيداس تروجيللو تقف له ـ في تلك الآونة ـ بإرهاب وتتصدى له بأسلوب النظام القديم. فقد كتب المؤرخ الأمريكي جون بارتلو مارتن John Bartlow Martin يقول: «لم يكن تروجيللو طرازاً من الزعامة اللاتينية التهريجية التي عفا عليها الزمن. فقط كانت تعوزه الأيديولوجيا، كانت دولته بحق دولة تسلطية من طراز حديث، قد اكتملت لها النزعةُ العنصرية، وجهاز للتجسس، وغرف للتعذيب، ومراكز للإبادة. وكانت عيون تروجيللو أو مخبروه

في كل مكان. وكان الخوف في كل مكان، مرضاً حطّ على البلاد».

وفي ليلة نكراء قامت قواته بارتكاب مذبحة في حق إثني عشر ألفاً من عمال هاييتي عند الحدود المقيتة المخوفة لهاييتي. كما قام هو شخصياً ـ في مقره الصيفي في ڤيللا ميللا Villa Mella ـ بقتل أناس ثم قام بإلقاء رفاتهم في النهر. ومن الغريب أنه قام بتشييد نُصب تذكاري لوالدته التي تنحدر من أصل ملون، على قاعدة بارتفاع أربعين قدماً، وعندما قام بوضع تمثال والدته فوقها، على نفس الموضع تماماً الذي كان قد وُلِدَ هو فيه، كان لكل امرىء أن يشاهد النُصب باعتباره أعلى عمود رمزي على الجزيرة الاسبانيولية.

غير أن قوة حملة جزيرة السكر ـ أي اجتماع الكوبيين والكوستاريكيين والڤنزويليين والدومينيكانيين تحقيقاً لهدف واحد ـ كانت هي أيضاً مصدر ما حاق بها من فشل؛ ذلك لأن كل فرد في حوض الكاريبي ـ بما فيهم تروجيللو نفسه ـ كان على علم تام بكل تفاصيل الخطة التي أجيد الإعلانُ عنها. وقد وصل الموقف إلى حد التهريج المضحك عندما قام تروجيللو بإرسال مذكرة عامة لمختلف حكومات دول أمريكا الجنوبية الأخرى يحذرهم فيها من غزو شامل قيد الاعداد ومطالباً بـ «عقد مؤتمر دولي».

وقد توجه فيدل مبكراً بالشكوى لدى الآخرين ـ وذلك بما له من وعي ممتاز بنواحي الضعف في العامل البشري وفي التنظيمات والترتيبات ـ من أن الحملة كانت مغرقة في العلانية والافتضاح، وقد أبدى تخوفه من الافتقار إلى السرية. فقد ذكر ڤيرجيليو ميناردي ريناVergilio Mainardi Reina ـ وهو من الدومينيكان ـ «كان فيدل متخوفاً من أن تصبح الحملةُ مأزقاً أو ورطة عامة». وكان فيدل ـ كالعادة ـ على حق تمامًا؛ فلقد كانت مخاوفه دائماً خير حليف له تقريباً.

فقبل يومين اثنين من الانهيار الكامل والفشل الذريع اللذين منيت بهما حملةُ جزيرة السكر، علم الثوار أن اليخت الخاص لتروجيللو ـ ويُعرف باسم الملاك Angelita ـ كان يبحر في تؤدة وحذر كسمكة القرش اللولبية بمحاذاة الساحل الشمالي من المنطقة الشرقية. ولم يكن من غير المتوقع أن كان فيدل في طليعة مجموعة صغيرة من المتطوعين انطلقت في قارب سريع من زوارق الطوربيد وقد أمكن للحفنة القليلة من الرجال أن تكتشف اليخت المترف على بُعد خمسين ميلاً من باراكوا Baracoa في أقصى الجزيرة، فوثبوا إلى سطحه بطريقة قراصنة القرن السابع عشر.

وعلى الرغم من أنه ما من أحد كان يتوقع فعلاً أن يجد ديكتاتور الدومينيكان على ظهر الياخت في موضع كهذا سهل المنال غير حصين، ومع ذلك فقد شرع فيدل في الصياح عالياً قائلاً: «أين أنت باتروجيللو؟ أين أنت ياتروجيللو؟».

ولم يكن تروجيللو بالطبع على ظهر الزورق، ولكن ما هي إلا دقيقة هي التي حالت بين فيدل ورصاصة مميتة. وعندما غادر رجالُ جزيرة السكر الياخت الرئاسي، لوح فيدل مودعاً طاقم البحارة الدومينيكاني هاتفاً لهم بالاسم التعميدي المسيحي لتروجيللو وهو «شابيتاس» Chapitas «وقولوا لشابيتاس إنه يمكنه أن يتوقع مني قريباً أن أفي بوعدي وأقتله». ومن الجدير بالذكر أنه في غضون الأربعة والعشرين يوماً التي تلت دخول فيدل ظافراً إلى هافانا في عام ١٩٥٩، ذهب كاسترو إلى ڤينزويللا لتمويل حملة أخرى بهدف الإطاحة بتروجيللو. وقد اغتيل تروجيللو اخر الأمر، ولكن عن غير طريق فيدل كاسترو. ففي واحدة أخرى من سخريات التاريخ، كانت جماعة من الدومينيكان المدعومة من قبل وكالة المخابرات الامريكية قد أخفت بنادق لها في أحد محلات «ومبي» الأمريكي الملكية في العاصمة سانتودومينجو، وهذه الجماعة هي التي نجحت أخيراً في قتل تروجيللو عام ١٩٦١.

أسماك القرش ـ أسماك القرش الطويلة الرمادية اللون، التي تتحرك ملتوية في بطء وتطوق في إحكام. كان فيدل قد صنع افتتاناً مرضياً بالكائنات الكئيبة الخلقة والغريبة في نظامها، كما كان له ولوع من ذلك الحين بالجمال الشاذ المرعب للقلوب، وكان ـ وهو صبي في بيران ـ مغرماً بالسفر إلى البحر، ويجالس الصيادين، ويصغي لحكاياتهم عن صيد أسماك القرش. وفيما بعد أصبح لسمك القرش أهمية رمزية خاصة لدى فيدل. وقد كان لي أن أقف معه ذات مرة على شاطىء البحر في مكان قريب من هافانا، وقد راح لساعات يتحدث ـ وهو مُحاط بالمعجبين به من الكوبيين عن الجمال والقوة في أسماك القرش. إلا أنه لم يكن للأقراش من معنى كبير لديه قدر ما كان لها عند نهاية مغامرة جزيرة السكر.

كان فيدل ورجال الحملة الأخرون في الطريق فعلاً إلى سانتودومينجو عندما تلقوا أمراً من الرئيس جراو بالعودة. لقد كانت الحملة قد أوقفت، على الرغم من أن بعضاً من الرجال كانوا منذ وقت على ظهر سفينة في البحر وكانوا وقتها يُسمون ـ على سبيل التندر ـ بالأشباح، وبموجب إتفاق فيدل مع مانولو كاسترو وماسفيرر، فإن انتهاء الحملة أصبح يعني أن الهدنة بينهم كانت في عداد المنتهى، ومن ثم قفز فيدل من السفينة وراح يسبح عبر مياه خليج نيبي Nipe الزاخر بسمك القرش، وامتدت به

السباحة لثمانية أو لتسعة أميال، وكان طوال هذه المسافة ممسكاً بندقيته واضعاً إياها على رأسه صانعاً بذلك واحدةً من أوائل الأساطير التي تدور حول شخصه. وقد اعتقلت السلطات العسكرية الكوبية الآخرين ممن كانوا على ظهر السفينة، أما فيدل فقد نجا من ذلك. ويعتقد خوان بوش إلى هذا اليوم أن فيدل لم يقفز من السفينة ليتجنب زمرة أعدائه فحسب، بل ليتجنب اعتقالاً شديد الإخزاء لطموحاته المستقبلية.

كان فيدل قد ثابر لواحد وعشرين يوماً في جزيرة السكر الجدباء العامرة بذباب الناموس، ومع أعداء يحدقون به من كل جانب. وقد انقلب أول اشتراك له في تظاهرة عسكرية مسلحة بين دولتين إلى مسرحية هزلية وبحيث كان والداه على اقتناع من أنه قد «تعلم» درساً. أما الحقيقة فقد كانت بخلاف ذلك تماماً. إن حملة جزيرة السكر كانت أشبه شيء بالنعناع البري الذي تحبه القطط لدى قط متلهف عليه تواق إليه. فقد أظهرت جزيرة السكر فيدل على كيف يمكن حتى لمواقف «الفشل والاحباط» الذريع أن تتحول إلى نجاحات ولو بشكل جزئي على الأقل. وعلى ذلك، فإنه نأياً بالحملة عن أن تكون مجرد مغامرة صبيانية سخيفة على المرء أن يتجاوز عنها متى تجاوز طور الطفولة والصبى، إذا بحملة جزيرة السكر وقد أصبحت أول خطوة لفيدل على طريق «الحركة الدولية» الباسلة وكان لها أن تحكم إيقاع حياته وأن تقض مضجع الولايات المتحدة لأربعة عقود تلت.

وثمة مؤشّر واضح على أن فيدل الذي أظهر طيلة حياته قدراً ضئيلاً من الاحتفال بأي فرد بشخصه، قد أُعجب إعجاباً حقيقياً بزعيم الاتحاد الثوري للعصيان المسلح U.I.R. إميليو ترو ولجأ إليه. لقد أحب أسلوب ترو في التحكم في السلطة ـ وقلّده في هذا الأمر ـ ودائماً ما اقتبس عن ترو، مردداً لكلمات ترو الأثيرة الشهيرة: «رحمة لا أسأل. . . رحمةً لا أعطي». ولكن في الوقت الذي كان فيه فيدل تحت شمس جزيرة السكر اللاهبة يتلقى تدريباً على السلاح الأبيض، مات إميليو ترو على النحو الذي اختاره ليبقى به حيّ الذكر، وفقاً للنهج الرمزي المتّبع في ذلك العصر. ففي الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩٤٧، وبينما كان يتناول طعام الغذاء في منزل رئيس شرطة مارياناو Marianao ـ وهي ضاحية من هافانا كانت كلية الميلاد المقدس تتوسطها ـ قام رجال مناوئون يحملون البنادق بمحاصرة المنزل. وبعد معركة بالبنادق تجل عن الوصف دامت لساعات ثلاث يُمكن مقارنتها بأشد ـ أو بأسوأ ـ أنشطة القتل في شيكاغو، أرض الإجرام المنظم، مات ترو بثمان عشرة

رصاصة اخترقت جسده فيما أصبح يُعرف ـ على المستوى الشعبي ـ لا كمجرد حادث قتل عادي بل كـ «مذبحة». وعندما علم فيدل بمصرع ترو، فـإذا به ـ في واحـدة من مرات قليلة في حياته ـ وقد شعر شعوراً مدوياً بالخسارة الشخصية.

وفي إطار جدل العصر الموصول، بقتل يقترن بقتل لإنتـاج مزيـد من القتل، سرعان ما جاء الدور على مانولو كاسترو ليكـون التالي. إن ذلـك المزيـج الجوهـري المؤلف من القاتل المحترف والثوري، وهو مزيج كان قد صادف من فيدل عناية أيضاً وكان يعمل على تشكيل ذاته وفقاً له، هذا المزيج لقى حتفه في الثاني والعشرين من فبراير (شباط) عام ١٩٤٨، فقد أطلقت عليه النيـران في شوارع هـافانـا، «فمن الذي قتل مانـولو»؟ سؤال نغّص على فيـدل حياتـه سنوات عـدة ذلك لأنـه كان ثمـة على الدوام الإمكانية والإرتياب في أن يكون هو قد إضطلع بدور في عملية القتل. فهـو في ذلك اليوم كان في الواقع يتسكع في الشوارع، وثمة أصدقاء مختلفون، مثل إنريـك تروبـا Enrique Trueba وبـرناردو ڤييـرا Bernardo Viera قد شـاهـدوه ووجـدوه في حـالـة عصبية على غير المألوف والعادة وفي مزاج عصبي قرب المكان الذي أُردي فيه قتيـلاً آخر الأمر. إلاّ أن البحث والتحـري لا يشير أدنى إشـارة إلى قيام فيـدل بإطـلاق النار على مـانـولـو كـاسـترو وفي الحقيقـة ليس لهـذه المسـألـة من أهميـة إلاّ لأنهـا بقيت واستمرت لتصبح نوعاً من أنواع مانعة الصواعق بإزاء ما يدور حول شخصيـة فيدل من أسئلة ومسائل. ففي واقع الأمر، كان فيدل في ذلك الوقت من العنف طبيعياً ومعيارياً بوضوح بحيث إن جريمة قتل واحدة أزيد أو أنقص ما كان من السهل في تلك الأيـام أن تعطي تحديداً لشخصيته ذا قيمة بحاله.

لقد شرع فيدل في السنوات التالية على مغامرة جزيرة السكـر في استغلال قـوة الصحف والجرائد ـ وذلك بما له من حدس فائق من جانب وبمنهج المحاولة والخطأ من جانب آخر ـ (فقد كانت هناك أربع عشرة جريـدة يوميـة في هذه الفتـرة في كوبـا) وذلك بهدف التعامل مع الجمهور السريع التـأثّر في بلده الـذي يموج بـالاضطراب. كان عليه، في خضم العديد من مستجـدات الأمور، أن يصبـح أول ثوري نـاجح من الطبقة الوسطى.

ويحكي ڤيسنتي بـاييـز Vicente Baez ـ وهـو من أصـدقــاء فيـدل النــاشـطين المنتمين إلى تلك الفتـرة ـ أنه عنـد القيام بتسيير مسيرة احتجـاج، كان فيـدل يفضل الانتظار إلى أن تكون الصحافة والكـاميرات قـد وصلت وعندئـذ كان يمسـك بمشعل جلباً للضـوء على وجهـه. وفي اليـوم التـالي عنـدمـا تكـون الصـور قـد ظهـرت في

الصحف، يكـون من المحتّم ـ بـطبيعـة الحـال ـ أن يسيـطر وجـه فيـدل على انتبـاه القارىء. وفي واحدة من المرات على الأقل، إدّعى فيدل كذبـاً واقعة ضـرب شرطي ليلفت إلى نفسـه شيئاً من الانتبـاه الذي ظـلّ دائماً تـواقاً إليـه في نهم لا يشبع. وقـد حكى الدكتور ريتشارد مارتينز فيرر Richard Martinez Ferrer ـ الـذي كان في ذلـك الحين في مقر مستشفى جامعة هافانا: «في إحدى الليالي كان ثمة طـرق على بابي، وإذا بفيدل قد ظهر فجأة وبه ضماد هائل على رأسه». لا بدّ أن قد كان ذلـك في نحو الثـامنة من إحـدى ليالي عـام ١٩٤٩ أو ١٩٥٠. قال إنـه في حـاجـة إلى المسـاعـدة والإسعاف. طلبتُ إليه أن يدخل، فـاستجاب لـذلك على الفـور قائـلاً «منذ سـاعتين تقريباً ذهبتُ إلى مقـر الجريـدة فهاجمتني الشـرطة، وكـان عليَّ أن أتوجـه إلى غرفـة الحـوادث وقام طبيب بعمـل الضمـاد لي... ثم سـألني مـا إذا كـان من الممكن أن يمكث الليلة في بيت إقامة الأطباء بالمستشفى...» وقد قلق الدكتور مارتينـز من هذا الطلب غير المألوف، إلاّ أنه وافق آخر الأمر.

وعندما هبّ الطبيب من نومه ليذهب للعناية بمريض، طلب إليه فيـدل أن يعود إليه بنسخة من جريدة الصحافة الحرة Prensa Libre وعندما اشترى الدكتور مـارتينز الصحيفة استولت عليه الدهشـة، فبعرض الصفحـة الأولى عنوان بـالبنط الكبير يقـول «إعتـداء من الشـرطـة على زعيم طـلابي». وفي أعلى الجـانب الأيمن من الصفحـة كانت هناك صورة فوتوغرافية لفيدل وضماد هائل يحيط برأسه كله.

وفي عام ١٩٨٤ في ميامي قال لي الدكتور مارتينز: «عدت إلى الحجـرة ومعي الصحيفـة، وفتحت الباب. وكـان من المفترض أن يكـون فيدل مـوجوداً بـالداخـل، انتـظاراً لعودتي. وتـوقف الرجـل لحظة وهـزّ رأسه. «لقـد كان مـوجـوداً، ولكن بـلا ضمـادة». فذُهشت من ذلـك قائـلاً: «ما الـذي حدث لـك». فأجـابني بأن شيئـاً لم يحدث، وأنه إنما اضطر لفعل ما فعل ليحتل مكاناً من صدر الصحيفة».

لم يكن فيدل على علم بكيفية استخدام وسائط الاتصـال فحسب، بل سـرعان ما راح يجرب كـل دروب التأثيـر الرمـزي الممكنة في مجتمـع كان في غيبـة الحقيقة يعيش مستغرقاً أكثر فأكثر في أفاق الرمزية وما تقضي به من تعامل.

بعد ذلك، وفي مارس من عام ١٩٤٩، وقع حادث كان كأنه قد قُدَّ على قد مـا لفيدل كاسترو من مواهب وحمية. فقد قامت ثلة صغيرة من جنـود البحريـة الأمريكيـة من المخمورين والمشاكسين بتسلق همجي لتمثال خوسيه مارتي القـائم في الحديقـة المركزية الجميلة بوسط مدينة هافانا وقد قام أحد هؤلاء البحارة بالتبول على التمثال،

في محاولة للنيل من ذكرى مارتي المقدسة، ذلك «الملهم»، ومصدر بعث كوبا الجديدة العالية القدر الخالصة من كل فساد والتي كانت آخذة في الظهور. وقد نجا جنود البحرية بجلودهم بصعوبة بالغة ولم يُنقذوا إلاّ على يد الشرطة الكوبية التي قامت بذلك بهمة ونشاط. وفي اليوم التالي قام سفير الولايات المتحدة روبرت بتلر Robert Butler بالاجتماع إلى وزير الخارجية الكوبي وقدم له صيغة اعتذار حارة. ولكن عندما قام بتلر فيما بعد بعرض فيلم على الشعب الكوبي ضمنه اعتذاره، كان من الواضح لكل فرد أن ذاكرته لم تسعفه بالاسم الأول لمارتي.

وكأن فيدل قد كان منتظراً لحدوث واقعة من هذا النوع تماماً. فقام من فوره بتشكيل حرس شرف، تولّى تطويق التمثال وحمايته بيقظة وحمية طيلة الليل. ثم دعا في اليوم التالي إلى القيام باحتجاج مباشر من خلال تسيير تظاهرة أمام سفارة الولايات المتحدة. وقد سار المحتجون من الطلبة من الجامعة إلى السفارة الأمريكية. وكانت مجموعة فيدل على رأس المسيرة وقد احتبس أفرادُها في جيوبهم قطعاً من الحجارة الدقيقة. وعندما كانوا على بعد نحو نصف مبنى، بدأوا في إلقاء الحجارة في اتجاه النوافذ، متسببين بذلك قدراً هائلاً من الاضطراب قبل أن يلوذوا بالفرار إلى مطعم باهيا Bahia الواقع على خليج هافانا، حيث راحوا يراقبون سيارات الشرطة وهي تندفع في اتجاه السفارة، مطلقة صفاراتها.

وفي تعبير آخر عن الاعتذار قام الأمريكيون بوضع إكليل من الورود لدى نُصب التمثال، كما وافق السفير بتلر على الاجتماع بالطلبة. وفي الواقع قامت الصحف بعمل تغطية للاجتماع حتى إنها قد طبعت صورة لبتلر مع مجموعة من الشباب الكوبي. وقد كانت هذه الواقعة مميزةً لمرة من أولى المرات التي تناقلت فيها الصحافةُ الكوبية اسم فيدل كاسترو على نحو جدير بالاهتمام حقاً. كما كانت برهاناً أيضاً ـ إن كان الأمر في حاجة لمزيد ـ على أن الزعيم الشاب قد عرف ليس فقط كيف سيشغل الأحداث لمصلحته بل أيضاً كيف يبنكر أحداثاً لحسابه الخاص. غير أن هذه كانت من أولى المرات ـ بل المرة الأولى ـ التي استغل فيها كاسترو الشعور المعادي لأمريكا في كوبا ليحرك لدى الأمريكيين المكروهين استجابة ورداً.

الفصل السادس
عبارة بين قوسين

[هذه هي الفتاة التي أنوي الزواج منها]
ـ فيدل كاسترو في لقائه بميرتا

ميزت مغازلة فيدل لميرتا دياز ـ بالارت الفترة من حياته التي كانت أقرب إلى الفترة التي عاش فيها كإنسان عادي نسبياً، حين كان أمرءاً يحس ويسلك على نحو بسيط بل وبشكل ينطوي على مشاعر نقية وغير متكلفة. وميرتا هذه فتاة جميلة ذات عيون خُضر وشعر ضارب إلى الشقرة وابتسامة حزينة، وهي سليلة واحدة من أغنى عائلات كوبا. وفي الجامعة بدأ الغرام، في الفترات التي تخللت فيها البنادق وحوادث القتل، كما كانت هناك أيضاً أيام الصيف الوادعة الهادئة على ساحل بورتو ريكو المدغدغ للأعصاب حيث منزل ميرتا الريفي في بانز Banes. لقد كانت ثمة أيام ـ بل وليالٍ ـ ملؤها البهجة عندما كانت هذه الفتاة ـ سليلة العائلة الممتازة إن لم تكن الذائعة الصيت أيضاً ـ على مواظبة تامة في مرافقتها الدائمة له. وكانت فكرة أن يكون «فيدل كاسترو» طرفاً في علاقة مرافقة أو صُحبة ـ في السنوات الأخيرة ـ من الأمور التي ما كان منها إلا أن تدهش المرء باعتبارها شيئاً مغرقاً في الاستحالة أو باعثاً على السخرية لشدة غرابته، غير أن تلك الأيام كانت استثناءً عن القاعدة.

ولكن حتى في ذلك الحين، دائماً ما كان هناك ـ من خلف السوية النسبية ـ تحرك لشبح عنف العصر وعنف فيدل كاسترو معاً وعلى حد سواء. فبمعزل عن الحب الغامر أحسّت ميرتا بأن هذا «الإله» الصغير الجريء ذا الشعر البُني المجعد والمنكبين العريضين والأنف الجاليجي المعقوف ـ قد انطوى دائماً على نذير خراب وأسى كان سيجرّه على حياتها، كما جرّه بالفعل على كل من اقتربن منه من النساء تقريباً.

كان فيدل قد التقى بميرتا الشابة في أحد الأيام عندما قام شقيقها ـ رافائيل دياز ـ بالارت ذو الطموح المعتدل ـ بتقديم الواحد منهما إلى الآخر وكان ذلك في كافيتريا مدرسة الحقوق الدائمة الحركة والسياسية الطابع والتي تعاني من إهمال

منظرها العام. في ذلك الحين كانت ميرتـا طالبـةً جذابـة رقيقة في بـراءة لا تخلو من شهوة وشبق، كانت تدرسُ الفلسفة والأدب. ويذكر أساتذتها أنها كانت طالبـة ملتزمـة مهـذبة بقـدر ما كـان فيدل على الضـد من ذلك كله. ومـع ذلك فـإن أكثر المـراقبين معارضة لكاسترو يذكرون أنه كان حباً من أول نظرة.

كان فيدل في ذلك الحين شديد الجاذبية للنساء بما يتفجر فيه من شهوة جنسية عـارمة لا يقيـدها قيـد. غير أنـه في اللقاءات مـع أشخـاص من الجنس الأخـر كـان مضجراً وسخيفاً إذ أنه لم يكن يكف قط عن الحديث في السياسة، فقد حكى صديق عمره، إميليو كابيرو، قائلاً لي ذات يوم من أيام مارس عصراً في ميامي: «لا أعتقد أنه كان واقعاً في غرام ميرتـا. ففي مرات كثيرة كان فيها على موعـد معها لكنـه لم يكن يذهب بسبب اللقاءات السياسية».

وربما كان مـا ألغز على صـديقه أكثـر من أي شيء آخر أن فيـدل ـ خلافـاً في الواقع لكل رجل كوبي آخر من رجال ذلك الوقت ـ لم يرقص قط. كمـا أنه لم يحب الزهور ولا الحيوانات ولا الغنـاء. بيد أن أسـوأها كـان عدم الـرقص ـ ففي كوبـا كان عدم الرقص عدم توقير لمقدس من المقـدسات. إن الـرقص يجلي الذات أو يكشف عنهـا، ويخلع على فاعله صبغـة إنسانيـة، ويسـوي بين النـاس، وفيـدل كـان يمقت الكشف عن ذاته أو وضع نفسه على ذات المستوى مع الآخرين.

وقد حكى ماكس ليسنك ـ صديق فيدل ـ عن خجل فيـدل المبالـغ فيه وارتبـاكه مع النساء. ففي إحدى المناسبات كان هو ـ ماكس ليسنك ـ وفيدل في هـافانـا عندمـا عبرت الطريق إليهما «ثلاث شابات غاية في العـذوبة وقمـة في أناقـة الملبس» يسألن سؤالاً. وذكر ليسنك أن كاسترو قد تصرف «بخجل غير مصدق ولا مألوف منه. فهـذا الرجل الذي كانت له قدرة على الدخول في نقاش مع شـاب أو شيخ، أو سيـاسي أو طالب، قد وقف جامداً في مواجهة أولئك الشابات».

ولكن كان هناك لفيدل مع المرأة جانب أو وجه آخر ـ وهو جانب أو وجـه قاسٍ متهكم ظلّ يلازمه طيلة حياته. إذ يحكي الأصدقاء أن فيدل قد ضرب موعداً ذات مرةٍ لامرأة شديدة الدمامة، وجهها قد امتلأ ببثور الجدري وهي من جماعة شابـات الحزب الأرثـوذوكسي التقـدمي، وفي الحقيقـة فقـد ذهب من ورائه من يتعقبـه ببـاعث من السخرية والضحك. هذه المرأة لم تكن بذات أهمية لدى فيـدل إلاّ لأنها كـانت ذات سيطرة على أصوات الناخبين في الحزب. فنشأت بينهما علاقة غـرامية، ويبـدو على

ما يظهر أنه قد حقق ما أراد، وبمجرد أن انتهت منفعتها السياسية بالنسبة له، أبدى أمام كل المحيطين بها من الملاحظات أشدها بذاءة وقباحة.

لقد كان لفيدل على مدى حياته طموحات سياسية مستعرة، إلاَّ أن نشاطه الجنسي كان فاتراً ومقنناً. فالنساء كنّ يُستخدمن بفتور وبأكبر قدر من السرعة في الغالب، وهذه صفات وخلال تبين لبعض المتفحصين أنها قد نشأت فيه بفعل تعاليم الآباء الجزويت عن «الشر» المستطير للجنس. أما مع ميرتا فقد كان الأمر مختلفاً، ولو في البداية على الأقل. كان يكتنفها ذلك الجو الحالم ـ الدافىء الرومانسي الذي كان على ما يبدو يلف سائر أفراد أسرتها ـ كانت محدثة عذبة الحديث مثقفة العقل، وكان لها عيون دياز ـ بالارت الأخّاذة الجميلة التي انعكست ـ في أشقائها ـ لتصبح جاذبية جنسية عميقة وجريئة. كانت هي ووالدو Waldo وفرانك Frank ورفائيل من أصل كريم واحد ـ إلاَّ أن واحداً منهم لم يكن يشعر بالسعادة، على الرغم من ـ وأخيراً بسبب ـ كون والدهم الرئيس الإقليمي المبجل لفرع المتحدة للفاكهة في بانز Banes، والمستشار القانوني لباتيستا، وواحدا من أعيان الطبقة المتوسطة.

ربما لم يتسنَ لشيء أن يثير أو يحرك كل ما في نفس فيدل من طموحات وعُقد واستياء بأكثر ممّا استطاعت هذه المرأة بمفردها. ذلك لأنه لم يجد فيها فقط تشخيصاً أو تجسيداً لعائلة مناضلة باسلة من عائلات حرب الاستقلال، بل ووجد فيها أيضاً حلقة الاتصال الأكثر خفاءً مع دوائر سلطة باتيستا ودوائر النفوذ الأمريكي المنتشر في كوبا بفظاعة وشدة، إن لم يكن في حوض الكاريبي بأسره. فعلى بُعد ستين ميلاً فقط من بلدة بيران البسيطة الساذجة الريفية حيث وُلد، كانت توجد دنيا بانز Banes التي بدت وكأنها كانت من كوكب آخر. كانت بانز هي عالم صناعة السكر ذي «الصبغة الأمريكية» المتطرفة، عالم الشركة المتحدة للفواكه المغامرة والناجحة، سليلة «العصر الأمريكي».

وقد لاحظ المؤرخ هف توماس Hugh Thomas «أن قد كانت هناك، في كوبا بضعة أماكن واقعة بالكامل تحت سيطرة الوجود الأمريكي الشمالي». لقد كانت هنا مروج مترفة وارفة ومنازل استوائية مثيرة للإعجاب، وذلك عوضاً عن الغابات الكثيفة الملتفة التي أزالها آنجيل بالكثير من الجهد والعرق. وهنا لعب موظفو ومستخدمو المتحدة للفواكه من أمريكيين وكوبيين البولو، وراحو يسبحون في حمامات السباحة المبهجة الخاصة بهم، ومن المحلات تسوقوا البضائع الأمريكية التي كانت تصل إلى

هناك عن طريق البحر بانتظام ووفرة. وهنا وجد المرء في بانز ـ بلدة ميرتا ـ طبقة متوسطة مزدهرة تسعى مناضلة من أجل الأعلى والأرقى قوامُها كوبيون عاشوا عيش الأمريكيين، وأدوا الطقوس الدينية كأمريكيين (فقد أصبح الكثيرون ـ من ضمنهم رافائيل دياز ـ بالارت ـ من البروتستانت). وكالأمريكيين راحوا يتوقعون من الحياة الشيء الكثير. لقد كان لبانز من الصلات بنيويورك أكثر ممّا كان لها بهافانا.

ولم يكن الأمريكيون في مطالبهم في الأرض الكوبية متواضعين أو مبررين، فبرغم كل شيء كانت الأرض الكوبية هدفاً واضحاً، لقد كانت واجبهم الحضاري.

وفي الواقع كانت بانز بلدتين، فقد انقسمت بفعل جسر يمر من فوق نهر صغير. «بلدة على جانب الجسر» وقد كانت الجانب الكوبي من البلدة، ولها رؤساء بلدياتها المنتخبون ومجلسها المنتخب، و«المستوطنة الأمريكية»، وهي بلدة ذات طابع أمريكي (إن كلمة «مستوطنة أو مستعمرة» لا نعني إلّا «بلدة على الطراز الأمريكي» فلم تكن لها الدلالات السياسية لكلمة «مستعمرة»). وقد استخدم الجميع الشواطىء ومضمار الغولف، وفي الرابع من يوليو كان الأمريكيون والكوبيون يقيمون في النادي الأمريكي حفلة في الهواء الطلق. . . إن الحياة في بانز في تلك الأيام ظلّت ذكراها تعاود بالفعل كل فرد تقريباً في السنوات الأخيرة المليئة بالمتاعب والصعوبات بوصفها وجوداً نادراً أسطوري السعادة، إنها حقبة استثنائية رائعة عبرت في الزمان كلحظة سحر كوبية. وبمزيد من التأمل فيما كانت عليه كوبا تلك الفترة من تقسيمات وما كانت تعانيه من نعقيدات، كانت عائلة ميرتا تملك منزلا في كل بلدة من البلدتين التي تنقسم إليهما بانز. وقد شغلت جدتها وعمها واثنان من أبناء عمها الدار الكوبية الطراز، أما أسرة دياز ـ بالارت المباشرة فقد عاشت رسمياً في البيت الكائن في المستعمرة الأمريكيه، وكان والدو Waldo ـ شقيقها الأقرب إليها سناً وشعورا ـ وصف لي الأمر قائلاً: «لقد كنّا نتردد على الدارين».

في بانز كانت الحياة بهيجه، وكانت حياة عملية، وكانت حياة أمريكية ومن ثم كان المستقبل كذلك، إن جاك سكيللي Jack Skelly ـ صديق طفولة ميرتا ـ كان قد أحضر لها ذات مرة تسجيلاً لأغنية كانت آنذاك من أكثر الأغاني شعبية في الولايات المتحدة، «من أغاني برنامج المنوعات الاستعراضية كويني Queenie». وعندما راحت ميرتا تتمشى في فناء المدرسة إبان تخرجها من مدرسة الكويكر العليا، كانت الأغنية التي كانوا يعزفون نغماتها هي تلك الأغنية ذاتها.

كانت أنجيليكا Angelica - زوجة الأب «النسر» التقليدي - هي المشكلة التي تواجه أبناء دياز - بالارت، وميرتا بوجه خاص. فقد حكى والدو بأسى وحزن بقيا حتى بعد العدد العديد من السنين أن «قد كان هناك ذلك الوضع السيء قائماً فيما بين أنجيليكا وميرتا». كانت أنجيليكا عصبية المزاج. كنا في أيام الأحد نذهب إلى الكنيسة الكاثوليكية ثم نرجع إلى البيت وقد أصبحنا روحانيين. وقد مارست أنجيليكا عملية تحضير الأرواح - وراحت تحادث الأرواح - وكان مخيفاً لك كطفل أن تشاهد ذلك وتعاينه. لقد كانت توجّه الخطاب إلى الأكواب... أوه، لقد كان أمراً يوقع الرعب في القلوب»، هكذا قال.

إن ما قامت به أنجيليكا من «تحضير أرواح» إنما كان بالفعل جزءاً من الديانة المحظورة المسماة سانتريا Santeria التي أتت إلى كوبا مع البدائيين من العبيد الأفارقة. وفي ديانة السانتريا لم يكن ثمة نظام حقيقي للألوهية، ومن هذه الزاوية وزوايا أخرى كثيرة، جاء تفشيها في كوبا، حتى بين الكوبيين البيض، فقد تصورت فراغاً كان بوسع «رجل ذي قدرة سحرية غيبية» - كفيدل كاسترو مثلاً - أن يصبح أهلاً لملئه بيسر وسهولة. وقد ألمح والدو من طرف خفي إلى ذلك في مدريد ذات يوم من عام ١٩٨٥، قال: «إنك في حاجة إلى الغوص في الديانة الشعبية الكوبية وترى كيف أنها هيأت معتنقيها نفسياً لقبول فيدل قائداً شاملاً».

وقد حافظت أنجيليكا المستبدة، ذات العيون الثاقبة النظرة السوداء اللون وبشعرها المشدود بقوة إلى الخلف من وراء جبهة قاسية متجهمة - على ميرتا مقيدة إلى مطالبها الدائمة التقلب الشديدة التحول، وكان على الأصدقاء أن يهزوا رؤوسهم في حزن وغضب حين كانوا يرون كيف كانت ميرتا - وهي بسبيلها إلى الخروج - تُعاد على نحو متعجرف للعناية بأنجيليكا حين تكون المرأة قد أعلنت في اللحظة الأخيرة عن «صداع» بشكل يُمكن تخمينه مسبقاً. وقد كان هناك من تحدث عن احتمال أن تكون ميرتا قد رأت الزواج من فيدل «مخرجاً» لما كانت فيه. إلاّ أن ميرتا دائماً السيدة الحكيمة العقل، التي لم تتذمر شاكية قط.

وقد حاولت ميرتا وفيدل الإبتعاد عن سبيل أنجيليكا. كان عليهما أن يلتقيا سراً في منزل باربارا جوردون Barbara Gordon صديقة ميرتا، وكان منزلها في ركن قصي عن دار دياز - بالارت. وكان لبيت باربارا - شأن البيوت الأخرى هناك - مرجة خضراء معتنى بها، تحفها أشجار النخيل والورود. في ذلك الزمن البعيد، وفي تلك الأمسيات الحالمة المفعمة بالكثير من الآمال الواعدة، وفي تلك البلدة المتأنقة، كانت

ميرتا وفيدل يقفان في حديقة باربارا أو يجلسان على واحدة من الأرائك يتحادثان حول مستقبل حياتهما معاً.

في هذه الأونة كان منوال الشابين الصغيرين يتراوح ما بين بيئة عائلة كاسترو التي لا تزال قاسية في بيران وبانز، ولو أنها ـ كما دأبت على القول بابتهاج دائماً ـ قد راقت لها مزرعة كاسترو الريفية الشاسعة. وبالرغم من كل الاعتبارات كان فيدل في حال من النقمة الدائمة ـ داخلياً وغالباً ما تكون خارجياً بقدر كاف ـ فيما يتعلق ببانز بلدتها. لقد مثلت البلدة المتسمة بالطابع الأمريكي لديه كل ما كان يكرهه، الأمر الذي حببه إلى حد ما إلى ميرتا وحملته في حنقه حتى على حالة من الزواج ليست بالمألوفة ولا بالملائمة. ففي بانز يوجد كل ما كان يود أن يمحوه ويدمره ـ ولكن، مايرغب أيضاً في أن يجسده بالمعنى الحقيقي.

ومن الصعب أن نأخذ مأخذ الصدفة العارضة أن جميع من أصبح فيدل متورطاً معهن في علاقات من النساء كنّ من نمط واحد محدد، لقد كنّ جميعاً من الطبقة العليا، ومتأمركات يتحدثن الإنكليزية، جميلات (إذ كان معظمهن، وإن لم يكن كلهن، شقراوات)، ومن بيوتات عريقة ممّن ناضلوا ضد الإسبان. وقد أمكنه مع أولئك النسوة أن يمثل دراما حياته السياسية الشخصية على أرفع مستوى وعلى أحط مستوى سواءً بسواء، وأن يحقق ثأره الموجه ضد الولايات المتحدة، وأن ينفس عن غضبه من والده المستبد، وعن كراهيته للطبقة الوسطى الكوبية «الخائنة».

في هذه الأونة، وهو آخذ في تردده على ميرتا في بانز، بدا أن غضبه يتركز على شاطىء بورت ريكو الخاص بشركة المتحدة للفواكه. فعلى طول هذا الشاطيء الطويل الممتد في شريط أبيض محتفظ بنقائه الأصلي جاءت للعب واللهو جماعات من المترددين على حفلات النادي الأمريكي، وفتيان وفتيات الكشافة، ومتطوعو الجيش، والمضاربون الماليون الذين ينشدون أسباب الخير على الطريقة الأمريكية المتبعة في بانز. كان فيدل في حالة دائمة من الغضب الناري الشديد يرجع إلى ما كان يوجد من أسوار، تحيط بالشاطىء من جميع الجهات وبوابات كلها موضع عناية شديدة ومراقبة صارمة من جانب الشركة المتحدة للفواكه. وفي الواقع كان الأمر يتطلب استخدام مفتاح لأولى البوابات فقط (من بين العديد منها)، وكان بوسع كل فرد تقريباً أن يحصل من إدارة الشركة على نسخة مفتاح. غير أنه على ما يبدو أن هذه الحالة الجوازية للدخول إلى الشاطىء ـ شأنها شأن جميع إجراءات الشركة المتحدة للفواكه شبه الاستعمارية ـ كانت أكثر ما يشق على نفسه. وكثيراً ما أدّت به

هذه البوابات إلى باكورة الخطب الرنانة التي جاءت في طليعة خطبه التي أتت فيما بعد وفي هذه الفترات لم يكن على ميرتا إلّا أن تغوص في صمت قد لفّه الحرج أو أن تغض الطرف. وكان من أول الأشياء التي قام بها بعد وصوله إلى الحكم أن أمر بفتح بوابات الشاطىء.

أيضاً فقد بدأ العنف الكامن في فيدل على الدوام في الظهور على السطح متخذاً سبلاً غامضة تدعو إلى الغرابة. فقد خرج إلى الصيد ذات يوم فأصاب واحداً من طيور البشاروش البحرية. وكان ذلك في حد ذاته عملاً على غير مألوف العادة، ذلك لأن التعرّض بالقتل أو الأذى لهذه الطيور «المسالمة» بأي شكل من الأشكال كان يُعد مجلبة للنحس وعثار الحظ. ومع ذلك، فإن فيدل الذي جُبل على ازدراء المعتقدات العامة والشائعة اختار ألا يلتفت إلى تحذير بحار عجوز خرف. وهو لم يكتف برمي وقتل الطائر الجميل، بل راح يجرّه عائداً به إلى بانز حيث ألقى به إلى النافذة الخلفية لمطبخ جاك سكيللي بينما كانت جماعة من أصدقاء ميرتا موجودة هناك. وقد هوى الطائر المسكين المحتضر على موقد الطهي، مسبباً الفزع لكل فرد.

والحقيقة أنه في تلك الأيام بدا الجانب العنيف من طبيعة فيدل أنه كامن أصلاً في نوع من الإزدراء البارد اللامبالي حتى بأكثر المخلوقات بساطة. فبعد أعوام تلت، كان فيدل ورافائيل دياز ـ بالارت ورولاندو أمادور Rolando Amador ـ وهو صديق ذو طموحات سياسية ـ كانوا ـ ذات يوم ـ يستقلون سيارة يملكها فيدل متجهين إلى اجتماع سياسي، حيث كان على كل واحد منهم أن يلقي كلمة. وقد حكى رولاندو أمادور قائلاً: «كنّا على جانب من الطريق الرئيسي خارج البلدة وكان مقفراً تماماً. فإذا بفيدل يقول فجأة: «سأجرب قدرتي على التصويب»، وقد كان في حوزته مسدس من عيار ٤٥ ملليمتر». كما يحكي رفائيل أيضاً عن المشهد الريفي الذي عرض له فيدل بالهجوم ومزق أوصاله. لقد عاد رافائيل بذاكرته إلى الوراء وقال: «لقد كانت هناك تلك الأبقار الرائعات المنظر خارجات إلى الحقل. فخرج هو من السيارة وأخذ مسدسه معه وبدأ في إطلاق النار على الأبقار. وعندما سألته عن السبب في ذلك، قال إنه إنما كان يجرب نفسه. ولذلك كم كان من السهل عليه فيما بعد أن يصوب مسدسه على مخبري الشرطة».

وقد تزوج فيدل من ميرتا في العاشر من أكتوبر عام ١٩٤٨، وهو نفس اليوم الذي قُلّد فيه كارلوس بيرو سوكاراس Carlos Piro Socarras السلطة رسمياً في كوبا، خلفاً لرامون جراو. وقد بدأ الزواج فخماً رائعاً من الظاهر: شابان صغيران

وسيما الهيئة، سليلا أسرتين موسرتين، كلاهما على علم وثقافة، وكلاهما شديد الحب للآخر وممتلئان بآمال مثالية وإن كانت قابلة للتحقق الواقعي. ولكم بدا للذين شهدوا حفل الزفاف أن كل شيء «على ما يرام». إلّا أن الظلال والغيوم لم تكن فيما يبدو مطبقة على الزوجين المباركين وحسب، لقد كانت الغيوم قائمة في الكنيسة رأساً إذ كان فيدل لا يزال مهدداً من قبل الجماعات الإرهابية في هافانا، بحيث إن الكثيرين ممّن قاموا على حراستهما كانوا في خوف من أن يقوم واحد من أعداء فيدل المتربصين دائماً بهجوم أثناء قيام فيدل وميرتا بتلاوة القسم الطقوسي. ولكن لا يكون هذا مع فيدل. فبينما كان العروسان يغادران إلى شهر عسلهما، إذا به قد قام ـ ضاحكاً ـ بفتح الحقيبة التي كان يحملها. كان بداخلها مسدس. وقال لأصدقائه: «لست قلقاً من شيء. إن معي هذا، وقد أتيت به معي إلى محراب الكنيسة». وعلى سبيل التهكم سُجل حفل الزفاف في جريدة للطبقة العليا هي يوميات السيدة العذراء Jiario Jc La Mariano . وقد قال البعض من أرباب القيل والقال ان فيدل بذلك «يكون قد حقّق ما أراد» على المستوى الاجتماعي أيضاً.

إن بانتخاب كارلوس بريو سوكاراس، يكون عام ١٩٤٨ قد جاء بالقضاء على أية بارقة للأمل في كوبا. إن ذلك الأمل قد جاء ليعكس عوامل العصر. إن أهداف البلدان التي كانت مستعمرة في السابق تمثلت في أن تصبح حرة مستقلة على نحو من السرعة ما كان لواضعي الخرائط أن يواكبوه إلّا بجهد جهيد، متابعةً للخطوط المستجدة لهذه الأقطار: من هند وباكستان وبورما وجزر الفليبين. . . وقد سعى الحلفاء إلى إعادة بناء عالم ما بعد الحرب بهيئة أمم متحدة، وبمشروع مارشال من أجل أوروبا، وبالعمل على تحديث اليابان، وبمساعدة تركيا واليونان على الوقوف في وجه التيارات الشيوعية الموجودة هناك.

في تلك السنوات من أواخر عقد الأربعينات كان قد قُدِّر لفيدل أيضاً أن يعاين الاتحاد السوفييتي بخاصة وحركة الشيوعية بعامة وهما يتحركان بلا هوادة وعن ثقة جديدة فيها استشراف للمستقبل عبر أرجاء المعمورة. فكان في عام ١٩٤٨ ـ وهو عام زواج كاسترو ـ أن قام الشيوعيون بانقلاب، واستولوا على مقاليد الأمور في تشيكوسلوفاكيا. وفي عام ١٩٤٩ أرست المانيا الشرقية قواعد الحكم الشيوعي بها كما كان كتاب جورج أورويل George Orwell الذي يحمل عنوان «١٩٨٤» قد نُشر. وأما الفرنسيون فبعد أن انسحبوا من معظم مستعمراتهم الأخرى، أصرّوا ـ بحمق عنيد ـ على البقاء في ڤيتنام.

وفي الوقت الذي لم تخلو فيه رحلة زواج كاسترو من قدر من السمات الذاتية المميزة لفيدل، إلاّ أنها كشفت له أيضاً عن أبعاد الحياة البورجوازية في علاقة قوية موجزة وجديدة، وشأن كل أمور حياته، قام غيره بدفع الثمن. فقد كان السينيور رافائيل دياز ـ بالارت ـ والد ميرتا ـ قد منح الزوجين الشابين مبلغ عشرة آلاف دولار على ذمة شهر عسل يمتد لثلاثة أشهر في أكثر المدن الأمريكية روعة خرافية: نيويورك. ومصروف جيب يُقدّر بحوالي ألف دولار لم يدفعه أحد آخر سوى فولجنسيو باتيستا، الذي لم يكن في عام ١٩٤٨ سوى رئيس سابق بالمنفى في دايتونا بيتش Daytona beach وصديق لكلتا العائلتين.

وعلى كُل، فقد كان هناك أكثر من سبب لذهاب فيدل إلى نيويورك في تلك الآونة. فالزفاف أتاح مسوِّغاً معقولاً لخروجه بعيداً عن عيون بنادق الجماعات الإرهابية المتربصة به في هافانا. وعلاوة على ذلك فإن الذهاب إلى نيويورك كان بالنسبة له نوعاً من الحج المقدس، وسبيلاً لتأكيد رؤيته المسيحية لذاته. ألم يقم مارتي ـ «الرسول الملهم» ـ نفسه بمغادرة كوبا ليشتغل بعمله الوطني في نيويورك؟

وفي ميامي بدأ العروسان الجديدان شهر العسل، ومن ميامي انتقلا بالقطار إلى نيويورك، وكان ذلك في ديسمبر من عام ١٩٤٨. وقد قال فيدل فيما بعد لصديقه كارلوس فرانكي Carlos Franqui: «إنني لن أذهب إلى إنكار أنني قد استمتعت بالبعض من طيبات الحياة في ميامي الرائعة. فهناك عرفتُ لأول مرة قطعة اللحم التي تكسو عظماً على شكل الحرف T، وعرفت سمك السالمون المدخن، بالإضافة إلى تلك الأشياء التي لذتني كثيراً، كشاب يملك للطعام شهية عظيمة...».

وفي نيويورك استخدم فيدل جزءاً من العشرة الاف دولار في شراء لنكولن كونتيننتال بيضاء (=سيارة) يُفتح بابها عند لمس زر من الأزرار ـ علامة على الاقتصاد في الوقت ـ. وقد حكى رافائيل دياز ـ بالارت بعد ذلك بسنوات، قال: «لم يكن معه من المال إلاّ ما يشتري به سيارة جديدة، من نوع البونتياك مثلاً، لكن فيدل أولع بسيارته الكبيرة من طراز لنكولن. فقد كانت فخمة ضخمة...».

أما رافائيل ـ شقيق ميرتا الوسيم ذو العينين الداكنتين ـ فقد تزوج من امرأة رقيفة جميلة هي هيلدا Hilda، وكان ذلك قبل بضعة أشهر، وكان يعيش انذاك في نيويورك، وهو باعتباره واحداً من الجماعة البروتستانتية الكوبية القليلة العدد ذات النزعة التقدمية، لذا فإنه كان مواظباً على حضور صالون برنستون الديني وكان لفترة

من الـوقت رئيساً لـلأخويـة الدينيـة في كنيسة أقصى شـرق مانهـاتن التي كانت تضم ثـلاث جماعـات: جماعـة أهل بـورت ريكو، وجمـاعة روسيـا البيضاء، والجمـاعـة الأمريكية. إلاّ أنه سرعان ما تخلى عن الحيـاة الكهنوتيـة واتجه بحمـاس ـ على غرار صديقه الحميم فيـدل ـ إلى دنيا السيـاسة التي جعلت منهمـا عدوين لـدودين. إلاّ أن ذلك كان لا يزال غيباً في مستقبل لم يتجلَ بعد.

طلب فيـدل وميرتـا إلى «رافا» وهيلدا أن يجـدا لهما غـرفة مفـروشـة في نفس المبنى الذي كانا يسكنان فيه والقائم في ساند ستريت. ولقد كان شهر العسـل سعيداً مؤقتاً بالـرغم من كل شيء، بـل لقد كـان سعيداً سعـادة عامـرة ـ ومن ثـم كان سـريع الانقضاء وقد عمل فيدل في غضـون تلك الفترة على أن يتعلم الانكليـزية على نحـو أفضل ـ في الواقع إن كل ما فعله هو ببساطة أنه حصل على قـاموس في اللغـة ووطن العزم على أن يستظهر في كل يـوم مائتين من المفـردات ـ إلاّ أن هذا لـم يجعله يتعلم الانكليزية قط على وجهها الحق.

أما عن استجابات وانطبـاعات فيـدل عن الولايـات المتحدة التي كـرهها تمـاماً على المستوى الفكري والسياسي فقد كـانت ملفتة للنـظر بغرابتهـا حقاً في كـل وقت كـان يقف فيه وجهـاً لوجـه مع الأمـة ذات القوة والـوفرة. فقـد كـان معجبـاً بـالمـدن الكبرى، وفي موضع آخر كانت أحكامه النقدية لاذعة محرجة لنفسـه وغيره ـ في أيـة لحظة ـ وذلك عندما كان يسعه شراء نسخة من «رأس المـال» لكارل مـاركس من دور بيع الكتب في نيويورك جهاراً نهاراً. لقد أدرك «التنـاقض القائم بين الشعـور الشديـد الحماس في معاداته لشيوعية ذلك العصر في الولايـات المتحدة والـواقع الـذي يشهد على أنه كان بوسعك أن تشتـري طبعات وإصـدارات ماركس من دار لبيـع الكتب في نيـويورك». غيـر أنه انتهى من حيـرته إلى حـل على نحو جـدلي لا يخلو من ملاءمـة وذلك بتقرير أن الامبريالية إنمـا كانت تملك من القـوة الشيء الكثير بحيث أنهـا «في الواقع لا يهددها تهديداً كبيراً وجود الكتب الماركسية في محال بيع الكتب».

عاد رافائيل وهيلدا من ميامي إلى كوبا بـطريق الجو، بينمـا اتخذ فيـدل وميرتـا الطريق الأبطأ بواسطة عبَّارة بحرية من بوابة الغرب. لقد عاين الشابان الحديثا الزواج شاطىء الأمريكيين وهو يغيب ويتوارى على نحو ثابت بعيـداً عن مجال الـرؤية كلمـا غـذ المركب السيـر متجهاً إلى كـوبا عبـر الممر المـائي الضيق ذي الأميـال التي وإن كانت قليلة العدد إلاّ أنها أسطورية الدلالة، تلك التي باعدت الشعبين، قبل أن يقـوم فيدل بإغلاقها.

وعلى الرغم من المشكلات الاجتماعية والسياسية الداخلية لكوبا في تلك الحقبة، إلاّ أن تلك كانت أياماً رائعة لأولئك الشبان الكوبيين من ذوي الميول السياسية وكذلك لأحلامهم. ففيما بعد بسنوات قال لي رافائيل دياز ـ بالارت «لقد كنّا نخطط بخصوص من الذي كان سيصل إلى السلطة أولاً؟ مَن الذي كان سيصبح لكوبا رئيساً؟». في تلك السنوات كان رافائيل وفيدل شديديّ القرب من بعضهما البعض. كانا صديقين، وكانا صهرين. هزّ رافائيل رأسه قائلاً: «لقد كانت لنا هذه النوعية من العلاقة في عام ١٩٤٨، ثم بعد ذلك بعشر سنوات، سلك هو سبيله إلى سُدة الحكم بينما كان عليَّ أن أذهب بسبب منه إلى المنفى وإلى الأبد. لو أن أحداً في ذلك الحين كان قد أنبأنا بذلك...».

وسرعان ما قام فيدل وميرتا بتوطيد أمورهما في مجموعة من الغرف السكنية في هافانا وفي ڤيدادو Vedado. وقد حكى خوسيه باردو لادا Jose Pardo Lada أن فيدل قد انتقل ذات مرة ـ عن قصد وبعد تفكير ـ إلى شقة سكنية تقوم قبالة معسكر للجيش مباشرة عند إلتقاء شارعي بريمرا Primera وباسيو Passeo وحيث كان هناك على الدوام نوبات حراسة تصل إلى نحو عشرة جنود. وقد ذكر باردو أن فيدل راح يقول له وهو مفتر الثغر عن ابتسامة من شرفة المسكن الصغيرة «إن هذا هو المكان الذي يتيح لي أعظم ضمانات الأمان لحياتي». فقد كان من المثالي بالنسبة «لفيدل الشاب أن تكون الفطرة والسلوك فيه قد جسدا «مزاجه» الساخر التهكمي، فهو قد كان منذ وقت سابق يستخدم المجتمع الشرعي التكوين والذي كره هو كثيراً العمل على صيانته وحمايته، بل إنه كان شارعاً في الحملة من أجل تحطيمه».

ويتذكر أصدقاؤهما أن فيدل وميرتا في ذلك الوقت كانا زوجين ترفرف عليهما السعادة ويحكون أن معاملة فيدل لميرتا كانت معاملة حسنة في البداية، بل وبشكل ينطوي علي الحرص وتوخي الحماية، وبالشعور العريق للكوبي الرجولي. فقد قال لي تشينو إسكويڤيل Chino Esquivel «كان الواحد منهما يحب الأخر. كان فيدل وسيم الهيئة، وهو عندما يريد أن يكون إنساناً مهذباً... فإنه يكون الأفضل». إلاّ أن هذه الأيام السريعة الزوال لم تكن لتدوم طويلاً. ففيدل لم يقم فعلاً بالبحث على نحو ما من أجل الحصول على عمل مدفوع الأجر واستمر يعتمد مالياً على نقود تأتي من والد ميرتا وعلى شيكات شهرية ترد من آنجيل. إلاّ أن الوالدين كانا قد بدآ أيضاً يضيقان ذرعاً من دعمه وإعالته، كما بدأت ميرتا تحتاج إلى المال احتياجاً ماساً. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه في غضون ثلاثة أشهر من زواجهما، اكتشفت أنها حامل.

وقد حكى جاك سكيللي ـ جار ميرتا وصديق صباها القديم ـ عن الوقت الذي أمضاه مع ميرتا وفيدل في ذلك الصيف الذي عادا فيه إلى بانز، قال وقد أهاجته الذكرى حنيناً إلى ماضي الشابة الصغيرة التي أحبها كثيراً «لم أكن قد رأيت ميرتا منذ سنوات أربع. كانت في حوالي الشهر السادس من حملها. لقد صعدتُ ومنحتها قبلة كبيرة على الخد، أما هي فكانت عظيمة السعادة لرؤيتي. وبالفعل كنّا نلعب الدومينو في كل ليلة ـ علماً بأن ألعاب الورق هي التي كانت تلقى إقبالاً من الناس ذلك العام ـ وكان ذلك على ضوء مصباح يعمل بالغاز، كنّا نتجاذب أطراف الحديث. . . وذهبنا لصيد السمك، وقنص الحيوانات البرية، وكان فيدل متأبطاً بندقينه على الدوام، بالإضافة إلى مسدس. لقد صوّب ناحيتي أربع مرات بمسدس من عيار ٢٢ ملم أثناء سباحتي. . .».

وفي نهاية ذلك الصيف الوادع الكسول في بانز، بدت الأحداث وقتها ـ في خداع شديد ـ هادئة من على السطح، وقد وُلد لأسرة كاسترو ابنهُما الأول والوحيد، وبمقتضى العرف الكوبي فقد سُمّي المولود الأول على اسم أبيه وكني في الحال باسم «فيدليتو» Fidelito. أما ما قُدّم من تفسير للحدث من جانب المطلعين على بواطن الأمور ومن جانب أول سيرة عن حياة فيدل كاسترو وغير معروفة على نطاق واسع فهو ممّا يجدر التنويه إليه. ففي شتاء عام ١٩٥٩ كان قد وُضع كتاب «فيدل كاسترو، سير حياة» Fidel Castro, Biografia وكان ذلك في أعقاب «انتصار» فيدل مباشرة، وهذا الكتاب لم يُنشر في هافانا فقط ولم يكتب بواسطة جيراردو رودريجيز موريجون Gerardo Rodriguez Morejon ـ كاتب السير المشهور ـ فحسب، وإنما كُتب بعون مشكور من لينا كاسترو ـ والدة فيدل ـ وذلك قبل إنشقاقها على إبنها الظافر المنتصر. فبالنسبة لأبناء كاسترو غير الشرعيين، وقصة زواج فيدل وحبّه الشديد لولده الجديد هو أمر يبدو أنه جاء على شاكلة عالم ديزني الوهمي. إنه النوعية التي اجتهد فيدل دائماً على أن يحيط بها حياته الشخصية وذاته الخاصة: «إن اهتمامات وجدانية جديدة انفتحت أمام هذا الشاب الذي هو ـ برغم ما في طبيعته من عنف وصرامة ـ شاب فيه نبل وعاطفة. إن الأبوة هي التي تعطي لوجدانه الأسري أقوى المسوغات، كما أن المفاتن الملائكية للصغير الحديث الولادة قد خلبت لبّه تماماً». إن هذه الصورة الرومانسية عن فيدل كأب ورب أسرة إنما هي بعيدة عن الحقيقة بُعداً شاسعاً.

ففي واقع الأمر أنه عندما زايله انبهاره الأول بالوليد الجديد، أصبحت

العلاقات بين ميرتا وفيدل متوترة قلقة أكثر فأكثر. فلم يكن الآن ثمة نقود على الإطلاق تقريباً، ذلك لأن فيدل كان مصراً دائماً على المزيد من الإزدراء لفكرة العمل. بل لقد كان لا يعود لتناول الطعام في البيت إلاَّ قليلاً، مفضلاً أن يتناول طبقاً من الخضر واللحم المفروم مع أصدقائه في العمل السياسي في الباسيفيكو وهو مطعم صيني مفضل لديهم. وقد لاحظ الأصدقاء أنه عندما كان يعود إلى البيت كثيراً ما كان يصطحب معه أكثر رفاقه السياسيين بعثاً على التقزز وكان يصر ـ بصرف النظر عن أي شيء ـ على أن تظل ميرتا تواليهم بتقديم الطعام حتى الساعات الأولى من الصباح.

وقد جاهدت ميرتا بشجاعة واتساع صدر للإبقاء على الأمور سائرة، أما الآن فالواقع أنها كثيراً ما كانت لا تجد الحليب لفيدليتو المكتنز الوجنتين وأنه كثيراً ما اضطر الأصدقاء إلى إقراضها نقوداً عندما كان تيار الكهرباء يُقطع بسبب العجز عن السداد. وكان في الأمر إذلال لكبريائها الهادىء آخذ في التزايد. بل لقد علمت أنه حتى عندما كان يتأتى لفيدل شيء من المال، فإنه لم يكن لينفق منه قط على أهل بيته، وهي خصلة شارك فيها معظم زعماء التاريخ من أصحاب الشخصيات الكارزمية.

وفي تلك الأيام من عام ١٩٤٩ ـ عام ميلاد ابنه ـ بدأ فيدل يبدي رغبة الهاوي ومن ثم ولوعاً عظيم الخطر بعلم الوراثة ـ على نحو غاية في الغرابة والإلحاح على الوعي لدرجة تفوق كل واقع ـ. ومن غير اليسير أن نحدد بدقة اللحظة التي بدأ عندها هذا الولوع، إلاَّ أن رافائيل دياز ـ بالارت عاد بذاكرته إلى واقعة ترجع إلى زمن طفولة فيدليتو من شأنها أن تؤثر أو تنذر على نحو واضح بما كان سيصبح رغبة جامحة لا تستهدف مجرد تحقيق السيطرة على البشر وحدهم بل وعلى الطبيعة ذاتها أيضاً.

كان فيدليتو من أفضل الأطفال صحة حين داهمه المرض بعنف وضراوة. فجاء طبيب الأطفال، وكان في حال من الذعر والقلق شديد، إلاَّ أنه في نفس الوقت لم يستطع أن يعثر تحديداً على موضع الخلل في الطفل. واستولى القلق على الأسرة، وغلبتها الحيرة. غير أن ميرتا اكتشفت بعد ذلك أن فيدل كان يُطعم الطفل ـ بنفسه وعن قصد تام ـ ثلاث مرات القدر من الغذاء البديل عن اللبن وهو الغذاء الذي افترُض وجوده لدى فيدل. وعندما واجهته بهذه الحقيقة، أجابها فيدل ببساطة مقررا أنه إنما أراد للطفل أن يصبح «كبيرا» على نحو أسرع، وأنه ينبغي على الطفل أن يكون «أشد قوة» من الأطفال الاخرين. صُدمت الأم، وأوقفت التغذية الإضافية،

وعندما تكرر حدوث الأمر مرة أخرى بعد ذلك ببضعة أشهر، عرفت الأم عندئذ ماذا كان السبب.

وفي السنوات الأخيرة قال لي جورج ڤاليس GorgeValls ـ المفكر والشاعر الموهوب لإدارة الطلبة الثوريين ـ قال: «إن فيدل لم يعرف قط كيف يحب. إن الشيء الذي لم يعرفه هو أن يعطي من نفسه. كان شديد الاهتمام بدوره الزائف». إن ما يجعل الأمر أكثر بعثاً على الدهشة والاستغراب هو أن يكون فيدل قد تزوج ميرتا أو أية واحدة على الإطلاق. فمن المؤكد: أن قد كانت ميرتا هي محاولته الواحدة والوحيدة لأن يحب أي شخص، ولأن يضع ثقته وحبّه في واحد من بين البشر. وقد حلّل الدكتور مارشلينو فيلMarcelino Feal ـ الطبيب النفسي الكوبي البارع ـ الأمر فقال: «لقد سعى فيدل إلى زواج جدير بالاحترام، وفشل، وسعى إلى حياة سياسية جديرة بالاحترام، وفشل. لقد تجاهله المجتمع، ومن ثم فقد أصبح هو المجتمع ليعمل على تشكيله تشكيلاً من خلقه الخاص».

وعن قدرة فيدل على الحب، كتب الكاتب الأمريكي چن ڤيير Gene Vier يقول: «إن كاسترو. . . يبدي خاصية أخرى للشخصية الكارزمية، فما من فرد واحد يمثل لديه قيمة مطلقة. إن أصحاب الشخصية الكارزمية دائماً ما يسعون وراء الكلي، الذي ينطوي على إنفصال عن الجزئي، وهو إنفصال يستشري في ما لكاسترو من صداقات ـ فبالنسبة له ليس لشخص بعينه قيمة مطلقة». إن الزعيم ذا الشخصية الكارزمية لا يستطيع أن تكون له زوجة، ولا يستطيع أن يبدي اهتماماً بشخص آخر أو حتى بأطفاله، ولا يستطيع أن يُسلم نفسه لآخر. إن الزعيم الكارزمي الحق أداة توصيل، أو منخل بشري، أو عامل أو عنصر «مطهر» تمر من خلاله نفسُ وروح شعبه، وليس ثمة من أحد يستطيع أن يقف حائلاً دون هذه المبادلة الجليلة وأن يشكو أجرة المسكن أو لبناً من أجل الوليد، وكان عالم النفس الكبير س. ج. يونج C.G.Jung قد سأل ذات مرة «ماذا لو كان هتلر قد تزوج؟» قال بوضوح: «ما كان يستطيع الزواج. ولو كان قد تزوج، لما كان الذي يتزوج سيكون هو هتلر. كان سيكف عن أن يكون هتلراً. وما كان هتلر ظاهرة نفسية شخصية أو خصوصية. ما كان هتلر يستطيع أن يعد بشيء. لم يكن فيه الشخص الذي يعد بشيء. إنه البوق الذي يردد مزاج ونفسية جمهور الثمانين مليوناً من الالمان».

ولقد كان على كاسترو في المقبل من حياته أن يعي تلك الأساسيات الخاصة بأسطورة وسحر الزعيم الكارزمي ـ وأن يسلك دائماً وبذكاء وفقاً لتلك الأساسيات.

فـراح يخفي زواجه عن الشعب الكـوبي ، بـل وعن الـدنيـا في الـواقـع ، وإن محللي شخصية فيدل وأول كتاب لسيرتـه لـم يقفوا عنـد حد قبـول ذلك بـل إنهـم تواطـأوا فيه صيانة للسر، ويرجع ذلك ـ إلى حد ما ـ إلى أنهم هم أيضاً كانـوا واقعين تحت تأثيـر القـائد الأعلى . فقـد كتبَ تاد سـزولك Tad Szulc بـالحرف الـواحد في سيـرة حيـاة كاسترو عام ١٩٨٦ ، قال: «لا شيء يُعـرف في الحقيقة عن ظـروف وملابسـات ذلك الزواج ، الذي قدّر له أن ينهار بسبب السياسة في غضون خمس سنوات» .

ومـع ذلك ، لم يكن ذلـك «اللغز» الخـاص بالـزواج ـ شأن كـل «الألغاز» التي تدور حول فيدل ـ لغزا على الإطـلاق، لقد كـان يوجـد معه في كـل واحدة من نقـاط التحوّل أناس متيقظون منتبهون. وإن غياب المعلومات الشخصية التي كانت ستجعل من فيدل إنساناً وليس مجرد أسطورة، قد جعله يبدو كائناً لا سبيل إلى أن يعـرف ومن ثم فهو واسع القدرة لا محدود السلطان. تلك كانت الفكرة بطبيعة الحال، وقد تعامل معهـا فيدل ببـراعة واقتـدار. وقد شـرحها الـدكتور مـارشلينو فيـل، فقال: «تلك هي الطريقة التي يحافظ بها على السلطة والقوة. فالإلغاز يحفظه من الفقد والخسران» .

الفصل السابع
البوجوتازو
The Bogotazo

[إنني لستُ فرداً، إنني شعب]
ـ خورجي إلياسر چيتان

كان خورجي إلياسر چيتان ـ الرجـل الجامـح الشهوة ذو العينين القـادرتين على التنويم المغنطيسي وصاحب الأسلوب الكارزمي الخلاب في الحديث الـذي اجتذب به إليه صميم روح كولومبيا المعذبة البائسة ـ في أوج مسيرة حياته السياسية في اليـوم الحاسم التاسع من أبريل عام ١٩٤٨. ففي صباح ذلك اليوم ـ الذي كان آخر أيـامه ـ توقف الرجل العظيم الخشن الجماهيري الـذي كان يُعـد أمل كـولومبيـا ـ توقف عن الانحناء فوق طاولته بمكتبـه القانـوني القائم في عمـارة الحفيد Nieto بـوسط بوجـوتا ليخطَّ على أجنـدته الصغيـرة ملحوظـة تذكيـرية عن طلب مفـاجىء وملح إلى تنـاول الغداء مع داعية الديمقراطية الفينزويلي رومولو بيتانكـور Romulo Betancourt. ثم، كتب أسفل من ذلك ـ على نحو فيه من الغرابة ما يكفي ـ في كلمات حيَّـرت التاريـخ طويلاً، اسمين آخرين: «فيدل كاسترو» و«رافـائيل دل بينـو» Rafael Del Pino. فقد كان على هذين الطالبين الكوبيين الوقوف للقـائه بين الثـانية والثـانية والـربع من بعـد ظهيرة ذلك اليوم.

في هذه الآونة كـان چيتان بمنـزلة الـرئيس للحزب الليبـرالي في كولـومبيا دون جدال، وهو الحـزب الإصلاحي في وطن مثقل بكل الأدواء القديمة لأمريكا الإسبانية: النـزعة التسلطيـة الإسبانيـة، وأرستقراطيـة ملاك الأراضي المتصلبـة، وكنيسة عصـور وسطى كاثوليكية. وبينما كان چيتان يجلس إلى مكتبه ذلك الصباح من شهـر إبريـل،

كان نضال كولومبيا التاريخي ضد الحزب المحافظ المتمسك بأهداب القديم يغلي مرجله بالغاً موقعة النوايا والمعتقدات المريرة الحاسمة. وقد تكهن كل فرد بضرورة فوز چيتان ـ «رجل الشعب» ـ بانتخابات ذلك العام. وكانت رسالة چيتان الإصلاح وتغيير المجتمع المتخلف الرجعي إلى مجتمع متطور تقدمي الفكر، وعلى حين أحب العامة چيتان، كان المحافظون يحددون عيونهم ويهمس الواحد منهم للآخر في الحدائق والأزقة وفي شوارع بوجوتا بأن هذا «الرجل المثير للفتن والقلاقل يجب ألا يُسمح له بالوصول إلى الحكم».

إن بوجوتا بلد تغشاه ظلمة بشكل أساسي، فهي تقع عالياً في أكثر بقاع الأنديز إعتاماً وكثافة، فهي تبدو دائماً كأنها مغطاة بغلالة أو ستار. إلّا أنها كانت في ذلك اليوم مزدانة بالزينات والرايات ابتهاجاً باستضافة المؤتمر العالمي التاسع للدول الأمريكية، وهو المؤتمر الذي كان بسبيله إلى إنشاء المنظمة الإقليمية التابعة للأمم المتحدة، وهي منظمة الدول الأمريكية. وكان جورج مارشال George Marshall ـ وزير خارجية الرئيس ترومان ـ حاضراً المؤتمر، كما كان هناك أيضاً سائر وزراء خارجية الأقطار الأمريكية. ولكن من تحت سطح هذا الجو «المبتهج» على نحو فيه تناقض داخلي، في هذه المدينة الغارقة في الهدوء، كانت هناك أهداف أخرى تُقرر، ووعود أخرى تُبذل. ففي بوجوتا حيث كانت هناك يومياً من عشرين إلى ثلاثين حادثة إغتيال، تضاعف عدد المؤامرات والمؤامرات المضادة بشأن تكاثر السحب الداكنة، وكانت الشائعات تفوح رائحتها باستمرار في أحاديث المقاهي والمشارب.

في التاسع والعشرين من مارس كان فيدل قد وصل بوجوتا مرتدياً الجاكيت الجلدي والبنطلون الواسع الفضفاض (أفضل ملبوس لديه)، وكان بصحبته ثلاثة طلبة آخرين هم: رافائيل دل بينو Rafael Del Pino رئيس اتحاد طلبة الجامعة .F.E.U، وإنريك أوڤاريس Enrique Ovares والشيوعي ألفريدو جيفارا Alfredo Guevara. وكان عليهم أن يلتقوا هناك بنظرائهم من الطلبة اليساريين الكولومبيين ليضعوا التدابير الأخيرة للمؤتمر الطلابي الموسع الخاص بعالم نصف الكرة الجنوبي والمناهض للإمبريالية ولأمريكا والذي كان سينعقد بصفة مؤتمر مضاد للملتقى الأمريكي والذي كان مزمعاً عقده في المقرّ الرئيسي المهيب. وقد كان خوان بيرون ـ ديكتاتور الأرجنتين ـ هو الذي تكفّل بنفقات رحلتهم، من باب فكرة التضامن الشعبي اليساري. وهكذا فإنه عندما علم چيتان بأفكار الطلبة وخططهم وافق على أن يلتقي بهم وأن يساعدهم. وقد كان ـ سنوات بعد ذلك ـ أن تحدثتُ إلى جلوريا Gloria ـ

إبنة چيتان ـ عن موقف والدها من الطلبة فقالت لي ببساطة «إن فيدل كان عضواً في جماعة طلابية كولومبية كانت تلقى من أبي دعماً كبيراً وكان والدي بسبيله إلى إعطائهم قاعة للاجتماعات في واحد من المباني العامة من أجل مؤتمرهم الطلابي العام». بعد ذلك توقفت لهنيهة هذه المرأة الجميلة ذات الشعر الفاحم، وراحت تُعمل الذاكرة، وأخيراً أضافت قائلة: «كما أن فيدل قد تحدث إليَّ فيما بعد بشأن الاجتماع. قال لي إن والدي كان قد خلّف في نفسه أثراً عظيماً، وأنه كان رجلاً ذا همة عالية وكانت لديه القدرة على التأثير في الجماهير وتحريكها».

التقى فيدل ورافائيل دل بينو بچيتان في العاشرة والنصف ـ من صباح الأربعاء الموافق السابع من أبريل. لم يبدُ على فيدل ـ بأي شكل من الأشكال ـ إرتباك المثول في حضرة واحد من زعماء أمريكا اللاتينية العظام، بل راح يبدي في وضوح ثقته الذاتية بنفسه، وطفق يحدثه في عجرفة وتكلف عن موضوعات مؤتمر الطلبة المناهض للاستعمار. وقد قال فيدل فيما بعد: «لقد تحمّس چيتان بخصوص فكرة المؤتمر، وقدم لنا دعمه وتأييده. لقد أدار معنا النقاش، وأعطى موافقته التامة على فكرة إختتام المؤتمر بمسيرة شعبية حاشدة».

وكان چيتان ـ وهو جسمانياً وبلاغياً صاحب سطوة آمرة ـ يبدو وكأنه على وشك أن ينفلت من بزته المحبوكة وأن تتلبسه طاقة حيوية، ممّا جعله يحدد موعد لقاء ثان مع الشابين الكوبيين على أن يكون ذلك بعد ظهيرة التاسع من أبريل. وقدم لهم نسخاً من بعض خطبه مكتوبة بخط اليد، مع إهداءات شخصية، ثم أذن لهم بالانصراف.

وقبل الموعد الذي كان على الطلبة الكوبيين أن يلتقوا فيه مرة أخرى مع چيتان بحوالي خمسين دقيقة، خرج الزعيم الشعبي من المبنى الذي يقوم فيه مكتبه، خرج متأخراً إذ من المفترض أنه في الطريق إلى مقابلة الزعيم الڤينزويلي رومولو بيتانكور. لكن چيتان لم يوافِ الغداء في الموعد قط. إذ وثب عليه كولومبي من المخلطين Mestizo رث الثياب يُدعى خوان روا Juan Roa وأطلق عليه النار عدة مرات.

كان جويللرمو بيريز سارمينتو Guillermo Perez Sarmiento ـ مدير وكالة الأنباء المتحدة (يونيتد برس) في كولومبيا ـ يتناول الغداء في التيڤولي بار Tivoli Bar على الطريق، عندما سمع صوت الحشود تردد معاً «لقد أردوا چيتان قتيلاً، لقد قتلوا چيتان»، فقام جويللرمو يعدو من المطعم إلى حيث الموضع الذي كان فيه صديقه چيتان، مسجى ميتاً. «إنحنيت فوقه في ذعر شديد ورحتُ أصرخ: «يا إلهي، ما الذي جرى يا خورجي»؟. راح بيريز يحكي «قمتُ بلمس وجهه، لكنه لم يفتح عينيه...

لقد أمكنني أن أرى أنه كـان يرقـد وسط بحيرة كبيـرة من الدم. . . فتـح عينيه وقلّص فمه في عقدة خلتها ابتسامة. ثم أطبق فمه وأغلق عينيه مرة أخرى. . . وأبداً لن أقدر أن أنسى تلك النظرة المفعمة أسى وعذوبة. . . ».

رأى بيريز القاتل فيما بعد، وكان قد أمسك به إثنان من رجال الشرطة الأشداء. كان له وجه زيتوني اللون استبد به الهلع. وعلى الرغم من أن بيريـز وآخرين حـاولوا الحفاظ على القاتل حياً، فقط من أجل مقاصد «مفيدة»، إلاّ أنهم عجزوا عن التحكم في الحشد الهائج المائج الذي اندفع في عنف وسرعة وراح يضرب الرجـل بوحشيـة حتى المـوت. في هـذه اللحـظة دوت المـدينـة وبحيث إن الجمـاعــات المتشـددة والتسلطية لم تتزلزل إلاّ أخيراً. وإذا بكل النقمة واليأس الذي في قلب شعب يحتـرق غضباً قد اندلع فجأة، وراحت «النار» تنتشـر في أرجاء بـوجوتـا كأنهـا صاعقـة من دم قانٍ تفجرت من خلال جسد بشري. إن البوجـوتازو Bogotazo ـ أو «نـوبة الجنـون» في بوجوتا ـ كما أصبح يُسمى يومـا الهياج الشـديد اللذان أعقبـا مصرع چيتـان، قد اقترنا بنوع من العنف الشديد.

وإنه في نفس هذه الآونة أيضاً، فـإن سلوك فيدل وإنفعـالاته ـ بـالرغم من كـل تحليل للموقف ـ قد غدت شديدة الخفـة والمرح، فلقـد كان هـو والطلبـة الكوبيـون الآخـرون جالسين في مقهى مكشـوف في زاوية قـريبة من مكتب چيتـان. وقد حكى إنـريك أوڤـاريس فيما بعـد قـائـلاً: لقـد تحقّق لكم إدراك أن المشهـد كـان شـديـد الاضطراب والتشوش تماماً. لقـد كان يضـج بالجنـون. وعزمتُ أنـا وجيفارا على أن نغادر الشارع عائدين إلى فندقنا. أما فيدل ودل بينو فقد زعمـا أنهما ينـويان الـذهاب إلى «الفنـدق». غير أن أوڤـاريس لـم ير فيـدل ثانيـة حتى الرابعـة من بعد ظهـر ذلـك اليوم، عندما عبر حشد هائج الشارع قرب الفندق هاتفين «إلى القصر الـرئاسي، إلى القصر الرئاسي. . . ».

وقـال أوڤاريس «إن فيـدل كان واحـداً من هذا الحشـد المنـدفـع، وقـد تسلّح ببندقية، وكذلك كان رافائيل وإن كنت لا أذكر أنه كان حاملاً لبندقيـة. كـان فيدل في غاية الاستثارة، وكان يتصرف كزعيم مهيج للدهماء. وقد حاول إقناعنا باللحاق بهمـا» قائلاً «إن الشرطة تعضدنا، وهم يعطوننا السلاح. ولسوف يوحّد الجيش صفـوفه معنـا في أية لحظة من الآن». ولـم أرغب في الذهاب. إذ كان الأمر سيكون جنوناً ومحض سعي وراء القتل على يد واحد من هذه الدهماء الفاقدي الوعي. . . وقد عاد كاستـرو ليواصل انخراطه مع الغوغاء، منتشياً بالنهب والإحراق والهتاف.

وقـد استخدم فيـدل فيما بعـد ـ مراراً وتكـراراً ـ رمزيـة لـزجـة في وصف تلك المشاهد التي تنـد عن التصديق، فـالشعب الكولـومبي كان «محيـطاً» عارم الحـركة، «بحـراً» هائج الأمواج من بشر يتدافـع متلاطمـاً فوق المـدينه، «نهـراً» غاضبـاً جاس خلال الشوارع في غير رحمة ولا هـوادة، «سيلاً عـارما»، «فيضـاناً عـاتيا»، «طـوفانـاً مدمراً». ويستطيع المرءُ هنا أن يرى وأن يسمع بوضوح الأصل التأثيـري لفكرة فيـدل عن «الجمـاهير» التي جـاءت فيمـا بعـد، ذلـك لأن فيـدل قـد استجـاب للعمـل في الماضي عن طريق الجماهير، فهو لم يفهم قط الجهد والضمير الفرديين، كمـا أنه لم يكن في حياته ـ في الواقع ـ ما يحمله على فعل ذلك. والأكثر من ذلـك، أن أعمالـه بدأت ـ في تلك الآونة ـ تنصب في قـالب المنوعـات الثوريـة المتنقلة، مثل الانتقـال إلى بوجوتا في أثناء ذلك «المد» العنيف الجائح، فقد تلمس عن فكر ثـاقب أو حاول أن يتلمس كل ما يرفع إلى السلطة.

هـا هو قـد تحرك أولاً مـع الحشد الـذي كانت تسيـطر عليـه الآن روح الفتـك متجهين صـوب الكابيتـول، وهـو مبنى رمـادي رسمي كبيـر، وقـد إلتـأمت أعـلامهم المهتاجة على مـا بينها من اختـلاف في غبش هذه الثـورة في الوقت المنـاسب. لقد انتظر هناك وراح يراقب بينما كانت الجموع الحاشدة تمر متجاوزة قوات الشرطه التي لم يعـد لها حـول ولا طول، وقـد أنزلت الـدمار بـالكامـل تقـريبـا في داخـل المبنى التاريخي للكابيتول. ومن هناك اندفع فيدل مع الحشـود صوب مبنى البـرلمان، حيث عاين هناك «انفجاراً». فقد كتب فيما بعد «لأنه كان ذلك، ثوران الجماهير».

وقد أخذ إيقاع الحركة الجسمية والجيشان المعنوي يزداد الآن حدة، بينما كان الحشد قاصداً إلى مقر الشرطة، ثالث مركز للقوة جابهه فيدل في ذلك اليـوم. وفدت الغوغاء على مقر الشرطة من كل صوب، محاولين العثـور على سلاح، وكـان كل مـا عثر عليه فيدل هو بندقية لإطلاق الغاز المسيل للدموع وعـدداً من طلقات الخـرطوش ثم دلف إلى حجرة غاصة بأنـاس واقفين يبدو عليهم الإرتبـاك والذعـر. وقد تبين لـه فجـأة أنهم كانـوا من ضباط الشـرطة، فسـألهم إن كان لـديهم شيء من الأسلحـة أو البزات العسكريـة. وقد قـال حاكيـاً فيما بعـد «لم أكن لابسـاً زي حـرب». ثم جلس على سرير صغير وشرع في جذب زوج من الأحذية العسكريـة القديمـة في حين راح واحـد من الضباط يتـوسـل إليـه على نحـو مضحـك قـائـلاً «كـلا ليس حـذائي؟ دع حذائي!» فردّ عليه فيدل صائحاً في ما يشبه الخفة والمرح قائلاً: «حسن أيهـا السيد، احتفظ بحذائك». ثم عاد ليلحق بالجموع، الذين اصطدموا بـه كما لـو أنه جـرثومـة

كبيرة تكونت وانطلقت ثم عادت لتتكون من جديد، «فكأنه كان يتحرك قفزاً».

إن المزاج الساخر الذي كثيراً ما كان يتلبس فيدل في حياته قد تراءى بعد ذلك بسنوات في أعقاب استيلائه على السلطة، وكان ذلك بمناسبة قصة الحذاء التي راح يحكيها على أسماع جلوريا چيتان حين استرجاعه لها معها في كوبا بعد انتهاء أيام الجنون والغليان في بوجوتا. قالت لي جلوريا وهي تبتسم فجأة بسبب الذكرى الغريبة، قالت: «كانت القصة الوحيدة التي حكى لي فيدل عنها أن الشرطي لم يدعه يذهب بذلك الحذاء».

كما شاهد فيدل في خارج الشوارع طلاباً ذوي عيون غضبى وقد حملوا القتلى من رفاقهم فوق عرباتهم وكأنهم رايات ثورية. ولكن على الرغم من إبتهاجه، أثناء قيامه بالتجول في المدينة، إلاّ أنه أصبح في قلق متزايد بسبب أعمال السلب والنهب التي كانت قائمة على قدم وساق. فلما أن هبط الليل، انطلق في سيارة جيب مع بعض من ضباط الشرطة الذين كانوا على ما يبدو متعاطفين مع القوىٰ الثورية، وقد بدأوا بوسط المدينة، وكان قائد المجموعة في السيارة الأولى وفيدل في الثانية. وان فيدل ـ الحريص دائماً على مسألة التنظيم وترتيب المكانات ـ راح يعتبر نفسه «الآن ومن الوجهة العملية نائباً للقائد». ولكن عندما أصاب عطب السيارة الأولى، فإن فيدل ـ الذي كان قد أصبح مغضباً بشدة لانعدام التنظيم غير المفهوم في البلاد ـ كان على وشك أن يُخرجه الحنق عن طوره. فخرج من سيارته وصاح بالشرطي الذي كان راكباً معه قائلاً «إنكم جميعاً مجموعة تافهة من أناس لا قبل لهم بالمسؤولية». ثم انصرف في شموخ وتعالٍ.

ثم انضم أخيراً إلى جماعة آخذة في التجمّع في فناء أحد المباني. وبدأ من فوره نقاشاً مع قائد الشرطة هناك حول ما كانوا يرتكبونه من أخطاء تكتيكية. وقد عاد فيدل فيما بعد إلى تذكر تلك الواقعة ليحكي قائلاً: «لقد شرحتُ لهم أنني جئتُ من كوبا، وأنني ممّا قد دار هناك علمتُ أن القوات ـ شأن القوات لدينا ـ قد تحصنت في قلعة وكانت دائماً ما تُداهم. فلماذا لا تتخذون موقفاً هجومياً، فتفودون الرجال خارجاً في صفوف، وتنشئون لأنفسكم مواقع عند نقاط استراتيجية؟ غير أن نصحي له أو محاولاتي لإقناعه كانت بلا جدوى. لقد تظاهر عن مودة بالإصغاء لي على نحو ينمُّ عن تقدير، لكنه لم يكن يُعمل عقله. . .».

ومع الصباح، كان فيدل قد بدأ يستغرب تماماً ذلك الذي كان يفعله في

بوجوتا. فهل كان عليه البقاء؟ لقد بدأ يفكر في المغامرة على أنها «مهمة غير ذات جدوى». وبمعزل عن الكوبيين الآخرين راح يتعجب من ذلك الذي قيده إلى الشعب الكولومبي. وأخيراً حسم تساؤله قائلاً في نفسه: «إن الشعب هنا كالشعب في كوبا أو في أي مكان آخر، إنهم ضحايا للجرائم والإنتهاكات وألوان الظلم، وإن هذه الجماهير لعلى الطريق القويم تماماً، لذلك فإنني سأبقى».

كان الوقت الآن هو صباح الأحد الحادي عشر من أبريل، ولكن دون أن تدق في أرجاء المدينة المظلمة للكنائس أجراس. إن ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص يرقدون صرعى وان نحو ثلث المدينة كانت رماداً، أتت عليه النيران وسوته بالأرض.

في ذلك الأحد انطلق فيدل ومجموعته مغادرين المنزل المتواضع إلى كوبا في طائرة كانت قد وصلت إلى بوجوتا لأخذ عدد من ثيران اللعب وذلك من أجل مباراة لمصارعة الثيران تقام في هافانا. وبين أنقاض المدينة خلفوا وراءهم الملتقى الأمريكي الكبير، وقد واصل أعماله في إصرار وعناد. وقد اجتمعت الوفود في كراج واحد من المنازل الخاصة إذ تعذر اجتماعهم في وسط المدينة. فأعدوا ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين كرسياً من النوع الذي يُطوى، وكان هذا المكان هو الموضع الذي شهد تأسيس منظمة الدول الأمريكية، التي أصبحت لفيدل خصماً لدوداً. وسرعان ما أصبح دور فيدل في أيام الغليان في بوجوتا مادة لأسطورة شعبية ـ ومجالاً لتخمينات لا نهاية لها. فقد اتهمه اليمينيون بأنه عميل للكومينترن Comintern، واتهموا الحزب الشيوعي في كولومبيا بالتخطيط لأحداث بوجوتا، وقاموا بنشر خطاب غرامي من ميرتا ـ وكانت وقتها خطيبة فيدل ـ قالت في جزء منه: «تذكر أنك قلت لي إنك ذاهب إلى بوجوتا لكي تعمل على تحريك اندلاع ثورة». وكانت الرسالة مؤرخة بتاريخ الثالث من أبريل عام ١٩٤٨، أي قبل ستة أيام من أحداث بوجوتا.

وليس من أحد سوى ويليام ج. باولي William G.Pawley، سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، ومؤسس شركة الطيران الكوبية ـ الذي شهد بأنه في أعقاب مصرع جيتان، كان قد سمع على موجة الراديو صوتاً يقول: «هنا فيدل كاسترو من كوبا. هذه ثورة شيوعية. إن الرئيس قد قُتل، إن جميع المؤسسات العسكرية في كولومبيا هي الآن في أيدينا، والأسطول قد استسلم لنا، إن هذه الثورة قد كلّلت بالنجاح».

ولكن، لا شيء من هذا يدل على معنى حقيقي، وإن كل طالب جاد من

طلاب الأحداث الجارية يرفض مثل هذه الإدعاءات. وقد دعت الحكومة الكولومبية محققاً من سكوتلانديار، الذي لم يستطع العثور على دليل على ضلوع قيادة شيوعية في الأحداث المأساوية. وعلى المستوى المنطقي أيضاً فإنه لو كان الشيوعيون ضالعين في الأمر، بما لهم من مهارة تنظيمية وقدرة مشهودة على تحريك واستخدام الغوغاء، لكان سيكون لديهم الكوادر الجاهزة للإطاحة بحكومة كولومبيا المحافظة المتهافتة المفتقرة إلى الشعبية. وهم لم يفعلوا شيئاً من هذا. كما أنه ليس ثمة من دليل على أن فيدل كان ـ على ما يبدو ـ أي شيء سوى ذلك القومي المتحمس والمحرض على معاداة أمريكا.

مَنْ، إذن، الذي كان وراء مقتل خورجي إليسار چيتان؟ إن جلوريا چيتان ومعظم المؤرخين على قناعة بأنه من المنطقي وفي حدود الشواهد المتاحة، أن يكون چيتان قد قُتل على يد اليمين الكولومبي المتطرف، بفعل مؤامرة دبرها نفر من القلة الغنية المقاومة للتغيير. أما لدى فيدل، فإن أحداث بوجوتا إنما كانت تجربة ختامية أخرى في تيار الحركة العالمية، وهي في هذه المرة أشد عنفاً وحسماً مما كان عليه الحال في مغامرة جزيرة العسكر. إن أحداث بوجوتا إنما كانت ـ في رأي فيدل ـ عصارة إبرزي الدروس الثورية. ففي بوجوتا شاهد ـ لأول مرة عنف الجماهير، وعمل على تحليله، وشرع في محاولة التحكم فيه وتوجيهه. كما أدرك ـ ولأول مرة ـ أهمية إيقاع الهومية بالجيش النظامي التقليدي، فراح فيما بعد يركز على قوى جماهيره. «إن التاريخ كله يُظهر أن قوة تبقى ماكثة في ثكناتها هي قوة ضائعة». ولقد صُدم حقاً من جراء أعمال السلب والنهب، ومن المؤكد أن ذلك لم يكن بسبب أن أصحاب الممتلكات كانوا هدفاً للسطو والسرقة، بل لأن من شأن ذلك صرف جهد «الجماهير» وإضعاف القدرة على العمل لديهم في إطار ذلك الشرف الاسباني الذي هو سابق على المجد ومتقدم عليه، ولذلك كان عليه فيما بعد أن يُذكر الكوبيين باستمرار ألا يُقدموا أبداً على فعل أي شيء من هذا القبيل.

غير أنه تعلّم من أحداث بوجوتا أمراً أكثر أهمية. إذ يكثر فيدل في مذكراته ترديد وتكرار استغرابه البادي الصدق من النقص المخيف في القدرة التنظيمية. يقول: «إن بوسعي أن أؤكد لكم أن ما حدث في التاسع من أبريل لم يكن شيئاً تمّ تدبيره على يد كائن من كان. إن ما كان ليس إلاّ أن أولئك الذين دبّروا لاغتيال جيتان استطاعوا تصوّر أن من الممكن حدوث هذا»، هذا ما قاله فيدل للصحفي الشيوعي الكولومبي آرتورو ألابي Arturo Alape.

أما المؤرخ الشيوعي الكـوبي الدقيق المـلاحظة مـاريو مينشيـا Mario Mencia فقد كتب يقول: «إن الحركة الچيتانية إنما كانت چيتان». فعندما قتل چيتـان، «بقيت الجماهير بغير وجهة أو توجّه». فلقد كان چيتان ـ بالرغم من كل شيء ـ هو الذي قال مراراً وتكراراً: «أنا لست فرداً، وإنما شعب». وعندمـا رحل «الفرد»، كان «الشعب»، بغير حول أو طول. وقد وعى فيدل هذا الأمر تماماً.

الفصل الثامن
الانتحار بالميكروفون

«ألا زلت تعتقد يا ميجوليتو أن تشيباس كان أعظم مني؟»

- فيدل كاسترو، لمحرر جريدة بوهيميا «ميجويل آنجيل كويڤيدو ١٩٥٩».

إن أحداً من الأصدقاء الحميمين والسياسيين المقربين ممّن كانوا مع إدواردو «إدي» شيباس Eduardo «Eddy» Chibas في ذلك الأحد الرهيب من عام ١٩٥١ - إن أحداً منهم لم يلحظ أي شيء شاذ عن المألوف فيما يتعلق بالزعيم العظيم وأمل كوبا الوحيد عندما ذهب قصداً إلى مقر الإذاعة CMQ في وسط هافانا. وعلى الرغم من أن إدي كان من الشخوص السياسية النشطة إلا أنه كان يرتدي نظارة أنيقة كما كان له شعر خفيف هادىء خلافاً لشعر معظم الكوبيين الذي هو في العادة أسود يفيض حيوية ونضارة. كان حاد المزاج، إنفعالي الوجدان، متمركزا حول ذاته. كان يلبس الأبيض بشكل دائم وكان رجلاً يميل إلى التأثير على أتباعه ومريديه والضغط على أعصابهم بالصوم الفجائي عن الطعام لأيام أو حتى لأسابيع أو ان يروعهم بالبقاء غائصا في مياه حمامه لفترات طويلة من الوقت. ولما كانت عبقرينه السياسية قد تفتحت في السنوات المضطربه المتعصبة من عقد الأربعينات، فإن بعضاً من أتباعه وكذلك عدداً من المراقبين أصبحوا في قلق متزايد من أن خطبه الوعظية التحذيرية إنما كانت تنتقل من مرحلة الهيستيريا إلى أولى عتبات الجنون.

غير أن شيباس - بحسب أقوال الشاعر الكوبي جويلرمو كابريرا فانتي - كان أيضاً «رجلاً جديراً بالإجلال حقاً، إنه ورِث ثروة ضخمة لكنه لا يهتم بالمال أبداً، إنه زعيم سياسي تحكمه وتدفعه فكرة منسلطة واحدة - الحاجة إلى النزاهة التامة في

المعاملات العامة. لقد عرف أن حظائر كوبا القذرة كانت في مسيس الحاجة إلى التنظيف والتطهير. وقد كان خطأه الأكبر أن يُصنف نفسه في زمرة الجبابرة وهو رجل لا قبل له وجدانياً بالدور الذي يلعبه ـ هو نفسه».

ومع ذلك، فقد بدى شيباس في أواخر عقد الأربعينات أنه مالك لزمام أمره بشكل عام كما كان يُنظر إليه باضطراد على أنه الرجل الذي من المؤكد سيخلف الرئيس كارلوس بريو سوكاراس ـ وقد كان شيباس في السابق نصيراً للرئيس رامون جراو، إلَّا أنه ـ شأن الكثيرين ـ قد خاب أمله في رئاسة جراو وكان ذلك في الأعوام ما بين ١٩٤٤ ـ ١٩٤٨. كان شيباس ـ بالرغم من مظهره البورجوازي ـ رجلاً متقد الحماس، وقد وظّف حماسه ذلك في الإيمان بأن على كوبا أن تتخلص من كل فساد. ثم راح يُنشيء حزبه الخاص به في معارضة حكم جراو، وهو الحزب الأرثوذكسي. وعندما أُنتخب بريو سوكاراس رئيساً في عام ١٩٤٨، تجدد الأمل في أن تكون إدارته إدارة نزيهة أمينة. وكان أملاً كاذباً. ففي غضون فترة وجيزة من تسلّم بريو لمنصب الرئاسة، كان رجاله دائمي السلب والنهب للأموال والممتلكات كما كانوا يحيون علناً في بذخ مستفز في بلد قوامه الكثير من الفقراء والمعوزين. بل إن بريو ـ الوسيم الهيئة، ذا الشاربين، الأنيق ـ قد عمّر منزله بـ «الحفلات البريئة» المفعمة بالكوكايين المستطرف من أحدث طراز، وبدافع من «شبق جامح» أحاط الرجل نفسه بنساء يرتدين قصار السراويل حتى في أروقة القصر الجمهوري، كما ظهر أخوه بلا حياء على شاشة التلفاز مع خليلته. وكان الأمر الأكثر سوءاً بالنسبة للكثيرين من الكوبيين الودعاء أن التاريخ الكوبي كان يعيد نفسه على نحو مضجر ممل، كما أن يأس الشباب واغترابهم الغاضب قد عادا الآن بقوة أشد.

أما شيباس، الذي كان معترفاً به من قبل كثيرين (ومنهم فيدل كاسترو) على أنه عبقرية العصر السياسية، فإنه قد تصادم مع نظام حكم بريو (وهو أمر لم يكن غير متوقع). وقد بدأ الأمر عندما قام أورليانو سانشيز آرانجو Aureliano Sanchez Arango ـ وزير التعليم في حكومة بريو ـ بنعت شيباس بأنه «بارع في تشويه السمعة، مستبد، غير مسؤول، عديم الوطنية، مغامر، كاذب، عديم النفع، تافه، مموّه للحقائق، إقطاعي، إنتهازي، بائس، عديم الشرف ورسول زائف للمين والبهتان، ديماجوجي، مفتري». كل هذا في خطبة واحدة فقط.

وقد ردّ شيباس على ذلك بأن اتهم أورليانو «بسرقة أموال المدارس الحكومية لشراء مزرعة كبيرة في جواتيمالا...». ولم يكن شيباس في الحقيقة يملك الدليل

على ذلـك ـ إن القول بمـزرعة في جـواتيمالا كـان محـض شائعـة ـ وسرعـان ما بـدأ البطلان يذهب بشيباس، الذي كان موضوعه الأثير بين شرفاء كوبـا الجياع. «الصدق والأمانة». إن «نـزاع» إيدي وأورلانـو قد غـدا مع كـل يوم أكثـر إسفافـاً، ثم تحوّلت آخـر الأمر إلى نوع من التسلية القومية الدنيئة، وذلك باستخدام شيبـاس لبراعتـه في وسيط قوي جديـد هو المـذياع في الهجـوم على خصمه. وقـد بـدا أن شيبـاس يدرك منـذ البداية أن من الممكن للإذاعات أن تكـون في المعترك السيـاسي حاسمـة كالأسلحـة في المعارك. وقد بدأ سلسلة أحاديث بالراديو في الثامنة من مساء كل أحد في محطة CMQ من هـافانـا، ولعله من المرات القليلة في التـاريخ، التي يكـون فيهـا لكـوبـا زعيم يسحر شعبه بحديثه، وكان الكوبيون في كل مكان يتوقفون تمامـاً عن أي شيء كانـوا يعملونه عندمـا يكون شيبـاس قد شـرع في حديثـه. وتردّدت كلمـاته النـارية من كـل نـافذة، حـاملاً على الفسـاد، ولا يمـل من قـول «الشـرف، الشـرف، الشرف». وفي المقاهي كانت الأحاديث تتوقف مع الكلمات الأولى لهـذا الرجـل الذي حـرّض على الغليان الباطني للأمة وعبّر عنه سواء بسواء. فلم تكن أحاديثه خـطباً سيـاسية طنـانة، وإنما كانت صرخات غضب أخلاقي ودعوة لا إلى الثورة بل إلى الخلاص. لقد كـان شيباس هو الذي بصر فيدل بما للراديو من فوائـد جمة. كمـا أن الراديـو كان بـالنسبة لشيباس نفسه أداة مثالية تماماً، إذ إن مـا للراديو من خـاصية الخلو من الشكـل وعدم التجسيم قد وقيا شيباس من مشكلة ضعف قوّته البدنية.

لقد بـدا ذلك الأحد، الخامس عشر من أغسطس، عام ١٩٥١ يوماً لا يختلف في شيء عن غيـره من أيام الأحـاد الأخرى، سـوى أنه في وقت مبكـر بعض الشيء فـوجيء المستمعون أن شيبـاس ـ هذه المـرة ـ لم يتجه بحـديثـه مبـاشـرة إلى قضيـة الفسـاد. فبدلاً من ذلـك، ـ وبينما هـو آخـذ في الحـديث، والنصـح، والضغط ـ إذا بالمتعامل البارع مع الوجدانات وقد عرض فجأة لموضوع من الغريب أنه قد سبق مـا حدث لفيدل فيما بعد من انحطاط في القوة وتدني في النفوذ فيمـا يتعلق ببلد صغير، إنها عظمة كوبا الكامنـة والمعاقـة. فكان يقـول: «ويرجـع ذلك لمـا لكوبـا من موقـع جغرافي، ولما في أرضها من ثروات، ولما لأهلها من فطنة وذكاء. إن التاريخ ليدخـر لكوبا دوراً قدرياً عظيماً».

وعند الختام ـ ختام الحياة وختام الخطاب ـ صـدرت عن شيباس صيحـة عاليـة محفزة إلى حد كبير، إذ قال «يا أنصار العقيـدة الفويمـة، إلى الأمام؟ إلى الاستقـلال الاقتصادي، إلى الحرية السياسية، إلى العدالة الاجتماعية، فلتأخـذوا مقشة واكنسـوا

بها اللصوص من أروقة الحكم؟ يا شعب كوبا، قم وتحرك، يا شعب كوبا، أَفِقْ؟».

لقد كان الكنس هو الرمز الذي استخدمه شيباس للدلالة على عملية إزالة الفساد، كما أن كلمة Albanazo، التي تعني حرفياً أن يطرق الطارق الباب طرقاً شديداً، هي كلمته المفضلة ـ لقد كانت مهمته ومقصده أن يطرق على ضمائر وعقول الشعب الكوبي النائمة أو المتهالكة. وكان الآن يقوم بقرع الطرقة الأخيرة.

وفي كلماته الأخيرة شبه المحمومة، صرخ إيدي العظيم قائلاً: «إن هذه هي آخر طرقة لي لإيقاظ الضمير الوطني للشعب الكوبي...». ثم أطلق الرصاص بنفسه من مسدسه على بطنه. وكان من السن في الثالثة والأربعين.

وكان يقف بالقرب منه، ولكن لم يره وهو يخرج مسدسه، واحد من معاونيه الرئيسيين هو خوسيه باردو لادا، صديق فيدل القديم الوسيم الشجاع ذو الخمسة والعشرين ربيعاً. وقد قال لي باردو: «لقد أنّبت نفسي طيلة حياتي، معتقداً أنه كان بوسعي أن أمنعه».

وفي زمن كوبا المعاقة كان من الصعب توقّع أن يكون أي شيء سائراً على ما يرام بحيث إن انتحاراً كان ليتم كاملاً غير منقوص، إذ عندما شدّ شيباس زناد المسدس كان البث قد توقف وانقطع تماماً. فربما ما كان عليه من مزاج عصبي متوتر وما كان قد أضمره في ذلك اليوم، قد أنساه أنه كان قد دفع أجر عشرين دقيقة بث على الهواء، لا أكثر. وقبل أن يدوي صوت الرصاص بدقيقتين أو ثلاث، كان مهندس الصوت قد قطع عنه الإرسال ليذيع سلسلة من الإعلانات التجارية، يعلن أحدها عن شراب قهوة قائلاً إنها «لذيذة للمعدة المملوءة عن آخرها».

وفي الهلع والذعر الذي تلى ذلك، كان خوسيه باردو لادا وأربعة آخرون من المعاونين هم الأناس الوحيدون الذين بقوا إلى جوار الجثمان المضرج بالدم. وقد قام هؤلاء الخمسة المشدوهون المصعوقون بحمل إيدي شيباس الذي كان لا يزال حياً إلى الشارع. ومن غريب الأمر أنه قد كان في إنتظارهم منذ وقت هناك فيدل كاسترو. وقد تحرك بهم فيدل في سيارة شفروليه، واتجه رأساً إلى المركز الطبي. وحكى باردو لادا فقال: «كان فيدل هو الشخص الذي كانت بحوزته سيارة. وعندما لفظ شيباس آخر أنفاسه، كان لدى فيدل سبع خطب جاهزة ذلك لأنه كانت هناك سبع محطات إذاعة. كما أنه قام على إعداد مئة من النسوة العجائز اللائي قمن بالندب والنياحة طيلة هذه الأيام خارج غرفة شيباس».

أبطأ الموت على شيباس أحد عشر يوماً، وفي غضون هذه المدة كان كما لو أن البلاد قد حبست أنفاسها. ولم يتحدث أحد إلاَّ عن ذلك الخطيب الأثير إلى القلب الذي يتعذب الآن من أجل شعبه على غرار المسيح. فيما عدا أن «صلب شيباس قد اتخذ صورة الانتحار بالميكروفون» وذلك بحسب كلمات كابريرا ـ Cabrera. وأخيراً، وفي اليوم السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٥١، رحل إدواردو شيباس ـ أمل كوبا العظيم ـ إلى عالم الأبدية.

وعلى مدى هذه الأيام كلها، لازم فيدل إلى جوار فراش الرجل دون أن يغمض له جفن وهو ـ في الواقع ـ ما أحسّ تجاهه إلاَّ بولاء لا يخلو من تناقض ومراعاة كبيرة للمصلحة الذاتية. ثم اندفع فيدل الآن قافزاً إلى الأمام. أين يجب أن يرقد رسمياً الزعيم الموقّر الذي أحنى عليه القدر؟ لقد أمضى زعماء الحزب الأرثوذكسي زهاء أربع ساعات يتجادلون في هذا الأمر. وأخيراً، تقدم فيدل ـ الذي لم يكن إلاَّ واحداً من الشباب الصغير المتحمس لشيباس والذي حتى لم يكن شيباس يحبه ـ وأمسك بزمام الموقف ببساطة. فأصرّ على ضرورة أن يكون ذلك في الجامعة، وفي الساحة الكبرى منها. وكانت هناك مبررات وجيهة لذلك. فلم يكن بمقدور الشرطة الدخول إلى الجامعة، كما كان من الممكن الذود عن رفات الرجل ضد «عبث» قد يحدث من جانب حكومة بريو. ومن ثم فإنه لم يكن من المسقط من الحساب أن القرار قد خوّل فيدل ونفراً آخرين من زعماء الطلبة حق الإشراف على جنازة شيباس. وكان فيدل هو الذي صمد واقفاً لأربع وعشرين ساعة في الساحة الكبرى المهيبة بالجامعة بجوار تابوت الفقيد، كفرد من أفراد حرس الشرف. وتبرزه صحف هافانا في صفحاتها الأولى، رابع الواقفين بجوار التابوت، شاخصاً ببصره نحو الأرض. إن الرجل الذي أسماه رفاقه ذات مرة باسم «كتلة الشحم والزيت» قد ارتدى الآن بذلة رمادية رسمية مبالغ في مظهرها ورباط عنق، على حين ارتدى معظم الاخرين قمصاناً بيضاً غير رسمية. وقد بدا فيدل الأعظم والأعمق حزناً، ومن المحتمل ـ مع ذلك ـ أنه قد كان كذلك بالفعل.

ولما حان وقت الانتقال بجثمان شيباس إلى المدافن ـ مع وجود ما بين مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف كوبي خارج الجامعة ـ قام فيدل إلى صديقه خوسيه باردو لادا طالباً أن يتحدث معه على إنفراد وانتحى فيدل بباردو في أحد أركان الساحة الكبرى وهناك كشف عن أنهم كانوا غير ذاهبين برفات شيباس إلى الجبانة. إذ أوضح فيدل قائلاً: «إننا سنعمل على الاستفادة من مظاهرة الحزن الكبيرة، فعندما يكون لدينا مثل

هذا الجمع الغفير من الناس فإننا نذهب ونحمل الجثمان إلى قصر الرئاسة».

علت الدهشة باردو قائلاً: «إلى القصر الجمهوري، ولماذا؟».

أجابه فيدل: «للاستيلاء على السلطة، وستعلن نفسك رئيساً للبلاد، أما أنا فسأكون قائداً للجيش. إننا نقدم بذلك لشيباس بعد موته إشباعاً لرغبته في إزالة نظام حكم بريو. وإني لأؤكد لك، أنه إذا ما حُمل الجثمان إلى القصر الجمهوري، فإن بريو سوف يلوذ بالفرار من كوبا. إذ لا بدّ للجبان من أن ترتعد فرائصه فرقاً ورعباً».

وقد قال لفيدل ـ والرواية نقلاً عن باردو ـ «إسمع يا فيدل، دع عنك هذا الجنون واعلم أنه ستكون بالمدفن مسيرة عسكرية، كتيبة من الجيش للتحية العسكرية وأن قوات الشرطة كلها محدقة بالأحياء. وهم قادرون على قتل الآلاف من الناس إذا ما قرّ قرارنا على مداهمة القصر الجمهوري. إني لن أتحمل مسؤولية مذبحة كهذه...».

ولا يزال فيدل مصراً، وهو واقف هناك في عناد وهو في بزته الأنيقة عابثا بشاربه النحيل الرفيع، قائلاً «انني أقول لك إنهم لن يفعلوا أي شيء. ليس بوسعهم أن يُطلقوا ولا حتى طلقة واحدة. إنهم جميعاً جبناء: الرئيس والجيش والشرطة والحكومة، كلهم. دعنا نأخذ شيباس إلى القصر الجمهوري ونجلس الميت على كرسي الرئاسة».

وكانت عبارة «وأن نجلس الميت على كرسي الرئاسة» هي التي جعلت باردو «يقاطع الحوار»، وفي الختام قال: «لم يعد لديك المزيد لتقوله يا فيدل، وإني آخذ شيباس إلى جبانة الدفن».

وهكذا رافقت الجموع الصامتة أمل كوبا العظيم ليمكث في جبانة أخرى من مخاوفهم، ليدفن في الأرض بدلاً من وضعه في القصر الجمهوري لتبدأ ثورة. غير أن فكرة فيدل عن حمل الأجساد إلى القصر الجمهوري لتحقيق الغلبة بسرعة وإلى الأبد لم تُدفن مع إيدي شيباس فهي إجراء تكتيكي يشي بالكثير عن تفتح وعيه على فكرة الإمساك بزمام السلطة. فلقد كان دائم الإزدراء للعمل العسكري المباشر. إذ بدلاً من ذلك، كانت براعته في قدرته على الإمساك بزمام الأمور عن غير طريق الإجراءات التقليدية بل عن طريق تنويم الجماهير مغناطيسياً ـ دور الجماهير ـ وذلك من خلال أعمال عصيان مسلح مؤثرة تكتيكية.

وفيما بعد بسنوات، في عام ١٩٥٥، تحدث باردو لـلادا إلى كارلـوس بريـو - وقد أصبح الرئيس السابق - في مونتريـال. فقد قصّ عليه باردو القصـة وسألـه ما إذا كـان سيعطي الأوامـر حقاً بـإطلاق النـار لو أنهم كـانـوا قـد حـاولـوا احـمـل «مـوجـة الجماهير» إلى القصر الجمهوري «مع الجثمان محمولاً كالراية». عندئذ أجـاب بريـو في بطء وتؤدة: «لو كنت قد علمت بالأمر، لكـان لك أن تكـون على ثقة من أنني مـا كنت سـآمر قط أي فـرد بإطـلاق النار ضـد شعبي. وما كـان بوسـع أحد القـول بـأن حكومتي كانت تتعرض بالقتل لأي أحد».

وعـلاوة على ذلـك فقـد اكتشف بـاردو أن الكـابتن مـاكسيمـو رابلو Maximo Rabelo - الذي رافق القوات إلى مدفن شيباس - لم يكن يحمـل إلاّ خراطيش فـارغة وكانت لديه تعليمات مشددة من الرئيس بعدم التدخل في حالـة وقوع أي اضـطراب، ذلـك لأن بريـو كان - من جهـة - جبانـاً، وأنه - من جهـة أخـرى - كـان في رعب من حـدوث حرب أهليـة. وقد اكتشف بـاردو - علاوة على ذلـك - أن روبرتـو ڤيـرداجيـر Roberto Verdaguer - وهـو مرشـد ملاحـة جويـة عسكريـة - قـد أزاح السـتار - بعـد أعوام خمسة من مصرع شيباس - عن أنـه في عصر ذات اليـوم كان الـرئيس بريـو قد حزم حقائبه وأمر بتجهيز طائرة للخروج به من البلاد في حالة مـا إذا تمخضت الجنازة عن حـركة عصيـان شعبي. ولم تكن هذه هي المـرة الأولى - كمـا لم تكن الأخيـرة - التي ثبت فيها أن استبصـار فيـدل الـذي ينـد عن التصـديق بـالممكن من النـاحيـة التكتيكية - والذي كان يبدو لكل من سواه أمراً غير ممكن - دقيق دقة فائقة للطبيعة.

وبعد سنوات عدة قام خوسيه بـاردو للادا بـالتعليق على عالم القـدرة السياسيـة الهام أساساً الذي شـارك فيه شيبـاس وكاسـترو في تلك السنوات. قـال لي: «اللعب بـالأفكار؟ مـا أبرع فيـدل في هذا الأمـر. ولا تنسى أنه قد كان لـديـه أستـاذ بـارع: شيباس. ولا تنسى أننا قد كانت لدينا في كوبا صحافة على غرار الموجودة في أمريكا تماماً. لقد شاهـدنا درو بيـرسون Drew Pearson. وقـد تعلمنا هـذا عن أهل أمـريكا الشمالية وليس عن الإسبان، الذين تعلمنا منهم الفلسفة. وكان لخوان بيرون قدر كبير من هذه المهارة ذاتها». توقف هنيهة، ثم أضاف قـائلا: «لقـد تعلمت من بيرون ومن كاسترو - لقد كنت تلميذاً لاثنين من الجبابرة».

في تلك الاونـة كانت حيـاة فيـدل الشخصيـة قـد أصبحت من الفـوضى بقـدر فوضى واضطراب حياته السياسية. كانت ثمة مع فيدل وميرتا وفيـدليتو مشـاهد وادعـة نادرة في البيت تبدو هانئة من الظاهر. إلاّ أن هذه المشاهد كانت آخـذة في أن تكون

أقــل فأقل. فقد أعمل تشينو سكويڤل ذاكرته متوقفاً عنـد واحدة من الشقق السكنيـة الرديئة التي كانت لهما (فيـدل وميرتـا)، وكانت هـذه الشقة في كـالي Calle رقم ٣، وفي الثامنة من إحدى الأمسيات كـانت ميرتـا هناك تبـدو متألقـة وقد راحت تـطهو في دأب وهمة، وشرع شينو في اللعب مع فيدليتو الصغير، الذي كان وقتها حـديث عهد بالمشي. وكان فيدل في الروب المنزلي، ويرتـدي أحذيـة سوداء عليهـا جوارب بُنيـة اللون، وأراد منه شينو أن يذهب معه إلى اجتماع سياسي. وقد رفض فيدل ذلـك في البـداية، في محـاولة منـه لأن يبـدو أنــه يتخـذ هيئـة الـزوج المخلص لبيتـه والأب الحادب على ولده. ولكن ـ وفي ذات اللحظة ـ كان هناك خبر ينطلق به الصـوت في المذياع ـ إذ كانت هناك محاولة اغتيال استهدفت حياة رولاندو ماسفيرر البغيض. فإذا بفيدل وقد ارتـدى ملابسـه على عجل وسـرعان مـا غادر هـو وتشينو، تـاركين ميرتـا ـ كالعادة دائماً ـ مع عشاء لم يقربه أحد ومع الصغير.

كـانت بلانكـا دل ڤالي Blanca Del Valle إمـرأة لطيفـة ذكية وواحـدة من بين كثيرين ممّن أعانوا أسرة كاسترو ماليا خلال تلك الفترة، خصوصاً ميرتا التي طـال بها العذاب وكثر، وكـانت بلانكـا وزوجها فـرنانـدو Fernando من النشطين في العمـل السيـاسي للحزب الأرثـوذكسي، وكان فيـدل يفضل شـراء بعض الأغراض من متجـر معين، وكـان على بلانكـا أن تسـدد الفـاتـورة. ولكن كـانت بـلانكـا أيضـاً هي التي تـوسطت في عقـد الصلة ـ وعلى أي مستوى ـ بين فيـدل ومن كان سيصبـح «عـامـلاً أساسياً» آخـر في بلوغه إلى السلطة ـ وأعني بـه التصوف الهنـدي البدائي والتصـوف الكوبي ذي المنشأ الإفريقي الأسود والأساطير والحكايات الشعبيـة، وهي الأمور التي أفاد منها كثيراً فيما بعد وببراعة فائقة في التعامل مع الديانات القبلية في مناطق توسعه الدولي.

في يوم من الأيام اصطحبت بلانكا فيدل إلى مغارة الهنود في منطقة غابة النهـر Pinar Del Rio وهو مكان يمارس فيه السحر ويلفه غموض قدامى الأراواك Arawak والكاريب Caribes الذين اندثروا من أمد بعيد والذين كانوا أول من شرَّف جزيرة كوبا هذه. إن جماعـة مغارة الهنـود قد ارتدت إلى المعتقدات القديمـة الخاصـة بالسكـان الأوائل للجزيرة.

غير أن هذه الجماعة قد عكست أيضاً مبتـدعات البشـر منذ عبـادة الأيقونـات، الأفرو ـ كوبية الواسعة الانتشار. وقد راقت لفيدل نوعية الأساطير والشعبيـات السائـرة بين أوساط الشعب الكوبي بوصفها أداة فاعلة في التعامل مع الجمهور الكوبي، غيـر

أنه كان من المحتم أن تروق هذه الأمـور لفيدل على صعيـد اخر كـذلك، ذلـك لأن فيدل كان دائم البحث عن أيـديولـوجيا تتيـح إحكام القبضـة، لفد كـان يبحث ـ بنوع خاص ـ عن المسوغ والصيغة اللذين يدعمان رغبته في السلطان والقوة.

وفي الفترة التي شهدت مصرع شيباس، كـان راؤل يعيش مع ميـرتا وفيـدل في واحدة من العمائر الشاهقة في هاڤانا، حيث كـان يسكن أيضاً والـدو Waldo ـ شقيق ميرتا الأصغر منها والأقرب إلى قلبها ـ وشقيق آخـر كذلـك هو فـرانك Frank . وقـد وجد والدو ـ حتى ذلك الحين ـ فروقـاً مذهلة بين الأخـوين كاسـترو، وهي فروق قـد فسـرت الكثير فيمـا تلى من سنين. إذ حكى والدو ـ فنـان الأسرة ـ قـال: «قبـل عـام ١٩٥٢ بثلاث أو أربع سنوات، سكنتُ مع ميرتا وفرانك وفيدل في بيت واحد. وكـان بيتاً من ثلاثة أو أربعة طوابق، كان بيتا من القرميـد يعلوه الملاط. وأنـا لراؤل صـديق حميم». ثم توقف والدو هنيهة عن الكلام، ذلـك لان هذه الأمـور كانت قـد انقضت منذ سنوات كثيرة، قبل أن يكون في مدريد، وكان قد استخدم صبغة الفعل المضارع في تصوير واسترجاع تلك النظرة الغريبة والدائمـة التي كان يطالعها أولئك الأخوة في وجـه كل فـرد. ثم أردف قائـلاً في أسى وحزن: «إنني لم أره منـذ خمسـة وعشـرين عاماً».

واستطرد مستأنفاً موضوعه: «لقد كان لكل واحد غرفة النـوم الخاصـة به، وقـد سكنت أنـا وراؤل على السطح في أعلى المبنى. ولا بـدّ لك أن تـدرك أنه قد كانت ثمة فروق كبرى ما بين فيدل وراؤل. ففيدل كان شديـد التسلط مستبداً شديد التـنظيم كمـا كان لـه شيعة وأتبـاع. لطالمـا نظرت إليـه كمتسلط مستبد ـ فـإنك كنت إمـا مع فيـدل، أو أن تضرب صفحـاً عنه؟ كـان دائم التعقب لما أراد دون أن يـأبه لأي شيء آخر. ولذلك فأنا لم أتحدث إليه قط. أما راؤل فقد كان أكثر معقولية. فعندمـا وطأت قدماه أرض هافانـا، كان في الثـامنة عشـرة من عمره تقـريباً. كـان راؤل طُلعةً محبـاً للعلم، شـديد الـولوع بعلم الاجتمـاع، شديـد الاهنمام بـالمذهب الشيـوعي، مهتماً بقضية العدالة. كان راؤل نهماً للعلم والمعرفة، نهماً إلى تقرير الأمر كله، وقد أعطاه الشيوعيون كل شيء. . . وكان فيدل في نظر راؤل أداة لتحقيق الشيوعية».

وإنـه ليحلو للكثير من المحللين السيـاسيين أن يتلاعبـوا بفكـرة أنـه لـو كـانت الـظروف قد سـارت سيراً مختلفـاً لكان من الممكن تمـاماً لفيـدل كاسـترو أن يصبـح نصيراً للديمقراطية أو حتى رأسماليـاً من طراز مـا، وبالتـالي كان سيصبح عنصراً أكثر حياداً تجاه الولايات المتحـدة، هذا إن لم يكن ـ بـالدقـة ـ حليفاً متحمسـاً لها. وفي

ذلك الحين ـ أيضاً ـ كان قد تمّ له الحصول على درجة علمية في القانون وأمكنه أن يفيد منها قدراً من المال لا بأس به. فما الذي فعله بدلاً من ذلك؟

لقد صُنع الكثير استثماراً لواقعة ممارسة فيدل للمحاماة في مكتبه القانوني الصغير القائم في أسبيازو Azpiazu، مكتب كاسترو وروزندي Rosende، في ٥٧ تيخاديللو Tejadillo في القطاع القديم الفاتن من هافانا قريباً من منطقة أحواض السفن. والحقيقة هي أنه لم يترافع إلاّ في اثنتين من القضايا الغامضة وقد أظهر عجزاً صارخاً في الإلمام «بالقانون» بشكل جوهري. (إن أحد زبائنه، وكان صانع تماثيل، وأعطاه أتعاباً عن قضية قانونية كان يباشرها له، تمثالاً لخوسيه مارتي، ذلك الذي قام فيدل على حراسته منذ زمن بعيد كما عمل على الإبقاء عليه طويلاً في مكتبه). بل إن الأمر الأكثر تضارباً من محاولاته في عالم القانون هو الحقيقة التي تقرر أنه قد كانت لمؤسسته القانونية ـ كاسترو وروزندي ـ شركة تأمين على الطراز الأمريكي، وهي مؤسسة ثانية صغيرة، وقد أعلنت لافتتها المعلقة على مقر المكتب القانوني أن ديكتاتور كوبا «الشيوعي» المقبل هو المالك الجديد بالاحترام لشركة تأمين «حماية الدار» Protect home. وليس ثمة دليل على أن فيدل ـ الذي تعلقت رغبته بتدمير الدولة الكوبية التقليدية ـ قد أعطى أي قدر من الوقت البتة في محاولة لبيع بوليصة تأمين تحافظ لأي فرد على هذا الوضع أو تحفظه عليه.

ومع ذلك، فإنه لمن الحق أن فيدل ـ من بعد مصرع شيباس عام ١٩٥١ ـ كانت قد تولدت في نفسه رغبة جامحة لم يطل بها الأمد في أن يقرر السعي لأن يصبح عضواً برلمانياً Pepresentante ضمن قائمة المرشحين عن الحزب الأرثوذكسي.

وقد ذكرت شقيقته خوانيتا Juanita ـ الدائمة النقد له ـ «أن قد كان الوالد هو مصدر تمويل تلك الحملة الإنتخابية». شأن الحال دائماً. وعلى كل فإن قيادة الحزب الأرثوذكسي لم تعطه دعمها أو تضعه في صدارة المرشحين، ذلك لأنه كان قد عُرِف عنه في وقت سابق أنه شديد التطرف وأنه مارق عن عقيدة الحزب، بحيث أن فيدل سرعان ما امتد ـ مرة أخرى ـ بطاقته الحيوية التي لا تعرف الكلل وعمل على خلق أو إيجاد عالمه السياسي الخاص به.

وفي وقت لاحق حكى فيدل قائلاً: «لقد أوجدت عدداً من مناهج وأساليب العمل السياسي التي أثبتت فعاليتها الكبرى. لقد كان هناك الكثيرون من أعضاء. . . الحزب ممّن لم يكونوا منضبطين بآلية الوسائل والنظم، خصوصاً في دائرة هافانا.

وقد ركزت جهودي على الإمساك بهؤلاء الناخبين والإستحواذ عليهم. . . ».

وقد استولت الدهشة والعجب على خوسيه باردو لادا من جهة الإصرار الذي باشر به فيدل هذه المعركة الجديدة. ففي أعقاب موت شيباس مباشرة، وقبل ما يقرب من عام كامل على انتخابات ربيع عام ١٩٥٥، ظهر فيدل في مكتب باردو لادا وفي معيته راؤل، «شقيقه الذي لا يفارقه»، وطلب الإطلاع على أرشيف الحزب وسجلاته الخاصة بالأعضاء عن دائرة هافانا.

وقد سأله باردو «وماذا عساك فاعلاً بهذا الأرشيف؟».

«لسوف أكتب خطاباً شخصياً إلى كل عضو من الأعضاء ثم سأرتب زيارة لهم من بعد ذلك».

«وهل تراك تدري كم عدد الأعضاء المنتمين إلى الحزب في هذه الدائرة؟».

«لست أدري، غير أني أؤكد لك أنني سأكتب إلى جميعهم وأنني سأزورهم جميعاً».

وفي وقت لاحق حكى صديقه ماكس ليسنيك فقال: «لقد قام بحملة انتخابية خرافية. فقد قام بإرسال ما يقرب من مئة ألف خطاب، مئة ألف؟ لقد قام بطبعها على آلة الإستنسيل كما دفع برسائله لتُطبع على صورة خطابات مكتوبة بالحبر الأزرق كما لو كان قد كتب لكل واحد منهم بطاقة معايدة شخصية بواقع واحدة لكل واحد من أعضاء الحزب. تأمل، أية فكرة ألمعية هذه وعندما قاموا بفضّ المظروف طالعتهم بداخله بطاقة المعايدة في مدادها الأزرق، وقد ذُيلت بإمضاء كاسترو، على غرار البطاقات الشخصية. إن هذا لم يحدث قط من أي امرىء في كوبا. . . ». لقد امتلأ ليسنيك حماساً وإعجاباً بأساليب صديقه لهذه الفترة. بل لقد ذهب فيدل إلى ما هو أبعد من ذلك حيث رأى أن يشتري سيارة تشبه سيارة باردو لادا تمام الشبه ليدخل في روع الناس أن باردو ـ الذي كان ذا شعبية واسعة ـ كان في نصرته وتأييده.

لم يكن فيدل يدركه الكلل حقاً. لقد تحدث في ليلة واحدة في اجتماعين وثلاثة وأربعة. كان يهب من نومه في الخامسة صباحاً وكان يطوف بسائر أرجاء الدائرة الانتخابية. وقد جذب إليه النساء بشدة، كذلك وبشغف تام كان العجائز وكبار السن، وليس فقط سكان المناطق الحدودية أو «المناطق الخارجية» الذين اشتد اعتماده عليهم في ما بعد. وقد تساءل ليسنيك في تكلّف عن السبب في ذلك؟ ثم رد قائلاً: «إن ذلك يرجع إلى أنه كان صغير السن لكنه بدا في طريقته في الحديث أنه

رجل أفكار وذو موقف شجاع».

أتراه قد آمن حقاً بالديمقراطية ـ كنظام ـ أو ما الذي أسقطه منها؟ أتراه قد آمن بالنظام، أو بأن كوبا كان من الممكن خلاصها؟ من الواضح أنه كان شديد الاهتمام بالحركة الديمقراطية الانتخابية في الحدود التي تؤدي إلى إحراز الهيمنة الشخصية أكثر من اهتمامه بها في الحدود التي تؤدي إلى خدمة الدولة، الأمر الذي لا يدعو للدهشة مفترضاً ضروب الإحباط وخيبة أمل العصر. وفي وقت لاحق تحدث فيدل بصراحة عن تلك الفترة إلى المصور لي لوكوود Lee Lockwood. فقد قال للمصور الصحفي الأمريكي «لقد كنتُ فيما مضى أعمل بحماس رجل ثوري متقد. ثم ـ ولأول مرة ـ وقع لي إدراك خطة أو استراتيجية من أجل الإمساك الثوري بالسلطة. فقد قمتُ في البرلمان ـ ذات مرة ـ بكسر قواعد النظام الحزبي وتقديم برنامج . . . فباقتراح برنامج انطوى على الإقرار بأكثر آمال الجماهير المشعور بها بعمق، أملتُ في أن أؤسس منبراً ثورياً تتحرك من حوله الجماهير العريضة للفلاحين والعمال والعاطلين والمدرسين والمفكرين والقطاعات التقدمية الأخرى في البلاد. . .

ومن الطبيعي أن يكذب فيدل. لقد قارف الكذب طيلة حياته، وإن كان هو لا يرى أكاذيبه أكاذيباً. فبما أن كل شيء يدور من حوله هو ومن حول تصوره هو عن الواقع فإن كل ما يراه أو يقوله في أية لحظة من اللحظات هو الحق بالضرورة. وثمة أوقات أخرى عندما تكون فيها «رؤيته للأحداث» ـ الآن أو في الماضي ـ لا تتناسب إلّا مع واحد من مقاصده السياسية أو مع مطالب أمنه الداخلي، ومن ثم فليس من داعٍ يدعو المرء إلى الظن أن هذه الرؤية تفسير معرب عما يباشره من أمر. ولكن يبدوـ كحقيقة واقعية ـ أن الأمر صواب حق. كانت الانتخابات الرئاسية تُجرى مرة كل أربع سنوات، ومن المنطقي أن نفترض أن فيدل كان يعد العدة من أجل ذلك المستقبل السياسي.

في هذه الآونة كان فيدل قد صوَّر أو أظهر أيضاً جانباً آخر من مهارته التكتيكية ـ وهو النهج الذي عمل به، عند كل مفترق، على تطهير ماضيه وإجلاء ساحته، على نحو يكاد يشبه شاشة كومبيوتر «يُعاد تجهيزها» من أجل عملية استخدام مقبلة. ولقد حان الآن تماماً وقت محو الوصمة الدموية الكبرى التي رانت على سجله «السياسي»، أن يطهر ساحة سمعته الخربة كرجل عصابات وقاطع طريق. وفي المرحلة الخصبة المليئة بالنشاط والتي سبقت الانتخابات التي تمّ الإعداد لها ـ أي منذ خريف عام ١٩٥١ وحتى ربيع عام ١٩٥٢ ـ راح فيدل يتحرك بنشاط على

مستويين. فأولاً، آنبرى علناً لمهاجمة حملة المسدسات في دوائر الجماعات والأحزاب، دالاً على أسماء وأفعال حتى في دائرة جماعته هو جماعة الاتحاد الثوري للعصيان .U.I.R وثانياً، راح فيدل يهاجم كارلوس بريو. ففي واحد من أكبر الاستقصاءات والتعريضات جرأة في تاريخ كوبا كله، راح فيدل يكشف عن الروابط والعلاقات بين إدارة بريو والجماعات الإرهابية. أضف إلى ذلك أنه أراد أن يفضح الحياة التي يفوق بذخها كل تصوّر والتي عاشها بريو في ڤيلته الشهيرة La Chata والتي أتى على وصفها الكاتبان وارن هينكل Warren Hinhkle ووليام وترنر William W.Turner بأنها «جنة عدن مصغرة وقد جاءت على وصف يقصر عنه إنتاج باسباي بيركلي Busby Berkeley الأدبي».

في هذا الفردوس الإستوائي، القابع على بُعد عشرين كيلومتراً من هافانا، قام فيدل ـ متخفياً في زي بستاني ـ بالتقاط صور فوتوغرافية للنافورات ولساحة الرماية والشلال الصناعي الذي يزأر منصباً في قلب بحيرة ضخمة أُعدت للسباحة، كما التقط صوراً لبريو اللطيف وهو يتجاذب أطراف الحديث مع ضيوفه. وفي الأسبوع التالي، وكان منتصف شهر فبراير من عام ١٩٥٢، صدرت جريدة «الإنذار» Alerta اليومية وقد نشرت الصور الفوتوغرافية على صفحاتها مصحوبة بعنوان استشاري بارز يقول «هذا هو النحو الذي يعيش عليه الرئيس بالأموال التي سرقها من الشعب».

وقد اتهم فيدل بريو بتوزيع ثمانية عشر ألف دولار كل شهر على الجماعات الإرهابية، كما اتهمه أيضاً بأنه قد تورط «في بيع وشراء عمليات الاغتيال». وفي وقت لاحق كتب باردو لادا أن هكذا «كان فيدل ـ الذي هو شريك آثم لسائر قطّاع الطرق واللصوص ـ يوجّه الاتهام الآن إلى أولئك المجرمين، بما في ذلك رفاقه في جماعة الاتحاد الثوري للعصيان. . .». في هذه الآونة لم يكن هناك أحد قد قدم مليماً واحداً لمعيشة المحامي الشاب. . . وقد حكم رفاق فيدل عليه بالموت مباشرة، الذين تولاهم الحنق أمام اتهامهم بأنهم في عداد المرتكبين «للخيانة العظمى». وكما هو معروف عن فيدل دائماً أن الجرأة تحمل في طياتها دواعي أمنها وسلامتها. هكذا كان حجم الجرأة أو الاجتراء لدى كاسترو ذلك لأن عدم التناسب القائم في صميم التحدي قد أفاد كنوع من الحماية أو الضمانة الشخصية. فلم يجسر أحدٌ على فعل أي شيء.

وقد رسمت هذه الفترة من خريف عام ١٩٥١ وحتى الانتخابات المحيطة في ربيع عام ١٩٥٢ نقطة تحول هامة في حياة فيدل. فلقد كان، خلال هذه الفترة

الـوسيطة، المـالىء الحقيقي للفـراغ الـذي خلفـه شيبـاس ليس فقط على المستـوى النظري فحسب بل والعملي أيضاً. وقد بدأ الكوبيون ـ على نحو لا شعوري تقريبـاً ـ في تحويل وجهة آمالهم إلى المقاتل الشاب الذكي الشـريف. رجل العصـابات؟ من الـواضح أن ذلـك كان مستحيـلاً. لقد قـام هو بنفسـه بشجب الجماعـات الإجراميـة والتبليغ عنها. إن كونشاتا فرنانديز Conchata Fernandez ـ الذي كـان أولاً السكرتيـر الشخصي لشيباس ثم في السنوات الأخيرة السكرتيـر الشخصي لفيدل ـ قـد حكى أنه عندما كان فيدل يظهر في تلك الأيام في حشد من النـاس فإنـه كان يلوح بنسخـة من جريدة «الإنذار» Alerta تعريضاً مع الصور الفوتوغرافية الخاصـة بمزرعـة بريـو «وفي غضون خمس أو عشر دقائق، كانت الساحة تغص بالجماهيـر وكان ذلـك يرجـع إلى قـوة الجـذب المغنـاطيسي التي كـان يملكهـا، بحيث إن سـائـر الجمـوع المـطلوب تواجدها كانت تقف مصغية له. . .».

وبينمـا كـان ذلـك كله رهن الحـدوث، لم يكن من أحــد يـراقب تحــركـات نولجنسيو باتيستا اللهم إلاَّ فيـدل نفسه. فلم يكن مصـرع شيباس الـذي جاء في وقت غير مناسب في عام ١٩٥١ إلاَّ ـ في نهاية الأمر ـ إنذاراً بآخر الضربات الموجعـة التي نزلت بساحة الديمقراطية في كوبا، كما تمثل ذلـك في الإجراء المضـاد الذي قـام به باتيستا ضد الانتخابات التي كان قد سبق الوعد بها للعام التالي في كـوبا. فقبل يوم الزحف ذاك من عام ١٩٥٢، كانت الديمقـراطية لا تـزال نشطة عـاملة في كوبـا وكان لها رجل رقيق الحاشية اضطلع بمهام الرئاسة وكان قادراً على معالجة الفساد والشذوذ السائر والغاضب. فمن بعد هذا اليوم لحق الـدمار بـالديمقـراطية الكـوبية كمـا يلحق بالبطل التراجيدي في الأعمال الشكسبيرية، فمنذ تلك اللحظة فصاعداً، فإن جميـع تلك الأعـوام «والأجيال»، من الكفـاح البطولي لم تكن إلاَّ مقـدمـة تـاريخيـة. وعلى الرغم من أنه ما من أحد ـ بطبيعة الحال ـ كان بوسعه أن يعـرف الأمر وقتهـا. إن عام ١٩٥٢ في كوبا إنما سيتردد صداه في العالم في حقبـة السبعينات. بعـد عام ١٩٥٢ بكثير أصبح الرد المتطرف أمراً لا مندوحة عنه في كـوبا. فقـد أصبح عـام ١٩٥٢ هو العـام المقابـل لإحباط ويـأس عام ١٩٧٢ في ڤيتنـام وإحباط ويـأس السلڤـادور عـام ١٩٧٧ وإيران، وعام ١٩٧٨ في نيكاراجوا ـ كلها لحظات أو فترات حلّت قبل مـرحلة الختام السياسي، في وقت كان فيه الأمل قد ضـاع وتبدد، وهي كلهـا اللحظات التي كان فيدل كاسترو يعمل وقتها على تنسيقها أو على دعمها.

وبعد وصول كاسترو إلى السلطة وسُدة الحكم، لم يحدث أنه قد ذكر قط إدي

شيباس علناً أو على الملأ، وفي كوبا اليوم ذهب الاسم تماماً أدراج النسيان، ولا تراه موجوداً في معظم كتب التاريخ هنالك ومع ذلك فقد كان ثمة في صمت فيدل المتواصل إزاء شيباس زلة موحية. فبعد تمام زحفه على هافانا في عام ١٩٥٩، وبعد استيلائه الكامل على السلطة، كان من عادته أن يذهب في كل يوم إلى مقر مجلة بوهيميا Bohimia ذات الشعبية الواسعة، حيث يقوم شخصياً بمراجعة الأخبار ويعدل أي شيء لا يروقه.

وبينما كان يتحدث ـ ذات يوم ـ إلى المحرر ميجيل آنجيل Miguel Angel Quevedo، كان أولئك الذين حجبوا عيون الصقر المثبتة في إصرار على الرجل الآخر بغتة أو على نحو مفاجىء. وفي الخارج، في مكان غير محدد، وجّه هو إلى ميجللو السؤال قائلاً «أترى أن شيباس كان أكثر عظمة مني؟».

الفصل التاسع

الحركة

«لقد ولدنا معه»
ـ ميلبا هرنانديز

كان فيدل نائماً في منزله في هافانا في هذا الصباح المبكر من يوم ١٠ مارس ١٩٥٢ حين اندفع صديق مسرعاً إلى شقته يحمل أخباراً عن انقلاب باتيستا غير المتوقع. وخوفاً من القبض عليه، فرّ فيدل في ساعات الفجر الأولى إلى شقة أخته غير الشقيقة الأكبر منه، ليديا، وهي امرأة هادئة مخلصة بقيت دائماً أقرب شقيقاته إليه. وكالعادة كانت غرائزه لا تشوبها شائبة. وبعد ساعات قليلة، في منتصف الصباح، والإنقلاب بالكالد يعزّز، ظهر رجال البوليس السريون في شقة كاسترو يبحثون عن فيدل وراوول. كان كلاهما قد رحل بالفع.

وفي تلك الفترة، لمدة عدة أيام، كان فيدل ينتقل، ويتنقل ويتنقل ثانية، أولاً لفندق أندينو وأخيراً إلى بيت إيفا جيمينيز، وهي عضو شابة في الحزب الأورثوذوكسي ومن المؤكد أن سرعة «تنقلاته» أنقذته من السجن، وربما كذلك أنقذت حياته، ولكن الجانب الأهم هو أنه من لحظة سماعه بحدوث انقلاب عرف أن «دورة ثورية جديدة» بدأت في كوبا.

في بعض كتاباته الواعية أو غير الواعية للتاريخ، كان فيدل في السنوات التالية يصوّر نفسه في هذه اللحظة باعتباره جندياً بسيطاً يحارب الديكتاتورية كتفاً إلى كتف مع جنود بسطاء آخرين. وبالطبع، لا شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك. في الواقع، جاء الإنقلاب راحة كبرى لفيدل الذي كان في تلك الفترة مرهقاً ومحبطاً بسبب

محاولاته الترشيح لمنصب بالانتخاب. وقد حمله الانقلاب إلى عالم التآمر الذي يحبه، وعالم التنظيم السري الذي برع فيه تماماً. الآن أصبح بوسعه أن ينحي جانباً حتى ادعاء التغيير الديمقراطي وحتى فكرة أنه سوف يخضع لأي «سلطة» أخرى. لقد كان العاشر من مارس ١٩٥٢ هو بداية فيدل كاسترو الذي سيعرفه العالم. وابتداء من هذا اليوم، بدأ في تأسيس أول «حركة» خاصة به.

وقع الانقلاب الذي غيّر وجه التاريخ الكوبي في الساعة ٢,٤٣ من صباح الاثنين ١٠ مارس، حين اقتحم الجنرال فولجينشيو باتيستا، مرتدياً جاكيت جلد وحاملاً مسدساً عيار ٤٥، معسكر كولومبيا وسيطر على قيادة الجيش. وفي غضون سبع وسبعين دقيقة كان كل شيء قد انتهى. وسيطر أنصار باتيستا على الجيش والبحرية والقوات الجوية وكان هذا كل ما احتاجه الأمر لتدمير «الديمقراطية» في كوبا. وفي منتصف النهار كان باتيستا في السلطة وكارلوس بريو هرب من القصر ثم من البلاد ليستقر في مكسيكو. ولم يبد انقلاب كوبا أمراً خطيراً جداً في أعين عالم مشغول بمشكلات أكبر. وقد لقي رجلان فقط مصرعهما في هذا اليوم بل إنه حتى دور السينما لم تغلق أبوابها لتوضيح هذه اللحظة. وقال باتيستا المتباهي: «قدري أن أقوم بثورات دون إراقة دماء». وإذا كان الأمريكيون قد أصغوا السمع بمزيد من الاهتمام لكانوا سمعوا باتيستا يقول بعد الانقلاب: «الشعب وأنا ديكتاتوران» وكان التشابه مع الكلمات التي قالها جوان بيرون وجورج إلياسر جيتان مذهلاً.

لماذا اختار باتيستا هذه اللحظة ليستعيد السلطة الرسمية التي سبق أن تولاها من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤؟ الحقيقة أنه في شتاء ١٩٥٢ أظهرت استطلاعات الرأي أن باتيستا يكاد لا يتجاوز ١٠٪ من الأصوات. وكان شيباس، قبل وفاته، هو المرشح الأول الواضح. حتى بعد وفاة شيباس. إذا كانت الانتخابات قد عقدت لكان باتيستا خسر خسارة مدوية وكان سيظهر غبياً لدرجة تقضي على مهنته العسكرية والسياسية. ولكن باتيستا الآن واثق وعنيد ويبدو كأنه يحظى بتأييد الولايات المتحدة. لقد أصبح كسولاً ويقضي وقتاً غير عادي في مشاغل بسيطة مثل القلق على وضع علامات الترقيم في خطاب، ربطة العنق السليمة، أو تغيير ملابسه. ولإعجابه الشديد بالحيوات الخاصة لمنافسيه، كان يقضي الساعات يستمع إلى أحاديثهم التليفونية المسجلة وكان قلقاً بشدة من الديون التي تراكمت عليه بسبب طلاقه ليتزوج من زوجته الشابة الثانية مارتا.

ويقبل معظم المراقبين كأحد أبسط «المعطيات» أن فيدل كاسترو كره فولجينشيو

باتيستا. وربما انتهى به الأمر إلى دلك بـالفعل، لكن العـلاقات بين الثـوريين الشبان (العسكريين ضمناً وسراً) من أعضاء اليسار، والرجال الأكبر سناً (العسكريين عـلانية) من أبناء اليمين مثل باتيستا (ثم في وقت لاحق مثل فرانكـو) كانت في الغـالب معقدة ومليئة بالمتناقضات.

ففي ١٩٥١، على سبيل المثال، حين كان فيدل لا يزال يبحث ويجرب تقنيات وآليات للثورة، سأل رفاييـل دياز ـ بـالارت، الذي كـان قد انضم وقتهـا إلى منظمـة الشبـاب الباتيستي، أن يقـدمـه إلى بـاتيستـا. ولا يعـرف أكثـر من أنهـا كـانت المـرة الوحيدة، التي التقى فيها الرجلان قبل انقـلاب باتيستـا. تمّ اللقاء في مسكن بـاتيستا وحضره فقط رفاييل وأندريز ريفيرو أجويرو أحد الموالين لباتيستا. وحكى لي رفاييل: «أراد فيدل من باتيستا أن يعد انقلاباً، ولم يسمح باتيستا له بـالفعل بـأن يقولهـا. وفي النهـاية، بـدأ فيدل يسيـر جيئة وذهـابـاً في المكتبـة وهـو يتـطلع إلى الكتب». ثم قال لباتيستا: «لست أرى كتاباً هاماً جـداً هنا» وسـأله بـاتيستا «أي كتـاب؟» فأجـاب فيدل «تكتيك الانقلاب لكورزيو مالابارتي». ولكن الدعوة المقنعة لمناقشة الانقلاب لم تثر شيئاً لدى باتيستا، وتوقف فيدل عن المـزيد من المحـاولات، كما أنـه لـم يكن مهتماً بـالانقـلاب إلّا بـاعتبـاره أحـد آليـات الثـورة مؤمنـاً أن جـذوره أضعف من أن تعبيء وتحدث تحولاً في الشعب بالطرق التي كان يفكر فيها بالفعل.

وبعد عدة سنوات، وهو يجلس في منفاه الفاخـر في مدريـد، تذكـر رفاييـل أن باتيستا أخبره بعد انصراف فيدل «صديقك الشـاب ذكي جداً لكنه خطير» ثم أخبـرني رفاييل وهو يذكر ذلك لأول مـرة: «لقد درس الاثنـان بعضهما جيـداً. وأيقن فيدل أن باتيستا لم يعد زعيماً ثورياً. ومع ذلك فقد كان كل منهما ينظر للآخر بإعجاب».

قال ماكس ليسنيك صديق فيدل وأحد المراقبين عن قرب لتلك الفترة أن باتيستا كـان مقتنعاً حينئـذ أن «فيدل كـان عامـل إثارة». ويعتقـد ليسنيك أنـه من الممكن أن يكون فيدل قد دبّر للقاء وهو يعلم أنه سيفشل وأن الفشل سوف يقنـع الشعب الكوبي أنه «لا علاقة له بباتيستا». وأضاف ليسنيك بحكمة أن «لدى فيدل كاستـرو، كل شيء منطقي. وما لا يفهمه الشعب هو أن هناك أشياء في حيـاة كاستـرو تبدو مبهمـة ولكن كل شيء له تفسير. إن عقل كاسترو عقل منطقي».

إلّا أنـه ما إن وقـع الانقلاب حتى أصبـح الرجـلان متنـاقضين تمـامـاً وعـدوين لدودين. كان قتالاً حتى الموت يكون فيه اللامبالي الذي يسيء تقدير قوة خصمـه هو

الخاسر. أما عن فيدل فقد فعل ما يفعله دائماً: نظر حوله بعينيه الشبيهتين بعيني الصقر وبدأ في دفع كل ذرة معارضة ضد ديكتاتورية باتيستا سواء وجدها أو خلقها.

وخلال أيام قليلة، كان فيدل قد رفع دعوى أمام محكمة الضمانات الدستورية ليحاول أن يرغم ما بقي من النظام القضائي الكوبي ليعلن أن استيلاء باتيستا على السلطة غير دستوري. وطالب «بتواضع» أن يصدر الحكم على الرجل الذي يمتلك بالفعل السلطة كاملة في البلاد بالسجن لمدة مائة عام. ومرة أخرى حاول أن يشوّه ويحقّر مفاهيم أعدائه. وفي كتاباته زعم مرة بعد مرة أن ثورة «باتيستا»، كما أصرّ باتيستا على تسميتها، مجرد ضربة مخلب وضيعة.

في الوقت نفسه كانت ميرتا في المنزل تنتظر وتنتظر وتنتظر. وذات ليلة خلال فترة الاختباء اللانهائي من البوليس والظهور ثم الاختباء من جديد، توقف فيدل وصديق له في شقة كاسترو في الشارع ٢٣ ليجدها في ظلام تام وفيدليتو الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات يبكي بحرقة من مرض بحلقه وارتفاع حرارته. لقد قطعت الكهرباء مرة أخرى نظراً لأن ميرتا لم تكن تمتلك مالاً لدفع النفقات. وكما هي عادته اقترض فيدل في الحال خمسة بيزوس من صديق له ليعطيها لميرتا، في حين أنه هو شخصياً يحمل في جيبه مائة بيزوس. وكعادته أيضاً فقد برّر هذا الشح الغريب والبارد بقوله للآخرين ـ وعلى الأرجح لنفسه ـ بكل هدوء أن هذه المائة تمّ جمعها لشراء الأسلحة ولا شيء آخر.

لكن الآن كانت ميرتا تواجه مشكلة أشد خطراً وتهديداً بكثير. كان اسمها ناتاليا وكانت بارعة الجمال.

يوضح كل شيء في حياة فيدل وسلوكه مدى احتياجه اليائس ليعيش دوماً على الحافة: حافة الخطر، التغيير، السيطرة الموعودة. كان لا يزال يحب ميرتا، بقدر ما يستطيع رجل مثله أن يحب امرأة، لكن سبلها الصبورة، التي كانت في السابق ملاذاً وراحة، أصبحت الآن مهلكة ومملة. كانت الشقة الغارقة في الظلام والصمت تتوسل مساعدته ووجوده، لتصبح غير جذابة بشكل متزايد بالنسبة له. وفي هذه الفترة، في نوفمبر ١٩٥٢ التقى ناتاليا «ناتي» ريفويلتا واحدة من أجمل نساء كوبا وصاحبة شهية شديدة للثورة والمغامرة (وتقريباً كل شيء آخر).

كانت ناتي مقيمة في شارع كال الخامس عشر مع زوجها الطبيب الثري في منزل حديث كان رائعاً وفاخراً مثلها، كانت ميرتا تمثل العذرية والسكن وناتي

الحس والإغراء الخالصين: لقد أبرزت الجانب الآخر، الجنسي في الفتى القادم من بيران، الجانب الخفيف في فيدل الذي كان مرفوضاً جسدياً وهو يسير في شارع البغاء مع قساوسته. كانت ناتي شقراء ذات عينين خضراوين ممتلئة الجسم ودائماً في حال معنوية تفيض بشراً. كانت نوع المرأة التي توقف الأعين والألسنة حين تدخل غرفة. وكلي تزداد «لذة» العلاقة في أعين فيدل، كانت تنتمي لا فقط إلى البورجوازية الكوبية، ولكن إلى الطبقة العالية منها وهي شابة متعلمة، وطموحة تنتمي إلى نادي يخت هافانا ونادي الريف في هاڤانا.

كانت ناتي فرحة وفخر أسرتها البورجوازية، فتاة درست في أكاديمية أوستون المتميزة الأمريكية الإدارة في هافانا ودرست في مدرسة البنات الثانوية الكاثوليكية في فيلادلفيا، شابة تولت مواقع مسؤولية في السفارة الأمريكية في هاڤانا ثم في وقت لاحق عملت مع «ستاندرد أويل» (اسو) للبترول. وحين «تزوجت زواجاً جيداً» من دكتور محترم هو د. أورلاندو فرنانديز فيرير، بدا كأن حياتها تسير في طريقها إلى الأمام بهدوء بلا عقبات. لكن بعد لقائها بفيدل في اجتماع سياسي للحزب الأرثوذوكسي بدت معمية بالجاذبية السياسية والجنسية للزعيم الشاب. وحذرتها أسرتها مرات ومرات لكنها لم تهتم حتى «دمرت تصرفاتها الأسرة تماماً» كما أوضح أحد أعمامها.

هذا النوع من العلاقات بين فتاة مجتمع ورجل ثوري لم يكن نادراً. فعلى سبيل المثال، هتلر استغل سيدات المجتمع الألماني اللاتي كن كما يقول إريك هوفر «متعطشات للمغامرة تعبات من حياتهن الفارغة، حيث لم تعدن مستفيدات شيئاً من علاقات الحب». لذا فقد سقطت ناتي في تقليد ثوري طويل الأمد و «له احترامه الوقتي». ففي نفس يوم حدوث انقلاب باتيستا، على سبيل المثال، وقبل أن تلتقي بفيدل أعطت ثلاث مجموعات مفاتيح لشقتها إلى زعماء أرثوذوكس مع طلب خاص بإعطاء إحدى المجموعات إلى فيدل.

وبعد أن تخفف فيدل من التوترات والإحباطات المذلة لمحاولته الترشيح لمنصب، بدأ يمارس زعامته على مستويين متباينين. لكي يربك الحكومة، كان يبدو أنه مشغول علانية ـ محامي يمارس سياسات هاوية على الهامش ـ في حين أنه في الواقع، تحت هذا المظهر الجديد بالاحترام ظاهرياً كان مشغولاً على المستوى الخاص باعتباره متآمراً ينظم باندفاع وبلا كلل الخلايا السرية. كانت البروفات قد انتهت الآن، وانتهت سنوات التجربة والمراقبة. كانت مفاتيح أسلوبه وهو يسير في

تسلسله الثوري في سرية تامة. وبسيطرته الكاملة على كل شيء وكل شخص والتكرار المستمر للصور الكوبية، القديمة الشريرة.

لم يتخل فيدل ولو بأبسط الطرق عن أبرز صور البطولة الوطنية الكوبية، وهو يبدأ في تعبئته ضد العدو. كان باتيستا قد تحوّل إلى «وجه غير حقيقي» في مواجهة «الأصالة» الجديدة لفيدل كاسترو التي كانت تدعي الاستمرارية الإيديولوجية لا فقط لأفكار مارتي، ولكن أيضاً لأفكار الأبطال الكوبيين السابقين عليه. كان فيدل دائماً يصل إلى ذروة تألقه حين يستغل فصول الماضي الكوبي البطولية والتي أحبطت بسبل مأساوية. مثل هذا الكيميائي السياسي قد يعتبر رجل سحر وتمرد أكثر منه مجرد ثوري لأنه وهو ينكأ جراحاً قديمة مسبباً آلاماً جديدة، بدأ أيضاً من خلال مثل هذه الاعترافات عملية قد يعتقد البعض أنها سوف تؤدي إلى شفاء وطني.

وهكذا بدأت «الحركة»: مجموعة من الكوبيين الذين تمّ تحييدهم على الهامش، الذين يطيعون بلا نقاش، كأنهم يسيرون نياماً، كل ما يأمر به فيدل. كانت القواعد تنفذ بصرامة ودقة، وأي تصرف فيه إحراج للغير كان معناه الانفصال التلقائي والجارح غالباً، من المجموعة وأحلامها، كان شرب الكحول ممنوعاً، والاجتماعات الأسبوعية تعقد لتحليل سلوك كل فرد في المجموعة. هذا الشكل الجماعي من «النقد الذاتي» سيلقي بظلاله فيما بعد على الهياكل الماركسية. كان السلوك الجنسي القويم هو القاعدة (باستثناء فيدل مع ناتي). وأعطى التنظيم، والسرية والرفقة الحميمة لهذه المقاومة الجديدة، لأعضاء الحركة إحساس حقيقي بالفاعلية لم يختبره أي منهم من قبل. وتتذكر ميلبا هيرنانديز إحدى العضوات الأوائل «حين كنّا مجموعة صغيرة لا يكاد عدد أفرادها يتجاوز العشرة أو بالكاد عشرة، صغيرة جداً كان فيدل هو القائد بالفعل. ولم نشعر مع ذلك أننا عشرة، شعرنا أننا حركة ذات قوة هائلة» ثم أضافت كلمات تبعث على القشعريرة حول نبوءة أن فيدل كان قد بدأ ينسج خيوطه حولهم «لقد ولد. وولدنا معه».

لكن على الرغم من سيادة السرية والانضباط على الحركة كانت هناك دائماً أشياء غريبة جداً وإنسانية مستمرة. ويتذكر كارلوس باستيللو، عضو آخر مبكر، أن المجموعة كانت «تجري تدريباتها على سطح مبنى العلوم في الجامعة...» (فوق رأس أي شخص يهتم بالنظرا) ولكن فيدل لم يظهر مطلقاً بشخصه على سطح الجامعة من أجل التدرب على الأسلحة. لقد اختار رجالاً يثق فيهم مثل بيدرو ميريت لتدريب الأعضاء الجدد وهو يسيطر من مخبئه على كل شيء بالإشارات

والأوامر. ويتذكر ميريت: «كان الأمر يتم بحيث أن أحداً لم يفهم أن هؤلاء هم رجال فيدل. لم يذهب فيدل على الإطلاق هناك لأي سبب. وبهذه الطريقة، لم يستطع أحد أبداً أن يربطنا بفيدل».

لكن هذا كان بسيطاً بالمقارنة بما فعله فيدل وحركته في ٢٧ يناير ١٩٥٣ عشية الذكرى المئوية لميلاد خوسيه مارتي. الآن كشف نفسه ـ والطابع العسكري التام لحركته ـ بطريقة قد تبدو ولأول وهلة غبية إلى حد مذهل. في هذا اليوم، سار آلاف الشباب في استعراض باسم مارتي من المدرسة إلى قلب هافانا. لكن المئات من اتباع فيدل فعلوا ما هو أكثر، لقد خلقوا عرضاً بالبطاريات يبهر الأنفاس وهم يسيرون كتفاً إلى كتف بنظام شديد لدرجة أن أي شخص يتمتع بقوة ملاحظة كان سيتعرف إلى بدايات حركة على النموذج الفاشيستي. وقد كانوا مستعدين لأي شيء. وتتذكر ميلبا هرنانديز، «كانت بطاريات ذات مسامير طويلة للرد على البوليس إذا هاجمنا. كان الناس مبهورين حين رأونا نسير أمامهم. وأتذكر أني سمعت بعضهم يقول: «هؤلاء السائرون هم الشيوعيون».

هذا الخلط بين كوماندوز فيدل الحديثي الأسلوب الذين بدأوا يطلقون على أنفسهم «فيديليستاس» أو «أنصار فيدل»، وبين الشيوعيين ينبىء إلى أقصى حد بافتقار الكوبيين أنفسهم إلى فهم بلدهم في هذا الوقت. فقد كان الحزب الشيوعي الكوبي، مثله مثل كل الأحزاب السائرة على نهج موسكو التي تتشكل عندها في أمريكا اللاتينية، يناهض العنف ويؤمن بالتنظيم الصبور على المدى الطويل الطويل. الشيء الهام بصدد هذا اليوم الجريء على أية حال، هو أنه منذ هذه اللحظة بدأت حركة فيدل تعرف بين القليلين في البداية ثم الكثيرين فيما بعد كجيل جديد بين الأجيال الكوبية: «جيل الذكرى المئوية» في الحقيقة، الورثة الأصليين لمارتي! وشخصياً كان فيدل يفضل تسميتها «الحركة» فقط. بمثل روح الاعتقاد الوحيد، الكلي الذي استعمله الخمير الحمر الكمبوديون حين وصلوا إلى السلطة في كمبوديا عام ١٩٧٥ وأطلقوا على أنفسهم «أنجكا» أو «المركز».

أمل فيدل أن يخلق حركة شعبية تكون مختلفة تماماً عن أي حزب سياسي، وكما قال الفيلسوف إريك هوفر العظيم، «المنظمة العملية تعطي فرصاً للتقدم الذاتي، لكنها تنشد أساساً المصلحة الخاصة. الحركة الشعبية، خاصة في مرحلتها النشطة، الإحيائية تجتذب لا هؤلاء العازمين على دفع وتعظيم ذاتهم المحبوبة، ولكن هؤلاء الذين يجتهدون للتخلص من ذات غير مرغوبة. الحركة الشعبية تجتذب

وتستبقي تابعاً لا لأنها تستطيع أن تلبي الرغبة في تقدم الذات ولكن لأنها تستطيع تلبية حب التضحية بالذات».

والسبب وراء إظهار فيدل ليده في هذه اللحظة أمر محل تساؤل، لكن أعماله كانت تتفق واستمتاعه بالموازنة بين السرية الصارمة والدائمة والعلنية الوقحة والمهينة. كان يريد أن يشعر الناس أن حركة ما تابعة له موجودة معلقة كسحابة فوق وضع متدهور. والأكثر وضوحاً أن باتيستا ورجاله لم يلحظوا شيئاً من استعراضه. كانوا يعانون من الخطايا القاتلة لكل ديكتاتور: الغرور والطمع. وقد كشف بيرو ميريت عن الكثير من مشاعر الفيديليستا الخاصة بصدد مجتمعهم ـ وأنفسهم ـ حين قال: «كنا واثقين أن أحداً لن يعرف من نكون» لأن الحكومة برؤيتها المحدودة رأت فقط الأحزاب السياسية التقليدية كأعداء لها «لم نكن نمثل شيئاً بالنسبة لهم، لم يكن لنا وجود».

أرتميزيا بلدة صغيرة تأسّست عام ١٨٠٣ على الطريق السريع الرئيسي إلى الغرب من هافانا في الطريق إلى إقليم بينار ديل ريو الرائع والمأساوي، بتشكيلاته الغريبة العملاقة الجميلة وهي تشرف على الوديان الخضراء الخصبة الحالمة. هناك، بين شباب الطبقتين المتوسطة والعاملة، وجد فيدل الكثير من أتباعه الأوائل. وكتب رولاندو بوناتشيا مؤرخ وراصد حركة كوبا يقول إن «منطقة أرتميزيا المتمردة بحكم التقاليد كانت أرض تدريب ممتازة. كانت ريفية بقدر كاف يسمح بالمناورات العسكرية، كما أنها كانت بعيدة عن العيون المتلصصة للجهاز السري لباتيستا، ومع ذلك قريبة بما يكفي من العاصمة إلى حد يسمح بالتعبئة السريعة عند الضرورة».

وإلى جانب أرتميزيا، كان مكان اللقاء الرئيسي الآخر للحركة الناشئة يقع في المسكن الصغير الخاص بهايدي سانتاماريا المخلصة لفيدل، وخاص بشقيقها أبل، الشاب الهادىء الملتزم صاحب الشعر الرملي الذي عمل كقبلة ثانية لشباب كوبا المتحيز. وسرعان ما كان فيدل وأبل ينظمان اللقاءات في المسكن الصغير وسرعان ما تحول التخطيط إلى تآمر.

وبينما فيدل يشكل ويعد حركته الجديدة كانت الأحداث المؤسفة المتتالية تهز العالم الخارجي. ففي ١٩٥٣ توفي ستالين بأزمة قلبية، وجابهت فرنسا انتقاداً متصاعداً بسبب الحرب في الهند الصينية وحذّر وزير الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس من أنه إذا نجح الشيوعي فييت مينه في فيتنام فإن باقي جنوب شرقي آسيا سوف يسقط مثل «الدومينو» تحت السيطرة السوفيتية. وتمّ إعدام الزوجين روزنبرج،

وسحقت الدبابات السوفيتية تمرداً مفاجئاً في برلين الشرقيـة. وكانت الهـدنة الكـورية علامة على نهاية الحـرب الكوريـة. في إيران، تمّت الإطـاحة بمحمـد مصدق وعـاد الشاه الشاب تحت رعاية المخابرات الأمـريكية بعـد معركـة شرسـة مع رجـال حرس مسكن مصدق. وهبطت القوات الفرنسية شبه العسكرية في ديان بيان فـو وهو حـدث أنذر بالتورط الأمريكي النهائي في المأزق الفيتنامي.

كـانت الحروب الإيـديولـوجية تمـزق العالم ولم تكن الحـروب بين الشيـوعيـة الروسية والديمقراطية الأمريكية فقط، ولكن أيضاً بين الدول الناميـة والدول المتقـدمة بين القوىٰ الرأسية (الشمولية) والدول الأفقيـة (الديمقـراطية). في الـوقت نفسه، في أرتميـزيـا وفي هـافـانـا: كـان أتبـاع فيـدل المتحمسـون يجـوبـون العـالم بحثـاً عن أيديولوجيتهم الخاصة والتكتيك والإيمـان. فقرأوا كتب مـاركس وإنجلز ولينين، وكان أبيل سانتاماريا بصفة خاصة يبدو شديد الإعجاب بلينين، لكن لم يكن هنـاك بعد أي دليـل على أي تلقين جاد للمبـادىء الماركسيـة. بـل إن فيـدل كـان يلقنهم التـاريـخ الوطني الكوبيإيـديولـوجيةغير متبلورة «للاستقلال» و«الحكم الذاتي» الكوبي، وقبل أي شيء «التمرد» الدائم الجديد من نوعه الذي ابتكره. لم يكن هنـاك بالفعـل شيء غير تقليدي يجري فيأرتميزيا أو في مسكن سانتاماريا في هافانا ـ فقط النوع ذاته من الحديث الثوري حول «التغيير» الذي يتصاعد ويتردد صداه عبر العالم النامي.

وبحلول أوائل صيف ١٩٥٣ كان فيدل مستعداً تقريباً «لبدايته الأولى في الثـورة التي دأب الحديث عنها. وفي سن السادسة والعشـرين فقط من عمره كـان قد شكّـل حركة تضم حوالي ١٢٠٠ رجل وامرأة. كان يجتهد بلا كلل، مظهراً نفس الطاقة التي لا تنضب حين كان يجمع الأصوات لحملته الانتخابية سنة ١٩٥١. وفي الشهور التي أعقبت انقلاب باتيستا سافر حوالي ٣٠ ألف ميل في سيارتـه (أكثر من أربعـة أضعاف طول كوبا نفسها) باحثاً عن المال والأسلحة والـرجال. وبصـوته الغـريب الذي يبـدو كأنه يفض بسر، وصفاته الصبيانية كان ينال إعجاب الناس بإظهار ما كانوا هم أنفسهم يتحسسونه فقـط في خطب طنانة مبهمة. الكثيرون ردّدوا مرات ومرات أنه من المبكر الحديث عن السبيل الذي سيقول به فيدل فجأة ما كانوا يفكرون فيه.

ويتذكر كارلوس بوستيلو الذي كان يجلس في السيارة خلف فيـدل في مونكـاد «كان فيدل يستطيع أن يقنع أي شخص بأن يفعل أي شيء». كما تذكر جيراردو بيريز بويلس أحد أبناء مونكادا، أن «فيدل كـانت لديـه طريقتـه في أسر النـاس. ربما كـان دفء حديثه. كان يمكن أن يجتمع مـع عشرة أشخـاص فيفوز بعشـرة أعضاء جـدد.

كان بارعاً جداً جداً في هذا، واعتقد أنه لا يزال بارعاً».

لكن طرق كسب الناس اعتمدت كثيراً على مُثُله وعلى كلماته الآسرة. ففي بعد ظهر أحد الأيام أثناء التدرب على السلاح في مزرعة بالقرب من لوس بالوس في بينار ديل ريو، تعطلت بندقية. وعلى الفور بدأ فيدل يبحث عن ياي صغير وقع منها بين الأعشاب الطويلة، وسرعان ما استسلم الجميع لكن فيدل أصرّ، باحثاً تحت المطر حتى عثر أخيراً على الجزء الضائع. وعندئذ تحوّل إلى رجاله وقال ظافراً: «أرأيتم، هذا يوضح أن الإصرار سيجلب لنا النصر». وبعد الظهر هذا يمكن اعتباره نموذجاً لحياته كلها.

في بحثه عن أتباع كان فيدل يبحث عن أشخاص يمكنه أن يشكلهم، أرواح غربتها كوبا القديمة ـ رجال ونساء ـ يصفهم ماكس ليسنيك بأن «الشوارع لم تعرفهم» وقد وجدهم على هوامش المجتمع الكوبي. كانوا صغاراً وغاضبين وضائعين ومغتربين، بلا جذور، وقد أهملوا سواء من جانب حكومتهم أو الشركات الكبرى والعملية الأمريكية حيث كان يعمل عدد كبير منهم. في الحقيقة، كانت الكثير من منشوراتهم الثورية تطبع في مطابع جنرال موتورز في هافانا! كانوا مثل فيدل نفسه، الغريب، القادم من بيران الذي لم ينظف أظافره وكان يحمل مسدساً. ولكن العامل الوحيد الشديد الأهمية هو أن كل رجل وامرأة في حركة فيدل كان لا بدّ وأن يكون ملتزماً بها قلباً وقالباً، وبالتالي مطيعاً له تماماً وله وحده، وقد كانوا.

وفي سعيهم اليائس، كانوا على استعداد أن يمنحوا أنفسهم قلباً وروحاً لزعيم واحد، لحكومة واحدة، لحقيقة واحدة كاملة ومرضية. وكان هذا يشبه الولاء التام والأكيد الذي منحه الشعب الإيراني لآية الله الخميني، ناهيك عن الحركات «الحديثة» الأخرى التي يتزعمها قادة كاريزماتيون. وبالفعل، فمن كلماته، ومن الهياكل التي شكلها ـ والأهم من تصرفاته ـ كان يمكن للمرء أن يرى بوضوح تشكيله الكامن ليس فقط لرجل كوبا الثوري الجديد ولكن لكوبا الجديدة، كوبا فيدل، وهذا هو الأبرز والأكثر إبهاراً. كان الرجال والنساء الذين اختارهم ودرّبهم لمونكادا هم نواة «الجماهير» المستقبلية: «جماهيره» الخالية من الماضي والتي شكلها ونال ولاءها شخص وكلمة فيدل كاسترو.

تنشأ علاقات الزعيم الكاريزمي ـ التابع الكاريزمي «في فترة إحباط نفسي وجسدي واقتصادي وعرقي وديني وسياسي» كما قال ماكس ڤيبر أكبر المفكرين في هذا الموضوع. وأضاف: «وهكذا قد يبدو أنه في الأساس كان المضطرب، المغترب

والفاقد الاتجاه هو الـذي يميل إلى الاستجـابة لمثـل هذه العوامل الجاذبة - وسوف يصبحـون بـالضـرورة الأكثـر تفـوقـاً في المـواقف المتـطرفـة للتغيّـر الاجتمـاعي والاضطرابات. إنه في المواقف... غير العادية، يميل الناس أكثر فأكثر إلى الشعـور بـالعجز والاغتـراب، ويشعرون أن المجتمـع حيث يعيشون لا معنى لـه ولا معاييـر، وهكذا تزداد قوة اتجاهاتهم المرضية ويجدون نطاقاً أكبـر لأنشطتهم» وقـد يصبح صـاحب الشخصيـة الأكثر إثـارة للرثاء هـو البـارز. وقـد كتب المحلل النفسي الإسـرائيلي رفـايـل موزيز يقول: «نحن لا نحتاج إلى فرويد ليقول لنا أن التأثير الكاريزماتي لزعيم مـرتبط بالروابط العاطفية الأولية لعلاقة الطفل بوالديه... في أوقات الأزمات تزيد الرغبة في تلبية مجموعة متنوعة من الاحتياجات من زعيم إلى حد بعيـد. في مثل هـذه الأوقات تضعف الملكات الحساسة لأفراد المجموعة الكبيـرة ويصبح تـرقّب زعيم يستطيـع أن يكون قوياً وذا معرفة وحاسم ترقّباً سائداً».

ولا يكمن خطـر هذا التبادل بالنسبة للتابع فقط. فإن ضمنيـات الحلف تحتوي على حظر شديد للزعيم لأنه، كما قال ماكس ويبر مرة أخرى، «هناك نوع من النشـوة المتبادلة في طمأنة الزعيم لأتباعه الذين بالمقابل يبعثون الطمأنينـة في نفسه... فـإن الإدعاء الكاريزماتي لزعيم ينهار إذا لم يعترف من يشعر أنه أرسل إليهم بهمته».

وعلى مستويات أقل فلسفية، فإن الحركات الديمقراطية الأخرى كانت كمـا هو متوقع تثبت أنهـا منحوسـة وميئوس منهـا كما كـان يتوقع فيـدل. وحين قامت إحـدى الحركات المناهضة لباتيستا، الحركة الثورية الوطنية التي نظمهـا البروفسور الجـامعي الليبرالي رفايل جارسيا بارسيناس، بتدبير انقلاب ضـد باتيستـا، اتصلوا بفيدل الـذي رفض الفكرة بحركة من يده. وقال: «كانت أكثر الحركات دعائيـة في تاريـخ كوبـا». وكان على حق مرة أخرى. لقد فشل الانقلاب فشلاً ذريعاً، وتعرض للخيانـة من بين صفوفه، مما دعّم إيمان فيدل بتوخي المزيد والمزيد من السرية.

وقد أعدت خطة محاولة ثانيـة للإطـاحة ببـاتيستا في الثـاني من يونيـو في فندق كنـدي وكتبها زعمـاء بعض الأحـزاب السيـاسيـة التقليـديـة القـديمـة. ولكن «حلف مونتريال» تناثر هباء. وسرعان ما أصبحت التجربة كلها منسيـة وترك فيـدل ليبدو كـأنه «الوحيد».

في هـذه الأيـام الحبلى من الصيف السـاخن، كـان فيـدل، بهـدوء، في كـل مكان. فقد كان يسافـر عبر أرجـاء كوبـا، ليجمع أسلحـة قيمتها تقـريباً أربعـون ألف دولار من بينها بنادق شبه أوتوماتيكية عيار ٢٢، وبنادق برونينج وبنادق م - ١، وبنادق

وينشيستر، وقرر أن يمنح والده، دون آنجل كاسترو، الفرصة ليسانده (ثانية). ذهب إلى بيران مع أحد أتباعه، راوول مارتنز، ليطلب من آنجل ثلاثة آلاف دولار. لم يعجب الأمر دون أنجل وقال بغضب «لا بدّ أن تكونا أبلهين تماماً لتفكرا أنه بمجموعة من التعساء والخاسرين الذين يتضورون جوعاً يمكنكما أن تطيحا بحكومة مثل حكومة باتيستا بكل ما تملكه من دبابات ومدافع وطائرات». وهاج انجل وماج وفي النهاية أعطاهما مائة وأربعين دولاراً قبلها فيدل بأقل قدر من الامتنان. وأثناء رحيلهما قال العجوز بغلظة «رحلة سعيدة، وأتمنى ألا يحدث لك ما يسوء».

في الأسابيع السابقة على «مونكادا» توقف فيدل عدة مرات في أماكن تبدو غريبة على خطته لكنها في الحقيقة كانت مطابقة إلى أقصى حد مع أساليب فيدل. وفي طريق عودته من «أوريانتي» توقف في بيت صديقه القديم باردو لادا ليحدثه عن خططه. ويتذكر باردو «كنت في الفراش أعاني من ارتفاع شديد في الحرارة بسبب نزلة برد رهيبة واضطررت لأن استمع طوال ساعات إلى حجج فيدل. لم أره من قبل بمثل هذه الثقة والاطمئنان».

في هذا الوقت تقريباً قام فيدل بجهد واضح ليتحدث مع أستاذه القديم المحترم هرمينيو بورتل فيلا. وذهب إلى منزل المؤرخ الكوبي الكبير وحين قيل له ان البروفسور ذهب إلى مطعم قريب مع صديق له تبعهما إلى هناك. ويتذكر بورتل فيلا أن صديقه قال له «كاسترو وراءك في الممر، ويبدو أنه يريد التحدث إليك».

ـ وعلى الفور سأله فيدل: «أعتقد أنك اعتدت تدريس التاريخ العسكري للحرب؟».

ـ وقال البروفسور: «أجل، حتى باتيستا».

ـ «هل سبق أن زرت حصن مونكادا وثكناته؟».

ـ وأجاب البروفسور: «أجل حين كانت هناك مناسبات خاصة. لقد دعوني لزيارة التحصينات».

ـ ثم سأله كاسترو بحدة لم تفت على الرجل. «ذهبت إلى مونكادا».

ـ «أجل، مرتين».

ـ «هل تعتقد أنه يمكن الاستيلاء عليه بهجوم مباشر؟».

ـ وسأل البروفسور وهو يزوي ما بين حاجبيه: «هل ستكون الحامية معك؟».

ـ وأجاب كاسترو: «لا، ولكن شبان...».

ـ «أي أسلحة؟».

وحين أخبره فيدل ما معه ـ كل ما معه ـ أصيب البروفسور بيأس: «ليس لديك أدنى فرصة على الإطلاق». وأخبر الشاب المتهور: «أنت لا تعرف الحياة في الثكنات. ستكون مذبحة».

وأجاب فيدل في هدوء غريب: «أجل، لكني سأفعلها».

وبحلول الثاني والعشرين من يوليو، كان كل شيء معداً. وبدأ أتباع فيدل يقتربون من سانتياجو كوبا وبالتالي من ثكنات مونكادا. وجاءوا فرادى أو كل اثنين معاً، من كل أنحاء الجزيرة، مثل ذرات معدن يجتذبها مغناطيس. كان وقت المهرجان في سانتياجو، وشكل الموسيقى والرقص خلفية مسرحية رائعة «لمذبحة» بورتل فيلا الوشيكة الوقوع.

الفاصل العاشر
مونكادا

«الرجل لن يخاطر بحياته أبداً من أجل أقل الشرين، لكنه قد يكون مستعداً تماماً للموت من أجل وهم».
مثل فيتنامي قديم

من بين كل مدن كوبا الجميلة والباهرة، كانت سانتياجو دي كوبا أكثرها حملاً للذكريات، كانت عاصمة أوريانتي التي يحبها فيدل. تطل المدينة التاريخية على خليج واسع براق، يحد أفقها أشجار النخيل وتلالها الرقيقة تشقها شوارع مرصوفة بالحجارة تتعرج بفن على بعد أميال قليلة فقط من سفوح جبال سييرا مايسترا العظيمة. تأسّست سانتياجو سنة ١٥٤٢ وهي مليئة بالمنازل والڤيلات اللطيفة الإسبانية الطراز التي تبدو كأنها تجسد الروح الداخلية الصرفة لإسبانيا القديمة، ببواباتها السوداء المحمية ونوافذها الزجاجية وواجهاتها البيضاء البراقة. لكن سانتياغو معروفة أيضاً بأنها أكثر المدن الكوبية تمرداً، حيث بدأت معظم ثورات كوبا أو نضجت فيها. ولإكمال الدائرة التاريخية يقع تل سان خوان المفضل عند تيري روزفلت ورمز الانتصار العظيم للأمريكيين في الحرب الإسبانية ـ الأمريكية، على مشارف المدينة.

وتبدو سانتياجو في أفضل أحوالها في وقت الكرنفال، هذا المهرجان في كوبا الذي يكرم اسمياً الآلهة الإفريقية التي يبدو أن الكوبيين أنفسهم على علاقات مبهمة ومثيرة معهم. وفي ليلتي الكرنفال، يشرب الكوبيون من كل طبقة ولون ويرقصون حتى الصباح على أنغام آلاف الآلات القبلية التي تجسد التقاليد الدينية لعبادة سانتيريا الإفريقية.

وجاء كرنفال ١٩٥٣ في مناخ شديد الحرارة، لكنه كان كرنفالاً سعيداً، لأنه

في الواقع كانت كوبا نفسها حينئذ دولة سعيدة. واجتذب الرخاء الاقتصادي الناس إلى إحساس شديد بحسن المعيشة، وعلى الرغم من أن الدولة كانت مشرفة سياسياً على نقطة الثورة والانشقاق، فإن معظم الكوبيين لم يعوا ذلك. كانت الجزيرة عند نقطة الانطلاق الاقتصادي، حيث طبقة متوسطة هي الأكثر عدداً بين دول أمريكا اللاتينية، فهي دولة شبه صناعية، ونصف قوتها العاملة منظمة في اتحادات فعالة وصادراتها تكافىء وارداتها. ولديها احتياطي هائل من الذهب ومصانع السكر تنتقل سريعاً من الأيدي الأجنبية إلى الكوبية. ولكن في ذات الوقت، كان هناك «عالم ثالث» داخل كوبا، وكان يبدو جلياً في مدينة سانتياجو. ولأن شغلهم الشاغل هو الظلم والإهمال، كان سكان سانتياجو يميلون إلى الاعتقاد أنهم موجودون فقط لتقديم المنتجات المعدنية والزراعية، إلى السكان الأكثر تعليماً في العاصمة. بشكل ما، كانت سانتياجو تمثل تجسيداً مبكراً داخل كوبا، لما سيصبح عليه كفاح فيدل في العالم الثالث ضد احتكار الولايات المتحدة.

لكن في وقت الكرنفال، وجد أهالي سانتياجو متنفساً من مشاكلهم ونسوا التهديد بالثورة المخبأ خلف الأزياء والأقنعة، وهم لا يعرفون، كما في حفلات تنكرية عديدة، أن حقيقة بشعة متواجدة بالفعل بينهم، حاضرة في جسد وحتى أزياء تنكرية أكثر وضوحاً منهم. وكما كتب فيدل بفخر وتعال فيما بعد في خطاب لصديقه لويس كونتي أجويرو عن هذا الصباح الحاسم في السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٣: «لم يشهد التاريخ مطلقاً مثل هذه المذبحة».

على مدى أشهر كان أتباع فيدل يخططون بحميَّة «للمونكادا» دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عما تكون. كانوا ببساطة يجتمعون ويتحدثون ويتدربون على إطلاق النار، والنساءمشغولات بحياكة أزياء أنصار باتيستا للمجموعة. كان الزي الموحّد له أهمية خاصة. فإنه لا يخفي فقط أنصار فيدل «فيديليستاس» ولكنه أيضاً يمثل الزي المناسب لمعركتهم. كان فيدل يحب الأزياء الموحدة، وبعد فترة طويلة من انتصار الثورة، بعد ثلاثين عاماً، كان رجال لا يزالون يرتدون الزي الموحّد على العكس تماماً من كافة زعماء كل الأنظمة «الشيوعية» الأخرى. حتى ناتي الارستقراطية حاكت زياً. في الواقع ان قرب ناتي من فيدل، كحبيبة وموضع ثقة، كان واضحاً من حقيقة أنها هي التي اختارها لتكتب على الآلة الكاتبة إعلانه، وأيضاً لتختار وتشتري تسجيلات الموسيقى التي سيذيعها راديو سانتياجو لحظة انتصارهم. اختارت ناتي بذكاء وذوق رفيع أغنيات وطنية لحرب الاستقلال، السلام الوطني الكوبي، السيمفونية

الكبرى البولندية لشوبان وسيمفونية أيرويكا لبيتهوفن. وفي الوقت نفسه كانت ميرتا تنتظر صابرة في المسكن، دون أن يكون لديها أدنى فكرة عن الهجوم الوشيك.

فجأة قبيل سفر مجموعة هافانا إلى أوريانتي، انتبه فيدل إلى أن أحد أتباعه، جيلدو فليتاس لوبيز، كان خاطباً منذ سنوات لفتاة، وأن جيلدو قد يلقى حتفه في مونكادا. وعلى الفور، أعد للزواج، الذي وصفته ميلبا هيرنانديز في وقت لاحق بأنه كان «يتضمن كل متطلبات القانون، زواج بنقاب العروس وكل ما تحلم به الفتاة، وكل ما يمر بخيالها ـ كان زواج جيلدو وباكيتا، وحظي جيلدو بشهر عسل مع باكيتا، وسقط جيلدو ولم يعد».

في الحقيقة، كان ذلك بداية تقليد، ومرة بعد مرة، كان فيدل يتحكم في حياة أتباعه الشخصية كما يتحكم في حياتهم السياسية.

ثم رحلت المجموعة إلى سانتياجو، الكثيرون منهم ذاهبون لملاقاة حتفهم، وهم يغنون وينشدون بيتين من أشعار الشاعر الإسباني فيدريكو جارسيا لوركا: «إني ذاهب إلى سانتياجو في سفينة على مياه الحزن».

وبينما هايدي سانتاماريا، شقيقة أبيل المستكينة ذات القلب النبيل، تستعد لترك منزلها، فكرت في الأيام الفريدة الحميمة والليالي التي مرّت في حديث وتخطيط لا يتعب مع رفاق الحركة. وفي ذهنها، تصوّرت فيدل مرة أخرى يذرع الغرفة جيئة وذهاباً كل ليلة في غرفة المعيشة وهو يعلم ويدرّب أتباعه. وتتذكر هايدي، التي كان أصدقاؤها المقربون ينادونها تحبباً «ييي» في وقت لاحق «ونادراً في حياتنا شعرنا بسعادة أكبر ممّا شعرت به مجموعتنا الصغيرة وهي تستعد لمونكادا. لم تكن لدينا أدنى فكرة عما ستكون عليه «مونكادا» لكن ذلك لم يهمنا، لأنه في أية حال كانت هي «مونكادا»».

وبينما أتباع فيدل يتجمعون من كافة أرجاء كوبا من أجل عشاء ثوري أخير، توقف البعض لقضاء ليلة في هافانا، حيث منحوا تذاكر قطار إلى سانتياجو ليصلوها في الفجر وينزلوا في فندق ركس أو في شقة تمّ استئجارها باعتبارهم «سائحين للكرنفال». وسافر أبيل وهايدي معاً، باعتبارهما «زوجين». ووصلت ميلبا هيرنانديز بالقطار حاملة صندوق زهور مليء بالذخائر والبنادق.

وكنبوءة، ربما، لما ستأتي به الأمور، نسي فيدل نظارته في منزله، ورغم أنه كان يرى بصعوبة بالغة وهو يقود السيارة بدونها، فإنه كان يخشى أن يعود أدراجه

لجلبها حتى لا تثير مثل هذه الحركة الشكوك حول تحركات المتآمرين. ونتيجة لذلك، فإن الرجل الذي كان من المنتظر أن يصبح بطل كوبا الثوري العظيم كان يرى بالكاد طوال حملته «البطولية» الأولى.

بدأ فيدل وأبيل التخطيط للهجوم في فبراير، فاستأجرا منزلاً ريفياً قديماً وكثير الحجرات في مزرعة مساحتها فدانان، ولعب فيدل إحدى نكاته الصغيرة البارعة على السلطات. فقد كانت المزرعة المسماة «السيبوني» تقع على الطريق إلى شاطىء سيبوني الشهير حيث كان قائد جيش ثكنات مونكادا الشرس والقاسي الكولونيل ألبرتو «الذئب» ديل ريو شافيانو يمتلك منزلاً. وكان هذا يعني أن يمر شافيانو عدة مرات يومياً، على «مزرعة دجاج» فيدل التي سرعان ما ازدحمت بأسلحة جمعت خصيصاً لقتل شافيانو ورجاله. وقد أيقن فيدل، بحسّه الغريب بالمكان الآمن الحقيقي، ان هذا التخطيط «المفاجىء» يوفر حماية لا مثيل لها. وكتبت مارتا روياس، الصحفية التي غطت محاكمة مونكادا، تقول انه «في كل يوم كانوا يزدادون طمأنينة إلى أنهم بعيدون عن أية شبهات».

كان هدف الهجوم ثكنات مونكادا التي تضم ألف رجل، وتشبه إلى حد بعيد حصن «ريف» في «أغنية الصحراء» بجدرانه البيضاء والمسننة. كانت الفكرة الظاهرية ـ لأن عقل فيدل كان دائماً يموج بطبقة فوق طبقة من الأفكار والنوايا المتشابكة والمتعارضة ـ هي الهجوم على هذا الحصن في ساعات الفجر بعد الكرنفال، حين يكون معظم أهالي سانتياجو الطيبين غارقين في النوم. وكان من المقرر أن يعلن فيدل «الثورة» على الموجة المتوسطة الجديدة في الإذاعة التي يقدرها جيداً، وأن يعرض «الشعب» كرجل واحد في ثورة. في هذه الأثناء، كان هناك هجوم ثان للتشتيت، على ثكنات بايامو القريبة حيث بدأت حرب الاستقلال فعلاً.

وصلت ميلبا وهايدي السيدتان الوحيدتان، إلى «المزرعة في سيبوني» يوم السبت ٢٥ يوليو، وعلى الفور بدأتا في تنظيفها. وأعدتا وليمة من الدجاج سوف تُذكر في التاريخ الثوري الكوبي، عشية ثورة كأغرب ما تكون الثورة في التاريخ. وحين وصل الرجال، سارت بينهم ميلبا وهايدي، وهما تقدمان لهم أكواب اللبن. وقف فيدل يشرف عليهم جميعاً، ووجهه معبّر جداً. والآن أخبرهم بصراحة وباقتضاب، لأول مرة، عما سيحدث لهم قريباً.

وبدأ فيدل يقول: «حين طلبت منكم الحضور إلى سانتياجو دي كوبا ثم إلى

هـذه المزرعـة، لم أكن أستطيع أن أخبركم، لأسبـاب أمنية، بمـاهية مهمتنـا. الآن أستـطيع أن أخبـركم أن هدفنـا هو ثكنـات مونكـادا». وذهلت المجموعـة، من جرأة الهدف. وتابـع يقول: «سـوف نهجم فجراً، حين يكـون الحرس نصف مستيقـظين، والضباط نائمين بتأثير إفراطهم في الشراب في ليلة الكرنفال السابقة. سيكون هجوماً مفاجئاً وليس من المتوقع أن يستمر أكثر من عشر دقائق».

الخطة؟

«سوف نذهب بالسيارة. سـوف تستغل فـرقة السيـارة الأولى فرصـة البلبلة التي يسببها زيّنا الموحّد لأسر حرس المـوقع ٣، وسـوف نرفـع السلسلة في المدخـل. ثم ندخل بالسيارات ونتركها وندخل المبنى الواقع على اليسار، ونأسر من في عنبر النـوم ومن يستسلمون لنا، وسـوف تستولي قـوة ثانيـة من عشرين شخصـاً على المستشفى، التي تفتح نوافذها الخلفية على الثكنات. وتسيـطر قوة ثـالثة من ستـة أفراد على مبنى قصر العدل، ومن سطحه، تحيد البنادق الآليـة على سطح ثكنـات الحصن». وتوقف فيـدل لحظة، ثم تـابع حـديثه وهـو يتفحص بعينيه كـل رجل بحثـاً عن أي بادرة إنـزعـاج واختتم: «لقدا نضممتم للحركة متطوعين، وهذا ينطبق على الهجوم».

وران على الحجـرة صمت مطبق لم يجـرؤ أحـد على كسـره. كـان معـظمهم مذهولين ولكن معظمهم كان سيتبعه مع ذلك. وفي هذه اللحظة احتج واحد فقط من اتبـاعه جـوستافـو أركوس الـذي أصبح في السنـوات التاليـة أكثر معـارضية حـدة في المطالبة «بحقوق الإنسان». وقـال أركوس أن الخـطة انتحاريـة. وسألـه فيدل وعينيه مركّزه عليه ببرود: «هل أنت خائف؟ ألست معي؟».

وأجاب أركوس: «سوف أذهب إلى مونكـادا حتى لو متّ» ثم تـريّث برهـة قبل أن يضيف قائلاً: «أتمنى أن تكون مستعداً للموت، أيضاً». هذا الحديث الاضطراري عن الموت كان رومانسيتهم وتمردهم، كما كان بالنسبة لـلأسطوري خـوسيه مـارتي. وكان قليلون، مثل أركوس، يبدو عليهم فهم حقيقة الأمر.

بعـد هذا العـائق المبدئي، استقـرّ المشهد المثير في «السيبوني» في سـاعات الليلة الأخيرة التي تراوحت بين التجربة الـدينية في أعمق صـورها والنشـوة الجنسية. كان الأمر كأن أحداً خطط وأعد آخر ليلة في حياته وهو يقدمها إلى ربّـه، بدلاً من أن يقدمها الله لـه. وتقول هـايدي أكثـر الأرواح شاعـرية... «كـانت النجوم أكبـر وأكثر بريقاً. والنخيل أطول وأكثر اخضراراً، وكانت وجوه أصدقائنـا وجوهاً قد لا نراها أبداً بعد ذلك ولكن ستبقى معنـا دائماً. كـان كل شيء أكثـر جمالاً وأكبـر وألطف وأرق.

شعرنا بأنفسنا أفضل وأطيب. . . ونظرت إلى أخي أبيل وأراحني أن أعتقد أني إن لم أره ثانية فذلك لأني لن أكون حية أنا أيضاً. ونظرنا إلى فيدل، وشعرنا كأن شيئاً يقول لنا أنه سيعيش بالتأكيد. . . لأنه يجب أن يعيش».

ومن جانبه شاطر أبيل الطويل، الأشقر صاحب الوسامة الطفولية، بعض إن لم يكن كل رومانسية شقيقته المتدفقة. وقضى أبيل، التالي في القيادة بعد فيدل الذي أسماه «الأفضل»، ليلة لطيفة غريبة، في عالم نادر غريب فيما بين الذكرى والخيال. وأخبرتني هايدي بعد سنوات من هذه الليلة التي برق فيها العالم وومض من أجل بعض الشبان الأبرياء والمثاليين أن: «أبيل كان سعيداً كأن شيئاً لا يحدث. لم أستطع أن أفهم الأمر. كان يضحك ويقول، كم ستكون دهشتهم لو علموا بما سيجري!». لم يكن يعني فقط اليوم التالي ـ كان يعني كل شيء».

وفي الصباح المبكر المظلم، قضى الرجال وقتاً كثيراً يجربون أزياء أنصار فيدل. ومن الغريب أن فيدل، أكثرهم امتلاء، لم يجد زياً مناسباً. ووقف هناك، رجلاً ضخماً، حليق الذقن، بلا شارب وأكمامه قصيرة جداً وأرجل السروال عند كاحليه. ويتذكر توماس توليدو أحد أفراد المجموعة أن فيدل: «كان ينظر إلى نفسه في المرآة، وهو قلق من ألاَّ يبدو ـ في الهجوم العظيم على المونكادا ـ كأحد جنود النظام، وهو الدور الذي كنّا سنلعبه ونحن نهاجم الحامية. وكان يشعر بنفس القلق حين حاول أبيل ارتداء زيّه: «وقال فيدل، أنظر أبيل، ستضطر على الأقل إلى التصرف كرجل عسكري».

لم يكن فيدل هو المحارب الوحيد في تلك الليلة الذي يجسد عبثية المعركة. فقد اشترى بوريس لويس سانتا كولوما، خطيب هايدي، حذاء خاصاً ليرتديه في المعركة: وتتذكر ميلبا فيما بعد «كان حذاؤه الخاص جديداً. وكان مثل طفل، لقد ذهب بحذائه الجديد إلى الحرب».

وفي الثالثة صباحاً، كانوا قد استعدوا، وألقى فيدل خطابه الأخير وقال لهم: «في غضون ساعات قليلة ستكونون منتصرين أو مهزومين، ولكن بغض النظر عن النتيجة ـ انصتوا جيداً يا رفاق ـ سوف تنتصر هذه الحركة. إذا انتصرتم اليوم، سيتم تحقيق آمال مارتي قريباً، وإذا حدث العكس، ستكون بادرتنا مثلاً للشعب الكوبي، ومن بين الشعب سوف ينهض شبان مستعدون للموت من أجل كوبا. . .».

وتصاعد صوت واحد ليردد ما كان سيقوله معظم الأشخاص «الراشدين» قبلها

بساعات. كان ماريو مونوز هو الطبيب وعامل الراديو الذي أحضروه معهم ليذهب خلف القافلة، مع ميلبا وهايدي، بملابس مدنية ليظهر، إذا تمّ أسرهم، انهم لم يكونوا مقاتلين. وقال مونوز عندها: «فيدل إني مستعد للموت من أجل كوبا، ولكن أن نعتقد أن بوسعنا الاستيلاء على ثكنات المونكادا بأكثر قليلاً من مائة رجل، وهم يملكون حامية تزيد على الألف جندي، معناه إرسال هؤلاء الصبية إلى انتحار محتوم».

وتملك الغضب من فيدل كما هو حاله دائماً حين يتحداه أحد. وببرود، وقف هناك لا ينظر إلى مونوز ولا يجيب. وأخيراً قال أيبل: «هؤلاء الخائفون يمكن أن يتخلفوا. . .» ولم يسمح له مونوز بإنهاء كلامه وقاطعه: «سأكون في الطليعة ولكني أكرر أن هذه الخطة تبدو لي جنوناً بل وحتى جريمة» وظلّ فيدل على صمته المطبق.

وعندئذ انفصل عشرة من أنصار فيدل عن المجموعة وقرروا عدم الانضمام إلى الهجوم. وأمرهم فيدل، وهو يعاملهم بالإزدراء الذي يستحقه مثل هذا الضعف، بالبقاء في حمام المزرعة حتى يرحل الأخرون. وعندها ردّد «شاعر» المجموعة، راوول جويز جارسيا وهو شاب حسّاس في الثامنة عشرة من عمره بعض أبيات النشيد الذي ألّفه لثورة مونكادا. لقد مزج بعض أجزاء السلام الوطني الكوبي في النشيد وبدأ يردّد الكلمات المألوفة: «الموت من أجل الأرض هو الحياة». وساد الصمت المجموعة التي كانت قد عاشت ساعات في سعادة غريبة ووقفوا في دائرة صلاة وهم يرتدون أزياءهم غير الملائمة في الظلام السابق على الفجر.

وفي الخامسة صباحاً، غادرت قافلتهم المكونة من ست وعشرين سيارة «السيبوني» لمهاجمة ثكنات مونكادا. وكانت بداية الثورة الكوبية.

ظلّ الهجوم على مونكادا في الصباح الباكر من يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٣ أحد أعظم «الكوارث العسكرية» في التاريخ. إنه لمبالغة، كما حاول فيدل أن يفعل مراراً، اعتبار أن اللوم في الفشل الدامي يقع على الحوادث، نظراً لارتكاب بعض الأخطاء الجسيمة.

وإلى اليوم، يتراوح كثيراً العدد الحقيقي للرجال الذين اشتركوا، وعدد السيارات بل وحتى الفترة التي استغرقها الهجوم إلى حد أنه من المستحيل التأكد بوضوح من هذه التفاصيل. وبدراسة كل المعطيات، يتراوح عدد أنصار فيدل بين ٨٧ أو ١١٥ إلى ١٣٤ أو ١٣٥ إلى ١٤٧ إلى ١٦٥ رجلاً وامرأتين. ويتراوح عدد رجال

باتيستا على الجانب الآخر من ٢٦٢ إلى ٥٠٠ إلى ٤٠٢ حتى ألف رجل. ومع ذلك فهذه في الواقع تفاصيل صغيرة، فصورة الهجوم ومغزاه ومجراه واضحة تماماً.

حين تحرك طابور السيارات من «السيبوني» جلس المهاجمون في زيّهم الموحّد في سكون داخلها. كان ريناتو جيتارت الشاب القادم من سانتياجو والمقرر أن يقود الهجوم جالساً في العربة الأولى. وبدأ القتال خلال خمس عشرة دقيقة من مغادرة السيبوني، حين قفز جيتارت من سيارته أمام بوابة الموقع رقم ٣ وصرخ في الجنود آمراً «انتباه، انتباه، الجنرال قادم». وفي خداع الفجر، ظنّ جنود الحراسة أن هذه المجموعة الجديدة جماعة عسكرية تمّ استجلابها من هافانا للدعم خلال أيام وليالي الكرنفال. وفي هذه البلبلة، تمكن المتمردون من تجريدهم من أسلحتهم. كانت الخطة تقضي باقتحام الموقع ٣ بعد تجريد حرسه، وبعدها يدخل الآخرون الساحة، ويجردوا الجنود النائمين في الداخل من أسلحتهم ويسيطروا على جهاز الإرسال اللاسلكي، ثم ينتشروا في الثكنات بأسلحتهم الجديدة. ولكن كل هذه الخطة أجهضت على الفور تقريباً حين ظهرت فجأة دورية خاصة غير متوقعة وغير معروفة للمهاجمين.

كان ريناتو جيتارت قد راقب ودرس دفاعات الحصن طوال أسابيع لكنه لم ير مطلقاً هذا الحرس المتجول المسمى، بالصدفة، «دورية الكوزاك» لأنه أعد خصيصاً لفترة المهرجان. بالإضافة إلى أن غالبية الجنود لم يكونوا نائمين كما توقّع فيدل ولكن الكثيرين منهم كانوا في الكرنفال طوال الليل وكانوا «في طريق العودة» حين اقترب المتمردون. بالإضافة إلى ذلك كان هناك عدد من الجنود أكبر من المعتاد لأن الكثيرين استقدموا للتمتع بإجازة الكرنفال.

وبينما فيدل يقفز من السيارة، حاملاً بندقيته، بدأ إطلاق النار العنيف في كافة الاتجاهات. وضاع عنصر المفاجأة الرئيسي منذ البداية.

والآن بدا كل شيء كأنه يسير خطأ. وعاد فيدل إلى السيارة ليتحرك إلى الأمام، لكن السيارة تعطلت. وكان جوستافو أزكوس، نصفه خارج السيارة وهو على وشك رفع بندقيته في وجه ضابط جيش، حين أطاح به باب سيارة متأرجح.

هكتور دي أرماس كان أحد المشاركين في الهجوم الفاشل. وبعد سنوات تحدث معي عنه: وقال: «على أقل تقدير، حين تكون ذاهباً إلى مثل هذا الهجوم، يجب أن تعرف أين تذهب لتهاجم طرق الدخول والمنافذ. . . لم يعط أحد أية

أوامر. . . لذلك خرجت من السيارة واختبأت وراء شجرة. وبقيت هناك حوالي نصف ساعة، خلال معظم تبادل النيران. ثم جاء بجواري كارلوس بوستيللو وابتعدنا معاً عائدين إلى سانتياجو. . . كان الجيش يبحث عن أفراد، ولكن من حسن الحظ أني كنت أحد الذين ارتدوا ملابس مدنية تحت زي العسكري».

وبينما فيدل متحصن وراء سيارته، نجح بعض أنصاره بقيادة جيتارت في الدخول فعلاً إلى الثكنات. وهنا كسبت الثورة الكوبية أول شهدائها. وبينما المتمردون يطلقون النار من أسلحتهم الصغيرة المثيرة للشفقة، بنادق عيار ٢٢ وأسلحة قديمة، كان جنود باتيستا يردّون عليهم. وخلال ثوان، رقد ريناتو جيتارت قتيلاً على باب محطة الراديو وبجواره الأجساد الساكنة لرفاقه بيدرو ماريرو وكارميلونوا وفلورز بيتانكور.

أين كان الاحتياطي؟ كان فيدل يتساءل والقتال العنيف مستمر. وفي وقت لاحق علم الحقيقة التي يصعب تصديقها. يبدو أن الرجال العشرة الذين رفضوا التوجّه للقتال لم يمكثوا في الحمام بالمزرعة كما أمروا. وبدلاً من ذلك غادروا المسكن، وأثناء رحيلهم بالسيارة دخلوا خطأ وسط طابور السيارات المتوجّه إلى مونكادا. ولأنهم دخلوا طريقاً خاطئاً، فقد قادوا هؤلاء المقاتلين السائرين وراءهم الذين لا يعرفون سانتياجو، إلى قلب المدينة. وهكذا حين بدأت المعركة الحقيقية كان الرجال المفترض أن يعضدوا فيدل ومجموعته في الهجوم الحاسم على الموقع ٣، يتجولون على غير هدى في الشوارع يحاولون العثور على ثاني أكبر حامية عسكرية في كوبا!.

حين أيقن راوول ومجموعته أن الهجوم فشل وأن فيدل أعطى الأمر بالانسحاب، فإنه ورجاله خلعوا زيّهم الخارجي وساروا بشكل عادي في شوارع سانتياجو في ملابسهم المدنية واختفوا.

ولم يكن مصير مجموعة المستشفى، التي ضمت هايدي وأبيل سانتا ماريا أفضل. ومن السخرية أن أبيل لم يكن يرغب في أن يكون المكلف باحتلال المستشفى المدني المحلي، «ساتور نينو لورا» التي كانت تحتل موقعاً استراتيجياً يتيح للمتمردين العمل كقناصة وتغطية الرجال في ساحة مونكادا وجادل أبيل فيدل: «لن أذهب إلى المستشفى، هذا مكان ذهاب المرأتين والطبيب، إذا كان هناك قتال، يجب أن أكون متواجداً، دع الأخرين يقومون بالألاعيب ويوزعون المنشورات».

وأجابه فيدل آمراً: «أنت التالي في القيادة، عليّ أن أقود الرجال وقد لا أخرج حياً».

في النهاية أطاع أبيل الأمر. وهكذا فإن مجموعة العشرين الصغيرة «احتلت» المستشفى وعلى الفور بدأت في تشتيت الجنود بإطلاق النار بصورة متفرقة كما هي الخطة.

وحين أدركوا أخيراً أن لا أحد آخر يطلق النار كان الوقت متأخراً جداً. أرسل الهاربون إليهم ليبلغوهم أن فيدل أصدر الأمر بالانسحاب، ولو كان الهاربون قد وصلوا في الموعد، ربما كانوا قد أنقذوهم لكنهم لم يصلوا على الإطلاق.

وفي حوالي الثامنة صباحاً، أخذ أبيل ميلبا وهايدي جانباً وقال: «لقد نلنا كفايتنا. أنتما تعلمان ما سيحدث لي، وربما للجميع، ولكن الأهم هو عدم المخاطرة بكما أنتما الاثنتان، اختبئا في المستشفى وانتظرا. لديكما فرصة أفضل بكثير من أي شخص آخر للبقاء على قيد الحياة ـ افعلا ذلك بأي ثمن. يجب أن ينجو أحد ليحكي ما حدث فعلاً».

وساعد شخص من المستشفى المجموعة كلها على ارتداء ملابس المستشفى والضمادات. وجلس كثيرون من المتمردين في الأسرّة حيث رقدوا مرعوبين، مدّعين أنهم مرضى. وهرعت ميلبا وهايدي إلى عنبر الأطفال حيث حاولتا القيام بدور الممرضات.

حين دخل جنود باتيستا إلى المستشفى، يتجولون مثل فرسان «الخان» في العنابر، كاد التنكر أن يفلح بشكل غير عادي. في الواقع ان الجنود كانوا على وشك الرحيل حين تقدم رجل يرتدي قميص مربعات تصادف أنه مسؤول العلاقات العامة للعسكريين لدى المستشفى، وتصادف وجوده بها، وهمس للجنود بما جرى، وبكل قسوة، جذب الجنود المتمردين من أسرتهم وألقوا بهم تقريباً فعلاً في الخارج.

وكانت آخر مرة ترى فيها ميلبا وهايدي أبيل حياً في ساحة المستشفى حيث كان يتعرض للضرب بلا رحمة بكعوب بنادق الجنود. أما د. مونوز، الذي جادل فيدل في هذه اللحظات الأخيرة في السيبوتي حول الطبيعة «الانتحارية» للهجوم، فقد أصيب بطلق ناري في ظهره من مسافة قريبة جداً. وظلّ راقداً طوال ساعات في بركة داكنة من دمائه.

بعد أن أعطى أمر الانسحاب، توجّه فيدل وثمانية عشر آخرين إلى جبال سييرا. وبقلوب محطمة وقد نال منهم الإرهاق، بدأت المجموعة الصغيرة رحلتها على الأقدام إلى الجبال القاسية المغطاة بالغابات، وساعدهم الفلاحون على طول

الطريق، وبصفة خاصة رجل حول بمهارة الجيش إلى الاتجاه العكسي، وفي قرية سيفيلا أريبا، قتل فلاح خنزيراً واحتفلوا جميعاً معاً. وحين تحدث الفلاح عن قمع أصحاب الأراضي، منحه فيدل مسدسه العزيز المطلي عيار ٤٥ملم (أو هكذا تقول الأسطورة) وقال له بصرامة «حين يأتون لمضايقتك، افتح عليهم نيران هذا المسدس، لا تؤمن بأحد. دافع عما هوملكك». لم تكن دماء مونكادا قد جفت بعد على شوارع سانتياجو المرصوفة بالحصى، حين بدأ فيدل بالفعل يتحرك إلى المرحلة الثانية من تسييس فلاحي سييرا مايسترا. وقد انتهى هذا «الفصل» في السييرا حين قبض على فيدل فجأة بعد عدة أيام وسجن، ولكن بصفة مؤقتة.

في تلك الأثناء، بدأ راوول يسير عبر الريف، بعيداً عن سانتياجو، ونام في حقل قصب السكر هذه الليلة، وفي اليوم التالي بدأ يسير مرة أخرى. وقال في وقت لاحق في السجن «ذهبت إلى بلدة، حيث اشتريت خبزاً وشربت بعض الماء. وبينما أواصل المسير،ألقي القبض علي، أمروني بالوقوف وطلبوا أوراق هويتي. أخبرتهم أني من ماركاني وأني جئت إلى الكرنفال ونفذت نقودي فاضطررت للعودة سيراً على الأقدام. ولأني لم أستطع إثبات هويتي، أخذوني إلى حامية سان لويس. . .» كان راوول قد أسر، لكنه على الأقل ظلّ على قيد الحياة.

كان فيدل على حق حينما قدّر على الوجه الصحيح، خلال محاكمته الشهيرة وفي الأوقات التالية، أن الهجوم «أثمر» على المدى البعيد لسبب واحد وواحد فقط: وحشية عسكريي باتيستا. صادر باتيستا على الفور حرية الصحف، وسمح فقط «بمعلومات» معينة للظهور، حول أن هؤلاء كانوا «مجموعة من القتلة» الذين اغتالوا المرضى في المستشفى وضموا بين صفوفهم مرتزقة أجانب «من كوريا». ومع ذلك فإن ما حدث في النتائج المرعبة لمونكادا، هو الكشف عن الطبيعة الحقيقية لنظام باتيستا لأول مرة. وجاءت الأوامر من هافانا بقتل عشرة متمردين مقابل كل جندي قتيل، وقد نفّذ الضباط الأمر بمتعة شديدة لدرجة أن القائد الثاني في مونكادا، الكابتن أندريز بيريز شومونت، المتخصص في اقتلاع أعين سجنائه سمي بلقب «العيون الجميلة».

وأسرت المرأتان الوحيدتان اللتان نجتا من فظائع المستشفى التي اعتبرها أييل مهمة شديدة اليسر، ونقلتا إلى السجن حيث تعرضتا لفظائع لا توصف. ومن زنزانتهما كانتا تسمعان صرخات رفاقهما وهم يعذبون حتى الموت. لم تستطع ميلبا وهايدي أن تفعلا شيئاً غير الحملقة في الجدران وسماع الصرخات الأخيرة الرهيبة

لأحباثهم إلى حد أنهما سمعتا الجنود يتحدثون عن «الرجل ذي الحذاء اللامع» وارتفعت آمال هايدي، ولكن بوريس لم ينج من التعذيب. وكان أمام هايدي المزيد من العذاب.

وجاء سيرجنت يطلق عليه اسم «النمر» إليها في السجن وفتح يديه الملطختين بالدماء وأراها عين شقيقها وطلب منها أن تخبره بكل شيء أو يقتلع العين الأخرى. وكان رد هايدي، الذي حفظه تلاميذ مدارس كوبا عن ظهر قلب أنه «إذا لم يخبرك هو تحت التعذيب فمن باب أولى ألا أبوح أنا بشيء».

وتعرض جوميز جارسيا، الشاعر الشاب الذي ردّد النشيد الثوري في الدقائق الأخيرة قبل أن يغادر المتمردون السيبوني، لضرب مبرح في وجهه لدرجة أنه حين رأته المرأتان، لم تتعرفا عليه إلاّ من عينيه الحساستين. وفي النهاية مات جوميز ببطء من التعذيب. وفي النهاية مات كل من استسلم للبوليس، عشرة مقابل واحد كما طلب باتيستا.

وانتظرت ميلبا وهايدي في جحيم سجن (فيفاك) وكان أسوأ مخاوفهما دائماً هو أن يكون فيدل، أيضاً، قد مات. وتتذكر هايدي هذه الساعات الرهيبة السوداء: «في انتظار فيدل، فقدنا الأمل في أن يأتي أي أحد آخر. ومرّت أيام وأيام ولم يأت أحد... كنّا مقتنعتين أنهم لن يظهروا... لم تنبس إحدانا ببنت شفة... ثم ذات يوم، سمعنا وقع أقدام، وأصواتاً أعلى وأكثر تأثراً من المعتاد. شيء كبير يحدث. لكن إذا كان شيئاً كبيراً، فماذا يمكن أن يكون؟. ثم في لحظة رأيت بعض الأيدي تتحرك، بعض الأصابع. لا أعرف كيف علمت لكن ـ كانت أصابع فيدل... لم نكن لموتى ولا أحياء. والآن تحررنا من هذا الشيء ـ يجب أن تجربه لتفهمه ـ الذي لا هو حياة ولا موت. ومنذ تلك اللحظة لم تعد تهم مسألة أن نحيا أو نموت كان فيدل حياً، عاشت مونكادا».

على الفور ألقى باتيستا بمسؤولية هجوم مونكادا على أعدائه الذين يستطيع تعرفهم، رجال السياسة القدامى التقليديون، الذين وقعوا علانية «حلف مونتريال» التعس ضده إلى جانب زعماء الحزب الشيوعي. وسرعان ما ألقى الرجل القبض خلال ساعات على السياسيين القدامى أمثال إيميليو أوكوا وخوسيه باردو لادا وعدد من الشيوعيين، بعد أن أعماه السطح السياسي «لحقائق» كوبا التي كانت ما زالت تبدو كما كانت دائماً. ولكن بدلاً من أن يجد جذوره في أية أفكار أجنبية الإلهام للحزب الشيوعي، كانت جذور الهجوم على مونكادا ـ وأسلوبه وعسكريته ومناخه ـ

تمتد عميقاً في التاريخ الكوبي. في الحقيقة فإن مثل هذا الهجوم بالضبط سبق تدبيره قبل سنوات على يد أنطونيو جيتراس وهو ديمقراطي اشتراكي شاب وجذاب في الثلاثينات (بل إن هوليوود صنعت فيلماً عنه). جيتراس كان شريفاً لدرجة أنه عرف بأنه «الرجل صاحب البذلة الوحيدة» وهو مؤسّس منظمة «كوبا الشابة» الشعبية. وقد وضع عدة خطط جريئة لمهاجمة مونكادا عام ١٩٣١. أحدها كان هجوماً مباشراً: نفس ما فعله فيدل، والثانية كانت مهاجمة الحصن بالقنابل الملقاة من طائرة مختطفة ولم يتم تنفيذ أي من الخطط ولقي جيتراس مصرعه في تبادل نيران دامي مع العسكريين عام ١٩٣٥.

وهكذا فإن فكرة فيدل لم تكن بهذه الجدة أو الخروج عن المألوف. كما أنها لم تكن سيئة كما قد تبدو من بعيد. ويقول المؤرخ رامون بوناشيا إن «الاستراتيجية كانت جيدة»، لأن مونكادا على الطرف الآخر من الجزيرة، «والنصر سيعطيه سيطرة على الحركة كلها، وببعده عن هافانا، مركز المؤامرات، ومسرح عمليات رجال السياسة القدامى، لم يكن كاسترو ليخشى أي تحدي فوري. وهؤلاء الذين كانوا سينضمون إليه كانوا سيذهبون إلى أوريانتي». ولو حقق الهجوم نجاحاً، وبعد الاستيلاء على مونكادا وبايامو، كانت فكرة فيدل أن يدمر الجسور على نهر كاوتو فيقطع الطريق إلى هافانا وباقي البلاد، وعندها كان سيعلن الجزء الجنوبي المتمرد والمعقد من أوريانتي باعتباره «أول منطقة محررة» في كوبا. وكانت تلك ستعد سابقة مذهلة وإذا تمت، كان يمكن أن تكون تحذيراً من هجماته اللاحقة من خلال حركات حرب العصابات لخلق «مناطق محررة» في كافة أنحاء أمريكا الجنوبية.

وبالتالي كان هجوم فيدل على مونكادا، نموذجاً صغيراً لمعاركه الأكبر والأعظم، ضد «القمع والاستغلال»، ضد الأثرياء. لم يكن من المفترض إطلاقاً أن يكون هجوماً واحداً فقط من أجل نيل السلطة السياسية: كان يجب أن يكون بداية لثورته ضد عسكرية باتيستا اليمينية، ضد الولايات المتحدة، ضد رجال السياسة التقليديين، ناهيك عن الحزب الشيوعي القديم، ضد الطبقات العليا، وأخيراً ضد التشكيل الكاثوليكي والرأسمالي في دولة كوبا.

لكن مونكادا كانت أيضاً أهم حدث في حياته حتى ذلك الحين. ففي كايوكونفيتس وبوجوتا، توالت نبضات التغيير نحوه من المحيطين به. في مونكادا، لأول مرة، تولى قيادة حركته. كما كشف عن بنيته الداخلية في صور وأشكال خارجية. كان كل شيء يتوالى تحت القيادة المطلقة والتامة لرجل واحد.

وفي مزاح مفكر نادر، بعد فترة طويلة من توليه السلطة، كان فيدل يتحدث عن مدى حسن حظه، ليس فقط لأنه نجا في مونكادا، ولكن لأنه بشكل ما لم يصل إلى السلطة من خلال الهجوم. وقال: «أعتقد أننا لو كنّا صفينا باتيستا عام ١٩٥٣ لكانت الإمبريالية سحقتنا. لأنه فيما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٩ شهد العالم تغيراً هاماً جداً في «علاقات القوة المتبادلة». كانت الدولة السوفيتية ما زالت ضعيفة نسبياً في هذه الفترة، وبالنسبة لنا كانت الدولة السوفيتية التي ساعدتنا كثيراً فيما بعد، ما كانت لتستطيع شيئاً في عام ١٩٥٣.

ما فعلته كوبا هو رفع فيدل كاسترو إلى دور الزعامة في كوبا التي فشل فيها كل احتمال سياسي آخر أو كان في طريقه للفشل. وكتب جيلرمو كابريرا إنفانتي الكاتب الكوبي الحساس يقول: «كان هجوم مونكادا فاشلاً من وجهة النظر العسكرية ولكنه حقّق نجاحاً سياسياً مدوياً. فبعد ٢٦ يوليو ١٩٥٣، تحوّل كل شيء في كوبا إلى لحظة تاريخية واسعة: وحشية ودامية وحتمية».

الفصل الحادي عشر

جزيرة الصنوبر، السجن فصل دراسي

«تعامل مع الشعب بفن وبابتسامة... سيكون هناك وقت كاف فيما بعد لسحق كل الحشرات معاً».

فيدل كاسترو لاتباعه

حين بدأت محاكمة فيدل كاسترو ورفاقه في قصر العدل في سانتياجو يوم الاثنين ٢١ سبتمبر ١٩٥٣ بعد شهرين تقريباً من هجوم مونكادا، كان أول تصرف لفيدل هو السيطرة على المناسبة. دخل فيدل قاعة المحكمة مرتدياً بذلته المفضلة الزرقاء الداكنة المقلمة وقميصاً أبيض وربطة عنق حمراء. كان شعره مصففاً بعناية غير عادية وشاربه الجديد منسق بعناية. وكانت قامته الرفيعة ومظهره المتحدي سبباً في تردّد همس الحاضرين في استثارة: «هذا هو فيدل! ها هو ذا!» كان ذلك أول ظهور له على المسرح العام لوعي الشعب الكوبي وقد استغل الأمر استغلالاً كاملاً في هذه الحرارة الصيفية القائظة.

ورفع يديه المكبلتين نحو القضاء وهو يقدم نفسه باعتباره رمزاً لكوبا وفي صوت عال، طنان قال: «السيد الرئيس، أريد أن ألفت انتباهكم إلى هذه الحقيقة المذهلة... ما هي الضمانات الممكن توافرها في هذه المحاكمة؟ حتى أسوأ المجرمين لا يحتجزون بهذا الأسلوب في قاعة تسمي نفسها قاعة العدل... لا تستطيع أن تحاكم ناساً مصفدي الأيدي...».

ووافق القاضي الرئيسي نييتو بنيتو ـ أوسوريو، الذي كان مثل كل القضاة يحب أن يظهر تعاطفه مع المتمردين، وأمر على الفور برفع الأصفاد لا فقط من أيدي فيدل ولكن من أيدي كل السجناء... ومنذ هذه اللحظة لم تعد القضية محاكمة الدولة

لفيدل كاسترو، بل محاكمة فيدل كاسترو للدولة.

جلست مارتا روهاس الصحفية الشابة من «بوهيميا» مستعدة لتدوين الملاحظات من أجل التاريخ، وبدأ فيدل الحديث بصوته الواضح، الرنان: «أريد أن أعرب لهيئة المحكمة عن رغبتي في ممارسة حقي، كمحامي، في الدفاع عن نفسي».

ووافقت المحكمة غير عالمة على الإطلاق بالاستغلال الذي سيستغله فيدل لهذا الوضع، وعلى الفور حصل فيدل على روب المحامين الأسود.

ثم قرأت الدولة، ممثلة في شخص الكولونيل شافيانو، قائمة المتهمين التي ضمت السياسيين القدامى (كارلوس بريو، أورليانو سانشيز) وزعماء الحزب الشيوعي (بلاس روكا وخوان مارينيللو) ومجموعة فيدل. وركزت المحكمة على «حلف مونتريال» الذين لا يكاد أعضاؤه يستطيعون استخدام مسدس لو هاجمتهم فرقة، وأعلنت المحكمة أن الأسلحة المستخدمة في هجوم مونكادا جاءت من مونتريال: كان فيدل ينعم بجنة ثورية تكتيكية، لا فقط لأنه سعد إلى أقصى حد لعدم فهم أعدائه التام للحقيقة (مرة أخرى) لكنه كان الآن مستعداً تماماً لبسط سيطرته على المحاكمة وبالتالي لخلق حقائق جديدة تجاوز الخيال.

وحين سئل أخيراً عما إذا كان قد اشترك في الهجوم على مونكادا وبايامو ردّ ببساطة:

ـ «أجل اشتركت...».

ـ وهؤلاء الشبان؟

ـ «هؤلاء الشبان، مثلي، يحبون حرية بلدهم. لم يرتكبوا أية جريمة إلاّ إذا كنت تعتبر أن الحلم بما هو أفضل للبلد هو جريمة. أليس هذا في الواقع هو ما يدرسونه في المدارس؟».

ثم سأل المدعي العام فيدل كيف فسّر لاتباعه ما سيجري وأمره بحدة ألا يدخل في خطبة سياسية.

وأجاب فيدل وصوته بارد بشكل مسرحي: «ليست لي اهتمامات بالسياسة. إني أتطلع فقط لفتح الطريق أمام الحقيقة».

لكن الرجل أصرّ: «لكن قل للمحكمة كيف أقنعتهم».

وأجاب فيدل: «الحقيقة أني لم أضطر لإقناعهم. لقد أروني الطريق، وهم

مقتنعون أن الطريق الذي سنسلكه هو طريق الكفاح المسلح، بعد أن جربنا كل الطرق الأخرى الممكنة، لكي لا يواجه هذا الجيل خطر أن يفقد نفسه. . .». لقد أعدّ فيدل المشهد ببراعة.

ثم قدّم فيدل أحد أعظم المشاهد المسرحية الدرامية في حياته المليئة بها. ففي لحظة ما كان يدافع عن نفسه. وفي التالية، كان يستجوب من يتهمونه وهذا كان «حقه» نظراً لأنه يعتبر كذلك محامياً أمام المحكمة. وطوال المحاكمة استغل باستمرار وبخبث ما كان في الحقيقة أدوات بلبلة، وتسلية وتنويم للقاعة. ووضع ثوب المحاماة الأسود (حين كان يتصرف كمحامي) وينضوه عنه (حين كان يعود إلى وضعه كمسجون ومتهم).

وكانت هذه الحركات تهدف إلى توجيه صدمة شديدة لتوضح للحاضرين كيف يمكن للمرء أن يكون من الدولة في لحظة وخارجها في اللحظة التالية. وكيف يمكن أن ينتقل الفرد من الشرعية إلى اللاشرعية ثم يعود إليها ثانية بين لحظة وأخرى. في الواقع كان ذلك هو درسه الأول العلني لشعبه حول كيفية تغيير الشرعية أمام الملأ. وكان من الأفضل لو راقبه الزعماء الكوبيون بعناية أكبر مما فعلوا.

وبينما فيدل يبني قضيته القوية، فإنه أيضاً أظهر عمداً للشعب الكوبي وحشية نظام باتيستا. ولكن الأهم، هو أن كاسترو استغل المحاكمة لِيُعلم شعب كوبا فكرة محددة كانت حاسمة في النجاح النهائي للثورة. تلك الفكرة كانت الإيمان بأن الثورات مثل ثورته هي في حد ذاتها فوق الشرعية وأن له ولرجاله ليس فقط الحق بل واجب اللجوء إلى وسائل من المفترض أنها «خارج الدستور» للإطاحة بديكتاتور هو نفسه مغتصب لأنه استولى على السلطة بوسيلة غير مشروعة.

وحكم على مجموعة القيادة العليا التي ضمت راوول كاسترو وبيدرو ميريت، بالسجن ثلاثة عشر عاماً. ونال عشرون آخرون أحكاماً بعشر سنوات. وقضي بالسجن ثلاثة أعوام على ثلاثة رجال. ولم يُحكم على فيدل، وبدلاً من ذلك فقد تقرّر محاكمته منفصلاً، في سرية تامة، وفي مكان غير عادي: حجرة الممرضات الصغيرة التي تصل مساحتها إلى ١٢ قدماً في ١٢ قدماً في مستشفى ساتورنينو لورا المدني، نفس المستشفى التي شهدت معاناة أيبل ومجموعته الصغيرة (وهو الأمر الذي لاءم فيدل تماماً). ومرة أخرى طلب فيدل السماح له بالدفاع عن نفسه.

* * * * * *

من المرجح أن محاكمة فيدل بدأت في الثامنة من صباح أحد أيام أكتوبر. ومرة أخرى ارتدى فيدل بزته الزرقاء المقلمة. وكما أن هناك عدداً لا يحصى من الكتب عن كوبا وعن كاسترو، فهناك العديد من الروايات حول خطبة فيدل في هذا اليوم. وقد عرف الخطاب باعتباره «التاريخ سوف ينصفني». وحتى الآن، رغم شهرة الخطاب ومن ألقاه، فإنه لا أحد يعرف حقيقة كم مرة كتب وأعيدت كتابته وكم مرة تغيّر وتبدّل محتواه، كما تغيّر وتبدّل كاسترو نفسه على مرّ الشهور. حتى المدة التي استغرقها الخطاب في هذا اليوم من عام ١٩٥٣ غير مؤكدة رغم أن عشرات الأشخاص كانوا حاضرين واستمعوا له.

نحن نعرف أن الخطاب بدأ «ببيان» فيدل الذي كتبته ناتي على الآلة الكاتبة. ونحن نعرف أن هذه الوثيقة الأولى كتبها راوول جوميز جارسيا الشاعر الشاب التعس الحظ بناء على طلب فيدل. يبدأ هذا «البيان» بنداءات بطولية للدعوة إلى ثورة كوبية حديثة وينتهي بتسعة «قوانين ثورية» تضمنت خطة للرخاء الاجتماعي والاعتراف بالعمال والطلاب كطليعة في الدفاع عن الحقوق المشروعة للشعب. لكن فيدل لم يكن مقتنعاً به كبرنامج للثوة، لذلك فما أن جاء إلى السجن، حتى بدأ يعمل بمثابرة لوضع طرح أكثر وضوحاً لأفكاره.

ويقول أفضل دليل تاريخي يمكن للمرء أن يقبله أنه في هذا الصباح من شهر أكتوبر، في حجرة الممرضات، بدأ فيدل خطبته التاريخية بقوله: «القضاة المحترمون، لم يسبق أن مارس محامٍ مهنته في ظل مثل هذه الظروف الصعبة. . .» ثم أعاد بدقة تصوير الهجوم ـ أسبابه، منطقه، نبله ومعاناته. وتحدث عن «التضحيات التي لم يسبق لها مثيل في كفاح جمهوريتنا» وعن «أقسى وأبشع قمع في كل تاريخها».

وكما هو مقرّر، تركزت هذه النسخة الجديدة من الأفكار التي ظهرت أولاً في «البيان» على خمسة «قوانين ثورية» بدلاً من تسعة. في البداية، كان هناك العودة إلى دستور ١٩٤٠، وهو وثيقة ليبرالية ـ راديكالية محيرة لم تحترم. ثانياً، دعا فيدل إلى الملكية التامة للمزارع الصغيرة التي يعمل فيها مزارعوها، والمشاركون في المحصول وواضعو اليد. ثالثاً، تحدث عن حق العمال والموظفين «في اقتسام ثلاثين في المائة من الأرباح في كل المؤسسات الصناعية، التجارية والتعدينية وفي مصانع السكر». وطالب القانون الرابع بحق عمال السكر في المزارع «في اقتسام ٥٥٪ من قيمة السكر المنتج» ودعا القانون الخامس إلى مصادرة «كل الممتلكات والثروة التي تمّ

الحصول عليها عن طريق الغش في ظل الحماية السياسية والتدليس خلال أنظمة الحكم السابقة».

وربما في أبلغ أقسام الخطبة، رفض فيدل أية فكرة حول: «الحرية المطلقة للمؤسسات وضمانات استثمار رؤوس الأموال وقانون العرض والطلب» باعتبارها مبادىء رئيسية لحل اقتصادي. وأشار بصفة خاصة إلى أن «أكثر من نصف الأراضي الزراعية الأكثر إنتاجية مملوك لغير الكوبيين» (وهو أمر واقع حقيقي عام ١٩٥٣) وأشار بصفة خاصة إلى شركة الفواكه المتحدة.

إلى من كان فيدل يتحدث؟ تقول الوثيقة بوضوح: «حين نتحدث عن الشعب، نحن لا نعني العناصر المحافظة... الشعب الذي نعتمد عليه في صراعنا هو هؤلاء: ٧٠٠ ألف كوبي بلا عمل، ٥٠٠ ألف عامل مزرعة، ٤٠٠ ألف عامل صناعي ومائة ألف من صغار المزارعين...». وهكذا كان.

ولكن وسط حديثه عن الدم والمذبحة والغضب، عرض فيدل كذلك رؤية مشرقة وبراقة للمستقبل وأكد: «تستطيع كوبا أن تتحمل ببراعة عدد سكان يماثل ثلاثة أضعاف العدد الحالي. لا يوجد سبب إذن للتعاسة بين سكانها. يجب أن يزدحم السوق بالمنتجات، ويجب أن تمتلىء المخازن ويجب أن تكون كل الأيدي منتجة صناعياً، كل هذا أمر ممكن».

ومع اقترابه من نهاية خطابه، ذكّر القضاة مرة أخرى بالقتل البشع لرجاله على أيدي جنود الجيش. وأضاف وصوته يزداد ارتفاعاً: «أما عن نفسي، فإني أعرف أن السجن سيكون أقسى عليَّ من أي شخص آخر، مليء بالتهديدات والشر والقسوة الجبانة. لكني لا أخشى هذا، كما لا أخشى غضب الطاغية التعس الذي امتص حياة أخوتي هؤلاء».

ثم جاءت الكلمات النبيلة التي سجّلها التاريخ الثوري الكوبي - بل والتاريخ الثوري في كافة أنحاء العالم. وقال في كلمته إلى قاعة المحكمة بكل ما يملك من قوة درامية: «أدينوني، ذلك لا يهم!، التاريخ سوف ينصفني!».

انتهت المحاكمة، وحكم على فيدل كاسترو بالسجن خمسة عشر عاماً ونقل إلى سجن بونياتو في جزيرة الصنوبر «جزيرة الكنز» الجميلة في رواية روبرت لويس ستيفنسون جنوبي كوبا.

وكما مرّ البيان الشيوعي دون ذكر تقريباً حين كتب عام ١٨٤٨، بدأ خطاب

فيدل «التاريخ سوف ينصفني» ينمحي من أذهان الكوبيين بعد انتهاء العاطفة الأصلية التي ولدتها عمليات القتل والمحاكمة في كوبا. لذلك بذل فيدل جهوداً جبارة ليتأكد من أنه لم ينس وأن الأيدي ستتناقله عبر أرجاء كوبا حتى يتحول إلى أغنية ثورية ترددها الألسن من شاطىء البحر إلى الشاطىء المقابل.

وفي الأيام الطويلة على جزيرة الصنوبر، بدأ فيدل في إعادة كتابة خطابه، والتوسّع فيه وتغييره بطرق عديدة. وتقول الرواية الشعبية الكوبية أن فيدل ألقى خطبته معتمداً على نقاط، وأن مارتا روهاس صحفية البوهيميا، كانت تكتب بسرعة شديدة وهو يتحدث لتدوّن كل شيء. وأثناء مغادرة فيدل لحجرة الممرضات همس إلى روهاس على عجل: «هل كتبته كاملاً؟ ألديك كل النقاط؟». وسواء كانت هذه القصة حقيقية أم لا، فإن فيدل بدأ بالفعل بكل دقة في دمج ونشر أفكاره. وبين سطور الخطابات العادية لأصدقائه، كان يضع مقاطع من خطبته، بعد مراجعتها، وإعدادها وتنظيمها وقد كتبت بعصير الليمون حتى لا يراها مراقب السجن. وفي وقت لاحق أخبر فيدل الصحفي الأمريكي المتعاطف معه روبرت تيبر «سوف تدهشك كم كانت المهمة شاقة، لم أكن أكتب سوى عشرين دقيقة يومياً تقريباً كل مساء عند الغروب حين كانت الشمس تميل متخللة الورقة...».

حين أطلق سراح ميلبا وهايدي من السجن في فبراير ١٩٥٤ كانتا تتلقيان خطابات من فيدل تحملها غالباً ميرتا، فكانتا تقومان بكي الأوراق بعناية لتظهر الكتابة بعصير الليمون ثم يجمعونها كلها معاً. والأهم أن فيدل أراد طبع مائة ألف نسخة من هذه الوثيقة لتوزيعها في كل الجزيرة (وعلقت هايدي بعد سنوات: «لقد اعتقدنا أنه جنّ في السجن»). ولكن هذه الخطة كانت طموحة أكثر من اللازم، فقد كانتا تملكان الوقت والمال لكتابة عشرين ألف نسخة فقط. وتتذكر ميلبا أنهما قادتا سيارة قديمة عبر كوبا محملة «بشحنتها» الثورية والربيع على الأبواب، وتوقفتا عند كل بلدة لتتركا نسخاً للتوزيع.

وفي الوقت نفسه، كان فيدل يستحثهم بكميات هائلة من الخطابات من سجنه. وكتب يقول لميلبا: «لا يجب التخلي لحظة عن الدعاية، لأنها روح كل نضال» كما حثّ المرأتين على استثارة عداوة أقل عدد ممكن من الناس ، فلم يحن بعد وقت «الاستبعاد». ومع كل جهود هايدي وميلبا فإن الخطاب، أو إعلان المبادىء، أو منشور دعاية الحركة ـ أو أياً كانت حقيقة «التاريخ سوف ينصفني» ـ فإنه لم يصبح شعبياً ومقدساً إلاّ بعد انتصار الثورة عام ١٩٥٩. ولكن ما هو البرنامج الذي

قدسه؟ هل أشار، كما ثار الجدل بين العديدين من مؤرخي ومحللي كوبا وكاسترو، إلى كاسترو كرجل مثالي؟ كشيوعي واضح في تلك الفترة؟ كديمقراطي تعرض للخيانة؟.

ليس هناك شك أنه مع خطبته «التاريخ سوف ينصفني» خرج كاسترو من حدود الأحزاب السياسية التقليدية في كوبا. ويؤكد صامويل فاربر، محلل شؤون كاسترو، على سبيل المثال أن «برنامج كاسترو كان أكثر راديكالية مما طرح المتشددون من قبل»، لكن شيوعي؟ لا على الإطلاق. وأشار هربرت ماثيوز صحفي النيويورك تايمز إلى أنه لو أن كاسترو «كان مخلصاً لماركس ولينين كما زعم بعد ذلك، لما طرح شيئاً غير متناسق إلى هذا الحد». ومن الغريب أن كاسترو نفسه في إحدى لحظات المصارحة والحقيقة التي تظهر وسط كتاباته وخطبه، في خضم أحلامه المتغيرة أبداً وإعادة كتابته للتاريخ بصفة مستمرة يبدو في أوقات هامة متفقاً مع وجهة النظر هذه. وفي أواخر الستينات، أخبر لي لوكوود أن «خطاب مونكادا... يمكن اعتباره ماركسياً إذا أردت، ولكن الأرجح أن الماركسي الحقيقي سيقول انه ليس كذلك».

في الحقيقة، الأمر ليس بكل هذا التعقيد. كان فيدل يريد ثورة راديكالية، تقدمية شعبية للفقراء يقودها رجل شعبي من جذور اسبانية ولكن يساري. كان المنتظر أن تكون هناك «مساواة» جديدة للفقراء ولكن فقط في ظل زعامة هذا الرجل.

وهناك جانب آخر هام في خطبة: «التاريخ سوف ينصفني». واستمعوا إلى هذه الكلمات: «لأنه ليس أنتم أيها السادة الذين تصدرون أحكاماً علينا... هذا الحكم ستعلنه محكمة التاريخ الأبدية... قد تعلنوننا مذنبين آلاف المرات ولكن آلهة المحكمة الأبدية للتاريخ سوف تبتسم وتمزق مذكرة مدعي الدولة وحكم هذه المحكمة إرباً، لأنها تبرئنا».

هذه الكلمات قالها أدولف هتلر في نهاية محاكمة انقلاب راتوس عام ١٩٢٤ بعد محاولته في التاسع من نوفمبر ذلك العام الاستيلاء على الحكومة الالمانية عن طريق الهجوم على وزارة الحرب في ميونيخ بثلاثة آلاف رجل من قوات العاصفة. هذا أيضاً كان هجوماً: «جنونياً» ولكنه جعل هتلر شخصية وطنية وبطلاً مخلصاً في أعين الكثيرين من المرضى والواهمين والساديين في هذه الأراضي المضطربة. كم لديهم من «الشجاعة» المجنونة ليقفوا أمام المحكمة الالمانية ويقولوا، كما قال هتلر بفخر، «أجل هذا ما أردنا تحقيقه، أردنا تدمير الدولة«.

ليس هناك شك أن آخر كلمات فيدل جاءت من قراءته المتأنية لخطاب راتوس لهتلر وفي الواقع أن الاستراتيجية كلها لمونكادا تتفق في كثير من الوجوه مع انقلاب هتلر الفاشل. وبينما فيدل لا يمكن أن ينحدر أبداً إلى مستويات هتلر الوحشية فإنهما كأشقاء زعماء للكاريزماتية الشمولية كان لديهما الكثير من العوامل المشتركة. كانا كلاهما يهدفان إلى خلق نظام فوق القانون، كلاهما قضى على أعدائه المحتملين قبل وقت طويل من تحوّلهم إلى أعداء بالفعل. ولكن ربما لم تكن أوجه التشابه بينهما واضحة من قبل كما كانت في خطبتي محاكمتيهما. وقد كتب المؤرخ وارد مورتون أن كليهما اتهم ممثلي الإدعاء «بخيانة الروح الحقيقية ومصير الوطن. كلاهما وصف ممثلي الإدعاء والنظام الذي يمثلونه في المحاكمة، بالجبن والقسوة والاضطهاد والخيانة للروح الوطنية، كلاهما أعلن مهمة: تحقيق المصير الحقيقي لأرض الوطن عن طريق تطهيره من كل أخطائه. واحتوت الخطبتان على إشارات عديدة إلى الدم، الموت والتضحية وانتهى كلاهما بنفس الكلمات تقريباً».

وفي عام مونكادا، ١٩٥٣، اختارت مجلة بوهيميا فيدل كاسترو كواحد من اثني عشر من «أبرز الوجوه العالمية» إلى جانب شاه إيران والملاكم المحترف كيد جافيلان والرئيس الكوستاريكي خوسيه «بيبي» فيجويرس، والملكة إليزابيث ملكة انجلترا، ولافرينتي بيريا رئيس المخابرات السوڤييتية (كي. جي. بي.).

كان سجن «بريزيديو» على جزيرة الصنوبر يتكون من أربعة مباني دائرية تحيط بحبس مستدير كبير في الوسط. كل دائرة ترتفع ستة طوابق بكل طابق ٩٣ زنزانة. كان هناك برج في وسط الدور الأول يستطيع من فوقه الحرس مراقبة كل شخص في الدائرة. بنى الجنرال ماكادو السجن عام ١٩٣١ ويتسع لخمسة آلاف سجين. وتقول الروايات إنه حين بناه ماكادو سأله شخص ما متفكهاً، «لماذا شيدته كبيراً هكذا؟» أجاب ماكادو: «يوماً ما سيأتي شخص مجنون ويملأه».

إذا كان فيدل قد حوّل محاكمة الدولة له إلى محاكمته هو ضد الدولة فإنه حوّل الآن الزنازين في سجن «بريزيديو موديلو» المثالي إلى مدرسة. لقد أصبح السجن أرضية تدريب ثورية ومركز تعليم مثالي، حيث خلق فيدل بوعي وعن عمد «طليعة» من الرجال ليكونوا قلب الحركة القادمة. كانت تلك شهوراً من الإعداد الهادىء النادر والدؤوب.

وفي تناقض حاد مع السجون التي أنشأها هو شخصياً فيما بعد، كانت زنزانة فيدل واسعة بما يكفي لأن يسير فيها جيئة وذهاباً، وهو ينسج أفكاره الجديدة

وإيديولوجياته بشأنها في رأسه. كان أحياناً يجلس ويتأرجح على مقعده الهزاز، وأحياناً كان يطهو السباجيتي في إنائه الصغير ولكن أعظم حب في حياته هذه الأيام، إلى جانب تخطيطه وتآمره الدائمين من أجل المستقبل، كان الكتب. وكتب في خطابه لأصدقائه في الخارج في ١٩ ديسمبر ١٩٥٣. «السجن فصل رائع! أستطيع أن أشذب نظرتي للعالم هنا ومعرفة مغزى حياتي...».

كان فيدل قد عومل بأسلوب اسباني صرف باعتباره «سجيناً سياسياً» مما يعني أنه ينال الاحترام ولا يعاني أياً من العقوبات الموقعة على المجرمين العاديين. وبالإعجاب الاسباني بالرجل المتعلم، كان غالباً ينادى بـ «د. كاسترو» من جانب المسجونين الآخرين وعمال السجن. وقد أسميت «المدرسة» الصغيرة التي بدأها لرجاله «الأكاديمية الإيديولوجية» في ذكرى أبيل سانتياماريا وكتب في أحد خطاباته العديدة لأصدقائه بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٥٣: «يُسمح لنا بالذهاب إلى الساحة من الساعة ١٠ إلى ١٠,٣٠ صباحاً ومن ١ إلى ٤ بعد الظهر. وكل صباح من ٩,٣٠ إلى ١٠,٣٠ ألقي كلمة ـ عن الفلسفة يوماً، وعن تاريخ العالم في اليوم التالي، ويعطي رفاق آخرون محاضرات عن التاريخ الكوبي، النحو، الحساب، الجغرافية واللغة الانجليزية...».

أبقى فيدل على الروح الإنفصالية لمجموعته عن طريق تشجيع الإحساس الموحّد بالعداء ضد الحراس وضد الحكومة، كما أنه بأسلوب فيدل المعتاد، أسّس على الفور لرجاله نظاماً أشد صرامة مما يحتاجه السجن. وقال بيدرو ميريت فيما بعد: «كنا إذا أمرنا بالاستيقاظ في السادسة صباحاً، استيقظنا في الخامسة والنصف في نظام تام». وكان السبب مناصرة فيدل. ويوضح ميريت: «حين نكون أشد انضباطاً من نظام السجن، كنّا نستطيع القيام بما نريد، وبالنسبة للسلطات كنّا نبدو سجناء هادئين جداً، لذلك تركونا وشأننا. وكانوا جهلة لدرجة أنهم لم يفهموا يوماً ماذا نفعل بالتعليم». كما كانت تلك وسيلة لإحلال نظام خارجي عن طريق إقامة نظام داخلي خاص قاصر على المجموعة.

ومن الغريب أن فيدل في ذلك الوقت كان أيضاً «يقاضي» باتيستا. ونتيجة لعمليات التعذيب والقتل التي أعقبت مونكادا، رفع فيدل ثلاث قضايا ضد الدكتاتور وثلاثة من كبار قادته. وينص القانون الاسباني على أن يقاضي المسجون رئيس الدولة الذي سجنه. في الواقع، كانت مذكرات هذه القضايا لا تزال تطرح لجلسات استماع مع توقّع نتائج مبهمة، تقريباً حتى صدور العفو عن فيدل سنة ١٩٥٥.

في هـذه الفترة وقـع حدث غـامض آخر، هـذه المرة فيمـا يتعلق بحيـاة فيـدل الشخصية. ففي سجن جزيرة الصنوبر، كانت كل الخطابات الداخلة والخـارجـة تمـر عبر مراقب يدعى خوسيه ميجويل ريفاس لم يكن على الإطلاق متعاطفاً مع بـاتيستا، وقد حاول مساعدة الفيديليستا كثيراً. كان يرجوهم كتابة خـطابات يستـطيع أن يـدعها تمر قائلاً: «يا سادة، أرجوكم لا تكونوا قساة هكذا في خطاباتكم، وإلاّ سأصبح نزيلاً معكم».

أخبرني تومـاس ريجالادو الأب، حين التقينـا في ميامي عـام ١٩٨٥ أن «هؤلاء الذين يعيشون علاقات خارج إطار الزوجية يعلمون جيداً أنه لا يجب كتابـة خطابـات في اليوم نفسه لكـل من زوجتهم وعشيقتهم». كان ريجالادو في السجن في نفس فترة سجن فيدل لأنه اشترك في هجوم آخر فاشل ضد الـدولة. ومـع ذلك فقـد كتب فيدل خطابين. ذات يوم كتب خطابين لميرتا وناتي. ولسـوء الحظ اختلط الخطابـان وتلقت ميرتا خطاب ناتي وناتي خطاب ميرتا. وهذا بالطبع أذهل وأثار حفيـظة ميرتـا الصبورة عادة. في الواقع إنها كانت آخر ضربة لا تحتمل. فقبل ذلك كانت ميـرتا تـزور فيدل في السجن، وغالباً ما تحمل ثوب نوم جديد وعـطر، وتحمل خـطاباتـه ورسائله إلى الحركة. (وكان معظم أعضاء الحركة لا يحبونهـا، وقد اعتقـدوا أنها بـورجوازيـة أكثر من اللازم. وكانوا يشتبهون في علاقات أسـرتها ببـاتيستا). والآن، انتهى كـل شيء. لكن ـ بالصدفة؟ لا أحد في السجن، ولا أحد عرف فيدل اعتقد ذلك.

وأصبحت ميرتا أكثر يأساً مالياً وشخصياً من أي وقت مضى. لذلك قـرّر رفايـل مساعدتها بإعطائها إعانة، وهي عمل حكومي لا يضـطر فيه المـرء إلى العمل فعـلاً. وفي هذا الوقت كان رفايل الرجـل الثاني في وزارة داخليـة باتيستـا تحت إدارة رامون هيرميدا، لذلك جاءت إعانة ميرتا التي تتراوح بين ٩٠ إلى ١٠٠ دولار شهرياً مبـاشرة من الوزارة التي يكرهها فيدل أكثر من أي شيء آخر.

وإذا كان رفايل يوماً هو صديق فيدل الـوحيد الحميم، فـإنه الآن يعـارض فيدل بشدة إيديولوجياً ويشعر بمرارة شديدة للأسلوب الذي يعامل به فيدل ميرتا ويستغلها. ويقول رفايل: «حين دخل فيدل السجن بعد مونكادا، بدأ يستغل ميرتا، كـان يعطيهـا بيـانات لنشـرها في الصحف. لم يسبق أن استغـل أي زعيم كوبي آخـر زوجته بهـذه الطريقة. لقد أمر فيدل ميرتا بالإدلاء بتصريحات ضد الحكومة ـ عن طريق الصحف ـ بل وأرادها أن تهاجمني. . . ».

لكن بينما كان رفايل قادراً على مساعدة ميرتا للتغلب على مشكلتها مادياً، فـإنه

لم يكن يستطيع السيطرة على علاقة شقيقته بزوجها. ذات يوم، بعد قليل من ترتيب مسألة المساعدة المالية، تلقى رفايل كلمة من صديق له أن ميرتا، نيابة عن زوجها، شنت هجوماً على هيرميدا. وسرعان ما عقد الوزير مؤتمراً صحفياً وكشف عن حصول ميرتا على إعانة من الوزارة، وشعرت ميرتا بالإذلال والرعب وأصبحت ملعونة أبداً.

في البداية، فهم فيدل ما يجري حوله فهماً خاطئاً، وهي إحدى المرات النادرة التي يحدث فيها هذا. وظل في اعتقاده أن رفايل، الذي أصبح فيدل يكنُّ له كراهية وبغضاً شديدين، اختلق القصة، كتب فيدل إلى ميرتا بحرارة غير عادية. وفي خطاب مؤرخ ١٧ يوليو ١٩٥٤ ذكر: «ميرتا: لقد علمت لتوي من الأنباء (الحادية عشر مساء) أن الوزارة... أعلنت صرف ميرتا دياز بالارت من العمل. ولأني لا أستطيع أن أصدق تحت أي ظروف أنك كنت يوماً موظفة في هذه الوزارة، فقومي فوراً وارفعي دعوى تشهير ضد هذا الرجل... وأنهى الخطاب قائلاً: «إنّي أفهم حزنك، لكن اعتمدي على ثقتي وحبي المطلقين».

لكنه سرعان ما عرف الحقيقة ولم يغفر لها على الإطلاق. وبداية من الخطاب إلى ناتي ونهاية بالإعانة، انتهى الزواج. وسرعان ما رفعت ميرتا قضية طلاق.

هل أحب فيدل فعلاً زوجته المهذبة، الجميلة الوفية؟ بين مليارات الكلمات التي كتبها ورددها، لم يتحدث فيدل مطلقاً عن «الحب». تكلم عن الشرف والقيم، والشجاعة والاستشهاد وتحدث كثيراً جداً عن الكراهية والتدمير والموت. في خطاب واحد فقط بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٥٤ الذي سجله التاريخ (مثل معظم مجموعات خطاباته) دون معرفة اسم المرسل إليه كتب عن الحب بين شخصين قائلاً: «الحب مثل ماسة، أقوى وأطهر المعادن، قادرة على خدش أي شيء لكن لا شيء يمكن أن يخدشها. لكن لا تستطيع تنظيف وجه واحد فقط، وتهذيبه، فإنها لا تصبح كاملة إلاّ إذا تمّ قطع وتهذيب كافة الحواف. ثم عندها تتألق من كافة الزوايا بإشعاع لا يقارن. وتصبح الاستعارة مثالية إذا كانت الماسة، بعد صقلها، تكبر وتكبر. الحب الحقيقي يقوم على عدة أحاسيس لا إحساس واحد فقط، وكلها توازن فيما بينها تدريجياً، كل منها يعكس ضوء الآخر». وهناك بعض الشك أن الخطاب كتب عن ميرتا الصغيرة.

في فترة حادث الإعانة، على الأقل لفترة ما، كان يبدو غارقاً في تعاسته الشخصية. ربما فقط لأن زوجته (وبالتالي أخلص أتباعه) خانته. أو لأن ابنه الصغير الآن بين أيدي «عائلة يهوذا» كما أصبح يصف أسرة دياز - بالارت. وقد كتب لصديقه المذيع الشهير لويس كونتي أجويرو في يوليو ١٩٥٤ «اني أعيش لأن عليّ واجبات

يجب القيام بها. . . ومن بين الكثير من اللحظات الرهيبة التي اضطررت لمعاناتها خلال عام واحد، أفكر كم سيكون لطيفاً أن أموت» وفي خطاب آخر لأجويرو كان يستغرق في أفكاره: «هل لاحظت عدد الروابط الخفية التي يتعين على الرجل أن يحطمها إذا كان مصمماً على أن يعيش في توافق مع أفكاره؟» كان تعبيراً سليماً عن يقين الزعيم من عجزه عن إقامة روابط إنسانية مرئية ـ وعن لحظة حزن نادرة إزاء هذه الحقيقة. أصرّ المقربون من ميرتا وفيدل أن أيهما لم يرغب فعلاً في الطلاق، حتى بعد «فضيحة الإعانة» لكن لم يكن هناك مخرج وقتها، وأكدوا أنهما ظلّا يحبان بعضهما سنوات طويلة بعد الانفصال.

بحلول ١٩٥٥، كان فيدل قد تجاوز تماماً هذه المشاعر غير العادية وكان يشعر بالثقة من جديد. واستمع ذات مرة إلى الإذاعة بينما الرئيس السابق جراو يلقي خطبة. وفي الخلفية، كان يسمع بوضوح أصوات الجماهير تغني: «فيدل كاسترو. . . فيدل. . . فيدل كاسترو!». وبينما فيدل يصغي، أصبح فجأة يفيض بشراً وتألقت عيناه الداكنتان الباردتا التعبير غالباً.

وبحلول ١٩٥٥، كان باتيستا أيضاً يشعر بالثقة. لقد «أعيد انتخابه» رئيساً، بحماس كبير من الولايات المتحدة رغم معرفة الجميع أن الانتخابات الأخيرة كانت مزيفة. لكن كما أنه أقدم على التصرف الخاطىء بعد مونكادا لأنه شعر بضعف، فعل الآن التصرف الخاطىء لأنه أحس بقوته: فقد استسلم لنداءات وتهديدات الحزب الأورثوذوكسي وتبادل المقاعد معهم في مجلس الشيوخ مقابل العفو عن سجناء مونكادا.

وهكذا في ١٥ مايو ١٩٥٥، خرج فيدل وراوول والآخرون منتصرين من سجن جزيرة الصنوبر، واستقلوا قارباً صغيراً عائدين إلى الأرض الرئيسية. وكان فيدل يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً داكناً وقد رفع ذراعه منتصراً فوق رأسه وهو يستقل القارب. ووقف راوول الصغير الواثق، بكل خضوع إلى يمين شقيقه الأكبر.

وبعد أيام من إطلاق سراحه، كان فيدل يقول للصحفيين أنه سيرحل الآن إلى مكان ما من الكاريبي لأن «الكفاح السلمي انتهى». ويمكن إيجاد عذر للمراقبين إذا تساءلوا بالضبط في أية مرحلة حدث الكفاح «السلمي».

الفصل الثاني عشر

سنوات المكسيك

«كأحد أتباع مارتي، أؤمن بأن الساعة حانت لأخذ الحقوق لا تسولها، للقتال بدلاً من المطالبة بها. سأقيم في مكان ما من البحر الكاريبي. ومن رحلات مثل هذه، لا يعود المرء، أو يعود والطغيان عند قدميه».

خطاب فيدل كاسترو قبل مغادرته كوبا إلى المكسيك في ٧ يوليو ١٩٥٥.

وحين عاد إلى هاڤانا، اسْتُقْبِل فيدل بحماس كبير. كان هذا الرجل، الذي عجز دائماً عن الفوز في انتخابات الطلاب، يحمل الآن على أكتاف مؤيديه الجديرين بالاحترام حتى مسكن شقيقته ليديا حيث اكتظت الحجرات الصغيرة برجال الصحف والمصورين والأقارب والأصدقاء. كان ذلك في منتصف مايو، وفي يونيو كان هناك أمران من المحكمة بالقبض عليه وكان يخشى على حياته، لذا في السابع من يوليو غادر كوبا راحلاً إلى ميناء فيراكروز ومنها إلى أراضي المكسيك العالية. وباعت شقيقته المخلصة ليديا ثلاجتها لتوفر له المال الكافي للسفر، وكالعادة حمل معه كتباً أكثر من الملابس.

لكن فيدل لم يضع ولا لحظة من هذه الأسابيع القصيرة التي قضاها في هاڤانا. وفي هذه الفترة، على العكس تماماً من الكلمات التي قالها سابقاً في المؤتمر الصحفي، بدأ على الفور في تشكيل منظمته الجديدة. كانت الحركة المبهمة التي زحفت إلى مونكادا قد أصبحت «حركة ٢٦ يوليو» الواضحة المعالم وقد عرفت فيما بعد بأنها /أم ـ ٢٦ ـ ٧/. ويحمل الاسم تخليداً لذكرى يوم هجوم مونكادا، كما أن له عدة رموز أخرى، لأنه كان هناك دائماً جانب خفي في فيدل، غذته تعاليم سانتيريا الافريقية ـ الكوبية بإيمانها السحري بالأرقام والألوان. وقد ذكر فيدل لاحقاً للقس فراي بيتو: «حسناً، لقد ولدت عام ١٩٢٦، وكان عمري ٢٦ عاماً حين بدأت الكفاح

المسلح، ويوافق يوم مولدي الثالث عشر أي أن ضعفه ٢٦، والآن حين أتفكر في الأمر ربما كان هناك شيء سحري بالنسبة للرقم ٢٦».

بالإضافة إلى إعطاء شكل ومضمون لحركته الجديدة، استغل فيدل وقته القصير في هافانا، لدعم اتصالات مهمة. ربما لم يكن أحدها أكثر أهمية أو له نتائج بعيدة المدى من لقائه مع «د. ماريانو سوري مارين» الذي كان وقتها ديمقراطياً ثورياً ضد حكم باتيستا. في البداية طلب فيدل من «د. سوري مارين» أن يقدمه لشقيقه هومبرتو. وهنا كان فيدل يبني بالفعل كادره المستقبلي، ذلك أن هومبرتو سوري مارين المحامي ورجل الاقتصاد، سوف يلعب دوراً هاماً في السييرا، وسوف يصمم الإصلاح الزراعي الهام، قبل أن يصاب بعشرات الطلقات النارية في رأسه ببنادق منفذي الإعدام التابعين لفيدل.

ثانياً، كان فيدل يريد من «ماريانو سوري مارين» أن يحمل رسالة إلى الرئيس الكوبي السابق كارلوس بريو نفس الشخص المحب للرفاهية الذي عنفه فيدل ذات مرة باعتباره «بائع ومشتري الاغتيالات»، بريو نفسه الذي هرب من كوبا بعد انقلاب باتيستا عام ١٩٥٢ والذي يعد الآن انقلابه المضاد الخاص والعودة للسلطة. كان فيدل يريد من «سوري مارين» أن يقول لبريو أن يطيح بباتيستا خلال ستة شهور أو يعطي المال لفيدل لكي يفعلها هوا وهنا يظهر الذكاء الخبيث لكاسترو مرة أخرى، فقد قال لسوري مارين: «إذا حدث انقلاب ضد باتيستا فإن اسمي سيختفي من التاريخ رغم أني صانع مونكادا».

وهكذا ذهب سوري مارين بدافع الواجب ليرى بريو ويسلم الرئيس السابق رسالة فيدل، التي ردّ عليها بريو الدمث الخلق بالإيجاب: «هذا شاب وعلينا أن نساعد الشباب» الآن، أصبحت مسألة وقت وفيدل يمكن أن ينتظر.

وبعد قليل من اللقاء مع سوري مارين، ذهب فيدل شخصياً للقاء الدكتور خوسيه ميرو كاردونا أحد أساتذته السابقين في جامعة هافانا. وأخبره بفخر أنه «ذاهب إلى المكسيك ليصنع الثورة».

لكن ميرو كان رجلاً شكاكاً، فقد حدّق في فيدل وقال «وضد من ستقوم بالثورة؟».

لم يبد فيدل أي تردد ودون أية سخرية أجاب: «ضد كارلوس بريو بالطبع».

في ١٩٨٦، تحدثت إلى جورج فالس «الكاتب» المحترم المثقف مؤلف

«المبادىء الثورية» المناهض لباتيستا. أخبرني فالس أن ملاحظة فيدل بثت الحيرة في نفس ميرو لمدة سنوات قبل أن يوقن في النهاية أن حرب فيدل الأولى والرئيسية لم تكن ضد باتيستا لكن ضد أي ثوريين منافسين. فلم يكن تحت أي ظرف ليسمح بحرمانه من الفرصة!.

وقد بدا أن هناك نوعاً من العجلة في مسلك فيدل في هذا الوقت، فحتى قبل أن يغادر إلى المكسيك كان واضحاً تماماً بصدد ثورته الخاصة. لقد قرّر بالفعل إنزال قوة متمردة في أوريانتي، إقليم مولده وإقليم مونكادا. وقرّر أن يصل بقارب سائراً على خطى مارتي. في الوقت نفسه أعدّ فيدل حوالي عشرين شخصاً للحفاظ على الحركة حية في هافانا. ولأنه فيدل، فقد ترك كل منهم يعتقد أنه أو أنها اختياره الوحيد والممثل القوي في كوبا.

في هذا الوقت تقريباً، سافرت امرأة شابة سوداء الشعر من الطبقة العليا تاركة الطرف الشرقي للجزيرة إلى هافانا خصيصاً لمقابلة فيدل. وقد فشلت في العثور عليه، عندئذ. وعادت سيليا سانشيز خائبة الأمل إلى موطنها.

كانت مدينة مكسيكو التي سافر إليها فيدل ورفاقه منفيين في صيف ١٩٥٥، مكاناً رائعاً، مدينة أنيقة ذات شوارع عريضة وهواء نقي لدرجة أنه بوسعك أن ترى البركانيين التاريخيين بالمدينة يرتفعان إلى سماء الجبل في ضوء سحري. ولكن في حين خلبت هذه الروعة الحضارية لب خوسيه مارتي حين زار هو أيضاً المدينة في جولاته الأولى، فإن فيدل كاسترو اعتبر مكسيكو منفى سياسياً فحسب وصخرة يتوقف عليها ليستعد لتحريك العالم.

أما مجموعته، وهي في عملية التكوين لتتحول إلى طليعة حركة /أم - ٢٦ - ٧/ فقد كانت ترى هذه الأسابيع والشهور الأولى في مكسيكو استمتاعاً وسحراً وسعادة غريبة شبيهة بتلك التي عاشوها في الليلة الأخيرة في مزرعة /السيبوني/ قبل هجوم مونكادا. ومرة أخرى، وصل الرجال والنساء سراً إلى مدينة مكسيكو واحداً واحداً أو كل اثنين معاً، ومرة أخرى كان هناك الإحساس بالتوقع والهدف النبيلين. واعترف خوان ألميدا فيما بعد: «هناك وجدت سعادة لقاء رفاق معركتي. هل تعلمون كيف هو هذا الشعور مقابلة الأصدقاء من المواطنين في دولة أجنبية؟ لقد بدأنا التدريب على إطلاق النار، ونحن نقول لأنفسنا أن كل طلقة دفع ثمنها بعرق ودماء رفاقنا الباقين في كوبا...».

وسرعان ما أقامت المجموعة التي تراوحت بين ستين إلى سبعين فرداً، في ستة

منازل مأجورة موزعة في أرجاء المدينة، منازل بسيطة أو شقق عادية. ولو أن أحداً عرف بما يفعلون، لما صدقه على الأرجح، لأنهم كانوا يمثلون مظهراً ثورياً غريباً، «فالتدريب» يومياً بالجري ذهاباً وإياباً في شارع «انسورجانتس» والتجديف ساعات كل صباح في بحيرة حديقة شابولتيبيك.

وازدادت فكرة السرية التقليدية عند فيدل تسلطاً على أفكاره. كانت المجموعات المختلفة مقسمة تماماً في هذه الشهور الأولى، وفيدل وحده يعرف كل فرد وروحه ـ وسحره ـ وحدهما اللذان يجمعاهم معاً. كان النظام صارماً ومتنوعاً، وكان لكل من المنازل الستة قائده، وكل مجموعة ممنوعة من زيارة الآخرين. ويتذكر يونيفيرسو سانشيز دورانتي أحد زعماء المجموعات «لم يكن مسموحاً بالخروج دون تصريح، كان هناك نظام عسكري مثل الحديد. منذ اللحظة الأولى لوصولك هناك، لم يكن ممكناً الحديث في الشارع، لا علاقات مع أي شخص، لا استقبال لزائرين ولا زيارات للمنازل الأخرى، لا مكالمات هاتفية، وممنوع إعطاء العنوان إلى أي شخص... كان بكل منزل محكمة مكونة من رفيقين أو ثلاثة لها الحق حتى في الحكم بالإعدام... كنّا نعدم الناس رمياً بالرصاص هناك».

لم تكن سطوة فيدل القيادية قاصرة على أتباعه المباشرين. والمثل الأفضل على هؤلاء الذين من خارج الحركة وأعطوا مع ذلك مساندة حاسمة لقضيتها كان أورلاندو دي كارديناس، الكوبي الذي غادر بلاده في سن الثامنة عشر بسبب ديكتاتورية باتيستا، وتزوج من أمريكية في نيويورك، ثم ذهب إلى المكسيك حيث التقى بفيدل. وقال لي دي كارديناس الرجل الذكي، اللماح بعد عدة سنوات: «كان فيدل يتمتع بقدرة هائلة على الإقناع. لقد كانت لي تجارب أكثر في الحياة، لكن تجاربه السياسية كانت أكبر. لقد أقنعني بالحاجة إلى المساعدة في تحرير كوبا. وكنت مصمماً على مساعدته في كل شيء. جاء أحد عشر من زملائه للعيش معي، ولم يكن لدينا أبداً طعاماً كافياً. استخدمنا سيارات وكالة إيفيز ولم يكونوا قادرين على استئجارها، لذلك استأجرتها لهم».

حتى زوجة دي كارديناس الأمريكية انحازت إلى جانبهم. ولكن والدته لا. ويتذكر دي كارديناس: «لقد كرهته، جزئياً لأنه كان يعرض ابنها للخطر، ثم ذات يوم قال فيدل «سوف أتحدث إليها». وتحدث إليها لمدة نصف ساعة. وبعدها قالت أمي «سأفعل أي شيء، لو كان خطراً سأفعله. لا أحد يشك في امرأة عجوز في السبعين من عمرها».

ولكن بقدر ما كان أمثال أسرة دي كارديناس مفيدين له، فإن قوة فيدل الحقيقية استمدت من مجموعة من أربعة رجال: شقيقه راوول، وألبرتو بايو الجنرال الجمهوري الاسباني ومقاتل حرب العصابات، وأرنستو «جي» جيفارا، الطبيب الارجنتيني اللامع والثوري الراديكالي، وفرنك بايس المنظم الثوري الكوبي، المفكر. لقد أصبح كل منهم، بطريقته الخاصة، وجهاً تاريخياً له احترامه ـ وكل منهم ما عدا راوول ـ انتهى إلى إنكار فيدل أو تدميره له.

حين التقى الجنرال بايو لأول مرة بفيدل، علم أنه أخيراً التقى بمصيره المحتوم. وقال لأصدقائه عن فيدل: «هذا ثوري حقيقي». وبطريقته الخاصة كان بايو يبحث عن فيدل كاسترو زمناً طويلاً ـ وكان فيدل يبحث عن بايو أو على الأقل على «مثيلٍ له».

ولد بايو الضخم الجثة، صاحب اللحية الشبيهة بلحية فان دايك، في كاماجوي بكوبا سنة ١٨٩٢. وجذوره اسبانية مثل كاسترو. حارب بايو في صفوف القوات الجوية الاسبانية الجمهورية ضد الجنرال فرانشيسكو فرانكو، وحارب في افريقيا، حيث كان كابتناً في الفرقة الأجنبية الاسبانية ومنظماً لعمليات حرب العصابات. فقد بايو عينه اليمنى في افريقيا. ثم عاد إلى كوبا، وانتهى به الأمر إلى العمل في مصنع أثاث في مكسيكو. وليس غريباً أنه كان يبحث عن «كاسترو» فقد كان بايو في المكسيك محارباً بلا حرب.

التقى الرجلان في أغسطس ١٩٥٥، حين أحضر صديق الكوبي الشاب إلى مسكن بايو. لم يكونا وحدهما لذلك فبعد تبادل الحديث لفترة، طلب فيدل من بايو كوب ماء. ثم اعترض طريق الجنرال العجوز بمفرده في الرواق. وقال له: «غداً في الرابعة سآتي لرؤيتك وحدي».

في اليوم التالي حين عاد فيدل، أخبر بايو مباشرة: «أنا محامي كوبي. أريد أن أحارب والسلاح في يدي ضد باتيستا. ورغم أني في التاسعة والعشرين فقط، فأنا أعرف أنك كنت في افريقيا وخضت حرب عصابات ضد قبائل المورز لمدة أحد عشر عاماً وأنك كتبت عدة مؤلفات عن الموضوع... أرجوك ساعدني على تدريب رجالي».

وعندئذ سأل بايو بشكل عملي: «كم عدد الرجال معك؟».

وقال فيدل: «لا أحد بعد. لكني ذاهب إلى الولايات المتحدة للحصول على رجال ومال وأود أن أعرف إن أمكن أن تصبح معلماً لرجالي».

وأجاب بايو: «سوف أفعل، ولكني أخشى أني لا أؤمن كثيراً بنجاحك الممكن في مثل هذه المهمة. شاب في التاسعة والعشرين فقط؟».

وردّ فيدل ببساطة: «سوف أنجح».

وباع بايو مصنع الأثاث الذي يملكه وسرعان ما أصبح مدرباً لرجال حرب العصابات التابعين لفيدل.

في البداية، كان بايو يتنقل من منزل آمن إلى منزل آمن آخر متنكراً «كمدرب انجليزي» ثم درب الرجال في مزرعة لإطلاق النار تسمى لوس جاميتوس خارج مدينة مكسيكو. وأخيراً، عثر هو وعدد من مساعدي فيدل الموثوق فيهم على منطقة تدريب مثالية بالقرب من مدينة شالكو وهي عبارة عن مزرعة مساحتها ٩٦ ميلاً مربعاً تسمى «سانتاروزا». كان منزل المزرعة كثير الحجرات، وكانت محاطة بسور حجري ارتفاعه تسعة أقدام وبها أبراج للحماية وكانت أشبه بحصن وقد كانت حصناً بشكل ما. ولأنه رجل ماهر، نجح بايو في طمأنة المالك إلى أن كولونيلاً مليونيراً من امريكا الوسطى متشوق لشراء «سانتا روزا» بالثمن الذي يطلبه المالك وهو ٢٤٠ ألف دولار ولكن أولاً يجب إصلاح المنزل وطلاؤه. وهكذا دفع فيدل ورجاله إيجاراً زهيداً قدره ثمانية دولارات فقط في الشهر خلال الإصلاحات. وقد أصرّ استر لوبيز مالك المزرعة وكان بائع لبن صغير، أن «فيدل كاسترو لم يدفع مطلقاً ثمن المزرعة».

في سانتاروزا، تحت مراقبة فيدل عن بعد، سيطر بايو بتفوق. درب الرجال على القتال الليلي واستخدام الأسلحة والطيران والمتفجرات والألغام المضادة للدبابات. كان سعيداً كطفل مرة أخرى. وذات يوم سأل الرجال عما إذا كان لديهم معجون أسنان، صابون، معجون حلاقة. ثم أخذ كل شيء للنظافة الشخصية منهم، قائلاً في حدة، «رجل حرب العصابات لا يحلق، ولا ينظف أسنانه، لذلك فمن الآن وصاعداً لن يستحم أحدكم أو ينظف أسنانه أو. . .» وفي وقت آخر أخربهم، صادقاً كما اتضح بعد ذلك، أن «عدداً قليلاً منكم سيبقى حياً في كوبا، سوف تنتصرون، لكن من بينكم سيبقى قليلون».

وفي وقت لاحق قال لمجلة «أجيرسيتو ريبيلدي» الصادرة عن الجيش المتمرد في هافانا ان «الفكرة بدت مستحيلة، لقد كانت لي آلاف المحادثات المشابهة مع مثاليين خياليين يحلمون بتنظيم حرب عصابات للإطاحة بفرانكو، سوموزا، تروهيلو، بيريز جيمينيز، نيرون، أودريا، باتيستا، ستروسنر، ردهاس بينيلا وعديدين آخرين. ولكن كل هذه المحادثات ما ان تنتهي حتى تتلاشى في الهواء كدخان سيجارة».

من المرجح أن أرنستو «جي» جيفارا التقى فيدل في أوائل يوليو ١٩٥٥، نحن نعرف أن اللقاء تمّ في منزل صديقتهما المشتركة الكوبية ماريا أنطونيا جونزاليز في رقم ٤٩ شارع إيمباداان وهو أحد تلك المنازل المكسيكية البسيطة التي تدعي أنها تطل على الشارع في صداقة ثم تحمي نفسها بالجدران الاسبانية. كان أحد تلك اللقاءات التاريخية النادرة بين رجلين تضافرت نقاط قوتهما وضعفهما فيما بينهما مثل أجزاء آلة ضخمة، لحظة في الزمن حين تتقابل عواطف الغضب السياسي وتتكامل. مثل لينين وتروتسكي، هتلر وجوبلز، ماو وتشو تيه، جاء كل منهما إلى الاتحاد بإحساسه التام بالعقد ولكن كلاً منهما قدم إلى تعاونهما الغريب والمثمر فضائل مختلفة تماماً. كان فيدل قاسياً ولكنه تمتع بإحساس غير متبلور ضروري بالنسبة له، بأنه يفعل ما يفعله من أجل الجماهير. أما «جي» الأكثر إنسانية على المستوى الفردي، فإنه كان مع ذلك مستعداً بالتضحية بكل شيء من أجل الفكرة.

تبادل الرجلان الحديث لمدة عشر ساعات في تلك الليلة الصيفية المكسيكية الدافئة. وكتب «جي» بعد ذلك بفخر: «في الفجر، كنت قد أصبحت بالفعل طبيب الحملة القادمة» أما عن فيدل فإن «جي» اعتقد بإعجاب أنه «واجه وحلّ المستحيل. كان لديه إيمان لا يتزعزع أنه حين يغادر سوف يصل إلى كوبا، وأنه ما أن يصل حتى يقاتل، وأنه حين يبدأ القتال فسوف ينتصر. . . وقد شاطرته تفاؤله». وكتب جي في وقت لاحق إلى فيدل أنه «تأثّر بإحساس بتعاطف رومانسي مغامر وباقتناع أنه يستحق الموت على شاطىء غريب من أجل مثل هذه الفكرة النقية».

ولد إرنستو جيفارا في مدينة قرطبة الأرجنتينية التاريخية بعد عامين من مولد فيدل في بيران، ولكن في حين كانت أسرة فيدل العادية ثرية، فإن والدي «جي» الارستقراطيين كانا فقيرين. كانت والدته، سيليا، جميلة، عاطفية، تعبد أبناءها الخمسة، ووالده إرنستو الكبير، كان مهندساً مدنياً، كان الأكثر عملياً في هذه الأسرة المتواكلة والخلاّقة ـ وكان ديمقراطياً إلى حد غير عادي بالنسبة لزمنه ومكانه.

ومنذ صباه كان جي، مثل فيدل، عاجزاً عن فعل شيء، بالإسلوب العادي، وأيضاً مثل فيدل، كان يحب الأشياء بطريقته الخاصة. حين كان في الثامنة، قيل له إن الحبر والطباشير سامة ولا يجب وضعها في فمه. ولكن «جي» قال لزملائه في الفصل «أنظروا» ثم أعد في احتفالية الطباشير ودواة الحبر مثل أفطار عامل، ووضع الطباشير في الحبر ثم قضم قضمة كبيرة وقال بأسلوبه الخاص الذي ميّزه ونال إعجاب الجميع به «ليس شيئاً، ليس شيئاً».

وفي سن الثالثة والعشرين، وقد أصبح طبيباً غادر المنزل قائلاً لوالديه متفاخراً: «هاهو ذا جندي الأمريكيين يرحل». وبهذه الكلمات بدأ رحلة قتال طويلة في أمريكا اللاتينية التي أراد أن ينقذها من نفسها كما كان يصبو. وكان «جي» يعتبر نفسيه ماركسياً حراً لا ينتمي إلى حزب معين، وكلما سافر كلما ازداد اقتناعاً أن مشكلات قارته الفقيرة الغارقة في الجهل هي خطأ الطبقة الارستقراطية في البلاد والولايات المتحدة (بصفة خاصة). أما مع فيدل، فإن الكراهية للولايات المتحدة كانت أشد المشاعر احتداماً في حياته، إلاّ أن «جي» كان مستعداً للموت من أجلها، في حين فضل فيدل، كعهده دائماً، أن يعيش من أجلها.

وما أن انتقل «جي»، وزوجته هيلدا وهي من بيرو، إلى المكسيك والتقيا بالشقيقين كاسترو حتى قدمت هيلدا فيدل إلى صديقتها الشاعرة الفنزويلية لوسيلا فيلا سكويت، التي أصبحت الاهتمام الأول الرومانسي لفيدل كاسترو، ولكن اهتماماً قصيراً لأنه مثل نساء كثيرات سرعان ما ملت لوسيلا من حديثه المستمر عن السياسة. ومع ذلك ففي البداية، كانت قصة الحب قصة سعيدة. وتتذكر لوسيلا بعد سنوات عديدة: «لقد أضاء وحدتي، برحلات طويلة في شارع بازيو دي لاريفورما، أو إلى الرمال الناعمة في أفينيدا بوكاريللي. لقد تأثرنا بالسعادة المرة لتقاسم التجربة: الابتعاد عن وطننا. كان تواصل إحساسنا بالشوق للوطن يسري في لمسات أيدينا، ونتبادل الأفكار والإعراب عن الأشواق». كما تتذكر لوسيلا كيف «اجتمعت العاطفة الكوبية عند فيدل والأفكار الثورية لجيفارا مثل توهّج شرارة بنور طاغ. كان أحدهما مندفعاً والآخر متريثاً، واحد إنفعالي ومتفائل، والآخر بارد ومتشائم. وأحد مرتبط فقط بكوبا والثاني بمجموعة من المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية «التي يتعين تأييدها»... وبدون أرنستو جيفارا لما كان فيدل كاسترو تحوّل على الأرجح إلى الشيوعية. وبدون فيدل كاسترو، لما استطاع أرنستو جيفارا على الأرجح أن يكون أكثر من منظر شيوعي ومثالي مثقف».

ومن المؤكد أن فرنك بايس اليوم أقل شهرة بكثير من جي جيفارا ولكنه في نواح عديدة كان الزعيم الأكثر بعداً عن التقليدية في حركة ٢٦ يوليو، بالإضافة إلى فيدل كاسترو. كان فرنك طويلاً، وسيماً، وشاباً جاداً تماماً. وقد ولد في السابع من ديسمبر ١٩٣٤ لمهاجرة إسبانية متواضعة وراعي كنيسة سانتياجو. كان فرنك دائماً شاباً موهوباً، وقد كتب الشعر وألّف الموسيقى ودرس الإنجيل وخوسيه مارتي. أما ما يذكره الجميع عن فرنك بايس فهو جديته وصدقه البالغان. كان تعقله وتواضعه يقفان

في تناقص بالغ ـ ربما كلفه حياته ـ مع اندفاع فيدل. ومع ذلك، فإن فيدل تحوّل إلى مجموعة «الحركة الوطنية الثورية» التي يرأسها فرنك في صيف ١٩٥٥ لتكون الجناح «داخل كوبا» لحركة ٢٦ يوليو. بدأت حركة فرنك تستعد للعمل الخطير المتمثل في إعادة تأهيل إقليم أوريانتي لتحدي نظام باتيستا. لذلك جاء فرنك إلى المكسيك ليجتمع مع فيدل مرتين على الأقل في هذين العامين. واحدة على الأرجح في أغسطس سنة ١٩٥٥ ومرة أخرى في سبتمبر ١٩٥٦. لكن السؤال الهام، الذي بدأ يتبلور في صيف ١٩٥٥، هو توقيت المقاومة «داخل كوبا». أصرّ فيدل أن تستعد حركة فرنك للقيام بتمرد لتشتيت الانتباه في سانتياجو قبل نهاية ١٩٥٦. وأصرّ فرنك حتى النهاية أن رجاله لن يكونوا مستعدين لكن اعتراضاته لم تفده إطلاقاً مع فيدل أكثر ممّا أفادت أي شخص مع مثل هذا القائد العنيد.

وفي خريف ١٩٥٥، بدأ فيدل يسعى للحصول على مساعدة وأموال من الكوبيين المنفيين في الولايات المتحدة. وكان واضحاً أن لديه بالفعل حلفاء بين هؤلاء الكوبيين الهاربين، الفقراء غالباً والمشتاقين لوطنهم. كما كان واضحاً أنه يسير عامداً على خطى خوسيه مارتي الذي تابع عمله الثوري كاملاً تقريباً، وبلا كلل، على أرض أمريكا الشمالية. كانت كلماته وتصرفاته مستعارة منه، ولكنها مع ذلك وطنية.

أعلن فيدل التزامه الصريح والعلني الأكيد أمام مجموعة من ثمانمائة كوبي فيما كان يسمى «حديقة النخيل» (بالم جاردن) عند تقاطع الشارع ٥٢ والشارع الثامن في نيويورك في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٥. وصاح: «أستطيع أن أعلمكم بكثير من الثقة أنه سنة ١٩٥٦، سنكون أحراراً أو سنكون شهداء». الآن لم يعد هناك تراجع. الآن فيدل يسير علانية، وكذلك روحانياً على خطى «المبشر». ومن نيويورك، حيث كتب خوسيه مارتي مقالاته وأعلن معتقداته، تحرك فيدل، مثل مارتي، لاجتذاب صانعي السيجار في تامبا، فلوريدا. ومن تامبا إلى فيلادلفيا، إلى يونيون سيتي في نيو جيرسي، إلى بريدجبورت بكونيكتيكات ـ كان مثل عرض فودفيل متحرك. وفي نهاية كل عرض كانت قبعات رعاة البقر تلقى محملة بالدولارات.

في الوقت نفسه في كوبا، بعد تساقط كل البدائل الأخرى لباتيستا المغضوب عليه نال فيدل، بصفة عامة، دفعة ممتازة. وكل فترة كان هناك من يعرب عن خوفه أو فهمه.

في هذا الخريف من ١٩٥٥ كتب المعلق السياسي ميجويل هرنانديز بوزا مقالاً

في بوهيميا تحت عنوان: «الوطن ليس ملكاً لفيدل». وفي المقال حذّر بوزا بإلحاح، وبشكل منفرد في هذا الوقت، من أن كاسترو المنتصر سوف يصبح «الموزع الوحيد للثروة المدنية والروحية والمعنوية. . . الرب وقيصر في جسد واحد من اللحم والعظم. . .» وتوقع الكاتب أن كل من ليس مع فيدل «سوف يعدم باعتباره لاأخلاقياً». ولكن حتى هذا الذي يعتبر من أشد نقاده ضراوة اعترف أن فيدل لم يفر هارباً بأية أموال. وسوف ينقضي وقت طويل قبل أن يكتشف الشعب الكوبي فساداً أعمق وأشد خطراً من إساءة استخدام الأموال الحكومية.

في ليلة عيد الميلاد، اجتمعت مجموعة فيدل الداخلية في احتفال كوبي تقليدي بالمناسبة: أرز وفاصوليا (يطلق عليها الكوبيون: المور والمسيحيون)، خنزير محمر، وحلوى اللوز الاسبانية الكلاسيكية. في هذه الليلة أعرب فيدل بوضوح شديد خططه لمستقبل كوبا. وتتذكر هيلدا، زوجة جيفارا التي كانت حاملاً في الشهر السابع بابنتها هيلديتا، أن «فيدل تحدث بكثير من الثقة والطبيعية لدرجة حملتنا على الإحساس أننا بالفعل في كوبا وقد شرعنا في مهمة البناء».

ثم، فجأة بدأت المجموعة الصغيرة المنفعلة تميل إلى الصمت. حتى فيدل كان صامتاً، وهو يتبادل نظرات معبرة مع جي وهيلدا. وأخيراً كسرت هيلدا الصمت قائلة في هدوء، «نعم، لكن أولاً يجب أن نصل إلى كوبا».

ورد فيدل بنبرة خطيرة: «هذا حقيقي».

في يناير ١٩٥٦، بدأ التخطيط الحقيقي للهبوط على ساحل أوريانتي، وهو الإنزال الذي سار بالضبط على خطى مارتي المأساوية.

في مارس، بدأ فيدل في تنظيم منزله السياسي الخاص، وهو المنزل الذي بقي دائماً مفتوح الباب لتجنب استبعاد أية مجموعة أو أي شخص يمكن أن يكون ذا استخدام مفيد له. الآن تشاجر فيدل مع حزب الأرثوذوكس علانية تحت ستار الخلاف الإجرائي. وأعلن فيدل أن حركة ٢٦ يوليو هي «المعارضة الحقيقية» الوحيدة لباتيستا وقال إنها: «المنظمة الثورية للمسكين وبالمسكين ومن أجل المسكين».

في ١٨ مارس، ولدت طفلة لناتي ريفويلتا في كوبا. لم تكن الطفلة من زوجها، كانت ابنة فيدل. في الواقع كانت أمام ناتي فرصتها، وقد اختارت. وقبل أن يتوجه إلى المكسيك، طلب فيدل منها أن تذهب معه، ولكن والدتها المتطلعة إلى الرفاهية والمركز الاجتماعي أصرت على بقائها في كوبا مع زوجها الطبيب اللامع،

وقد أطاعت ناتي والدتها. كل من عرفها أشفق عليها، فقد كانوا يعرفون حبها لفيدل. وكان هذا الحب حديث رواد النادي.

في إبريل، راقب فيدل، أولاً بفهم ثم بإرتياح، من معقله المكسيكي محاولتين للإطاحة بباتيستا. وكلتاهما فشلت. الأولى عرفت باسم «مؤامرة الطهر» لأنها ضمت معظم الضباط الحربيين الأشراف والصادقين وقد أحبطت حين كشف البوليس السري عن الخطط. وكانت خسارة كبيرة لأن المتآمرين، الذين مثلوا أكفأ الضباط الكوبيين، فقدهم الجيش قبل نزول كاسترو بستة شهور. (ومن السخرية أن الكثيرين منهم تلقوا تدريبهم العسكري في الولايات المتحدة، وقد عكست أفكارهم هذه الحقيقة). وما بقي في كوبا من جيش كان بالإمكان وصفه بأنه أقرب إلى وحدة من المرتزقة. وقد ساعد هذا إلى حد بعيد وشجع خطط فيدل البعيدة المدى. أما المحاولة الثانية فكان قائدها هو الرئيس السابق كارلوس بريو الذي أرسل هذه المرة مجموعة من مقاتليه لمهاجمة ثكنة جواكوريا الحربية في ماتانزاس. لم يكن مثل هجوم فيدل على مونكادا، ولكنه لقي نفس المصير.

في الوقت نفسه لم يحل عدم إعجاب فيدل برجال العمل الديمقراطي دون إقامته لبعض الروابط الواهية مع منظمات العمال الديمقراطية خاصة «اوريت» التي كانت المظلة العالمية لكل الحركات العمالية الديمقراطية في أمريكا اللاتينية. وقد توقف فيدل عند مقر قيادة «أوريت» في مدينة مكسيكو وأقام صداقة مع لويس ألبرتو مونج اللامع والمحترم الذي أصبح رئيساً لكوستاريكا عام ١٩٨٢. كان الرجلان يتجادلان ويتحدثان في مسكن مونج حتى الساعات الأولى من الصباح. وقد أخبرني مونج عام ١٩٩٠ في سان خوسيه: «كان يتحدث عن الديمقراطية وإطلاق حرية الصحافة. وقبل أن يغادر إلى جرانما جاء لوداعي وأعطاني تمثالاً لمارتي. إنه ممثل، ممثل عظيم، مقلد غير عادي للمشاعر والجمل. إنه يعلم إلى من يوجّه حديثه». كان فيدل يعلم أو على الأقل يشك أن «أوريت» من خلال حركة اتحاد العمال الامريكي تحصل على بعض المال من مصادر المخابرات الامريكية الخفية أو المتنكرة. وفي وقت ما، كما تقول مصادر أخرى، سأل مونج بهدوء عما إذا كان هو نفسه يستطيع الحصول على تمويل مماثل.

رغم إصرار فيدل الشديد على التزام السرية، عرف باتيستا كل تفاصيل ما يجري في المكسيك، وارتكن على معلوماته مفترضاً أنه ليس فقط آمِنٌ بل لا يمكن المساس به. وسرعان ما كان يخطط للتخلص من فيدل كاسترو، الأمر الذي يثير

دهشة. جاءت بادرة باتيستا الأولى في شتاء ١٩٥٥ حين أعلنت المخابرات الحربية في هافانا أنها اكتشفت «مؤامرة تخريبية للإطاحة بالحكومة... يقودها فيدل كاسترو». لكن شيئاً خطيراً لم يحدث حتى أواخر يونيو ١٩٥٦ حين تمّ اعتقال فيدل وراميرو فالديز، الذي تولّى بعد سنوات منصب وزير الداخلية، في أحد شوارع مكسيكو وألقي بهما في السجن. وتمّ القبض على أكثر من خمسين من أعضاء مجموعة فيدل.

وبالطبع استغل فيدل «فرصة السجن» الجديدة أفضل استغلال. كتب رسائل وحثّ زملاءه السجناء، واستغاث بنبل الروح المكسيكية، (إلى جانب النظام القانوني) قائلاً للصحف «إني واثق أن المكسيك ستظل وفية لتقاليدها النبيلة إزاء المضطهدين سياسياً...».

وفي السجن التقى فيدل أيضاً وتيريزا «تيتي» كاسوزو المرأة الكوبية الشقراء الباهرة الجمال الذكية والأرستقراطية التي ستلعب دوراً رئيسياً في حياته. عرف الثوريون «تيتي» على الفور واحترموها بسبب زوجها الشاعر والكاتب الشهير بابلو دي لاتوريينتي الذي قتل وهو يحارب في اسبانيا في صفوف الجمهوريين. وهكذا فإنه بالنسبة لتيتي الدافئة الرائعة بدأت قصة طويلة، تتردد بين اليأس القديم والخلاص الجديد. على الأقل لقد «عادت للحياة مرة أخرى» واستيقظت من سلبية نومها الطويل بأحلام وآمال فيدل.

ابتسمت تيتي بمرارة صباح هذا السبت حين رأت مقالاً صحفياً يشير إلى بعض «الكوبيين الشبان» الموجودين في السجن الذين كانوا يتدربون من أجل حملة «لتحرير» كوبا. ومع ذلك، قررت أنها تحب مقابلة هؤلاء المارقين الرومانسيين، وفي اليوم التالي ظهرت في السجن، مع امرأة اسبانية رائعة الجمال في السادسة عشر من عمرها هي صديقتها إيزابيل كوستوديو. وتتذكر تيتي أن إيزابيل كانت تبدو كمانيكان أنيقة. وقد حددت عينيها الواسعتين البريئتين اللتين تجمعان بين اللون الأخضر والبني بلون غامق بالطريقة التي اسمتها الطريقة الإيطالية. في هذا اليوم كان شعرها على لونه الطبيعي الذهبي الداكن.

كانت مجموعة كبيرة من الكوبيين تقف معاً في الفناء الرئيسي للسجن حين وصلت تيتي وإيزابيل، وفي الوسط، يقف كعادته دائماً فيدل مثل منارة طويلة، وتتذكر تيتي: «كان يعطي الانطباع بأنه نبيل وواثق وفطن مثل كلب فاونلاندي كبير...».

وأخبر فيدل تيتي، وهو يراقب إيزابيل الجميلة والارستقراطية بجانب عينه، كم شرَّفه أن أرملة بابلو العظيم أتت لزيارته. وقبل أن تغادر تيتي السجن في هذا اليوم أعطت فيدل بطاقتها وأخبرته أن «اعتبر منزلي منزلك» (وسرعان ما ذهلت بالحرفية التي تقبل بها هذا الاقتراح «الصغير»). وقبل أن ترحل إيزابيل هذا اليوم وقفوا جميعاً معاً، في صفوف منتظمة وأنشدوا النشيد الوطني الكوبي.

في نهاية يوليو تمّ إطلاق سراح كل الكوبيين وكان الفضل يعود إلى حد بعيد إلى الماركسي لازارو كارديناس الرئيس المكسيسك السابق. لكن فيدل شعر بحاجة ملحة أكثر من أي وقت سابق، لقد أصبح واضحاً أن حريته في المكسيك أمر مؤقت للغاية، لقد أوشك وقت الرحيل بالنسبة له.

وبعد يومين من إطلاق سراحه، كان فيدل يسأل تيتي إذا كان يمكن أن تحتفظ له «بأشياء قليلة». وقد اتضح أن «الأشياء القليلة» هي في الحقيقة حمولة سبع سيارات من الذخائر وقد ملأت منزلها وجعلتها في حالة توترو عدم نوم أيام عديدة. ومنذ ذلك الحين، كان فيدل ومجموعته يحضرون وقتما يحلو لهم، ينظفون بنادقهم في حجرة نومها، ويحملون البنادق ملفوفة في ملاءات أسرتها، وحين خلا المنزل المجاور، استولى عليه فيدل وتيتي لتخزين المزيد من الذخيرة، ولكن على الرغم من أن تيتي كاسوزو، مثل كثيرات، ارتبطت بفيدل بشكل عميق بل وماسوشي، فإن هذا الارتباط لم يكن أبداً عاطفياً بمعنى الحب. هذه العلاقة كانت تزدهر بين فيدل وإيزابيل كوستوديو التي ملأت مثل ميرتا وناتي، الصفات الجسدية والنفسية والتاريخية للنساء اللاتي يريدهن فيدل في لحظاته الجادة. وتتذكر تيتي: «لقد سعى وراءها بمشاعر الشباب الفياضة وتهور أسعدها».

لكن إيزابيل لم تكن سهلة المنال ـ أو حتى الرؤية. كانت تدرس في الصباح وتعمل بعد الظهر وتحضر الاجتماعات الحزبية السياسية في الليل، لذلك كان لديها وقت قليل جداً لهذا الشاب الشهير الملح فيدل كاسترو. ولكن فيدل بدا مأخوذاً تماماً بها، وفي كل مرة كان يحضر فيها إلى مسكن تيتي كان يسأل بحدة: «أي إيزابيل؟ أين هي؟». لقد تحوّل الأمر إلى لعبة وإيزابيل تتجنب منزل تيتي حين تعرف أنه سيكون هناك، حتى خدعها ذات يوم بالحضور قبل انصرافها. وتتذكر إيزابيل في وقت لاحق: «حين استعددت لمغادرة المنزل، كان واقفاً هناك ينتظر، فنظرنا لبعضنا وضحكنا، لأن خدعته كانت في وضوح خدعتي. كان لقاء مضحكاً جداً. وعرض أن يوصلني بالسيارة إلى الجامعة...».

ومنذ تلك اللحظة تقريباً، نادراً ما كان الاثنان يفترقان. كان يحاضرها حول كيف أصبح «يسهل مهاجمته» وهو يهتم بامرأة مثلها. وأن «الشوري الحقيقي» يجب أن يمنح نفسه «جسداً وروحاً» إلى الثورة. وتتذكر إيزابيل: «لكنه كان يعاملني كأميرة، بحب رفيع، ورقيق، كما يجب أن يفعل الرجل. . . كنت مثل دمية، قطعة من الخزف، وكان يبدي دائماً قلقه على الصورة التي أبدو عليها». كان من الواضح أن فيدل يريد من إيزابيل أن تعكس صورته. «لقد أخبرني أنه من المهم جداً أن أحافظ على صورة تضارعه».

تطورت العلاقة بين فيدل وإيزابيل الصغيرة بسرعة لدرجة أنه في غضون شهرين أقدم على البادرة البورجوازية غير العادية وطلب يدها للزواج. في البداية، قبلت وذهبت لتعيش في مسكن والديها، المشهورين في المسرح الاسباني، وهي تستعد للزواج. وذهب فيدل إلى حد الحصول على موافقتهما وشراء جهاز عروس لها: ثياب جديدة، أحذية، زجاجة كبيرة من عطر فرنسي، وثوب استحمام محافظ بدلاً من البيكيني الذي أثار غضبه الشديد. ولكن الخطبة انتهت سريعاً، وكانت نقطة الانفصال هي «دعوته» الوحيدة لها لمرافقته على القارب في غزو كوبا.

وتذكر إيزابيل أنها رفضت في عجلة وحزن. وقالت بعد سنوات «كان الأمر شاقاً للغاية. لكن التاريخ قرّر. رحلت قبلها بثلاثة أو أربعة شهور. كان انفصالاً شاقاً جداً. رحلت. ولا أستطيع أن أقول لماذا. . .» وعلى الفور تقريباً، تزوجت إيزابيل من رجل أعمال مكسيكي واختفت من التاريخ بنفس سرعة دخولها.

في أغسطس أتم فيدل الثلاثين.

في سبتمبر بدأ سلسلة غريبة من اللقاءات الهامة مع زعماء وأعضاء المجموعات الأخرى من أجل تحييدهم والحصول على أموال منهم. سافر فيدل إلى شبه جزيرة يوكاتا المكسيكية بما تضمه من آثار رائعة لقبائل المايا وذلك للقاء سري مع جوستو كاريللو، الرئيس السابق لبنك التنمية في عهد الرئيس بريو. وهو رجل في العقد الخامس ذكي وجدير بالاحترام وكان يعمل في حينها مع مجموعة من الضباط من دعاة الإصلاح للإطاحة بباتيستا عن طريق الانقلاب. وتمّ اجتماعهما على مدى ثلاثة أيام تخللتها محادثات بلا توقف تقريباً حول مستقبل كوبا. لكنهما تحدثا عن مسائل شخصية أيضاً. أخبر كاريللو، الذي كان على صلة بأسرة كاسترو، أن والده اضطر لرهن المزرعة بسبب سوء المحصول هذا العام. وحتى بعد مرور ثلاثين عاماً،

حين تحدثت مع كاريللو في ميامي، كان لا يزال يشعر بالدهشة لرد فعل فيدل المتطرف. لقد وقف فيدل في غضب شديد. وذكر كاريللو أن فيدل تساءل: «ماذا تريد مني؟ ما اللوم الذي يتعين أن أقبله على سوء إدارته وأخطائه في الإنتاج وأي شيء. . . ؟ لم تعد هناك علاقة بيني وبين هذا الرجل». ولمدة خمس أو ست دقائق ظلّ فيدل غاضباً لا يردد سوى السباب في حق والده. وحين انتهى الانفجار نظر كاريللو إلى فيدل في عينيه وأضاف: «لكنه لا يزال يرسل لك مائة دولار شهرياً أليس كذلك؟» وأجاب فيدل: «آه، أجل، أجل. . .».

حين تحوّلت دفة الحديث إلى ناتي ريفويلتا و«فضيحتها» وابنتها من فيدل، وعرضه عليها بإحضارها إلى المكسيك معه ثم جعلها لاحقاً «السيدة الأولى» في كوبا. تحدث فيدل إلى كاريللو بصراحة غير عادية. وظلّ يردّد مرة بعد مرة في غضب وعناد وحسم: «ناتي تخلفت عن اللحاق بالقارب. . . ناتي تخلفت عن اللحاق بالقارب. . .».

في أواخر ذات الصيف، التقى فيدل أيضاً مع خوسيه أنطونيو إيشفيريا الزعيم الشاب والشديد الجاذبية لحركة «الإدارة الثورية» الهامة المناهضة لباتيستا. وبصورة مسرحية احتضن فيدل منافسه الشاب والدموع تترقرق في عينيه. وقد تحدثا طوال ليلة ٣٠ أغسطس وكانت معظم المحادثة سرية وتآمرية. دخل فيدل في تفاصيل كثيرة مع الشاب الثوري الكاثوليكي المتحمس، عن مدى قوة حركة ٢٦ يوليو داخل كوبا. في الحقيقة لقد «أعطى فيدل التعليمات» للزعيم الشاب حول الدور الذي سيلعبه هو وحركته المختلفة في عملية الإنزال التي يقوم بها فيدل. «من أجل بدء القتال، وبدء الإنزال في كوبا، سيتعين عليك أنت يا إيشفيريا، أن تقوم بعملية التخريب وأن تلقي القنابل»، احترمه إيشفيريا كثيراً وحين حلّت اللحظة، كان إيشفيريا يلقي القنابل، القنابل التي حصل عليها من فيدل.

كانت إدارة إيشفيريا تختلف على الصعيد النظري تماماً عن حركة فيدل لدرجة أنها لو وصلت إلى السلطة لكانت كوبا أصبحت اليوم مختلفة تماماً على صعيد الهيكل والنظام. وحتى لحظة معينة، كان يمكن أن تصل. ولدت الإدارة الثورية عام ١٩٥٥، وكانت تضم في معظمها شباب الطبقة المتوسطة والعليا الذين أرادوا إقامة ديمقراطية كوبية حقيقية. سعت الإدارة إلى الوحدة (كانت تؤمن بالتنظيم من القاعدة إلى القمة بدلاً من العكس كما آمن فيدل وبطله الأول بريمو دي ريفيرا)، كما آمنت بالعمل المباشر والعنيف المنظم ضد الديكتاتورية (بدلاً عن عملية التعبئة ونشر

الإيـديولـوجية التي تستغـرق زمناً طـويلاً والتي كـانت تمثل سيـاسة فيـدل). لكن في صيف ١٩٥٦، كان الأوان قد فات بالفعـل أمام إيشفيـريا وإدارتـه من الطلاب. فقـد أعدّ التاريخ خططاً أخرى. ومـع ذلك فـإن وجود هـذه المجموعـة وشعبيتها أظهـرا المدى الذي كان يمكن أن تذهب إليه كوبا بعدة سبل.

لكن هذه الزيارات ـ وهؤلاء الرجال ـ كانوا بالكاد تضليلاً وظـلالاً تتراقص على الجدران. لقد حان الوقت للقاء مع الرجل الذي يكرهه فيدل أشـد الكرة، بـالإضافـة إلى باتيستا، وهو الرئيس السابق كارلوس بريـو. وهكذا قـرّر الرجـلان المختلفان صـاحبا النوايا المختلفة تمامـاً بالنسبـة لوطنهمـا أن يعقدا لقـاءهما على الحـدود المكسيكية ـ الأمريكية. واختارا بلدة مكالين الصغيـرة بالقـرب من أقصر طـرف تكساس الجنـوبي التي تفصلهـا عن بلدة رينـوسـا المجـاورة، مياه ريـو جـرانـدي المـوحلة. وبكتفيـه العريضين وخبرته الطويلة في السباحة، عبـر فيدل بيسـر النهر، ليـظهر على الجـانب الآخر مرتدياً زي عامل مكسيكي، مجرد «مهاجر آخر». ولكنهم رتبوا له ليبدل ملابسه في أحد منازل مكالين. وحين أزف الوقت دخل فيدل إلى بهو فندق كاسـادي بالمـاس كأنه لاعب غولف في النادي الريفي.

وقـد كتب الكاتبـان وارين هينكل ووليـام تيريـز عن هذا اللقـاء الذي نـادراً ما يـوصف يقولان إن «كـوبياً متـوسط العمر متميـزاً فتح بـاب أفضل جنـاح في الفندق. والتقت عينـاه بعيني الزائـر في نظرة مشتعلة. ثم ضـاعت النـار لتنمحي وسط حـرارة العيـون التي ابتسمت خلال ألف استقبـال رسمي. وقاد د. كـارلوس بـريو سـوكاراس الـرئيس الثالث لجمهـورية كـوبا المليـونير، المحب للحيـاة الـطيبـة، ضيفـه الشـاب بترحاب إلى أريكة مريحة»... وبينما كـل رجل يقيس خصمـه «فعلا كـل شيء عدا تنشق رائحة شراب الآخر، فلأول مرة في حياتيهمـا، كان بينهمـا شيء مشترك، كـانا يكرهان بعضهما».

تحدث الرجلان ساعات. وكان فيدل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وكشف لبريـو ما كان يعرفه بالفعل: «أنه على وشك بدء هجومه الأخير ضد الديكتاتورية ولكنـه يحتاج إلى نقود. وأخيراً جلس فيدل على الأريكة بجانب بريو وبينما هو يتحدث وخـز صدر الرئيس السابق بأصبعه: وكتب هينكل وتيرنر: «تدفقت الكلمات من فمـه مثل أمـطار استوائية. تحدث بأقصى سرعة، وقوة وحماس وتركيز. وحين انتهى، كان الظلام قـد حلّ، ووافق بريو على إعطائه مائة ألف دولار. استطاع فيـدل بالكـاد إخفاء سعـادته، فبـالمال سـوف يشتري المـزيد من الأسلحـة، ويمكن أن يرشـو المكسيكيين ليدعـوه

وشأنه وهو يعد قوة الغزو، ويمكن أن يبتاع قارباً لتقويم ثورته».

كان شرط بريو الوحيد هو أن يمثل هو وفيدل جبهة «موحدة» ضد باتيستا، وطلب أن يعلمه فيدل بلحظة توجهه إلى كوبا. ووعد فيدل، ولكن حين جاء الوقت، غادر دون أن يبلغ بريو بأي شيء. وفي الوقت المحدد، استغل فيدل أموال بريو ليدمر الرجل وطبقته المكروهة على حد سواء.

منذ حادث الإعانة وانفصاله عن ميرتا، وتقريباً منذ أن أصبح فيدليتو تحت سيطرة أسرة دياز ـ بالارت المكروهة، كان فيدل غاضباً لفقده السيطرة على الصبي الصغير ذي الشعر الغامق والضاحك السن. ثم حين سمع أن ميرتا سوف تتزوج مرة أخرى إلى كوبي محافظ ازداد غضبه. لذلك أعد «انقلاباً» آخر غريباً، هذه المرة ضد زوجته السابقة. لقد أعد «لاختطاف» فيدليتو وإحضاره إليه في المكسيك.

أخبرني رفايل دياز ـ بالارت بعد سنوات عديدة أن: «فيدل اتصل بميرتا هذا الصيف قبل زواجها وقال إنه يجب أن ترسل إليه فيدليتو إلى المكسيك لمدة أسبوعين ليزوره. وقالت ميرتا «حسناً». والشيء الوحيد الذي طلبته هو كلمة شرف منه أنه بعد أسبوعين سيعيد لها ابنها. وقال فيدل إنه سيعيده مع شقيقته ليديا التي تقيم علاقات طيبة مع ميرتا.ومرّت خمسة أسابيع. ولم ترد كلمة عن الصبي. وجنّت ميرتا. وأخيراً تمكنت من الاتصال بليديا ـ ماذا حدث للصبي؟ قالت ليديا إنها آسفة جداً لكن فيدل قال إنه لم يعد بوسع الصبي أن يعيش في منزل أسرة من «البلطجية» وهي كلمة انتشر استخدامها ضد شعب الماكادو».

وما حدث هو أن فيدليتو وصل إلى المكسيك في ١٧ سبتمبر ١٩٥٦، حين كانت ميرتا تتزوج إيميليو نونيز بورتووندو نجل سفير كوبا لدى الأمم المتحدة. ووضع فيدل ابنه مع اثنين من أرباب عمله الفونسو «فوفو» جوتييريز المهندس المدني المكسيكي وأوركيديا بينو المغنية الكوبية السابقة الجميلة والمعجبة المتحمسة لكاسترو. وحصل الصبي على اسم جديد هو خوان راميريز وانضم إلى الكشافة. أصبح فيدليتو يعيش في ڤيلا أسرة جوتييريز الحديثة الرائعة التي تضم حمام سباحة ويحيط بها سور عال للحماية. وحينما كان فيدل يأتي لزيارة الصبي، كان يطلق نفير السيارة بنغمة معينة وسرعان ما تنفتح البوابة الخشبية الثقيلة.

وحينما كان فيدل يستعد للعودة إلى كوبا، كتب خطاباً تاريخياً إلى أسرة جوتييريز. وبتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٥٦، جاء في الخطاب أن: «اني اترك ابني في وصاية المهندس ألفونسو جوتييريز وقرينته أوركيديا بينو». السبب؟. أنه رفض أن يرى

ابنه «بين أيدي هؤلاء الذين كانوا أشرس أعدائي والساعين إلى هـدمي». وأخيراً كتب يقـول: «إني أترك إبني لهم وللمكسيك، لكي يكبر ويتعلم في هـذه الدولـة الصديقـة والحـرة حيث تحوّل الأطفـال إلى أبطال، لا يجب أن يعـود إلى كوبـا حتى تتحرر أو يستطيع أن يقاتل في سبيل حريتها».

لكن ميرتا وأسرتها لم تكن لديهما النيـة على السماح للصبي البـالغ من العمـر ست سنوات بالبقاء في المكسيك. وفي ٨ ديسمبر، بمساعـدة البوليس وقـوات الأمن المكسيكية، تمت «إعادة اختـطاف» فيدليتـو واصطحـابه إلى السفـارة الكوبيـة، ومنها أعيد إلى والدته وإلى كوبا.

في الوقت نفسه في ٢١ أكتوبر توفي آنجيل كاسترو عميـد أسرة كـاسترو ووالـد فيدل الذي مثل الوجه المناقض له في حياته، في بيران، وخلف وراءه تـركة تسـاوي مليون دولار. لقد أصبـح عميد أسـرة كاسـترو الذي زحف بعيـداً عن «المكان الـذي ينتهي فيه العالم» من جاليسيا صبياً ذليلاً، أصبح الآن بعد موته ينال اعتراف كوبا كلها به باعتباره رجلاً ثرياً، جديراً بالاحترام. أقيمت الجنـازة في منزل رامـون، وفي حين أن أحداً لم يتوقع فعلاً أن يكون فيدل حاضراً (وهـو لم يحضر) فـإن باتيستـا لم يترك الأمر للصدفة. أحيطت البلدة كلها بجنوده، ولكن حوالي منتصف الليل حـدث شيء غير عادي. فمن الظلام خرج عـدة رجال من أعضـاء حركـة ٢٦ يوليـو يتسللون بخفة مثل القطط وظهروا من ظلال أوريـانتي لتقديم التحيـة لوالـد زعيمهم. وبكل احـترام وضعـوا الزهـور على النعش ثم رحـلوا متـلاشين ثـانيـة في الليـل الاستـوائي الحـار الضبابي.

في يوم وفاة والده، كان فيدل سيحل ضيفـاً على أسرة أورلانـدو دي كاردينـاس في شارع لاكويمادا. كانت المناسبة عيد ميلاد زوجة دي كاردينـاس، وبعد الاحتفـال كان من المقرر عقد اجتماع آخر «لمناقشة» الثورة، كان فيدل قد اتصل بالفعل هـاتفياً وأمر دي كارديناس بالتخلص من الضيوف حوالي الساعة الـواحدة صبـاحاً لأنـه يريـد عقد اجتماع. وقـد أرسل فيـدل لعيد الميـلاد هدية من حلوى الشيكولاتـه، لكنه لم يصـل، هو شخصيـاً، حتى بعد وقت طـويل من احتفـال عيـد الميـلاد. وفي حـوالي الساعة الواحدة ظهـر اليخانـدرو ـ اسم فيدل الحـركي واسمه الأوسط ـ في منـزل دي كارديناس، وكانت برقية قد وردت وأخبره دي كاردينـاس بها وقـرأها: «أبلغ اليخاندرو أن بابا توفي هذا الصباح، رامون».

حين تلا دي كارديناس البرقية على فيدل كان يتوقع انفعالاً ما. ولكن وجه فيدل

لم يتغير البتة. وكل ما قاله كان «لا تقولوا لشقيقاتي بعد». لم يعجب رد فعل فيدل - أو بالأحرى الافتقار إلى رد فعل - حين سمع بنبأ الوفاة، آل دي كارديناس. لأنه لم يكن من عادة الكوبيين، ولكن في هذه الأيام، ورغبة منهم في الاعتقاد والأمل في إمكانية إنشاء «كوبا جديدة» برّر دي كارديناس لأنفسهم الأمر، قائلين ان هذا الرجل تتسلط عليه الثورة لدرجة أنه لا يمكن أن يتشتت عاطفياً بنبأ وفاة والده.

وفي فترة ما، خلال هذه الشهور والسنوات المضطربة دائماً، فرّت ميرتا من كوبا - ومن مكائد فيدل التي لا تنتهي - لمدة ستة شهور على الأقل بعد اختطاف مكسيكو، لتدفن نفسها مع الصبي في سرية يائسة في فورت لودرديل حيث عملت بهدوء كمضيفة ومحاسبة في مطعم كريتون الشعبي. وفي هذه الشهور انعزلت وشاركت مضيفة أخرى السكن وكانت رقيقة وحنونة للغاية مع الصبي الصغير. كان الإثنان قريبين إلى بعضهما جداً في هذه الأيام، وتتذكر المضيفة الأخرى أن ميرتا لم تكن تتحدث كثيراً. وتقول بات كيجان إحدى مضيفات كريتون عن ميرتا وعن هذه الفترة إنها: «حين جاءت، كانت خائفة إلى حد كبير على نفسها. وفي معظم الأوقات كانت تجلس بمنأى عن النور، خائفة من حدوث شيء ما. كانت فتاة جادة وتتصرف كأن شيئاً دائماً في ذهنها، ثم ذات يوم قررت فجأة العودة إلى كوبا - اليوم هنا وغداً ترحل».

وبحلول نوفمبر كان فيدل يشعر بنوع من العجلة، كان مصمماً أكثر من أي وقت مضى على مغادرة المكسيك والنزول في كوبا قبل نهاية ١٩٥٦. لقد حان وقت وداع بار ريغورما ولا مونديال، المقاهي الصغيرة حيث كان فيدل يذهب مع الآخرين لتناول الطعام والشراب، وداعاً لمقهى /هافانا/ وإلى (وإن بشكل أقل عاطفية) السجن الذي احتجز فيه...

بناء على نصيحة أورلاندو دي كارديناس قرّر فيدل أن ترحل مجموعته من المتمردين من توكسبان وهي ميناء صغير على خليج المكسيك. وأخبرني دي كارديناس حين تحدثت إليه عام ١٩٨٥ أن «كان هناك ثلاث مزايا: لم يسبق استخدامه كنقطة إنطلاق ضد باتيستا، لا توجد بيوت تفتيش على الطريق ولم يكن هناك تفتيش هجرة، لذلك كان من الممكن السفر بحرية».

في توكسبان، عثر فيدل على قاربه - يخت أمريكي الملكية صغير يسمى /جرانما/. لم يكن ملائماً أبداً. فالقارب الخشبي البالغ طوله ٣٨ قدماً لم يكن يستطيع أن يحمل أكثر من ٢٥ شخصاً بأمان وكان يسير بمحركي ديزل صغيرين.

لا يهم. لقد أعلن فيدل بثقة: «في هذا القارب سأعود إلى كوبا. . . ». وباع المالك الأمريكي القارب الثوري إلى «الغبي» الكوبي مقابل عشرين ألف دولار.

كانت توكسبان ذاتها غالباً يغطيها الضباب، وهي ميناء صغير فقير، غارق في الرطوبة، يطل على نهر ريوتوكسبان. وفي السنوات اللاحقة، عرض نموذج للقارب /جرانما/ في متحف صغير هناك وزينت صور «الحملة التاريخية العظيمة» الجدران. ولكن في تلك الفترة، في الليلة الممطرة من ٢٤ نوفمبر ١٩٥٦، لم يعرف أحد في توكسبان بالحدث التاريخي الجاري في مدينتهم. وكما حدث قبل مونكادا، بدأ رجال فيدل يتوافدون واحداً بعد الاخر أو كل اثنين معاً ليقضوا الليل في أماكن متفرقة بالبلدة الصغيرة وفي الفنادق المظلمة التي آوت ثوريين في زمن قديم جداً.

وحين حانت لحظة الوداع. احتضن جي هيلدا وهمس: «إني ملكك للأبد. لقد كنت كذلك دائماً وإياك ونسيان هذا». وظلّت طويلاً تتذكر اللحظة الأخيرة معه.

وأخيراً صعدوا جميعاً إلى القارب الصغير بأسلحتهم البسيطة ومؤنهم القليلة. كان القارب يحمل أكثر من طاقته لدرجة أن الماء كان يصل إلى الجوانب. ويتذكر دي كارديناس بابتسامة: «لقد فقدت زوجتي حذاءها. ووضع فيدل، قبل أن يرحل، ذراعيه على زوجتي وأنا وأوركيديا بينو وقال: «اختبئوا كلكم، خبئوا أنفسكم ولا تخرجوا حتى تعرفوا أننا إما وصلنا هناك أو قبض علينا». لم يكن يريد تعريض أنفسهم للخطر إذا تكلمنا تحت التعذيب».

وبينما هم يرحلون من توكسبان في الساعات الأولى المظلمة، وغير المقمرة من يوم ٢٥ نوفمبر، مروا بسفينة من البحرية المكسيكية ولكن /جرانما/ الصغيرة مرت دون أن يلحظها أحد بسبب المطر. وعلى سطحها كان فيدل ورجاله قد تكدسوا لدرجة أن البعض كان يجلس القرفصاء، والبعض لا يجلس على الإطلاق. وقد شعر بعضهم بتعب وبدأ في القيء.

ثم، بينما القارب الصغير، المكتظ فوق حمولته، المظلم، يخرج إلى الخليج. . . بدأ هؤلاء الرجال تلقائياً في غناء النشيد الوطني الكوبي وهم الذين سيلقون حتفهم قريباً. وقد اتسخت ملابسهم ونال منهم التعب ودون أن يكون أمامهم مكان حتى للتحرّك أو الاستدارة، وأضيئت الأنوار لفترة قصيرة، ووقفوا جميعاً ليتبادلوا النظر إلى بعضهم البعض لدقائق طويلة في صمت.

ثم عانقوا بعضهم البغض كأفضل ما يستطيعون وأطفأوا الأنوار الخافتة وانطلقوا إلى الظلام الحالك المجهول في خليج المكسيك ـ نحو كوبا.

الفصل الثالث عشر

الانزال

«سنكون أحراراً أو شهداء».

فيدل كاسترو

وبسرعة تبلغ بالكاد ٧,٢ عقدة في الساعة، اتجهت /جرانما/ إلى البحر وقد تلاعبت بها الأمواج. ووصف جي جيفارا، الساخر الأكبر في المجموعة، الرحلة بالضبط: «كان القارب بأكمله يبدو في مظهر مؤسف سخيف، رجال يظهر الضيق على وجوههم، يمسكون ببطونهم. البعض رأسه داخل الدلو، وآخرون سقطوا في أوضاع غريبة بلا حراك، وقد تلوثت ملابسهم من أثر القيء...».

وقد بدأت إعادة كتابة شبه كارثة/جرانما/ في البحر خلال ستة شهور حين صورت إيما وليديا شقيقتا فيدل، شقيقهما والرجال وهم ينطقون باسم المسيح لإنقاذ «روح» الجماهير الكوبية. وفي مقال في «أل دياريو دي نيوفا يورك» وصفت الشقيقتان المشهد في توكسبان: «هناك، وقف فيدل ورجاله، يحيط بهم شاطىء سري في توكسبان. صليب رفع إلى سيدتنا العذراء وهم يصلون لأن تساعدهم على حمل رايات النصر إلى كنيستها في إقليم أوريانتي» هذه هي النقطة الأولى التي يمكن للمرء أن يتتبع منها بدايات أسطورة فيدل باعتباره وجهاً يشبه المسيح. كانت أسطورة زرعت بعناية وقد أفادته جيداً. وأوضح لي الدكتور روبن داريو رومبوت الطبيب النفسي الكوبي إنه: «كان يعاني من أعراض «نهر الأردن». إذا جاء الشعب إليه فإنهم سيتطهرون. كانت الفكرة تتمثل في: أنا مقياس كل شيء».

في الحقيقة، في هذه الرحلة القاتمة المريعة على متن الجرانما، ضربت

الرياح الشمالية السفينة وكادت مراراً أن تغرق، وهناك ظهر إيمان غريب وموحش بفيدل وهدفه. وقرّر فاوستينو بيريز وهو منبهر الأنفاس إذ ينخفض مستوى المياه في القارب والبحر يهدأ تدريجياً أن «الجرانما لا تقهر. هناك قوى غير تلك المرئية قاومت العاصفة وهي تقود السفينة إلى وجهتها».

ولم يكن فيدل الزعيم الذي لا يقهر للقارب الذي لا يقهر للقضية التي لا تقهر، يشعر حتى بدوار بحر. في الواقع بدا واضحاً أن مستواه الصحي العالي مرتفع أكثر من أي وقت مضى. وكان يتحدث فقط عن الخطط «أين نحن؟ متى نصل؟ دعوني أرى الخرائط؟».

وبعد يومين من بداية الرحلة بدأ فيدل والرجال يوقنون أنهم يواجهون مشكلة أكبر من المطر الشديد والرياح العاصفة. ومرة أخرى ظهرت عيوب قدرات فيدل التنظيمية، التي تتناقض بوضوح مع قدراته الإلهامية والتكتيكية والاستراتيجية، فبدلاً من أن تستغرق الرحلة خمسة أيام وليال كما توقع، أصبح واضحاً الآن أنها ستستغرق سبعة أيام على الأقل. كان هذا يعني أن الجرانما لن تصل في الوقت المناسب لتستغل التمرد في سانتياجو الذي أعده فرانك بايس.

وفي ٣٠ نوفمبر بعد خمسة أيام من رحلتهم، سمع الرجال المجهدون على ظهر الجرانما من المذياع المشوش بالسفينة الأنباء المؤسفة عن فشل الهجوم. لقد تقدم فرنك بايس الجاد الذي تتجاوز قدراته التنظيمية قدرات فيدل إلى حد بعيد، وبكل طاعة وإخلاص شنّ هجومه على سانتياجو. وبينما نجا فرنك بايس نفسه، فإن أعداداً من رجاله رقدوا قتلى في شوارع سانتياجو الصامتة في إحدى بادرات فيدل المارة بلا فائدة. والآن لن يصبح هناك هجوم متزامن داخل كوبا لتشتيت الانتباه بعيداً عن إنزال الجرانما. ومن جانبه كان فيدل يشعر بحرارة وغضب، وانفجر في غضب أمام فاوستينو بيريز: «أتمنى لو أستطيع الطيران».

وفي وقت لاحق خلق فيدل وحكومته رواية «رسمية» حول تمرد سانتياجو بزعامة فرنك بايس. في سرد رحلة جرانما، الكتاب الذي نشر عام ١٩٧٩ بعد «تحقيقات» عميقة في التاريخ قرّر نظام فيدل كاسترو أن «التمرد الشعبي المسلح في ٣٠ نوفمبر ١٩٥٦ في سانتياجو كوبا كان نصراً سياسياً». ويتحدث الكتاب بوضوح عن كيف تمكن الثوريون من السيطرة على الشوارع طوال عدة ساعات وكيف أعلنوا بيان حركة ٢٦ يوليو وكيف حارب الشعب إلى جانبهم، ولكن هناك على الأقل أمراً واحداً مفقوداً

بشكل غريب في هذا «السرد الرسمي» فإن اسم فرنك بايس لم يرد على الإطلاق. وفي هذا الوقت لم يكن فرنك بايس موجوداً ليصحح رواية فيدل عن تاريخه هو.

بينما كان زملاؤهم الثوريون يموتون في سانتياجو، واصل رجال جرانما إبحارهم تائهين في الزمن ولا يربط بينهم سوى زعيمهم فيدل، ومع اقترابهم من جزر كايان، اقتربت منهم طائرة صغيرة لتذكرهم لحظات بهؤلاء «الآخرين» في الخارج. ولكن بعدها ابتعدت الطائرة وتركتهم بمفردهم معلقين في هذه اللحظات الثقيلة من الزمن بين يأس الأمس ووعد الغد، بين المنفى المكسيكي والنصر الكوبي النهائي.

في أول ديسمبر حين كانوا لا يزالون على بعد ١٨٠ ميلاً من نقطة إنزالهم المقرّرة في نيكويرو، صعد روبرتو روك الملاح والضابط البحري الكوبي السابق، أعلى سطح الكابينة في محاولة لرؤية الأرض. وفجأة تعالت صيحات «سقط رجل» في أرجاء السفينة، فقد سقط روك في البحر أثناء استناده إلى الهوائي وهو يهبط من أعلى الكابينة. وعلى الفور أمر فيدل بإيقاف السفينة لكي يبحثوا عن الرجل. ومن المفترض أنه قال: «طالما أن له صوتاً سوف نبحث عنه».

لكن الظلام كان حالكاً في «عالم» جرانما الغريب. وقد اضطروا إلى إضاءة أنوار البحث. ويتذكر فاوستينو بيريز أن «لا شيء ساعده،لقد ابتلعت الأعماق رفيقنا». ولكن فيدل لم يكن مستعداً إطلاقاً للاستسلام. وأمر رجاله بالبحث مرة أخرى، وأخيراً سمع الرجال صوتاً ضعيفاً يصرخ: «هنا!» وتمّ إنقاذ روك رغم كل شيء ليعطي الرجال ما أحسوه بسعادة من أنها علامة على أن يد العناية الإلهية ترعى رحلتهم التي يضحون فيها بحياتهم. ومن الغريب أنهم لم يكن لديهم تقريباً أي فكرة حقيقية أو حتى خوف مما سيحدث فيما بعد.

وقبل الإنزال، راجع فيدل البنادق واحد واحدة. ولكن المياه المالحة أدّت إلى أكسدة الأجزاء المعدنية. ثم، في هذا التقليد الغريب للمحارب بدأ الرجال في إرتداء أزيائهم، كما فعلوا في ساعات الصباح المظلم الأولى قبل مونكادا. ومنذ هذه اللحظة، وطبقاً لتعليمات بايو، لم يحلقوا ذقونهم. وهكذا ولدت أسطورة «الباربودوس» أو «الرجال ذوو اللحن» الذين يتبعون زعيمهم الشبيه بالمسيح. وفي الخامسة من صباح يوم الثاني من ديسمبر ١٩٥٦، لمست «جرانما» الأرض الكوبية.

* * * * * *

أطلق جي جيفارا على الإنزال اسم «الحطام» ولمرة لم يكن ساخراً بلا داع.

فعلى بعد أكثر من ميل من نقطة الإنزال المقررة على الشاطىء الرملي وبالقرب من مكان سمي عن حق «نقطة العذاب»، اشتبكت السفينة في الوحل. وأصبحت المجموعة الصغيرة الغريبة صاحبة الزي الخطير، غارقة في البلل والادران . والأسوأ أن الجناح البري للغزو تمّ تدميره. وكان نظام باتيستا يعلم تماماً أين كانت مجموعة الإنزال.

وعلى الرغم من كل ذلك، بقي فيدل يتدفق نشاطاً وحيوية. وقد تحدث فيما بعد عن كيف «تأثر بالجمال البري للساحل وجبال سييرا مايسترا الخضراء وهي تشمخ مباشرة من الماء». وبعقله المتوقد دائماً قرّر في نفس اللحظة أنه سوف يحوّل المنطقة إلى منطقة جذب سياحي هامة ما إن يتولى السلطة. إلاّ أنه في هذه اللحظة من الزمان كانت «نقطة العذاب» مجرد منطقة شديدة الخطورة، وخلال ساعة من الإنزال كانت الطائرات تحلق فوق المنطقة ملقية القنابل على الدخلاء. لا شيء يمكن أن يثبط عزيمة فيدل. ففي النهاية، لقد أوفى بوعده وهبط في كوبا عام ١٩٥٦ ـ الآن أصبح يرى أنه بالفعل الابن الحقيقي «للمنقذ».

في الوقت نفسه، في أعلى السييرا كان كريشينسيو بيريز يتساءل عما جرى لفيدل كاسترو. وبيريز رجل عجوز ماهر جداً وقوي، وهو يزرع الماريجوانا ويسميه نظام باتيستا «لص سييرا مايسترا» لأنه يسيطر على خمسين ألف مزارع في منطقة تمتد مساحة ألفين وخمسمائة كيلومتر مربع. كان هو وسيليا سانشيز، الشابة ذات الشعر الأسود اللامع الارستقراطية التي حاولت لقاء فيدل قبل أن يذهب إلى المكسيك، قد انتظرا طوال يوم ٣٠ نوفمبر، وقد ازدادا إحساساً بالخطر للغياب غير المبرّر للسفينة التي كان يتعين أن يلاقياها بسيارات النقل لحمل الرجال إلى السييرا. وقد ذهبا إلى الموعد المحدّد مرة أخرى في أول ديسمبر. ولم تظهر جرانما. ولكنهما لم ييأسا.

وقالت سيليا للص العجوز في الثاني من ديسمبر: «من الأفضل أن نبدأ يا رفيق». وفي هذا اليوم، في بداية تنذر بالشؤم عثر كريشينسيو أخيراً على بعض رجال فيدل، مختبئين في غرفة تجميد في ميناء نيكيرو الصغير. أما الأخرون فقد تلاشوا.

في الوقت ذاته في هافانا، استدفأ باتيستا بانتصاره المفترض المبدئي على فيدل ولكنه كالعادة أقدم على الخطأ القاتل النهائي وهو عدم النظر بجدية كافية إلى الشاب الغريب. ويتذكر رفاييل دياز ـ بالارت: «ارتكب باتيستا أخطاء. كان باتيستا

في مسكن رئيس الوزراء يلعب الورق مع بعض مسؤولي الدولة. وقد حثّوه على وضع سفينتين للبحرية هناك ودفع المتمردين إلى سييرا مايسترا، ولكنه تذكر كيف أنه في تمرّد سابق اتهم باغتيال جيتراس قال، لا أريد أن اتهم باغتيال فيدل كاسترو» وفيما بعد كان باتيستا يقول في مرارة «حين كنت قادراً على التخلص من فيدل، لم أرغب في ذلك ـ وحين رغبت لم أستطع».

وكان فيدل حياً تماماً في كوخ الفلاح آنجيل‌بيريز روزابال جالساً مع الأسرة المتواضعة. بطابعه التبشيري الأكيد: «لا تخافوا، أنا فيدل كاسترو». لم يكن مختلفاً عمّا قاله المسيح لشعبه حين أعلن وجوده على الأرض ـ ولم يكن المفروض أن يختلف ـ إذ ان فيدل كان يبدأ أسطورة «الاثني عشر» مقيماً رابطته الروحية. وفي رواية فيدل لم ينج سوى إثني عشر من مجموعته المتمردة ونجحوا في الوصول إلى السييرا مايسترا في هذه الأيام الأولى العصيبة. وحين سئل فاوستينو بيريز بعد ثلاثين عاماً عن عدد الناجين الحقيقي، أجاب بصراحة: «إنه أمر صعب جداً تحديده، لأنهم اختاروا الرقم ١٢، يمكن أن تقول ثلاثة، في أي وقت، ثمانية في وقت آخر. لكن رقم ١٢ كان رمزاً». كان من المؤكد أن عدد الناجين أكبر، ١٨ على الأرجح.

بعد إتمام الإنزال في الثاني من ديسمبر، قضى الرجال الليلة في تل تكسوه الغابات. وفي الثالث من ديسمبر بدأوا يسيرون شرقاً. وفي صباح الخامس من ديسمبر بلغوا منطقة صغيرة اسمها «أليجريا ديل بيو» بالقرب من سييرا حالياً. وخلال ثلاثة أيام ساروا ٢٢ ميلاً. وفي قمة الإرهاق، أقاموا معسكرهم في منطقة مكشوفة خطيرة حيث ينتهي تل منخفض وبلا حماية إلى حقل قصب السكر. وبلا مبرر قاموا بوضع نقاط حراسة قريبة جداً من موقع المعسكر، وهذا يقلل من وقت الإنذار الممكن.

وفي الرابعة بعد الظهر، إنهال وابل من الرصاص على المتمردين، بعد أن هبط عليهم جنودباتيستا. أصيب جي في كتفه برصاصة ولكنه هرب مع أربعة من زملائه ليسيروا على غير هدى أياماً عديدة عبر الغابات في سييرا. ومع استمرار العسكريين في قصفهم بقنابل النابالم، وجد الرجال أنفسهم في أشد الأوضاع رعباً. لم يكن لديهم ماء أو طعام. وقد اضطروا لشرب بولهم الخاص والعيش على الأعشاب والذرة الجافة أو سرطانات البحر. وقد حاول جي ذات مرة أن يستخرج الماء من صخرة بأجهزة داء الربو.

كان الرجال قد انقسموا إلى مجموعات صغيرة ولم يكونوا يعرفون مكانهم لقلة معرفتهم بالسييرا. بل إنهم حتى لم يعوا أن الأنهار العظيمة كوتو وكونترامايسترا ويارا

تنبـع من هناك، ولكن من المعجـزات أن بين هؤلاء النـاجين كـان معـظم كبـار قـادة فيدل. أما عن فيدل فقد بدا كأنه يزداد ثقة وقـوة كـأن الهزيمة بالنسبة له دفعة روحية. وفي إحـدى المرات بينمـا فيـدل واثنـان آخـران يـرقـدون مختبئين في حقـل لقصب السكر يتكلمون همساً، تنحنح كاسترو وقـال بقوة: «نحن ننتصـر. . . النصر سيكـون لنا». وفي الواقع كانت «الهـزيمة» في أليجـريا ديـل بيو، وشمـاتة بـاتيستا في هـافانـا بعيـداً، هي ميلاد خـطوة فيدل التـالية ـ الميـلاد الحقيقي، لا في التدريب ولكن في العمل، لجيش ٢٦ يوليو الحربي، الجيش المتمرد.

وبعد أحد عشر يوماً قاسية وصعود وهبوط سفوح الجبال اجتمع ثانية أخيراً فيدل وراوول. واحتضن الشقيقـان بعضهمـا بسعادة. ثم سـأل فيـدل راوول: «كم بنـدقيـة أحضرت معك؟».

«خمس. . .».

وابتهـج فيدل. وتـألقت عيناه وهو يصيح: «بـالبندقيتين معي يصـل العـدد إلى سبع! الآن نعم، كسبنا الحرب؟».

وأياً كانت الكلمـات، وما إذا كـانت قد قيلت بـالفعل، فـإن مثل هـذه الثقة أو المظهر الخارجي لمثل هذه الثقة، هي التي كـان تعيد رجـال فيدل إليه مرة بعـد مرة بعد مرة وتزرع داخلهم حتمية النصر.

والآن بدأت هذه الثقة الهائلة داخـل فيدل تمتـد إلى مزارعي السييـرا. ويتذكـر جيليرمو جارسيا، رجل الجبال الـذي كان أول مـزارع انضم إلى الثورة وسـاعد بقـوة على جمع شمل المتمردين المتفرقين بعد قصف أليجريا ديل بيـو، أنه كـان يسير في حقـل موز حين ظهـر فيدل فجـأة وسأل: «هـل نحن بـالفعـل قـد وصلنـا إلى سييـرا مايسترا؟».

وقال جارسيا: نعم أنتم هناك.

وتهلل فيدل فرحاً وصاح: «إذن فالثورة انتصرت!».

بعد سنوات عدة لاحقة، حين كـان قائـداً عامـاً للأقـاليم الثلاثـة الشرقيـة سئل جـارسيا عمّـا إذا كان قـد صدق فيـدل وقتها، فضحـك وقـال: «أنت تعـرف، فيـدل يتحـدث بكثير من الانفعال وعليك أن تصـدقـه. حتى في حقـل المـوز رغم أنـه بـدا جنوناً، فقد صدقته. . . وشيء آخر. لقد كنّا هناك في الجبال، بعيـداً عن الحضارة. لم يكن لدينا قوات أو أسلحة أو ثياب أو طعام ولكن حتى في ذلـك الوقت كـان فيدل

يدرس دائماً. لم نكن حتى قد بدأنا نقاتل العدو، وكان فيدل يقوم بتحليل الشؤون العالمية. أذكر أننا كنا قلقين لعدم الحصول على شيء يؤكل، وكان فيدل يتحدث عن. . . أيزنهاور وصنع خطط للمستقبل».

وأضاف جارسيا: «وشيء آخر، لم يسبق أن زار فيدل هذه الجبال من قبل. لكن خلال ستة شهور كان قد خبر السييرا مايسترا أفضل من أي شخص ولد فيها. إنه لا ينسى مطلقاً مكاناً ذهب إليه. كان يذكر كل شيء ـ الأرض، الأشجار، من يقيم في كل بيت».

الآن فعلاً كانوا في السييرا، هذا العالم الفقير ولكن الشديد الجمال، الذي يمتد مسافة مائة ميل وعرضه ما بين ٢٠ و ٣٠ ميلاً الذي غذّى مثل لبن الأم مجموعة فيدل التي انخفض عدد أفرادها بشدة ولكن كانت شديدة الإخلاص. وارتفعت بيكوتوركوينو، أعلى قمم كوبا، والتي أصبحت فيما بعد رمزاً جغرافياً للثورة، مسافة ٦٥٦١ قدماً. وسرعان ما جمع فقر السييرا وإحساسها التاريخي بالظلم بين العديد من المزارعين، ومعظمهم يزرعون الأرض دون ملكية أو أمن، وبين الثوريين الشبان المتحمسين. وأحس فيدل ورجاله بقرب شديد من رجال الجبال، وسرعان ما أصبحوا يعتمدون عليهم في كل شيء تقريباً. ولم لا يرحب الفلاحون بالمقاتلين الشبان الرومانسيين، لأول مرة يعترف بهم ويعاملون كبشر يستحقون الاهتمام. وكانت هناك الحقيقة الحاسمة أن الشبان أمثال جيليرمو جارسيا اعتبروا أنفسهم فعلاً «جيلاً جديداً من الفلاحين» وهو ما يتفق تماماً مع مفهوم فيدل لتغيّر الأجيال. وبدأ الجيش المتمرد الصغير في الإزدياد.

وفي ليلة عيد الميلاد كان فيدل وأتباعه القليلون يحتفلون فيتناولون الخنزير المشوي مع أسرة متعاطفة من الفلاحين. وفي ليلة رأس السنة كانوا يرقدون تحت المطر البارد وقد تدثر راوول بكيس دقيق في حين ظلّ فيدل على هدوئه. وسأل أحد الرجال عن اسم الجبل الذي يرونه بعيداً من خلال المطر. وأجاب الرجل: «كاراكاس»، وقال فيدل وسط العاصفة: «إذا استطعنا بلوغه، فلا باتيستا ولا أي شخص آخر يستطيع هزيمتنا في هذه الحرب».

ولكن قبل أن يقود رجاله إلى الجبال، قرّر فيدل أن يرد هجوم باتيستا بهجوم منه. وخطّط لهبوط رجاله إلى البحر ومهاجمة حصن لابلاتا الساحلي. وسار الطابور أحد عشر يوماً، وضموا مجندين جدداً بعد أن بدأ الفلاحون في الانضمام إليهم على

طول الطريق. وحين بلغوا لابلاتا بلغ عدد أفراد الجيش ٣٣ شخصاً، هذه المرة كانت «المعركة» قصيرة ـ بل وناجحة.

هاجم المتمردون الحصن الصغير مباشرة تاركين خلفهم جنديين قتيلين وخمسة جرحى. وحملوا تسع بنادق من طراز سبرينجفيلد، ومدفع رشاش طومسون، وثروة من الذخائر والمؤن. وفي هذه المعركة شنّ فيدل عامداً حملة من «الإنسانية» العسكرية، عن نية مبيتة. فقد حرّر السجناء العسكريين الموجودين في الحصن بل وترك لهم أدوية لجروحهم. وبعد أن أشعل النار في كل المباني، ذاب المتمردون وسط أدغال السييرا.

وجاءت الهجمات من قوات باتيستا سريعة وغاضبة. وبعد أسبوعين من لابلاتا نجا المتمردون بالكاد، من هجوم جوي مفاجىء رهيب فوق معسكرهم مباشرة تقريباً. وسواء مصادفة أو معجزة، لم يقتل أحد منهم.

كما اضطرت المجموعة إلى التعامل مع خائنهم وهو شخص متزلف سجل اسمه في التاريخ الثوري الكوبي: أوتيميو جويرا. هذا الفلاح البالغ من العمر حوالي ثلاثين عاماً، كان نحيفاً ومتودداً، وكان المرشد المحترم للثورة. هذه المرة فشلت حاسة فيدل الثانية الحذرة في اكتشاف أمره. لقد أعجب فيدل بأوتيميو، بل إنه أعطاه تصريحاً لزيارة مسكنه بعيداً عن السييرا، وكان ذلك حين استطاع الفلاح الاتصال بجيش باتيستا. وفي ليلة ٢٧ يناير الباردة، تقاسم فيدل بطانيته مع أوتيميو وهما يرقدان جنباً إلى جنب على الأرض الصلبة. ظلّ أوتيميو يطرح على فيدل الأسئلة حول مواقع نقاط الحراسة، ولكن فيدل لم يجبه تقريباً. وقد أصبحت قصة مفضلة للتراث الثوري أنه على الرغم من أن أوتيميو كان يحمل مسدسه الكولت وقنبلتين يدويتين تحت البطانية، فإنه لم يجد الشجاعة لقتل فيدل هذا المساء، رغم أنه وافق على قتله مقابل عشرة آلاف دولار يحصل عليها من الجيش، وهذه أيضاً أصبحت أسطورة.

حين اكتشف فيدل الخيانة واجه الفلاح الذي اعترف وأعدم في ١٧ فبراير. وتمّ حفر صليب صغير على شجرة في هذه المنطقة النائية من سييرا لتميز حتى الآن «خيانة أوتيميو» الأسطورية والتي استغلت استغلالاً جيداً.

ومرة أخرى، نجا فيدل. وهذا، بالإضافة إلى نصر لابلاتا كان إلهاماً حول الإيمان السحري بأن فيدل لا يقهر، وأنه فعلاً الرجل الذي يملك حقيقة مصير كوبا. وأنه التجسيد النهائي لأحلام «المنقذ» الكبيرة والمستمرة.

الفصل الرابع عشر

مسرح حرب العصابات

«دق جرس في سييرا مايسترا».

هربرت ماثيوز

بعد شهرين فقط من إنزال جرانما وثلاثة أسابيع فقط من عثور فيدل ورجاله على منطقة في عمق غابات السييرا للاستقرار وإعادة تنظيم الصفوف، أرسل فيدل فاوستينو بيريز إلى هافانا «لجلب صحفي أجنبي». وكان «الملتحي» يعتزم أن يظهر للعالم أنه فعلاً حي وفي صحة جيدة ولا يقهر ـ لكن مؤكد هذه الحقائق يجب أن يكون صحفياً أجنبياً لمجرد أن باتيستا يمكن أن يفرض رقابة على أي صحفي كوبي. لذلك كانت حركة جسورة، ذكية في توقيتها، وكذلك في إطار المتغيرات المحفوظة في هذا التاريخ الكوبي الذي سيشير إليه فيدل دائماً ليعطي نفسه الشرعية والأهلية. خلال حرب الاستقلال الكوبية بين ١٨٩٥ و١٨٩٨، على سبيل المثال، قال الجنرال مكسيمو جوميز أنه «بدون الإعلام، لن نحقق أي تقدم». كما يتذكر فيدل أن خوسيه مارتي جعل من جورج برايسون مراسل «نيويورك هيرالد انترناشيونال» مصدر وحيه الثوري، وكان يعمد إلى شرح خططه للصحفي لكي يراها العالم كله.

فهم فاوستينو بيريز المهمة التي عهد بها فيدل إليه جيداً. وفي زي المزارعين بالقبعة العريضة، خرج من سييرا واتجه إلى هافانا حيث ذهب مباشرة إلى منزل فيليب بازوس وهو رجل ضئيل الجسم، ظريف له ضحكة مجلجلة لا تعكس حقيقة أنه أكبر رجل اقتصاد في البلاد. وكان أول ما سأله بازوس لفاوستينو هو: «هل فيدل حي؟».

وطمأنه فاوستينو: «أجل، د. بازوس، إنه حي».

وأصّر بازوس: «متأكد، فاوستينو، هل تستطيع أن تؤكد لي أنه حي ؟». ذلك كان السؤال الذي تردده كوبا كلها، لذلك طمأن فاوستينو بشدة بازوس إلى أن فيدل فعلاً حي يرزق. ولكن بازوس، الرجل صاحب المزاج المتطلب، أصرّ قائلاً: «حتى لو كان فيدل قتل، فإنك كنت ستقول لي أنه حي».

ورفع فاوستينو يديه عالياً: «د. بازوس، بمثل هذا المنطق، كيف يمكنني أن أقنعك».

لكن شكوك بازوس المنطقية جاءت مباشرة بين يدي فاوستنيو. وبدأ في عرض الفكرة التي يحملها معه: السبيل الوحيد لإثبات أن فيدل حي، هو أن يذهب صحفي أجنبي بنفسه إلى السييرا ليؤكد الأمر.

ولأن بازوس يعرف روبي هارت فيليبس مدير مكتب «نيويورك تايمز» وهي سيدة شهيرة وقوية ذات روح شريفة وكريمة، فقد توّجه على الفور لرؤيتها في مكتبها، لم يكن المكان خاصاً بشكل محدد، وفي هذا اليوم كان هناك كثيرون يضحكون ويتكلمون ويتحركون خارج المكتب الصغير. وفي الداخل تحدث بازوس بصوت خفيض جداً، همساً تقريباً «مسز فيليبس، لقد تلقيت طلباً من فيدل كاسترو لكي يذهب مراسل أجنبي لرؤيته».

وعلى عكس حجمها وقامتها، كان صوت مسز فيليبس عالياً ورفيعاً. وقد بدأت تصيح به بصوت عال خطير على سرية مهمتهما، كما اعتقد، «هل تقول لي أن فيدل كاسترو حي؟».

وعند هذه النقطة تحولت أعين بازوس في قلق إلى الممر الخارجي. وكان يأمل ألا يكون هناك من يفهم الانجليزية، ثم سأل مسز فيليبس إذا كانت توافق على مواصلة النقاش في مكتبه الأكثر خصوصية. وما أن وصلا حتى أخبرت بازوس أنها باعتبارها مراسلة مقيمة، لا يجب أن تكون من يذهب إلى السييرا ـ كان الأمر شديد التعقيد. لكن هربرت ماثيوز المراسل الخارجي للنيويورك تايمز سيصل في إجازة في التاسع من فبراير مع زوجته. وكان ماثيوز يمثل الحل المثالي.

كان ماثيوز رجلاً طويلاً رمادي الشعر في السابعة والخمسين، وقد حقق لنفسه شهرة عن طريق تسجيل انتصار تشانج كاي تشيك في بكين عام ١٩٢٩، وفظائع الجيش الإيطالي في أثيوبيا سنة ١٩٣٥، ومآسي الجمهورية الإسبانية خلال

الثلاثينات، لكن رغم تجاربه ـ أو ربما بسبب تجاربه ـ ظلّ ماثيوز رومانسياً لا ييأس وظلّ يبحث يائساً لإيجاد القضايا والإيمان بها. وكما حدث كثيراً في حياته، صادف فيدل الشخص المثالي في الوقت المثالي.

وقبيل فجر السادس عشر من فبراير، وصلت مجموعة ماثيوز إلى المكان المحدد. وكتب ماثيوز لاحقاً في سعادة أن: «الأوراق المبتلة والأفرع والنبات الكثيف والوحل تحت الأقدام، وضوء القمر، كلها تعطي الانطباع بغابة استوائية، أقرب إلى البرازيل منها إلى كوبا». لم يكن فيدل موجوداً لتحيته، ولكن ذكر لماثيوز أن المقاتل سيحضر بسرعة للقائه، بعد لقاء هام مع «قادته». كان فيدل قد أمر رجاله بأن يظهروا الغابة كأنها «مركز قيادة مزدحم» بقدر الإمكان لذلك اعتقدت مجموعة ماثيوز أنهم بالفعل في منطقة بعيدة ومعزولة من الغابة في حين أنهم في الواقع كانوا على بعد ٢٥ ميلاً فقط من بلدة مانزانيللو.

ثم، من وسط الضباب، جاء فيدل كأنه بطل أسطوري. وعلى الفور شعر الصحفي الأمريكي المتوسط العمر بإعجاب شديد. وقد كتب في قمة سعادته: «ها هو رجل هادىء، طوله ستة أقدام، وبشرته زيتونية ووجهه ممتلىء وله لحية نامية. إن شخصية الرجل قوية للغاية». ولأن ماثيوز كان لا يزال متأثراً بحبه للجمهورية الإسبانية، فقد كتب عندئذ في حزن واشتياق أنه الآن، بدلاً من اسبانيا المأساوية التي وصفها هيمنجواي، «دق جرس في غابة السييرا مايسترا».

ولمدة ساعات، تحت الخضرة الكثيفة، فإن الرجل من التايمز ووراءه أعظم وأقوى مؤسسة صحفية في العالم، والشوري الشاب الكوبي الذكي، بلا منظمة ولا جيش حقيقي باسمه، قد جلسا وتحدثا، وفيدل يهمس بصوت أجش في أذنه. اعتقد ماثيوز أنه في غابة، في حين أنه كان في الحقيقة وسط غابة من البلبلة والخداع المتعمد. فإنه في هذه المسألة كان فيدل يقدم واحدة من أغرب عروضه في تاريخ سييرا وقد أسماها البعض عن حق «مسرح حرب العصابات». ومن جانبه اعتقدماثيوز أنه أحصى حوالي أربعين مقاتلاً في حين لم يكن هناك أكثر من عشرين، وكان مقتنعاً أن قوة أكبر بكثير تتجول في الغابات العليا.

في الحقيقة، كان الأمر بسيطاً للغاية، لقد أمر فيدل رجاله «بالتزام السلوك العسكري». كانوا يمرون بجانب ماثيوز. واحداً واحداً، أو اثنين اثنين. ثم يعودون للسير أمامه مرة أخرى، ومرات. (كان أحدهم له قميص ممزق من الخلف، لذلك كان يسير بجانب وجهه). بل ان راوول أحضر رجلاً متعباً أشد التعب هو لويس

كريسبو، إلى فيدل وماثيوز وهو يبلغه بذكاء: «أيها القائد، حلقة الاتصال مع الطابور رقم ٢ وصل». وأجاب فيدل بكبرياء: «انتظر حتى أفرغ».

حين رحل ماثيوز حاملاً آلة تصويره وصور فيدل وورقة مؤرخة وقعها أمامه، كان من الواضح أنه افتتن بهذه الثورة الجديدة والحقيقية التي لم تكتشف بعد. وكتب كلمات اتضح فيما بعد أنها واضحة تماماً: «من مظهر الأشياء، لا يستطيع الجنرال باتيستا على الأرجح أن يأمل في قمع ثورة كاسترو».

وقد ظهرت قصة ماثيوز الطويلة، الأولى بين ثلاث قصص، في النيويورك تايمز يوم ٢٤ فبراير ١٩٥٧ ولم يعد العالم كما كان.

دفع ماثيوز فيدل إلى وصف نوعية المجتمع الذي يتخيله لكوبا. وقد لخص ماثيوز الأمر قائلاً، ان عقله «عقل سياسي أكثر منه عسكري. ان لديه أفكاراً قوية عن الحرية، الديمقراطية، العدالة الاجتماعية، الحاجة إلى عودة الدستور وإجراء انتخابات. . . ان حركة ٢٦ يوليو تتحدث عن الوطنية ومناهضة الاستعمار والإمبريالية. وقد سألت السيد كاسترو عن ذلك وأجاب: «يمكنك أن تتأكد أننا لا نحمل عداء ضد الولايات المتحدة والشعب الأمريكي. وفوق كل شيء نحن نحارب من أجل كوبا الديمقراطية وإنهاء الديكتاتورية».

أحدث المقال ما يشبه الصدمة الكهربائية للعالم وسبب ترقباً داخل كوبا. ولكن على الرغم من مقالات ماثيوز استمر باتيستا على تأكيده أن كاسترو مات، حتى نشر ماثيوز الصور التي التقطها لفيدل بكاميرته الصغيرة وقطعة الورق التي تحمل توقيع فيدل ومؤرخة «سييرا مايسترا».

وبعد أربعة أيام تقريباً من نشر حديث ماثيوز أعلن الحزب الشيوعي الكوبي رفضه لكاسترو، ليصبح من الواضح تماماً «اختلافهم الجذري مع أساليب وخطط فيدل كاسترو» وقد اعتقد وجوه الحزب الشيوعي القديمة، بنهجها الموالي لموسكو حول التغيير التدريجي، أن الكفاح المسلح لا جدوى منه. بل انهم أملوا في خلق «جبهتهم الشعبية» المعتادة مع البورجوازية.

أما عن فيدل، فقد بدأ بالفعل في تشكيل «جبهته الشعبية» من نوع خاص، وبينما كان يجمع السلطة كلها في حلقة صغيرة ضيقة حوله، لم يستبعد أي شخص في المنطقة. ومع انتقال مزارعي سييرا للانضمام إليه، بدأ يتوافد أيضاً شباب كوبا المتعلم مؤكدين حقيقة أن الثورة تزدهر لا من اليأس الذي يستطيع الناس تحمله طويلاً،

ولكن من احياء الأمال والطموحات ثم وأدها مما يؤجج ويغذي غضب الإنسان. وقد كان هؤلاء الشبان أعضاء في طبقات الصفوة والنفوذ في المجتمع الكوبي ولكنهم مثل مزارعي السييرا، مجرد كؤوس فارغة إيديولوجيا تنتظر من يملؤها.

وبعد زيارة ماثيوز التاريخية، شق صحفيون آخرون طريقهم إلى السييرا كأنها «روما الثالثة» للثورة، وزار اندرو سانت جورج المجري الحذر، الغامض المنطقة خمس مرات لحساب مجلة /كورونيت/ وشهد ست معارك وانتهى ذات مرة مختبئاً من قوات باتيستا في بئر مغطى بأوراق الشجر. في الحقيقة ان السييرا أصبحت شديدة الازدحام لدرجة أن مراسل إحدى الصحف الكبرى كان في طريقه صاعداً حين ذهل بشدة لاكتشاف أن مراسل: «حياة الصبي» في طريق الهبوط.

في اليوم السابق على لقاء فيدل وهربرت ماتيوز، التقى فيدل كذلك بسيليا سانشيز البالغة ٢٩ عاماً، لأول مرة. لا توجد شهادة حول لقائهما في أعماق غابات السييرا، ولكن منذ هذه اللحظة تقارب الاثنان ثم انتهيا أخيراً إلى إقامة واحدة من هذه «الصداقات الرومانسية» التاريخية بين رجل عظيم وامرأة معجبه إلى الأبد، وقوة كل منهما توازن نقاط ضعف الأخر، حين كان فيدل مشتتاً وفوضوياً كانت سيليا فعالة تماماً وهادئة. وحينما كان فيدل يتعامل بتوسع مع المخططات الكبيرة والأحلام، كانت سيليا تهتم بتفاصيل الحياة. وبينما فيدل يهتم بالجماهير كانت سيليا تهتم أساساً بالأفراد حتى هؤلاء الذين أصبحوا ضد كاسترو. وخارج فيدل، كانت سيليا ترى العالم بشروط أكثر إنسانية ونسبية وإبهاماً، وكانت قادرة إلى حد ما، على تقليل وموازنة أخطار الجانب المطلق لدى فيدل. وكما كانت سيليا، تفعل قبل لقاء فيدل ظلّت تعمل كحاملة رسائل ذكية ولا غنى عنها، مستخدمة أسماء كورية مثل «نورما»، و «آلي» حاملة رسائل من وإلى سييرا ومارة عبر خطوط الجيش بثقة وقوة نادرتين ولكنها الآن نقلت «مركز» نشاطها إلى الجبال ـ لتكون مع فيدل.

وسرعان ما تولت سيليا أمر «العمل» في سييرا. كانت تدير الأشياء: كانت هي التي تولت العناية «بمقار قيادة» حرب العصابات، ومراسلات فيدل المتضخمة، ودفع الفواتير. (كانت أحياناً تسمى على سبيل المزاح، ولكن بدقة «سيدة مصروف الجيب»). لقد أصبحت نوعاً من المكتب المتنقل، من البيروقراطية العائمة في شخصيتها وقد زاوجت كل مذكرات وملاحظات وأفكار فيدل المتناثرة. كانت سكرتيرته ومرشدته وأمه، وظلّه الحامي، هذه المرأة الواحدة في حياة الرجل التي ستبقى ويجب أن تبقى دائماً فيها لأنها هي المرأة الوحيدة التي جعلت من نفسها لا

غنى عنها، وكانت أيضاً وليس مصادفة، المرأة الوحيدة التي يمكن وتستطيع أن تصارحه حين يكون مخطئاً أو عنيداً أو فقط غبياً. وكانت سيليا من نوع المرأة ـ حين كانوا يحتجزون أسرى في السييرا، كانت ترسل مائة بيزو إلى أسرهم، لتكسب بذلك أناساً كان من المؤكد أنهم سوف يعادون الثورة، وبعد فترة طويلة من «انتصار» المتمردين، كان من المستحيل تقريباً أن نجد شخصاً لا يحب ويحترم سيليا، حتى بين الكوبيين الكارهين لفيدل. وقد أوضح ريجو برتو ميلان أحد حرس فيدل الشخصيين الأمر ببساطة وصراحة: «لقد أوقفت الكثير من الجنون».

ولكن قبل أي شيء آخر في العالم، اعتنت سيليا بفيدل. فذات يوم، على سبيل المثال، كان واقفاً يحمل خريطة لكوبا من شركة «ستاندرد أويل» وهو يشرح هجوماً ستشنه المجموعة، وكان لدى سيليا أنباء سيئة تبلغه إياها، وهكذا اقتربت منه حاملة ماء وحبتي أسبرين فقال: «ما هذا؟ لست مصاباً بصداع» فأجابت «ليس الآن، ولكنك ستصاب به بعد دقيقتين حين تسمع الأنباء» وضحك فيدل وتناول الأسبرين.

ولدت سيليا عام ١٩٢٧ من أسرة طبيب موسر في مدينة ماتزانيللو البعيدة، وجاءت أسرة سانشيز أصلاً (مثل آنجيل كاسترو) من شمالي اسبانيا، وقد ماثلوا على الأقل أحد الأنساب السياسية المرغوبة لدى فيدل: فوالد سيليا الذي أصبح فيما بعد رئيس الهيئة الطبية الكوبية وأعضاء آخرون في أسرتها، اشتركوا في المقاومة ضد باتيستا.

الكثيرون ممّن أعجبوا بسيليا وقدّروها كانوا يحطون من شأن مظهرها: عادية، بسيطة، قبيحة، هزيلة، ذات أنف طويل، تلك بعض الصفات السيئة المستخدمة في وصفها، ولكن هذا ظلم. فقد نشأ ذلك عند مقارنتها بالنساء الكوبيات المثيرات، الممتلئات الجسد واللاتي يعتبرن «مثاليات». كانت سيليا أقرب إلى المرأة الاسبانية التي يمكن رؤية صورها القديمة معلقة في متحف بادرو في مدريد: نحيفة، ذات بشرة زيتونية، قوية وناعمة في آن واحد، ذات عينين مباشرتين شديدتي السواد، تنظران إلى داخلك مباشرة وذات روح مفكرة ومترقبة. كما كانت سيليا امرأة شديدة النعومة، وكانت حتى في السييرا ترتدي سلسلة ذهبية حول كاحلها وفوق حذائها العالي الرقبة.

هل كانت وفيدل عاشقين؟ هناك من القصص حول تفسير علاقتهما بقدر ما يوجد أشخاص يهتمون بالتعليق عليها. ويرى روبرت تيبر من سي. بي. أس. وكان معهم في سييرا «إنها الشخص الوحيد الذي يبدي كاسترو احتياجه الشديد إليه». أما

د. ألبرتو دالماو الطبيب الكوبي الشهير الذي عرف سيليا جيداً في هافانا فيؤكد: «أنها كانت علاقة نبيلة جداً. فهي لم تكن بالضبط تحبه، ولكنها وضعته في قالب مثالي، وكان هذا متبادلاً». في حين يقول الصحفي الفرنسي ميشيل تورجي الذي تولى تغطية الشؤون الكوبية بعد الثورة لوكالة فرانس برس (وكالة الأنباء الفرنسية) ان «قديسها كان فيدل، وكانت هي الهته. كانت واحدة من تلك الصداقات التاريخية».

من المؤكد أن أسرة سيليا كانت تعتقد أنها وفيدل بينهما علاقة حب ـ وعلى الرغم من التزامهما السياسي، فقد أخبرني أقارب سيليا أن الأسرة «ارتعبت» حين «هربت» إلى السييرا. ويعترف أحد أفراد الأسرة أن «بعض الأقارب قالوا «انه أمر مقزز أنها هناك في هذه الحياة الرهيبة». في حين قال آخرون: «حسناً ذلك لأنها مع الرجل الذي تحبه». وفي نظر الأسرة ذلك يستحق الغفران. ولم يطرأ على خاطرهم أنها كانت هناك لشيء أكثر من الحب».

وفي الواقع، يتعين أن يؤمن المرء ان فيدل وسيليا كانا عاشقين في السييرا. فقد كانا ينامان في الحجرة نفسها، حين تتوافر حجرة. كلاهما كان شديد العاطفة ـ جسدياً وسياسياً ـ وقد بدا من المستحيل تخيل ألا يمارسا الحب بما يحمله كل منهما تجاه الآخر من إحساس بالحاجة والإعجاب وفي هذا الوقت والمكان المليئين بالأحاسيس الجياشة بصدد الخطر والموت. وفي وقت لاحق حين اختلف العالم كانت تشعر بحنين رومانسي إلى تلك الشهور الرائعة في السييرا. وفي جلسة مع فيدل وبعض الصحفيين الأمريكيين في مزرعة على جزيرة الصنوبر (أيل أوف باينز) تتذكر بصوتها العالي، «لكن تلك كانت أفضل الأيام، أليس كذلك؟ كنا جميعاً سعداء للغاية عندئذ، حقيقة. لن نكون أبداً بمثل هذه السعادة ثانية أليس كذلك؟ أبداً».

في هذه الشهور الأولى من عام ١٩٥٧، كان فيدل دائماً في جانب الهجوم ينظم مجموعات جديدة ويجهز رجالاً من المدن للانضمام إلى المتمردين في التلال. وفي كل الأوقات، أصر فيدل على أن مساندة حرب العصابات في السييرا لها الأولوية الأولى. وفي هذا، كان على خلاف جاد وشرس مع فرنك بايس، وهو خلاف أدّى إلى شقاق حاسم وهام في الحركة بين الثورة في المدن، وفي السييرا.

في الحقيقة، كان القتال في المدن أخطر وأشرس بكثير من أي شيء يحدث في السييرا «الهادئة» نسبياً. كان المتمردون في السييرا قادرين ببساطة على الابتعاد عن العدو دون أن يفقدوا التفوق النفسي، ولكن في المدن كان باتيستا يشن أكبر

حملاته الإرهابية. ثم في ١٣ مارس سنة ١٩٥٧ وقع حدث هام، مأساوي وحاسم لمستقبل الثورة لدرجة أنه لا يمكن إلاّ أن يكون خارقاً وعجائبياً.

لقد شنت الإدارة الثورية بزعامة خوسيه أنطونيو إيشفيريا هجوماً على قصر باتيستا في هافانا في محاولة لاغتيال الديكتاتور المكروه، ولكن الهجوم فشل وقتل إيشفيريا وهو منافس آخر محتمل لفيدل.

كان فيدل يشعر بسعادة شديدة وهو يشرف على الأجساد المحطمة للثوريين الشبان اليائسين حوله. فواحد بعد الآخر كان أعداؤه «يبعدون» عن الساحة. بل إن الحاكم ضحك في سعادة حين أشار مراسل الاسوشييتدبرس إلى أن «أعداءه السياسيين» يقولون انه ديكتاتور. وقال باتيستا: «أجل، لقد سمعت ذلك، لكني أعتقد أن الديكتاتورية الوحيدة هنا هي تلك التي أمارسها على زوجتي الحبيبة وأبنائي الأربعة».

في الواقع، كان المظهر الخارجي للدولة الجميلة، الخامدة، خادع بسهولة. فالسياحة نشطة جداً، ومبيعات السيارات مرتفعة، والدخل القومي والناتج القومي في ارتفاع مستمر. ولكن ما لا يمكن «رؤيته» هو المدى الذي كانت تتناقص به المساندة لفولجينشيو باتيستا وبطرق غير متوقعة، تحت المؤشرات السطحية للقوة... كان باتيستا قادراً دائماً على الاعتماد على المؤمنين بالسانتيريا بين أتباعه. وقبل هجوم إيشفيريا على القصر، وردت مئات من الرؤوس المحفورة على الخشب يدويًا لباتيستا بشكل منتظم حاملة «بركات» خاصة للجنرال، وكانت «قداسات» خاصة للسانتيريا تعقد من أجله في أرجاء الجزيرة. والآن أدّى الهجوم شبه الناجح على القصر إلى احتراز معتنقي السانتيريا لأن باتيستا «الرجل» يفترض أن يكون لا يهزم. هل من الجائز أن «القديسين» لم يعودوا يحمونه؟.

وهنا مرة أخرى يظهر استغلال فيدل الخبيث للعقل الوطني بطرق ذكية. فقد بدأ دارسو الانثروبولوجيا بناء على إلحاحه، في نشر الشائعات أنه بعد عشرين عاماً من الحماية الشديدة بدأ «القديسون» في التخلي عن باتيستا. ونتيجة لذلك بدأ بعض زعماء السانتيريا في تحويل ولائهم. وبدأت عشرات الباقات الحمراء والبيضاء والزرقاء التي تحمل بركات هؤلاء الزعماء ترسل إلى السييرا. ولم يضر بالطبع أن سيليا كانت «واحدة من صاحبات الحظوة» عضو في هذه الديانة، إحدى الزعيمات.

وبينما باتيستا يستمتع بالحياة الطيبة في هافانا، يتجاهل تماماً المؤشرات من

حوله، شهدت الحياة في السييرا تغيراً كبيراً. ففي ظل الإدارة الماهرة لـلألبرتـو بايـو، بدأ المتمردون يرون أنفسهم «مواطنين لمجموعة حرب العصـابات» لا مـواطنين كوبيين. وبدأ فيدل نفسه يستخدم تعبير «الأراضي الحرة» في الإشـارة إلى «أمته» الجـديدة من «مواطني» حرب العصابات، وقد بـدأ يحدّد هذه الدولة الجديدة باعتبارها دولته.

كانت تلك شهور إعادة البناء، كـان الطعـام قليلاً، واعتمـد المتمردون على تنـاول خضـروات السييرا وحسـاء الدجـاج أيام الإجـازات، وأحيـانـاً لحم الخـنـزيـر. ولكن روحهم المعنوية لم تنخفض أبـداً. وكانت الألفـة بينهم قائمـة لدرجـة أن اثنين منهم ألّفوا أغنية تشيد بالحياة في سييرا مايسترا، وأنشداها للمجمـوعة. كـان أحدهمـا وهو كاليختو مورالز موجوداً في الجرانما وقد سمي نفسه «نايتينجيل السهول» والآخر فـلاح يسمى كروسيتو وسمي نفسه على العكس «صقر سييرا العجوز». وبعـد سنوات تـذكر جي جيفارا «الصقر العجوز» بحزن: «كتب هذا الرفيق الـرائع قصـة الثورة كـاملة في أناشيد ألّفها في كل فتـرة راحة وهـو يدخن غليـونه. ولأن الـورق كان قليـلاً جداً في السييرا، فقد ألّف الأغنيات في رأسه لذلك لم يبق أي منها حين أنهت رصاصة حياته في معركة بينو ديل أجوا».

كان هناك نقص دائم في المال في هذه الأسابيع في السييرا قبل أن يبـدأ تدفق الأموال من المدن. وقد حاول فيـدل ذات مرة أن يصـدر نوعـاً من «الصكوك» الثـورية للمساعدة على جمع المال. وفي وقت آخر اقترح صـك «نقود سييـرا» جديـدة لدفـع مرتبات العمال في حصاد البن. في الحقيقة انه في هذه الجهود كـان يتصرف كعهـده دائماً، بأسلوب متوقع تماماً وفي اتفاق تام مع نشأتـه وماهيتـه. كان من المفتـرض أن تكون «نقود سييرا» مجرد شكـل آخر من الشهـادات التي كان يغـطيها آنجـل كاستـرو لرجاله لكي يشتروا من متاجره.

وفي معـظم سنة ١٩٥٧ كـان رجال حـرب العصابـات في حالـة تنقل مستمـر. وأخيراً أعد فيدل نوعـاً من مركـز القيادة في لابـلاتا، الحصن السـاحلي الصغير حيث شنّ المتمردون أول معاركهم الناجحة. وكعادته، كان فيدل في كل مكان، يتحـدث، يصيـح، يفكر، يكتب، يـطرح الأسئلة. وكتب رسائله وبيـاناتـه ونـداءاتـه ـ لـلأفـراد وللشعب الكـوبي ـ على قطع صغيـرة من الورق، وهـو غالبـاً جـالس إلى أرجـوحتـه الشبكية بين الأشجار، وساقاه متـدليتان من جـانب، ثم تحوّل سيليـا القصاصـات إلى شكل مقروء. وكان كثير الكتابة للرسائل تقريباً مثل صامويل جونسون، وغالباً مـا كان

رسائله تحمل سحراً وإنسانية تفتقر إليهما أفعاله خاصة حين كان يكتبها لسيليا وهو الأغلب.

وفي ٥ مايو كتب إلى سيليا بأسلوب من يصعب إرضاءه حول قلم ضائع قائلاً: «إذا كان قلمي في القميص الآخر، كما تقولين، فلا بدّ أنه ضاع، لأن هذا القميص بين يدي الصبي المسافر معك والأشياء الوحيدة التي ظهرت كانت قلمين من الرصاص وقد ألقيت بهما لأنهما لا يعملان». وأنهى الخطاب بشكوى كوميدية: «أحتاج إلى قلم حبر، أنا أكره أني لا أملك واحداً». وفي وقت آخر حين كانت أسنانه تؤلمه كتب إلى سيليا: «متى ترسلين لي طبيب أسنان؟ إذا لم أتلق أسلحة من سانتياجو وهافانا وميامي أو المكسيك، فعلى الأقل أرسلي لي طبيب أسنان لكي تدعني أسناني أفكر في هدوء. هذا يفوق الطاقة، فبعد أن أصبحنا نملك طعاماً، لا أستطيع أن آكل».

رفض فيدل أن يرتدي نظارته في السييرا قائلاً، بشيء من الغرور، «الزعيم لا يرتدي نظارات». كون فيدل زعيماً بين رجال السييرا لم يكن مطلقاً محل تشكك، وأنه كان صعباً دائماً، متناقضاً، لم يكن كذلك محل شك. ويتذكر جون دورشز الصحفي في «ميامي هيرالد» كيف أنه حتى في هذه الأيام «كان وجهه أحياناً يبدو وديعاً ومرحاً ويمكن أن يظهر كأنه دب لعبة محبوب، ولكن بعد لحظات، كان يثور ويصيح بغضب ترتجف له أوصال أتباعه. وفي أوقات أخرى كان ينسحب ليغرق في القراءة أو التفكير، ولكن إذا اختار، كان يمكنه التحدث لساعات مؤكداً وجهات نظره مرة بعد مرة برتابة كأنه يعتقد أن تكرار الأفكار يجعلها أكثر مصداقية».

هذه الميول الجسدية والنفسية غير العادية: الحديث الغريب والمستمر، فرض إرادته الحديدية باستمرار على الشخصيات الأخرى، الطاقة الجبارة التي تبدو تقريباً خارقة للقدرات البشرية ـ كما كان أحياناً يمضي أياماً بلا نوم ـ لم تؤد بأي حال إلى تحوّل الناس عنه أو حتى إخافتهم. لقد كانت تجتذبهم إليه. كأنه كلما استسلم للغضب، كلما ازداد انجذاب الناس إليه قوة. كانت سيطرة فيدل على رجاله في السييرا مجرد مثال لما ستكون عليه علاقته بشعب كوبا، صلة عشق تقريباً. لقد أسرهم لدرجة أن كل حركة مهما كانت غريبة أو مهينة كانت تحمل قوة صلة عشق كبيرة.

كان أعداؤه يقولون انه «جبان» رجل خائف، «زعيم» يختفي دائماً في لحظة الخطر إلى أطراف المعركة. ومن المؤكد أن فيدل لم يقد دائماً رجاله إلى المعركة،

كان يوجههم من الجانب، والسر لفهم فيدل هو أنه لم يكن أبداً يفتقر إلى الشجاعة ـ فقد كانت حياته سلسلة من المخاطرات ـ لكنه أيضاً لم يكن انتحارياً ولا متطوعاً للاستشهاد. مارتي كان انتحارياً، إيشفيريا الكاثوليكي المخلص، وجد الخلاص في تسليم روحه للرب، جي أخيراً، في الحقيقة، ارتكب نوعاً من الانتحار الثوري. أما عن فيدل فقد كان يبدو تقريباً ساحراً في قدرته الذكية على تحديد كيف ينتصر، وكيف ينجو، متى يخاطر ومتى ينسحب استراتيجياً. كما أنه من الواضح أيضاً أنه كان أحياناً يخاطر بحياة الآخرين ولا يحزن عليهم أبداً، وربما لم يكن ذلك أكثر وضوحاً مما كان في نزاعه الاستراتيجي مع فرنك بايس.

منذ وصول فيدل إلى أرض كوبا، كان يعتمد على فرنك بايس. اعتمدت سييرا على فرنك للحصول على الأسلحة، المال، الاتصالات وفي التمثيل أمام العالم الخارجي. عملت سيليا عن قرب مع فرنك وقدرت بشدة مواهبه واكتسب فرنك إعجاب كل من قابله. لكن، منذ البداية تحدّى فرنك فيدل، وعارضه بلا ترد بصدد الاستراتيجية والتنظيم وانتقده داخل حركته نفسها. وكانت مسألة وقت قبل أن يصطدم الإثنان معاً. في الوقت نفسه عاش فرنك في خطر يومي ومستمر لم يجربه مطلقاً فيدل والرجال في الغابات. وقد مزح ذات مرة حول «الذهاب إلى السييرا للراحة!» لكنها لم تكن نكتة فعلاً.

كان لقب فرنك هو: القائد الوطني للعمل في حركة ٢٦ يوليو. وقد اعتقد كثيرون (وربما فرنك نفسه) أن هذا يجعله مساوياً لفيدل. ففي النهاية، فتحت العيون الباحثة لأقسى قتلة باتيستا، شيّد فرنك حركة قوية ومتماسكة وفعالة في المدن، ليس فقط في سانتياجو لكن أيضاً في مانزانيللو، بايامو، جوانتانامو، وحتى في قرى أوريانتي النائية. وفي ربيع ١٩٥٧ بعد ستة شهور فقط من عودة فيدل، كان أهم هدف أمام فرنك هو فتح جبهة حرب عصابات ثانية في «سييرا كريستال»، بهدف تخفيف الضغط على رجال فيدل، وكذلك لينأى بنفسه عن سانتياجو قبل أن يطبق عليه في النهاية رجال باتيستا. وقد مثل هذا الهدف بإقامة جبهة حرب عصابات ثانية تهديداً سياسياً ونفسياً لفيدل كما ازداد تهديد فرنك.

كان فرنك شديد الإعجاب معنوياً بالثورة، لكنه كان أيضاً يتمتع بشجاعة هائلة لم تبهت مطلقاً عند المسائل الشخصية التي تثار دائماً بصدد فيدل. فعلى سبيل المثال في ٣٠ يونيو، هاجم «دانييل» (الاسم الحركي لفرنك) موقعاً للجيش في مصنع سكر ميراندا واستحوذ على كميات كبيرة من الأسلحة، بل واستخدم بشجاعة، إذاعة سرية

ليتدخل في خطاب رولانـدو مـاسفيـرر المكـروه ويطلق نـداء من أجل الثـورة! إلاّ أنه سرعان ما انتهت إلى الأبد السعادة المحدودة الناجمة عن مثـل هذه الهجمـات بسبب وفـاة جوشـوا شقيق فرنـك الأصغر على يـد «النمور» الـرهيبة الملوثـة بالـدم التـابعـة لمـاسفيـرر. كـان جسـد الصبي النحيـل يمكن أن تشـاهـد في الصـور راقــداً وسط الدماء عند قدمي رجل ذي عينين باردتين يحمل مسدساً. وبإحساسه المعتـاد بالتحفّظ وإحسـاسه الشـديد بـالشرف كتب فـرنك إلى «اليخـاندرو» اسم فيـدل الحركي، عن جوشوا: «كان الأصغر بينهم، وقد ترك موته فراغاً في صدري وأسفاً شديداً وشخصيـاً جداً في روحي».

وحتى حين كـان فيـدل وفـرنـك يعمــلان معـاً في ذلـك الصيف الحـاسم في المكسيـك، كـانت هنـاك دائمـاً اختـلافـات بينهمـا. كـان فـرنـك مسيحيـاً مخلصـاً وديمقـراطياً، ومنـاهضاً بشـدة للشيوعيـة. وكـان يعي تمـامـاً ميول «راوول» و «جي» للشيـوعية وتـأثيرهمـا المتميـز على فيـدل في أرض السييـرا. وسـرعـان مـا انعكست خـلافاتهمـا الشخصية على منـظمتيهما، واتسعت الهـوة بين ثورة فـرنـك في المـدن والسييرا.

بدأ فرنك يرسل خطابـات غاضبـة إلى زعيم السييرا، وكـان يلوم فيدل لأنـه لم يرسل رجالاً لمساعدة رجاله الذين حوصروا لمدة خمسين يوماً تقريباً، محاطين بجنود باتيستا. لم يسبق أن واجه أحد فيدل هكذا!

وازداد الأمر سوءاً حين أخبر فرنك فيدل في خطاب ثان بتاريخ ٧ يوليو أنـه قرر وجوب إعادة تنظيم هيكل حركة ٢٦ يوليو في كوبا كلية. وأصرّ على أن زعامة الحركة يجب ألا تكون مركـزية وأنـه يجب تأسيس مقـاومة متجـانسة، منـظمة وتحت سيـطرة شديدة في المدن. وأبلغ فيدل أنه، ابتداء من ٧ يـوليو، ستضـم زعـامة الحـركة ستـة أعضاء بمثابـة مجلس تنفيذي حـاكم جديـد. وسوف يصبـح لفيدل منـدوب واحد في هذا المجلس الخاص بالإدارة الوطنية.

وجاء رد فيدل على هذا التنزيل في مركـزه لا بغضب ولكن في أسلوب تكتيكي بارد خاص به وحده. لقد أصدر على الفور «بيان سييرا مايسترا» وقد وقّع دون تفاوض مـع الإدارة الوطنيـة، كـان فحـوى بيان ١٢ يـوليو غيـر ذي أهمية شـأن كل بيـانـات وتصريحات فيدل، فقد كان يدعو مرة أخرى إلى نظام ديمقراطي، انتخابات، حكومة دستورية. . . إلخ. وكان الهـدف الحقيقي من البيان هـو القضاء على إصـلاح فرنـك والتأكيد على أن فيدل، لا ثوريي المدن، هو المسؤول.

في الوقت نفسه، مع اشتداد شراسة الحرب في المدن، اضطر فرنك النحيف، المضطهد الشكل، إلى الانتقال في بأس أشد من منزل إلى آخر، بعد أن بدأ الجيش في البحث عنه بإصرار شديد.

في نهاية يوليو انتقل فرنك إلى منزل صديق له في سانتياجو هو راوول باهول، وكان قد أمضى فترة قصيرة حين أحاط البوليس فجأة وبشكل خطير بالمكان. وكتب روبرت تابر الصحفي الأمريكي الذي أمضى وقتاً طويلاً من ربيع ١٩٥٧ في السييرا، يقول: «مختلساً النظر عبر النافذة، شاهد بايس عدة سيارات محملة بالبوليس والجنود في الشارع. وبسرعة اتصل بباهول في متجره معتقداً أن بإمكان صديقه الحضور واصطحابه بسرعة بعيداً عن الحي في سيارة، وحين لاحظ أن التفتيش يزداد اقتراباً ومفكراً في الخطر الذي تتعرض له أسرة بايس قرّر فجأة الرحيل، وحده على قدميه». وفي الشارع لقي فرنك بايس مصرعه على يد قاتل شرس معروف باسم «اليد السوداء»، اندفع وراء الشاب وأطلق رصاصة على ظهره من مسافة قريبة. وسقط بايس في الطريق. . . ».

وفي حزن وغضب احتشد عشرات الآلاف من الكوبيين معظمهم في ثياب بيضاء، في شوارع سانتياجو الضيقة من أجل جنازة بايس. وكان معظم أعضاء «إدارة» ٢٦ يوليو موجودين، غير مهتمين بالبوليس لأنه في التقاليد الإسبانية كان وقت الموت والحزن مقدساً حتى لو لم تكن الحياة كذلك.

لكن أربعة أشخاص فقط علموا بوجود فرنك في منزل باهول في هذا اليوم ـ خطيبته أميريكا دوميترو، راوول باهول، الراعي أجوستين سيسديدوس، وفيلما إيسبن، وهي شيوعية نشطة في حركة ٢٦ يوليو. وبعد تجنب رجال باتيستا بكل ذكاء طوال هذه المدة، كيف حدث أنه في هذا اليوم تلاشت كل احتياطات فرنك الدقيقة؟

وطوال شهور، كان فرنك يعمل قريباً من سيليا، التي أعجب بها، ومن فيلما إيسبن التي لم يعجب بها. وهي واحدة من أولائي «البنات» الشيوعيات الجميلات والبارعات، وكانت فيلما قد اتخذت خطاً يسارياً متطرفاً في الحركة وهو الخط الذي كرهه بشدة فرنك. وفي هذه المرحلة من القتال، ووفقاً لعدة روايات، لم يعد فرنك يبلغ فيلما بالحقائق الهامة مثل مكان اختبائه.

ويعترف أجوستين بايس شقيق فرنك أن «فيلما كانت عاشقة للقوة. لقد حاولت أن تصبح صديقة فرنك أو عشيقته، معتقدة أنها يمكن أن تكون القوة وراء العرش.

ولكن فرنك أبعدها. واختار آخرين ليكونوا عيونه وآذانه. وقد ضايقها هـذا كثيراً. لم تكن فيلما تعرف مكان فرنك في آخر أسبوع من حياتـه، ولكنها اكتشفت ذلـك. وفي صباح يوم مصرعه اتصلت به وقد غضب فرنك لأنها اكتشفت مخبأة. وفي بعد الظهـر لقي مصرعه».

لا تزال هناك نقاط غامضة كثيرة تحيط بمصرع فرنك بايس، وخاصة دور فيلمـا المحتمل، فلا يمكن تنحيته أو نسيانه. وقد كتب مؤرخون مثل رولاندو بوناتشيا ومارتا سان مارتن كيف «كان قسم مخابرات سانتياجو في حركة ٢٦ يوليو قوياً جداً في شركة التليفـون المركـزية حيث يـوجد عـاملو تليفون من الحـركة، بقيادة فيلما، يجمعـون المعلومـات عن بوليس سـانتياجـو وتحـركـات الجيش بمـراقبـة التليفـون أو الإرسـال الـلاسلكي. ومن الغريب أن تخـاطر فيلمـا بالاتصـال بفرنـك في هـذا اليـوم». وقـد اعترفت هي نفسها: «لقد تحدثت إلى فرنك هاتفياً ٨ أو ١٠ دقائق قبل مقتله». ولأنـه من المعروف أن عضو المقـاومة لا يجـري مكالمـات خاصـة أو يتلقاهـا إلاَّ في حالـة الضرورة القصوى، فإنه من الغريب أن تشهد أنها اتصلت به فقط لتسـأله: «لمـاذا لم تتصل بي؟ ماذا حدث؟».

في يـوم مصرع فـرنك في معسكـر فيدل كـان هناك احتفـال بتعميـد ابن فـلاح سيكون فيدل أباه الروحي، وحين سمـع أنباء مصـرع فرنـك، قال فيـدل إنه «الأكثـر شجـاعة، وفـائدة وتميـزاً بين كل مقـاتلينا» ثم اتجـه دون تأثـر ملحوظ لـلاشتـراك في الاحتفالات التي اشتملت على احتفال بهيج بشواء خنزير.

وسـواء «أبلغت» فيلما عن فـرنك أو قـادت البوليس إلى مخبئـه، وسـواء فعلت ذلـك من أجل فيـدل، أو راوول أو اليسار المتطرف، أو أن فيـدل مـرة أخـرى مـارس غـريزتـه الذكيـة في ترك النـاس في بعض الأماكن لفتـرة طويلة تكفي لوقوع «ما لا يمكن تفـاديه» أمـر لا يمكن التحقق منه بشكـل قاطـع، ولكن يحتمـل التخمين. فقـد كـان غضب فيدل من قيام فرنك، الذي أشاد به بعد مصرعه بـأسلوب غير عـادي، بتوجيـه الإهانة له واضحاً. والنتيجة نحن نعرفها، ونعرف أنـه بعد ذلـك لم تطرح مـطلقاً أيـة فكـرة لتقسيم السلطة داخل الحـركة. وحين فشـل تمرد آخـر في سبتمبـر ١٩٥٧ في مدينة شيانفويجوس كانت طريقة فيدل واضحة تماماً. فالآن، من مكمنه في الجبـال، كـان يمكن أن يأمـر دون خوف من المنـافسة: «كـل الأسلحة، كـل الرصـاص، كل المؤن إلى السيرا».

الفصل الخامس عشر

أمة تموت

«طرق كوبا، لا تقود أبداً إلى حيث ينتظر».

ـ كارلوس بويبلا ـ

كانت هافانا تشمخ جمالاً في عيد الميلاد من عام ١٩٥٧. وأشجار عيد الميلاد البيضاء تتألق على أرض القصر حيث ترك شبان الثورة دماءهم الشهيدة قبل تسعة شهور. كانت المتاجر تزدحم بالمشترين لهدايا العيد في آخر لحظة وكان الجو احتفالياً وسعيداً. وكتبت روبي هارت فيليبس تقول: «لكن السجون كانت ممتلئة والقوات المسلحة تجوب الشوارع مثل قطط ضخمة...».

من جانبه، شنّ فيدل «حملته الشرائية» الخاصة لعيد الميلاد. فقد زار قرية فيجويتاس وجرّد الجنود من أسلحتهم وعاد سريعاً إلى التلال بأربع سيارات نقل محملة بالمؤن والأسلحة التي دفع ثمنها نقداً! كان جيشه المتمرد يجوب السييرا بحرية.

كان الخريف التالي لمصرع فرنك بايس نقطة تحوّل، ذلك أنه في العاشر من سبتمبر في بينو ديل أجوا، قاد فيدل، لأول مرة، عامداً قوات الحكومة إلى فخ. كانت بلدة بينو ديل أجوا قد بنيت حول مصنع أخشاب وسط الغابة، وقد توقف فيدل هناك فترة ليبلغ السكان المحليين أنه سينتقل إليها، وهو متأكد أن أحدهم سوف ينقل المعلومة إلى الجيش. وقد حدث. وحين وصل جنود باتيستا هاجمهم المتمردون. وكان نصراً عظيماً لرجال السييرا رغم مصرع كروسيتو «صقر سييرا العجوز» وكاتب الأغنيات المحبوب.

في نوفمبر وقّعت مجموعة من رجال السياسة المعتدلين من سبع مجموعات للمعارضة، حلفاً في ميامي لتأسيس «جبهة تحرير كوبا» وقد عرفت باسم «حلف ميامي». (عمد فيدل إلى تشجيع هذه الخطوة في البداية، ثم حين تمّت، وعلم بها عن طريق النيويورك تايمز كان غضبه عارماً). ولكن جهود هؤلاء المعتدلين كانت عقيمة لأنه حين أقيم الحلف كان فيدل قد بلغ حداً من القوة لدرجة أنه رفض كل محاولات لمساواته في الزعامة. لم يكن مساوياً للباقين، ولن يكون أبداً.

في نوفمبر بدأ أنصار فيدل ينشرون الرعب في الجزيرة عن طريق إحراق قصب السكر. وكانت نيران الخوف تضطرم من جانب كوبا إلى الجانب الآخر فتقتل أعداداً كبيرة من الناس. وكان من بين أوائل المزارع التي أحرقت مزرعة لينا كاسترو، وهو حدث كان بداية لفتور دائم بين الأم وأبنها.

في السييرا نفسها، كان فيدل يستعد لتشهد كوبا والعالم كله عالماً مثالياً تقريباً لحرب العصابات، نموذجاً مثالياً لكوبا المستقبلية وللعوالم الأخرى «في الخارج» التي سوف يقيمها، وقد شبه بعض الزائرين لسييرا فيدل برجل «يلعب دور السيد» واعتبره آخرون ملكاً. كان، بعظمة، يأمر بعلاج طبي للعدو، وكان محظوراً على رجاله قتل أو تعذيب أو إساءة معاملة الأسرى، بل كان عليهم شرح الثورة لهم. لم تكن هناك مقامات، وكان الرجال يعتبرون «أسرة» ثورية.

ثم في الشهور الأولى الباردة من سنة ١٩٥٨ حدث شيء مسل. لقد بدأت السييرا التي كانت في السابق محتقرة وبعيدة، حيث يعيش «الأشرار» بعد إبعادهم في صمت وسط الغابات الكثيفة، بمفردهم منسيين، «تمتلىء». لقد أصبحت حرب العصابات شعبية، على الموضة، بل وآمنة بعد أن أصبح اسم «فيدل كاسترو» اسماً شائعاً من بيتسبرج إلى بيرا ديل ريو. وبدأ رجال فيدل يتلقون بعض المنافسة غير المرغوب فيها حين أقام الباقون من الإدارة الثورية قواتهم الخاصة لحرب العصابات في جبال اسكمبراي بوسط كوبا. وهناك، كان الرجال قد بدأوا قتالاً شجاعاً ضد قوات باتيستا.

ورغم أن عدد رجال اسكمبراي وصل إلى حوالي ٨٠٠ فإنهم كانوا يفتقرون إلى الترابط، بل في الحقيقة كانوا يفتقرون إلى فيدل كاسترو. لقد عمد فيدل إلى خفض قواته وتوحيد رجاله تحت قيادته. وكان آخر ما يريده هو أعداد كبيرة لا سيطرة عليها تجوب السييرا بعيداً عن عيونه النفاذة. وأخيراً انقسم رجال اسكمبراي إلى جبهتين وخلال عام، كانوا قد سلموا الثورة إلى فيدل في افتقار شديد للإدارة.

والأهم من ذلك أن رجال حرب العصابات في اسكمبراي كانوا نواة لتشكيل جبهة ثانية في أوريانتي بقيادة راوول في مارس سنة ١٩٥٨. وعلى الرغم من أن راوول كان لا يزال تحت قيادة فيدل، فقد سمح له بأن يفعل تقريباً كل شيء في منطقته، وكان أداؤه لا يقل ذكاء. ومع التنظيم والإصرار وضع راوول أساس سيطرته اللاحقة على الآلة العسكرية الكوبية القوية التي تؤيدها موسكو. ومن ١ مارس إلى ٣١ ديسمبر ١٩٥٨، اشتبكت قواته مع الجيش النظامي ٢٤٧ مرة، واستولت على ست طائرات واعترضت خمس سفن واستولت على ١٢ قطاراً وأسقطت ثلاث طائرات مقاتلة حربية. وفي حين أصيب في صفوف رجاله ١٦٠ رجلاً، قتلت قواته ١٩٧٩ رجلاً من جيش باتيستا ـ أو هكذا على الأقل ادعى الشقيقان كاسترو.

وفي تلك الفترة من الحرب برزت الاختلافات في الشخصية بين الشقيقين وطبيعتهما. كان فيدل موجوداً «في مكان ما هناك» في مجال المجد السياسي والنفسي في ذلك الوقت يحلم أحلام نابوليون ويدفع رجاله إلى الأمام بجدية تامة وإيمان لا ينضب. وكان فيدل يمتلك مقياساً نفسياً لا مثيل له في التاريخ ـ فخلال قتال السييرا كان يتوقف فجأة ليقول: «لا ـ ليس من هنا». وفيما بعد يكتشفون أن رجال باتيستا أعدوا فخاخاً في تلك المنطقة. كان فيدل يستشعر أقل خطأ، ولكن راوول لم يكن مثله.

كان راوول، المنظم، المنفذ، الرجل العسكري التقليدي الذي يعتمد لا على توقعاته وغرائزه النفسية ولكن على الاستراتيجية العسكرية الخالصة.

ومع تطور «استعراض الشقيقين» غذّى فيدل بعناية عامداً نظرية «الشقيق الطيب، الشقيق السيىء» ووقتما يريد تهديد الناس بإبعاده المحتمل كان يشير إلى راوول «سيكون أسوأ مني كثيراً» ويحذر تكراراً. وربما كان على حق. فإن مقاتلي السييرا مثل لوكاس موران كانوا يسمون جبهة راوول: «الدولة الشمولية الصغيرة التي تمتد فيها جذور النظام في دراما الإعدام الرهيبة».

لا يمكن إنكار أهمية قيادة راوول والنجاح في سييرا. فعند هذه المرحلة، بعد وضع أساس قوي لجبهته الثانية، بدأ راوول في إدخال أساليب حرب عصابات جديدة، في كوبا وفي العالم، تنفذ فيما بعد في أنحاء العالم. وأحد هذه الأساليب الجديدة كان الاختطاف الدولي، الذي كان ناجحاً بصفة خاصة للمتمردين.

طرأ أول اختطاف يقوم به أنصار فيدل في فبراير سنة ١٩٥٨ حين اختطفت الحركة في هافانا خوان مانويل فانجيو بطل سباق السيارات الدولي لجذب انتباه

العالم. كان فانجيولطيفاً. فقد حمل تحت تهديد السلاح من فندق لينكولن، كما قال فيما بعد حين أطلق سراحه، وأنه فهم أن ذلك «من أجل الثورة»، لكن راوول استغرق في هذه الأساليب باستمتاع وهو يعلن احتجاز كل مواطني الولايات المتحدة في منطقة جبهته لكي يحافظ على قواته من قصف باتيستا. ثم رداً على تسليم مائتي صاروخ تدريب إلى جيش باتيستا من الولايات المتحدة عن طريق جوانتا نامو (وهو تسليم «خاطىء» كما أعلن المسؤولون الأمريكيون نظراً لأنه تمّ بعد الحظر الأمريكي على الأسلحة عام ١٩٥٨) اختطف راوول أوتوبيسا يحمل ٤٧ بحاراً أمريكياً كانوا عائدين إلى قاعدة جوانتانامو البحرية بعد إجازة خاصة. وبعقليته العسكرية أصدر راوول رسمياً الأمر العسكري رقم ٣٠ «بشرعية» الاختطاف.

حين كان راوول مستعداً للتفاوض حول عودة البحارة، هبط هو وفيلما «ديبورا» إيسبن (التي أصبحت عشيقته ثم زوجته) في إحدى سيارات الجيب «المستعارة» إلى بلدة كالاباذاس الصغيرة التي يسيطر عليها المتمردون للقاء بارك وولام القنصل الأمريكي في سانتياجو ومساعده روبرت ويتشا، رجل المخابرات الأمريكية. وحين وصلا، قفز راوول من السيارة ونزع قبعته وانحنى بشدة وهو يقول: «يوم سعيد يا سادة». كان ذلك بالفعل مشهداً جديراً بدون كيشوت.

كان للكوبيين مطلبان: أن توقف الولايات المتحدة شحنات الأسلحة إلى باتيستا وتتوقف عن تزويد طائرات الحكومة بالوقود في قاعدة جوانتانامو البحرية. ولكن الهدف الأكبر كان تهديد واشنطن.

ففي الوقت الذي تعاونت فيه حكومة الولايات المتحدة، حدث مشهد شبه كوميدي في السييرا. كان راوول يحضر يومياً أسيرين. يصلان بالهيليكوبتر ويصطف «حرس شرف» من رجال راوول بجانب الممر. ثم يوقع وولام وويتشا إيصال وصاية على السجناء. وفي النهاية تمّ إطلاق سراحهم جميعاً. وفي حين لم تخضع الولايات المتحدة فعلاً، فإن نتيجة الاختطاف كان أكثر إيجابية لمقاتلي السييرا ممّا كان يتخيل راوول. لقد اجتذب فيدل مرة أخرى أنظار العالم. وأصبح الرأي العام الأمريكي على درجة أكبر من الوعي بالدور الأمريكي في التهديد المتزايد للثورة الكوبية. وأيقن باتيستا أنه لم يعد قادراً على ضمان أمن المستثمرين والفنيين الأجانب، وقد اضطر للسماح لممثلي حكومة أجنبية بإجراء مفاوضات داخل أراضي كوبا مع أعداء حكومته.

ومع الاختطاف شحذ فيدل أساليب صراعه ـ قتال «الضعيف» ضد القوي،

والضعيف يستخدم بنجاح ضعف القوي ضده. وفي سنوات لاحقة، كان الاختطاف التكتيكي - في لبنان والسلفادور وإيران - يؤدي في المقابل إلى إملاء السياسات الخارجية لاقوى الدول على الأرض. ولكن فيدل فعلها أولاً.

كما نظم الشقيقان كاسترو أول اختطاف طائرة على الصعيد الدولي سنة ١٩٥٨ وقد انتهت بتحطم الطائرة وهي إحدى «بدايات» فيدل!.

في الوقت نفسه ازداد يأس المعتدلين الكوبيين. وفي ١٥ مارس، أصدر ائتلاف واسع ضم أكثر المنظمات الكوبية تمتعاً بالاحترام في المجالات المدنية، الثقافية، الأخوية، المهنية والدينية والرياضية، إعلاناً غير عادي حول أرضهم الحبيبة. جاء فيه: «اعلموا الآن أن الأمة تحتضر».

في ٩ إبريل سنة ١٩٥٨ أذاعت محطات الراديو «دعوة للاضراب» وقد بدأت بكلمات «انتبهوا أيها الكوبيون! انتبهوا أيها الكوبيون! هذه حركة ٢٦ يوليو تدعو إلى إضراب ثوري عام. اليوم هو يوم التحرير. . .» ودعي المواطنون إلى إلقاء الحجارة وقنابل المولوتوف على سيارات الدوريات. ولكن من الغريب أن «النداء» انطلق في الحادية عشرة صباحاً، وهو وقت لا ينصت فيه للإذاعة سوى ربات البيوت. وللانتقام مرّر باتيستا قانونا يسمح بقتل أي شخص له علاقة بالأحزاب. كان ذلك في الحقيقة تصريحاً بالقتل بلا شفقة وهو ما حدث فعلاً. لقد قتل ما لا يقل عن ١٤٠ شاباً. معظمهم لقي مصرعه على يد أتباع بيلار جارسيا مدير البوليس المكروه.

ماذا حدث فعلاً في صباح التاسع من إبريل. أساساً كان المفروض أن تعلن الدولة كلها الإضراب الثوري العام، الذي يتم في ٢٦ يوليو في المدن وتعضده حركة حرب العصابات في الريف. ورغم الشكوك التي تكررت عبر السنوات، فهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد أن فيدل نفسه اعتقد بالفعل أن الدولة كلها ستعلن الإضراب الجماعي وبالتالي تكون نهاية نظام باتيستا. في الحقيقة حين سمع فيدل بأنباء بداية الإضراب احتضن الصحفي الأرجنتيني جورج ماسيتي الذي كان معه في تلك اللحظة في السييرا ورقص وصرخ: «لقد بدأ الإضراب العام! لقد حلت ساعة التحرير! سوف تذهب إلى هافانا معنا!».

وبالعكس، عدد قليل من المتاجر أغلق أبوابه، وأقفلت البنوك، وانفجرت بعض القنابل المتفرقة. وانقطعت الكهرباء في الحي القديم من هافانا وفي فيدادو مما أرغم الناس على استخدام لمبات الغاز (وكانت آلة روبي هارت فيليبس الكهربائية غير

ذات نفع) وبدا أن كل شيء يسير في الاتجاه الخاطىء.

هل أراد فيدل للإضراب أن ينجح؟ كان دائماً مستعداً لتجربة أي أسلوب قد يحقق نجاحاً طالما أنه مسيطر عليه. لكنه أيضاً كان حريصاً في مغامرته. كان الإضراب يمنحه فرص ممكنة دون مخاطرة حقيقية، وكان فشله مسألة تخص تنظيم المدن.

وفي أعقاب القمع الدموي لإجهاض الإضراب كان هناك إنعكاسان هامان: أول لقاء حقيقي للعقول بين فيدل والشيوعيين، والنهاية التامة لحركة المدن التابعة لحركة ٢٦ يوليو. وفي ٣ مايو عقد لقاء جدي في السييرا لمناقشة الإضراب الذي أعلن جي أن فشله نهاية للقيادة الحضرية. وأصبحت السلطة الثورية الكاملة تنجذب بشدة إلى السييرا، وتلاشت «التناقضات الثورية» (وهو التعبير المفضل عند فيدل). لقد كره فيدل «المدينة» دائماً وسكانها المترفعين والآن أصبحت لديه أسبابه لبلغيها من الثورة.

كان أول شيوعي ينتقل إلى السييرا هو رجل يدعى خوسيه راميريز كروز وقد أرسل في الربيع إلى راوول الذي بدأ في استخدامه في تنظيم المزارعين سياسياً في الجبهة الثانية. وأصبحت مدرستهم نموذجاً للتلقين الإيديولوجي السابق على الثورة. وقد أدخل أول نصر تاريخي شيوعي فيها. كما نظم راوول وحده مخابرات من المزارعين يمكن اعتبارها طليعة قوات (جـ ـ ٢) التي تدربها السوفييت لصالح كاسترو. وفي سبتمبر نظم أول مؤتمر للمزارعين. وبذكاء أساليبه كان راوول يسير بوضوح على خط تنظيمي مواز لخط فيدل البلاغي والكاريزمي ـ ولكنه كان شقيقاً مخلصاً (وواقعياً) لذلك انتظر حتى أصبح فيدل مستعداً لتقبل «خطه» قبل أن يعرضه عليه.

لا مجال للشك في أن فيدل كان يخطط لثورة أكثر راديكالية بكثير مما أوضح في البداية. وقد قال في خطبة يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٦١ «من الطبيعي إذا كنّا قد أعلنا أننا ماركسيون ـ لينينيون في قمة بيكو توركوينو حين كنّا مجرد حفنة من الرجال لما وصلنا أبداً إلى السهول». لكنه قال هذا بعد أن أصبح حقيقة واقعة، ولا دليل على أن فيدل كان يخطط لكي تكون ثورته «الراديكالية» ثورة «شيوعية». لكن هذا التحوّل يعود إلى حاجة فيدل الملحّة إلى قوة شاملة، أبدية أكثر من معتقداته.

وفي الواقع أنه في فبراير ١٩٥٨ بدأ الحزب الشيوعي، بتردد في البداية ثم

بإصرار، في تبني أساليب «النضال المسلح» التي ينادي بها فيدل بعد أن بدأ بوليس باتيستا في اغتيال بعض أعضاء الحزب. لكن لحظة التغيير الحقيقية، التي لم تلحظ في حينها، جاءت حين سافر المفكر الشيوعي الكوبي كارلوس رفايل رودريجيز إلى السييرا في أواخر الربيع أو أوائل صيف هذا العام. وقد بقي إلى جانب فيدل عدة شهور. وهي حقيقة لا تذكر كثيراً في معظم التاريخ ـ حتى انتصار الثورة.

كان كارلوس رفايل رودريجيز ثعلب الحزب الشيوعي العجوز. وهو رجل طويل القامة، قوي البنية، له عينان تشعان سعادة بما حوله، وله ذكاء حاد بطريقة غير عادية، وكان بلا شك العقل المدبر وراء الحزء الشيوعي القديم. وكان كارلوس رفايل، كما عرف للجميع، هو من جلب إلى جي كتابات ماوتسي تونج عن حرب العصابات في الصين(حفظ جي النصوص وجعلها مادة نقاش إجباري بين ضباطه وجنوده). وفي سنوات لاحقة كان كارلوس رفايل، الذي كان يتمتع بحكمة نادرة بين العقل الشيوعي المتشدد، هو الذي حافظ على التحالف الغريب بين فيدل والماركسية. كما كان كارلوس رفايل هو الذي بدأه.

وفي ليلة توجهه إلى السييرا، أبلغ أنيبال اسكالانتي أحد زعماء الحزب، كارلوس رفايل بمعلومات موجزة عن «الخط الواجب انتهاجه مع كارلوس». ثم بكل تشدّد الحزب، سلّمه مذكرة طويلة ليعطيها لفيدل تحتوي على «نصائح» لا تنتهي حول كيفية شن الحرب وإدارة الدولة و«الحفاظ على مسلك صحيح إزاء القوى السياسية الأخرى»، وحين غادرا كان الشيوعي الآخر الحاضر اجتماعهما أوزفالدو سانشيز يكاد يبكي. لقد كان يعرف كاسترو. وكان يبكي قائلاً «لقد ضاع كل شيء. إنه لن يتماشى معنا أبداً. نحن نتجه نحو قطيعة جديدة». وظهرت تقطيبة عريضة على وجه رودريجيز. وقال «لا تفكر مرة أخرى، ليس لدي أية نية لمناقشة أي من هذه الأمور مع فيدل. أنا ذاهب إلى سييرا لأستمع إليه، لأعرف ما يتوقعه منا، وليس لشحذ سياستنا على عنقه».

من المؤكد أن فيدل لم يكن يتطلع لأن يمتصه الحزب الشيوعي. لكنه كان عملياً يبحث عن كوادر منظمة لإدارة البلاد حين يهبط من السييرا. ثم عندئذ يؤسّس حزبه الخاص، الذي سيدعوه «شيوعياً» سواء بدافع من الملاءمة أو فهم واحترام الموضة الثورية في تلك الفترة أو كسبيل أخير لينتقم لنفسه من الأمريكيين.

أما عن هؤلاء الأمريكيين الذين يلحون على كل لحظة في حياة فيدل، فإن رد

فعلهم لتناقض كوبا في تلك الفترة لم يكن أكثر وضوحاً من الأفكار الداخلية لفيدل نفسه.

ومن المفترض أن الولايات المتحدة كانت لا تزال تسيطر على كوبا ـ لكن هذا لم يعد صحيحاً، كان المفترض أن الولايات المتحدة تؤيد بكل قوة باتيستا ـ ذلك لم يعد حقيقياً كذلك، على الرغم من بعض المظاهر. كان المفترض أن المخابرات الأمريكية، بشكل خاص، كانت ضد فيدل بكل عنف ـ ذلك كان كذباً بصفة خاصة. لكن رد فعل أمريكا إزاء فيدل في تلك السنوات كرد فعلها في مناطق أخرى كثيرة في المستقبل ـ كان مبهماً وبلا فارق لدرجة أن الصورة بدت غريبة بالفعل.

كان روي «ديك» روبوتوم هو الرجل الأول لوزارة الخارجية في أمريكا اللاتينية في تلك الفترة. وحين تحدثت معه عام ١٩٨٦ كانت القصص التي رواها لي تتفق تماماً مع أسلوب «عملاق الشمال» في الرد على كوبا الصغيرة «غير الهامة» في تلك السنوات.

ذات يوم في ديسمبر ١٩٥٧ كان روبوتوم في مكتب جون فوستر دالاس وزير الخارجية، حين قال دالاس: «لدي أنباء طيبة لك. سيتم تغيير السفير جاردنر». تلك كانت أنباء طيبة لروبوتوم، فإن آرثر جاردنر سفير أمريكا لدى هافانا كان مؤيداً بشدة لباتيستا،وقد سبق أن اقترح مرة على الأقل على باتيستا أن يغتالا معاً فيدل كاسترو الشاب. لكن باتيستا رفض مشمئزاً، بدافع من تقاليد الشرف الإسبانية: وقال: «بالطبع لا يمكن أن نوافق على ذلك، نحن كوبيون».

ـ قال روبوتوم لدالاس: «أحب أن أقدم توصيتين أو ثلاثاً».
ـ لكن دالاس رفض: «لا حاجة ـ لقد تقرر الأمر، أنه إيرل سميث».
وذهل روبوتوم. انه لم يسمع من قبل عن الرجل: «من هذا؟».
وأجاب دالاس: «انه يعيش في بالم بيتش ويذهب كثيراً إلى هافانا وهو خريج ييل وبطل ملاكمة وزن ثقيل».

وردّ روبوتوم ساخراً: «حسناً كلها مؤهلات رائعة». لقد ضاع السرور.

لقد آتضح أن سميث عديم التفكير كما كان جاردنر. وضحك بعض الكوبيين ـ وبكى عدد أكبر حين أقامت زوجته حفلاً راقصاً لجمع المال في فندق والدورف ـ استوريا في نيويورك من أجل مصمم أزياء كوبي، في حين كانت كوبا تزداد غرقاً في الآلام. كما أعلن بغباء في تلك الأيام أن السيدة سميث سوف تساعد جهتين

للأعمال الخيرية: الكوبيون والكلاب.

ومن الغريب أنه بعيداً عن المحيط المباشر للسفير والدوائر العسكرية أيّد معظم الدبلوماسيين الأمريكيين علناً وبحماس فيدل والمتمردين. كان قنصل سانتياجو القريب من حركة ٢٦ يوليو، و ريتشارد كاشيتج المسؤول عن العلاقات العامة في السفارة في هافانا يساعدان فعلاً الصحفيين الأمريكيين على الوصول إلى السييرا لإجراء الأحاديث مع فيدل. وقد عرفت السفارة بهجوم الإدارة على القصر في ١٣ مارس ١٩٥٧ ولم تخبر باتيستا. ودخلت محطة الإذاعة التي افتتحت في ٢٤ فبراير ١٩٥٨ في السييرا، إلى كوبا بمساعدة القنصل الأمريكي. كان لحركة ٢٦ يوليو خلايا في كل أرجاء القاعدة الأمريكية في جوانتانامو. وكانت القاعدة نفسها بمثابة ملجأ خاص للمتمردين الذين استغلوها لتهريب الأسلحة إلى الجبال.

وقد أنكر روبرت ويتشا عميل المخابرات كلية وبصدق أنه قدم نقوداً لفيدل أو حركته (وذلك في لقاء معي في واشنطن حيث كان يعيش تحت اسم مستعار عام ١٩٨٧). لكنه من الواضح أنه كان مؤيداً لكاسترو. وقد أكّد أن الجميع في المخابرات ساندوا فيدل. «لقد كانوا جميعاً موالين لكاسترو». وقد شعر ويتشا بأسى كبير لتجربته في كوبا وقال «جميعاً . وكانوا كذلك جميعهم في الخارجية عدا إيرل سميث».

وفي حين اتخذت المواقف الأمريكية حيال كوبا عدة أشكال مراوغة، كانت تلك سياسات محددة، ومكتوبة. كانت هناك سياسة لوزارة الدفاع، وسياسة للخارجية وسياسة للبيت الأبيض وسياسات أخرى عديدة. وكانت السياسة الرئيسية المتفق عليها بين كبار واضعي السياسة، واحدة لم يسبق للعالم أن سمع بها. لكنها توضح النفسية الدبلوماسية الأمريكية. كانت سياسة «القوة الثالثة» سياسة أحلام الاعتدال، سياسة خادعة يصرّ من يعيشون في مجتمعات منظمة أنها تصلح لمن يعيشون في مجتمعات فوضوية. وكان أكبر مشجعيها هو ويليام ويلاند، مدير شؤون الكاريبي والمكسيك في الخارجية. وكان ويلاند، الذي يصرّ كثيرون على إحاطته بسرية، محل لوم كثيرين فيما بعد لأنه «قدم» كوبا إلى فيدل. ولكن الحقيقة الأدق أن ويلاند الذي عاش عدة سنوات في كوبا، كان يفكر بأسلوب وسط هو أسلوب تفكير الأمريكيين «الطيبين». هذا «الأسلوب الوسط» يوحي بمساندة «قوة ثالثة» مشكلة من أشخاص معروفين بموالاتهم لأمريكا وإبعاد باتيستا في سلام.

لكنها كانت مسألة خيالية. فقد كان فيدل كاسترو في الجبال عبقرياً تماماً في

التخلص من أي وكل منافسيه الواحد تلو الآخر. وكان هناك رجال واشنطن البعيدون الذين اعتقدوا أنهم يستطيعون وضع بديل لكاسترو بمجموعة جديدة من «الرجال ذوي النوايا الحسنة». هنا كان كاسترو الذي أسر خيال الشعب الأكثر خيالية وحباً للتاريخ ـ ورجال واشنطن الحسنو النوايا الذين اعتقدوا أن بوسعهم تحييد مثل هذه الصلة اليائسة بالنية الحسنة وحدها. لقد كان بالفعل «الحلم الأمريكي».

وفي «تقدير موقف خاص من المخابرات الأمريكية» حول الوضع في كوبا في نوفمبر أعد الدراسة أعلى رجال المخابرات. وقد جاء فيها هذا التحليل المذهل:

«لقد فشل كاسترو في إقناع غالبية الشعب الكوبي أن شخصيته وبرنامجه، الأفضل من باتيستا، يستحقان القتال في سبيلهما. لا تزال كوبا تتمتع برخاء اقتصادي نسبي وجانب كبير من السكان، القلقين من احتمال تخريب الثورة لرفاهيتهم، يأملون أن يكون هناك انتقال سلمي من السلطة المطلقة للفرد إلى الحكومة الدستورية».

في هذا التصارع الحقيقي مع نوع جديد من الثورة ارتكبت الولايات المتحدة نفس نوع الأخطاء التي ميزت علاقاتها مع كل الأعراض الثورية الخاصة التي ستجيء فيما بعد والتي ستعطي عبارة «من خسر؟» للسلطة والدبلوماسية الأمريكية.

وقد أعدت السياسة الأمريكية حيال كوبا في السنوات الأخيرة لنظام باتيستا المسرح لسياسات لاحقة في فيتنام ونيكاراجوا ولبنان وإيران والسلفادور وبنما. حيث افتقرت هذه السياسة كلية إلى فهم ديناميكيات الثورة وتطلعها إلى إنقلاب عسكري (الأسلوب الذي رفضه كاسترو طويلاً وعمداً) بعد فترة طويلة من فساد وخزي العسكرية، وأخيراً عدم رغبتها في فهم الدوافع النفسية السياسية لتفهم جاذبية زعماء ما بعد عصر الاستعمار أمثال فيدل كاسترو.

ومن جانبه، بدأ فيدل، رغم أنه الوحيد بين رفاقه، في الإعراب صراحة عن كراهيته العميقة والأكيدة والمخفية حتى الآن حيال الولايات المتحدة، وفي مذكرة إلى سيليا بعث بها يوم ٥ يونيو سنة ١٩٥٨ بعد هجوم بالصواريخ شنته مقاتلات أمريكية الصنع قال: «أقسم أن يدفع الأمريكيون الثمن فادحاً لما يفعلونه، حين تنتهي هذه الحرب، ستبدأ حرب أكبر وأوسع مجالاً أمامي، الحرب التي سأشنها ضدهم، أعتقد أن هذا هو مصيري الحقيقي».

وفي هذا الوقت كان الجيش المتمرد يحتل أو يسيطر على معظم منطقة جبال أورياني، وأصبح «مقر قيادة» فيدل في لابلاتا يتكون من منزل كبير خشبي مفتوح من

جوانبه ويعطي الانطباع انه معلق على حافة الجبل. كان مغطى ببطانية خضراء رائعة من النباتات وفي الفجر كان يحيط به ضباب الصباح الأزرق في السييرا. كان بدائياً ولكنه مقر قيادة حقيقي، لقد بدأ ببطء تسكين «رجال حرب العصابات».

كما اجتذب فيدل المشاهير إلى السييرا أو إلى «صورة» السييرا. وهو المهم. ففي أواخر العام كان إيرول فلين في كوبا لتصوير فيلم اسمه «فتاة متمردة»، وكان جوني ويستمولر «طرزان الشهير» يشترك في بطولة استعراضية للغولف في هافانا. وقد أبدى ويستمولر رباطة جأش غير عادية حين أحاطت به مجموعة من جنود فيدل المتمردين الذين ظهروا من العدم. وبثقة رجل غابة يلتقي بأمثاله رفع ويستمولر نفسه إلى أعلى وضرب صدره بيديه وأطلق إحدى صيحات طرزان الشهيرة. وبعد دقائق كان المتمردون قد بدأوا يصيحون «طرزان، طرزان، مرحباً بك».

وفي هذا الوقت دخل حياة فيدل الرجل الذي يوشك أن يكون أحد أعظم أربعة من قادته.

كان هوبر ماتوس رجلاً ضئيلاً محترماً صاحب إرادة، من أسرة من المدرسين والقضاة. كان مدرساً مخلصاً ومزارع أرز قبل أن ينضم للحركة الثورية غاضباً على عمليات القتل التي يقوم بها باتيستا، ويرحل إلى كوستاريكا حيث اشترى شحنة أسلحة وحملها كهدية ثورية إلى السييرا. وحين وصلت الأسلحة، جرّب فيدل كل منها بسعادة، كان مثل صبي صغير يطلق النار في كل اتجاه ويصيح كما فعل كثيراً «الآن سنكسب الحرب» وقد بدا لماتوس أنه «يهذي وهو يطلق النار في الليل... بهذا العدد القليل من الأسلحة والبنادق والمدافع الرشاشة». كان اللقاء الأول بين الرجلين مناسباً. وقال ماتوس فيما بعد: «لقد ترك في نفسي انطباعاً جيداً جداً، أولاً كثوري ثري بأفكاره الديمقراطية، وخلال شهور قليلة كانت علاقتنا شخصية وطيبة جداً بصفة عامة، كان رجلاً منفرداً، منعزلاً... كان يعارض التسلل الشيوعي إلى السييرا. لا أعتقد أن فيدل كان شيوعياً فلسفياً. أعتقد أنه رأى بديلين - اما ثورة ديمقراطية أو شيوعية، وقد مال للأخيرة لأنها تمنحه الفرص ليصبح حاكماً بلا منازع للدولة باقي حياته».

لكن رغم احترام فيدل لقيادة ماتوس الملحوظة ومميزاته العسكرية فإن الرجلين لم ينسجما معاً، وكان السبب بسيطاً جداً، كان ماتوس سيد نفسه مثل فرنك بايس.

ومع بداية «هجوم الصيف الكبير» الذي بدأه جيش باتيستا، كان قد أصبح من الواضح لأي مراقب موضوعي أن المتمردين يكسبون الحرب، ولو بالتقسيط. وفي

هذه الأثناء كان فيدل قد بدأ يشعر بالملل. وفي ٥ يـونيو كتب إلى سيليـا من السييرا: «الناس يملؤونني مللاً. لقد تعبت من دور المراقب والتحرك بلا راحة للتعرف إلى أدق التفاصيل غير الهامة لمجرد أن شخصاً نسي هذا أو أهمل ذاك. إني أفتقد هـذه الأيام الأولى حين كنت جنـدياً وكنت أسعـد بكثير مني الآن. لقـد أصبح هـذا القتال بـائساً ومهمة بيروقراطية بالنسبة لي».

لكن في أواخر يوليو كاد باتيستا أن ينتصر بعد أن وقـع معظم رجـال فيدل وسط «حلقة» أعدها الجنرال أولوجيو كانتيللو، ولمعرفـة فيدل بمدى خطورة المـوقف أرسل على الفور رسولاً إلى موقع كانتيللو ـ دعنا نعقد هدنة «ونجري مبـاحثات في مكـان ما من المنطقة».

مباحثات؟ حسناً ليس تماماً، حين جاء الملازمان المبعوثان من كـانتيللو لرؤيـة فيـدل أجريـا «ماحثـات» لمدة ٣ أيـام. في البدايـة ألقى فيـدل خـطبـة مـربـرة ضـد الحكومة، وهـو يذرع المكـان في غضب متحدثـاً بنبرتـه الأمرة المعتـادة وقد جلست سيليا وجي ورجال حرب العصابـات في هدوء. في الاجتمـاع الثاني، الـذي بدأ في الصباح الباكر شنّ فيدل هجوماً آخر على النظام. واستمـر حتى الخامسـة بعد الـظهر حين خـرج الكولـونيل المنهـك أخيراً من المنـزل إلى الهليكوبتـر مؤكداً أنـه لا بـرى جدوى في مواصلة هذا «النقاش» الذي يبدو واضحاً أنه مونولوج.

ولكن كالعادة نجح أسلوب فيدل العبقري، فقد كسب وقتاً لإخراج معظم رجاله في أمان من المنطقة، كما أن حقيقـة أن الجيش مستعـد للتفاوض معـه أثارت غضبـاً شديداً في نفـوس ضباط الجيش الـذين حاربـوه طويـلاً. وأخيرا فشـل هجوم بـاتيستا الصيفي. ورغم أخطاء فيدل الخطيرة فقد خرج قوياً سياسياً وعسكرياً.

ازدادت هجمـات المتمـردين على أطـراف السييـرا. وفي سبتمبـر قـاد كـاميلو شيانفويجوس وجي رجالهما غرباً فيما عرف فيما بعـد باسم «مسيـرة الغرب». في الـوقت نفسه كانت آلة باتيستا العسكرية تنهار رافضة القتال، بـل وكان الجنـود يتوجهـون إلى المتمردين بينما رجال فيدل ينتشرون مثل بقعة حبر على ورقـة ماصـة هي كوبـا. وفي منتصف نوفمبر، سيطر الجيش المتمرد على السكة الحديد والنقل البري في أوريانتي كلها. وفي ديسمبر، كانت المدينة تلو المدينـة والبلدة تلو البلدة والموقـع الحربي تلو الآخر يسقطون أمام رجال كاسترو: لامايا، التوسونجو، سان لويس، أرميتا، ميراندا، ألتوسيدرو، ماركانيه، بورجيتاس، الجندول، سانتاكلارا. . . كان تحوّل مجرى الأمور

قــد بدأ يدير الرؤوس مثل عاصفة بحريـة مفاجئة مطيحـة بكل شيء أمـامها بقـوتها الشديدة غير المتوقعة.

ومـع سنة ١٩٥٨ ونـظام باتيستـا في أيامـه الأخيرة اتجـه الأب أرمانـدو لورينت مدرس فيدل القـديم في الجيزويت إلى السييـرا. وقال لي الأب لـورينت: «ذات يوم استدعاني رؤسائي في السييرا. كان سفير البابا قادماً، وقد تلقوا رسـالة من الفـاتيكان تحثّهم على إعداد دراسة حول ما يجري في سييرا، كانوا يتلقون تقارير متناقضة». . . وقال الرئيس الأعلى: «أخشى أنه لو فاز فيدل كاسترو، أن يضطهد الكنيسة». وقررت الذهاب إلى السييرا. كانت الصـورة مختلفة تمـاماً عمـا تعتقدين. أولاً جـاء رجل ذو لحية، فلاح أعطى صيحة كعلامة قـائلاً: «لا تخف أيهـا الأب لدي مسـدس لكن بلا رصاصات، كان هذا هو. . . طليعة فيدل. لم يكن لدى هؤلاء الـرجال شيئـاً. كانـوا تقريباً حفاة، لا أحد يملك رصاصاً، وكان النصر بعد ٣ أسابيع».

ويستطرد الأب: «بعد يومين ظهر فيـدل، كان فيـاض المشاعـر، ولمدة ٤ أيـام كنت دائماً معه. في المساء نستمع في الراديو إلى كل المعارك التي تمّ كسبهـا ـ ولم يكن لـديهم رصاص. لقـد آمن العالم كله أن لـديهم جيشـاً ـ وآمن النـاس أن فيـدل كاسترو يحارب في كل مكان ـ وعلى مدى أربعة أيام كنّا نتنزه.».

وفي وقت ما سأل القس فيدل صراحة عمّا إذا كان شيوعياً، وأجاب فيـدل بنفاد صبـر وهما جـالسان وسط الغـابة الهـادئة: «كيف سـأصبح شيـوعيـاً؟ من أين سـآتي بالشيوعية؟».

ولكن الأب لورينت يتذكر أنه «منذ كان طفلاً كان فيدل دائماً كـذاباً رهيبـاً. في الحقيقـة، في المدرسـة كان يـدعوهـا «طبيعته الثـانيـة» وكنت أقـول: «أنت تخبـرني أكاذيب» وكان يضحك».

في هذه الأسابيع كان فيدل يرتاح، وينتظر ويفكـر. فقد مـرّ بالكـاد عامـان منذ نزوله من «جرانما» ليتمم وعد مارتي وقـدره الخاص. وفي هـذا الوقت القصيـر، هزم عسكرية باتيستا، سيطر على حركات المدينة تحت قيادته، جعل الأحـزاب السياسيـة القديمة عاجزة، خدع وحيّد الـولايات المتحـدة واستغل كـل الطبقـات في كوبـا التي ضاع وهمها ليجتذب أتباعاً منومين مغناطيسياً لبناء «كوبا الجديدة». لقد كانا عامين لا مثيل لهما!

الفصل السادس عشر

فيدل فيدل فيدل فيدل

«حين أعود سأكون ملايين»
ايفيتا بيرون

لم ينتبه معظم الحاضرين في حقل الرئيس فولجينشيوباتيستا بمناسبة رأس السنة الجديدة ١٩٥٩ إلى ما يحدث. حقاً كان الحفل أصغر من المعتاد نظراً لأن الحرب كانت مستعرة في كل مكان الآن و «المتمردين» توغلوا إلى عمق كوبا، لكن باتيستا بدا طبيعياً تماماً وأظهر سيطرة كاملة على الموقف وعلى مشاعره. ثم قبيل الساعة الثانية صباحاً اجتمع باتيستا مع قادته العسكريين في حجرة خاصة وفي دقائق قليلة كان الرجل «الكبير»، الذي حكم حتى هذه اللحظة كوبا بلا رحمة حكماً كاملاً لمدة سبع سنوات تقريباً، قد بدأ يغادر البلاد.

أثناء دخول باتيستا القصير الممتلىء الجسم إلى الطائرة مسرعاً مع زوجته وثلاثة من أبنائه، تحول إلى الحشد الصغير الواقف أسفلها ووقف مبتسماً ليلقي بآخر كلماته للشعب الكوبي «سالود، سالود» أو «الصحة، والحظ الطيب». وكانت هذه الكلمات هي التحية التقليدية عنده ولكن في هذه اللحظة كانت تبعث على الاستنكار إلى حد بعيد، خاصة باعتبارها بركات متناقضة موجهة إلى هؤلاء الألاف من الكوبيين الموالين له الذين يتركهم وراءه.

كما كان يخلف وراءه أكبر جيش سيطر عليه قوامه ستة وأربعون ألف جندي من بينهم خمسة عشر ألف مجند جديد وشحنات ضخمة جديدة من الأسلحة والمعدات. هذه كانت القوة التي أصبحت ضائعه الآن أمام ألفين أو ثلاثة آلاف فرد من الجيش

المتمرد. والهزيمة الكاملة لمثل هذا العدد الهائل لصالح عدد ضئيل هكذا أمر غير عادي في التاريخ الحديث، وسوف تبقى التجربة إلى الأبد ماثلة في ذهن كاسترو وعلامة في طموحاته، لتعزز اعتقاده بأن كل وأي ظروف «موضوعية» يمكن التغلب عليها بالقوى «الذاتية» أو الشخصية.

وفي هذا الوقت كان الأدميرال أرلي بيرك قائد القوات البحرية يقدم الحجج، خلال اجتماعات استمرت حتى وقت متأخر من الليل في البنتاجون، على أن «كاسترو ليس الرجل المناسب لكوبا» وأنه حتى في ذلك الوقت يتعين على الولايات المتحدة القيام ببعض الخطوات لمنعه من تولي السلطة. ولكن أي خطوات؟ إذ أنه كما لاحظ المؤرخ هف توماس في وقت لاحق «لم يكن من الممكن اتخاذ أي قرار، وفي الواقع ما الذي كان يمكن عمله في مثل هذه الساعة المتأخرة غير تدخل قوات المارينز (مشاة البحرية) على الفور؟».

وفي هذه الأثناء كان كاسترو يقضي ليلة رأس السنة الجديدة في منزل رامون رويث كبير مهندسي/ سنترال أمريكا/ وهو مصنع للسكر بالقرب من بالما سوريانو، وبرفقته سيليا وبعض الأصدقاء المقربين مثل خوسيه باردو لادا. لقد عرفوا أن النصر وشيك الآن. كانت سيليا سعيدة لكن أفكارها بدأت تذهب في حزن أكيد وراء فكرة فقد فيدل وفي جوانب كثيرة كانت ليلة رأس السنة الجديدة هذه تشبه الليلة الهادئة السعيدة السابقة على هجوم مونكادا حين هدأ المتحاربون ليمنحوا الفرصة للتاريخ ليسير في مجراه الذي اختاروه له. وإذا كان هناك جمال فني في الثورة، وهو موجود، فهو يظهر في لحظات مثل تلك حين يتأرجح الأمل مثل شيء وضاء معلق ويلتقطه سريعاً النبل في الإنسان قبل أن يسقط.

ومع إشراق الصباح كان كل شيء قد تغير. إذ ان كاسترو كان يجري منذ بعض الوقت اتصالات شبه سرية مع أولوجيو كانتيللو أحد أكثر جنرالات باتيستا اعتدالاً ومعلومات وهو نفس الجنرال الذي دفع رجاله إلى الاستسلام في الجبال. وكانت الاتصالات شكلية من جانب كاسترو الذي لم تكن لديه النية على الإطلاق لتسليم النصر لأي مجلس عسكري حاكم حتى بدون باتيستا. والآن بدا الأمر كأن مجلساً عسكرياً قد يتشكل بالفعل، بدون باتيستا ولكن أيضاً بدون فيدل كما أشارت أنباء الإذاعة التي تشير إلى تفاصيل «تحركات» غير عادية في معسكر كولومبيا.

واشتعل كاسترو غضباً. وروى خوسيه باردو لادا أنه «كان يمر بأصابعه على لحيته ويحاول بأقصى طاقته السيطرة على غضبه. وأخيراً فقد قدرته على ضبط النفس

وقال بصوت عال: «إنها خيانة، خيانة خيانة، انهم يريدون سرقة نصرنا منا، سوف أتوجه إلى سانتياجو الآن، يجب أن نستولي على سانتياجو في الحال».

وصادف أن طبيب أسنانه كان في الحجرة في تلك اللحظة نظراً لأن كاسترو كان يعاني دائماً من مشكلات في أسنانه في سييرا. وقال الرجل بنبرة ساخرة مريرة: «استميحك عذراً أيها القائد لكن اعتقد أن عليك الانتظار على الأقل لمدة خمس عشرة دقيقة»، لكن كاسترو تجاهله وواصل إصدار أوامره بالتوجه إلى سانتياجو على الفور.

وفي هذه اللحظة اندفع صبي من مدينة مصنع السكر القريبة إلى الغرفة وقد تملكه الانفعال ليقول إن «محطة أمريكية أعلنت أن باتيستا وأسرته غادروا كوبا». وحتى في لحظة النصر هذه كان كاسترو يعلم انه قد يفقد كل شيء حتى لو، خاصة لو، بقي في الحكم أعضاء في المجلس السابق من ذوي الاتجاه الإصلاحي. والواقع أنه خلال الأيام الماضية شديدة الأهمية كانت فكرة إمكانية انتزاع «نصره» منه قد أصبحت متسلطة تقريباً على فيدل. لذلك فإنه ما أن أشرقت الشمس حتى انطلق كاسترو إلى سانتياجو. وقبيل الساعة الواحدة من صباح الثاني من يناير دون أن تنطلق رصاصة واحدة، دخل متأثراً المدينة التاريخية مسرح ثكنات مونكادا، أغنية الصحراء، المأساوية. لكنه الآن دخل سانتياجو باعتباره «محرراً» ورحب سكان المدينة الجميلة البالغ تعدادها ١٦٣ ألفاً و٢٣٧ نسمة ترحيباً حاراً بالمحارب ذي اللحية الذي تجسد في شخصه نصف قرن من الوطنية المقهورة رغم أنه كان قديساً من أزمان المسيحية. أما عن «مقاتليه في حرب العصابات» هؤلاء الرجال البسطاء الشجعان الذين خاضوا معركة سبارتان بتقاليد حرب العصابات الاسبانية العظيمة فقد كان كثيرون منهم في حالة أقرب إلى الصدمة كما لو كانوا عاجزين عن تصديق أنهم «انتصروا» فعلاً بعد كل هذه المعاناة ورغم كل الظروف الرهيبة.

ويتذكر كارلوس فرانكي «هبط الليل ونحن المقاتلين نهبط من الجبال نبدو وكأننا قديسون. كان الناس يهرعون لإستقبالنا. وكانوا شديدي الفرحة. لقد كانت تلك حفلة رأس السنة الحقيقية وسادت المتمردين سعادة حقيقية جماعية. ومع ذلك كان أحدهم يشعر بالحنين كما لو كان قد ترك خلفه من جبال سييرا الشيء الوحيد الذي يهمه في العالم كان هذا الشخص هو فيدل كاسترو. . . .

وفي ذات الوقت كان كاسترو يلتقي مع الروتاريين والليونز الذين ساندوا

المتمردين والآن يجلسون في مقاعدهم في مكاتب المدينة يشاهدون بطلهم. وصافحهم كاسترو وانتقل إلى شرفة خشبية صغيرة بينما كانت النساء والرجال في ملابسهم التقليدية يبكون فرحاً. وصاح الحشد كأنه أسد عادت إليه حريته فجأة.

وقبل مغادرة سانتياجو ألقى فيدل كلمة في ميدان سيسبوس العتيق إلى الحشد الذي بدا كأنه يحوم ويقترب من حالة هذيان استجابة وتفاعلاً مع منقذه. لقد كانت لحظة تاريخية جديدة على عدة مستويات. فقد بدأ كاسترو هنا تجمعاته الشعبية. واقفاً في انتصار كامل أمام الحشد المفتون سائلاً المجتمعين في خطابة طنانة عما يريدون. «من يريد» (ويلقي على مسامعهم باسم واحد أو آخر من المرشحين العسكريين الذين يخشى أن يستولوا على السلطة في هافانا) «كرئيس؟» ويظل يدفعهم إلى الإجابة مرات ومرات حتى يحصل على إجابته هو.

ثم، يتذكر مرة أخرى الطريقة التي انتزع بها الأمريكيون سانتياجو من بين يدي القوات الكوبية في عام ١٨٩٨ فيعلن بحرارة عميقة: «من حسن حظ كوبا أن الثورة سوف تتولى فعلاً السلطة. فلن يكون الأمر كما كان سنة ١٨٩٨ حين وصل الأمريكيون...».

باختصار كان فيدل كاسترو يتفوه ببعض أصدق الكلمات في حياته قائلاً «لا المحتالين ولا الخونة ولا الدخلاء الأجانب. هذه المرة، نعم، إنها ثورة». وهو الذي كان دائماً يعيد تذكير الناس بأنه في السنة التي تقلد فيها السلطة كان في نفس سن المسيح حين صلب وعاد ثانية.

وبهذا بدأ فيدل متعمداً وبصورة منتظمة يتجول في كوبا أولاً وسط موكب من سيارات الجيب ثم في طائرة هليكوبتر وأخيراً في دبابة من مشهد مسرحي أثناء دخوله هافانا. فقد كان أقرب إلى «هانيبال» الحديث يعبر «جبال الألب» الكوبية «بأفياله». وكان قيصر الزاحف إلى وطنه روما من الأراضي المهزومة، لكنه كان أيضاً شيئاً جديداً. كان رجل حرب العصابات الاسباني الحقيقي، الرجل الحقيقي من الريف المتجه إلى المدن «الخاطئة» في الزمن الحديث. شيء واحد لم يكنه كاسترو، لم يكن خوسيه مارتي على جواد أبيض مضحياً بنفسه. وحين تعلق الأمر بتعزيز السلطة كانت سيادته مطلقة كما كان الحال دائماً.

كان جي جيفارا قد انتقل بالفعل إلى هافانا مساء الأول من يناير وبسط سيطرته على حصن «لاكابانا»، واستقر كاميلو في معسكر كولومبيا، لقد تمت فعلياً السيطرة

على هافانا لذا لم يعد كاسترو في عجلة من أمره على الاطلاق لدخول المدينـة. لقد كان يتيح الفرصة لتصاعد حالـة الترقب الصحيحة وينتظر فقط اللحـظة المناسبـة. بل إنه خلال تحركه المهيب عبر الجزيرة كان يستقر في كل مدينة وبلدة كبيرة ليتأكـد من تعزيز موقف المتمردين كاملاً، وأن كل حصن ومدينة في أيدي أحد أكثر ضباطه تمتعاً بثقته.

وفي شينفويجوس وهي مـدينة جميلة على السـاحل الجنـوبي للكاريبي تـوقف كاسترولتنـاول العشاء مع قادة «جبهة اسكمبراي الثانية» الذين استـولوا على المـدينة. تناول طعامه بأناقة في مطعم «لاكوفادونجا» وهو مطعم أسماك راق يطل على البحـر. وأثنـاء تناولهم الجمبـري الممتاز والبيـرة الكوبيـة الشهيرة وأعـداد متزايـدة من شعبـه المخلص تتحلق حـوله، أدى كـاسترو أحـد مشاهـده الشخصيـة الغـريبـة التي يمكن اعتبارها مجرد «اختبارات» منتقـاة بدقة للتأكد من ولاء الآخرين واختبـارات لأي مدى يستطيع هو شخصياً الذهاب إليه.

وبعد سنوات قص لاسارو أسينسيو أحد قادة الاسكمبـراي أنهم كانـوا يناقشـون أمر مقاتل حرب العصابات الأمريكي ويليام مورجان الذي حارب مع الجبهة الثانية. فجأة وبدون إنذار تحول فيدل بخشونة إلى لاسارو وقال له: «استمع لي يالاسارو، أريـدك أن تخبر ويليام مورجان هذا أن يرحل عن كوبـا». وكان لاسـارو معجباً بمـورجان ويعتقـد أنه ملتزم فعلاً بالثورة وليس مجرد مرتـزق آخر فأجاب قائـلاً: «فيـدل، أنت مخطىء ويليام شخص لديه دافع ممتاز، ويحب الثورة الكوبية ولن يأخذمليمـاً واحداً». ولكن كاسترو لم يكن مقتنعاً.

واستطرد فيدل قائلاً: «أنظر، لاسارو، كل هؤلاء الأجانب مجـرد مرتـزقة، هـل تعـرف ما سأفعله بشي جيفـارا؟ سـوف أرسله إلى سـانتـو دومينجـو لأرى مـا إذا كـان تروجيلو سوف يقتله. وشقيقي راؤول، سوف أرسله كوزيـر أو دبلوماسي أو سفيـر إلى أوروبا».

لقد ظل لاسارو أسينسيو بعـد مرور ثـلاثة عشـر عامـاً متحيراً قليـلاً بصدد هـذه المحادثة غير الواقعية. وقال: «ما كان هامـاً هو أن الأمر لم يكن متعلقاً بي فقـط. لقـد كان هنـاك آخرون». وفي الـواقع فـإن اميليو كـاباليـرو وهو مقـاتل آخـر كان في لاكوفادونجا في تلك الليلة يتذكر هذا المشهد بنفس الأسلوب بالضبط.

لماذا يقول كـاسترو مثـل هذه الأشيـاء الغريبـة رغم أن «جي» يسيطر على لاكـابانـا

من أجله وراؤول حارب بكل شجاعة؟ قال لي اسينسيو إن «ما خرجت به هو أنه قال هذا لنا كدليل على أنه لا يعتزم إقامة حكومة شيوعية في كوبا وأنه ليس لدينا من الأسباب ما يدعونا للقلق من هذه اللحظة» كما كان هذا أحد اختباراته.

وزار فيدل ملجأ أيتام تديره الراهبات في مانتزاس ليعطيهم نقوداً لشراء جهاز تليفزيون. وفي الواحدة والنصف من صباح أحد الأيام كان يدلي بحديث للمذيع إد سوليفان. وفي الثامن من يناير وهو ما زال في طريقه إلى هافانا مثل الاسكندر يزحف منتصراً عبر بلاد فارس، توقف في احتفال كبير عند مسكن والدي خوسيه انطونيو ايكيفيريا البطل الذي لقيَ مصرعه في الهجوم على القصر قبل عامين تقريباً. وانهمرت دموع الأم عرفاناً بالجميل. مقتنعة أنه الآن أصبح لمصرع ابنها سبب ومعنى. والآن على حدود هافانا، تقابل كاسترو، وسط مشاعر فياضة وتخطيط مسرحي، مع فيدليتو، ابنه الذي لم يره منذ ١٩٥٦ والذي أصبح الآن صبياً في التاسعة من عمره.

لقد كانت قصة ميرتا وفيدليتو في هذه السنوات السابقة مختلفة عن قصة الزوج السابق والأب البعيد. وفي الوقت الذي كان فيه فيدل في سييرا تحولت حياة ميرتا إلى رحلة مكوكية حزينة وبلا هدف بين كوبا والولايات المتحدة. وكل من عرف ميرتا في هذه الفترة يتذكرها كفتاة لطيفة ومهتمة بالآخرين، وحزينة. لكنها ظلت واعية برغبات وحساسيات زوجها السابق. لذلك عاد الصبي الصغير فيدليتو إلى «كوبا الجديدة» قادماً من الولايات المتحدة في طائرة نفاثة في الخامس من يناير. وكانت ميرتا في هافانا وأصرت «الحكومة» الجديدة على أن تكون هي في المطار حين يصل فيدليتو. ويمكن تصور الحزن الذي أحست به وهو حزن له مبرر بسبب الذكرى والأسف على فقد الزوج والغيرة من رؤية هذا الزوج الذي عبدته في السابق وفقدته وقد أصبح رمزاً للبطولة في أعين النساء في كل أنحاء العالم.

وفي هذا اليوم قالت لصديقها السابق جاك سكيلي، «أنت الوحيد الباقي لي، يجب أن تكون معي» ولكن حين هبطت طائرة ابنها أبعدت ميرتا عنه وأرغمت على الرحيل مع المسؤولين الآخرين الموالين لكاسترو إلى اجتماعات رسمية حيث وقفت على مسافة ترقب الزوج الذي أحبته ذات مرة يسحر شعب كوبا كله ويبدأ عملية أخذ ابنها بعيداً عنها هي أيضاً.

ومع تغير السلطة السياسية في كوبا. كانت حيوات الكثير من رجال الثورة تتغير بالمثل. فبالنسبة للبعض لم تجلب الثورة التي حلموا بها المجد بل الخسارة

الشخصيـة واليأس في حين جلبت للبعض الآخـر علاقـات شخصية جـديدة وشـركاء جدد وحب جديد.

لقد أصبح كاسترو شخصياً الآن مرتبطاً بسيليا ارتباطاً لا فكاك منه على الرغم من أن سيليـا اتخذت قراراً صعباً للغاية رغم حكمته إذ أن رؤيتها لمداهنة نساء كوبا الجميـلات له تحـاشت أن تحيا معـه حياة العشق وبـدلاً من ذلك ربـطت بينه وبينهـا بوسائل أكثر تعقيداً بكثير. وبقيت ناتي ريفويلتـا عشيقتـه، والآن أصبحت تريد الزواج منه. ويقول خوان أزكوكا مترجم فيدل إن «هافـانا كلها عرفتهـا في ينايـر ١٩٥٩. لقد كانت منيرة ورائعة وكانت ترتدي بصورة مؤثرة. وقد أحبها فيدل حباً شـديداً وفي أول يناير كانت له. وكانت أول من طلبها. فتركت زوجها بعـد أن أخبرتـه أن ابنتها الثـانية ابنـة فيدل وكـانت تتوقـع الزواج منه. كانت رائعـة، أجمـل من أي وقت مضى وكـان الجميع يقولون إن فيدل سيتزوجها».

كم كانوا قليلي المعرفة بفيدل كاسترو! فإنـه لم يكن قـط ليقبل أو يسلم للمـرأة التي ازدرت يوماً عرضه بالزواج بل كان أيضاً يدرك تماماً أنه ذهب إلى أبعد بكثير من إمكانية الزواج بصفة عامة؛ فلم يكن الزواج بالأمر المسموح به لزعيم يتمتع بشخصية كاريزماتية. ويلخص أركوكا الموقف في قوله، «لقد أصبحت مثيـرة للشفقة بعـد ذلك ولكنها لم تفقد الأمل أبداً».

أما «جي» الذي اهتم في السنوات المبكرة بتحسين صورته كـرجل بـارٍ صاحب إحساس صحيح وتزوج امرأة عادية فإنه التقى بمدرسة شقـراء جميلة في سانتـا كلارا تدعى أليدا مارتش واعتزما الزواج قريباً. وفي الوقت نفسه كـانت زوجته الـوفية هيلدا جاديا تنتظر في بيرو مـع ابنتهما هيلديتـا وتعمل كصحفيـة في صحيفة /لاتـريبـونـا/. والآن في لحظة النصر التي عملوا جميعاً وعانوا من أجل تحقيقهـا، أصبحت مهجورة من زوجها. وقد أخبرتني سيليسيا بوستاميني إحـدى شاعـرات بيرو الشهيـرات وكانت قد عملت مع هيلدا في /لاتـريبيونـا/ أن هيلدا «ظلت تنتظر وتنتـظر في هذه الأيـام. ولم تكن هناك حتى كلمة ترد من «جـي». كانت الطائرات تأتي من كوبا لتحمل الكثير من الناس وتعود بهم ولكن لم تحضر أي طائرة للعودة بهيلدا».

وفي أول يوم بعد هرب باتيستا كانت المدينة هادئة إلى حـد موحش مثـل امرأة جميلة ولكن غير واثقة تنتظر حبيبها. وفي اليوم التالي استيقـظت هافـانا جـديدة على هدير الجماهير الغاضبة، بعد أن انطلقت مشاعر الشعب التي طالما كبتهـا. وفي ثورة غاضبة أثـارت دهشة الكـوبيين الأكثر رزانـة هاجم الجمهورعدادات الحـديقة وضـربوهـا

وحطموها نظراً لأن هذه العدادات كانت رمزاً لتميز «النظام السابق». ثم هاجم الحشد فندق سيفيلا بالتيمور وحطموا النادي رمز «رذيلة وفساد» عصابات باتيستا، إلى جانب النفوذ الأمريكي «المفسد». ولم ينج سوى ناد واحد للقمار. كان يديره ممثل الأفلام الأمريكي «القوي» جورج رافت في نادي فندق كامبري وحين بدأ الحشد الغاضب الثائر يصعد سلالم المدخل الرئيسي للفندق هاج فيهم رافت مكشراً عن أنيابه كما يفعل في أفلام العصابات الشهيرة قائلاً «لن تدخلوا ناديي». وكان الكوبيون يعشقون أفلام العصابات الأمريكية في إطار حيرتهم بين الوطنية والاستقلال وانسحبوا من أمام رافت.

ومن مسافة جبال السييرا البعيدة كان رجال الجبال الرفيعين الجائعين المضحين يبدون كمنقذين نبلاء. ولكن حين وصل «رجال كوبا الجدد» إلى العاصمة تغير كل شيء للأبد. لقد قام عسكريو السادس والعشرين من يوليو، الرجال البسطاء بملابسهم القذرة، المشبعة بالعرق الذين كافحوا في كل الطرق عبر أنحاء كوبا بالاستيلاء على هافانا بنفس الأسلوب الفظ الذي تعلموه من سيدهم.

وكان الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر يصفهم قائلاً ان «هؤلاء الفلاحين الجنود أو الجنود الذين أصبحوا فلاحين حملوا إلى المدن تقشفهم الحربي وأخلاقهم الريفية». وأشار إلى أنه «قبل سنوات، وبنفس حالة عدم الثقة، اتخذ جيش ماو الريفي من شوارع شانجهاي، المدينة الفاسدة، معسكراً لهم لتصبح شانجهاي ضحية وشريكة للبيض» ولكن في هذه الأيام التي سادها الهوس في أوائل يناير ١٩٥٩ كان من المبكر جداً أن يرى الشعب الكوبي أو حتى يستشعر حقيقة الفلاح «غير الفاسد» الزاحف من أجل تطهير المدينة «الخاطئة» وإن كان المستقبل آت.

وعندها. . . وفي وسط بلبلة التحولات الفورية في كوبا من الدكتاتورية إلى التمرد انتقل فيدل إلى المدينة التي اعتبرها دائماً في قرارة نفسه المدينة الكاملة للخطيئة السياسية والجنسية. وكتبت تقول روبي هارب فيليبس وهي ترقب المشهد بشعور من عدم الارتياح: «لم يكن هناك ثمة أسرى مربوطين إلى عجلات مركبة كاسترو ولكن شعب الجزيرة كان عبداً له بمشاعره». لقد جاء فيدل، مثله في ذلك مثل معظم الأبطال الكاريزماتيين الذين درسهم ماكس ويبر، ليحقق القدر وأسلوب «القادم من البرية. . . من الجبال أو من بعض أماكن العزلة والتأمل» حيث «يشاهد النبي الرؤية».

ونشرت صحيفة /ريفولوسيون/ تحت صور كاسترو الوصف النشوان التالي:

«البطل ـ المرشد للإصلاح الكوبي». وقارنه ملك السكر الكوبي خوليو لويو بفرانشيسكو بيسارو محرر بيرو وكتب صديقه القديم لويس كونتي أجويرو، الذي قطع صلته به تماماً بعد فترة، في السيرة الذاتية الأولى لكاسترو «فيدل أكثر بكثير من مجرد حاكم جيد إنه مخلص من الآلام مثل المسيح». وكانت صوره شبيه المسيح هذه كمخلص من الآلام أو منقذ هي التي يستغلها فيدل بإصرار من أجل أغراضه الخاصة. وقبيل دخول جيش التمرد إلى هافانا مباشرة وفي بلدة «الكوتورو» قام راميرو فالديز الملحد يقدم إلى كل مقاتل مسبحة حتى يحملها حول عنقه وهو داخل إلى هافانا.

كما أن فيدل لم ينس أو يتجاهل قوة سانتيريا. وأثناء زحفه إلى هافانا تجمع أهالي سانتيريا أو أساقفتها على طول الطريق ليضعوا «حمايتهم» الخاصة في طريقه. وكان كثير من رجال العصابات يحملون، بالإضافة إلى السبح والميداليات الدينية، سبح العنق المتعددة الألوان الخاصة بسانتيريا. بل وقد أطلق على كاسترو لقب / الـ كابالو/ أو الجواد. وكان الجواد هو رقم واحد في اليانصيب الكوبي لذلك كانت له أهمية خاصة بهذا المعنى ولكنه كان أيضاً يتمتع بأبعاد سانتيريا الغامضة ويعرف أسقف سانتيريا بأنه «جواد» القديسين. وخلال بدايات سانتيريا كان يعتقد أن القديسين يسيطرون على أتباعهم بأن «يمتطوهم» فعلياً. ولا يمكن إيجاد وصف أكثر دقة لما فعله فيدل كاسترو بكوبا والشعب الكوبي من هذا الوصف «امتطائه».

دخل كاسترو هافانا راكباً الدبابة وبجانبه فيدليتو وخلفه القائدان كاميلو شينفويجوس وهوبر ماتوس متبركاً بالعذراء حامية الطريق وتقدم وسط حشود ضمت أكثر من مليون شخص. وعلى طول الطريق بدأت رسالة فيدل إلى الشعب تظهر إليهم لقد أخبرهم «لقد تمتعنا بحياة هادئة في التلال أهدأ مما سنعيشه من الأن فصاعداً. والأن سوف نعمل على تطهير هذه الدولة». وقليلون هم الذين التقطوا النبوءة وراء هذه الكلمات.

كان كاسترو في لحظات مثل هذه ينجح تماماً في التلاعب لا فقط بآمال الشعب الكوبي ولكن أيضاً بمخاوفه وإحساسه بالذنب. ولاحظ المؤرخ الكوبي لويس أجويلار إن «الإحساس الجماعي بالذنب الذي نما في وجدان الشعب في لحظة النصر الثوري لا يذكر إلا بشكل عارض في الدراسات حول كوبا»، ذلك أن رؤية استعراضات النصر ولدّت «سؤالاً مثيراً للأسى وهو: ماذا فعلت حين كانت هذه الحفنة من الأبطال تحارب من أجل حرية كوبا؟ وكانت الإجابة باعثة على اليأس، لا

شيء». وبحماسته غير العادية حول كيفية استغلال المشاعر المرهفة للآخرين تشبث كاسترو بهذا الإحساس بالذنب مثل قطعة من الخبز الثوري واستغله لتوصيل رسالة واحدة تقول: «الآن يمكنكم أنتم أيضاً المشاركة ولكن فقط عن طريق طاعتي طاعة مطلقة». وهكذا ازدهرت في منازل هافانا حيث لم يكن بها مقاتلون من الثورة بلافتات تقول: «كاسترو هذا هو منزلك» في حين لم تكن منازل المحاربين كلها بلا استثناء تقريباً في حاجة لرفع مثل هذه اللافتات.

ومع ذلك فعلى سطح الأحداث كان فيدل يتحدث بعبارات سياسية. وتحول السادس والعشرون من يوليو إلى «حزب سياسي». لم يطالب بغنائم لنفسه، فقط تولّى قيادة القوات المسلحة وهو منصب سرعان ما تخلّى عنه. وتولّت حكومة مدنية في ظل الرئيس الجديد، أوروتيا، حكم الجزيرة. وقد «يعتزل» لكن كالعادة لم تكن تلك هي الكلمات التي قالها كاسترو بل كانت سيطرته غير العادية على التكتيك والاستراتيجية بالإضافة إلى جاذبيته الكاريزماتية، معاً، وخاصة هذه الجاذبية، هي التي حددت ملامح هذا اليوم الأسطوري.

كان أول ما فعله بالكلمات في هذا اليوم هو تجريد عدوه القديم، هيئة الطلاب الثوريين، من قوته بعد أن سيطر زعيما الاتحاد /فور شومون/ و/رولاندو كوبيلا/ على القصر الوطني وعلى الجامعة. ومن حسن حظ فيدل كان يسود الجماهير شعور بالاستياء من الهيئة لأن أعضاءها سرقوا بعض الأسلحة من إحدى مراكز القيادة العسكرية من أجل صد متمردي فيدل على ما يبدو، الأمر الذي أبرز من جديد شبح العصابات السياسية المكروهة في الجامعة. ضرب فيدل ببراعة على وتر هذه المخاوف ووقف في ساحة الاستعراض بكامب كولومبيا أمام الشعب الذي بلغ قمة هوسه بدخوله هافانا لينتزع، حرفياً ومجازياً، أسلحة آخر أعدائه. وبدأ في هافانا كما سبق أن بدأ في سانتياجو بنسج خيوط الأمل والأحلام وهو يقيم علاقة بينه وبين الشعب - الذي أصبح يطلق عليه فيما بعد «الجماهير» - أقرب إلى سريان التيار الكهربائي أو العلاقة بين المسيح وأتباعه. وحمل صوته نبرة واحدة متوعدة وهو يسأل «أول ما يجب أن نسأل أنفسنا نحن الذين قمنا بالثورة، هو لماذا قمنا بهذا؟» ويشير بمكبر الصوت إلى المحتشدين في وقفة طويلة ومحسوبة ثم يواصل حديثه ليصل إلى هدفه: «إذا كان البعض منا يخفي طموحات ويسعى فهذا ليس هدفاً نبيلاً». ثم يتوجه إلى «الأمهات الكوبيات» ليبين هجومه الكاسح مع اهتمام بالتفاصيل: «الأمهات الكوبيات أمهات الجنود، والأمهات الثوريات، أمهات المواطنين يشعرن أخيراً أن أبناءهن نجوا من الخطر». ولكن يجب أن لا يسترخوا بعد فعدوهم المشترك هو هيئة

الطلاب التي سرقت لتوها أسلحة من ترسانة حكومية، ثم ردد عبارته الشهيرة: «الأسلحة، لماذا؟» وبينما الحشود خاضعة لسحر كلامه يكرر فيدل تساؤله: «الأسلحة لماذا؟ هل لابتزاز رئيس الجمهورية، هل لتهديد الحكومة، أمن أجل خلق تنظيمات من رجال العصابات؟ إذا كانت لدينا حكومة من الشباب الشريف المحترم وإذا كانت البلاد تؤمن بهم، وإذا كنا سنجري انتخابات، فلماذا تخزين الأسلحة».

وانفجرت الجماهير في رد فعل متزامن مرددة الصيحات: «الأسلحة لماذا؟» وبدأ الهتاف الغاضب يتردد صداه ويهدر صعوداً وهبوطاً في الشوارع. وعن هذا اليوم يتذكر الدكتور روبن داريو رومبوت طبيب النفس الكوبي أن كاسترو «جعل من سامعيه جميعاً شركاء له». ومنذ هذه اللحظة فقدت هيئة الطلاب كل فرصة لها للمشاركة السياسية في الشؤون الكوبية وتمّ حل قاعدتها.

ولم يكن من ضير في أن تنطلق عدة حمامات بيضاء في السماء بعد إطلاقها رمزاً للسلام في اللحظة التي بدأ فيها كاسترو حديثه إلى الجماهير الغفيرة. بل إن إحدى هذه الحمامات هبطت على كتف فيدل في حين هبطت اثنتان أخريان أمامه مباشرة. وأصبحت الجماهير بالفعل منومة مغناطيسياً كما لو أن هدوءً نفسياً هبط عليهم. ورفع جنود باتيستا السابقون قبعاتهم ووضع بعضهم يده اليمنى على قلبه ووقف منتهباً بينما ركع آخرون في صلاة. وكذلك فرك أتباع سانتيريا سبحاتهم. أخيراً أصبح للشعب الكوبي من يرعاه. لقد ولدت الأسطورة أمام أعينهم المشدوهة.

لم يتحرك كاسترو لقد تصرف كأن حتى الحمام لا يقف على كتفه وهو ينظر أمامه قائلاً للجمهور المبهور «لا نستطيع أن نتحول إلى ديكتاتوريين. لن نحتاج أبداً إلى استخدام القوة لأن لدينا الشعب ولأن الشعب سوف يحكم ولأنه حين يريد الشعب سوف أرحل».

وقال أعداؤه أن الحمام كان مدرباً، وأن المشهد بأكمله كان تدريباً على الخطابة الشيوعية وتمّ اجتذاب الحمام باستخدام الرائحة وتغذيتها بالحبوب لتنقاد وتهبط بمثل هذا «السحر»، ورغم أن علماء الطيور يرون أنه أمر ممكن خاصة مع الحمام المروض فإنه لا يوجد دليل على أن هذا هو ما حدث ومن المؤكد أن دفع الحمام للهبوط على كتف رجل بعينه وسط حشد هائل أمر غير جائز علمياً. وفي جميع الأحوال فإن الجماهير رأت من هذا الحدث العزيز تأكيداً آخر ن السماء على قوة فيدل كاسترو.

وفي الواقع بدا هذا اليوم كأنه يولّد اللحظات السحرية الواحدة تلو الأخرى

ويبرز كاسترو بعد فيدل. ثم كاسترو آخر كأنه شخصيات عدة تشاهدها الجماهير أمامها. وفي بعض الأحيان كان يظهر، رغم ندرة هذه الفرصة، الصبي، الثوري صاحب البسمة، الشاب الذي وثق فيه الكثيرون وأحبوه حتى العبادة. وفجأة تحول «فيدل» هذا إلى كاميلو سيانفويجوس ذي اللحية، عاشق الحياة وبنظرة عينيه المتوسلة للحب سأله: «هل أنتهج النهج الصحيح يا كاميلو».

وكاميلو شاب ذو وجه أسباني رفيع أشبه بلوحة للرسام /الجريكو/ له لحية صغيرة غير مشذبة، ويصفه كارلوس فرانكي بأنه يبدو «كأنه جمع في شخصه مزيجاً من المسيح وراقص روبيا» وكان هذا الشاب اللطيف المتمتع بحب الجميع، وسرعان ما سيحين أجله، يجيب بابتسامة جميلة «أنت تسير في الطريق الصحيح يا صديقي». وهدرت الجماهير في نشوة وأصبحت هذه الكلمات من الشعارات المفضلة في هذه الفترة الزمنية.

في معظم هذا اليوم كان الجانب السائد عند كاسترو هو الشخصية الطاغية، المسيطرة، القوية، القائد الغامض، الساحر، المعلم، المعاقب، المثير للإحساس بالذنب والمتسامح. ولم يكن بعد قد بدأ يمارس كامل نفوذه. وفي لحظة ما في خطابه رفع فجأة يده اليمنى، وخفض صوته. وفي نبرة مختلفة، مبحوحة ودرامية طلب إلى الجماهير أن يفتحوا أمامه طريقاً ليمر خلاله لكي يقدم «احترامه» للرئيس الصوري «أوروتيا» في قصر الرئاسة. ولم يسبق لأحد في كوبا الفوضوية، المحبة للمرح، المتفردة أن رأى مثل هذا التصرف. وكتب كارلوس فرانكي بنوع من الرهبة يقول: «ومن شرفة القصر طلب من الحشود أن تفتح طريقاً... ومثلما شق موسى البحر، عبر فيدل بحر الشعب الممتد من طريق ميزيونس حتى الخليج كبطل خارج من أسطورة يونانية وسط هياج جماعي». والجماهير تصرخ دائماً في سعادة ماجنة وأحياناً في توجس وخوف «فيدل فيدل فيدل فيدل فيدل».

ولخّص جون توبينج المسؤول السياسي في السفارة الأمريكية الموقف ببساطة قائلاً «هذا الرجل يعرف كيف يضغط الأزرار» أو بمعنى آخر كيف يحرك المشاعر من حوله، ويتحكم فيها.

بل وقد ابتكر فيدل بعض «الأزرار» وهو يمضي قدماً. وربما استطاع بعض المراقبين بعناية للوضع الخروج بتوقعات من هذه الأيام القليلة التي جرى خلالها «الاستيلاء» على كوبا والتكهن بما سيصبح عليه فيدل كاسترو. لقد استمال بالفعل الشعب الكوبي، الذي طالما سيطر عليه الفشل، لكي «يتخلى عن الرأي الفردي

ويضع إيمانه في زعامة شخص يبلغهم قناعته. . . بأنه يعرف الطريق». كما يقول عالم النفس جيرولد بوست. وكأن كاسترو يقول لهم: «اتبعوني وسوف اعتني بكم».

ومرة واحدة فقط هذا اليوم ظهرت لمحة من شخصية فيدل مقاتل حرب العصابات. ذلك أنه أثناء دخوله هاڤانا مع فيدليتو الصغير المتباهي إلى جانبه، لمح فيدل فجأة هيكل السفينة /جرانما/ رابضة في الميناء. وفي تأثّر شديد نتيجة رؤية صديقته القديمة في خوض البحار مرة أخرى هرع ليحتضن تقريباً هيكل السفينة الصغيرة، وقد ارتفع عليها علم كوبا. ثم ألقى خطبة قصيرة.

قال للواقفين: «هذه السفينة مثل جزء من حياتي» ثم قال إنه كان «يشعر مثل شخص يغير عمله. من دور المحارب الذي كنته، إلى دور الشخصية العامة. . . لقد أنجزت شيئاً بالغ الصعوبة. ولكن ثمة إحساس أن كل شيء تعرفه، كل شيء تقوم به في مهنة معينة، كرست لها الكثير من السنوات لم يعد وثيق الصلة بالأمر». هذه الكلمات كانت تنبؤية إلى حد غير عادي فإن هذا الرجل كان على وشك مجابهة وقت عسير وهو يتحول من مقاتل حرب العصابات إلى شخصية عامة ورجل جماهير، من الشخص المتهلل الفرح غالباً لدرجة المزاح إلى الرجل الذي يقضي جل وقته في إعداد الخطط، من «فيدل» الجبال الساهر دائماً إلى كاسترو كوبا الجاد المتشدد.

لقد كان يوماً مشهوداً حاسماً في تكوين كوبا ومنذ ذلك اليوم لاحظ الجميع كم كان قليل الابتسام.

الفصل السابع عشر
الشهور الأولى- هذا القطار يعرف وجهته

بعد انتصاره، حين ألمحت إلى فيدل أن المهام التي سيتولاها الآن هي بالقطع أصعب من أي شيء واجهه في جبال سييرا مايسترا وأن النفوذ الذي يمتلكه قد يؤذي إلى حد كبير كوبا كما يمكن أن يفيدها. توقف، وتحول لمواجهتي، واضعاً يديه على كتفي وفي أسلوب مرتبك سألني: «ولكن كيف يمكن أن أؤذي...؟»

هربرت ماثيوز

عقب الانتصار الهائل لدخوله هافانا أصبح هيلتون هافانا مقراً لقيادة كاسترو. واستقر في الطوابق الثلاثة العليا حيث كان جيش المتمردين يسهر على حراسته ليلاً ونهاراً. وتحرسه قبلهم جميعاً، سيليا. وبعد أن كانت مسؤولة عن صرف الرواتب لأتباعه، وكاتمة أسراره، أصبحت الآن حارسة البوابة في حضوره إزاء عشرات الآلاف الذين يتقاتلون الآن لرؤيته. ومع ذلك فإن كاسترو كان يجد أحياناً الوسيلة للإفلات من رقابة سيليا، وفي هذه اللحظات كان يسرع إلى مطبخ الفندق لتحمير اللحم أو إلى البهو ليتحدث طويلاً إلى مئات الصحفيين الذين كانوا يمكثون بصفة دائمة هناك في الانتظار. كان كاسترو يستمتع بوضوح بهيمنته على الفندق الكبير، الحديث الباهت الشخصية الذي يرمز إلى كل ما هو أمريكي وكان يذكره بحربه القادمة. وفي الوقت نفسه كان يستأجر (مقابل أجر رمزي) بيت الشاطىء الأنيق لعائلة كوبية في قرية كوجيمار الخلابة التي يعمل سكانها بالصيد، وتبعد عشرة أميال فقط إلى الشرق من هافانا. وهناك كان يلجأ للاختباء حين يعزف عن رؤية أي شخص. وكثيراً ما كان يبقى في شقة سيليا في فيدادو.

كانت فترة ساحرة. وعلى الرغم من الاضطراب والتخريب الاقتصادي الثوري في العام السابق، كانت كوبا التي تولى أمرها كاسترو مؤسسة وطنية مزدهرة. وبعيداً عن كونها دولة «متخلفة» فقد كان الدخل القومية لكوبا عام ١٩٥٧ يبلغ مليارين

وثلاثمائة وأحد عشر مليوناً ومائتا ألف دولار (٢ مليار و٣١١ مليون و٢٠٠ألف) لا يفوقها في أمريكا اللاتينية سوى دول ثلاثة أكبر منها بكثير هي الأرجنتين والمكسيك وفنزويلا. وكان دخل الفرد في كوبا في سنة ١٩٥٢ الخامسة حين تولى باتيستا الحكم يصل بالكاد إلى ٣٦٠ دولاراً، وكان في تلك الفترة يفوق متوسط كل الدول اللاتينية الأخرى بنسبة تقترب من ٣٠٪.

بيد أن مفاتيح التغييرات التي كانت ستطرأ تتمثل في الواقع في نفس الرخاء واليقظة في الدولة (فالدول الفقيرة قد تثور لكن الدول الفقيرة واليائسة لا تثور). ومن الحقائق الهامة أن النمو الاقتصادي انقلب وكان سكان الريف يشعرون بالكاد بالرخاء، وهؤلاء كانوا كوبيي كاسترو الذين فكر فيهم من أجل بناء «كوبا الجديدة» «عائلته الجديدة» وبالتأكيد «شرعيته الخاصة الجديدة». إلى جانب ذلك فإنه على الرغم من أن الاستثمار الأجنبي، وخاصة الأمريكي، كان في تراجع مستمر كان هناك ما يزال مليار دولار أجنبي مستثمرة في كوبا. وكانت تلك نقوداً سوف يستغلها كاسترو على الوجه الصحيح من أجل أغراضه الخاصة.

وتحت الرخاء الكوبي يكمن هيكل كوبي منفرد من الفساد ـ دعارة وتهريب مخدرات، وقمار ـ وهي ظاهرة متفردة في أمريكا اللاتينية وكان الاستياء الوطني ضد الولايات المتحدة أمر سوف يستغله كاسترو كذلك. وفي هافانا وحدها في هذا الوقت، كان يوجد حوالي ألفين من العاهرات المقيمات في «مساكن» تتراوح من أكثر البيوت بذخاً إلى أكثرها فقراً وتواضعاً وكان كل بيت يدفع للبوليس المحلي حسب عدد زبائنه، وكان أكثرها ثراء، بيت مارينا، ويساهم بما يتراوح بين ثلاثة إلى خمسة آلاف دولار في الليلة لضباط البوليس الرسميين الذين يصلون بانتظام في وقت ما بين منتصف الليل والخامسة صباحاً للحصول على أجورهم. وحين يكون هناك «طلب» كبير على الفتيات كما هو الحال حين تكون سفينة تابعة للبحرية الأمريكية راسية في المرفأ كان يتم جلب الفلاحات الشابات إلى المدينة ويدعون إلى المشاركة. ومع ذلك لم يكن البغاء هو الفساد الرئيسي في كوبا التي ندد بها كاسترو (وكان قد أعلن في وقت لاحق أنه كان يوجد مائة ألف عاهرة، لكنه رقم مبالغ فيه إلى حد مضحك)، بل كان القمار هو هذا الفساد. كانت هناك ستة بيوت كبرى تسيطر على ألعاب القمار وتدفع بانتظام للبوليس. وهي مملوكة لكونسورتيوم من مسؤولي باتيستا وكان يشار إليها بأسماء مستعاره مألوفة ودارجة في اللغة العامية الكوبية مثل «خوان» و «لاشينا» و«لاسنترال». وكانت المافيا الأمريكية تسيطر على النوادي الكبرى.

كان على كاسترو أن يطارد هذا الهيكل الذي لا يكاد يخفى للفساد المتصل والمتردي، بكل انتباه ولكن ليس بشكل خاص لأسباب أخلاقية وإنما بسبب استيائه الثابت ولأن مثل هذا الفساد كان يحدث تآكلاً واضحاً في قاعدته ويجعل صورته أقل ثورية في أعين الشعب. لقد هدد كاسترو وهو يدخل هافانا: «سوف نُطَهِّر الدولة». ولم يفهم سوى قليلون كم كان عميقاً معنى هذه الكلمات.

وكما كان كاسترو واضع السياسة الرئيسي، بدأ يتحرك بسرعة ليصبح المشرِّع الأول كذلك. ولكي يضفي الشرعية على عمليات الإعدام التي خطط لها لمجرمي الحرب من اتباع باتيستا (ثم في وقت لاحق لكثيرين آخرين) ضم «قانون سييرا مايسترا» الذي وضعه إلى القانون الكوبي القائم ليسمح بتوقيع عقوبة الإعدام. وباستخدام سلطاته غير المألوفة على القهر العاطفي كان يستجدي الميزة العاطفية للجماهير من أجل إعدام أي شخص يختاره هو. ولكي يفوز بموافقة شعبه كان يعمد إلى جمع رجال ونساء مختلفي النشأة وكثيرون منهم فقراء في قصر الرئاسة حيث كان يسألهم أسئلة إيحائية وموجهة بالفعل مثل «هل يجب إعدام مجرمي الحرب رمياً بالرصاص؟» لذلك فإنه في هذا الخميس الموافق ٢٢ يناير ١٩٥٩ ترددت لأول مرة في كوبا الصيحات الجريئة، المليئة بالكراهية «إلى الجدار» ثم «نعم» ضخمة لا تصدق.

وفي وقت سابق كانت الهيمنة العاطفية لكاسترو على الشعب في القصر توجيهية إلى حد بعيد، فقد رسخ وحوّل أفكارهم، بحمل «شخصياتهم القديمة» داخله ثم إطلاقها في صورة «جديدة» والآن بدأ يحمل عملية «سحره» خطوة أخرى للأمام. فكان يعرض عليهم قراره ثم من خلال نفوذه عليهم يجعل الأمر يبدو كما لو كانوا قد دفعوه للتصرف. هذا التبادل الخطير للسيطرة العاطفية من أجل الهيمنة السياسية، هذا النوع الخطير من تحويل السلطة من شعب لقائد هو ما أطلق عليه بعد قليل بتعبير شديد الرقة «الديمقراطية المباشرة».

في البداية كانت «المحاكمات» الكبرى خاصة «بمجرمي الحرب» أمثال رمز التعذيب في عهد باتيستا الميجور خيسوس سوسا بلانكو وهو رجل اشتهر باغتيالاته الجائرة. عقدت محاكمة سوسا بلانكو في قصر الرياضة حيث شهدها سبعة عشر ألف كوبي غاضب. ولكن الانتقاد الأميركي العالي للمحاكمات حفز كاسترو، ذلك أنه رغم (وبسبب) كراهيته للأمريكيين كان يتطلع سراً ليفوز باحترامهم. والواقع أن معظم هذه الانتقادات كان جائراً خاصة وأن نفس هؤلاء الأمريكيين لاحظوا بالكاد قسوة باتيستا

كما أن عقوبة الاعدام كانت تهدف أيضاً إلى خلق نوع من التخلص من المشاعر المكبوتة في نفس الشعب الكوبي لتطهيره وتركه أخيراً حراً من أي نزعة ولاء لباتيستا.

وفي الواقع فإن الأكثر إثارة للتساؤلات على الصعيدين الأخلاقي والقانوني من إعدام أنصار باتيستا الفوري هو المحاكمة التي أجريت لرجال الجو التي أحيطت بغموض إلى حد ما. كانت هذه المجموعة التي تضم ثلاثة وأربعين شخصاً بين طيارين وملاحين وميكانيكيين قد اتهمت بقصف مواقع جيش المتمردين وحوكمت في نهاية فبراير أمام محكمة عسكرية في سانتياجو. ولم يحاول هؤلاء الرجال الفرار من الجزيرة بل انهم في الحقيقة أعربوا عن رغبة واضحة في الخدمة تحت إمرة كاسترو. ونظراً لعدم وجود دليل حقيقي ضد رجال الجو فقد تمت تبرئتهم لكن كاسترو لم يكن ليدع القضية تنتهي على هذا النحو.

أعلن كاسترو أن هؤلاء الرجال «هم أسوأ مجرمي حرب في نظام باتيستا»، وأمر بإعادة محاكمتهم. ونظم الشيوعيون في سانتياجو تجمهرات ومظاهرات في الشوارع للاحتجاج على الحكم «المجحف». ثم ظهر كاسترو في التليفزيون حيث «طبخ» مرة أخرى القانون معلناً أغرب منطق قانوني وهو أن حكم البراءة سيتم استئنافه لأنه مثلما لمجرم الحرب الحق في أن يستأنف الحكم الصادر ضده «فإن المدعي العام يملك نفس الحق، لأنه يمثل الشعب والثورة» وذلك حين يكون الحكم «غير عادل». وكما حدث في محاكمة مونكادا قلب كاسترو الأمور رأساً على عقب، فقد كان القانون هو ما يحوله إليه كاسترو في هذه اللحظة وسرعان ما أقدم القاضي الأول، وهو قومندان، على الانتحار، مسجلاً أولى حالات الانتحار في عهد كاسترو.

وخلال أيام محاكمة رجال الجو الثانية بدأ المعتدلون والليبراليون الكوبيون من الديمقراطيين في الشك والخوف. وهز روفو لوبيز فريسكويت وزير الخزانة الجديد وأحد المعتدلين البارزين، رأسه متوجساً الشر في هذه الفترة وقال «أنا أخشى كاسترو، إنه أشبه برجل مجنون. لقد أصبح مدمراً» وظل يردد قوله هذا المرة تلو المرة.

وفي تفسير لتصرفات كاسترو غير العادية يوضح الشاعر الكوبي أرماندو فالاداريز انه «لم يكن من الممكن تبرئتهم ليكونوا أحراراً ويعاودون قتاله. لقد كانوا ضباطاً من الشباب المتعلم، المتخرج من كليات في الولايات المتحدة ولم يكونوا ليتبعوه على طريقه الماركسي». وحكم على رجال الجو بالسجن ثلاثين عاماً والأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات.

كـان كاسـترو هادئـاً للغايـة إزاء الحكم كما كـان حالـه دائماً حين يتعلق الأمر بمعاقبة وإعدام الأشخاص. لأن مثل هذه الأحكام كانت أدوات بين يديه وليست مثيرة للعواطف؛ كما كان الحال لدى شي جيفارا الذي جلس في مقعده في لاكابانـا ليشهد من النافذة التي صنعت خصيصاً من أجله، تفاصيل كل عملية إعدام. ويتذكر خوسية اجناشيو راسكو صديق كاسترو القديم أن «فيدل كان دائماً لطيفاً مع الأشخاص الـذين يعتزم قتلهم». وهذا حقيقي، فبالنسبة لكاسترو كان هؤلاء الرجال مجرد فكرة معنوية، ومـوتهم لم يعد حقيقيـاً مثله مثل فكـرة وجود روح إنسـانيـة. وقيمتهم تكمن فقط في الفائدة التي يمكن أن يقدموها لقضيته ولطموحاته. لم يضـع كاسترو مطلقاً الوقت في إهانة الناس إن لم يكن لغرض معين وكـان من المؤكد أن إهـانة شخص أنت تـوشك على قتله رمياً بالرصاص هو تضييع للوقت.

إذا كـانت محاكمـة رجال الجـو قد بـذرت بذور الشـك في عقـول المعتـدلين الكوبيين فإن محاكمة القومندان هوبير ماتوس رفيق سلاح كاسترو السابق، في خريف عام ١٩٥٩ تحولت إلى خط فاصل، وضـع حداً نهـائياً لهـذه الشكوك. كـان مـاتـوس رجلاً شديد البأس شريفاً وديمقراطياً وقـد عذبتـه الشكوك حـول ما ستؤول إليـه الثورة بعد مضّي الشهور القليلة الأولى. وقد أخبرني مـاتوس في ميـامي سنة ١٩٨٥: «منـذ الشهر الثالث للثورة أيقنت أن هناك لعبـة مزدوجـة تجري في الخفـاء. وواصل فيـدل تأكيداته حول ديمقراطيته وأنه سوف يحترم حرية الشعب ولكنه واصل كذلـك تحويـل الحياة الاجتماعية والسياسيـة في كوبـا حتى لم يعد لـديه ممـارسة ديمقـراطية إلا في بعض المؤسسـات التي سرعـان ما سيطر عليها الشيـوعيون فعليـاً. وفي نهايـة يونيـو تحدثت إلى فيدل بصدد مخاوفي وكنـا سنلتقي في منزلي لمنـاقشتها. وكـان سيحضر معه راؤول وجيفارا. وقد جاء راؤول وحده. وتبادلنا الحديث في كـل شيء عدا سبب اللقاء، وطوال ست إلى ثماني ساعات هي مدة حديثنا لم نتطرق إلى الموضوع على الإطلاق. كنت هادئاً أرقب الموقف. لقد كان الأمر برمته جزءاً من مسرحية».

وفي هذا الوقت كـان ماتـوس في وضع يؤهله لتهـديد كـاسترو أو هكـذا تخيل كاسترو. كان ماتوس يدير اقليم كاماجواي الهام اقتصاديـاً، حيث تنتشر مـزارع الأبقار الكبرى في الأراضي الخصبة الشاسعة. والأهم من ذلك أن ماتـوس، القائـد اللامـع الـذي اكتسب احترام رجـاله بقـدر تمتع كـاسترو بـاحترام اتبـاعه، كـان لديـه جيشـه الخاص. ومما يزيد من خطورة التهديد أن ماتوس كان إدارياً ناجحاً وكانت كاماجواي في ازدهـار في الوقت الـذي تعاني فيـه باقي كـوبا بـزعامـة كاسـترو من حالـة فوضى شديدة.

وأخيراً، كتب ماتوس خطاباً إلى فيدل كاسترو في التاسع عشر من اكتوبر قال فيه: «لا أريد أن أكون عقبة في طريق الثورة. . . لا أستطيع أن أتخيل انتصار الثورة إلا من خلال أمة موجودة. ويحق لي مع ذلك أن انبهك إلى أن رجالاً عظماء بدأوا في الانهيار حين كفوا عن انتهاج العدل»، ثم طلب إلى كاسترو أن يوافق فقط على «عودته إلى بلده». بل إنه في نهاية الخطاب تمنى لكاسترو «كل أنواع النجاح لنفسه ولجهوده الثورية من أجل البلاد. . .».

كانت تلك كلمات لا ضرر منها ومع ذلك استشاط كاسترو غضباً ومال على الفور نحو الانتقام ذلك أنه بالنسبة لكاسترو، ومن كاسترو بشكل خاص، لم يكن هناك استقالة. لقد ذكر مراراً وبتعبيرات كثيرة أن «داخل الثورة كل شيء، وخارجها لا شيء». ومنذ تلك اللحظة تأكد تدمير هوبير ماتوس على الرغم من أن ماتوس في ذلك الوقت لم يكن مدرجاً للشرور الداخلية التي يشعلها داخل كاسترو. وفي الواقع فقد كتب ماتوس خطاباً آخر قال فيه: «حسناً جداً يا كاسترو. لقد انتظرت قرارك في هدوء. تعلم أني أمتلك الشجاعة لأمضي عشرين عاماً في الشجن. لن امر جنودي. . . باطلاق طلقة واحدة على أي شخص، ولا حتى ضد مرتكبي المذابح الذين قد ترسلهم».

وفي النهاية أرسل كاسترو كاميلو سيانفويجوس إلى كاماجواي ليتولى قيادة الاقليم. ومن سوء حظ كاسترو أن كاميلو وجد أن قوات ماتوس موالية له. لذلك لجأ كاسترو إلى خطته القديمة، سوف يقوم شخصياً بتعبئة «جماهير» كاماجواي ضد قائدهم، وتوجه كاسترو لفوره إلى الاقليم، وجمع حشداً في الميدان وندد بماتوس باعتباره يحصل على نقود من «سفارات أجنبية» ولأنه أعد «تمرداً بالثكنات». واختتم بقوله انه لذلك جاء بنفسه إلى «ثكناتي وهي ميدان الشعب، إلى ثكناتي وهي المدينة».

وفي اليوم التالي بعد عودته إلى المدينة عقد اجتماعاً لمجلس الوزراء ولكن لم يأخذ كل الحاضرين جانب كاسترو بصدد موضوع ماتوس.

قال فاوستينوس بيريز رسول فيدل في الجبال وأحد أكثر الضباط اعتدالاً: «اعتقد أن القومندان هوبير ماتوس بريء ويجب إطلاق سراحه فوراً».

وأيد آخرون، كما هو متوقع، فيدل.

وأصر راؤول كاسترو على أن «هوبير ماتوس خائن للثورة ويجب اعدامه».

وكان جسد راؤول الصغير ينتفض غضباً وعيناه باردتان. وبعد سنوات أخبرني مانويل راي وهو ضابط آخر معتدل أن «فيدل حسم سريعاً هذا الاجتماع. وقال ان هؤلاء الذين يستقيلون يعرضون الثورة للخطر. وعند هذه النقطة وقف فاوستينو بيريز وسأل: هل هذا رعب باتيستي؟. وفي الحال رد فيدل بكلمات تنبؤية مثل كلمات لينين قائلاً: «لا، إنه رعب ثوري».

عقدت محاكمة ماتوس وثمانية وثلاثين من رجاله في غرف حصن لاكابانا العتيقة الرمادية الكئيبة. ولم ينظر كاسترو على الاطلاق إلى السجناء. وقد خطب في الحاضرين لمدة ثلاث ساعات. لم تكن تلك محكمة بل كانت عملية اغتيال سريع على الصعيد النفسي. وفي الختام كرر كاسترو خطاب مونكادا وصرخ في المحكمة: «إذا قضيتم ببراءة القومندان هوبيرماتوس، فإن التاريخ سيدينكم». أما بالنسبة لماتوس فلم يسمح له بالكلام. وتلك كانت إجابة كاسترو الحقيقية على أي تساؤل وكل تساؤل ثوري. وحين انتهت المحاكمة صدر الحكم بسجن ماتوس عشرين عاما.

وقد قام تيودور درابر بدراسة كل شهادة كاسترو وتسعين صفحة هي تسجيل لمحاكمة ماتوس التي كانت تشبه إلى حد غير عادي محاكمة أوكويا سنة ١٩٨٩. وكتب درابر، الذي يعتبر على الأرجح أعظم محلل لدوافع وأسباب الثورة الكوبية منذ وقت مبكر، يقول «أعتقد أن محاكمة ماتوس سوف تسجل في تاريخ كوبا الحديث باعتبارها توازي محاكمات موسكو في الثلاثينات. فلم تثبت أدنى خيانة بأي معنى للكلمة بل ولم توجه حتى هذه التهمة إلى ماتوس».

وبعد سفر بعض وكلاء شركات السياحة الأمريكية في ٢٦ أكتوبر سمح كاسترو أخيراً لغضبه أن ينفجر. ويصف السفير فيليب بونزال خطاب كاسترو أمام المتظاهرين «كان يلوح بقبضته، ويهدر بعدم الثقة في الشمال، ويرغي ويزبد وبكل الأشكال كان يتصرف بطريقة أقرب إلى السلوك الماضي لهتلر في أقصى حالاته الهستيرية والممقوتة».

لكن «قضية ماتوس» لم تنتهِ. ولولا مسألة ماتوس لما كان هناك تاريخياً هذا الكم من الأسئلة حول وفاة كاميلو سيانفويجوس الذي حظي بحب جماهيري كبير في كوبا.

لم يكن هناك أدنى شك أن كاميلو كان ثورياً رومانسياً أكثر بكثير من كونه شيوعياً. وفي هذه الشهور المتغيرة في نهاية ١٩٥٩ أعرب لعدة أشخاص من

المقربين إليه عن قلقه حول مصير ماتوس المحتمل، خاصة وأنه كان معجباً به. كما أن المراقبين عن كثب لمجريات الأحداث في تلك الفترة يقولون ان سيانفويجوس رفض أولاً قبول أمر راؤول بالقبض على ماتوس وأن كاسترو اضطر ليأمره بنفسه بالقبض عليه. كما كان معروفاً، أن كاميلو وراؤول يكره أحدهما الآخر وماتوس شخصياً مقتنع بوجود علاقة بين سجنه ووفاة كاميلو الغريبة الغامضة التي لم يعرف لها حل.

أخبرني ماتوس أنه «كان هناك أسبوع واحد فقط بين القبض عليّ واختفاء كاميلو. ليس هناك شك أنهم قتلوا كاميلو لأن اعتقالي وضع كاميلو في موقف متأزم. لقد اضطر لمناقشة كاسترو في أمري. وقد رأى فيه فيدل موقفاً ليس من خصال التأييد المطلق غيرالمشروط». وهز ماتوس رأسه أسفاً ثم استطرد قائلاً: «كاميلو أخبرني أنه في موقف صعب للغاية. وفي الحقيقة لقد أرسل لي رسالة في السجن، يحذرني من أني يجب ألا أسمح بوصول الأمر إلى حد المحاكمة».

ومن المرجح أن لغز ما حدث لكاميلو لن يحل أبداً. وكل ما هو معروف هو أنه في الثامن والعشرين من أكتوبر كان عائداً من كاماجواي إلى هافانا، بطائرة خفيفة حين اختفى والطائرة تماماً من على وجه الأرض دون أدنى دليل وراءه ولم يره أحد أو يسمع به ثانية. بل إن اختفاء كاميلو لم يعلن في كوبا طوال ثلاثة أيام كاملة حتى نشرت صحيفة (ريفولوسيون) القصة أخيراً. وبينما كانت طائرات الجيش والفلاحون يبحثون في كل مكان انتشرت الشائعات. وقد استمعت روبي هارت فيليبس في الخامس من نوفمبر إلى راديو هافانا يعلن أنه تم العثور على كاميلو. وكتبت تقول: «اندفعت الجماهير إلى الشوارع للاحتفال. واضطر التجار إلى إغلاق محالهم لأن العاملين تركوها. وقد فوجئت بمعرفة أن الميجور سيانفويجوس على هذه الدرجة من الشعبية». ويمكن مسامحة الساخرين إذا تساءلوا عما إذا كان كاسترو شخصياً قد أعلن النبأ المزيف بالعثور على كاميلو لكي يتعرف إلى مشاعر الشعب الكوبي الحقيقية حياله.

الأمر المؤكد هو أن كثيراً من «الحقائق» التي أعلنتها الحكومة كانت زائفة تماماً. فقد قالوا إنه على الأرجح سقط أثناء عاصفة ومع ذلك فإن الجو كان صحواً ذلك اليوم. وقد مشطت المنطقة التي كانت تطير فيها الطائرة عدة مرات. وفي الوقت ذاته بدأ كاسترو نفسه «ببطولة وعلناً» البحث شخصياً عن كاميلو بل وقد أحضر والدة ووالد كاميلو للمشاركة في عملية البحث، وجعلهم يقفون أمام المصورين ليلتقطوا

لهما الصور وهما يتطلعان إلى السماء وقد حجبا الشمس عن عيونهما بأيديهما.

بيد أنه لم يتم العثور حتى على طائرة كاميلو أو أي علامة على وجودها وبدون أي دليل مادي اعتبرت وفاته أو اختفاؤه «حادثة». ومع ذلك.. فهؤلاء الذين اصطحبوا كاسترو في تلك الفترة يتذكرون كم كان يضحك سعيداً ويبدي عدم مبالاة تامة وسط هذه الرحلات الجوية المتعددة في أنحاء كوبا بحثاً عن كاميلو. ولاحظ خوسيه باردولادو الذي كان يرافقه أنه «ربما لم يكن قد قتل كاميلو لكنه بالتأكيد لم يحزن لوفاته». ويتذكر الناس أشخاصاً آخرين اختفوا فجأة مثل فرنك بايس. ويؤكد منتقدوه أن كاسترو لم يقتل كاميلو فعلاً ولكن الأمر في الواقع كان «أن أحد اختصاصات فيدل هو ارسال الناس ليلقوا حتفهم».

وكان التناقض حاداً وشديداً بين الخطورة الشديدة لعمليات الإعدام والسجن «والاختفاء» التي هزت هذه السنة الأولى من الثورة وبين السعادة الغريبة وغير الواقعية التي سادت أموراً أخرى. وفي هذه الشهور الأولى المضطربة كان فيدل متواجداً في كل مكان وغير متواجد، ففي كل يوم كان يمكن مشاهدة ثمانمائة إلى ألف مرسوم متكدسين على مكتبه في مجموعات لا نهاية لها. ومثل الكثيرين من اللاتينيين كان يعتقد أن إعلان شيء ما يوازي فعلاً القيام به، وكان يكره هذه المطالب البيروقراطية منه، وقد صرخ في وجه هربرت ماثيوز في أحد أيام حياته الجديدة: «لم يعد لدي دقيقة لنفسي. أنهم لا يدعوني وحدي. وآلاف الأشياء تحضر إليّ لا أعرف عنها شيئاً. وحين حاولت الهرب بعيداً عن الزحام بالانتقال من مكان لآخر في دبابة كان الناس يتسلقون الدبابة وأجدهم معي قبل أن أعي الأمر...».

وفي غمرة الأحداث، بدأت «الأسرة الثورية» وخبراؤها يضيقون الخناق على «روما الثورة الجديدة» ليزيدوا حالة البلبلة. وطار الجنرال بايو عائداً من مكسيكو ووصل والدا جيفارا من بوينس إيريس وحضرت هيلدا جيفارا من بيرو برفقة هيليتا لتعرف ما كانت تخشاه وهو أنها لم تعد «فتاة جي جيفارا إلى الأبد». وجاء المثاليون من أمريكا الشمالية والحالمون باليوتوبيا من أوروبا كما جاء الأغبياء والمحتالون والمشهورون من كل نوع: ديمقراطيون يتمنون ألا تكون الثورة شيوعية وشيوعيون يأملون ألا تكون ديمقراطية كلهم حضروا إلى هافانا ليلمسوا ويشعروا بسحر «كوبا الجديدة».

وكما هو الحال دائماً كانت صور فيدل ترتعش وترتجف في تغير مستمر مثل أضغاث الأحلام، أو لعبة كاليدوسكوب تتغير ألوانها وأشكالها بسرعة بحيث لا

يستطيع أحد أن يمسك بهـا. وفي يوم مـا كانت تيتي كـاسوسـو التي عادت إلى كـوبا وتولت الصحافة الأجنبية لكاسترو تقوم بإعداد كاسترو للظهور في بـرنامـج تليفزيـوني أمريكي هام هو /من شخص إلى شخص/ كان البرنامج يريد تصوير كاسترو في حالة /استرخائه اليومي/ وهي خدعة لأنه أسلوب حياة لم يجربه أبـداً طوال حيـاته. وحين وصـل كاستـرو قبل بـدء العـرض بعشـرين دقيقـة لم تكن أي من البـذلات المـدنيـة الجـديدة الصنـع على قياسـه وفي هذا الـوقت لم يكن لديـه أي من بدلاتـه. وعلى عجل شديد وجدوا زوجاً من السـراويل وعثـر المنتج جـون آرون على قميص حسن الصنع ليتواءم معهما.

وتتذكر تيتي: «كان الغضب الذي تملكه حين رأى القميص (الباذخ بالنسبة لـه) شديداً جداً». كما تشير إلى إحساسها بالحرج والبلبلة في هذا الوقت «وقبل موعد بدء العـرض بسبع دقـائق قام فيـدل، الذي لم ينم منـذ يـومين، بحبس نفسـه في حجرة وألقى بجسده في غضب على السرير. حتي سيليا لم تجرؤ على الدخول ومحادثتـه. فدخلت وأغلقت الباب وجلست على حافة السـرير. تحـدثت إليه بهـدوء ولكن بحزم كما يتحدث المرء إلى طفل عنيد. كان يرقد على وجهه في غضب تام ورأسه مدفونة في الوسادات» وأخيراً وافق على الظهور بسراويله الخاصة على أن يتم تصـوير نصفـه الأعلى فقط. وتؤكد تيتي بارتياح أنه «ما أن تقدم إلى الأضواء حتى ظهر التنين مروضاً. لقد كان شخصاً آخر. ما أشد خسارة المسرح لممثل عظيم».

على الصعيد الدولي بدأ كاسترو على الفور يتقرب إلى العالم أو، في الـواقع، بـدأ يبني اتصالاتـه بوعي كبيـر حول الـولايات المتحـدة. لقد بـدأ بـالفعـل في بنـاء المحاور المناهضة لأمريكا التي طالما حلم بها. وبالفعل في ليلة الثاني والعشرين من يناير في غضون عشرة أيام من الاستيلاء على هافانا، ترك كوبا متـوجهاً إلى فنـزويلا. كان بين البلدين شيء مشترك ففي السنة السابقة كانت ثورة شعبية قد أطاحت بالحكم الـديكتاتـوري للجنرال مـاركوس بيريز جيمينث، وأيد خليفتـه الديمقـراطي رومـولـو بيتانكور نضال كاستـرو رغم بعض الشكوك. ولكن خـلال هذه الـزيارة سـارت الأمور إلى أسوأ مصير بيـن رجل كوبا القوي والرئيس الديمقراطي الفنزويلي.

وقد تساءلت جوزفينا أشي إحدى أكثر مساعدي بيتانكور اطلاعاً على أسراره: «لماذا أتى فيدل هنا بمثل هذه السرعة. لقد أذهلنا الأمر جميعنا. وفي هذا الـوقت لم يكن هنـاك تفسير. واعتقـد الناس في البـداية أنـه أتى ليشكرنـا وفكر النـاس كم هـو لطيف، كم هو رائع، لكنهم سرعان ما أيقنوا أن هذا لم يكن الأمر كله».

في الواقع كان كاسترو يريد شيئين. كان يريد بترولاً من فنزويلا وكان يريد توحيد الدولتين في حلف ضد الولايات المتحدة. كما كان كاسترو في زيارة هناك للتعرف على إمكانات «الثورة القارية» التي بدأ يحلم بها بالفعل.

وتتذكر جوزفينا أشي: «لقد خرج كاسترو من الطائرة وهو يحمل كل مسدساته مما سبب ضيقاً شديداً لرومولو. وحين عقد جلسة مع كاسترو عمل على أن يراهما الجميع معاً. لم يرغب رومولو في عقد اجتماع خاص معه». وقالت جوزفينا أن رومولو أخبرها على حدة أن «رجلاً حسن النوايا لم يكن ليترك دولة بعد عشرة أيام من تولي السلطة ليقوم بزيارة في مكان آخر». لكن بيتانكور سمح لكاسترو بالدخول إلى الكونجرس حاملاً سلاحه، وهناك تحدث طوال الليل. وقالت جوزفينا «حين تحدث كان الحديث ضد الولايات المتحدة بهدف «وقف امبريالية الامريكيين» ورومولو لم يعجبه ذلك».

وعندئذ، وفي ختام زيارة فنزويلا وبينما الكوبيون يدخلون طائرة كاسترو للاقلاع بها، حدث شيء رهيب لم يعجب على الاطلاق بيتانكور الديمقراطي الراعي لحقوق الإنسان فقد طلب كاسترو من مساعده الميجور فرانشيسكو «باكو» كابرابر أن يترك الطائرة ليتأكد من إجراءات الأمن مرة أخرى. ويذكر أرماندو فليتس الميجور الذي كان يرافق كاسترو في تلك الأثناء أنه أثناء تفقد باكور للمنطقة حول الطائرة اصطدمت به إحدى المراوح وقطعت رأسه. وأبلغت فيدل بالحادث فقال: ماذا حدث؟ لماذا هو على هذه الدرجة من الغباء هذا يعني مشكلات كثيرة لي. «وكل ما قاله بعدها هو إحملوا الجثة إلى كوبا لدفنها» وهكذا انتهت رحلة فنزويلا.

لم يعرف الشعب الكوبي سوى القليل عن حياة كاسترو الشخصية ولكن ذات ليلة حين كان من المقرر أن يلقي كاسترو إحدى خطبه التي تستمر عدة ساعات في محطة التليفزيون /س. ام. كيو. / الي تسيطر عليها الدولة وقع حادث سيارة رهيب لابنه فيدليتو كان يتطلب استئصال طحاله وكان الصبي يواجه بالفعل خطر الموت. ويتذكر كارلوس كاستانيدا أحد أكبر ناشري الصحف الكوبية ما حدث فيقول: «كنت في الاستديو ذلك الحين حين أوشك البرنامج على بدء إذاعته. وعلم الجميع أن فيدليتو تعرض لحادث. ووصل فيدل قبل التاسعة بخمس دقائق قبيل بدء البرنامج. كانت المحطة التليفزيونية مستعدة لإلغاء البرنامج والإعلان عن الحادث. لكن فيدل رفض، وقال انه سيستمر في البرنامج وإن الدكتور يعد الصبي لإجراء جراحة وسوف يبلغه عند بدء الجراحة وعندئذ يمكنهم إلغاء البرنامج.

ووجهت مجموعة الصحفيين سؤالها الأول. وتحدث كاسترو قرابة نصف الساعة وجاء السؤال الثاني ومرة أخرى أجاب كاسترو إجابة طويلة. وخلال هذه الإجابة الثانية تلقى كاسترو مذكرة بأن الطبيب ينتظره لبدء العملية، ومع ذلك لم يفعل شيئاً. وعند ذلك تحول الوسيط، وكان يتولى المهمة الكاتب الشهير جورج مانياس، إلى كاسترو، على الهواء، ليقول له إنهم علموا أن ابنه يعاني من إصابة خطيرة ودعاه علانية إلى مغادرة الاستوديو والتوجه فوراً إلى ابنه وظل كاسترو رغم ذلك متردداً.

وفي تلك اللحظة كان الحاضرون، حوالي أربعين أو خمسين شخصاً، قد بدوا متململين بل وفي حالة غضب متزايد فكوبا دولة تنظر إلى «الأسرة» باعتبارها أكثر المفاهيم قداسة. وفي النهاية صاحت امرأة من الحاضرين موجهة حديثها إلى القائد «كوماندانتي كاسترو، من يحكم كوبا».

فأجاب كاسترو صائحاً بفخر: «الشعب».

فأجابت المرأة بعناد: «إذن، الشعب يريدك أن تذهب وترى ابنك».

وعندها فقط قفز كاسترو على قدميه وألقى المقعد وراءه بحركة مسرحية وبإصرار مفاجىء. وترك ستوديو التليفزيون. ولم تكن ميرنا الوحيدة (مرة أخرى) الغاضبة من زوجها السابق، لكن راؤول أيضاً كان يشعر بغضب منه فقد كان راؤول وهو أب لأربعة أطفال، رجلاً أرحم بكثير من شقيقه فيما يتعلق بالأواصر الأسرية.

ووصل كاسترو إلى المستشفى في الساعة الثانية صباحاً وفي البهو، أثناء انتظاره للأطباء لانقاذ حياة ابنه، شغل نفسه باستقبال المعلقين السياسيين بأسلوب أسقف اسباني أو شيخ موريشي وتوقيع الشيكات للأشخاص الصابرين الذين تدين لهم الدولة بالمال. وفي وقت لاحق، أطلع فيدليتو أبناء عمومته على الجرح الممتد من معدته إلى أعلى ظهره.

وفي أواخر الربيع كان كاسترو قد نسي أمر الديمقراطيين المتمردين وغير المسؤولين في امريكا اللاتينية وبدأ يسعى إلى «الدول النامية» التي تحررت من الاستعمار من أجل إقامة قاعدته المناهضة للولايات المتحدة. وارتداء عباءة الزعامة العالمية، ثم تحول بعدها إلى الكتلة الشرقية، حيث وجد القدرة المادية على تأييد ودعم رغباته في هذا العالم الثالث. وكان من الواضح أن كاسترو يسعى بمغامراته الأولية الجديدة التجريبية، إلى رفض «القدرية الجغرافية» التي ربطت كوبا باعتقاد يقول أنها «تبعد تسعين ميلاً عن فلوريدا».

وفي يونيو ١٩٥٩، تم إرسال شي جيفارا ليمثل كوبا في هذا «العالم الجديد» ورافقه خوزيه باردو لادا، وحين سأل باردو لادا، مذيع الراديو الشهير، كاسترو لماذا يريده أن يرافق شي «ماذا أفيده في مهمة تجارية؟ وما خبرتي في هذا الأمر؟» ركز كاسترو نظراته النفاذة على وجه بادرو وبابتسامة متوسلة قال «وربما تعتقد أني أعرف أيضاً كيف أحكم؟» ووجد باردو أنه لم يعد يستطيع أن يضحك لمثل هذه الأمور.

وتجول شي وباردو لادا حول العالم لأسابيع طويلة مثل ثنائي كوميدي من التجار المتجولين عديمي الخبرة. وفي مجالسهم الخاصة كان الرجلان يضحكان معاً وينادي أحدهما الآخر «بمنفي كاسترو». وهو ما كاناه فعلاً. وفي إحدى المرات رأى باردو خطاباً أرسله شي إلى زوجته كان غريباً في صراحته الجنسية. لقد استعرض شهر عسلهما. . . . «ما فعلته معي. . . .» ويتذكر باردو أنه كان «فاضحاً تماماً» ويعرب باردو عن تعجبه. ويضيف «لقد كان غريباً عليّ شخص بمثل هذه الصراحة».

على الصعيد الاقتصادي، كانت محصلة رحلتهما ضئيلة للغاية، لسبب بسيط تماماً هو أن قيام حكومات العالم الثالث بتبادل المواد الخام فيما بينها بدلاً من تبادل البضائع المصنعة مع الدول الصناعية «كان يعادل تبادل الغسيل القذر» وفقاً لكلمات موريس هالبيرين الحكمية. ومع ذلك لم تكن الرحلة الطويلة عشوائية أيضاً فيما بدا في حينه، لأنها كانت البداية الشاقة لزعامة كاسترو لدول «عدم الانحياز» فقد كانت الحركة وليدة جديدة منفصلة عن «العالم الجديد» السابق لتجد أمامها «عوالم جديدة» أخرى من السلطة والنفوذ التامين. وفي الواقع لقد تأسست في كوبا معسكرات التدريب على حرب العصابات منذ فبراير ١٩٥٩.

كان من المقرر ألا تكون هناك مساندة كوبية بأي شكل لأي من حركات حرب العصابات الديمقراطية الساعية للإطاحة بنظام ديكتاتوري. وبعد أيام قليلة من تولي كاسترو السلطة، وصل إلى هافانا بيدرو جواكيم شامورو رئيس تحرير صحيفة /لابرينسا/ أملاً أن ينال مساعدة كاسترو للإطاحة بعدوه الديكتاتور النيكاراجوي أناستازيو «تاشيتو» سوموزا. ورفض كاسترو بكل ترفع مساعدته.

ووضع راؤول وشي وبايو خطة أول هجوم لحرب العصابات الكوبية، وفي ابريل ١٩٥٩ أبحر حوالى ثمانون رجلاً من كوبا «لتحرير» بنما، لكن الخطة فشلت وفي أول مايو استسلمت المجموعة المهانة للحرس الوطني البنمي. وبتصميم أعقب الهجوم، هجمات أخرى، فشلت كذلك. ويعتبر أكثرها أهمية، ومع ذلك فهو تقريباً مجهول، هو هجوم شنته حرب العصابات الكوبية في هذه السنة الأولى، وبموافقة

كاسترو وسمي هجوم «الرابع عشر من يونيو» وكان يستهدف الجنرال المكروه رفايل ليونيداس تروجيلو رئيس الدومينيكان. وكان كاسترو يتمني منذ زمن بعيد النيل من تروجيلو والآن بدا كأنه سينجح فعلاً. وغادرت كوبا مجموعة من مائتي منفي دومينيكاني وعشرة كوبيين بقيادة ضابط من الجيش المتمرد في طائرة وسفينتين في اتجاه الساحل الشمالي لجمهورية الدومينيكان يوم ١٤ يونيو ١٩٥٩. ولا تزال أسرار هامة تلتف حول هذه البعثة الملعونة إذ أن معظم رجالها قتلوا أو عذبوا أو تعرضوا لكلا المصيرين. وهناك من الأدلة ما يكفي للتساؤل عما إذا كان كاسترو أراد حقيقة أن ينجح الهجوم. فقد كان الأمر برمته معد بشكل عشوائي كأنه من اعداد هواة وقد انتهك بصورة سافرة كل قواعده الخاصة الأساسية لحرب العصابات وحذر البعض من كارثة وشيكة. وتوسل ساشا فولمان المنظم الديمقراطي العظيم لمجموعة الديمقراطيين الكاريبيين إلى كاميلو سيانفويجوس لإلغاء هذه البعثة. ولكن في الوقت الذي وافق فيه كاميلو (قائلاً: ساشا على حق فإنه ليس هناك أمل) دفع كاسترو المجموعة إلى الأمام بشكل لا مبرر له. وقال ساشا بعدها: «لقد كان الفشل هو المصير المحتوم».

أعدت المهمة لتفشل؟ لماذا يعدها كاسترو لتفشل؟ ومع ذلك فلماذا يترك مثل هذه الحملة الهوجاء تنطلق منذ البداية؟ ولم يسامحه الناجون ويقول جوليان هرناديز أحد هؤلاء الناجين: «فيدل كاسترو باعنا مثل الخنازير، لقد خاننا، ولم يساعدنا حين احتجنا بشدة إلى المساعدة. لقد أيقن فيدل كاسترو أن الحركة غير شيوعية ومنذ هذه اللحظة، بدأ يمتنع عن مساعدتنا...».

وسواء عمد كاسترو أو لم يعمد إلى تخريب هذه المهمة لأنها لم تكن شيوعية أو لأنه اعتزم منذ البداية القضاء على فكرة «حرب العصابات الديمقراطية» أو لأنه لم يستطع السيطرة عليها تماماً أو إذا كان الأمر كله كان مجرد سلسلة من الحوادث العشوائية حين تحول انتباه كاسترو إلى منطقة أخرى فالحقيقة كلها في الواقع لن تعرف على الأرجح أبداً. وما عرف هو أن الناجين القليلين يلومون جميعهم كاسترو لأنه قضى عليهم. في حين شهد ليوناردو جوزمان أحد الناجين بأن «حركة حرب العصابات في ١٤ يونيو ١٩٥٩ ماتت وحدها بلا مساعدة داخلية أو خارجية».

وبينما كان كاسترو عاكفاً على صقل صورته العالمية الجديدة وإقامة نظامه الداخلي القانوني والسياسي والعسكري الذي سيساعد هؤلاء الساعين للثورة في أرجاء المعمورة، نجد على صعيد آخر نهراً من النساء المخلصات والشرسات يتدفق

مثل الزئبق عبر حياته. لقد كن في كل مكان يتقاتلن للفوز بلمسة منه أو حتى، في تطور جديد للتقليد المقدس القيم، لكي ينقلهن من عالم الفتيات إلى عالم النساء. وفي الوقت نفسه وقفت سيليا تحرسه بشجاعة صائحة بلا جدوى في الكوبيات «الجميلات» أمثال تيتي كاسوزو وتطردهن خارج سرير كاسترو وحجرة نومه.

وتعتبر العلاقة الغريبة والممتدة بين كاسترو والشابة الألمانية ماريتا لورينز واحدة من أكثر «قصص الحب»، إذا كان التعبير جائزاً، في حياة كاسترو. لقد التقى كاسترو وماريتا، التي كانت حينئذ فتاة جيملة في السابعة عشر من عمرها لها شعر أسود حالك وعينان خضروان في أوائل فبراير ١٩٥٩. كانت الباخرة /برلين/ التي يتولى والدها هينريش لورينز، قيادتها تدخل ميناء هافانا أثناء خروج كاسترو إلى خليج هافانا ليلهو بيخته /جرانما/. ولشدة اهتمامه بوسائل الفوز على الأجانب اندفع كاسترو بحذاء السفينة وأسعد السياح بموافقته على الصعود إليهم بل وتناول العشاء معهم. وفي العشاء جلس إلى جانب ماريتا الجميلة واستطاع بالكاد أن يرفع عينيه عنها وهو يسري عن المجموعة المبهورة بقصص البطولة في سييرامايسترا. وأثناء تجولهما بمفردهما بعد ذلك على سطح الباخرة «ازدهرت الصداقة» بين كاسترو وماريتا.

وفي رواية غريبة أوردتها مجلة /كونفيدينشيال/ بعد سنوات كتبت والدة ماريتا تصف «كيف أعجبت ماريتا بالجمال الرائع لهافانا. وعندها مد كاسترو ذراعيه مثل المسيح ونظر إلى هذا الجمال وقال: «أنا كوبا»».

في تلك الليلة اقترح كاسترو على ماريتا أن تعود معه إلى هافانا لتعمل معه. وقد فعلت بالتأكيد بل لقد عاشت بصورة علنية تقريباً معه في حجرة فوق جناحه في /هافانا ليبر/ ولكن ما حدث بالضبط بعد ذلك ظل أمراً مشكوكاً فيه. ماعدا حقيقة أن كل التقارير تؤكد أن ماريتا انضمت فيما بعد إلى المجموعة المغالية من عملاء المخابرات الأمريكية، تحت رئاسة لص ووترجيت فرنك ستورجيس، التي فتشت حجرات كاسترو في /هافانا ليبر/ وحاولت قتله. وفي وقت لاحق زعمت ماريتا لورينز نفسها أن كاسترو اغتصبها بوحشية وأنها حين كانت حاملاً أرسل رجالاً لضربها لاجهاضها الجنين. وإذا كانت شهادة ماريتا البذيئة مثيرة للاهتمام فإنها أيضاً مشكوك فيها، بسبب رضوخها شخصياً فقد كانت تشاهد كثيراً معه مرتدية زي جيش التمرد وهي في طريق الذهاب أو العودة بين نيويورك وهافانا ولا تزال واقعة تحت تأثير سحره. وقد عادت إلى الولايات المتحدة وكانت متورطة بصورة غريبة وهامشية في

الأسرار الكوبية التي أحاطت بوفاة جون فيتزجيرالد كينيدي وفي النهاية اعتزلت وبدأت محاولات بيع «مذكراتها» لكل من يريد.

وفي وسط كل هذه العلاقات القصيرة، لم تبتعد ناتي ريفويلتا رائعة الجمال عن الصورة مطلقاً. وبعد حصولها على الطلاق عاشت ناتي هذه السنوات في هافانا مع ابنتها ناتاليا من زوجها الطبيب وألينا من كاسترو. ورغم رفض كاسترو التام للتفكير في شيء عام مثل الزواج فإنه كان يزورها كثيراً. وقد عاش فرنك آلدريش الرئيس الأمريكي لمصرف /سيتيبنك/ في نيويورك، مع زوجته أسفل شقة ناتي. وعاد إلى منزله ذات مساء وأثناء صعوده السلالم اعتقد أنه يسمع كاسترو يتحدث في التليفزيون. ويتذكر آلدريش: «لقد قلت لزوجتي إني أقسم أني اغلقت التليفزيون» وكان قد أغلقه فعلاً. وحين نظر آلدريش من الشرفة رأى كاسترو شخصياً. «لقد كان في زيارة لناتي وانتشر الأمر مثل النار في الهشيم وكان يلقي خطاباً على العاملات أسفل الردهة».

لم يكن هناك شك أن ناتي كان يمكن أن تهلك إذا عرفت أنه قريباً سيكون هناك نساء أخريات في حياة فيدل. في عيد الثورة الأول أمر كاسترو سفيره في كولومبيا بدعوة أرملة وابنة الشهيد العظيم جورج إليسير جيتان لحضور الاحتفالات الأولى بالسادس والعشرين من يوليو في هافانا. وتتذكر الابنة، جلوريا، وهي امرأة ذات ميول سياسياً وفنياً، «أن فيدل حضر لزيارة والدتي ولزيارتي في الفندق في نفس ليلة وصولنا.. وبقي حتى الفجر، يتحدث إلينا ويخبرنا بما حدث في ذلك اليوم التاسع من ابريل في بوجوتا...» وبالطبع وقعت جلوريا المتفتحة تحت تأثير الروح الجديدة المعدية لهذه الأوقات الجديدة، وحددت هذه الأيام الهستيرية بداية ما اعتبرته فيما بعد «صداقة رومانسية». لكنها كانت أكثر من مجرد صداقة، فقد نما شعور بين الاثنين كان يبدو واضحاً أنه أعمق من معظم صلاته النسائية. لقد بدت جلوريا كأنها أكثر أهمية لدى كاسترو، على الأقل في هذه الأيام، من ميرتا وناتي وايزابيل. (ومثلهن، لم تكن جلوريا جميلة جسدياً فقط مثل ايقونة اسبانية ذات شعر فاحم ولكنها أيضاً ساحرة وذكية) وهي أيضاً كانت من أسرة لها جذورها السياسية والاجتماعية المثيرة في أمريكا كلها. وهي مكانة مستمدة من مأساة والدها.

واجتذبها كاسترو بكل ماله من بريق. هل ستذهب إلى احتفال السادس والعشرين من يوليو؟ لم تكن الشوارع تلائمها ـ لذلك أرسل طائرة هليكوبتر لحملها إلى البلازا. هل ستلقي كلمة في الاحتفال؟ لقد أصابها الرعب من مجرد الفكرة.

وتتذكر جلوريا: «كان لدي نوعان من العلاقة مع كاسترو. حين أكون مع زوجي، الاستاذ الجامعي، كانت الاجتماعات تأخذ صبغة جدية تماماً ومتسامية، ولكنها كانت تختلف حين أسافر وحدي. حينئذ كانت المناقشات متنوعة جداً ـ طائشة ومسلية، طليقة العنان ومكبوتة. كنا نتحدث ـ نتناقش ـ طوال الوقت، ومن الطبيعي أن موضوع الثورة كان هو المفضل عندنا جميعاً. ولكن فيدل على سبيل المثال سألني أيضاً ذات يوم «حسناً، ماذا تفعلين في الفراش مع هذا الفيلسوف اليوناني الذي تزوجته» فأقول: «لكنه رجل في غاية الذكاء» فيقول لي: واضح، لكن إذا كان كارل ماركس امرأة لم أكن لأتزوجه».

وفي النهاية اعترفت بعد سنوات وهي تغلق عينيها كأنها تحاول جاهدة أن تتذكر الكلمات المضبوطة: «مستحيل أن أتذكر الحوارات كلها بالنص. فقط المشاعر والأحاسيس، ولا أتذكر جيداً آراء فيدل حول موضوع أو غيره، ما أتذكره هو رجل له حيوية مثيرة، ويتمتع بشخصية قوية، فالاقتراب منه مثل الاقتراب من ظاهرة طبيعية كالبركان. كان المرء يشعر أنه أمام شخص ما من شيء فيه عادي». وكررت ما قاله آخرون كثيرون: «إلى جانب كل خصائص شخصيته كان المرء كثيراً ما يشعر أنه قال ما يشعر به المرء داخله لكنه صاغه في كلمات».

في هذه الشهور المرهقة الأولى من الحماس للثورة، عرضت شركات كوبية مثل /بيرة هاتوي/ والكثير من الأفراد الامريكيين، دفع ضرائبهم السنوية مقدماً، وكل ذلك لمساعدة الثورة. ولم لا؟ كان الديمقراطيون الكوبيون المرموقون قد عينوا في مناصب عالية: مانويل اورتيا رئيساً مؤقتاً، خوسيه ميروكاردونا أصبح رئيساً للوزراء، روفولوبيز فريسكيت عين وزيراً للمالية. . .

لكن سرعان ما وضح أنهم يعملون بدون وفاق أو تفاهم فيما بينهم، وهو سوء فهم نسقه وأعده خصيصاً فيدل، خصوصاً في مجال الاقتصاد. كان المفكرون الاقتصاديون التقليديون أمثال خوستو كاريلو وفيليب باسوز وارنستو بيتانكور (الاقتصادي الشاب الذي كان ممثلاً لكاسترو في الولايات المتحدة خلال سنوات سييرا) يخططون بإصرار وسائل الحصول على مساعدة من الوكالات الأجنبية ومن الولايات المتحدة، في حين يفكر كاسترو، من جانب آخر، في ظروف الاقتصاد الذي يتقدم تلقائياً وهو حلم المثاليين في إطار حرب العصابات السياسية التقليدية. لقد آمن، على سبيل المثال، بأن العوامل الخارجية وحدها مثل الملكية الأجنبية «المستغلة» هي التي تعوق تقدم كوبا.

وبينما ازدادت الخلافات بين المعتدلين في حكومة كاسترو الجديدة وكاسترو شخصياً وضوحاً، لم يكن هناك أبداً أي شك حول من سيكون له القول الفصل. لقد كان كاسترو يلعب دور القط للفئران المعتدلين فيمنحهم أحياناً يداً ممدودة، وأحيانا أخرى ينقض عليهم فجأة بكل قسوة وكالقدر القاتل. وغالباً ما كان الوزراء الرئيسيون ورجال الاقتصاد يصابون باليأس ولكن حتى اختفائهم جميعاً في خريف ١٩٥٩، ساخطين ومدمرين، كان كاسترو، بقدرته غير العادية على الفوز على الجميع تقريباً حتى بمجرد وجوده فقط، يستطيع دائماً انعاش حتى أكثر الناس ارتياباً فيه.

وعلى سبيل المثال، في شهر يوليو، بدأ اجتماعات بعض ظهر الخميس الخاصة في البنك الوطني مع كل مجموعته الاقتصادية. وكانت الاجتماعات تبدأ في الواحدة بعد الظهر وتستمر حتى التاسعة أو العاشرة مساء. ويتذكر فيليب باسوز، «كان فيدل يأتي دائماً. كنا جميعاً محبطين نعتقد أن المسألة برمتها لن تنجح حتى يأتي فيدل. وعندئذ يستمع بكل انتباه ويطمئننا أيضاً ويبدو مهتماً جداً بالحلول المعتدلة. حتى نرحل جميعاً سعداء».

في أوائل ربيع هذه السنة الأولى، فكرت مجموعة من أهم ناشري الصحف الأعضاء في جمعية ناشري الصحف الامريكية في خطوة هامة في سبيل العلاقات العامة وهي دعوة الزعيم الكوبي الشاب لالقاء كلمة خلال الاجتماع السنوي للجمعية في ١٧ ابريل في واشنطن. وعلى عكس ما اعتقده العالم في وقت لاحق، كان كاسترو في الواقع محايداً بصدد القيام برحلة إلى الولايات المتحدة. وسأل وزراء حكومته في اجتماع ذات يوم وهو يروح ويجيء في وقار كأنه نابوليون، «هل يجب أن أذهب؟».

وأجابه فيليب باسوز في الحال، «أجل بالطبع، بالطبع».

وتوقف فيدل وتغيرت تعبيرات وجهه، وظهرت على الوجه الدقيق، ذي الملامح الصبيانية والأنف الاسباني الطويل، المستقيم والجلد الناعم إحدى التعبيرات الدالة على الغضب المكنون التي كثرت رؤية المحيطين به لها. وفجأة توقف عن السير وأشار إلى باسوز كما لو كان هذا هو السؤال الوحيد الهام في قراره: «وماذا إذا استقبلني آيزنهاور وبدوت كأنني بعت القضية؟».

حاول باسوز طمأنته إلى أن المخاطرة قليلة في هذا الشأن ولكن في الوقت نفسه فهم باسوز البعد الوطني الحساس للمشكلة. وقال كاسترو لاحقاً: «في النهاية،

كـان عار كـل رئيس دولة امـريكي لاتيني هو أن يـذهب إلى واشنـطن ليتسـول ويبيـع نفسه. وهذا أسوأ بكثير لمناضل وزعيم مناهض للامبريالية ومتمرد مثلي».

كما أن فيدل لم يرغب، كما قيل لاحقاً، في تلقي دعـوة أمريكيـة رسمية. ولم تـأت أي دعوة، ولكن ذلـك يعود إلى أن فيـدل رفض بـإهـانـة تلميحـات الخـارجيـة الأمريكية في هذا الصدد. ولكن أخيراً قرر فيدل قبول دعـوة ناشـري الصحف. وبدأ التخـطيط للرحلة بجديـة. وعملت تيتي ليـلاً ونهـاراً مجيبـة على مئـات التليفـونـات من أشخـاص في كافـة أنحاء الـولايات المتحـدة وكندا أرادوا بشـده أن يزورهم أحـدث زعماء العالم.

وغيرت الرحلة، التي تحددت منتصف ابريـل، مجرى التـاريخ على الـرغم من أنه على الأرجح لم ينتظر ذلك سوى كاسترو الشديد الحرص والتلقائية. ذلك أن كوبا لم تعد هي ذاتها الدولة التي عرفتها أمريكا طوال ثلاثة قرون وارتبطت بها في السـراء والضراء وفي الحب والكراهية وفي الصداقـة والعداوة لمـدة نصف قرن، لقـد تغيرت كوبا، وعرف كاسترو ذلك لأنـه هو من غيَّـرها فكوبـا كاستـرو الجديـدة لم تعد تحت وصاية الامريكيين.

لقد كانت الرحلة الطويلة نقطة تحول حاسمة. لقد أقنعت أصدقاء كاستـرو بأن الولايات المتحدة لن تساعد أبداً الثورة الكوبية. وأقنعت أعداءه أنه فعلاً «الشيـوعي» الذي أرادوا إبعاده عن هـذا السبيل، وبـالتالي عـدواً أكيداً للشمـال. وكما هـو الحال دائماً مع كاسترو، كانت الرحلة وتفاصيلها وأهدافها تخصـه وحده ولا عـلاقة لهـا بما يعتقده اصدقاؤه أو أعداؤه على حد سواء.

الفصل الثامن عشر
كاسترو يلتقي بالشمال

ما قابلناه وصادفناه ليس ذكريات.
بابلونيرودا

كان صباح الخامس عشر من ابريل ١٩٥٩ دافئاً في هافانا، مبشراً بهدوء بكل الأحكام الخاطئة القادمة حول فيدل وواشنطن. وحين تجمع المستشارون الاقتصاديون لكاسترو في فندق هيلتون الكبير الامريكي الطراز، قبل التوجه إلى المطار تكّون لديهم انطباع مفاجيء وموحي بصدد زعيمهم الشعبي المهووس الجديد. وهناك، في الحجرات الفاخرة، الحديثة كان الرجل الذي ينادى «عائلياً» باسم فيدل من جانب الأمة الكوبية كلها تقريباً، يسير جيئة وذهاباً في مظهر مستقر بصورة غريبة. كان يرتدي الزي العسكري، ولكن سترة عادية معلقة بلا اكتراث على كتفه كانت تشبه رداء محارب قديم.

وحبس فيليب باسوز أكبر خبراء الاقتصاد في كوبا أنفاسه للحظة لأنه «كان لدي انطباع أني أمام ملك أو عاهل». كانت الصورة فعلاً أخاذه، هذا الرجل، فيدل كاسترو، كان ضخماً له كتفان قويان ونظرة محدقة باردة مزدرية. لقد كان انطباعاً حياً نرسخ في ذهن باسوز. وفكر أن السبب هو الرداء العلوي. بشكل ما هذا التزاوج بين الأردية واللحية النامية المهملة يشير إلى الاختلافات التي ستظهر خلال الرحلة الموشكة على بدايتها. لقد جاء باسوز مع وزير الاقتصاد، إلى الهيلتون في هذا الصباح الأخير ليناقشا «الصفقة الاقتصادية» التي كانا يعتقدان ببراءة أنهما على وشك التفاوض بشأنها في الولايات المتحدة. لكن كاسترو كان يبدي عدم

اهتمـام غير عـادي بالاقتصـاد، لقد كـان ذهنـه مـركـزا على الثقـل المحتمـل للرحلة القادمة.

لقد كانت الرحلة بين العالمين في هـذا اليوم من ابـريل واحدة، من علامـات كثيرة في حياة فيدل تربط وتحدد دوران التاريخ وأزمنة الممكن. وعلى مـدى ساعتين تعلقت الـدولتان، أسلوبـا الحياة، ومـا أصبح في النهـاية النـظامـان اللدودان في العـالم الحديث، بين السحب فوق التسعين ميـلاً من المياه الـزرقاء الـرائعة والمتـلألئة التي تفصل بينهما، وعلى متن الطائرة بدأت تيتي كاسوسو في تـدليل كـاسترو وبكـل عنايـة نظفت أظافره القذرة، وتصفح بضعة كتب فكاهية ثم انتقل ليتحدث بكل حرية إلى خوسيه «بيبـان» بـوش رئيس /بـاكـاردي روم/ القـوي في كوبا. وتبـادل المحـارب الأشعث والرأسمالي الكوبي الارستقراطي الأنيق النظر بعداء ولكن أيضـاً باهتمـام خاص مثـل اهتمام فصيلة اجتماعية بأخرى في ظروف حساسة.

وجلس كاسترو فترة على أرضية الطائرة بجوار مقعدي الاقتصادي الشاب ارنستو بيتانكور وبوش وحمل وجهه هذا التعبير الخاص كراهب متواضع الذي يستخدمه دائماً بكل نجاح للتلاعب بمشاعر الآخرين المستقلة وغير المستقلة.

وسأل فيدل بـوش: «لم لا تساعـدني؟ تستطيـع أن تقدم لي مسـاعدة عـظيمة» وكان يشير إلى مشكلات العمال.

وأخبرني بوش بعد سنوات لاحقة أنه «مع الناس أمثال فيدل كاسترو استطيع أن أكـون في منتهى الصـراحة. لقـد قلت لـه أني لا أستـطيـع مسـاعـدتـك لأننـا نحن الرأسماليين لا نخشى العمال ولكن نخشى اتحاد العمـال والحكومـة؛ فإذا رغبت في أن أسـاعدك، فعليـك أن تعطي الحـريـة للعمـال. وحين قلت لفظ الحـريـة، نهض وانصرف وكانت تلك هي مناقشتي الوحيدة مع كاسترو».

انتظر ما لا يقل عن ألف كوبي في مـطار واشنطن لتحيـة الرجـل الذي «حـرر» بلدهم. ورفعـوا اللافتـات ورحبوا بـه بعبارات «يحيـا فيدل» لكن كـاسترو كـان رجل الساعة لأكثر من المنفيين الكوبيين. وفي كل مكان كان يتوجـه إليه كـان الأمريكيـون الذين يخشاهم ويكـرههم يفرطـون في تفخيمه وتسليط الأضـواء عليه. كـان الرجـال الـذين يرتـدون بذلـة من ثلاث قـطع للذهاب إلى المكتب ويخضعـون بإحسـاس من واجبهم لحلاقة ذقنهم مرتين يومياً، يتخيلون أنفسهم الآن فيدل كاسترو آخر. وجرؤت النسـاء، اللاتي كن يخـرجن للعمـل صبـاحـاً ليعـدن مسـاء متعبـات ومـرهقـات إلى

منازلهن، على أن يتخيلن أنفسهن بين ذراعي فيدل كاسترو. أما عن كاسترو فإنه لم يكن مستاء من أمريكا كما توقع مراقبون كثيرون لقد كان في هذه الرحلة، سعيداً بها وكان يكرر مراراً وتكراراً لمجموعته: «لم يسبق لنا أبداً مقابلة أمريكيين مثل هؤلاء، لقد عرفنا فقط الاستعماريين».

وفي واشنطن استقر كاسترو ومجموعته في سفارة كوبا القديمة، الأنيقة. حيث نقلت أجهزة مكتب التحقيقات الفيدرالي كاسترو على الفور إلى حجرة خلفية من أجل الأمان ووضعت أرنستو بيانكور وريجينو بوتي في حجرة أمامية لها نوافذ، تحسباً لأي هجوم محتمل (إذ يبدو أن الاقتصاديين يمكن الاستغناء عنهم). وكلف بيتانكور بمهمة ايقاظ كاسترو في السادسة من صباح كل يوم. ويتذكر بيتانكور، «لقد كان ينام واضعاً مسدساً على المنضدة بجواره، لذلك حين قال لي إنه يريدني أن أوقظه لنتمكن من تبادل الرأي والمناقشة لمدة ساعة أثناء استعدادنا للقاءات اليوم فقلت له، حسناً طالما تذكرت أن من يوقظك هو صديق فلا تمتد يدك إلى المسدس، سوف أوقظك» وضحك كاسترو حينئذ.

كانت المجموعة كلها تشعر بالإثارة والتفاؤل بصدد هذه الرحلة، التي اعتقد كلهم فعلاً أنها سوف تحمل بلدهم إلى الحرية والكمال. وفي الواقع لم يكن هناك مجموعة من الرجال والنساء أكثر قوة واستقامة من هذه المجموعة التي إصطحبها كاسترو معه إلى واشنطن. لم يكن هناك شيوعياً واحداً أو محافظاً قديماً أو راديكالياً بينهم. لقد كانوا الصفوة المثقفة لصفوة الإنسانية الكوبية والمفكرين الاقتصاديين الكبار والمسؤولين ولكن من الغرابة بمكان، أنه منذ البداية حتى قبل وصولهم إلى واشنطن بدأوا يتساءلون لماذا هم بالذات الذين اصطحبهم.

وتذكر بيتانكور أن «رد فعل كاسترو على المساعدة الامريكية كان قاطعاً لقد قال فقط لن نناقش أي مساعدة اقتصادية». وأضاف كاسترو موجهاً حديثه إلى الاقتصادي روفو لوبيز فريسكيت: «كما أن الامريكيين سوف يفاجأون. وحين نعود إلى كوبا سوف يقدمون لنا المساعدة دون أن نطلبها» ولكن هذا كان ذراً للرماد في عيون الجميع. الحقيقة أن آخر شيء في العالم كان يريده هو أمريكيون آخرون يتجولون في كوبا ليقولوا له ما يجب عليه عمله في بلده، لقد علم جيداً أن المساعدة الأمريكية ستنتهي إلى ذلك.

وفي الواقع على عكس «الحكمة» السائدة التي بلغت تقريباً مستوى الأسطورة

فيما يتعلق بكوبا والولايات المتحدة على مر السنوات، فإنه منذ اليوم الأول للرحلة إلى اليوم الأخير ظل المسؤولون الأمريكيون يحاولون مراراً وتكراراً اجتذاب رجال اقتصاد فيدل إلى المفاوضات. لقد كان الأمر مستحيلاً.

كان أحد الأمريكيين الذين حاولوا هو روي «ديك» روبوتوم مساعد وزير الخارجية لشؤون أمريكا اللاتينية. وأخبرني روبوتوم «كنت أتحدث مع باسوز حول مشكلاتهم الاقتصادية. وقد كانت خطيرة. كانت البنوك تتحدث بالفعل حول سحب الالتزامات المالية لكوبا حيث تنتقل تلك الالتزامات إلى صندوق النقد الدولي وكان للولايات المتحدة دوراً هاماً في هذه المؤسسات. لذلك حددت موعداً للقاء الاقتصاديين الكوبيين بعد الغداء. ورتبت لكي يلقاهم أيضاً مساعد وزير الخزانة وعضو في بنك للاستيراد والتصدير وأحد كبار رجال الاقتصاد. وكان المقرر أن ينعقد الاجتماع في مكتبي وقالوا إن عليهم مراجعة الأمر مع كاسترو وفي الثانية بعد الظهر تلقيت مكالمة من روفو لوبيز فريسكيت يقول إنهم آسفون لأنهم لا يستطيعون الحضور وأن فيدل لم يوافق».

لماذا إذن كانوا هناك؟ لمعرفة السبب بدأ بعضهم يراقب أقوال وأفعال زعيمهم الجديد المعقد بمزيد من الانتباه. وخلال هذه الرحلة قامت راكيل زوجة ارنستو بيتانكور، وهي طبيبة نفسية حساسة بمراقبة عادات كاسترو ومغالاته المتزايدة. وأخبرت زوجها بابتسامة مقتضبة: «أؤكد لك أني شاهدت أناساً مثل فيدل في سانت اليزابيتز حيث عملت في دراسة الأمراض النفسية».

ويتذكر ارنستو بيتانكور «نتيجة لهذا التعليق بدأت أتساءل حول نموذج الشخصية الذي يتلاءم مع كاسترو. كنا نمتلك كتباً كثيرة حول علم النفس وكنا نبحث عن نماذج. وعن طريق بعض أصدقائنا، جراح أعصاب ومحلل نفسي، تلقيت كتاباً حول الخلل العقلي الذي يتميز بفترات تهيج تليها فترة حزن وكآبة وحملت الكتاب معي عائداً من واشنطن إلى هافانا». ثم في تصرف شيطاني حمل بيتانكور الكتاب إلى اجتماع لمجلس مديري البنك المركزي. وأخبرني بيتانكور: «لقد دخلت ومعي الكتاب ثم بدأت القراءة. قرأت وصف الشخص المجنون وبدأ الناس يقولون ـ وهنا انخفض صوته إلى حد الهمس ـ يا إلهي ماذا تفعل؟ افترض أن هناك مكبرات صوت؟

«وقلت عم تتحدثون؟ إني فقط أصف لكم خصائص شخص مصاب بحالة

عقلية. أنتم المعنيون بـالأمر. أنتم من يقـول إن هذا هـو فيدل كـاسترو. لم أقـل أنه هو. . .» وحينئذ ابتسم ابتسامة شيطانية وضحك ضحكته المعدية.

في الـواقع، على عكس الـطريقة التي وصف بهـا الرحلة لاحقـاً، فقـد احتُفي بكاسترو ونال الإعجاب واحتفـل به في كـل مكان زاره. وأقـام كريستيـان هرتـر وزير الخارجية في ذلك الحين مأدبة أنيقة له في ستاتلر هيلتون أحد أفضل فنادق واشنطن. وفي المجموع كان هناك خمسة وعشرون من كبار الشخصيات الامريكية الذين نجـح هرتر بصعوبة في جمعهم معاً بسرعـة كبيرة ليتفق مـع جدول مـواعيد كـاسترو. وبـدا للبعض أنـه عناء غـريب خاصـة وقد أحضـر كاستـرو ثمانيـة من حراسـه المـدججين بالسلاح معه وأصر على جلوسهم في حجـرة العشاء. ثم أثنـاء تناول البـراندي حلت لحظات صعبة حتى وافق رجاله أخيراً على ترك أسلحتهم في حجرة مجاورة ثم عادوا ليجلسوا على الأرض بحذاء الحائط أثناء تناول الآخرين للطعام.

كانت هناك عدة لحظات مسليـة خلال هـذه المأدبـة الرفيعـة المستوى. يتـذكر ويليام ويلند المسؤول عن الشؤون الكوبية في وزارة الخارجية لحظة معينة. فقـد قُدِم ويلنـد ببراءة إلى كـاسترو بـاعتباره «الـرجل المسؤول عن الشؤون الكـوبيـة» فـابتسم كاسترو ابتسامة خفيفـة ثم أضاف على الفـور متعمـداً: «لقـد اعتقدت أنني مسؤول عن الشؤون الكوبية».

في الحقيقة كانت مأدبة هرتر مبادرة كريمة إذ أنها وجهت لثوري لم يتول منصبه إلا قبل شهور ثلاثة وليس له سلطة دستوريـة. ويصر بيتانكور حتى هـذه اللحظة على أن «كاسترو وافق على الرغم من بعض الأدلة على أن كاسترو استاء لأن ايزنهـاور كان يلعب الجولف في أطلانطا أثناء الزيارة (كان كاسترو يعتبر /أيك/ بطلاً حربياً ولهـذا السبب، الذي لم يسجله التاريخ، كان يرغب في لقائه).

لقد كان فيدل كاسترو نجم الساعـة في الولايـات المتحدة دون أن يشعـر على الاطلاق بأنه أهين في الولايات المتحدة.

أمضى فيدل خمسة أيام في واشنطن ومَثَلَ أمام لجنـة العلاقـات الخارجيـة في الكـونجرس حيث أكـد أن الحكومـة الثوريـة الكوبيـة ستظل عضـواً في نصف الكـرة الغربي وسوف تحمي الصناعة الخـاصة الأجنبيـة في كوبـا. التقى كاستـرو بريتشـارد نيكسون في مكتب نائب الـرئيس بطابق مجلس الشيـوخ في مقر الكـونجرس وجلس الرجلان أكثر من ساعتين أسفل «شمعدان جيفرسون» الشهيد الذي كان معلقاً سابقـاً

يتلألأ في سعادة قبل إدخال التكييف في المكتب البيضاوي للرئيس.

وقال ريتشارد نيكسون عن هذا اللقاء بعد ذلك بسنوات. «انطباعي الأول عنه أنه مجرد رجل مثالي وشاب غير عملي. تحدث عن الحكومة الرئيسية الأولية مدافعاً عن أن المصانع التي تصرح بها الحكومة سوف تخدم المصالح الكوبية أفضل من المصانع الخاصة. واستمر ينتقد الصحافة الأمريكية بينما قلت له إنه يجب أن يتعلم من النقد سواء كان عادلاً أو ظالماً» وانحنى نيكسون للأمام وقال: «شعرت أنه سيقيد حرية الصحافة في المستقبل ولكن كاسترو قال لي: أنتم الامريكيون دائماً خائفون ـ خائفون من الشيوعية، خائفون من كل شيء. عليهم أن يتحدثوا أكثر عن قوتكم الخاصة وأسباب تفوق نظامكم على الشيوعية أو أي نوع آخر من الديكتاتورية».

وفي مذكرات كتبها نيكسون بعد اللقاء مباشرة أكد أنه «اقترحت في النهاية أني في الوقت الذي اعتقد فيه أن وقتاً معقولاً قد يمر قبل أن يصبح هناك جدوى لإجراء انتخابات فإنه مع ذلك يكون من الأفضل كثيراً من وجهة نظره ألا يعلن هكذا قطعياً أن الأمر قد يستغرق أربع سنوات قبل إجراء انتخابات. . . ودخل كاسترو في تفصيلة هامة حيث إنه يهتم أولاً بالرأي العام وسرد أسباب عدم إجراء انتخابات مؤكداً بشكل خاص أن «الشعب لا يريد انتخابات لأن الانتخابات في الماضي جلبت حكومات سيئة. . .» كان من الواضح أيضاً أنه فيما يتعلق بزيارته للولايات المتحدة فإن اهتمامه الأول كان منصباً لا على إدخال تغيير في حصة السكر أو الحصول على قرض حكومي ولكن على الفوز بتأييد لسياسته من الرأي العام الأمريكي. . . وتقديري الخاص له كرجل يحمل تناقضاً إلى حد ما. والحقيقة الوحيدة التي يمكننا أن نتأكد منها هي أنه يمتلك تلك الصفات غير المحددة التي تجعله زعيماً للرجال. فمهما كان اعتقادنا بشأنه،فسوف يصبح عاملاً شديد الأهمية في تنمية كوبا بل ومن المرجح جداً في شؤون امريكا اللاتينية بصفة عامة. . . إمَّا أنه ساذج جداً في فهمه للشيوعية أو خاضع للنظام الشيوعي وأنا أرجح الأمر الثاني».

وفي وقت لاحق كان الرئيس الأمريكي السابق يفكر بعمق في الزيارة التاريخية. وقد قال لي: «لقد التقيت بكثير من الزعماء، إلتقيت بنكروما وسوكارنو وكلهم سواء ينضحون بالنزعة القيادية وبالجاذبية الجنسية. ولم أفاجأ بأن أجد كلاً منهم زير نساء. كان يمكن أن ينجح ثلاثتهم على الساحة الامريكية. فكلهم ديماغوجيون. وكنت استشعر في الأحاديث الخاصة كيف يستطع كاسترو تحريك

سامعيه. لقد أحسست أن نظرته إلى الولايات المتحدة مشوهة وأن موقعه المعادي لأمريكا لا يمكن معالجته». هل أعجب بي؟ «نادراً ما أتورط في مسألة يعجب/ لا يعجب» وأستطرد نيكسون في حذر: «لقد احترمته كشخصية قوية. ووجدته يستحق الحديث معه. ولا تجد الكثيرين مثله على الساحة الدولية. وهناك شيء أسوأ من أن تكون على خطأ وهو أن تكون مملاً. لقد كان مخطئاً، لكنه لم يكن مملاً. كان شخصاً أحب أن أجتذبه إلى جانبنا كاسترو. . . كان يستحق الساعتين».

من جانبه كان كاسترو عصبياً، قبل وبعد الاجتماع ربما لأنه كان أخيراً وجهاً لوجه مع واحد من أكبر زعماء «عمالقة الشمال» كما شعر بإهانة وغضب بعدها ولأسباب تكمن في أعماق نفسه أكثر منه لأسباب فعلية. وقد صرح لميجويل كويفيدو مدير تحرير/بوهيميا/ بأنه «هذا اللعين نيكسون، لقد عاملني معاملة سيئة وسوف يدفع الثمن». لكنه لم يقل أبداً لماذا، ربما لم يكن يعلم.

وفي مأدبة غداء الجمعية الامريكية لناشري الصحف وهو السبب الظاهر لهذه الرحلة، اظهر كاسترو جانباً آخر من شخصيته المتناقضة، بالخروج عن المألوف وإهانة هربرت ماثيوز متباهياً بأنه خدع ماثيوز بتضخيم عدد مجموعته القليلة اللطيفة من المتمردين في هذا اليوم البعيد في السييرا. ثم أظهر ثانية جانباً آخر حين سئل عما إذا كان فعلاً جو كامبريا، المدرب لفرق البيسبول الأمريكية الكبرى والذي اعتاد على اجتذاب لاعبي البيسبول الكوبيين، قد حاول من قبل استقطابه ليلعب مع فريق من شبه المحترفين في البيسبول في الولايات المتحدة.

واعترف كاسترو مباهياً:أ«نعم، لقد جرت مناقشة في هذا الشأن. لكن دعوني أخبركم شيئاً واحداً. لقد لعبت دائماً قاذفاً وليس لاقطاً للكرة».

في نيويورك حاربت مجاميع كبيرة لرؤية «فيدل» على طول الطريق من المحطة الرئيسية إلى ستاتلر هيلتون وتجول في جامعة كولومبيا، والتقى بداج هامرشولد وزار ستاد يانكي حيث أكل، كما تروي القصص، شطائر /هوت دوج/و/هامبرجر/ وقفز الحاجز الأول في حديقة الحيوان للاقتراب من قفص الأسد مما أثار الذعر في قلوب عملاء جهاز الأمن الداخلي/اف. بي. أي. / الذين كانوا يسهرون على حمايته إذ كانوا يخشون إصدار صوت خوفاً من إثارة المزيد من الاضطراب عند الأسود! (أما عن محادثاته المذكورة مع الأسود فلا يوجد لسوء الحظ أي تسجيل لها!). وفي سنترال بارك حيث كان، في أيام ماضية، يسير مع ميرتا في شهر عسلهما، أعلن فجأة فلسفته «الجديدة» قائلاً إن «ثورتنا تمارس هذا المبدأ الديمقراطي وتؤيد الديمقراطية

الإنسانية» مشدداً على كلمة «إنسان» التي أثارت الدهشة عند الجميع. وفي خطابه هذا في السنترال بارك، ذكر لأول مرة عبارة «الخبز مع الحرية». وقد تم التوصل إلى هذا «الابتكار» غير العلمي للجملة الجذابة في اليوم السابق أثناء حديث كاسترو مع انريك دي لاأوزا أكبر محرري/ بوهيميا/. فقد أخبر كاسترو دي لاأوزا: «لدينا مشكلة هنا حيثما نذهب يطرح الناس الأسئلة حول ماهيتنا. أنت تعلم أننا اشتراكيون، لكن الامريكيين حائرون جداً. إذا قلت إني اشتراكي فإنهم يعتقدون أنك شيوعي» وبينما كاسترو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وذراعاه ممدودتان بالطريقة التقليدية للحكام خلف ظهره، بدأ دي لا أوزا يتحدث بصدد التفكير السياسي لأمريكا اللاتينية حتى وصل إلى العبارة الجذابة: الخبز مع الحرية، التي قالها واستخدمها فيكتور راؤول هايا دي لاتور مؤسس اليسار في بيرو. وفجأة توقف كاسترو عن السير وغمغم «الخبز مع الحرية.. الخبز بدون إرهاب» وبدأ يلوك هاتين العبارتين في فمه حتى أصبحتا أكثر قوة واستخدمهما بنجاح في سنترال بارك ثم بدأ يكررهما مراراً يومياً طوال شهور حتى أصبحتا مصهورتين في المناخ السياسي.

لم يضم وفد كاسترو إلى أمريكا أي شيوعيين (وما كانوا ليحصلوا على تأشيرات دخول) لكن فجأة، ظهر على مسرح الأحداث عدد من اليساريين الكوبيين البارزين الذين أتوا بدون دعوة. وقد أرسلتهم فيلما إسبن التي أصبحت زوجة لراؤول كاسترو لكن لماذا تقدم فيلما زوجة الأخ راؤول الجميلة، الباردة المشاعر، على هذا الأمر؟ جزئياً: لأن فيلما كانت تتمتع بوجه صبية فرنسية وروح واصرار مدام لافارج. كما أن راؤول المضطرب والعضو الموالي للحزب الشيوعي كان مصراً على القيام بدور هدام خلال رحلة نيويورك. وباستياء عظيم راقب كاسترو وهو يستمتع في هذه المدينة، «امعاء المدينة» كما يصفها خوسيه مارتي. وبدأ راؤول يتصل كل مساء تقريباً بشقيقه ليحذره من أنه في كوبا كان يبدو كأنه «يبيع للأمريكيين» ويقول تيتي كاسوزو أنه عند حد معين كاد كاسترو يبكي لسماعه اتهامات شقيقه.

لكن أكثر القصص غرابة بشأن «مكالمات راؤول» المجهولة والحاسمة تاريخياً جاءت من لويس بوتيفول وهو محام كوبي عالي المكانة، وصحفي سابق استقبله كاسترو في فندقه بنيويورك في هذه الأثناء. كان كاسترو مقيماً في فندق بنسلفانيا، وقد اتصل بروبرتو «بوبي» مادورو، المالك الرئيسي لفريق /شوجر كينجز/ الكوبي للبيسبول، وطلب منه السفر إلى نيويورك لمقابلته. ووافق بوتيفول، الذي كان يملك جزءاً بسيطاً من الفريق، على الذهاب إليه. وكان مادورو وبوتيفول يستريحان في

حجرة النوم في جناح كاسترو، وكان كاسترو يسأل عما يتطلبه الأمر لكي يلعب شوجر كيجنز في المسابقات الرئيسية حين دخلت سيليا، وقد تملكها الانفعال الغرفة، لقد كان راؤول يتصل ثانية من هافانا.

وكشف بوتيفول النقاب عما جرى بعد سنوات: «كان راؤول يشكو إلى فيدل بصدد التغطية الصحفية لرحلة فيدل. وقال ان الصحف ألمحت إلى استعداد كاسترو لابرام صفقة مع الولايات المتحدة وأنها دعاية سيئة لفيدل وأن عليه أن يعود إلى هافانا في أول مايو، عيد عمال كوبا، وإلقاء خطاب في هذا اليوم للقضاء على الشائعات.

«لقد أخبر فيدل، راؤول أنه لم يستعد بعد لإلقاء نوع الخطب التي يقترحها وأن البديل الوحيد أمامه هو ألا يتواجد في كوبا في هذا اليوم. ثم أخبر فيدل، سيليا أن تستدعي الصحفيين الكوبيين. كان فيدل واضح الضيق من جراء محادثته مع راؤول والتقى بأعضاء الوفد الصحفي في بهو الجناح وأخبرهم أنهم كاذبون وأنه لن يعقد صفقة مع الولايات المتحدة. وانتهى الاجتماع وعدنا، فيدل ومادورو وأنا، إلى حجرة النوم. وأتذكر اني حاولت تهدئة كاسترو.

وفي هذه اللحظة وصل ريجينوبوني، أحد أهم رجال كاسترو وسأله كاسترو فجأة بمكره المعهود، عن اجتماع مقرر في بوينوس أيريس «ومتى ستتوجه إلى المؤتمر في بوينوس ايريس؟ ولماذا يعقد؟».

أخبر بوني كاسترو أنه مؤتمر اقتصادي. وعلى الفور قال كاسترو أنه يرغب في حضوره. أشار بوني إلى الزعيم الشاب المتعجل إلى أن كوبا لديها وفد بالفعل، وأن قراره المفاجىء بالذهاب لا يندرج على الاطلاق في اطار «البروتوكول المعتاد». وبدا كأن كاسترو استعاد روحه وهو ينحي جانباً هذا القلق العتيق. وقال لبوني: «لا تقلق سوف أذهب، وهناك سأقترح أن تمنح الولايات المتحدة خمسة مليارات دولار لأمريكا اللاتينية». وهزّ بوني رأسه وهمهم بعض الكلمات، لكنه وافق على اتخاذ الترتيبات الضرورية.

وفي إطار مثل هذه اللامبالاة، وهذا الاحباط المتعجل، ولدت رحلة كاسترو التاريخية التالية. وهناك في بوينوس أيريس، ألقى خطابه الذي مثل تحدياً لسياسة جون كينيدي: «التحالف من أجل التقدم».

في نفس هذه الأسابيع زار كاسترو جامعتين أمريكيتين عريقتين، برينستون وهارفارد، حيث استقبل استقبالاً حماسياً حافلاً. ولكن في برينستون، نال فيدل أكثر

الاستقبالات تميزاً، في الولايات المتحدة كلها، وهناك أيضاً قدم أعظم اداء لـه طوال رحلته الفانتازية.

لقد تحققت زيارة برينستون بسبب الجهود المذهلة للبـروفسير الليبـرالي الثري رولانـد ايلاي، وهـو رجل طـويل القـامة يشبـه جنود الشمـال (اليانكي) كـان يضع كتـاباً عن الاقتصاد الكوبي الذي يتسم بالأسرية. كان البروفسير قد سبق له أن زار كوبـا في الشهور الثلاثة الأولى الغريبة في تاريـخ الثورة الكـوبية وقـد تأثـر بشدة بـالمظاهـرات الشعبية العظيمة. وقد استهوته بشدة ثورة كاسترو لـدرجة أنـه حظي ببـورتريـه واقعي لكاسترو باللونين الأسود والأحمـر، وهما لـونا الثـورة، مع رمـوز لشقوق ودمـاء حول الحواف» ورأس كاسترو يلتمع في الوسط. وقد رفعها كهدية تقدير للزعيم الكربي.

إلا أن البروفسير ايلاي لم يستطع أن يطلب إلى كاسترو الحضور إلى برينستون في زيارة رسمية على مسؤوليته الخاصة. كانت برينستون في حـاجة إلى عـذر. وكان عام ١٩٥٩ يرتكـز على الحافـة المبكرة للتسييس المكثف للجـامعة الأمـريكية الـذي ازدهـر في الستينـات والسبعينـات، ولم تكن دعـوة مثـل هـذا الـزعيم السيـاسي غيـر التقليدي تعتبر بعد أمراً ملائماً. ويتذكر روبرت جوهين الـذي كان رئيسـاً لبرينستـون في ذلـك الحين: «إلا أن البروفسـور روبرت بـالمر كـان يقـوم بتـدريس كـورس عن الثورات الحديثة في ذلك الحين، وبسبب اهتمام بوب بالمر وهذا الكورس الـدراسي صرحت للجامعة باستقبال كاسترو».

حين وصلت حاشية كاسترو إلى تقاطع برينستون كان هناك تلاميذ متعلقين على شجر وقد رفعوا أعلاماً كوبية هائلة الحجم. لكن هـذا التدفق الكـريم الحقيقي لحب هؤلاء التلاميذ نحو فيدل ومجموعته ظهـر فعلاً هـذه الليلة في مدرسـة وودرو ويلسون بجـامعة بـرينستون. ويتـذكر الـدبلوماسي والكـاتب الشيلي جورج ادواردز «لقـد كان مهرجاناً ، مناخاً جنونياً، يذخر بالحمـاس والترقب، أو بمعنى أخـر، مثل مـظاهرات الطلاب في السنوات الأخيرة».

دخل كاسترو القاعة هذا المساء بتعبيراته المجهدة الخاصة بـه عبر بـاب خلفي صغير وتحت حراسة مشددة، وسـرعان مـا بدأت مجمـوعة من الـرجال الملتحين في أزياء خضراء زيتونية وقـد عقصوا شعـرهم في جدائـل، يسيرون في الجنـاح الرئيسي وبعضهم يبتسم بسخرية وكلهم يتبخترون في خيلاء المحـاربين المنتصرين. ويتـذكر ادواردز «كان هناك حرس شرف واقفين وخليط من الفضول والشعور بالإثارة حين سار فيدل كاسترو نحو المسرح قادمـاً من الباب الخلفي يـرد بهدوء على التحيـات من كل

جانب» وطوال الطريق كان يتحدث بنبرة شخصية، ناعمة وخاصة بحيث يمكن أن توصف بأنها معزية تقريباً، والواقع أنـه قرر ألا يستخـدم على الاطلاق متـرجماً لكي لا يشتت انتباه الحاضرين عن الشخص، وعن سحر الصوت وعن الاتصال الكـامل عن طـريق حركات الوجه.

وحين وصـل إلى مقدمـة الحجرة، تحـول وجهه الآمـر ببطء ليواجـه الـطلاب. وعلى الفور سحرهم. وكان خطابه أساساً عبارة عن دعوة طويلة للتعاون بين الولايات المتحدة وكوبا «الجديدة». تحدث عن «ثورة اليوم» إلى هـذه المجموعـة من الطلاب الذين كان أسلافهم جزءاً من ثورة الأمس. لقد حاضرهـم، قائلاً ان الثورة الكوبيـة لم تؤسس على النموذج الماركسي للصراع الطبقي.

لقد تحدث، وتحدث، وتحدث، حتى قام البروفسور بالمر، الذي كـان، حتى هذه اللحظة يعتقـد ببراءة أنـه المسؤول عن الندوة، بـارتداء جـاكتته لـلإشارة إلى أن الوقت قد نفد. ويقول بالمر «إني أتباهى منذ ذلك الحين بأني الشخص الوحيد الذي حاول أن يجعل فيدل كاسترو يتوقف عن الحديث». ويتوقف بالمر عن الكلام ويبتسم ثم يضيف: «لم أكن ناجحاً».

في هذا الخطاب قال كاسترو شيئاً شديد الأهمية، وجعل النـاس تهتم به. لقـد قـال إن رجالـه «أثبتوا أن جيشـاً، حتى الجيش الحديث يمكن هـزيمته». وبـطريقتـه الخاصة، كان يمهد لرجال حرب العصابات الذين سيدربهم ويرسلهم إلى كافة أنحاء العـالم ليشنوا حـرباً بـاسمه. ومـع ذلك، في هـذه اللحظة كـان خطابـه يبدو معتـدلاً وليبرالياً وقد أحبه الطلاب.

في نهـاية «المحـاضرة» ابتعـد فيدل عن رجـال الأمن المنتظرين عنـد المدخـل الخلفي ورحل مثل بـطل منتصر من البـاب الرئيسي إلى الليـل المنتظر ورفعـه شباب بـرينستون، وهم يهللون في إثارة شـديدة، على الأكتـاف وحملوه عـدة دقـائق حتى استطاع رجال الأمن التدخل مرة ثانية.

في هذه الليلة كان هناك حفل في مسكن رولانـد وسالي ايـلاي الغريب، وقـد حقق رقماً قياسياً في إثارة الدهشة حتى بالنسبة لكاسترو. كان المنزل معروفاً جداً في برينستون، وكان يشار إليه على المستوى المحلي باسم «بيت النملة» لأن أسرة إيلاي كان لديها أربعة أطفال صغار مثل النمل فكانت نساء كاسترو هن مشكلة مسز ايـلاي التي تتذكر تلك الليلة: «لقد أعددت حجرة لنوم النساء الأربع صـديقات كـاسترو في

المنزل الرئيسي، وكان سيقيم في منزل الضيوف. وكان هناك حوالي ستين رجلاً ملتحياً في المكان. وذهبت لاعداد الفراش له، وشعرت نساؤه الأربع بغضب شديد. فقد كن يعرفن أن من تعد له الفراش تدخله معه. كن غاضبات مني، وسيليا أكثرهن حدة معي بصدد مسألة الفراش. وكنت متوترة للغاية وتعبة ولم أفهم». وفي النهاية نامت النساء الأربع في حجرات نوم الأطفال، ونامت مسز ايلاي في بانيو الحمام في حين ظل كاسترو يرقص طوال الليل مع الأطفال. وحين حاول جو كلارك سيناتور بنسلفانيا إحضار بعض البيض، في الصباح التالي، أوقفه البوليس في الخارج واحتجزه لمدة ثلاث ساعات حتى يختبروا البيض.

وفيما يمكن اعتباره من سخرية التاريخ، كانت ظاهرة جديدة تكشف عن نفسها في أمريكا في وقت زيارة فيدل كاسترو. ويتذكر جورج ادواردز كيف أنه في ربيع ١٩٥٩، «مر بعض الشعراء ذوي الثياب الرثة واللحى النامية ببرينستون دون أن يتركوا أثراً كبيراً في مكان مازال يذكر الأعمال القديمة لتوماس مان... لقد جاءوا سائرين، أو عن طريق إيقاف السيارات المارة، أو في حافلات متداعية من سان فرانسيسكو البعيدة، وكانت أسماؤهم: ألين جينسبرج وجريجوري كورسو ولورانس فيرلينجيتي...». كانت زيارتهم تنبؤية: لقد كانوا يمثلون الطليعة الحقيقية لعهد جديد. إذ ثبت أن التجمع العقلي والنفسي، وأحياناً السياسي في السنوات القادمة بين هؤلاء الهيبيين ورجال حرب العصابات الكوبية ثم المنشقين الأمريكيين في الستينات وأوائل السبعينات كان لقاء قدرياً غير وجه العلاقات بين «القوي» و«الضعيف» إلى الأبد. ومن جهتهم، رأى الطلاب الراديكاليون الأمريكيون في تلك الحقبة قوة ورومانسية في كاسترو، بدلاً من القوة الشديدة والشيب الأبوي عند أيزنهاور. لقد رأوا فيه عودة لعنصر البطل في الحياة الحديثة كما لو كان: «شبح كورتز قد ظهر في عصرنا يمتطي جواد زاباتا الأبيض» كما يقول نورمان ميلر.

لكن لم يكن الأمريكيون الراديكاليون هم وحدهم الذين وقعوا تحت تأثير سحر كاسترو. فآخرون يختلفون عنهم كل الاختلاف تأثروا به أيضاً. وقد التقى فرنك بيندر كبير خبراء الاستخبارات الأميركية /سي. آي. ايه في شيوعية أمريكا اللاتينية مدة ثلاث ساعات مع كاسترو وخرج يجزم بحماس أن «كاسترو ليس فقط غير شيوعي، لكنه أيضاً مقاتل شديد للشيوعية». (سوف تتغير الأمور. سوف يتغير بيندر، من سيقود غزو خليج الخنازير بعد عامين فقط).

وازدادت الرحلة صخباً مع اقترابها من نهايتها، وأصبح سلوك كاسترو مشكلة

حقيقية، بعد نفاد صبره على الرسميات. وكان في أسوأ حالاته في مونتريال حيث نفض رماد السجائر على الأبسطة الجميلة في فندق الملكة اليزابيت، ودفع كل أدوات المائدة الفضية جانباً من المأدبة الرسمية التي أقيمت لتكريمه، وتجرع كأس الشيري المرفوع لتحية الملكة جرعة واحدة. وحين رفعت الكؤوس لتحيته شخصياً باعتباره «رئيس كوبا»، أجاب بسخرية لاهية وبابتسامة ساذجة «لكني لست رئيس كوبا». حتى هو شخصياً أحس بالحرج فيما بعد في هذا الصدد.

بعد أن غادر فيدل الولايات المتحدة، تسابقت الصحافة الأمريكية لتحديد مغزى زيارته. وبدا أن الاجماع، كما قالت مجلة (كومنويل) استقر على أن «فيدل كاسترو هو تقريباً رمز قوة تنتشر فوق أمريكا اللاتينية وأن محنة كوبا جزء من حالة عامة في أمريكا اللاتينية».

لكن، ماذا حدث حقيقة في هذه الرحلة؟ ما فعله كاسترو بنجاح في هذه الرحلة الأولى، وما سيفعله مرات ومرات هو تجاوز المسؤولين الرسميين في الحكومة. لقد وافق على الزيارة منذ البداية لأن ناشري الصحف دعوه، وليس حكومة الولايات المتحدة. لقد فهم أنه بتوجيه حديثه إلى الناشرين يستطيع أن يتقدم بقضيته مباشرة إلى وسائل الاعلام، ومن ثم، عن طريقهم، مباشرة إلى الشعب الأمريكي. كانت هذه هي قوة العهد الجديد وكان أول من عرف ذلك. لقد تغاضى نفسياً وسياسياً ليكرس أسطورة ثورة «الإنسانية»، ثورة «الخبز والحرية» ثورة لا يستطيع الأمريكيون الخوف منها ومن ثم لن يحاولوا وقفها أو الاطاحة بها، ولكن أيضاً لن يستطيعوا تمويلها. لقد سعى لمد يده إلى الجيل الجديد، لقد استهدف «قوة الضعفاء» الجديدة، على المسرح العالمي. لقد كانت رحلة ناجحة إلى أقصى حد، لكن نجاحها لا علاقة له إطلاقاً بالمساعدة الاقتصادية أو أي شيء آخر يشرحه المحللون العقلانيون.

لقد تجاورت الدولتان والشعبان وسبل الحياة معاً للحظة في هذا الربيع لكنهما لم يلتقيا. لقد مرا كسفينتين في ليلة ضبابية، سفينتين تتجهان بالفعل بلا كلل إلى اتجاهين مختلفين وخطين ملاحيين لا يلتقيان نهائياً، لقد تجاورتا وعبرتا، هذا هو كل شيء.

وفي نفس يوم عودته من رحلته، أعلن كاسترو إصلاحه الزراعي. لقد كان حقيقة مفتاح كل شيء، وكان موقعاً في أعلى وأكثر مناطق سييرا مايسترا مطراً بالرمزية والدراما التي برع فيها كاسترو. وتوجه المسؤولون والصحفيون صعوداً على الجبل الأخضر البري إلى ما أطلق البعض عليه اسم «عش النسر الخاص بفيدل» في مقر

قيادته القديم في لابلاتا، وانضم إليهم آلاف الفلاحين الذين حضروا لرؤية فيدل.

ويقول جاك سكيللي عن هذه التجربة المضنية، «لقد طرنا إلى منزانيللو، ثم ركبنا الشاحنات. ثم صعدنا الجبل على الأقدام إلى «عش النسر». واستغرقت الرحلة ١٨ ساعة، وحين وصلنا هناك، جاء فيدل بالهليكوبتر مع بعض أعضاء الحكومة. وكان المطر ينهمر بشدة. وبقينا هناك نحو ثلاثة أيام. لم يستطع أحد الخروج»، لكن على الرغم من المطر البارد ونقص الطعام (إذ لم يفكر أحد في جلب ما يكفي من الطعام) كانت هناك لحظات من الجمال الحقيقي، وقع القانون كلاً من كاسترو. والرئيس أوروتيا وعدد من الوزراء على ضوء مصباح غاز على منضدة خشبية قديمة، ونام الجميع على الأرض بدون بطاطين مثل الفلاحين الذين سينقذهم القانون التاريخي. وضل راؤول طريقه في الجبل وهام أياماً. ويقول جاك سكيللي: «أتذكر فيدل وهو واقف هناك، وكل هؤلاء الناس يقفون في طابور يضعون مذكراتهم بطلباتهم في جيبه. وأتذكر أنه هناك في عش النسر، أعطى فيدل أحد الفلاحين شيكاً لشراء أبقار لبدء تعاونية لتربية الماشية. وكان الشيك بمبلغ ثلاثمائة ألف دولار».

في الأساس كان الإصلاح الزراعي يبدو معقولاً، وقد كان معتدلاً في صياغته، لكنه كان راديكاليا في نواياه. وهذالأنه، كما فعل كثيراً، سمح كاسترو لشخصين بتقديم قانونين متناقضين، ثم يستخدمهما لأغراض مختلفة. وقد تم إعداد قانونين للإصلاح الزراعي هذا الشتاء، واحد أعده هومبرتو سوري مارين مدير الزراعة المعتدل، والثاني أعدته مجموعة شي جيفارا وأوزفالدو دورتيكوس الموالي للشيوعية. وقد ذكر كارلوس فرانكي الذي قام بتغطية النبأ لصحيفة /ريفولوسيون/ أو (الثورة) كل هذا: «ساعدت خطة سوري مارتن، كاسترو على كسب الوقت وتهدئة الاهتمام المتزايد، أما خطة جيفارا، التي كانت تعجب كاسترو أكثر، فقد كانت مرضية حتى بالنسبة للناس نافدي الصبر وكان يمكن استعمالها حين تأتي اللحظة المناسبة».

وعلى الفور تقريباً أدرك هومبرتو سوري مارين، المحامي الجاد، الأسود الشعر أحد قادة السييرا والذي كتب قانون اصلاح زراعي سابق لكاسترو، أن هناك «لعبة مزدوجة» تحدث. ومع ذلك فقد حضر الاحتفال الكبير الانفعالي في لابلاتا، وتمتع بلحظة مجده الحقيقي وهو جالس على جواد أبيض وسط ثلاثة آلاف فلاح يمسكون في أيديهم المتشوقة صكوك ملكية الأرض. وبعد ذلك بقليل، غادر هو أيضاً كوبا، ليكون ضحية أخرى حزينة ومهزومة وسط المعتدلين.

وينص قانون الإصلاح الزراعي الذي وقع في هذا اليوم الممطر من الربيع في السييرا، على تجريد مصانع السكر الامريكية والكوبية من حقول قصب السكر المملوكة لها. ولم يعد باستطاعة أي أجنبي إمتلاك أرض زراعية في كوبا أو وراثتها، ويحصل حوالي مائتي ألف فلاح على أرض. ولكن في الواقع كان الفلاح يستبدل الحكومة بالمالك الخاص كرئيس له لأنه أولاً لم يكن يستطيع بيع أو رهن الأرض، ثانياً: كان يجب على الفلاحين أن يزرعوا المحاصيل التي تأمر بها منشأة الاصلاح الزراعي القومي وكان عليهم أن يبيعوا محاصيلهم بالسعر المتفق عليه.

ويعتبر من أهم صفات كاسترو وأكثرها دواماً، قدرته على خلق هيكل تحولي، عادة تحت أعين «أعدائه». ثم بعدها يغير هذه الهياكل ليحملها حقيقة مختلفة كلية دون أن يستوعب أحد ما يحدث قبل أن ينتهي الأمر بكثير. وقد فعل هذا الآن، في أحد الأساليب التي لجأ إليها طوال حياته، من جانب عن طريق إطلاق مسميات على الأشياء، لا علاقة لها بما ستصبح عليه، لقد كان «الاصلاح الزراعي» خطوة لإنشاء «التعاونيات» حيث أن ما أراده كاسترو فعلاً هو «جماعيات» بغض النظر عن أن الشعب، الذي يحكم، لم يكن في حاجة لمعرفة ذلك، بعد.

والآن، لقد توافقت منشأة الإصلاح الزراعي القومي، بالمعنى الحقيقي للكلمة مع فترة حاسمة من الزمن في طريق تحويله التاريخي لدولة كوبا الجديدة، أو على الأقل شكل مستقبلها. وأقيم محور قوي بين المنشأة وجيش التمرد. فتقوم المنشأة بتقديم هيئة اتخاذ القرار الاقتصادي والسياسي للقوة العسكرية السابقة. وخلقت المنشأة ميليشياتها الخاصة المسلحة التي تضم مائة ألف رجل بمساعدة راؤول وشكلت إدارتها الخاصة للتصنيع، برئاسة شي جيفارا، وأخرى للتسويق. وشقت المنشأة الطرق، واستولت على أراض خاصة، وأقامت المنتجعات السياحية، وسرعان ما أصبح كاسترو يدير فعلاً كوبا عن طريق المنشأة، في حين كانت المنشآت الأخرى، الرسمية بل «والرئاسية» التي تسبح في الأضواء الساطعة تمارس بالكاد أية سلطة. ومثل نحلة عسل مخادعة تخلق مئات الحبوب الصغيرة السرية من الشمع كان فيدل كاسترو مشغولاً ببناء الحجرات الاجتماعية والسياسية للمنزل الكوبي الجديد.

لكن هل كان فيدل شيوعياً بالفعل في تلك الفترة؟ وإذا لم يكن كذلك فمتى أصبح شيوعياً؟ أم كان دائماً، ربما، شيئاً آخر؟ الإجابة مدفونة في الرمال المتحركة السياسية والنفسية والايديولوجية وتلقى آلاف النظريات التي طرحها المراسلون

الأجانب والمحللون وتاد سولك كاتب سيرة كاسترو الذاتية، بظلالها عليها. بما في ذلك نظرية تريدنا أن نعتقد أنه منذ اليوم الذي هبط فيه كاسترو على هافانا، كانت هناك «حكومة خفية» تتآمر خلفه بعناية وسرية. ويقول سولك أن لقاءات سرية، لهدف محدد كانت تنعقد في منزل بأعلى الجبل في قرية كوجيمار للصيادين على بعد عشرة أميال فقط إلى الشرق من هافانا. ولكن قراءة متأنية للأحاديث الأصلية التي قامت على أساسها هذه القصة عن مؤامرة مؤكدة (أن فيدل كان دائماً شيوعياً)، وهي اللقاءات مع الشيوعيين فابيو جروبارت وألفريدو جويفارا، وبلاس روكا تظهر عدم وجود هذه المؤامرة. وما تظهره هو أنهم، مثلهم مثل ما لا يقل عن ست مجموعات أخرى، كانوا يعملون لتحقيق أهدافهم الخاصة وأن فيدل، مع ست مجموعات أخرى على الأقل، كان يعمل لنفسه، وكان يسعى ببساطة إلى السلطة المطلقة لنفسه. ببساطة لا يمكن حشر فيدل كاسترو داخل رداء أي شخص آخر.

الحقيقة أن كاسترو لم يصبح أبداً شيوعياً مثلما يصبح الإنسان ماسونياً أو كاثوليكياً أو ضابط مخابرات ألمانية أو مريداً لكريشنا. إنه لم يوائم نفسه لايديولوجية معينة، لقد وجد أيديولوجية لتواءم نفسها معه. لم تكن شيوعيته، ولا يمكن أن تكون، مسألة إيمان، لأن إيمانه الوحيد ينصب على ذاته وعلى نواياه «النبيلة». لكنه أقدم على تصرف تاريخي يمكن أن يتكرر في «الأديان السياسية» (وهي عبارة عالم السياسة ديفيد أبتر) لعدد كبير من دول العالم الثالث: لقد جلب الشيوعية إلى الحكم من خلال ذاته الخاصة، بدلاً من أن يجلبها من خلال أيديولوجية مفروضة عن طريق الحركة، هذا هو الموضوع الذي حمله كهدية مقدسة جديدة إلى العالم الثالث.

في الحقيقة، ان كاسترو لم يصبح شيوعياً فعلاً على الإطلاق، الجديد في التاريخ الذي فعله كاسترو هو أنه دمر الحزب الشيوعي وخلق حزبه «الفيدلي» الخاص الذي أطلق عليه «الشيوعي» لكي يقف في وجه الولايات المتحدة ويكسب التأييد ويستعير السلطة من الاتحاد السوفييتي. ولأول مرة في التاريخ يقوم زعيم وطني بتحويل الحزب الشيوعي إلى ذاته.

وبحلول صيف ١٩٥٩ عزز كاسترو سلطته تماماً. والان يبدأ في التخلص من الرجل الذي قام هو شخصياً برفعه كرئيس أو في الواقع كرئيس مؤقت.

كان مانويل اوروتيا ليو قاضياً هادئاً لا يلفت النظرولكنه محترم. وضع النقاط على الحروف واعتقد في وقت ما أنه فعلاً رئيس كوبا. وحين أطلق كاسترو غضبه التام

ضده، كانت عاصفة ستظل كوبا كلها تتذكرها. أخبـر كـاسترو، بـلا كلل، كارلـوس فرانكي ذات يوم في أواخر الصيف بوجود «مشكلات مع الرئيس» وهو يذرع الحجـرة جيئة وذهاباً بأسلوبه المعتاد. ثم عندها فعـل ما يفعله دائمـاً. أخبر فـرانكي «لن ألجأ للانقلاب بالاسلوب الأمريكي اللاتيني المعتاد، سوف أتوجه مباشـرة إلى الشعب لأن الشعب سيعرف ما يفعـل. أنت الوحيـد الذي تعلم شيئاً عن هذا، وأريـدك أن تنشر طبعة خاصة من الصحيفة تعلن ذلك. أغلق المكان ولا تسرب كلمة، يمكنك أيضاً أن تطبع مليـون نسخة. بهـذه العناوين الكبيـرة التي تعجبك كثيـراً «لماذا؟»، «سـأخبرك بالأسباب حين أظهر في التليفزيون».

وصدرت /ريفولـوسيون/ في الصبـاح التالي بعنـاوين ضخمة بـاللون الأحمر، «فيدل يستقيل» وخـرجت المظاهـرات في كل مكـان، واهتزت الأمـة كلها، وتـوقفت الحيـاة ولم يضر في شيء أن كـاسترو جلب إلى هـافـانـا آلاف الفـلاحين لـلاحتفـال بذكرى السـادس والعشـرين من يوليـو وليكونـوا المطالبين «بتدميـر اوروتيـا» لحسابـه. وشكى كاميلو سيانفويجوس المحب للمرح بمرارة في تلك الفترة. «هـذا الفيدل يحب فعلاً العبث ولكنه لم يكن نـوع «العبث» المعتاد. كـان كاستـرو على وشك التخلص من رئيسه، ولكن من خلال نوع جديـد من التحرك السيـاسي، من خلال مـا كان في الحقيقة «حركة استعراضية» لا يتم خلالها فقط استبدال رجل على الصعيد السيـاسي ولكن تدميره، وفيها يعتقد «الشعب» أنه صاحب القرار.

لم يكن كاسترو مجـرد مسيطر على التحـرك والدينـاميكيات، كـان أيضاً استـاذ السكون. في هذا الوقت بالـذات، اختفى تاركـاً الشعب، الذي أصبـح معتمداً كليـة عليه، ينتظر في خوف وقلق. ومثل هتلر، والكثيرين من الزعماء الكاريـزماتيين، كـان يعـرف كيفية استغـلال المكان والـزمان، واستغـلال خوف الشعب من غيـاب القـائـد الأعلى وخوفهم من التخلي عنهم.

وحين عاد أخيراً إلى هـافانـا بعد عـدة أيام، ذهب أولاً إلى محـطة التليفزيـون /س. ام. كيـو/ وتكلم بهدوء حـوالي ثلاثين دقيقـة. ثم ركّز على النقـطة التاليـة قائـلاً ان «السبب وراء استقالتي هو.. الصعوبات التي أواجهها مع رئيس الجمهورية». وكانت تلك هي بداية تدمير عمدي وعن قصد لاكثر قضاة كوبا شرفاً وصراحة بعـد أن استنفد كاسترو أغراضه منه. وواصل اتهامه لاوروتيا «بالخيـانة» لأنـه تحدث ضـد الشيوعيـة بشكل معتدل. لا يمكن نسيان الأداء أبداً، لأنـه كان أكثـر أيام كـاستروتهـديداً وكـان

الكثيرون ممن رافقوه حتى الآن مذهولين بشراسة هجومه على رجل اتبع بلا تبصر كل أمنياته.

أما عن مانويل أوروتيا، الرجل الذي عانى أيضاً من أجل استقلال كوبا، فقد جبن مثل حيوان محاصر أمام هذا التصعيد غير المتوقع والشرس الذي كان ما سبقه مجرد صداقة ومحبة. وجلس الرجل الضئيل الحكم، المتواضع، صاحب الأنف الأسباني الطويل والنظارات الداكنة، مختبئاً في مكتبه في قصر الرئاسة، محملقاً في جهاز التليفزيون كأنه مصدوم حين صرخ سكرتيره المخلص في وجه كاسترو على الشاشة «أنت تكذب، أنت تكذب. . .» وعندها انخرط اوروتيا في بكاء متصل.

إذ ان تلك لم تكن مجرد مناورة سياسية يأتي فيها رجل مكان آخر غالباً دون ضغينة لأنه مجرد جزء من لعبة قوة سياسية. بل انقلاباً انفعالياً ونفسياً وكارزماتيا، يستغل خلاله المستفيد كل وسيلة وتكتيك نفسي ليس فقط للقضاء على فاعلية وشرعية وسمعة الرجل، بل أيضاً تدمير مجموعته وطبقته معه. إن كاسترو لم يعد ببساطة في حاجة إلى أوروتيا وآرائه المعتدلة، لذلك تخلص منه ومن كل واحد له مثل آرائه في وقت واحد.

وأخيراً هرب الرجل الذي اعتقد أنه رئيس، متنكراً في هيئة بائع لبن، ولجأ إلى سفارة فنزويلا حيث لجأ المئات طالبين المأوى، ولم تقدم ضده أية أدلة على الاطلاق. وفي ٢٦ يوليو، خضع كاسترو منفعلاً لرغبات جماهيره وتنازل لمطالب الشعب بالعودة كرئيس للوزراء في حين عين أوزفالدو دورتيكوس المحامي الشيوعي البالغ من العمر أربعين عاماً رئيساً للدولة. لقد قضى تحرك كاسترو الاستعراضي كلية على أي احترام كان باقياً للمعتدلين والديمقراطيين.

وجاء كريسماس ١٩٥٩ على كوبا وهي في حالة اضطراب سياسي شديد، فقد كان كاسترو مشغولاً هذا العام بالقضاء على رمز أخر امبريالي، وهو سانتاكلوز (بابانويل) الخطير، الذي اعتبره معبراً عن الرأسمالية. وحاول أن يحل محله «السيد سعادة» الذي يرتدي الزي الفلاحي التقليدي وله لحية. إلا أن الأطفال لم يحبوا هذا الدعي في عيد الميلاد.

لكن معظم الكوبيين كانوا لازالوا مسحورين بفيدل. وكانت تيتي كاسوزو واحدة من كثيرين دعوا في احتفال العام الجديد مع كاسترو في حفل عشاء ضخم في الهيلتون. ودخلت الفندق لتجد فيدل يوقع الاوتوجرافات ويتحدث للجماهير العاشقة،

وكتبت تقول: «حين جلست مع كاسترو في الساعات الأولى من عام ١٩٦٠ استمع إلى الكوبيين يهتفون بمديحه كان الأمل مازال يحدوني. لم أصدق أنها ستكون سنة حزينة كما كانت بالنسبة لكوبا، وأنه قبل أن تصل إلى نهايتها، كان الكثيرون سيضطرون إلى فصل أنفسهم عنه وعن الحلم ببناء أمة من الحرية والطيبة معاً».

الفصل التاسع عشر
برادة الحديد

«إذا كان هناك حجرتان واحدة مريحة والأخرى خطيرة، وفي الحجـرة «المريحـة» يضربـونك ويلكمـونك، وتـرى باب الحجرة الأخرى مفتوحاً فسوف تتجه إلى الحجرة الأخرى».
فيدل كاستـرو إلى الصحفي الأسباني أنـطونيو أورلاني ـ عـام ١٩٥٩

«. . . فبراير، شمس مشرقة، ويـوم دافىء! والأخضر الـزاهي للنخيل يتنـاقض مـع الأزرق الداكن للسمـاء! تجمعنـا في فضـول عند النـوافذ الصغيـرة للطائرة وهي تهبط في هافانا. وأخفى الحشد الهائل، في خلفية من البذات والوجوه، مـدرج الهبوط بين الاليوشن ١٨ التي أوقفت لتوها محركاتها، ومبنى المطار. وبيـن قوس القزح الـذي شكلته الـزهـور مكررة اللون الأخضـر في أزيـاء المقـاتين المسلحين». وقفـة دهشة. «لكن لم يكن هناك مـظاهر احتفـالات، أو بروتـوكول، أو المـظاهر المعتـادة للحدود أو للجمارك».

هكـذا وصف الصحفي الروسي البـارز سيـرجـو ميكـويـان رد الفعـل المتحيـر والمندهش للروس، وهم يهبطون بطائرتهم في هافانا في الرابع من فبراير ١٩٦٠ لتغطية الـزيارة التـاريخية لـوالـده أنـاستـاس ميكـويـان النـائب الأول لـرئيس وزراء الاتحـاد السوفييتي. كانت رحلة مثّلت الخطوة الأولى في تحول كوبا من الغرب إلى الشرق.

لقد عمل كاسترو على أن يمتلىء المطار بكل الشخصيات المشهورة في الثورة الكـوبية. ووقف هـو شخصياً، قـوياً ومصممـاً، بوجـه نابـوليوني في زي عسكـري. وبجانبه وقف الرئيس دورتيكوس، جيفارا وغيرهم. لقـد وصل الـروس دون أن يكون لديهم تصور محدد عن الغرض من الرحلة، عكس ما افترضته الولايات المتحدة. لم

يكن لدى الروس أدنى فكرة عما سيجدونه في هذه الأرض البعيدة. وخرجوا مترددين من الطائرة إلى الأصوات المختلطة للنشيدين الوطنيين الكوبي والروسي.

ظاهرياً، كان السبب وراء زيارة الروس الأولى لكوبا هو افتتاح معرض روسي هام للبضائع والآلات. ولكن على مستوى أكثر روحانية، كان اجتماعا بين الشرق السوفييتي والغرب المسيحي اللاتيني. وصارحني سيرجو ميكويان في وقت لاحق: «كان انطباعي الأول نوعاً من الرومانسية التي كانت في تلك الفترة قد ضاعت تقريباً في بلدنا». كانت «الشيوعية» لا تكاد تذكر ولا حتى «الاشتراكية» أثناء زيارة ميكويان. واستطرد الصحفي يقول: «فقط خلال الأيام التسعة التي تواجد أبي أثناءها هناك، بدأ يستوعب ما يحدث. لم تكن هناك لحظة، أو ساعة في اليوم، لقد كان الأمر تدريجياً. في وقت الثورة، لم يعرف أحد أي نوع من الرجال هو كاسترو. حتى اليكسي أدزوباي زوج ابنة خروتشوف، وكان يعمل صحفياً في الازمستيا قال في اليوم الأخير قبل رحيلنا، أنه لا يعتقد أن الأمر سيصل إلى نهاية ما. في الواقع لقد فوجىء الزعماء الروس بالنتائج الهامة لهذه الزيارة».

لكن كانت هناك لحظات عدة مضيئة. إذ بينما كان كاسترو يصطحب ميكويان (الأب) في واحدة من جولاته المرهقة داخل البلاد، ليطلعه على التعاونيات الواحدة تلو الأخرى، كان ميكويان يردد كلمات بالروسية للمترجم، وفي النهاية لاحظ كاسترو أنه لم يكن يترجم هذه الكلمات فسأل المترجم: «ماذا يقول السيد ميكويان في كل مرة يرى فيها إحدى التعاونيات؟» وكانت الإجابة: «كان يقول، لو أن لدينا هذا في روسيا لقلنا انها شيوعية».

لقد تحققت زيارة ميكويان عقب الجهود التي بذلها عميل الكي. جي. بي.، الكسندر الكسييف، الذي وصل إلى مكتب كاسترو في الدور الأعلى من المبنى الضخم لمنشأة الإصلاح الزراعي في نهاية ١٩٥٩ وقد ارتدى هذا اليوم بذلة سوداء أنيقة وربطة عنق رمادية وحمل هدايا الفودكا والكافيار الأسود، وألبوم صور لموسكو ملفوف بعناية في صحيفة تصدر في موسكو. وكتب الكسييف بمرحه المعتاد: «لقد كانوا يرتدون أزياءهم الخضراء الزيتونية المفتوحة الياقة، والحذاء العسكري العالي، وبدوت كأني ذاهب إلى حفل. شعرت بالاضطراب لحظة. لاحظ فيدل توتري وحاول تهدئتي، فألقى النكات أن الكوبيين سيبدأون في مراعاة التقاليد الرسمية والبروتوكول حين يقترب العيد الثاني والأربعين للثورة (وكانت الثورة السوفييتية توشك على الاحتفال بذكرى قيامها الثانية والأربعين)».

وجلس الرجلان، القادمان من عوامل لا يوجد أكثر منها اختلافاً، أعلى ناطحة السحاب الأمريكية الطراز حيث يوجد مقر المنشأة «على بعد تسعين ميلاً من الولايات المتحدة» وتحدثا عن أفكار التغيير الثوري الذي سيجتاح العالم.

وبعد مناقشات مطولة حول الإصلاح الزراعي والتعاونيات الجماعية والتحول إلى مزارع الدولة، أحضرت كونشيتا فرنانديز سكرتيرة كاسترو طبقين وكوبين لتجربة الكافيار والفودكا، وجلس الرجلان يأكلان ويشربان بعض الوقت. وقال كاسترو، صاحب الشهية المفتوحة: «ما أطيبها من فودكا ومن كافيار». ثم قارب بين عينيه الشبيهتين بعيني صقر وقال لأحد مساعديه «نونيزا اعتقد أنه يستحق إقامة علاقات تجارية مع الاتحاد السوفييتي. ما رأيك؟».

كانت تلك هي اللحظة التي طرح خلالها كاسترو الفكرة بصراحة. سوف يجلبان المعرض الصناعي السوفييتي الذي افتتح بالفعل في نيويورك ومكسيكو، إلى كوبا، ويريان الشعب الكوبي حقيقة الروس. وجاءت فكرة زيارة ميكويان شخصياً في وقت لاحق، كما طرح الكسييف فكرة إقامة علاقات دبلوماسية.

وخلال هذه الفترة الغامضة التي شهدت تحول كوبا من الغرب إلى الشرق، فإن أي روابط بين كاسترو وعائلته ازدادت ضعفاً. وبدأت شقيقته خوانيتا في هذه الشهور معاركها الرهيبة مع كاسترو، وسرعان ما أصبحت عدوه الأقرب إلى ميدوزا وألقي القبض على شقيقته أنجليتا بأوامر منه، واجتاحت خوانيتا، سيدة الأسرة، السجن، وصرخت في وجه مأمور السجن على التليفون: «أنا آسفة لأنك لست أمامي الآن، كنت أفرغت المسدس في بطنك».

وكانت لينا لا تزال تقيم في الأرض التي سلبتها مع آنجيل من الغابة الكثيفة، ولكنها ظلت مستاءة من ابتعاد ابنها عن المحيط الأسري. ذات يوم كان مانولين رودريجيز جار كاسترو والراعي الأمين لقصص أسرة كاسترو، في محطة بنزين، خارج كويتو، وهي بلدة صغيرة من ماركناي في الاقليم الشرقي. ويحكي رودريجيز: «جاءت سيارة جيب يستقلها حراس فيدل، كانت لينا تقف خلف المحطة واشمأزت من رؤية الحرس، وقالت لوالدي، «مانولو كيف يعاملونك؟» واستدار الأب ورفع ذراعيه في لا مبالاة وقال: «لينا، ماذا تريدين أن أقوله؟»

«عندها قالت لينا»، وتوقف رودريجيز عن الكلام في تلك اللحظة وانفجر ضاحكاً من الذكري الحية، «سوف أقول شيئاً. في أحد هذه الأيام، لا بدّ أن لينا أخصت بعض هؤلاء الأوغاد هناك في بيران».

لكن بين الجراح الأسرية العلنية لإسرة كاسترو، لا شيء يعادل زفاف إيما. كانت كل شقيقات كاسترو جميلات، يبدون في صحة جيدة، واثقات من أنفسهن ومن جاذبيتهن للرجال، لكن إيما كانت أكثرهن رقة وثقافة وكانت رومانسية. حلمت طوال حياتها بأن تتزوج في الكاتدرائية القديمة في هاڤانا. وقبل يومين من الزفاف، عقد فيدل وراؤول وسي وقائد آخر راديكالي، اجتماعاً بشأن زفاف إيما، وقرروا ألا يعقد في الكاتدرائية ولكن في أسقفية متواضعة. لم يكن هذا القرار مصادفة، بل كان يهدف إلى خدمة حملة كاسترو الجديدة، لتقسيم الكنيسة الكاثوليكية بين الأغنياء والفقراء. ولكن دماء خوانيتا ثارت للفكرة: «انه زفاف إيما لازفافكم» قائلة لاشقائها.

وفازت، أو كادت تفوز فقد عقد الزفاف في الكاتدرائية القديمة الجميلة في أجمل الميادين القديمة في هاڤانا، ولكن كاسترو وجد طريقة لإثبات وجهة نظره. فقد قضى طوال النهار في الريف يعمل مع الفلاحين ووصل إلى حفل الزفاف والطين يغطي ملابسه كلها. ولاحظت خوانيتا: «لقد حقق فيدل انتقامه الصغير، وصل متأخراً إلى الزفاف، وتجمع الناس حوله، وأحدث جلبة عظيمة بينما كانت إيما تعلن قسمها في الطرف الآخر من الكنيسة».

وحين توفيت لينا كاسترو في السادس من أغسطس ١٩٦٣، كانت قد ابتعدت تماماً عن فيدل. لكنه وراؤول هرعا مع ذلك إلى المنزل مع حرسهما حين استدعتهما خوانيتا، التي كتبت تقول: «لقد كان دخولهما مضحكاً. فالمنزل كان مليئاً بالفعل بمناهضي الثورة. . . غير الشيوعيين أو كما أسماهم فيدل، الديدان. وحين وصل راؤول بكى كالطفل في حين لم يذرف فيدل دمعة واحدة وهو في المنزل».

ولكن في الوقت الذي عمد فيه كاسترو إلى الابتعاد عن أفراد أسرته (ما عدا راؤول بالطبع) بدأ يبني أسرته الكوبية الجديدة الخاصة به. لم تعد له أسرة شخصية؛ لقد أصبح الشعب الكوبي عائلته. وعقب الثورة، ترددت شائعات قوية عن استعداده لإصدار مرسوم رسمي، بأن يطلق على كل الأطفال المولودين الآن، «أبناء الثورة» أو «أبناء فيدل». لقد بدأ الطفل غير الشرعي، في خلق شرعيته الخاصة، ولكن ليحقق هذا الهدف كان عليه أن يدمر كل الروابط والصلات والارتباطات بالماضي. وأخبرني د. مارسيلينو فيال طبيب النفس الكوبي الشهير: «الجديد فقط كان طيباً. لقد بدأوا في المدارس يعلمون الأطفال أن عليهم إطاعة الحزب وعقيدته فقط، وليس

آباءهم وبدأوا يأخذون البنات والأولاد في المدرسة الثانوية وسن ما قبل الجامعة، إلى الحقول للقيام بعمل لم يمارسوه أبداً من قبل. . .».

في الحقول بمفردهم، وبدون آبائهم، بصحبة أقرانهم وموجهيهم الأيديولوجيين فقط، كان الشبان يشعرون بسقوط المعايير الثقافية الإسبانية القديمة، والتقاليد والمحرمات، وفقد جيل كامل محرماته في حقول قصب السكر في كوبا. وأصبحت الكثيرات من الفتيات حوامل. وحلت سلطة الحكومة محل سلطة الأسرة.

وبدأ الكوبيون يلاحظون في مجتمعهم في تلك الفترة، حالات جنون جماعية ومزاج جديد معظمه منصب على الجنس، أو حالة شهوة جنسية تسود الجميع. ويحكي خوان اركوكا مترجم كاسترو ذكرياته: «سبقت هذه الحالة تشكيل الميليشيات النسائية، وحملة محو الأمية التي أبعدت طوال شهور رقابة الأم عن آلاف الفتيان. وعادت الكثيرات منهن في حالة حمل متقدمة».

لم يكن الجميع على استعداد للتخلي عن الأساليب القديمة والمعتقدات. كان دون خوان دي لوخينيو الماركيز الاسباني، هو سفير نظام فرانشيسكو فرانكو إلى هاڤانا. وكان مقيماً في مقره الأسباني القديم الجميل، وهو منزل واسع ارستقراطي له حديقة جميلة تحيط بها عدة حمامات سباحة. في كل يوم من أيام يناير ١٩٦٠، وبتكثيف متزايد، كانت حكومة كاسترو تتهم سفارته بالاتصال بالحركة المناهضة للثورة، التي أصبحت قنابلها تسمع كل ليلة في شوارع هاڤانا. ثم في مساء يوم عشرين يناير ظهر كاسترو ثانية على شاشة التليفزيون واتهم مرة أخرى كلًا من الولايات المتحدة وأسبانيا بمساعدة المناهضين للثورة.

وفجأة لم يعد السفير لوخينيو قادراً على ضبط النفس. ونهض الرجل القوي البنيان، الشجاع، ذو الشعر الأسود وحمية الاسباني الكريم واقفاً في غضب شديد. تصف سكرتيرته ماريا كاميلا الموقف: «نهض واقفاً وصاح، سوف أذهب إلى التليفزيون، لقد كان رجلًا عزوفاً عن الكلام، لكن. . . لقد تجاوزت المسألة الحد. لقد كان يتعرض لإهانة يومية». وحين وصل السفير الاسباني إلى محطة التليفزيون، كان كاسترو جالساً بين رجاله الملتحين ونساء الميليشيا، وكلهم يحيونه في حماس وهو يهاجم «المناهضين للثورة». وفي هذه اللحظة ربت مدير المحطة المذهول على كتف كاسترو وهمس في أذنه بأن دبلوماسياً غاضباً إلى حد الجنون يوشك على الظهور بل ويبدو على وشك أن يحادثه.

وقد وافق تقريباً كل المحللين المستقلين الذين شهدوا الحدث ـ الذي عرض على كل أفراد الشعب في التليفزيون ـ على أنها المرة الوحيدة التي شاهدوا فيها فيدل كاسترو خائفاً. لقد رفع نفسه عن الكرسي نصف وقفة، وهرب منه الكلام هذه المرة، حين اندفع لوخينيو إلى الغرفة مثل مجنون. وأخذ السفير في لحظة إحساس عميق بكبريائه وشرفه الاسباني يردد صائحاً: «لقد أهنت، لقد أهنت. إني أطالب بحق الرد».

عند هذه اللحظة انفجر الاستوديو، ليصبح منزلاً للجماهير. وصعد الحرس الخاص إلى المسرح، وتجمد الرئيس دورتيكوس، وأمسك كاسترو بجراب مسدسه. ما كان يجب أن يثير رد فعله الدهشة، فقد كانت إحدى المرات القليلة في حياته التي لا يكون فيها في موقع الهجوم، وهو لم يتعلم أبداً كيف يتولى الدفاع: لم يكن أسلوبه. في النهاية، تمّ إخراج السفير عنوة من الاستديو وقد أبيض وجهه من شدة الغضب وكان يمكن إساءة معاملته لولا الحماية التي أسبغها عليه العديد من رجال كاسترو.

أما عن كاسترو، فقد بقيت يداه تهتزان لوهلة، ثم تجرع بعض الكونياك الذي يحتفظ به دائماً في فنجان قهوته. وعمد باردو لالو مذيع الراديو وصديق كاسترو القديم، إلى تقديم برنامجه الإذاعي بصوت أقرب إلى نهيق الحمار في محاولة لإهانة السفير إذ يفترض أن صوت النهيق يماثل صوت السفير الاسباني.

في الصباح التالي ظهر أعضاء السلك الدبلوماسي جميعهم بشكل لافت للنظر في منزل السفير لتحيته قبل أن يطرد من كوبا. وأرسل كاسترو عصابة إلى المطار للصراخ في وجه السفير وتهديده بالاعتداءات الجسدية (وهذه العصابة هي السلف المباشر للصوص المسلحين الذين حملوا الاسم نفسه في نيكاراغوا واستخدمهم الساندينيستا).

وحين وصل لوخينيو بسلام إلى اسبانيا، أبلغه الجنرال فرانكو بابتسامة غريبة: «كإسباني كنت رائعاً جداً، كدبلوماسي كنت شديد السوء».

وبينما كاسترو يواصل سياسيته لفصم العلاقات مع «القديم»، بدأ في تعزيز روابطه مع الكتلة الشرقية عن طريق سياسة غير عادية، وغير تقليدية أقرب إلى السبل العديدة للتوسع الهيكلي في حرب العصابات في سييرا مايسترا. ومنذ أكتوبر ١٩٥٩ بدأ شي جيفارا يقوم برحلات متكررة إلى ما وراء الستاء الحديدي، ويوقع اتفاقات تجارية مع التشيكوسلوفاكيين والروس والصينيين وحتى الكوريين الشماليين. لم تكن نية كاسترو، على الأقل في تلك الفترة، هي «مصادقة» أو حتى «الدخول في

صفقات» مع الشيوعيين بقدر ما كانت جزءاً من إحساسه العميق وفكرته المستمرة حول وجوب دعم وضع كوبا في العالم إزاء الولايات المتحدة التي تمثل خطراً دائماً.

ولكن الأهم على المدى الطويل من هذه الصفقات التجارية كان لقاءات شي في إحدى رحلاته الأولى مع تمارا هايديه «تانيا» بونك بيدر، التي ولدت عام ١٩٣٧ في بوينس إيريس لأب لاجىء الماني شيوعي هارب من النازية. كانت تانيا تتمتع بجمال أخّاذ، ولا شك في أن شي وتانيا أصبحا حبيبين على الفور تقريباً وبقيا كذلك حتى وفاتهما معاً في بوليفيا سنة ١٩٦٦، ولا شك في أن تانيا كانت عميلة روسية/المانية شرقية أُرسلت لمراقبة شي الذي كان دائماً حراً أكثر مما يجب بالنسبة للروح الماركسية للشيوعيين الشرقيين المتقشفين. وعلى الرغم من أن القليل عرف عن العلاقة خارج الدوائر الداخلية الكوبية حتى مأساة المغامرة البوليفية، حين أقدم شي على الانتحار فقد بدأا يظهران معاً في هافانا من سنة ١٩٦١. ثم اختلطا اجتماعياً وسياسياً مع الزعماء المؤسّسين الأوائل لحركة الساندينيستا أمثال كارلوس فونسيكا أمادور وتوماس بورج اللذين كانا في هافانا، يتذوقان الثورة الكوبية ويتعلمان مبكراً دروسها.

ورغم أن أعضاء النظام القديم كانوا يستقلون الطائرات في مطار هافانا ويرحلون في حزن بعيداً عن جمال كوبا التي أحبوها بشدّة، فإن النظام الجديد ظلّ غير محدد. وعلى عكس الشيوعية التي تفخر بأن «الاجتماعي» و«العلمي» في المجتمع الانساني موضوعان لقوانين ثابتة، فإن منهج كاسترو (الكاستروية) كانت غير علمية إلى أبعد حد. إذ كان كاسترو يرى أن أي شيء وكل شيء ممكن من خلال ممارسة الإرادة الإنسانية، ومن خلال قوته الشخصية. وكانت قدرته على التحايل اللانهائي، غالباً وقت الحاجة أبعد ما تكون عن الوسائل الشيوعية التقشفية والرتيبة، للتخطيط المركزي و«العمل» عن طريق المستويات البيروقراطية المتتالية في المجتمع الماركسي.

وفي أحد الأيام حين بدأ الاصلاح الزراعي، خرج كاسترو مع بعض رجال الاقتصاد إلى إقليم /بينار ديل ريو/ للبدء في توزيع الأراضي على العمال الزراعيين. ويسرد جيراردو كانيه أحد أهم رجال الاقتصاد المعتدلين الأوائل ما حدث: «كان المفترض أن نصل إلى المنطقة في الثامنة صباحاً، وآنتظرنا مئات الأشخاص، لكن كاسترو لم يصل حتى السادسة بعد الظهر تقريباً، وبدأ يتكلم، وآستمر خطابه ثماني ساعات.».

«تكلم فيدل وتكلم، وأخيراً قلت له، هؤلاء الناس ظلّوا هنا منذ الصباح الباكر وهم في غاية الإرهاق، حينئذ قال فيدل، استيقظوا»، و «نعم دعونا نكون عمليين». وبدأ يتحدث عمّا يجب عمله بالأرض. كان فيدل يريد نجاح التجربة الصناعية في كوبا، وكان ضد صناعة السكر».

عند هذه النقطة، وهو واقف في زيّه العسكري يحدث الفلاحين عن كل الأشياء الملموسة التي سيفعلها من أجلهم، تيقن كاسترو فجأة أنه لا يملك إجابات. وفي لحظة حيرة غير عادية، توقف وتحوّل إلى الاقتصاديين بجواره الذين لم يستمع إليهم قط، وسأل فجأة: «ما الذي يجب أن أقوله لهؤلاء المزارعين ليفعلوه بأرضهم»؛ ولكن رجال الاقتصاد اكتفوا بالهمس اليائس فيما بينهم. وفجأة تحوّل كاسترو ثانية إلى المزارعين المنتظرين في ترقّب وقال: «سوف نزرع النخيل الإفريقي، ونستخرج الزيت، أو سنزرع السوداني والذرة البيضاء». والتفت للحظة ثم واجه المزارعين مرة أخرى مزهواً وهو يقول: «الآن سوف نبدأ مشروعاً كبيراً لزراعة الخضار لإنتاج الزيت مثل النخيل الإفريقي».

لكن هؤلاء المزارعين الكوبيين كانوا قاطعي قصب السكر ولم يكونوا فقط معتادين على ذلك، بل وفخورين به. ولضيق كاسترو الواضح بدأوا يصيحون: «لا، لا، نريد قصب السكر». وأخيراً قال كاسترو أنه سوف يعيّن لجنة للعمل معهم، لكنه أضاف بثقة كبيرة أنه لن يكون هناك قصب سكر.

أثناء هذه الفترة، أبرم شي اتفاقات اقتصادية عديدة مع السوفييت، وكان من المقرر أن تستورد موسكو مليون طن من السكر الكوبي لمدة خمس سنوات، وتدفع ثمن عشرين في المائة منه بالدولار والباقي تقدم مقابله بضائع سوفييتية. لكن حتى هؤلاء الذين درسوا الحالة المأساوية عن قرب وكانوا واعين لمحاولة كوبا التقرّب من الاتحاد السوفييتي، كانوا حائرين لسرعة تدهور العلاقات بين الولايات المتحدة وكوبا. لقد أرسلت واشنطن أخيراً سفيراً إلى هافانا يستطيع كاسترو العمل معه بسهولة، لكنه وصل متأخراً جداً. فقد كان كاسترو يستجيب، لا لحقيقة اللحظة، ولكن لأصوات أخرى، خافتة تأتي من هوة بعيدة وكان هو الوحيد الذي يستشعر خطرها.

كان فيليب بونسال السفير الأمريكي الجديد لدى كوبا رجلاً ذكياً وحساساً وبدا أن لقاءه الأول مع الزعيم الكوبي الشاب في مارس ١٩٥٩ يسير على ما يرام. ويتذكر

بونسال أن «كاسترو خرج عن أسلوبه المألوف وأعرب عن رغبة شديدة في تكرار اللقاء معي. وفي اليوم التالي تحدّث بتأييد على شاشة التليفزيون عن لقائنا». . كما سعد بونسال أن «كاسترو خرج عن أسلوبه المألوف وأعرب عن رغبة شديدة في تكرار اللقاء ومينيابوليس ميلرز، كان كاسترو في المدرجات مختلطاً بالشعب حين وصل بونسال، الذي يقول: «وقف الجمهور وحيّاني فترة طويلة. وقد تأثرت بشدة بهذا الترحيب لبلادي». ما كان يجب أن يتأثر إلى هذا الحد، فإن كاسترو غضب لأن سفيراً أمريكيًا ما زال يتمتع بمثل هذه الجاذبية عند شعب كوبا «الثوري». وفي وقت لا حق، حين سئل عن رأيه في الترحيب بالسفير الكوبي. أجاب بدون ابتسامة، «مفرط، مفرط».

الحقيقة أنه حين تطلّع كاسترو إلى العالم من وراء هذه اللحية الكبيرة والعينين الكبيرتين، رأى في كل مكان إحساساً خفياً بالتهديد من الوجود المتزايد للأمريكيين. ذات يوم كان يتغذى مع فيليب بازوس وجورج بيروف في البنك المركزي، حين أثيرت مسألة الأملاك الأمريكية في كوبا. وفجأة التفت كاسترو إلى بازوس وسأله: «آنظر يا فيليب هل تستطيع أن تخبرني بمقدار الاستثمار الأمريكي المباشر في العالم؟».

قال بازوس أنه يعتقد أن الرقم هو «حوالي ثلاثين مليار دولار».

ثم سأله كاسترو: «وكم يبلغ الاستثمار الأمريكي في كوبا».
فأجاب بازوس: «نحو مليار دولار».

وتفجرت على وجه كاسترو المتقلب المشاعر ابتسامة صبيانية كبيرة، وهو يقول: «أنظروا أيها السادة، قولوا للأمريكيين ألا يكونوا سخفاء هكذا! إذا كان لديهم ثلاثون مليار دولار في العالم، مقابل مليار واحد في كوبا فلا يجب عليهم أن يقلقوا إلى هذا الحد، قولوا لهم أن يعطونا المليار!». وقرر كاسترو قبولها.

وصرَّح السفير بونسال فيما بعد: «الحقيقة أنه. . . حتى مارس ١٩٦٠، على عكس الاعتقاد الشعبي، كانت سياسة الولايات المتحدة حيال كوبا في ظل كاسترو تقوم على أساس الالتزام التام بمعاهدة الالتزامات التي تحرّم تدخّل دولة أمريكية في الشؤون الداخلية لدولة أخرى». ولكن الحقيقة أيضاً أنه في مارس ١٩٦٠، تغيرت هذه السياسة. في هذا الشهر وقع الرئيس دوايت أيزنهاور، الذي لم يستطع أبداً فهم فيدل كاسترو ولم يستطع كاسترو فهمه، على أمر يصرح بتدريب القوات المناهضة للثورة الكوبية في الولايات المتحدة. وبهذا التوقيع بدأت أحداث خليج الخنازير.

كل ما احتاجه الأمر الآن لتجميد العلاقات بين البلدين تماماً هـو، عذر، وكـان لدى كاسترو أعذار كثيرة، لكنه اختـار البترول. كـانت كوبـا مدينـة لشركـات البترول الأمريكية والأوروبية ـ أسو، تكساكو وشـل ـ أكثر قليـلاً من خمسين مليون دولار هي قيمة الديـون المتراكمـة مقابـل البترول الخـام الذي كـانوا يستـوردونه. وحين طلبت الحكومة الكوبية أن تقبل شركات البترول مبـالغ أقـل (حوالي نصف مـا كان يحصـل عليه الموردون الآخرون) مقابل البترول الخام الذي تلقته في النصف الثاني من عـام ١٩٦٠، احتجّت الشـركات البتـرولية لكن وافقت. وفي البـداية سـايـرت الحكـومـة الأمريكية الصفقة، ثم فجأة حثّت وزارة الخزانة شركات البتـرول على عدم الـرضوخ للطلبات الكوبية، ولم ترضخ. وفي ٢٩ يناير، سيطرت الحكومة الكوبية «مؤقتاً» على إدارة المصافي الثـلاث. وأعطى هذا الروس البداية التي يريدوها. وعلى الفور تقريباً، بدأ الفنيون الروس والبترول الخام الروسي، في الوصول إلى كوبا.

وأوضح نيكيتا خروتشوف الأمر في وقت لاحق: «كانت الحياة على الجزيرة في خـطر التوقّف التـام. وكان أمـراً ملحاً أن ننظّـم توصيـل البترول إلى كـوبـا بكميـات ضخمة».

تلك كانت نقطة اللاعودة، وخلال شهور تمّ تـأميم كافـة الممتلكات الأمـريكية من مصـانع السكـر إلى مصافي البتـرول إلى منشآت الشـركات. وقـدم الأمـريكيـون طلبـات تعويض بلغ مجمـوعها ٣ مليـارات و ٣٤٦ مليـون و ٤٠٦ ألف و ٢٧١ دولاراً و ٣٦ سنتاً، ضد الحكـومة الكـوبية. وهـو مبلغ يزيـد على صادرات كـل الحكومـات الشيوعية مجتمعة، في التاريخ كله.

وبـدأت الأمور تتصـاعد، وفي السـادس من يوليـو أعلن أيزنهـاور أن الولايـات المتحدة لن تستورد البـاقي من حصتها لعـام ١٩٦٠ من السكر الكـوبي، ولن تشتري المزيد من السكر الكوبي حتى إشعار آخر. وأطلق كاسترو على هـذا القرار: «قـانون الخنجر». أو في الحقيقة، الخنجر في ظهر الثورة. وفي خطاب غـاضب، تكهن بأن خسارة النصيب الأمريكي من السكر: «سوف يكلف الأمريكيين في كوبا حتى أطراف أصابعهم». واستشعر السفيـر بونسـال الضغينة في كلمـات كاسـترو. وتوقّـع: «هدف كاسترو هو القضاء على الوجود الأمريكي في كوبا».

كان كاسترو يغيّر دور كوبا من «ملعب» أمريكي إلى دولة ذات أهميـة عالميـة، لـذلك ففي تحـرّكه السـريع للتخلص من المصـالـح الأمـريكيـة في الجـزيـرة، دعـا الشخصيـات العالميـة لزيـارة كوبـا. في هذا الـربيع زار بـابلو نيرودا الشـاعر الشيلي

العظيم والستاليني الفكر، كوبا وكتب إشادة بالثورة في صورة قصيدة غنائية رومانسية (ويشير باردو لادا الدقيق الملاحظة إلى أن نيرودا طلب من كاسترو «نقوداً للتسوق» لزوجته، وأن كاسترو أعطاه عشرين ألف دولار). كما زار كوبا الرئيس الأندونيسي المرح سوكارنو، وشيدي جاجان رئيس وزراء جيانا الماركسي. وبطرق أخرى أيضاً بدأت كوبا تلعب دوراً جديداً وهاماً على المسرح العالمي. وكتب شي في إبريل ١٩٦٠ في مجلة /فيردي أوليفو/ العسكرية الكوبية يقول: «أحياناً كنا نعتقد أنه من التفاخر أن نشير إلى كوبا كأنها مركز الكون. ومع ذلك فإنها حقيقة أو أقرب إلى الحقيقة. فإذا كان شخص ما يشك في أهمية الثورة فعليه أن يقرأ الصحف «الولايات المتحدة تهدد بولندا بسبب الحلف مع كوبا»، نحن أقوياء وخطرون... اوه... انه أمر عظيم ومريح أن تنتمي إلى مثل هذه القوة العالمية الخطرة مثل كوبا». ولأول مرة لم يكن ساخراً.

والآن ازداد الإيقاع سرعة في عملية إعادة تنظيم الهيكل العام للبلاد. وفي شتاء ١٩٦٠، تشكلت هيئة تخطيط مركزي لتعزيز القوة الاقتصادية كما هو الحال في الدول الشرقية. وبدأت تظهر ميليشيات مدنية جديدة من الطلاب والعمال والفلاحين في كل مكان. وتأسّست هيئة للدعاية الثورية وبدأت تشير إلى كوبا باعتبارها /أول أرضٍ حرية في أمريكا//. وفي خطاب كاسترو المؤثّر يوم عيد العمال استمع الكوبيون والعالم لأول مرة إلى تعبير أصبح شهيراً فيما بعد، وهو //كوبا، نعم، يانكي لا//. وأخيراً بدأ الاتحاد السوفييتي في تدريب وتجهيز القوات المسلحة الكوبية.

وفي صيف ١٩٦٠ اعترف خروتشوف نفسه بوجود صلة سوفييتية مع كوبا. وفي التاسع من يوليو بعد ثلاثة أيام من اعلان أيزنهاور بصدد حصة السكر أعلن خروتشوف الكلمات المذهلة: «الاتحاد السوفيتي يرفع صوته ويمد يد المساعدة إلى شعب كوبا... وفي تعبير مجازي، يمكن، في ساعة الضرورة، أن يساند رجال المدفعية السوفييت الشعب الكوبي بنيران الصواريخ».

ومن الغريب أن كاسترو لم يكن سعيداً البتة بهذا الحديث الطنان بالنيابة عنه. وفي الحقيقة لقد استشاط غضباً على الصعيدين الشخصي والسياسي بسببه. فقد رأى فيه محاولة أخرى لإهانة وتهديد استقلال بلاده. لذلك أخرج من جعبته «خدعة» نفسية أخرى.

كان من المقرر أن تخرج مظاهرة ضخمة في العاشر من يوليو، لكن كاسترو لم

يحضر ـ لمرضه ـ وانصرف المتظاهرون عن الرئيس دورتيكوس الأقل إثارة للاهتمام وكان كاسترو يشاهد الحدث على شاشة التليفزيون واستشعر تراجع التزام الجماهير بالثورة، لذلك نظم على الفور ليظهر على شاشة التليفزيون بعيداً عن «فراش مرضه». وأشار خطابه الدرامي إشارة عابرة إلى موضوع الصواريخ البسيط. وأكّد بمهارة على مدى روعة التصرف «التلقائي» من خروتشوف ليوحي للشعب الكوبي بأن الروس، أقل الشعوب تلقائية، كانوا ببساطة عاجزين عن تمالك أنفسهم في قلقهم على كوبا! وبهذا نأى بنفسه عن أي علاقات مباشرة معهم فيما يتعلق بالقوة داخل كوبا.

كما أقدم على تصرف مهّد الطريق أمام أزمة الصواريخ التي ثارت بعدها بعامين تقريباً: إذ أنه منذ هذه اللحظة، تعامل مع خطاب الصاروخ باعتباره التزاماً من جانب الروس بالدفاع عن الثورة الكوبية من أي هجوم مسلح تشنّه الولايات المتحدة.

في ١٨ أكتوبر تمّ «استدعاء» السفير بونسال وعائلته إلى واشنطن. وبينما هم يبحرون بعيداً على الباخرة نيو أورليانز حاملين كل ممتلكاتهم حتى كلبهم الأليف علموا أنهم لن يعودوا ولم يعودوا. في ١٩ أكتوبر حظر الرئيس أيزنهاور تصدير كل السلع الغذائية التي لا تكون على شكل إعانات إلى كوبا والأدوية والإمدادات الطبية ـ لقد بدأت «المقاطعة» فعلياً. كانت الدولتان الصديقتان تتجهان نحو التحوّل إلى دولتين عدوتين. كانت العلاقات الدبلوماسية لا تزال قائمة بين واشنطن وهافانا ـ ولكن بالكاد. وليس لمدة طويلة.

كان الأمر أبسط بكثير مما بدا بمرور الوقت. إذ أنه بينما كان الأمريكيون بإصرارهم على وجود حكومة دستورية شرعية وديمقراطية لا يمنحون كاسترو شيئاً على الإطلاق مما يريده فعلاً، كان الشيوعيون يهبونه كل ما أراده بالضبط. منذ البداية، أوضح الروس الأمر لكاسترو، أنهم لن يفرضوا قواعد «سياسية» على كوبا إلى حد أنهم تجاوزوا حزبهم الشيوعي الكوبي نفسه واعترفوا مبكراً بأنه في كوبا لا توجد شيوعية ولكن «ثورة كاسترو». وفي يوليو ١٩٦٠، قام المبتسم ألكسندر الكسييف أول صديق روسي لكاسترو بتسليم فيدل رسالة مباشرة من خروتشوف تقول بعبارات واضحة أن «الحكومة السوفييتية ترغب في التعبير لك أنها لا تعتبر أي حزب وسيطاً بينها وبينك. الرفيق خروتشوف. . . يعتبرك الزعيم الأصلي للثورة».

اعتقد الشعب أن كاسترو دفع كوبا للانحياز إلى الكتلة السوفييتية لأنه انجذب

إليها. بالعكس، ففي واقع الأمر، علم كاسترو أن الكتلة الشرقية ستكون غير جذابة على الإطلاق بالنسبة للكوبيين ـ خاصة على الصعيد الثقافي. (حيث كان الأمريكيون يتفوقون بشدة ويجتذبون الكوبيين إلى حد خطير) لذلك فإن انحياز كوبا لموسكو كانت تجعله في أمان نفسي. كان الأمر أشبه بالزواج من امرأة قبيحة فهو يبعد شقيقك عن ملاحقتها. إلا أنه كانت هناك نقاط تشابه نفسية وسياسية بين رؤية فيدل لكوبا وتصور حكومة السوفييت. فقد كان كل من كاسترو والشيوعيين الروس مناهضين للرأسمالية وكلاهما قدم //ديانة سياسية// يتم خلالها تجميع الشعب المترقب والمجروح معاً عن طريق «موقف إيديولوجي تطرحه حكومة تقرن الفرد بالدولة». و كان الأمر عودة ارتدادية إلى علاقات سياسية وأزمان أكثر بدائية، وقد كان هذا هو الواقع فليكن إذن.

وأخيراً أعطى التحالف مع السوفييت الإمكانية لكاسترو ليصل إلى التاريخ باعتباره مخلوقاً سياسياً جديداً ـ الحاكم الاشتراكي المطلق ـ كما أسماه المؤرخ الكوبي لويس أجويلار. كان الحكام المطلقون الأسبان القدماء زعماء أقوياء حكموا بدون تدخل بموجب سلطتهم الشخصية. ولكن في القرن العشرين ولأن المجتمعات بدأت تنضج لم يعد هذا بالأمر الكافي. كان الرجل القوي الجديد في حاجة إلى إيديولوجية، وبرنامج وتبرير للسلطة. كانت الاشتراكية الماركسية تزوّد «الحاكم» الجديد بإمكانية تملك زمام ديكتاتورية أكثر شمولاً من الحكام السابقين، وبقوة لم تكن متصورة على الصعيد العالمي وكلها تعضدها إيديولوجية مقبولة من العالم الحديث.

أما عن الروس أنفسهم، فقد جاءوا إلى كاسترو وجاء كاسترو إليهم في وقت ملائم جداً، فقد كان الاتحاد السوفييتي في أعقاب فترة ما بعد الحرب، ونهاية الستالينية نجح في عقد الخمسينات في الحصول على القدرة والإرادة لرعاية ثورة على بعد ثمانية آلاف ميل من حدوده. الآن فقط يستطيعون حمل هذا الثقل الجديد واللذيذ.

في أحد أيام خريف ١٩٦٠ كان كاسترو يتجول بالمدينة حين توقف للحديث مع صبي ماسح أحذية أسود كان معروفاً بأنه ينشر الشائعات في هافانا كلها.

وفجأة سأل كاسترو الصبي، وابتسامة خفيفة تتلاعب على شفتيه: «ما رأيك في أن أذهب إلى نيويورك وأتحدث إلى الأمم المتحدة؟».

ومن المفترض أن الصبي قال والحماس يملؤه إزاء هذا التطور الجديد، «هيا إذهب هناك واعلن الأمر على هؤلاء اليانكي الملاعين».

وهكذا تقررت رحلة أخرى إلى الولايات المتحدة. في هذه المرة كان أمام كاسترو هدف أكثر تحديداً، وفي ساعات الصباح الأولى قبل التوجّه إلى نيويورك، التقى وسانتياجو كاريللو الزعيم الشيوعي الإسباني العظيم. أخبرني كاريللو: «بدأ حديثنا في الثانية صباحاً وانتهى في التاسعة. لقد أعطاني انطباعاً عظيماً عن إخلاصه، وقيمته الشخصية ورؤياه لمستقبل كوبا». وتوقف كاريللو مبتسماً لهذه الذكرى. ثم استطرد قائلاً: «ظل يردد ما سيقوله، كان يرغب في أن يترك لدى الأمم المتحدة انطباعاً برغبته في ضمان استقلال كوبا أمام أي محاولة أمريكية ضدها، كان يرغب في أن يشرح أسباب الثورة الكوبية وضرورات التغييرات الجذرية في كافة أنحاء أمريكا اللاتينية».

ومرة أخرى، كما في ابريل ١٩٥٩، اجتاز كاسترو هذه الأميال التسعين الأسطورية والغامضة. وفي هذه المرة، التفت أثناء إقلاع الطائرة، إلى راميرو فالديز رئيس جهازه الأمني وسأله عما إذا كان هناك «طائرة حراسة» معه.

وحين أجاب فالديز وهو في حال عصبية وإحراج لسهوه //لا// هزّ كاسترو رأسه.

وقال «نحن في خطر، لو كنت أدير المخابرات الأمريكية، لأسقطت الطائرة في البحر وقلت انها حادثة» وساد صمت رهيب على الطائرة. غمغم كاسترو «يا لها من غلطة». وعلم كل واحد كيف يثبِّت الأخطاء بعظمة.

ثم، كأنها سلسلة، بدأ هدير هائل وبينما الكوبيون يتطلعون من النوافذ الصغيرة رأوا سرباً كاملاً من الطائرات الأمريكية تأتي إليهم. لكنها كانت طائرات للحراسة الشرفية. لقد قادت المخابرات ووزارة الدفاع الوفد الكوبي إلى «عملاق الشمال» وإلى //أعظم استعراض على وجه الأرض// قدمه فيدل كاسترو في الأمم المتحدة!.

ارتفع في بهو فندق شلبورن في شارعي ليكسينجتون والشارع السابع والثلاثين حيث كان فيدل يحتج على طلب الإدارة غير المقبول للدفع نقداً لحجز الغرف (١٠ آلاف دولار، كما ادّعى كاسترو). وفي غضب إزاء هذه المادية، غادر كاسترو ورجاله في زيهم القتالي التقليدي، الفندق بشكل مسرحي، يتبعهم مئات الصحفيين وبوليس

نيـويورك اليـائس من حمايـة هؤلاء المنطلقين واستقلوا السيـارات وتوجهـوا إلى الأمم المتحدة. وهناك أبلغ كاسترو السكرتير العام داج همرشولد بأن الثوريين سيقيمون إما في مقر الأمم المتحدة أو في السنترال بارك وهـو أمـر طبيعي «لأننـا رجال جبـال. . . اعتدنا النوم في الهواء الـطلق» وبدلاً من ذلـك انطلق مـوكب فيدل في مـوكب رمزي إلى فندق بسيط هـو /تيريزا/ في حي هـارلم حيث نجح كـاسترو بـاستمتاع بـالغ في اجتذاب أنظار العالم.

لقد كان سيناريو «مسرحية» كاسترو زائفاً عن عمد. فالحقيقة أن فندق شيلبورن أجّر حجراته للكوبيين بسعر رخيص هو عشرون دولاراً يومياً بناء على طلبـات متكررة من وزارة الخارجية. وحتى بعد رحيل الكوبيين المسرحي عرض عليهم إقامة مجانيـة في فنـدق كومـودور المحترم بـالقرب من مبـاني الأمم المتحدة. وفي الـواقع أن تيتي كاسوزو ذهلت وارتبكت حين اكتشفت أنها تدفع في فندق تيـريزا أكثـر مما تـدفع في وسط المدينة. وقـالـت: «لقد كـان يعتزم منـذ البدايـة أن يشكو من أنـه دفع أكثـر مما يجب في الفندق الأول. وأن يزرع نفسه وحاشيته بحقائبهم في مبـاني الأمم المتحدة وبالتالي تقديم مشهد حول عدم وجود مكان لإقامتهم. ثم الانتقال إلى هـارلم ليعطي الانـطباع أنـه فقط وسط سكان أمـريكا المتـواضعين والبسطاء وسط الزنوج يستطيع الكوبيون البسطاء، المتواضعون وقائدهم أن يجدوا مأوى».

في تلك الأيام نفسها كانت السفينة /بالتيكا/ تبحر بثبات في البحر العالي حين انزلق على سطحها أهم ركابها، وكان يمكن أن يسقط في المياه المظلمـة المتلاطمـة لـو لـم يمـسك به الـدبلوماسي السـوفييتي أركادي شيفشينكـو. وقال نيكيتـا خروتشـوف مازحاً: «نحن الآن لا نبعـد كثيراً عن كـوبا، وسـوف يستقبلونني على الأرجح أفضـل مما سيفعل الأمريكيون في نيويورك».

ثم، في جدية أكثر استغرق في تفكيـر عميق وهـو واقف مـع شيفشينكـو على سطح السفينة، «أتمنى أن تصبح كوبا منارة للاشتراكية في أمريكـا اللاتينيـة. كاستـرو يحمل هذا الأمل والأمريكيون يساعدوننا». ثم لطم شفتيه وبصوته العميق القريب من صـوت الفلاح قـال كلماتـه التنبؤية وهـو يقهقه ضـاحكاً: «كـاسترو سـوف يضطر إلى الانجذاب إلينا مثل برادة حديد يجذبها المغناطيس».

وأخبر فالنتين زورين المسؤول السوفييتي مجموعـة من أعضاء البعثة السوفييتية في بـارك أفينيو أن ««نيكيتـا سيـرجيبفيتش يعلق أهميـة خاصـة على اللقـاء مـع فيـدل

كاسترو». وأعد المسرح لمسرحية جديدة وارتدى الزعيمان الكوبي والسوفييتي، وكلاهما ممثل عظيم، ثيابهما ومشطا شعرهما واستعدا لدوريهما.

وعلى عكس نصيحة كل عملاء الأمن، السوفييت والأمريكيين، أصرّ نيكيتا خروتشوف على الذهاب شخصياً إلى هارلم لمقابلة فيدل كاسترو لأول مرة. وانتظر كاسترو، في زيّه العسكري الأخضر، خروتشوف في مدخل فندق تيريزا وهناك في ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠ التقى العالمان وتصادقا. لم يتصافحا بالأيدي بالأسلوب الأمريكي والانجلوسكسوني الباهت غير اللطيف بل تبادلا العناق الطويل الحار. ووصف خروتشوف نفسه اللحظة التاريخية قائلاً: «لقد مال نحوي واحتواني بكل جسده» واستغرق لقاؤهما في الفندق نحو عشرين دقيقة، لكن خروتشوف (الذي استغل بدهاء صدى هذا اللقاء في الصحافة الأمريكية) أوضح أنه هذا هو كل ما يحتاجه إقامة محور جديد بين البلدين. ويتذكر شيفشينكو: «حين عاد خروتشوف من هارلم كان سعيداً للغاية بطريقة تطور الأمور، وأخبرنا أنه وجد أن كاسترو يرغب في صداقة حميمة مع الاتحاد السوفييتي وطلب مساعدة عسكرية. والأهم، «أنه تكوّن لديه انطباع أن كاسترو سيكون شيوعياً جيداً» لكنه أضاف أنه يجب التزام الحذر لأن «كاسترو مثل جواد صغير لم يتم ترويضه». وكتبت صحيفة نيويورك تايمز تقول إنه أهم حدث في شارع ١٢٥، منذ جنازة هاندي».

وفي بعد ظهر اليوم نفسه، تطورت الأحداث حين قام الصديق الجديد نيكيتا خروتشوف في زيّه التقليدي الروسي، بالتجوّل مثل دبابة بشرية في أنحاء الجمعية العامة ليحتضن كاسترو. وصاح باردو لادا: «سوف نتصدر الصفحات الأولى في صحف العالم». وهو ما حدث فعلاً. الواقع أنه وكارلوس فرانكي، ظهرا في واحدة من تلك الصور الشهيرة التي ظلّت تنكمش وتنكمش في الصحف الكوبية حتى اختفت حتى صورة خروتشوف لتبقى صورة كاسترو بمفرده.

واستمر خطاب كاسترو أمام الأمم المتحدة طويلاً. وحين امتد إلى الساعة الرابعة، كان معجبوه أنفسهم قد بدأوا يخفّون. وكان من الأفضل للمستمعين أن يظلوا يقظين فذلك لم يكن مجرد خطاب ثوري آخر. فمن خلاله لو فهم المراقبون شخصيته المتميزة وانفعالاته بشكل أفضل، لاستمعوا إليه بعناية وهو يمهد طريق المستقبل أمام كوبا. لقد عمد إلى ربط كوبا بالدول المقهورة التي تخلصت حديثاً من استعمارها، في كافة أنحاء العالم، ووصف جون كينيدي، الذي أصبح بعدها رئيساً، باعتباره «مليونيراً جاهلاً وأمياً» وحقر من شأن الأدميرال الأمريكي أرلي بيرك

لأنه قال ان الزعيم الروسي خروتشوف «لن يطلق صواريخه» لأنه «يعلم أنها ستدمر إذا أطلقها». والآن في صوت جهوري، استمتع كاسترو بـأن يصيح وهـو يضرب بقبضته على المنصة: «انها فعلاً حسابات خطيرة، لأن هذا الرجل يعترف بالفعل بأنه في حالة شن هجوم علينا سوف نكون بمفردنا تماماً. . . لكن لنفرض أن مستر بيرك كان مخطئاً رغم كونه أدميرالاً؟».

في نفس الوقت في فندق تيريزا كانت سيليا التي نحفت إلى حد مخيف تحاول الاهتمام بمهمتها الثقيلة باهتمامها المعتاد الملح، فتعد طعامه، «وتحميه» من النساء الملهوفات المتواجدات في كل مكان وتحسب النقود. وقد أخبرني باردو لادا أنه «كانت هناك حقائب وصناديق كرتون مليئة بالدولارات. كانوا يريدون الدفع لمحطة /ان. بي. سي. / لتذهب إلى كوبا وقد شاهدت كاسترو شخصياً يمنح عشرين ألف دولار للمصور الفرنسي الشهير كارتييه بيسون الذي كان يلتقط الصور لرحلة كاسترو و ٢٥ ألف دولار لمالكولم أكس». في ذات الوقت، كان المحاربون الأشداء يطهون وجباتهم المفضلة في كل طابق بالفندق، وسوف يظلون في ذاكرة نيويورك باعتبارهم «الأشخاص الذين نتفوا ريش الدجاج في فنادق المدينة». ومن المرجح جداً أن «نتف ريش الدجاج» لم يكن مرتبطاً بوجباتهم. فعلى الأقل بعض هؤلاء المقاتلين كانوا يطبقون تعاليم سانتيريا وهو شيء لم يفكر فيه أحد في الفندق.

وبين مجموعة عدم الانحياز في العالم الثالث التي كان كاسترو مصرّاً على اجتذابها إلتقى نهرو رئيس وزراء الهند والرئيس الغابي كوامي نكروما ورفض المارشال تيتو رئيس يوغوسلافيا رؤية كاسترو لأنه لم يحب الكوبي على الإطلاق. ورآه الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر لكنه خرج باحساس دائم بعدم الإعجاب وهو شيء آخر لم يفكر فيه العالم.

يحكي مصطفى أمين الصحفي المصري الشهير «ذهبت مع عبد الناصر لرؤية كاسترو في فندق تيريزيا، وبينما نحن نصعد بالمصعد كانت هناك روائح رهيبة، رهيبة، كان الزنوج يطهون في كل طابق. أحسّ عبد الناصر بنفور. وفوق ذلك كان قد جلب إلى كاسترو طقم شاي مصري من الفضة. طقم جميل! ولكن حين فتح كاسترو الهدية نظر إليها وقال: «. . . لقد خاب أملي، اعتقدت أنك ستحضر لي تمساحاً، وأحسّ عبد الناصر بإهانة حقيقية. وقال: تماسيح! ليس لدينا تماسيح في مصر - فقط في حديقة الحيوان! وظل يردد ذلك في الأيام التالية. وكنت أسمعه

يغمغم تماسيح، تماسيح! ومنذ هذه اللحظة اعتقد أن كاسترو مجنون لأنه كان يتحدث عن وجود تماسيح لدينا في مصر».

وعلى الرغم من بعض المقاومين «لسحر» كاسترو فقد كان هناك عدد كاف استسلم ويتذكر سونيل كومار روي سفير الهند السابق لدى كوبا: «كان يتجول في شوارع نيويورك مثل عملاق في زيّه الحربي».

وفور عودة كاسترو إلى كوبا في خريف ١٩٦٠، أعلن عن إنشاء لجان الدفاع عن الثورة، للقيام بحملة «توعية جماعية» كانت لحظة مؤثرة، وتنبؤية. لقد أصبحت هذه اللجان شهيرة في كوبا، بعد أن تطورت إلى تنظيمات تجسّس في الأحياء، الآن لم يعد أحد يستطيع الذهاب والمجيء دون أن يلحظه أحد ولم يعد أحد يستطيع أن يترك سيارة غريبة في المنطقة دون أن يتعرض للمساءلة ولم تعد حياة المرء من شؤونه الخاصة. وهذا أثار إستياء كوبيين عديدين، إذ لم يكن هناك ما يحط من قدر الشخص في كوبا أكثر من أن يكون واشياً. والآن قام الرجل الذي قتل واشياً في السييرا دون لحظة تردد بتحويل الشعب الكوبي كله إلى وشاة.

واستمرت القوىٰ المعتدلة ترحل عن كوبا الواحدة تلو الأخرى. فرغم أنهم أعطوا بصبر أيام عملهم وساعات حياتهم لكوبا، كان كاسترو وحده يخلق حول جهودهم كوبا أخرى مختلفة تماماً، بالنسبة لهم كانت كوبا أخرى غريبة. وحين غادروا بلدهم إلى شواطىء غريبة، كان الكثيرون منهم قد أصبحوا أفراداً مكسورين مهزومين: بلد أتباع ولا أحد يأسف عليهم. كلهم تيقنوا عندها، بألم شديد، أنه في مكان ما على طول الطريق فقدوا بلدهم، كوبا. رحل لويس كونتي أجويرو المذيع الشهير بالإذاعة، وغادر خوسيه باردو لادا الصوت المدوي وراء كوبا التي خلقها فيدل كاسترو، ورحل ميجويل كويفيدو رئيس تحرير بوهيميا الذائع الصيت والمحبوب. لكن إنشقاق تيتي كاسوزو كان الأكثر دلالة على التأثير الغريب والقسري بل وحتى المأساوي الذي مارسه كاسترو على أكثر الأشخاص استقلالاً وعناداً بين أفراد شعبه.

وفي الوقت الذي راقبت فيه تيتي كاسترو في الأمم المتحدة في خريف عام ١٩٦٠ بدأت الشكوك المقلقة تزداد بصدد الرجل الذي عبدته طويلاً. وفي ظل حاجتها الملحة لرؤيته قبل أن ترحل - قبل أن تعتزم تماماً الإنشقاق عليه - سابقته في أنحاء نيويورك مثل مخلوق منقاد، مثل امرأة مجنونة في محاولة للعثور عليه في فندق تيريزا أو التوصل عليه عن طريق سيليا تحاول أن تسرق لحظة أخرى معه، لكنها لم تنجح أبداً. وفي النهاية وقفت على أرض المطار في الجو الصقيعي ترقبه وهو

يـرحل، إلى الأبـد، بعيداً عنهـا، بعيداً عن أيـام مكسيكو وبعيـداً عن كل آمـالها. وكـان التهاب عصب السـاعد والفخذ هو مرآة ليأسها الداخلي. وكتبت تيتي تقول في وقت لاحق: «على مدى إثني عشر يـوماً كنت بـالكاد أستـطيع أن أغـادر الفراش، انخفض ضغـطي إلى حد أني اضـطررت للعيش على الادرينالين... وبصعـوبة مؤلمـة كنت خلال الأيام الثـلاثة التـالية أغـادر الفراش حين أتمكن وأكتب خـطابي الطويـل لوداع كاسترو... لقد علمت بتجربتي الشخصية ما هـو التزمت، وكيف يحـطم كل رابـطة إنسـانية وشعـور أخلاقي ويـطأ كل ذكـرى، ويطأ كـل شيء. وفي نفس اليـوم الـذي أرسلت فيه خطابي إلى فيدل، أمر بتنفيذ أولى أحكام الإعدام في الثوريين...».

هـذا الكريسمـاس من عام ١٩٦٠ كـان ثاني «كـريسمـاس حـر» لكـوبـا. وفي هـافانـا، لم تكن هناك المـظاهر التقليـدية لـلاحتفال بعيـد الميلاد لكن روبي هـارت فيليبس تعرف على رسم كبير أطلق عليـه: «المسيح في منزل الفلاح». كـان الحكماء الثلاثة هـم فيدل كاسترو، شي جيفارا، والكوبي الأسود الوحيد في القمـة القياديـة وهو خـوان الميدا. يحملون هـدايا جـديدة: الإصـلاح الـزراعي، الإصـلاح العمـراني، والتعليم العام. وحمل مـلاكان وجهي شهيـدين للثورة ووقف خـوسيه مـارتي باعتبـاره النجم المـرشد. وفي شـوارع المدينـة تحولت أغنيـة الميلاد التقليـديـة إلى كلمـات جديدة:

مع فيدل، مع فيدل
دائماً مع فيدل
نأكل ذرة أو مالانج
دائماً مع فيدل

ولكن مظاهرة الثاني من يناير ١٩٦٠ للاحتفال بكاسترو والعيد الثاني للثورة هي التي أظهرت للجميع بكل وضوح التحوّل غير العادي الذي طرأ على اتجاهـات كوبـا في عامين فقط. في هذا اليوم انهمر المطر رذاذاً خفيفاً حين ظهـر كاسـترو. وكعادتـه في استغلال كل أداة في متناوله قال كاسـترو بأسلوبه الشخصي الجذاب: «أتمنى ألا يفسد المطر احتفالنا».

ورد الحشـد الذي أثـارته المـواجهـة بين فيـدل والمـطر: «سـوف نبقى سـوف نبتل...».

وصاح كاسترو: «في هذه الحـالة سـوف أبتل أيضـاً» وحين نزع معـطفه الـواقي من

المطر وحاول الاستمرار في خطابه بدأ الحشد يردد //أعد المعطف، أعد المعطف// كانت الجماهير تهتم به. وأخيراً مع استمرار صيحاتهم ألقى كاسترو بالمعطف على كتفيه. وعندها ازداد انهمار الأمطار وسرعان ما أصبحت لحيته مشبعة بالماء. وانتقل كاسترو بسرعة إلى درسه الخاص للجماهير في هذا اليوم.

وصاح كاسترو: «لقد قررت الحكومة الثورية أن تمنح الولايات المتحدة مهلة ٤٨ ساعة لخفض عدد عامليها إلى عدد مماثل لأفراد سفارتنا في واشنطن وهو أحد عشر شخصاً». وكمقباس لمدى الانحياز العقلي، قوبلت هذه الكلمات بتصفيق شديد وصيحات ضد الأمريكيين. وتوالت صيحات الجماهير: «أخرجوهم من هناك، ألقوا بهم خارجاً». لقد قال الشعب كلمته. وعندئذ قام كاسترو بما اعتبر ضربة قاضية ضد الأمريكيين: «هناك أكثر من ثلاثمائة أمريكي هنا وثمانون في المائة منهم جواسيس. إذا أرادوا الرحيل لن نوقفهم».

ومرة أخرى قلب كاسترو الحقائق رأساً على عقب. حين سمعت واشنطن ذلك اضطرت لقبول «دعوته». وهكذا تشير الوثائق الكوبية إلى أنه ليس كاسترو هو الذي أرغم الأمريكيين على الرحيل بل إن الأمريكيين هم الذين قطعوا العلاقات الدبلوماسية في الثالث من يناير ١٩٦١. لقد انتهى كل شيء. لقد انحازت كوبا فعلياً، واستقرت واستعدت لدورها في الكتلة الشرقية. كانت كوبا تستطيع أن تعمل كقوة إمبريالية جديدة لم يسبق رؤية مثيلتها في التاريخ، لقد بدأ أخيرًا مصير كوبا الإمبريالي الخاص.

الفصل العشرون

خليج الخنازير

«احضروا لي شعرتين من لحية كاسترو»

لويس سوموزا، بعد ظهر يوم ١٤ إبريل ١٩٦١

خليج الخنازير ذراع متلألىء من المياه يمتد في أرض رخوة واسعة معروفة باسم سييناجا دي زاباتا، على الساحل الجنوبي لإقليم ماتانزاس. حتى في العام الأول للثورة بنى كاسترو وسط البحيرة الهادئة نوعاً من المنازل، بعد جمع بعض ألواح الزنك والألمونيوم كان يطفو بشكل غريب فوق البراميل. وكان سكان المنطقة يشيرون إليه باعتباره «منزل فيدل» لأنه كثيراً ما كان يعتزل فيه في أيام ما بعد النصر. اعتقد البعض أنه معجب بالمنطقة لأن عزلتها تذكره بأيام سييرا مايسترا الذهبية الضائعة. قال كاسترو نفسه في بعض الأوقات أن هذه البرية في مواجهة البحر المفتوح نحو أمريكا الجنوبية يروق لعقلية رجل حرب العصابات التي يملكها وشهوته للعالمية. أما نيكيتا خروشوف، الذي نظر للجزيرة بعين فلاح روسي جائع وغير رومانسي، فإنه مزح مرة قائلاً انها تذكره بالسجن.

لكن في الواقع، كان فيدل علي حق. فخليج الخنازير بموجاته التي تعلوها التماسيح وخلجانه الصغيرة كان فعلاً مكاناً مثالياً لهبوط مجموعة من رجال حرب العصابات. ومن السخرية أنها لم تكن مجموعة كاسترو التي هبطت هناك بل أعداؤه.

هكذا أصبح خليج الخنازير أولى محاولات الولايات المتحدة (ولكن ليس الأخيرة)، لاستغلال القوة العسكرية النظامية (التقليدية) ضد عدو لامع «غير

تقليدي». وكان هذا غريباً، لأنه في سنوات ما قبل الغزو مباشرة، كانت واشنطن تكرر أفكاراً حول «القتال الجديد» وحول مكافحة العصيان كموجة المستقبل. ومن الغريب أن الرئيس أيزنهاور، هذا العسكري البارز، كان أول من أمسك ببعض الحدود الغامضة للعهد الجديد. ففي ريو دي جانيرو، في يناير ١٩٦٠، طرح فكرة أن تتضمن المفاهيم التقليدية «للعدوان» الآن فكرة «التخريب» وقال لرؤساء المنطقة الآخرين «اننا سنعتبره تدخلاً في الشؤون الداخلية لدولة أمريكية... إذا أقدمت أي قوة... سواء عن طريق الغزو أو الإجبار أو التخريب، على انكار حرية الاختيار على أي دولة شقيقة». واعتبرت كلماته تصعيداً لنظرية مونرو، فقد أصبح «التخريب» و «الإجبار» أمرين لا يمكن التسامح معهما مثل التدخل العسكري المباشر. لكن جون كينيدي، المرن والحاكم القوي، صاحب الأفكار المتدفقة، هو من أسند إليه التاريخ مهمة التعامل بابتكار مع هذه المرحلة الجديدة وسبلها الجديدة في الحرب.

ومثل كاسترو كان الأخوة كينيدي، وكثير من الرجال حولهم، يمتلكون تصورات جديدة لبلدهم. وبينما كان كاسترو يقيم صيغته الماركسية الخاصة أو بتعبير أفضل العالمية الفيدلية، كان جون كينيدي يحاول أن ينحت «عالمية» جديدة، تنافسية وناجحة إلى أقصى حد، تتضمن كل شيء من فيالق السلام حتى تدريب رجال حرب العصابات في مركز حرب جون كينيدي الخاص في فورت براج. وكتب روبرت كينيدي مرة يقول إن «مكافحة العصيان يمكن أن توصف بصورة أفضل بأنها إصلاح اجتماعي تحت الضغط». كانوا يعرفون الرطانة واللغة، لكنهم لم يفهموا إلا قليلاً الحقيقة.

في الورقة البيضاء عن كوبا التي عرضها الرئيس كينيدي في العاشر من إبريل قبل أسبوع واحد من الغزو، كرر الجملة المذهلة «الجاهلة» التي قالها روبرت ماكنمارا: «كاستروية بدون كاسترو»، كما لو كان من الممكن حدوث مثل هذا الواقع. بل وحضر بوب إيموري نائب مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية، حفلة تنكرية في هذه الأيام الحسّاسة وهو يرتدي زي كاسترو! كان الأمريكيون يستطيعون تحمل ثمن أن يمارسوا اللهو لأنه بالنسبة لهم تلك كانت مسائل يمكن التصرف فيها وليست مسائل حياة أو موت كما كانت بالنسبة للكوبيين.

وبوجوده غير العادي، وغريزته وإحساسه، زار كاسترو خليج الخنازير قبل أسبوعين من هبوط المنفيين، للاطلاع على سير الأمور في عملية بناء منتجعه على الطراز التاهيتي، وبينما هو يتجول على غير هدى في الخليج، التفت فجأة إلى

رفيق كوبي وقال: «إنه مكان عظيم للإنزال. . . علينا أن نضع مدفعية ثقيلة عيار ٥٠ هنا فقط على سبيل الاستعداد».

كان وجه كاسترو المتطفل يبدو كأنه متسلط على الانتخابات الأمريكية في خريف عام ١٩٦٠، حتى في اللحظة التي أجرى فيها جون كينيدي مناظرته التليفزيونية الشهيرة مع ريتشارد نيكسون، بقي الرجلان محددين بصدد مسألة كوبا، فيما اتضح بعدها أنها أهم تبادل لوجهات النظر في الحملة الانتخابية كلها. كانت كل المؤشرات التاريخية تؤيّد نظرية أن كينيدي استعمل تلخيصاً أعدّه «آلان دولس» رئيس المخابرات حول وجود قوة غزو كوبية تحركها إدارة أيزنهاور. ومع ذلك فإنه حين واجه نيكسون، أنكر كينيدي بشدة الأمر، بل وهاجم إدارة أيزنهاور ونيكسون.

وبعد سنوات، كان نيكسون لا يزال غاضباً لما اعتبره خداعاً شديداً من جانب كينيدي. وفي ١٩٨٧، أخبرني أن «آلان دولس قال ان كينيدي كان مطلعاً على الأمر. ولذلك كنت في وضع غير مريح لعلمي بالغزو واضطراري لتغطية الأمر. وواصل كينيدي الذي كان يعرف الموضوع، شن هجومه». ثم أضاف نيكسون: «أتعرفين، تلك كانت أول مرة تشيد فيها النيويورك تايمز بي، لتمالكي أعصابي. وأتذكر مقالة والتر ليبمان كانت أول مرة يشيدون فيها بي ـ أول مرة ـ وكانت لأني أكذب».

في الواقع ان الخطوط العريضة لعملية الغزو ـ خليج الخنازير ـ تحددت بعد قليل من زيارة كاسترو للولايات المتحدة في ربيع ١٩٥٩، وظهرت في «مذكرة» نيكسون حول زيارته مع كاسترو للكابيتول، مقر مجلس الشيوخ، على الرغم من أن نيكسون لم يقترح غزواً. وبنهاية ١٩٥٩، كان المنفيون الكوبيون يجندون للتدريب على يد المخابرات في معسكرات في جواتيمالا ونيكاراجوا. كان هدف العملية السرية التي وافق عليها أيزنهاور في مارس ١٩٦٠، هو «جلب بديل لنظام كاسترو يكون أشد إخلاصاً للمصالح الحقيقية للشعب الكوبي، وأكثر قبولاً لدى الولايات المتحدة بحيث يتجنب أي ظهور للتدخل الأمريكي». وكان كل عنصر، بالطبع، يتعارض مع الآخر.

وورث جون كينيدي الخطة بصورة عادية تقريباً، وفي البداية اعتبرها محتملة الوقوع ثم جاءت القوة المحركة البيروقراطية لتسيطر على الأمر، ونفذ الحدث الذي سجله التاريخ باعتباره أول تحركاته السياسية وأول كارثة لسياسته، وكأن في التنفيذ مأساة يونانية واجبة الحدوث. وما ان تمت الموافقة على خطة الغزو، حتى أصبحت

تمتلك قوة دافعة ذاتية، ومع تطورها، تغيّر التكتيك العسكري من أسلوب حربي «غير عادي» جديد لحرب العصابات يدور حولها كثير من الأحاديث، إلى عملية إنزال على طريقة «عملية نورماندي» في خليج الخنازير. آمن الأمريكيون أن المنفيين الكوبيين يستطيعون الهبوط هناك سراً والتقدم في طريقهم براً، ليهربوا إلى جبال أسكمبراي في حالة الخطر. في الوقت نفسه اهتم الرئيس* الأمريكي الشاب، بالكاد، بالإنصات للموجز الذي قدمه له دولس مدير المخابرات، بصدد تغيّر الاستراتيجية العسكرية لعملية خليج الخنازير وهو تغيّر كبير نظراً لأن المخابرات لم تستطع إرغام نفسها على الثقة في النوع الجديد من الحرب. وعاد الجناح السري النشط في وكالة المخابرات إلى العمل على مسؤوليته فيما يجيده. في نفس الوقت كانت «هافانا الصغيرة» في ميامي مليئة «بالأحاديث عن الغزو» لدرجة أن راميرو فالديس في هافانا رفض تصديق تقارير التأكيد التي كان يتلقاها معتقداً أن المخابرات تشن حملة لتشويه الحقائق.

وفي ١٤ إبريل ١٩٦١، كان كاسترو يتمشى جيئة وذهاباً، برداء الحرب كاملاً في مقر القيادة العسكرية بضاحية هافانا المعروف باسم /بوينت وان/ أو النقطة الأولى، كان كاسترو يشعر أن شيئاً ما سيحدث لكن ماذا وأين، لذلك كان قلقاً ومنتعشاً في آن واحد، إلى حد كبير، لأنها ستكون المرة الأولى التي سيقف فيها مباشرة ضد الأمريكيين. كان أكثر من مستعد، فجيشه النظامي الذي يصل عدد أفراده إلى خمسة وعشرين ألف رجل مدربين تدريباً جيداً، عُزّز الآن بنحو مائتي ألف رجل ميليشيا بعضهم تلقّى تدريباً سريعاً ما أن أصبح التهديد محسوساً. في يوم الجمعة هذا، رصدت سفينة أمريكية أمام ساحل أوريانت. لكن كاسترو ذهب إلى الفراش، فكما توقّع كانت السفينة مجرد واحدة من عدة سفن للتعمية أرسلتهم المخابرات. أما الطائرات التي أتت في اليوم التالي، فلم تكن مجرد تعمية.

استيقظ كاسترو في الفجر على الضجيج المنذر للطائرة /بي ـ ٢٦/ القاذفة وهي تطير على مستوى منخفض فوق هافانا، كانت الطائرات بقيادة منفيين كوبيين وتعمل متخفية باعتبار أن الطيارين الكوبيين الذين يقودونها هاربين إلى الولايات المتحدة، وضربت مطار «كامب ليبرتد» و «سان أنطونيو» و «سانتياجو» كوبا وألقت قنابلها على الأراضي الكوبية.

ولأن كاسترو كان دائماً دارساً شرهاً للتاريخ العسكري، فقد توقّع أن تكون الخطوة الأولى للغزو هي الهجوم على قواته الجوية (فقد تذكر جيداً أن القوات

الجوية الكاملة لعبد الناصر دمرت على الأرض في مصر عام ١٩٥٦) لذلك فرق طائرات قواته الجوية الصغيرة وجاءت هذه المبادرة الصغيرة لتحدث الفارق بين النصر والهزيمة. ففي غارات القصف يوم السبت، خسر كاسترو خمس طائرات لكنه احتفظ بأربع قاذفات هجومية خفيفة بريطانية من طراز /سي فوري/ وطائرة /بي - ٢٦/ وثلاث /تي - ٣٣/ وكلها تكفي.

ولكن، كما هو الحال دائماً فإن الحواجز النفسية والرمزية التي يضعها كاسترو كان يصعب تجاوزها. ويتذكر الصحفي الأمريكي ليونيل مارتن أنه «في ليلة القصف خرج آلاف الناس وراء صف ضحايا القنابل في الجامعة. كانت الموسيقى الثورية تصدح لتصم الآذان عبر مكبرات الصوت، ولمدة ساعة جلست على مقعد حجري بالقرب من التوابيت. . . وفي اليوم التالي سار عشرات الآلاف من الجنود وأفراد الميليشيا والنساء والرجال شباناً وعجائز وراء سيارات النقل التي تحمل التوابيت في موكب جنائزي ضخم إلى المقبرة».

«وبعد انتهاء عملية دفن الضحايا تحدث مرة أخرى فيدل كاسترو الشديد الغضب من منصة خشبية أقيمت على عجل أمام مدخل المقبرة. كان خطاب فيدل غاضباً كسخونة الشمس في ذلك اليوم. وبدأ الشعب يصيح مطالباً بالثأر مراراً وتكراراً. وبدت كلمات فيدل المتحدية كأنها تبلغ الذروة هذا اليوم، كان جسده كله يهتز في انفعال شديد. ثم جاءت الرسالة الجديدة، الرسالة التي كان يعدُّ لها منذ زمن. وصاح كاسترو: «ما الذي يعجز الإمبرياليون عن غفرانه لنا. . . إنه القيام بثورة اشتراكية تحت أنف الولايات المتحدة».

وكانت هذه الكلمات هي الفيصل في لحظة تاريخية؛ لأول مرة يشير كاسترو علناً وبصراحة إلى الثورة الكوبية باعتبارها «اشتراكية». وهذا التحديد الجديد للواقع تردد في كوبا مثل الدماء عبر الشرايين المفتوحة لتسكن الجسم السياسي فوراً وبهدوء لسبب بسيط هو أن فيدل كاسترو شخصياً هو الطبيب السياسي لهذا الجسد.

كما جاء هذا الإعلان ليحدث نوعاً من الراحة للكثيرين داخل كوبا. ويتذكر نوربرتو فوينتس مساعد كاسترو أنه فكر في هذه اللحظة: «حسناً، جيد، نحن نعرف الآن من نكون. . .»، لكنه فاجأ الروس تماماً. وفي وقت لاحق كتب نيكيتا خروشوف المشوش يقول في مذكراته: «لقد وجدنا صعوبة في فهم توقيت إعلانه. لقد كان إعلان كاسترو، له تأثيره المباشر في توسيع الهوة بينه وبين الشعب الذي كان يناهض الاشتراكية، وضيّق دائرة هؤلاء الذين يستطيع كاسترو الاعتماد على مساندتهم

ضد الغزو. وفيما يتعلق بشجاعة كاسترو الشخصية، فقد كان موقفه مثيراً للإعجاب وسليماً. ولكن من وجهة النظر التكتيكية لم يكن له معنى». فما أظهره بيان كاسترو في الحقيقة هو قدرته على التلاعب بالحكومة كلها لمصلحته الخاصة. وفي هذه الحالة، آستغل «الشيوعية» كلحظة استراتيجية لحماية «الكاستروية».

كانت النشوة تتملك تماماً الألف وأربعمائة جندي، وهم المنفيون الكوبيون الذين شكلوا اللواء ٢٥٠٦ الذي غادر نيكاراغوا بالسفينة بعد ظهر الرابع عشر من إبريل، لقد آمنوا من كل قلبهم أنه خلال أيام قليلة سوف ينجحون في أن يصبحوا الحكام الجدد لكوبا. وقبل هذا التاريخ بأربعة أيام، أعلن جون كينيدي أنه لن تتورط أي قوات أمريكية في هجومهم، لكنهم لم يعتقدوا أنه يعني حقيقة ما قاله. فقد افترضوا أن كلماته كانت لأهداف العلاقات العامة فقط. والآن أرسلهم مستشاروهم الأمريكيون بأكثر الوعود بريقاً، وقال أحدهم للمجموعة المتشوقة: «سوف تكونون في غاية القوة. سترفعون أيديكم خارجاً وتتحولون يساراً وتذهبون مباشرة إلى هافانا».

ومن أجل المزيد من الكوميديا المؤسفة كان الدكتاتور النيكاراجوي لويس سوموزا شخصياً في وداعهم في بويرتو كابيساز. ووسط حراسة الكثيرين صاح سوموزا في المقاتلين: «أحضروا لي شعرتين من لحية كاسترو». وتطايرت مناديلهم الحريرية الفاتحة، مع الريح والشمس، تسقط على البحر الكاريبي، وحملتهم المدمرات الأمريكية حتى كوبا التي كانوا يعتقدونها وطنهم.

في الوقت نفسه، وفي هافانا، كان كاسترو يتساءل: بحق الله ما الذي حدث لهم. وظل يسأل نفسه، لماذا لم يشن الغزاة هجومهم بعد؟ وفي النهاية، في يوم الاثنين السابع عشر من إبريل بعد قليل من الثالثة صباحاً، تلقى كارلوس فرانكي مكالمة تليفونية عاجلة من النيويورك تايمز يسألونه عما إذا كانت لديه أية أنباء عن «غزو للجزيرة». وعلى الفور اتصل فرانكي بفيدل في شقة سيليا. ولكن فيدل كان قد سبقه بالخطوة، فقد تلقى لتوّه تقريراً من مجموعة ميليشيا في خليج الخنازير: «لقد شوهدت قوات العدو وهي تهبط على الشاطىء الأزرق (بلايا لارجا) والشاطىء الأحمر (بلايا جيرون). «وأثناء سيره جيئة وذهاباً والبيريه مثبت بشدّه على رأسه، ازداد يقين كاسترو مما سيفعله الأمريكيون، وكان رد فعله مباشراً وبسيطاً، يجب على الفور إغراق سفن إمداد العدو والقضاء على المجموعة الأولى للهجوم. سوف يقطع الإمدادات عن الجنود الغزاة كما أوقف الإمدادات البشرية لديكتاتورية باتيستا من سييرا مايسترا.

وكان أول ما فعله كاسترو هو الاتصال بالقاعدة الجوية حيث ينتظر طياروه منذ ساعات داخل غرف القيادة بالطائرة. وقال كاسترو لأحدهم في التليفون: «شيكو يجب أن تغرق تلك السفن من أجلي!» وظل كاسترو على اتصال تليفوني دائم لاستنفاد كل قواته فأرسل الكتائب القريبة من خليج الخنازير، وسيطر على الجزيرة كلها من شقة سيليا، لكن قواته الجوية الصغيرة هي التي كسبت المعركة فعلاً، قبل أن يبدأ باقي القتال. كانت «الخطة الأمريكية» تقوم كلها على فكرة أن قوات كاسترو الجوية ستكون قد دمرت بالكامل قبل إنزال قوات الغزو البرية. وفي الحقيقة فقد أبلغ الجنود أنها دمرت فعلاً. وكانت تلك هي الكذبة القاضية في الغزو. فقد أرسلت سفن كاسترو الصغيرة من مخابئها لإغراق أسطول الغزو القادم من الولايات المتحدة الأمريكية. والحقيقة المذهلة وغير المتوقعة كانت أنهم حققوا مهمتهم!.

ووصل كاسترو شخصياً إلى المنطقة بعد ظهر ذلك الاثنين، وأعد مركز قيادة في مصنع قديم للسكر، وقد أختير فقط لأن به التليفون الوحيد في المنطقة. وخلف كاسترو كان هناك حوالي عشرين ألف جندي وعشرين دبابة.

وحكى كاسترو بعد ذلك: «لم تتوقف المعركة دقيقة واحدة، لقد تخيلنا أنهم يريدون الاستيلاء على قطعة من أرضنا وإقامة حكومة تعترف بها منظمة الدول الأمريكية والولايات المتحدة، لكننا لم نمنحهم الوقت، لأن المعركة استمرت ٦٨ ساعة دون أن تتوقف دقيقة أو ثانية. وفي النهاية... دخلت مع المجموعة الأولى... وكانت السفن الأمريكية في المقدمة ووضعنا الدبابات أمام السفن مباشرة».

لم يمضِ وقت طويل على المعركة حين بدأت السفن الأمريكية الناجية خروجها من الخليج تاركة حوالي ١٣٥٠ جندي (لواء) خلفهم، كانوا قبلها بيوم واحد يستمتعون بالشمس وسط البحر،والآن بعد أن تُركوا بمفردهم على الشاطىء، اضطروا للاعتماد على ما يحملونه من ذخيرة وطعام. وكانت المخابرات الأمريكية واثقة من تمام تدمير القوات الجوية لكاسترو ولدرجة أنها لم تتخذ حتى الإجراء الاحتياطي بوضع أسلحة مضادة للطائرات على ظهر السفن. وحين رحلت آخر مدمرة أمريكية من خليج الخنازير قال أحد الكوبيين المنفيين: «في أعقاب هذه السفينة، يذهب مائتا عام من العار».

لكن في واشنطن كانت تدور رقصة سياسية ودبلوماسية فريدة من نوعها، فهم يشعرون بالأسف ولكن أيضاً بأنهم على حق. وبدأ اجتماع الرئيس كينيدي

المضطرب والقلق ومستشاروه مساء الثلاثاء في الساعة ١١,٥٨ وانتهى في الساعة ٢,٤٦ من اليوم التالي. كانوا كلهم تقريباً يرتدون البذات البيضاء لأنهم جاءوا الاجتماع مباشرة من حفل رسمي في البيت الأبيض، دخله جون كينيدي على لحن «السيد الرائع». لقد علموا أن خط المواجهة في خليج الخنازير ينهار، وقال العسكريون أمثال الأدميرال أرلي بيرك أنه يجب توفير الغطاء الجوي الأمريكي، الآن، لإنقاذ الرجال، ورأى المؤرخ هاج توماس: «تلك كانت لحظة حاسمة في الغزو، ولو كان كينيدي قد وافق على التصريح بإنطلاق الطائرات من إيسكس لأصبح المستقبل مختلفاً تماماً. لكنه فقط صرح لست طائرات نفاثة لاتحمل علامات إيسكس بالطيران فوق خليج الخنازير في فجر اليوم التالي...».

وأخيراً ارتضى الرئيس كينيدي على ما يعتبر في الواقع الوسط الأمريكي اليائس الذي سيقضي على السياسة الأمريكية في كل هذه المواقف «غير العادية». سوف تقوم البحرية الأمريكية بطلعات استطلاعية فوق خليج الخنازير لتقييم الموقف وتحديد ما إذا كان الغزاة أمامهم أية فرصة للاستمرار. وقد سمح لهذه المهام الاستطلاعية //برد إطلاق النار إذا اضطروا لذلك خلال هذه المهمة الإنسانية//. وهكذا، كتب شلسينغر في وقت لاحق: «كان كينيدي مستعداً للتعرض للمزيد من المخاطر لإخراج الرجال من الشواطىء أكثر مما تعرضوا له لإنزالهم».

وفي الجحيم الصغير الذي آندلع على خليج الخنازير انفجر الغزاة في صيحات أمل حين حلقت فوقهم ست طائرات نفاثة لا تحمل علامات قادمة من إيسكس فجر هذا الأربعاء. ولكن، والرجال واقفون يصيحون على الشاطىء، استدارت الطائرات بعيداً.

في هذه اللعبة بالذات الأشبه بالشطرنج، وفي هذه الحرب، كانت الأمة القوية تسيطر على نفسها فيما نتج عنه حالة من الإذلال الذاتي، وشنت الأمة الضعيفة هجماتها بشجاعة، وهاجمت ثانية، وانتصرت. في الحقيقة ـ الأمة الضعيفة لم تهاجم على الإطلاق، على الأقل لم تهاجم الولايات المتحدة. بعد إغراق السفن الرئيسية، التي كانت تدعم الغزاة، تعمد كاسترو مراراً التراجع حين يتعلق الأمر بالمواجهة المباشرة مع الأمريكيين. وهكذا فقد كان خليج الخنازير أول «هزيمة ذاتية» للإمبريالية الأمريكية في أمريكا اللاتينية، على الرغم من مزاعم كاسترو أنه أول هزيمة للإمبريالية الأمريكية في أمريكا اللاتينية. ولكن ما أبرز خليج الخنازير فعلاً صعوبته إن لم يكن استحالته هو إمكانية أن تقاتل دولة قانونية تماماً، لها ضوابط غير عادية

وقوة طاحنة، دولة أخرى غير قانونية ولكن لها زعيم شمولي لا يعترف بقيود على أعماله أو أوامره.

في هذا الوقت كان روبرت كينيدي، بغريزته الصائبة التي وحدها في الجانب الأمريكي تضارع غرزية كاسترو، هو من أدرك على الفور التهديد التالي والقريب. ففي التاسع عشر من إبريل، والمقاومة تنتهي على الشواطىء، أضاف بوبي كينيْدي نهاية تنبوئية لمذكرة حول خليج الخنازير، وكتب يقول لشقيقه: «إذا كنّا لا نريد لروسيا أن تقيم قواعد صواريخ في كوبا، فعلينا أن نقرر الآن ما سنفعله لوقفها».

في النهاية أسر كاسترو ١١٨٩ شخصاً، من بينهم كل قادة اللواء ٢٥٠٦ وأخذ المنفيين الكوبيين إلى منازل مختلفة في المنطقة وفي الأربعاء ١٩ إبريل، قام كاسترو بجولات للإشراف على الأسرى.

وكان يسأل: «هل هناك أمريكي هنا؟». ثم يسلط ضوء مصباحه على وجوه الجرحى، كان الباب الأمامي قد دمر في القصف، فكان يحدث ضجيجاً عالياً بسبب الرياح بينما كان كاسترو يتفحص أسراه. وأخيراً أصدر أوامره: «خذوهم إلى كوفادونجا وضعوهم في مستشفى». ومثل امبراطور أخذ في السير جيئة وذهاباً كعادته. لقد كانت المعركة عظيمة، لكن كان هناك خيبة أمل واحدة، فأمام هذا النصر، لم يكن هناك أمريكي واحد.

أما عن كاسترو نفسه فقد استغل الهزيمة المخزية للأمريكيين ليقدم نقاطاً أعمق وأكثر وعياً حول أعدائه الأبديين أكثر من أي وقت مضى، وظهر على التليفزيون يوم الخميس وتحدث لمدة أربع ساعات مقارناً بين العقلية «الآلية» لخريجي ييل المثقفين الذين يضعون الخطط والنظرة «الإنسانية» لرجال ونساء سييرامايسترا. وقال لشعبه: «العقلية الإمبريالية عكس العقلية الثورية، الإمبريالي ينظر إلى الجغرافيا، يحلّل عدد المدافع والطائرات والدبابات والمواقع، في حين يتوجّه الثوري إلى الشعب ويسأل: من هؤلاء الناس، فبالنسبة للامبريالي، لا يهم على الإطلاق ما يعتقده السكان أو يشعرون به، فهذا خارج نطاق اهتمامه، والثوري يفكر أولاً في الشعب، والشعب في سينياجا دي زاباتا، كان كله لنا».

هرب هومبرتو سوري مارين إلى الولايات المتحدة متخفياً حين أيّد كاسترو مشروع الإصلاح الزراعي الراديكالي الذي أعدّه شي جيفارا. لكن قبل غزو خليج الخنازير عاد سوري مارين إلى هافانا سراً، للمساعدة على تنظيم مساندة داخلية

للمنفيين الكوبيين، لكنه ارتكب خطأً سيئاً، لقد اتصل بـزعماء المقـاومة في الأقـاليم لمقابلته في هافانا، وبالطبع، في وجود مخابـرات كاستـرو، حاصـر البوليس المكـان بعد حضورهم للمدينة وأصيب سوري مارين في فخذه وهو يحاول الهرب من نافذة.

ويحكي لي شقيقه ماريانو بعد سنوات، قصـة محنة هـومبرتـو لأول مرة: «كـان هومبرتو في حجرة علوية فانتزع جهاز التكييف وهرب. وبعد ساعتين اتصل بي فيـدل وقال، أريد أن أحادثك على الفـور لقد هـرب هومـرتو. «كـان من الواضـح أن خطة كاسترو تتلخص في استغلال ماريانو للعثـور على هومبـرتو». ذهبت مـع فيدل للبحث عنه. وكان فيـدل في حالـة جنون وظـلّ يردد طـول المساء، كـأنه يحـادث هومبـرتو، هومبرتو لم فعلت ذلك بي؟ لم فعلت هذا بي؟. . . كنّا في السيـارة مع حـرسه لمـدة ساعتين أو ثلاث وظلّ فيدل يقول، أنا أحب هـومبرتـو، وكنت أجيبه، لا تبحث أكثـر من ذلك إنه بالتأكيد في الولايات المتحدة الآن».

ومن سـوء الحظ، كان هـومبرتـو سوري مـارين عاجـزاً عن الخروج من كـوبا. ويتذكر مـاريانـو ما حـدث «كنت في منزل والـدتي ووالدي واتصـل شخص ما، لقـد أجروا لتوهم عملية جراحية لهومبرتو هناك في هافانـا. اعتقدت أنه في ميـامي، لكن لا، لقد كان في المستشفى العسكري». وعلى الفور ذهب هومبرتـو لرؤيـة شقيقه في المستشفى، وقال لي هومبرتو، «من هنا سأخرج لأعدم بالرصاص»، وفي الواقع حين تحسنت صحة هومبرتو بما يكفي، نقل إلى حصن لاكابانا.

وكانت خطوة كاسترو التالية هي الاتصال بماريـانو وإخبـاره أنه وراوول يـريدان التحدث إليه. وحملته سيارة إلى محطة الراديو في الثانيـة صباحـاً. وكانـا في انتظاره في الطابق الرابـع. وحتى مع استمـرار غزو خليـج الخنازيـر كان كـاسترو يتنقـل في الغرفة بأسلوبه المعتاد وقال لمـاريانـو: «أريد أن أتحـدث معك، أنـا أحب كلاكما، لكن تعلمت في الجبـال أن أحب هومبـرتو أكثـر ورغم أنه «قـائد تـاريخي» فقد جـاء ليقتلني. . . لكني أعدك أني لن أقتله. . .». وأشار ماريانو إلى مدى قلق والديه لكن كـاستـرو طمـأنـه، وقــال: «يجب أن تصـدقني، لن أقتله» وابتسم تلك الابتسـامـة المخلصة. ثم قال كـاسترو لمـاريانـو: «قبِّل والـدك ووالدتـك وقل لهمـا أن هومبـرتو سيكون في أمان».

ثم توجّه مـاريانـو إلى لاكابـانا لـرؤية هـومبرتـو وطمـأنه ولكـن الرجـل الهادىء اليائس جلس في سجنه وقال ببساطة، «سوف أعدم بالرصاص مـا بين الساعـة الثانيـة

والرابعة صباحاً. . . أنت أعمى، وأنا أرى بعيداً جداً، فمن هنا، سأصعد إلى السماء».

وأعدم هومبرتو رمياً بالرصاص قبل فجر اليوم التالي، وحين ذهب ماريانو للمقبرة لرؤية جثة شقيقه أصيب بصدمة «لأنهم أطلقوا الرصاص حوالي عشرين إلى أربعين مرة في الرأس». كانت الذكرى لا تزال مؤلمة وحيّة بعد مرور ربع قرن.

لكن كاسترو، الذي عرف تماماً قوة الشهادة، كانت لديه أفكار أخرى للأسرى الذين يزيد عددهم على ألف والذين يحتفظ بهم بعد انتصاره في خليج الخنازير. لقد عزم على أن يرى العالم أن هؤلاء الخونة ليسوا شهداء لكن مجرد رجال بسطاء وهامشيين تماماً.

ومن أجل تحقيق هدفه بدأ كاسترو حواراً تليفزيونياً مع الأسرى بعد يومين من انتهاء المعارك. واستمر الحوار أربعة أيام وتحوّل إلى ما يشبه السيرك الروماني الثوري. واعتبر العالم الذي كان يشاهده، كأن كاسترو شهم في انتصاره، لكن الحقيقة كانت مختلفة تماماً. لقد احتجز الأسرى في قصر الرياضة الذي لم يكن رمزه مصادفة. ولمدة ٢٢ ساعة يومياً كانوا يجلسون في صفوف متلاصقة على مقاعد صلبة صغيرة وطوال الوقت لم يظهروا على شاشة التليفزيون، كانت المكبرات تذيع بصوت يصم الآذان أسماء الواحد تلو الآخر، تأمرهم بالتقدم. لم يكن مسموحاً لهم بتحريك سيقانهم وكان عليهم أن يتوسلوا إذا أرادوا الذهاب إلى الحمام. ومن الساعة الثالثة إلى السادسة كان يُصرّح لهم بالاستلقاء على الأرض ولكن الأضواء البيضاء القوية لم تكن تطفأ مطلقاً. وكتب «هاينز جونسون»، المؤرخ الحساس للواء: «في حالتهم المحمومة المنهارة شعر بعض الرجال كأنهم في غرفة عمليات واسعة، لكن ما تفشّى بينهم جميعاً، كان إحساسهم الخاص بغبائهم وعارهم من جراء الخيانة والتخلي».

وقال أمادو جايول أحد هؤلاء الغزاة أنه عند لحظة ما: «اعتقدت أن الأمريكيين أرادوا مقبرة ليمروا فوقها بدباباتهم وأن إحدى القبور ستكون لي بالضرورة».

بدأ كاسترو هذه «العروض» الماراثونية لمدة أربع أيام، بأسلوب المعلم، فوقف طويلاً ومنتصراً أمام الرجال والعالم، يحكي القصة كاملة للغزو كأنها أصبحت أسطورة بالفعل، ويشير إلى الخرائط كمدرب لتوضيح أماكن مجيء «الديدان» ويستعرض الوثائق المأسورة. وفي كل ما قاله، حاضر الغزاة حول الثورة الكوبية مذكراً دائماً

بالماضي «الاستغلالي» ويربطهم به. لكن على الرغم من أن بعض المنفيين استسلموا وتعاونوا مع الحكومة الكوبية، فإن ٩٠٪ أحجموا. بيد أن كلهم تقريباً شعروا باحترام بالغ لكاسترو. ومرة أخرى، بطاقته التي لا تنضب وإحساسه التكتيكي عمل على إدارة التحقيق. وسرعان ما بدأ بعض السجناء يسألون بشغف «كاسترو» كيف كان هو شخصياً سيدير الغزو. وكان سعيداً للرضوخ، لقد أصبح الآن معلمهم ليس فقط حول الثورة، ولكن حول الحرب التي حاولوا بأسلوب يدعو للشفقة أن يشنوها ضده. وفي لحظة ما، وأمام العالم المتفرج، أشاد الرجال بالشخص الذي جاءوا ليقتلوه. وهذا بالضبط ما كان يريده كاسترو.

في أول مايو ١٩٦١، تجمع أكثر من مليون كوبي في ميدان الثورة، لسماع كلمات الرجل الذي هزم فعلاً الولايات المتحدة. وقبل أن يبدأ حديثه كرّمه الشعب باستعراض استمر عشر ساعات. ويتذكر الصحفي ليونيل مارتن: «هبط الليل وأضيئت الأنوار القوية»، لا تزال هذه الذكرى تتشابه لديه مع مظاهرات هتلر الضخمة في الثلاثينات. وبدأ كاسترو حديثه، قائلاً: سوف أختصر، وأستمر يتكلم أكثر من ثلاث ساعات! وفي هذه الساعات الثلاث لم يفقد مرة واحدة سيطرته على الحشد الهائل. وكتب مارتن «شعر المرء في سحر هذه اللحظة، بوجود صلة مطلقة بين فيدل والشعب».

ومضت الشهور، وفي ليلة رأس السنة شرب بعض المنفيين في السجن لوسيون بعد الحلاقة، لتبادل الأنخاب للعام القادم المجهول، وانتحر رجل. ونسي الشعب الأمريكي هؤلاء الرجال الذين لم يعرفهم فعلاً. إلا أنها لم تكن خطة كاسترو أن يدع هؤلاء السجناء للنسيان. وذات ليلة، في أوائل ١٩٦٢، ذهب كاسترو إلى السجن وأنار المصابيح وأعلن أنه سيطلب فدية مقابل حياتهم. وأضاف: «خلال أربعة شهور ستذهبون جميعاً، سوف أعلن ثمناً لرؤوسكم».

وسأله سجين: «كم؟».
وابتسم كاسترو: «٦٢ مليون دولار».

وإنهارت الروح المعنوية للسجناء، لقد كان المبلغ باهظاً للغاية، لكن كاسترو كان جاداً إلى أقصى درجة. فقد كان يعلم أنه يستطيع أن يذل الرجال أكثر في العصر الحديث عن طريق مبادلتهم «بأشياء». وفي حديث إلى مجموعة صغيرة من المزارعين، في ربيع ١٩٦٢، أعلن بعظمة: «يحكي التاريخ أنه في وقت ما بادل

الشعب الأسباني جنود نابليون مقابل خنازير. ونحن، بهذه المناسبة، سوف نكون ألطف قليلاً، سوف نبادل الجنود مقابل تراكتورات».

وفي هذه المرة، كان الأمريكي الذي وقع عليه الإختيار للتعامل مع كاسترو يتفهم إلى حد ما مظاهر القوة التي يتعامل معها. وحين سئل جيمس بريت دونوفان، الإيرلندي الذكي، الشديد البأس عما إذا كان «سيتفاوض» مع كاسترو، أجاب فوراً أن عليه أولاً أن «يدرس شخصية كاسترو دراسة دقيقة» وهو أمر قليلون من الدبلوماسيين الأمريكيين الآخرين فكروا فيه. ودونوفان رجل ربع، متوسط القامة يتناقض شعره الأبيض الغزير مع عينيه الزرقاوين الشاحبتين وجبهته القوية، وهو من خريجي هارفادر. وقد تورط في كل شيء من تطوير القنبلة الذرية إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية ومحاكمات نورمبرج. وكان آخر انتصاراته، هو التفاوض لمبادلة رودولف أبل جاسوس الكتلة الشرقية مقابل الطيار فرانسيس جاري باورز قائد الطائرة /يو-٢/ في فبراير، وعرض دونوفان الآن أن يمثل لجنة الأسر الكوبية، وهي المجموعة التي ستسعى: «لتحرير» اللواء ٢٠٥٦.

وبعد دراسته لكاسترو، كتب دونوفان: «في رأيي الشخصي أن فيدل كاسترو في أعماقه فخور بمواطنيه الكوبيين المسجونين الآن لاشتراكهم في عملية الغزو في ٧ إبريل ١٩٦١. فيدل كوبي قبل أن يكون ماركسياً، لا بدّ أنه يشعر بفخر بمواطنيه الكوبيين - أياً كان إيمانه بتعرضهم للتضليل أو الخداع... وإذا طرحت شروط معقولة، في صالح الشعب الكوبي، أعتقد أنه سينفذ تعهده مع احترامه لمواطنيه الكوبيين...»، لقد فهم دونوفان ما لم يفهمه كثيرون غيره.

وعقد اجتماعهما الأول في ٣١ أغسطس ١٩٦٢. دخل دونوفان قاعة الوزراء في قصر المرئاسة في هافانا ليجد كاسترو قد سبقه إلى الجلوس على المائدة الطويلة، بمفرده. وتفاوض الإثنان مباشرة لمدة أربع ساعات في حضور المترجمين فقط. كان لكل جانب عزّة نفسه؛ لم تكن إدارة كينيدي تقبل أن تكون طرفاً في أي صفقة يحصل خلالها كاسترو على نقود سائلة، لأن ذلك سوف يبدو جهلاً مطبقاً. وأصرّ كاسترو على تعويضاته القريبة من العصور الوسطى. وفي اليوم التالي إلتقيا مرة ثانية، وأعطى دونوفان قائمة بالبضائع التي يقبلها مقابل السجناء. وعاد دونوفان إلى الولايات المتحدة ليرى ما يمكن عمله. ثم رجع ثانية إلى هافانا في أكتوبر.

لكن في ذلك الحين تعكر مناخ المفاوضات الودي، بصورة مفاجئة وغير مبررة، وذهب دونوفان ثانية إلى قصر الرئاسة لمقابلة كاسترو في العاشر من أكتوبر

وهـو واثق من أنهما على وشـك إنهاء الصفقـة. لكنه وجـد كاسـتـرو غاضبـاً وعـدائيـاً ويطلب المزيد ـ أسعار أقل للأدويـة، تكاليف شحن أفضـل. . . وأخيراً قال دونوفـان الغاضب ببساطة «هذا يكفي!» وانـدفع خـارجاً، ولكن هـذا التصرف الـذي لم يألفـه كاسترو، كان أمراً احترمه كاسترو طوال حياته.

ثم، طرأ حادث آخر قضى نهائياً على إمكانيـة دفع فـدية للسجنـاء: وهو أزمـة الصواريخ. بعد فجوة استمرت شهرين، وقف العـالم خلالهما على شفا الحـرب، ثم إطلاق سراح ١١١٣ منفياً أخيراً بعد دفع الفدية التي كـانت عبارة عن أدويـة ومعدات قيمتها ٥٣ مليون دولار أي حوالي ٤٨ ألف دولار لكل مهنم.

وقال كاسترو لدونوفان: «هذه ستكون هدية الكـريسماس» كـانت حياة الـرجال هديته في الكريسماس. كـان الرب الخـالق، يمنح الحيـاة ويأخـذها كمـا يتلاءم مـع هدفه. لكن دونوفان لم يدهش «كان الأمر أقرب إلى تجـارة العبيـد، كـل ما ينقصهم القيود». ومرة ثانية فهم دونوفان الأمر برمته.

وحين صعد آخر سجين بسلام وهدوء إلى الطائرة الأخيـرة، اتجه دونـوفان إلى كاسترو الذي كان يدخن سيجاره الطويل الشهيـر وقال لـه بهدوء وتعقّـل: «أتعرف يـا سيدي، لقد كنت أفكـر في كل الخيـر الذي أقـدمه للشعب الكـوبي خلال الأسـابيع الماضية، كنت أريحك من حوالي ١٢٠٠ ثقل، كما أساعد الأطفال والفقراء والعجائز من أبناء الشعب الكوبي، أعتقد أنه حين تجـري الانتخابـات القادمـة سأعـود وأرشح نفسي ضدك، أعتقد أني سأفوز».

وابتسم كـاسترو، لقـد كان معجبـاً بهذا اليـانكي، المختلف والأذكى بكثير من الأمريكيين الأخرين الذين عرفهم، وأجابه بنصف ابتسامة: «أتعرف يا دكتـور، أعتقد أنك قد تكون على حق، لذلك فلن تكون هناك انتخابات».

في أعقاب خليج الخنازير مبـاشرة، كـان رد فعل كينيـدي المتواضـع والشديـد البـأس، هو بـدء التحالف من أجـل التقدم في أغـسطـس ١٩٦١، خـلال اجتمـاع منـظمة الـدول الأمريكيـة في منتجع بـونتـا دل أيستي في نيكـاراجـوا. لقـد ضحكت المنـظمة في مـايو ١٩٥٩ حين طـالب فيدل كـاسـتـرو في بـوينس إيـريس أن تمنـح الولايات المتحـدة ملايين الـدولارات لأمريكـا اللاتينيـة. والأن، بعد أقـل من عامين وعـدت الولايـات المتحدة بتقـديم مـا لا يقـل عن عشـرين مليـار دولار خـلال عشـر سنوات. لقد أصبح جون ف. كينيدي رئيس الولايات المتحدة القوية، وفيدل كاسترو

زعيم كوبا الصغيرة «الضعيفة» يتنافسان الآن على ما كان في الواقع روح الدول النامية، إذ أن التحالف من أجل التقدم كان وسيلة كينيدي ليس فقط لهزيمة الفقر في أمريكا اللاتينية، ولكن أيضاً لهزيمة عدوه فيدل كاسترو.

لم يكن هناك مهدىء للرئيس كينيدي بعد فشل الغزو، الذي كانت إمكاناته، بعد استرجاع الأحداث، واضحة وسخيفة إلى حد كبير لدرجة أنه لم يستطع أن يصدق أنه أقدم على هذا الخطأ. واختار كينيدي الجنرال ماكسويل تيلور لتشكيل لجنة للتحقيق «حول الدروس المستفادة من خليج الخنازير». ولكن نظراً لأن اللجنة ضمت تقريباً نفس الأشخاص الذين وضعوا خطة الغزو فإنها لم تصل إلى أية نتائج (وهو أمر لا يثير الدهشة). وبينما كان شقيقه يتعذب في المكتب البيضاوي، ازداد غضب بوبي كينيدي بصدد الفشل وازداد إصراراً أكثر من أي وقت مضى على التخلص من كاسترو، هذه المرة بطريقته الخاصة. ففي النهاية، كان الشقيقان كينيدي منافسين على درجة كفاءة عالية، وكان هذا هو أول وأكمل هزائمهما. كانت سياسة الضغط التي مارسها بوبي وراء قيام إدارة كينيدي والمخابرات بتكثيف //عملية النمس//، وهي سلسلة من المحاولات الغريبة لدس السم لكاسترو، واغتياله، وحتى لإذلاله، بمساعدة المافيا. كان هاجس كاسترو يدفع صانعي القرار الأمريكيين، إلى تطرف لم يحلموا أبداً ببلوغه في علاقاتهم مع الدول «الحقيقية».

وقد اعتبر آلان دولس مدير الـ /سي.آي.إيه/ كارثة خليج الخنازير مسألة شخصية وهو الذي كان يبدو بعيداً كل البعد عن أي تفكير ثان. في التاسع من إبريل وصل إلى منزل ريتشارد نيكسون للقائه، وكان عصبياً بدرجة واضحة وغير معتادة. هل كان يريد شراباً؟ وقال رئيس المخابرات: «بالتأكيد، أنا أحتاج فعلاً إلى كأس، هذا هو أسوأ أيام حياتي». ثم، وبأسلوب غير مألوف أيضاً، أعرب عن قلقه عن سبب عدم تحذيره كينيدي من الضرورة القصوى للغطاء الجوي، وقال لنيكسون: «كان يجب أن أخبره أننا لا يجب أن نفشل». ثم هزّ رأسه وقال: «كدت أن أحذره لكني لم أفعل». وسرعان ما أبعد دولس عن المخابرات بل وانتهى منصب رئيس المخابرات الأمريكية إثر انتصار فيدل كاسترو على أمريكا في خليج الخنازير.

لكن كان هناك المزيد، والأخطر من التشعبات، لقد حاول كينيدي بحكمة التعلّم من أخطائه، وقد ذكر لصديقه ثيودور سورينسن بعد ذلك: «حمداً لله أن خليج الخنازير حدث في حينه، وإلا كنّا في لاوس الآن ـ وكان الوضع سيزداد سوءاً مائة مرة عن الآن». لكن من السخرية أن كينيدي حاول تعويض إذلاله في خليج الخنازير

مباشرة بالدخول إلى فيتنام والبقاء فيها بعناد، لعدم رغبته في «التراجع» أو «الخسارة» مرة أخرى.

كما كان الغزو الفاشل هو أول ضياع للأوهام حول السياسات الأمريكية لدى العديد من أفضل الدبلوماسيين الأمريكيين الشبان في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كذلك أوهام الصحفيين وضباط المخابرات ووضع الأسس المريرة لضياع الأوهام ليس فقط في فيتنام، لكن أيضاً في إيران ولبنان ونيكاراجوا وكمبوديا والسلفادور. . . باختصار، كان خليج الخنازير هو أول مثال واضح تماماً لما ستكون سلسلة الإجراءات الأمريكية في مناخ ما بعد الحرب العالمية الثانية فيما يتعلق بغموض استخدامات القوة.

وأخيراً ظهر من خليج الخنازير كادر كوبي جديد تماماً، وترددت أسماء هوارد هانت وبرنارد بيكر ورولاندو مارتينز وفيلكيس رودريجيز وأوجينيو مارتينيز خلال الربع قرن التالي، مراراً وتكراراً وبحسم في أخطر أوقات السياسة الخارجية الأمريكية. كان هناك كوبيون يقودون طائرات مهمات المخابرات الأمريكية في الكونغو، ومهمات البرتغاليين في أفريقيا، كوبيون كانوا لصوص ووترجيت، كوبيون لعبوا دوراً رئيسياً في نيكاراجوا، وفي إيران چيت وفي التحرّك الأمريكي في الخليج العربي. وبهذه الطرق أيضاً كان ما حققه فيدل كاسترو في كوبا يوجه الآن، عن طريق الكراهية له، أجزاء هامة من السياسة الخارجية الأمريكية. وكانت هناك نتيجة أخرى حاسمة.

من موسكو، راقب نيكيتا خروشوف خليج الخنازير أولاً بسرور، وأخيراً بقلق. . . كتب خروشوف في مذكراته: «كنّا واثقين تماماً من أن الغزو هو البداية وأن الأمريكيين لن يدعوا كوبا لشأنها. لقد وضعت الولايات المتحدة ثقتها في المهاجرين الكوبيين مرة، وسوف تفعلها ثانية. . . وظلّ خاطر واحد يتردد على عقلي: ماذا سيحدث إذا فقدنا كوبا. كان علينا أن نتوصل إلى طريقة لمواجهة أمريكا بأكثر من الكلمات. كان علينا أن نتوصل إلى رادع ملموس وفعّال للتدخل الأمريكي في الكاريبي. ولكن ما هو بالضبط؟ كانت الإجابة المنطقية هي الصواريخ».

الفصل الحادي والعشرون

الماركسية اللينينية

«لا تستطع أن تعلم عقائديا قديما خدعا جديدة».

دوروثي باركر

في أول ديسمبر ١٩٦١، وخلال حديث في البرنامج التليفزيوني /الجامعة الشعبية/، تحدث فيدل كاسترو هادئاً وعامداً إلى العالم، أكثر كلماته تحديداً في حياته السياسية كلها: «أنا ماركسي ـ لينيني وسأبقى ماركسيا ـ لينينيا حتى يوم وفاتي».

وكما توقّع كاسترو تماماً، غيّرت هذه الكلمات التاريخ. فكما توقّع بالضبط، فقد حوّلت الروس المترددين إلى عصبيين، لكن مسؤولين كلية عن الدولة «الشيوعية» الإستوائية الشابة التي تبعد عنهم ٨ آلاف ميل، وأكّدت المخاوف الأمريكية من بدء سيطرة حقيقية وكاملة محتملة روسية/ماركسية على العالم الثالث. في خطبة طويلة مليئة بالاستطراد بدأت في الحادية عشر مساء واستمرت حتى ساعات الفجر الأولى، أعاد كاسترو ابتكار الصبي القادم من براري بيران ليحوّله إلى نموذج للشباب الشيوعي الحقيقي، وأعاد توجيه كوبا من دولة غربية مسيحية وإرث تاريخي متفرد تاريخياً، إلى كوبا شرقية، شمولية، وأخيرا كوبا «شيوعية» مهددة.

ومن الغريب أن الروس كانوا الأكثر آرتياباً في كلمات كاسترو. إذ أنه لمدة شهر كامل بعد الخطبة، انتظرت صحف هافانا في ترقّب لأي تقرير من موسكو ولكنها لم تجد سوى الصمت. وحين وصلت الرسائل المتعارف عليها في ذكرى الثورة في الأيام الأولى من ١٩٦٢، كانت مصاغة بحذر شديد ولا تحمل أية إشارة إلى

«اشتراكية» كاسترو، وإلى ‹«ماركسيته ـ اللينينية» الجديدة (أم أنها قديمة؟). كان لدى السوفيت أسبابهم لالتزام الحذر. لقد أيقنوا، حتى لو لم تفعل الولايات المتحدة، أن كاسترو يحاول عامداً توريطهم بلا كلل في الدفاع الأبدي عن كوبا.

كانت الآثار المدوية لاعلان كاسترو أكثر بروزا، لأن كلماته كانت زائفة. لقد كان في سبيله إلى تحويل كوبا فعلاً، ولكن إلى صورته هو، وهذا التحويل سوف يبدأ شاملاً في مجال الثقافة. لقد استولى كاسترو على الثقافة باستيلائه على صناعة الفيلم في كوبا عن طريق تعيين صديقه القديم الشيوعي ألفريد جيفارا، زميل دراسته، مسؤولاً عن المعهد الكوبي للفن السينمائي وعن طريق تدمير مجلة /اثنين الثورة/ وهي الملحق الأدبي لصحيفلة /ريفولوسيون/ التي ينشرها كارلوس فرانكي.

حين قرّر كاسترو التخلص من المجلة، استقر عقله المبدع مرة ثانية على تكنيك التجربة الثانية، في صورة ثلاثة اجتماعات يوم الأحد، ظاهرياً لمناقشة مستقبل الثقافة في كوبا. وجمع أفضل المثقفين في كوبا للّقاء في مكتبة «خوسيه مارتي» العامة في هافانا. وقبل كل اجتماع، وأثناء جلوسه، كان كاسترو يرفع مسدسه ويضعه بعناية على الطاولة، كان الرمز واضحاً، كانت المكتبة تتحوّل إلى إحدى غرف محاكماته، والمثقفون جالسون على جانب يتطلعون إلى «الحكومة» التي هي قاضٍ وهيئة محلفين في آن واحد. وخسر المثقفون. لقد «وجدوا مذنبين» وسرعان ما تمّ تطهيرهم من الحياة العامة.

وسرعان ما اغلقت المجلة، وماتت الثقافة الحقيقية في كوبا، وولدت ثقافة «شعبية»، ثقافة لا تدع مترجمين بين كاسترو والجماهير. ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من أن الشعب الكوبي كان يستجيب إلى كاسترو شخصياً، فإنهم منذ البداية لم يستجيبوا بحماس لثقافته «الشعبية». لقد صفقوا قليلاً للأفلام «الجديدة». لاحظ كاسترو التغيير وأوضح في صدق كبير أن «الحماس تحوّل إلى وعي».

كانت خطوات كاسترو لاتمام التحوّل السياسي لكوبا أكثر تعقيداً، أولاً أعلن تشكيل «حزب الطليعة» والمنظمات الثورية المتكاملة التي ضمّت أفراد السادس والعشرين من يوليو، والشيوعيين والباقي، من هيئة الطلاب معاً، ولتأكيد المنظمات الثورية، القصيرة الحياة إلى حد ملحوظ، إستعمل كاسترو بذكاء أساليبه المسيطرة، التي لا يمكن مقاومتها وهي أساليب «الديمقراطية المباشرة». فحين صرخ في سرور في مئات الآلاف المجتمعين في البلازا: «المؤيدون يرفعون أيديهم» صرخ الشعب ورفعوا أيديهم، لم يعد هناك أفراد بل كتلة واحدة عظيمة تتنفس.

ولكي يعضد سيطرته المقنعة نوعاً والشاملة على الجزيرة، عزّز كاسترو الشكل الزخرفي للمدارس الإيديولوجية التعليمية، مدارس التعليم الثوري، التي بدأها في أوائل ١٩٦٠. كانت تلك المدارس غامضة، معروفة إلى حد بسيط من الشعب الكوبي. كانت المناهج الدراسية تتضمن التجربة الثورية الكوبية ونوع التخطيط المركزي الذي ستحظى به كوبا في المستقبل. وفي بعض الأحيان، كان فيدل يمزح قائلاً ان هذه المدارس تمنح درجة الماجستير في الشيوعية، لكن الأمر كان أكثر تعقيداً من ذلك، كان التركيز على مواد الشيوعية العلمية، الإلحاد العلمي، بناء الحزب والصراع الإيديولوجي.

وكثيراً ما كان التلقين ينزلق بنعومة نحو الأفكار المثالية لفيدل وجيفارا عن الشكل النقي، التام للشيوعية، على الرغم من التشدّد البارد لمعلمي الشيوعية القديمة. وأبرزت أهمية الحوافز النفسية التي تعلو على الحوافز المادية، على سبيل المثال، بل وحتى الأحلام الغريبة مثل تدمير النقود. وبهذه الروح الفيدلية النقية، كان الطلاب يتوجهون إلى سييرا مايسترا حيث يتعرفون على غوامض عالم الفيدلية الساحر والمقدس. في هذه الأيام الدقيقة، كان شخص وشخصية فيدل كاسترو مثل إعصار يتسلط على أذهان هؤلاء الكوادر الكوبيين المذهولين والباحثين. وكانوا يمنحون حياتهم وأرواحهم للحفاظ عليه.

لكن منذ البداية، إذا عرف هؤلاء الطلاب وتعلموا ماركسية كاسترو السحرية، فإن ما عرفوه عن الشيوعية الحقيقية، المنظمة والمقننة كان قليلاً، ويقول خوان بنميليس أحد أهم دبلوماسيي كوبا في أفريقيا فيما بعد، وهو يتذكر أيام المدارس الثورية «نحن الكوبيون وصلنا إلى العالم الماركسي في لحظة بلبلة شديدة، لم نكن على علم بتاريخ الدول الماركسية. على سبيل المثال، كانت صدمة أن نكتشف الشقاق، والفجوة بين الاتحاد السوفيتي والصين. كانت صدمة أن نجد تفسيرات مختلفة للماركسية».

ومع ذلك فإن خضوعهم لسحر الزعيم جعل البعض يشعر بضياع شخصيته، كان يسبح في الفضاء، بدون مرساة. وسأل خوان بنميليس نفسه بعد سنوات «لماذا أضعنا شخصيتنا؟». لقد كانت مسألة ضمنيّة في العملية. كان كاسترو الشخصية، الشخصية الوحيدة. «أنا جاءت ثم أصبحت «نحن» بطرق ما، كانت طريقة محو الشخصية وسيلة لإفلات شخصية» وتوقف الدبلوماسي ثم استطرد: «أحياناً لم تكن تعرف من أنت. في كوبا، كنا بمفردنا، خائفين من الدولة. لم تكن تملك الدين،

أو الإيديولوجية لمواجهة الأشياء. وسرعان ما تدخل شفاطة. لم يكن يُدع لك أي خيار».

أطلق على عام ١٩٦٢ «عام التخطيط» وهو لفظ يبدو بشكل ما، غير واقعي لأنه حتى «التخطيط» القائم كان فوضوياً بشكل يدعو للسخرية. في يناير طردت كوبا من منظمة الدول الأمريكية بدعوة من الولايات المتحدة، وكان رد كاسترو على الإهانة يتفق تماماً مع شخصيته إذ أصدر «إعلان هافانا الثاني،» الاستفزازي الذي لم يكن أكثر من دعوة ثورية «للكفاح المسلح» في كل دول المنطقة، في الوقت نفسه وعلى الصعيد المحلي، تمّ فرض ترشيد للطعام والسلع الاستهلاكية في إحدى أكثر الدول الزراعية ثراء على وجه الأرض.

خلال كل هذا الوقت، كان كاسترو دائما وأبدا خاضعاً لفكرة متسلطة عليه هي تسليح كوبا. فلم يكن انتصاره في خليج الخنازير يريحه، فقد كانت حاجته الداخلية العميقة لبناء عسكرية كوبية قوية قد ازدادت جداً بعد الغزو.

لذلك قام راوول برحلات متكررة إلى دول الكتلة الشرقية وإلى موسكو. في يوليو ١٩٦٢، خلال إحدى زيارات راوول إلى «الداشا الريفية» التي يملكها نيكيتا خروشوف، قال كاسترو أخيراً ما أراده. فقد أصبح راوول والزعيم الروسي صديقين لدرجة أن خروشوف كان كثيراً ما يصطحب معه عشيقته الجميلة السيدة فورتسيفا التي عيّنها وزيرة للثقافة، ليستمتع بأمسية خاصة مع راوول الذي كان يدعو الزعيم الروسي بكلمة «جدي».

في إحدى هذه الأمسيات، كما يقول أماندو لوبيز، رئيس مركز المخابرات الكوبي في باريس، كان الرجلان مأخوذين بإحدى مناقشاتهما المعتادة حول الأسلحة والأمن حين ضرب خروشوف، بتألّق خاص وجديد في عينيه الماكرتين، على المائدة فجأة بقبضته. كان صوته يحمل فخراً جديداً وغطرسة جديدة أيضاً وهو يصرح: «الأكثر من ذلك سوف أعطيك أسلحة هجومية، لأنه حين تتعرض للهجوم يصبح من حقك أن تهاجم وتدافع عن نفسك».

وراكم خروشوف التحدي فوق التحدي، ولأسباب غير مفهومة تماماً في واشنطن في تلك الفترة. وكان جلب الصواريخ والقوات الروسية إلى كوبا يعتبر تحدياً مذهلاً للتاريخ، إذ أنها المرة الأولى منذ حملة نابوليون الثالث المأساوية على مكسيكو، التي تحاول فيها قوة غير أمريكية وضع قدمها في الأمريكيتين. المبادرة

نفسها يمكن أن تقضم ظهر مذهب مونرو رمزياً وفعلياً، وبالتالي نصف الكرة الغربي المغلق والمحمي سابقاً. كان نشر الصواريخ ـ التي يتراوح مداها بين ألف وألفي ميل ـ سيضاعف قدرة روسيا على ضرب الولايات المتحدة والأهم أنه ربما تقدر هذه الأسلحة، التي تقترب من الجنوب، الإفلات من نظام الإنذار المبكر وبالتالي تخرب أي عملية ثأرية. ولكن من أين جاءت الفكرة الجريئة لإقامة صواريخ في كوبا؟.

لقد درس نيكيتا خروشوف هزيمة خليج الخنازير وأيقن أن كينيدي، كما قال جيمس ريستون محرر النيويورك تايمز، كان «زعيماً شاباً عديم الخبرة يمكن تخويفه وابتزازه».

وكتب خروشوف في مذكراته: «لقد فكرت أنه إذا وضعنا الصواريخ سراً، ثم إذا اكتشفت الولايات المتحدة مكانها بعد الانتهاء من إقامتها وأصبحت مستعدة للضرب، سوف يفكر الأمريكيون مرتين قبل محاولة تصفية منشآتنا بالسبل العسكرية». كانت خطة رومانسية إلى حد مذهل وانتقامية بأسلوب مرض للفلاح الأوكراني الذي رأى في كوبا قرية عادية ومع ذلك كان يحلم بالتوسّع السوفيتي في العالم. وكان هناك جزء آخر في الأمر: فإنه مثل كثيرين من زعماء الدول الذين كان لهم الحظ العاثر في الجلوس متفرجين على طرق الغزو البربرية الأبدية، فإنه أغفل عامل الحماية الجغرافية الفريدة التي تتمتع بها أمريكا. لقد شعر «أن الوقت حان لأن تتعلم أمريكا كيف يكون الأمر حين تتعرض أرضك وشعبك للخطر».

لكن من المؤكد أيضاً أن كاسترو كان يمهد الطريق بمهارة لمثل هذا //الاحتمال//، إذ أنه منذ عملية خليج الخنازير في ربيع ١٩٦١، وحتى أزمة الصواريخ في خريف ١٩٦٢، كان الدبلوماسيون الكوبيون في كافة أنحاء الكتلة الشرقية في جلساتهم الدبلوماسية الخاصة يؤكدون مراراً على رسالة واحدة، الأمريكيون سيغزون كوبا مرة ثانية، ولكن في هذه المرة بقوات أمريكية.

وكانت القصص التي سردها كاسترو فيما بعد حول أزمة الصواريخ تتغير باستمرار تبعاً للموقف، ولكنه قال عدة مرات ما يعتبر الأقرب إلى الحقيقة. فقد قال لخوليو شيرير من مجلة /بروسيسو/ المكسيكية: «لقد زرعنا فكرة الغزو الأمريكي لكوبا مع السوفييت، وفكرة الإجراءات التي يجب أن يتخذوها من أجل تجنبه، لأن غزو كوبا يمكن أن يؤدي إلى أزمة عالمية. كان الاقتراح يقتضي بإقناع واشنطن أنهم قادرون على إطلاق الشرارة التي ستؤجج النار في العالم. هكذا نشأت فكرة وضع صواريخ في كوبا».

ثم جلس كاسترو لينتظر، وكان انتظاره قصيراً.

في أواخر أغسطس بدأت السفن الروسية حاملة شحنتها القاتلة في التسلّل خارجة من مخابئها السرية في البحر الأسود. وفيما بين ١٨ و ٢١ سبتمبر بدأت التقارير تصل إلى واشنطن عن تحركات لا تفسير لها في منطقة سان كريستوبال الجبلية التي تكسوها الغابات في كوبا، لكن أحداً لم يرغب في تصديق مثل هذا الاحتمال الوقح كإقامة صواريخ. ومع ذلك، لولا انشقاق أوليج بنكوفسكي الرجل العسكري السوفيتي وهربه إلى الغرب حاملاً معه خطط هذه الصواريخ، ما كان الأمريكيون ليتعرفوا عليها باعتبارها الأسلحة الجديدة، وبدون التقارير من رجال حرب العصابات في كوبا ومن العملاء الذين تساندهم المخابرات الأمريكية، خاصة العملاء الذين كانوا يقيمون بالقرب من موقع الصواريخ لما صدقوا الأمر. ولولا تكبر الروس، الذين أهملوا حتى التمويه على الصواريخ من أن تلتقطه كاميرات الطائرة /يو-٢/، لما اقتنع الرئيس كينيدي كلية.

وعند هذا الحد كان يمكن مشاهدة كاسترو في حالة طرب نابولينية. لقد كان عالم القوتين العظميين عند قدميه. لقد كان يحدد تحركاتهما، هو الذي يحددها وليس هم. من كان ضعيفاً الآن؟ في هذه الأيام «الساخنة»، كان يضع حتى «الخطط الطارئة» مثل تفجير سفينة.

وما أن صدق الأمريكيون أن الروس يحاولون عامدين تهديد الأراضي الأمريكية مباشرة، حتى راقب كاسترو بسرور وانفعال الحالة النفسية في واشنطن وهي تشتد حرارة. لقد كانت «أخطر أزمة شهدها العالم» (دين راسك)، لقد كانت «جتيسبرج الحرب الباردة» (تيودور سورينسن) وأخيراً أصبحت «أفضل ساعة في رئاسة كينيدي» (آرثر شلزينجر الابن) وحول احتمالات الذهاب إلى الحرب، ذكر كينيدي أنه يعتقد أنها «واحد إلى ثلاثة أو أكثر». وفي بوينس إيريس كان بيلي جراهام يلقي موعظته لنحو عشرة آلاف مستمع حول «نهاية العالم».

إلا أنه سرعان ما تضاءلت سعادة كاسترو. فقد أصبح من الواضح فجأة، أن شيئاً يسير في الاتجاه الخاطىء تماماً في السيناريو الذي أعده. إذ لم يكن كاسترو- سبارتاكوس المتمرد في هذا النضال الذي يهدد بدمار العالم في غرف القوتين الأعظم - يشار إليه حتى من الرجال الذين اختارهم ليراهم ومن بين يديه. في الواقع، انه ما أن انحصر النزاع بين واشنطن وموسكو لم يعد اسم فيدل كاسترو يثار في المناقشات مرة أخرى!.

هذا الأمر نزل كالصاعقة على كاسترو. لقد دخل لعبة الأمم ليديرها بغرور ولكن ما أن بدأت اللعبة تأخذ شكلاً جدياً بدأت أطرافها تديرها. وكان رد فعله الغاضب أن بدأ أولاً في زيادة الخوف وسط الشعب الكوبي. لقد ظلّ شهوراً يعد الجزيرة «للمعركة الأخيرة» مع الأمريكيين. الآن بدأ يتكلم عن موقف نهائي وأخير. وبدون أن يبدو منتصراً في تلك الأيام بدأ يعقد اجتماعات في الجامعة يخبر خلالها الطلاب بنبرات هامسة كئيبة أن عليهم أن يستعدوا لشد أحزمتهم أكثر قليلاً بل وربما لملاقاة الموت. وكان المراقبون الأجانب أكثر من مذهولين لرؤية الأسلوب الذي «استعدّ به الشباب الكوبي للتضحية بحياته من أجل فيدل».

في الوقت نفسه كان فيدل، كما أخبره سولزبرجر الصحفي في النيويورك تاميز، «محظوظاً لأن تكون له أهميته التاريخية في هذا الوقت حين تكون القوىٰ العظمى الحقيقية مثل الولايات المتحدة وروسيا أقوياء لدرجة الضعف، كانت قدرتاهما على التحرّك مشلولة تقريباً بالإمكانيات الرهيبة لأسلحتهما وهذا يسمح بالمزيد من حرية التحرّك للدول الأصغر». وكاسترو بالطبع فهم هذا الواقع تماماً.

ثم في يوم السبت ٢٧ أكتوبر ١٩٦٢، أسقطت كوبا الطائرة /يو ـ ٢/ بقيادة الميجور رودولف أندرسون الذي أحضر الصور الأصلية لمنشآت الصواريخ، وحين ارتطم هذا «الطائر» الغريب بأجنحته العريضة بالأرض، انهارت أزمة الصواريخ معه. وفي البيت الأبيض بدأت الاستعدادات للحرب، وكما قال بوبي كينيدي: «لقد التفت الأنشوطة حولنا جميعاً... وتحطمت جسور الهرب».

لكن، من أطلق الصاروخ الذي أسقط الـ /يو ـ ٢/ وكاد أن يبدأ الحرب العالمية الثالثة، هل كانوا الروس كما افترض الجميع حينئذ؟.

إن حقيقة ما حدث فعلاً ظلت مجهولة لسنوات عديدة، وحتى اليوم هناك روايات متعارضة. كارلوس فرانكي كان أول من اتهم كاسترو. وأصرّ على أن كاسترو أسقط عامداً الطائرة ليصل بالعالم إلى حافة الدمار، لأنه شعر أنه أُبعد من وسط القوىٰ في الأزمة العالمية التي اختلقها هو شخصياً.

في الواقع أنه في ذلك السبت، أصرّ فرانكي حتى اليوم على أن //كاسترو قاد سيارته الجيب إلى بينار ديل ريو وتوجّه إلى إحدى قواعد الصواريخ الروسية حيث أخذه الجنرالات السوفيت في جولة في منشآتهم. وفي هذه اللحظة، ظهرت طائرة /يو ـ ٢// أمريكية على شاشة الرادار. وسأل فيدل كيف يمكن للسوفيت أن يحموا

أنفسهم في الحرب إذا كانت تلك طائرة هجومية بدلاً من طائرة استطلاعية، وأراه الروس الصواريخ أرض/جو وقالوا إن كل ما عليهم فعله هو الضغط على زر وتنفجر الطائرة في السماء.

وسأل فيدل: «أي زر؟».

وأجابه أحد الروس: «هذا».

وضغطه فيدل وأسقط الصاروخ الطائرة... وذهل الروس، لكن فيدل قال ببساطة: «حسناً، الآن سوف نرى إذا كانت الحرب ستشتعل أم لا!».

ورغم شهادة فرانكي الملونة، فإن أكثر النظريات مصداقية حول ما حدث فعلاً في السابع والعشرين من أكتوبر هو أن القائد الروسي لإحدى بطاريات الصواريخ، على الأرجح دون أوامر من خروشوف، أسقط الـ /يو-٢/ لعصبيته أو عفواً. وهذه كانت نتيجة تحقيق إدارة كينيدي والروس. وكتب إليكسندر اليكسييف السفير السوفيتي لدى كوبا، في مقالة لوكالة تاس: «في الواقع، كما نعرف الآن، لقد ضربت الطائرة بناءً على أمر مجموعة من القوات السوفيتية في كوبا. وقد أسقطها قائد المجموعة». ويؤيد تقرير هارفارد هذه المقولة. وفي حالة البلبلة التي ظهرت في تلك الأيام - بلبلة شملت مسألة الأوامر، جاءت أم لم تجيء من موسكو - توصلت مجموعة هارفارد إلى أن «القائد المحلي الذي أعطى أمر إطلاق الصاروخ كان الجنرال جورجي فورونكوف، الذي تقاعد الآن ويعيش في أوديسا».

ما كان مؤكداً هو حقيقة أن إسقاط الـ /يو-٢/ أدّى مباشرة إلى الإمكانية الفعلية لقيام الولايات المتحدة بمهاجمة كوبا يوم الأحد ٢٨ أكتوبر وموافقة السوفيت على سحب الصواريخ مقابل وعد أمريكي بعدم غزو كوبا.

لقد انتهت الأزمة، وراقب كاسترو بعينين مرتابتين العالم وهو يصفق لإدارة كينيدي لأنها لم تلجأ إلى إذلال خروشوف ومع ذلك دفعت الروس لسحب الصواريخ. كما شاهد القوات الروسية التي جلبت الصواريخ إلى كوبا، وهي تفككها وترسلها إلى الوطن. لقد ترك كاسترو وحيداً، في ذروة الغضب بعد أن تعلّم فعلاً لأول مرة أنه رغم ذكائه في التلاعب بكبار العالم الحديث، فإنه حين يتعلق الأمر بالقرارات «الكبيرة» فإن الدول الكبرى تتخذ قراراتها بنفسها.

وأثناء خروج الصواريخ من كوبا، انطلق لسان كاسترو بكل السباب واللعنات التي يعرفها، لاعناً خروشوف أمام ناشري /ريفولوسيون/ صارخاً: «ابن الداعرة، ابن

السفاح اللعين». وفي وقت لاحق قال عن خروشوف إنه «شاذ جنسياً». ثم وهو لا يزال يسب، بدأ يدور حول نفسه ثم ركل بعنف المرآة الهائلة المعلقة على الحائط لتنهمر الشظايا على المكتب كأنها شلال مياه.

لكن مدى رد فعل كاسترو الحقيقي، والشديد العنف، على إذلالات أزمة الصواريخ لم يتضح إلا لاحقاً بعد اجتماعات جامعة هارفارد في كمبريدج، موسكو وهافانا خلال الفترة بين ١٩٨٨ و ١٩٩٠. فمن بين ما ألقت عليه هذه الاجتماعات الضوء كان محاولة كاسترو، في أيام الأزمة الخطيرة، لإقناع خروشوف بضرب الولايات المتحدة بالصواريخ النووية. ولا تزال بعض الشكوك تحيط ببرقية معينة أرسلها كاسترو إلى الزعيم الروسي. (هل كانت البرقية تطالب بهجمات نووية أم أنها فقط «تؤكد استعداد الشعب الكوبي للقتال حتى آخر رجل وآخر رصاصة في الهجوم الأمريكي». كما أشار المسؤول الكوبي أميليو أراجونيس). إلاّ أنه لم يعد هناك مجال للشك الكثير حول استعداد كاسترو التام (تنفيذاً لوعده في سييرا مايسترا بأن تكون حربه التالية ضد الأمريكيين) لشن حرب نووية ضد الولايات المتحدة. وفي الواقع ان نيكيتا خروشوف أكّد هذا الاستعداد حين طُبع الجزء الثالث من مذكراته في خريف ١٩٩٠. كان كاسترو يرغب في ضربة نهائية ضد الولايات المتحدة!.

ويتذكر جيمس بلايت عالم النفس في جامعة براون والمعروف باهتماماته التاريخية، بصدد اجتماعات مجموعة هارفارد أن «التحدّث إلى الكوبيين عن أزمة الصواريخ أشبه بالتحدث مع والدي عن بيرل هاربور. فذكر وقت لهم معناه أن يتذكروا بالضبط أين كانوا». وفي موسكو أخبرنا سيرجي خروشوف «أن والده تذكر تلقيه برقية تحثّه على شن ضربة ساحقة ضد فلوريدا على الفور. وأخبرنا أراجونيس أنهم فهموا أن الصفقة أن تطلق الصواريخ إذا هاجمت أمريكا كوبا وأن الأمر صدر من موسكو».
في الوقت نفسه، جاء في التقرير النهائي لمجموعة هارفارد، وهو الطبعة الثانية من /على حافة الهاوية/ أنه نظراً لأن الكوبيين لم يكن لديهم «ثقافة نووية» فإن «نتائج الغزو الأمريكي الشامل على كوبا لم تكن لتحدث فارقاً هاماً عن نتائج الحرب النووية، ففي كلا الحالتين سوف تنمحي الجزيرة». واختتم هذا التقرير الهام بأن «رغبة كاسترو الواضحة في رؤية الصواريخ النووية السوفيتية وهي تطلق من الأراضي الكوبية في حالة الغزو الشامل يجب أن تؤخذ من هذا المنظور».

واعتبرت الأزمة كلها بأكملها التي افتعلها كاسترو، على الصعيد التاريخي، أقرب لحظة كان فيها العالم على شفا حرب نووية، وكان كاسترو بالتأكيد يرحب بمثل

هذا الاحتمال. لكن سوء التاويل، وسوء الحكم كانا متوافرين لدى كلا الجانبين. لقد اعتقد الأمريكيون أن هناك ١٢ ألف فرد في كوبا في حين أنه في الواقع كان عددهم ٤٢ ألف. لذلك فلو أن الغزو تمّ، للقي آلاف آخرون مصرعهم أكثر مما قدرت واشنطن. لكن أصداء أزمة الصواريخ التي اختلقتها كاسترو، مثل الأصداء التي أعقبت خليج الخنازير، انتشرت مثل موجة عاتية حيث أثرت //كوبا الصغيرة// مرة أخرى على العلاقات الأمريكية في كل مكان.

ومضت سنوات قبل أن تفهم الدولتان العظميان العدوتان فعلاً كيف قادهما كاسترو ضد بعضهما البعض. والأكثر إثارة للاضطراب، هو معرفتهما كم كان سهلاً على كاسترو افتعال مثل هذه المواجهة لأن كلاهما أساء فهم الآخر إلى حد بعيد. وفي لقاءات هارفارد وموسكو بين كبار المسؤولين الأحياء من الأمريكيين والروس خلال أزمة الصواريخ أعرب كل طرف عن ذهوله لما حدث من سوء فهم في تلك الفترة ـ ومن لجوء كاسترو إلى التلاعب بهم كلدمى، وقد هزّ ماكجورج باندي، مستشار جون كينيدي للأمن القومي رأسه وهو يفكر في سوء الفهم التاريخي الذي لم يبدأ أحدهم حتى في فهمه في ذلك الحين. وأكد: «لم يكن لدينا نية غزو كوبا، لذلك كان الدافع السوفيتي الأولي أمراً لم نفهمه مطلقاً. ولأننا لم نر الدافع، لم نهتم به... الشيء الوحيد الذي عرفناه هو أننا لا نريد تكرار خليج الخنازير».

وتنتهي المشاعر البغيضة: لتترك مساحة، في الوقت المناسب، للاهتمام بالنفس. ولم يشهد الشعب الروسي منذ الحرب العالمية الثانية عرضاً مثل رحلة فيدل كاسترو الناجحة عام ١٩٦٣. لقد جاء، وشاهد، وبقي، وبقي، ... وبقي. ومن يوم ٢٧ إبريل إلى ٢٣ مايو، طار مثل عنقاء حديثة، وتجول مثل جاليفر ثوري وأثار حيرة الاتحادالسوفييتي كله كما لم يفعل زائر أجنبي في العصر الحديث. لقد جاء في الربيع الروسي يرتدي قبعة فرائية، وحين وصل إلى موسكو كان هناك أكثر من مائة ألف روسي يحتشدون لتحيته في الميدان الأحمر. لم يستطع خروشوف الترحيب به أو الإعجاب به بالقدر الكافي ـ لقد ذهب إلى حد أنه أمر بعزف نشيد ٢٦ يوليو في الميدان الأحمر وكانت أول مرة منذ ٤٥ عاماً يعزف فيها سلام وطني أجنبي خلال عرض سوفيتي.

وفي ليلته الثانية في موسكو، قرّر فيدل فجأة القيام «بجولة سيراً على الأقدام في الميدان الأحمر». كان ذلك يوم الأحد ٢٨ إبريل، حوالي العاشرة مساء، وقد أنهى كاسترو ومجموعته العشاء لتوهم، حين قرر كاسترو فجأة مغادرة وكره في

الكرملين. . . ويتذكر خوان أركوكا المثقف الكوبي الراديكالي ومراسل /ريفولوسيون/ في موسكو في ذلك الحين: «أنه كانت هناك حالة استياء عامة في القصر القديم. وجنّ الخدم وبدأوا يذرعون الممرات، ودقت التليفونات في المكاتب المظلمة في أرجاء القصر. وخرج الحراس فجأة عن مللهم، واتسعت أعينهم. ماذا يحدث؟ هذا ليس ضمن البرنامج. والأسوأ أن شيئاً مثل هذا لم يحدث من قبل. والنتيجة أنه لم تكن لديهم فكرة واضحة عما يجب عمله». وحين عاد كاسترو إلى مقرّه، لاحظ أركوكا نظرة صبي شقي على وجهه. كم استمتع بهز الإمبراطورية الروسية؟

في هذه الرحلة، في كييف العاصمة الأوكرانية المسيحية، وأثناء زيارة لمصنع، رأى كاسترو فجأة شقراء روسية رائعة. وقال مساعد كاسترو لأركوكا وهو يشير إليها: «كاسترو معجب بها، أحضرها له الليلة». ويتذكر أركوكا «خوفاً من اعتباري متمرداً سألته نظراً لمعرفتي باللغة فهل لي أن أعرف متى أتوقف عن الترجمة؟» ويقول ان المساعد لم يبتسم وقال بجفاء، «هذا أمر». واتضح أن الشقراء مستعدة تماماً لمثل هذه المغامرة، ولم يتلق أركوكا أو المساعد أدنى لوم في الصباح التالي، ولا أية تعليمات جديدة بصدد الترجمة.

لكن كاسترو عاد إلى كوبا «بنصره» الروسي برسالة جديدة مثيرة للشعب الكوبي: سوف يفرض هو والروس مرة أخرى على كوبا ما أسماه، حين كان أمريكياً، باقتصاد قصب السكر «المذل، الظالم، والمؤدي للتدهور». لقد قبله مضطراً. وقد أكد له السوفيت أنهم سيدفعون أكثر للسكر الكوبي وأنهم سيصممون آلة جمع ميكانيكية خلال عامين. سكر، نعم. محصول واحد، نعم. لكن زراعة واحدة صناعية؟.

أمام الشعب الكوبي، وقف كاسترو وردّدد مقولة خروشوف: «كما قال الرفيق خروشوف، لقد حللنا مشكلة السفر في الفضاء فهل نفشل الآن في بناء آلات لحصاد قصب السكر، وهي مشكلة بسيطة لا تقارن؟». وبمشاهدة كاسترو يردّد هذه الكلمات على التليفزيون، هزّ البروفسور الكندي موريس هالبيران رأسه وقال: «إنها المصيدة الكلاسيكية التي يسقط فيها الهواة حين يطلعون على روائع التكنولوجيا والاقتصاد السوفيتيين. والحقيقة، بالطبع، إن تطوير التكنولوجيا الفضائية - وهو مجال متقدم ولكن ضيّق في التخصّص - ما أن أعطيت الأولوية الأولى له من الدولة السوفيتية، أصبح أيسر من إقامة صناعة حديثة، جماعية تتطلب تدريب وإدارة مئات الآلاف من العمال غير المهرة، إلى جانب التعقيدات الأخرى».

لم يكن لحياة كاسترو الخاصة وجود تقريباً لدى الشعب الكوبي الآن. وكان إعلان وفاة والدته في أغسطس ١٩٦٣ هو آخر إشارة لحياته الخاصة في الصحف (وعلى سبيل المثال لم تذكر الصحف شيئاً عن هرب شقيقته خوانيتا المأساوي إلى الغرب عام ١٩٦٤). لقد طبق كاسترو بدقة وغريزياً إحدى القواعد الرئيسية للشخصية الديكتاتورية الكاريزماتية، لا حياة خاصة ظاهرة، لا حباً فردياً، ولا حاجة علنية للآخرين.

عامة، استمرت علاقة كاسترو وناتي ريفويلتا في تلك السنوات، وكثيراً ما بقيت معه في منزل الشاطىء. ورحلت ميرتا للحياة في مدريد مع زوجها الثاني إيميليو نونيز وبنتيها، ميرتيكا، وأميريكا أو «ميكي». وظهر بغضه لزوجته السابقة، أو ربما حبه المستمر - مرة واحدة حين وجد كاسترو ميرتا وايميليو يتعشيان في مطعم وأمر أوسكار موري بإلقائهما خارجاً (ورفض موري).

بقي فيدلتيو في هافانا فترة، بل وظهر في برنامج تليفزيوني أمريكي مع والده بعنوان /وجهاً لوجه/. وكان صبياً ضعيفاً، يرتدي البيريه مثل والده. وقد وصفه أبناء خالته بأنه //صبي عنيد ويبدو دائماً كأنه يفتقد شيئاً أو أباً//. وسرعان ما اختفى فيدلتيو عن الساحة العامة ووضع سراً في مدرسة تحت اسم مزيف حتى السنوات الأخيرة، حين بقي في روسيا تحت اسمه الحركي، راوول مارتينيز، وتزوج من روسية شقراء جذابة.

وفي الوقت الذي لم يشعر فيه فيدل بأي ارتباط بأسرته، كان يعود غالباً إلى بيران، إلى المزرعة. وهناك كان يحقق وعوده لشعبه كما يفعل الرب مع رعيته. على سبيل المثال توجّه ذات ليلة لتناول الروم في /نادي ماركاني/ في ماركانيه القريبة. وكان الوقت متأخراً وقد هطل المطر غزيراً، وبينما كان يشرب الروم، جاء فيللو ألكالدي أحد جيرانه القدامى إليه، وكان شاباً أنيقاً، وسأل الرجل القوي عما يمكن أن يفعله في باقي حياته. فسأله كاسترو عما يريده، فأجابه، أنه يريده أن يأخذه معه إلى هافانا للحياة المترفة. ثم أمسك لحية فيدل وقال «ما أجملها من لحية».

وقبل أن يفتك به حرس كاسترو لحركته الجريئة أوقفهم فيدل قائلاً انه «يمكنه أن يفعل ذلك لأنه من الأسرة». وبعد أيام قليلة، جاءت سيارات عسكرية تسأل عن منزل فيللو، وانتقل إلى هافانا حيث يؤكد جيرانه أنه أدمن الشراب عاماً بعد عام.

كان كاسترو يتردد على جزيرته، ولكنه لم يكن أبداً بمفرده، فلقد كان حرسه

الخاص المدرب يصحبه إلى كل مكان. وكانوا يقدمون تقاريرهم مباشرة إلى راميرو فالديز وزير الداخلية وإلى الـ /كي.جي.بي./ التي دربتهم. إلاّ أن عاداته غير المتوقعة (فقد كان يأبى النوم ليلتين متتاليتين في نفس المكان) جعلته هدفاً صعباً وكالعادة كانت //غريزته// أفضل حماية له. «في تلك السنوات التي أعقبت إذلال أمريكا في خليج الخنازير كان كاسترو في حاجة إلى كل الحماية التي يستطيع أن ينالها، وإلى بعض الحظ أيضاً. إذ أن خليج الخنازير لم يسو شيئاً بين كاسترو والشقيقين كينيدي، بل على العكس زاد علاقتهم سوءاً إلى أقصى حد.

كان كاسترو على علم بما يجري، كان يعلم أن الحكومة الأمريكية تعمل مع المافيا على اغتياله، وبالنسبة له كانت تلك مجرد تكرار للأيام الخوالي في هافانا، حين بدأ برنامجه لتطهير المدينة من النساء ووضع ماير لانسكي زعيم الغوغاء «مكافأة» مليون دولار لمن يقتله. والآن يرقب كاسترو الولايات المتحدة تحطم قوانينها الخاصة، لا من أجل برلين، ولا من أجل تهديد نووي من روسيا ولكن بسبب كوبا، دائماً كوبا الصغيرة.

في الحقيقة ان محاولات عصابات السي. آي. أيه. المأجورة ضد كاسترو بدأت مقترنة بغزو خليج الخنازير. التقى رجل العصابات جوبي روسيللي والزعيم سام جيانكانا في مارس ١٩٦١ في «فندق فونتان بلو» بميامي مع سانتوس ترافيكانتي زعيم مافيا فلوريدا، حيث أعدت الأموال وكبسولات السم. وبدأ المتآمرون في إعداد خطط الاغتيال مثل وضع السم في الشوربة أو الوسائل «البديلة». كانت هناك خطتان رئيسيتان للاغتيال، أعدتا لتتزامنا مع الغزو، واحدة مع المافيا والأخرى بالتعاون مع المقاومة الكوبية. وبسبب مفاجأة انتصار كاسترو لم تنفذ أي منهما ولكن هذه الحقيقة خلقت إحساساً متزايداً بضرورة تنفيذ خطط ما بعد الغزو. وفي إطار الغضب والإحراج داخل واشنطن بعد الغزو، أصبحت المحاولات أكثر «إحتراماً».

ومن السخرية أن واحداً من الرجال القليلين الذين انتقدوا علانية تخطيط خليج الخنازير وهو الجنرال أدوارد لانسديل عيّن مسؤولاً عن «عملية النمس». والجنرال لانسديل رجل طويل القامة من ضباط القوات الخاصة، وقد نجح في شن عمليات حربية «غير عادية» في الفلبين لدحر رجال حرب عصابات هوكبالابس التي يؤيدها الشيوعيون. وكان لانسديل رجلاً ذكياً ومجدداً دون شك، لكن ما مرّ به من أوقات جعلته يكاد يفقد رشده. لقد استخدم كيماويات غير مصرّح بها لإضعاف عمال السكر، واستأجر «عناصر العصابات» لمهاجمة ضباط البوليس. ويؤكد شاهد أن

لانسديل ذهب إلى حد نشر الشائعة حول عداء كاسترو للمسيح وأن يوم القيامة وشيك.

تعددت المحاولات لإغتيال كاسترو، لكن راميرو فالديز وزير الخارجية يؤكد أن واحدة فقط، كادت تنجح. كان كاسترو كثيراً ما يتوقف لتناول مشروب باللبن في كافيتريا /هافانا ليبر/ وفي إحدى المرات كان عامل الكافيتيريا، الذي إستأجرته المخابرات الأمريكية، على وشك وضع كبسولة سيانيد في المشروب لكن الكبسولة كانت مجمدة وتحطمت ولشدة عصبية الرجل لم يستطع التقاط الأجزاء ووضعها في اللبن.

وبعد قليل من أزمة الصواريخ، توقفت «عملية النمس» ومن غرائب التاريخ أن الرئيس الأمريكي الشاب جون كينيدي اغتيل بعدها في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣، ولسنوات ظلّ الخبراء والرأي العام على حد سواء يتساءلون عن وجود صلة بين وفاة كينيدي والمحاولات ضد حياة كاسترو. وتوجد أسئلة كثيرة لا تزال بلا إجابة، ومع ذلك فهناك بعض المؤشرات.

كان كاسترو في فاراديرو هذا اليوم يتحدث مع جان دانييل رئيس تحرير صحيفة /اكسبريس/ الفرنسية. ومن المفارقات أن دانييل كان يسعى لمناقشة التقارب المحتمل بين كينيدي وكاسترو. وكان أوسكار موري، المسؤول عن إدارة إملاك فاراديرو لفيدل، هو أول من حمل له الخبر المذهل عن إطلاق النار على الرئيس كينيدي، وموري دقيق جداً فيما يتعلق بما حدث ويقول: «لدي كتب تتحدث عما قاله وما لم يقله فيدل، وأنا أعرف، لأني، من نقل إليه الخبر. . . لم يفعل شيئاً. لم يأت بحركة، أو حتى رمشة عين. الشيء الوحيد الذي فعله هو أنه لم يتحدث بعد ذلك. لقد توجّه إلى حجرة المعيشة وجلس ولم يقل شيئاً. تعبيره، لم يكن الحزن».

يتذكر جان دانييل أن «كاسترو اتجه إلى التليفون وقال ماذا؟ محاولة إغتيال، ثم ألتفت إلينا وقال ان كينيدي اغتيل لتوه في دالاس. . . ثم عاد إلى التليفون وقال بصوت عال: جرح؟ إصابة خطيرة جداً؟ وعاد وجلس وكرّر ثلاث مرات الكلمات: هذا سيء جداً. ثم بقي صامتاً لفترة في إنتظار إتصالِ هاتفي اخر يحمل المزيد من الأنباء».

وألتفت المجموعة الصغيرة، حول الراديو في منزل مزرعة فاراديرو بنوافذه الكبيرة المطلة على الشاطىء الفيروزي الخلاب وأثاثه البسيط: «كينيدي أصيب في

رأسه، متابعة القاتل، مصرع رجل بوليس، ثم أخيراً النبأ القدري، الرئيس كينيدي مات». ويحكي دانييل فيقول: «عندئذ وقف فيدل وقال لي: لقد تغيّر كل شيء، سوف يتغيّر كل شيء. سأقول لك شيئاً واحداً: على الأقل كينيدي كان عدواً اعتدناه، هذه ستصبح مسألة خطيرة خطيرة إلى أقصى درجة».

ثم حدث شيء غريب جداً، بدأت محطة الإذاعة الأمريكية تذيع النشيد الوطني الأمريكي. وهناك في منزل فيدل كاسترو، وقفت مجموعة غريبة من الرجال، ضمت من أحبوا جون فيتزجيرالد كينيدي ومن بغضوه، للإنصات لثوان في هدوء للنشيد الوطني.

كان أول تخمين لكاسترو أن القاتل فيتنامي جاء «ليثأر» للحرب. ولكن في الأنباء المتتالية في الراديو سمع الحديث عن أمريكي على صلة بكوبا عن طريق لجنة العدل لكوبا. ويؤكد دانييل أنه انفجر.

ويذكر دانييل أن كاسترو صاح: «أنا أعرفهم سيحاولون إلقاء اللوم علينا في هذه المسألة». ثم تابع حديثه كيف شعر دائماً باشمئزاز من الإغتيال من وجهة نظر المصلحة السياسية وكل شيء آخر.

هل كان كاسترو ملوماً؟ لقد أكّد لي بإصرار في لقاءات عام ١٩٦٦ أنه لم يكن له أي يد في مقتل كينيدي. وكعادته دائماً، ادعى صداقته للرئيس الأمريكي الشاب. جانب من هذا، على الأقل، كان كذباً. كانت الصورة التي رسمها لمدى «إعجابه» بكينيدي، محسوبة بدقة وبعيدة عن الحقيقة. كان كاسترو في الواقع يكره جون. ف. كينيدي. وفي خطبه حوّل كاسترو كينيدي إلى وحش. وكانت الاعلانات في كافة أنحاء كوبا تسبّ وتتهم كينيدي، بل إن كاسترو هدّد الرئيس الأمريكي. كان ذلك جزءاً من مسرحية طويلة للكراهية بين كوبا وأمريكا. وفي السابع من سبتمبر ١٩٦٣ عقد الزعيم الكوبي لقاء هاماً لمدة ثلاث ساعات في السفارة البرازيلية في هافانا حيث وجّه التحذير التالي لأي زعيم أمريكي يحاول إغتيال الزعماء الكوبيين: «نحن مستعدون لقتالهم والرد بنفس الطريقة. على زعماء الولايات المتحدة أن يفكروا أنهم إذا دعموا الخطط الإرهابية لقتل الزعماء الكوبيين هم أنفسهم لن يكونوا في أمان». وقد آمن الرئيس ليندن جونسون حتى يوم وفاته ـ وقالها في أربع مناسبات على الأقل ـ بأن أوزوالد أجير كاسترو لتنفيذ الإغتيال.

ومن ناحية أخرى أحب كاسترو واحتاج إلى استجماع قواه ضد أعداء

يستحقون. فقد كان يفضل مجابهة جون كينيدي على جيمي كارتر ولو لمجرد إعلاء شأنه هو شخصياً ورفع درجة حرارة اللعبة. على هذا المستوى، لم يكن كاسترو يريد كينيدي بل يحتاجه حياً، وهي حقيقة كانت على الأرجح المصدر الرئيسي لأي حزن آكتنف يوم مصرع كينيدي.

ولكن حتى في هذا اليوم الكئيب تحوّلت الخلافات التي أججت علاقته مع الولايات المتحدة إلى غضب. كان جان دانييل موجوداً حين سمع كاسترو في الإذاعة أن جاكلين كينيدي تجد صعوبة، على الملأ، في التخلص من بقع الدم على ملابسها. وكتب دانييل لاحقاً: «بدأ كاسترو يصيح، ما هذه العقلية؟ ما هي؟ هناك فارق بين حضارتينا بعد كل شيء. هل أنتم على هذه الشاكلة في أوروبا؟ بالنسبة لنا نحن الأمريكيون اللاتينيون الموت موضوع مقدس، فهو لا يعني مجرد نهاية العداوات، بل هو يفرض أيضاً الأخلاق والكرامة والاحترام. إنه حتى الصعاليك يتصرفون كملوك في مواجهة الموت».

وبعد ثلاثة أسابيع تقريباً من الإغتيال، لم يكن هناك دليل قاطع على مشاركة فيدل كاسترو، بالتخطيط أو الحثّ على قتل جون كينيدي. ولكن هناك «حوادث» عديدة تدعنا لا نستبعد تورط كاسترو. كان «لي هارفي أوزوالد» في الاتحاد السوفيتي وعاش هناك بأسلوب خاص (لا يكاد يعمل، له شقة، سمح لزوجته الروسية بالسفر معه). لا يصرح به إلا «للضيوف ذوي المكانة الخاصة». وما أن عاد إلى الولايات المتحدة حتى بدأ أوزوالد يبحث عن كوبا والصلات الكوبية في كل منحنى. في سبتمبر ١٩٦٣، استقل هذا الرجل المحب للعزلة والسرية، الأوتوبيس من هوستن إلى مكسيكو سيتي وقد بدأ كأنه تحوّل في الأوتوبيس، فأخذ يتحدث إلى الركاب، بل ويقول إنه ذاهب إلى كوبا لرؤية «الإنجازات الرائعة للثورة الكوبية». وتنصتت السي. أي. أيه، على الخطوط التليفونية للسفارتين السوفيتية والكوبية في مكسيكو سيتي وسجلت حواراً بين أوزوالد وأوبيدكوف، أحد الحراس السوفيت، في أول أكتوبر. وكان أوزوالد يظهر في الحفلات الخاصة وهو يتبادل الحديث مع الشيوعيين المكسيكيين والدبلوماسيين الكوبيين. وبعد عودته إلى الولايات المتحدة، اتصل أوزوالد بجاك روبي في دالاس.

وجاءت أكثر الأدلة غرابة ومصداقية بعد إغتيال كينيدي، وقالها الصحفي الوثيق بدوائر التحقيق، جاك أندرسون. لقد اختار جوني روسيللي، أندرسون ليحدثه عن المافيا وكوبا وإغتيال كينيدي. فماذا قال لأندرسون قبل أن يتم إغتياله هو شخصياً

على يد صديقه القديم ترافيكاني؟. لقد أخبرني أندرسون بعـدها بسنـوات: «قال لي أن إغتيال كينيدي تمّ على يد أحد ثلاثة قنـاصة حـاولوا إغتيـال كاستـرو من مبنى عال في هافانا». وأخبرني ان فيدل كاستـرو كان متـورطاً بصـورة مباشـرة ـ وهذا هـو السر القاتل الذي اغتيل بسببه. قال أن كاسترو آستخدم الثلاثة أنفسهم كنوع من السخـرية اللاتينية، وفي وقت لاحق أكدت لجنة تشيرس كل ما قالـه لي روسيللي و[زل لسان] ليندون جونسون وأخبر هـوارد سميث في لقاء تليفـزيوني: «حسنـاً لقد حـاول كينيدي قتـل فيدل كـاسترو ولكن كـاسترو نـاله أولاً». لقـد كان أكبـر سـر في التـاريـخ وقـد فضحه. . . باختصار، تؤكد هذه النظريات أن جون كينيدي اغتيل حين انقلبت ضـده المؤامرة على كاسترو، لقد قتل حين تحوّلت المافيا المرنة التي تملك مصالح حيـوية في كلا الجانبين، لتخدم سيداً كوبياً بدلاً من آخر أمريكي.

ولكن حتى إذا قبلنا أن كاسترو لم تكن له يـد مباشـرة في إغتيال كينيـدي، فإن وجود فيدل كاسترو مع ذلك، وثورته والحقائق المشؤومة التي أدخلها على العالم أدّى بالتأكيد إلى وفاة جون كينيدي. ولولا الفشل المذل في خليج الخنازير، والمحـاولات المجنونة لاغتيال كاسترو وصلة المافيا بهذه المحـاولات، وبدون إذلال كـاسترو حين تخلت عنه الدولتان العظميان إبـان أزمة الصـواريخ، لأصبـح من الصعب أن نصدق أن جـون ف. كينيدي، كـان سيتم آغتيالـه هـذا اليـوم في دالاس، بمـا سيعنيـه هـذا للعالم.

الفصل الثاني والعشرون
عصر حرب العصابات

«سوف تنفجر الحركة الثورية إنْ عاجلاً أو آجلاً في كل الدول المقهورة والمستغلة وإذا خلق «التوازن النووي» وضعاً تصعب فيه اندلاع الحرب النووية، فإن الولايات المتحدة سوف تخسر المعركة ضد الحركة الثورية».

فيدل كاسترو إلى المصور
لي لوكوود

لقد جاءوا من كل مكان، شبان وشابات منفصلون عن مجتمعاتهم، ويبحثون لا عن ثورة سياسية، بقدر ما يتطلعون إلى تطهّر شخصي في كوبا الجديدة، وعن طريق كلمته «الملهمة». هؤلاء الشباب ليسوا نتاج فقر ولكن نتاج غضب عارم على الماضي وتوقّعات اللحظة، وبدأ هذا الدفق من القلقين يصب في هافانا مثل زئبق عصبي ابتداء من ١٩٥٩. ولم تكن تعنيهم عملية التنمية الاقتصادية الطويلة، غير الكاملة والانجلوسكسونية، فذلك أمر شاق وغير بطولي، ولا تهمهم الحملات الانتخابية المتعبة. لقد كان أقصى أملهم هو إقامة عالم جديد.

وفي كل مكان في هذه الأيام الهستيرية، البطولية، كانت الأساطير تدور حول البناء، وكانت الإشادة بحرب العصابات البطولية، والأغنيات عنها والروايات عنها. حتى الكاتب المحافظ، من بيرو، ماريو فارجاس لوسا نظر إلى حرب عصابات فيدل كاسترو بنفس الجديّة التي يتطلبها العصر لهذا المخلوق السياسي الحديد، أو بالأصح الذي تمّ إحياؤه. وكتب فارجاس لوسا عن بطل حرب العصابات في روايته: «الحياة الحقيقية لأليخاندرو مايتا»، وهو بطل لطيف ومتواضع. وقد همس لأصدقائه: «سوف نبدأ حياة أخرى، بعيدًا عن الكهف، في الهواء الطلق، بعيداً عن المؤامرات للعمل مع الجماهير. . . سوف نغوص إلى قلب الشعب. . .».

هـذه الكلمات المـذهلة تعكس ما كـان في الواقع، «حيـاتـه الحقيقيـة» أثـارت الحماس في حينها. وفي معسكـرات التدريب الكـوبية من بـراري بينار ديل ريو، إلى مرتفعات ميناس ديل فريو، إلى عزلة جزيرة الصنوبر كـان كاستـرو يدرب الـرجال والنسـاء على الإحـاطة بـالحكومـات لا عن طريق الـوسائـل التقليديـة للهزيمـة العسكريـة أو الإنقـلاب، ولكن عن طريق التغلغـل في روح وقلب الشعب من جواتيمـالا إلى بنمـا ومن زنجبار إلى الكونغو برازافيل، من جرينادا إلى سورينام.

من المؤكد أنه كان يوجد سلف تاريخي لرجال حرب العصابات الشاملة الـذين درّبهم كـاسترو ومن مـوهبتهم التغلغـل في المجتمعـات وتحـويلهـا. لقـد نـظمت اللجنـة الروسيـة التي أسّسها لينين عـام ١٩١٩، من أجل تـوحيـد العـالم عن طـريق إرسال العملاء إلى كافة أنحاء الـدول لتأسيس أحزاب شيوعية جديدة. ولكن بمقاييس كاسترو، كانت حتى اللجنة الروسية متواضعة، فمن المذهل أنهـا لـم تتماثـل أبداً في الحجم أو المـدى مع ذراع حـرب العصابـات الـطويلة التي شكّلهـا كـاسـترو. وفي ذروة عمليـة الشموليـة التي شرع فيهـا، في الستينات حين كـان الشعب الكوبي يصـل تعـداده حوالي ثمانية ملايين، بدأ كاسترو في نشر عملائه في العالم. كانت لـديه ٢٧ منـظمة حرب عصابات نشطة يصل عدد أفرادها إلى ٢٥ ألف رجل مسلح ومدرب من الـدول الأخرى يعزّزهم عشرون ألف فرد آخرين من دول إفريقيا ومن نيكاراجوا بعد أن مـرّوا بـدروس لترسيـخ العقيدة السيـاسية في كـوبا. هـذه القـوىٰ المقـاتلة دعمهـا الجنـود النظاميون الكوبيون، على الأقل ٤٠٠ ألف منهم خدمـوا في أنجولا وحـدها. لم تكن كوبا قوة نشأت مصـادفة، ولا أداة أو قـوة ثانـوية. لقـد جعل كـاسترو من كـوبا أحـد مـركزين قـطبيين لحرب العصـابات (والأخـرى هي المقاومـة الفلسطينيـة في الشـرق الأوسط).

كان هدف الزعيم الكوبي واضحاً، على الرغم من أن بياناتـه المتناقضـة عمداً قد أخفته. كان أورلاندو كاسترو ميـدالجو أحـد أهم ضباط مخـابرات كـاسترو، يعلم الهـدف منذ البـداية. ويقـول أن كاستـرو لم يقبل أقـل من «العصف نهـائيـاً بـالقمـة الإمبريالية: الولايات المتحدة».

وضـع كـاستـــرو كـل ذكـائـه التكتيكي والإستراتيجي والنفسي في //حـرب العصابات الـدولية//. كـان ما لا يقـل عن ألف وخمسمائـة يأتـون سنويـاً إلى كـوبـا للتدريب، من بينهـم فلسطينيون وإيطاليون وإلمان وفـرنسيون وإسبـان إقليم الباسـك، وفيتناميون وإيرانيون وأفـارقة وأمـريكيون سـود وأمريكيـون بيض وأمريكيـون من أصل

هنـدي أحمر. وكـان تفرّد إمبـراطوريـة كاستـرو العالميـة لحرب العصـابات ينبـع من تنظيمها الدقيق الذي كان يتعارض بشـدّة مع ضعف نـظامه على أداء أدنى إنجـاز في المجـال الاقتصادي. كـانت مواهب كـاسترو تتمثـل في العسكـرة والتعبئـة والأعمـال الشيطانية، وليس في تعبئة الجعة أو بيـع آلات الحياكـة أو إعداد المقتـرحات للبنـك الدولي.

وبينما كان كاسترو ينشيء آلته العالميـة للتغيير الثـوري، كانت الـولايات المتحـدة تشرع في تنفيذ برنامجها الطويل المدى للتنمية الاقتصادية: التحالف من أجـل التقدم في أمريكا اللاتينية. وهذا أدّى إلى مواجهة تاريخية ملحمية وغير معروفة تمامـاً. ففي كل مكان بالولايات المتحدة بدأ برنامج لتحسين اقتصـاد أمريكـا اللاتينيـة ووقفت في وجهه شبكة كاسترو المترابطة والعالمية.

كما كان كاسترو في ذلك الوقت يتمتع بمزايـا لا تحصى من جهاز المخـابرات السوفيتي اللينيني، الذي تلاءم تماماً مع عقليته التسلطية. وابتـداء من أواخر ١٩٦١، كـان عملاء المخـابرات الكـوبيـة يـرسلون إلى مـوسكـو للتـدريب وبعضهم جنّـدتـه المخابرات الســوفيتية (ممـا أثار غضب كـاسترو العـارم). واعتبرت إدارة المخـابرات الكوبية رابع أفضل مخـابرات في العـالم بعد المخـابرات الأمـريكية (سي. أي. أيـه) والسوفيتية (كي. جي. بي.) والموساد الإسرائيلي.

وتطور نموذجان للتوسّع الكوبي. أحدهما يقوم على مساندة أية حكومة يسـارية قائمة فعلاً (مثلما هو الحال في أنجولا، موزمبيق، شيلي، نيكـاراجوا) والثـاني يتمثل في الإطاحة بأية حكومة معارضة عن طريق حرب العصابات كما (في بيروت وفنزويلا وبوليفيا وجواتيمالا والسلفادور وكولومبيا).

لم تكن حرب العصابات ـ أو الحرب الصغيرة للمقاتل الصغير ـ جـديدة تمـاماً بالطبـع فقد كانت قديمة مثل شون تسد ـ وو الـذي استخدمهـا في الصين قبل مـولد المسيح بخمسة قـرون. وفي الـواقـع ان استـراتيجيـة حـرب العصـابـات سـاعـدت المتمردين على هزيمـة بريـطانيا في الثـورة الأمريكيـة. لكن أسلوب حرب العصابات الذي ألهم فيدل كاسترو أكثر من غيره، كان هو النمـوذج الإسباني الـذي استخدم في القـرن التاسع عشر، حين حـارب عشـرات الآلاف من الإسبـان لتخليص أرضهم من فرنسا. وأخذ كاسترو هذا التـاريخ، وأستـوعبه، وتشبّـع به، وفنـد عناصـره المرتبـطة بأفكار مثالية وسياسية أخرى وتوصّل إلى أسس حرب العصابات الخاصة به. وقد فهم غريزياً أن الرجال والنساء المعجبين به، لم يكونوا باحثين عن //الحرية// لكن عن

التوحد والإيمان والانتماء، ودون أن يـرتضوا التسـامح مـع هذه الفـردية الغـربية التي تمثلها الولايات المتحدة، كانوا يحاولون الهـرب منها ومن متـطلباتهـا المستمرة والتي غالباً لا تلبى.

قـال البعض أن أهم عامـل في نجاح كـاسترو في إحيـاء ونشر تكتيـك حـرب العصابات في العالم هو أنه يلبي قوة خاصة غريبة في كـوبا منذ أن كانت محطة على طريق المستعمرين الأسبان، القائمين بمهمة /مادري باتريا/ لإخضاع (وسلب) العالم الجديد» وكوبا لديها طموح مؤلم وخفي للإمبريالية. وهو ما زعمه كتـاب كوبيـون مثل لوريس أورتيجا. وفي السنوات الأولى، كانت السيارات والمقاهي ومنـازل الهوى في هافانا مليئة بحـديث عن أن كوبـا هي إنجلترا أخـرى، وأمريكـا أخرى، وأن كـاسترو يسعى لتحقيق هذه الفكرة الخيالية. كـانت هناك حقيقـة ما في هـذا الأمر. فـالشعب الكـوبي، ورث عن الأسبـان الاعتمـاد على زعيم قـوي، وعلى «شهادتـه» وجـزئيـاً لأن الاعتمـاد على القوى الخـارجيـة المتقلبـة مثـل سـوق السكـر، حاز في النهـايـة عن طـريقة «عـالمية» كـاسترو، إحسـاساً بـالسيـطرة على البيئـة الخـارجيـة المهـددة دائماً. قبل كـاسترو كـانت هناك وصفـات تاريخيـة للإحسـاس الجماعي بـالعجز في مواجهة الولايات المتحدة بشكل خـاص ـ وكانت حـرب العصابـات قد جـذبت إنتباه الأمريكيين بعيداً عن كوبا وجعلت كذلك الكوبيين يشعرون أخيراً بالقـوة والحريـة في العالم.

كانت فنزويـلا هي الأولى، مثلما كـانت هذه الـدولة المتقـدمة هي هـدف أول رحلة سياسية. قادت كراهية كاسترو الغيورة للرئيس الـديمقراطي الفنـزويلي رومولـو بيتانكور إلى مساندة كـوبا لحـرب العصابـات الفنزويليـة منذ عـام ١٩٦١. فجأة في هـذه الأراضي الغنيـة المليئة بـالتناقضـات بين قمم الأنديـز والأدغال الـواسعـة ظهـرت في السماء موجات متتالية من الإرهابيين، يقتلون رجـال البوليس المتـواضعين في الشوارع، وتتالـت انفجارات القنابل في كاراكاس وظهرت مراكز عمليات حـرب العصابـات في كل مكان، ومنها انتشرت موجات الثورة.

أخبـرني أورلاندو جـارسيا وهـو ثوري كـوبي أنشق عن كاسترو وأصبح رئيسـاً لقوات الأمن الفنزويلية، «لقد نشبت لدينا تقـريباً حـرب أهلية في فنـزويلا في مـطلع الستينات». كم من قتال حرب العصابات يعود إلى //حقائق موضـوعية// في ذلـك الحين، وكم كـان بتأثيـر كاسترو؟ لم يتـردد جـارسيـا لحـظة في أن يقـول: «كـانت مستلهمة من فيدل كلهـا، كلها فيدل بالضبط! هـذه المجموعـات لم تنل أبـداً تأييـداً شعبياً».

وكانت كولومبيا هي الثانية، وكانت مستهدفة منذ أيام بوجوتاز الثقيلة، لقد كانت الدولة المثالية لحرب العصابات كما خططها كاسترو، بعنفها المستمر الشديد وانقسامها الطبقي وبريتها المظلمة. وسرعان ما ظهر في القمم الموحشة جيش التحرير الوطني الكولومبي، والقوات المسلحة الثورية الكولومبية وحركة العمال والطلاب والفلاحين (تأسّست سنة ١٩٦٠ كأول حركة سياسية فيدلية خارج كوبا). وفي وقت لاحق ظهرت حركة /م. ـ ١٩/ وهي حركة دربت كوبا أفرادها وتعتبر الأولى التي تعمل كحماة باهظي الأجر لتجار المخدرات. وتلت كولومبيا دولة جواتيمالا الجميلة والمضطربة الواقعة في أمريكا الوسطى. وبعسكريتها الوحشية وطبقة ملاك الأراضي و ٦٠٪ من سكانها ينتمون إلى هنود المايان والتدخّل الأمريكي المستمر على مر السنوات كانت جواتيمالا ذات البراكين وضباب الفجر هدفاً مثالياً لحرب العصابات.

في أكتوبر ١٩٦٦، عشت أسبوعاً في جبال سييرا دي لاس ميناس مع متمردي حركة فويرزاس أرماداس ريبلديز في جواتيمالا. وشاهدت سيزار مونتس زعيم الحركة، الشاب الرفيع، الذكي صاحب العيون الحادة، وهو يعطي فلاحي جواتيمالا ذوي الأصول الهندية نفس التدريب العملي والتكنولوجي الذي أعطاه فيدل للمقاتلين الفلاحين في سييرا مايسترا.

وقال فلاح أنه اضطر لدفع ٢٥ دولاراً سنوياً لصاحب الأرض التي يزرعها، فقاطعه مونتيز في حدة: «لن ترى صاحب الأرض أبداً».

. . . ويقول الفلاح مرة أخرى: «لم يعد مسموحاً لنا بالعيش في قريتنا بعد الآن»، فيجيبه مونتيز: «لأنك ساعدتنا، أرغمت على الانتقال إلى هنا، وأحرق البوليس منازلك وكنيستك».

«ودمروا خلايا النحل أيضاً. . .».

هذا التعليم السياسي المستمر والمتكرر كان عاملاً ثابتاً في كل الحركات. وفي السلفادور بعد سنوات عديدة، كان رجال حرب العصابات الماركسية يكررون باستمرار: «زعيمنا هو فارابوندو مارتي، وسوف ينقذنا». كان ذلك يشبه تكرار تحية السيدة العذراء في التقاليد الكاثوليكية مثلما يشبه التعويذات الثورية لحركة كاسترو.

كان يبدو في تلك الأيام الخوالي، أن ذراع حرب عصابات كاسترو تمتد إلى كل مكان. . . في هاييتي، القريبة دائماً من كوبا، قام كاسترو باستخدام

الطيران في إسقاط أجهزة راديو للفلاحين، الـذين اشتكوا بعـد ذلك أنهـا لا تلتقط إلا البث من هـافانـا. ونظمت حـرب عصابـات في السلفادور وهنـدوراس وكـوستـاريكـا والكثير من جزر الكاريبي. والباعث على الدهشة، أنـه تمّ تنظيم مجمـوعات صغيـرة في الدول الديمقراطية مثل أوروجواي (تـوبامـاروس) وشيلي (حركـة اليسار الثـوري) والأرجنتين (مونتو نيـروس). باختصـار، ليس من المبالغـة في شيء أن نقول إنـه منذ الأيـام الأولى لنظامـه، أحدث كـاسترو هـزة في المؤسسات التقليـدية والمستقرة، في نصف الكرة مثل آدم الغـاضب المتعمد وهـو يهز شجـرة التفاح الخـطرة التي ارتخت فجأة بسبب عاصفة.

كان اهتمام كاسترو بإفريقيا بعد الاستعمار يتفق تماماً مع سكان كوبـا السوداء. وبينما هو يتآمر لتوسيع إمبراطوريته لحرب العصابات إلى القارة الإفريقيـة، طلب إليه زملاؤه في سانتيريا، تحقيق حلمهم بالعودة إلى غينيا //وطنهم/ في إفريقيا.

في ١٩٦٠، على سبيل المثال، تمّ فتـح مكتب لحزب زنجبـار الـوطني الثوري في هافانا، وقد شعر مسـؤولو المخابرات الأمريكية ببلبلة من جراء التقاريـر المفاجئة مـن الأفـارقـة السـود هنـاك في نفس الـوقت الـذي بـدأ فيـه السـوفيت التحـرّك إلى الجزيرة... وبسـرعة، التقى عمـلاء ورجال حـرب العصابـات الكوبيـة مع متمـردي زنجبار في فندق /سي فيو/ في دار السلام بتنزانيـا. وجاء النصـر إلى هؤلاء المقاتلين الزنجباريين في يناير ١٩٦٤، حين قام جون أوكيلو، العنيف المدرب في كـوبا، وهـو عملاق قاس يحمـل دائماً مسـدسين في حزامـه، باكتسـاح مدينـة زنجبـار بقوة قـوامها ستمائة رجل مدرّب في كوبا. وأستولوا على الأسلحة وعلى الفور أطاحوا بـالحكومـة العربية المـوالية للغـرب التي كان يـرأسها سلطان ورث العـرش ليقيموا //جمهـورية زنجبار الشعبية//، التي أصبحت نموذجاً للدول الثورية الإفريقية الأخرى. وقد دهش المراقبون بـل وشعروا بسـرور قليل لـرؤية رجـال حرب العصـابات الأفـارقة يجـوبون شوارع المدينة وقد أطلقـوا لحاهم وأرتـدوا بيريات مثل فـدل، ولكن المذابـح التي تعرض لها الآلاف عقب الإنقلاب جعلت الموقف أبعد ما يكون عن التسلية.

وأصبـح خوان بنميليس الـدبلوماسي الكـوبي الذي درس في فيـدادو، مـديـراً لمجموعة إفريقيا من الكـوبيين. وحين تحدثت معـه في واشنطن بعـد سنوات أخبـرني أن «كاسترو كان يأمل في تنفيذ خـطة طمـوحـة مزدوجـه متزامنـة فيشن هجومـا عامـا على القارة الإفريقية يقوده شي جيفارا، وآخر في أمريكا اللاتينية يقوده هو شخصيـا مباشـرة من هافانا».

كان من المتوقع أن يكون عميل كاسترو الأول في إفريقيا حينئذ هو شي «الذي لا مثيل له» وما عرفه الشعب في حينها أو فهمه منذ ذلك الحين هو أن كاسترو أراد إبعاد أخلص رفاقه إلى أقصى مكان ممكن من كوبا. فقد كان كاسترو يعتقد أنه لم يعد هناك مكان لشي في كوبا. لقد بدأ يزعج كاسترو بشدة بتصريحاته المستمرة والهجومية ضد الروس، في السنوات التي كان كاسترو يزداد فيها اعتماداً عليهم. لم يكن ذلك تناقضاً كما يبدو. فقد كان شي «ماركسياً» وأكثر إيديولوجية من صديقه فيدل كاسترو، لكنه كان كذلك ماركسياً مثالياً. وحين يتعلق الأمر بالتعاملات اليومية والعلاقات التجارية بين دولتين بما تعنيه من خداع وحلول وسط، فإنه كان قادراً بصفة خاصة على أن يصبح غاضباً حتى مع الاتحاد السوفيتي مركز إشعاع الماركسية. لقد آمن من كل قلبه أن قوة مثل موسكو يجب أن تعطي أولوية لثورة «جديدة» مثل ثورة كوبا. لذلك ففي ٢٢ فبراير ١٩٦٥، في اللقاء الاقتصادي بين آسيا وإفريقيا، وقع شي على مصيره. ففي ثورة غضب هاجم بشدّة الاتحاد السوفيتي لعلاقاته التجارية بين الدول الاشتراكية وهي علاقات كانت الأفضلية فيها للروس، والآن أصبحت مسألته مسألة وقت فقط.

وفي الطريق إلى إفريقيا هذا الشتاء، «لتوليد ثورة»... توقف شي في مصر والتقى بجمال عبد الناصر. وفي المحادثات المتتالية كشف عن مكنون قلبه للزعيم المصري الذي أعجب بشي أكثر من كاسترو («التماسيح»). وكانت هناك دائماً رسالة واحدة، لقد تحدث شي عن الموت.

وقال شي في إحدى هذه المناقشات الطويلة: «نقطة التحوّل في حياة كل رجل هي اللحظة التي يقرّر فيها مواجهة الموت. إذا واجه الموت، فهو بطل سواء نجح أم لم ينجح. يمكنه أن يكون رجل سياسة جيداً أو سيئاً، لكن إذا عجز عن مواجهة الموت، فلن يكون أبداً أكثر من سياسي»... وفي اجتماعهم الأخير، قال شي لعبد الناصر أن كل ما يبحث عنه «هو مكان للقتال من أجل ثورة العالم وقبول تحدي الموت». ومرة أخرى تعجب عبد الناصر من هؤلاء الثوريين غريبي الطباع في كوبا وقال له أن «يعيش من أجل الثورة» لا أن يموت من أجلها.

حين عاد شي مؤقتاً إلى كوبا من أولى رحلاته إلى إفريقيا في شتاء ١٩٦٥، قابله في المطار كبار مسؤولي الثورة الكوبية ومنهم فيدل والرئيس أوزفالدو دورتيكوس. كان لقاء نفاق إذ حمل وجه كاسترو المعبر، المسرحي تعبير الملل، حتى إليدا زوجة شي التي كانت حاملاً مرة أخرى كانت تبدو مكتئبة بدلاً من أن تكون

سعيدة لعودة زوجها، وعيناها تنظران للأرض، فقد كانت تعرف أن شي لم يعد إليها، ولا للأسرة ولا حتى لكوبا.

التقى شي وكاسترو للمناقشة حوالي أربعين ساعة، وكان الاتفاق الوحيد الذي تمّ التوصلّ إليه في هذا اللقاء الماراثوني هو عودة شي إلى إفريقيا، إلى دولة الكونغو المتفجرة، لمدة طويلة ومع عدة مئات من القوات الكوبية ليساند التمرّد اليساري في هذه الدولة الإفريقية الهامة. ثم اختفى شي «بشكل غامض»، حتى والدته العجوز في بوينس إيريس لم تتحدث معه ثانية ولا حتى عند وفاتها.

حين عاد شي إلى الكونغو برازافيل، قاد قواته الكوبية وآلاف المقاتلين اليساريين في معركة باسم كاسترو ضد المرتزق الأوروبي الشهير والمخيف مايك هوار «المجنون». ولاحظ «ماد مايك» على الفور اختلاف الهجمات ضده مع إلتزام رجال حرب العصابات بالتكتيك الكوبي المتعقل. لكن الكونجو كانت جنوناً مطبقاً ونظمت حملات سرية لإبادة كل البيض. وانتهى شي، أو القومندان تاتو كما كان يناديه جنوده وحلفاؤهم، مهزوماً. كانت المعركة بعيدة عن تحدي الموت. وغادر شي الكونغو سراً بعد ستة شهور وعاد إلى كوبا ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد. احتفظ الكوبيون ببعثة عسكرية في الكونغو برازافيل قوامها ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ رجل وكانت مشغولة بالإعداد لوسيلة أخرى لدحر الأمريكيين.

لم يتحدث كاسترو مطلقاً عن مغامرة شي الفاشلة في الكونغو حتى يناير ١٩٧٧، حين قرّر إدراجها في التاريخ الكوبي لأول مرة وبكل فخر. لماذا؟ لأنه في ذلك الوقت كان كاسترو في أمته المغلقة يستطيع تجاهل فشله. ولكن أيضاً لأن هناك نتيجة إيجابية لحملة الكونغو المأساوية. لقد وضعت القاعدة والصلات الطويلة الأمد للعمل الكوبي مع الماركسيين في أنجولا وموزمبيق، الذي ازدهر عامي ١٩٧٤/١٩٧٥.

ولدى عودة شي من مغامرة الكونغو الفاشلة، في نهاية عام ١٩٦٥، كانت صوره منتشرة في كافة أنحاء كوبا، لكن البعض رأى في هذا النشر إحياء للذكرى وليس إشادة، إذ أن شي شخصياً لم يكن متواجداً، في أي مكان معروف. وعرف العالم لأول مرة أن شي جيفارا، رفيق سلاح كاسترو، الذي لا مثيل له والرائع، غادر كوبا للأبد حين أراد كاسترو له أن يُعرَف. وفي مشهد مسرحي للتعبير عن صدمته وذهوله وقف كاسترو أمام مجموعة مذهولة في هافانا في ٣ أكتوبر ١٩٦٥ وقرأ خطاباً مذهلاً من شي، وقد كُتِب في إبريل الماضي. . .

قـال كاستـرو في ذلك اليـوم إن «التاريخ غير مـدوّن لأن الخـطاب سيقـرأ في اللحـظة المناسبـة. . . ». وهكذا في تنـاقض حاد مـع ثورات شي، لم يعـد كاستـرو يسيطر فقط على أهم رسالة كتبها شي، بل وعلى تاريخها أيضاً. وكان التوقيت بالكاد مصادفة. ففي نفس هذا الاجتماع، أعلن كاسترو عن تحويل الحـزب الموحـد للثورة الاشتراكية إلى أول حزب شيوعي في كوبا. ولا بدّ أن شي بروحـه الساخـرة العاليـة، كان سيحب سخرية الموقف. فإن لم يكن حاضراً في هذا الميـلاد التاريخي بـل ولم يظهر اسمه على قوائم المؤسسين رغم أنه كان وراوول الداعيان كاسترو إلى الشيوعية في تلك السنوات التي كان كاسترو ينكر خلالها أنه ماركسي.

في هذا اليوم من أكتـوبر ١٩٦٥، كـان صوت كـاسترو وكلمات شي قد أذهلتـا الحضور. كانت كلمات كلها إشادة بفيدل كاسترو: «إن فشلي الوحيد الخطير هو أني لم أثق بك أكثر منذ اللحظات الأولى في سييرا مايسترا ولم أفهم بسرعة كافية صفاتك كقائد وكثوري».

ثم جاءت الكلمات الأهم: «دول أخرى في العالم تطلب جهودي المتواضعة، أستطيع أن أفعل ما هو صعب عليك بسبب مسؤولياتك كرئيس لكوبـا وقد حـان وقت فراقنا».

كانت هناك دموع في عيون كثيـرة وكاستـرو يواصـل قـراءة «وداع» شي لفيـدل وللشعب الكوبي الذي ساعد على «تحريره» بكل بطولـة: «إذا حانت سـاعتي الأخيرة تحت سماء أخرى فأول ما سأفكر فيـه هو هـذا الشعب وخاصـة أنت. . . أقبلك بكل حبي الثوري. شي».

مال المؤمنون الحقيقيون حول كاسترو إلى أخذ الخطاب كمـا هو، إذ أن شي، في النهاية، لم يخف مـطلقاً إيمـانه بـالثورة العـالمية وكثيـراً ما أعـرب عن رغبته في خـدمتها مـرة أخرى، ولكن آخـرين رأوا الخطاب نـذير شؤم مثـل «الاعتـرافـات» في روسيا سنة ١٩٣٦ التي اختفى بعدها كل المعترفين للأبد. ويتذكر الصحفي المصري الشهير حمدي فؤاد من صحيفة الأهرام أنه رأى زوجة شي ترتدي ثيـاباً سـوداء. وقال «سألناها لماذا ترتدي الأسود، فقالت لنا لأنه سوف يموت».

وفي الواقع ان شي سار على نهج فرانك باييس وكاميلو شيانفويجـوس وهوبيـر ماتوس وهومبرتو سوري مارين، فهو مثلهم كان كاسترو يعتبره «منافساً» على السلطة، ومثلهم، كان يجب تنحيته جانباً ـ بوسيلة أو بأخرى.

والقصة الحقيقية لشي جيفارا هنا هي قصة فيدل كاسترو. ولكن كالعادة، كاسترو يخبر العالم بما يريد هو أن يعرفه العالم. «الحقائق» معروفة، لكن التفاصيل التي تؤدي إلى وفاة شي غامضة تماماً. لذلك ومرة أخرى، من أجل معرفة صلة كاسترو «بلغز» شي من الضروري الانتقال إلى الرجل الطلق، المحب للأسرار، فيدل كاسترو. من الضروري رؤيته من خلال ما فعله للآخرين، مسقطاً الورق من الغابة حتى تبقى الأشجار العارية في الشتاء واقفة بمفردها.

من المرجح أن شي جيفارا كان لا يزال في الكونغو حين قرأ كاسترو خطاب «وداعه» في هافانا، ونحن نعلم أنه عاد إلى كوبا واختبأ، طوال عام ١٩٦٦ تقريباً ومن المفترض أنه خلال هذه الفترة، اتفق مع كاسترو على ترتيب لبوليفيا باعتبارها الخطوة التالية على طريق «ثورة شي القارية». في الحقيقة كانت بوليفيا اختياراً معقولاً لمثل هذه المغامرة، إذا نظرنا للخريطة بنفس طريقة نظر مخططي السي. أي. أيه. لكوبا حين اختاروا خليج الخنازير كموقع إنزال. وهذا معناه أنه بدون التنازل بملاحظة الظروف الموضوعية، أو العامل البشري أو الثقافي. (هل البشر تحولوا إلى ما يكرهونه بشدة؟). وكانت ثورة بوليفيا في ١٩٥٢ قد غيّرت كلية حيوات السكان الهنود المساكين، لم يعودوا حتى ناضجين كفاية لأي تدخل خارجي من رجال حرب العصابات.

لا يهم، ففي براري بوليفيا سوف يبني جيفارا مركزه الخاص لحرب العصابات، ويخلق «فيتنام ثانية».

لذلك ففي سبتمبر ١٩٦٦، غادر أرنستو جيفارا كوبا إلى براغ، باراجواي وأخيراً إلى الأراضي المرتفعة أو بوليفيا حيث كان أحفاد إمبراطورية الإنكا العظيمة، يقفون فوق أكوام الحجارة ويلوحوا بأغصان النخيل لإبعاد المطر، وبينما استمر كاسترو في العمل وفي إقامة مؤسسات الثورة الكوبية، سافر شي «جديد» متنكر بمهارة في هيئة رجل أعمال، إلى لاباذ عاصمة بوليفيا. ومن هناك اصطحبه زملاؤه القليلون إلى مزرعة تسمى /نانكا هوازو/ على السفوح الغربية الكثيفة الغابات لجبال الأنديز. وبصحبة ١٧ كوبياً دخلوا بوليفيا بطرق مختلفة ومتفرقة، شرع في بناء حركة حرب عصابات صغيرة، ظلّت دائما مثيرة للعطف أكثر من مهددة، ولم يزد عدد أفرادها أبداً عن سبعين.

ووضع شي نفسه ومصيره بين يدي الحزب الشيوعي البوليفي وبالتالي بين يدي الروس. وقد فعل ذلك بأسلوب متغطرس على عكس ما كان يمكن لكاسترو أن

يفعل. كان كاسترو سيعمل على إقرار الوحدة حتى تصبح لديه القوة لتدمير الآخرين، في حين أعطى شي فعلياً إلى الحزب الشيوعي البوليفي السلطة العليا عليه برفضه لهيمنتهم المؤقتة.

في أول ديسمبر ١٩٦٦، قام ماريو مونج سكرتير عام الحزب الشيوعي البوليفي برحلة إلى هافانا ليناقش كاسترو. وهناك دليل طيب على أن كاسترو حاول، على الأقل إلى حد ما، أن ينال مساندة مونج لشي، ولكن ريكاردو روجو صديق شي القديم والمقرب يؤكد أن «كاسترو تقريباً طلب من مونج أن يدع الزعامة السياسية للقارة تنتقل من موسكو إلى هافانا». وهذا أمر لم يكن ليسمح به البوليفيون، وهم الغيورون على حلبتهم الصغيرة.

ثم في ليلة العام الجديد من سنة ١٩٦٦ عبر مونج جبال الأنديز السوداء المغطاة بالثلوج، إلى السفوح الشرقية داخل الغابات للقاء شي ومناقشة هيكل السلطة في عملية حرب العصابات. وفي «نانكا هوازو» أوضح مونج طلباته: «سوف يشترك الحزب الشيوعي: ١ ـ إذا لم يسمح للشيوعيين البوليفيين الذين ينتهجون خط بكين، بالاشتراك. ٢ ـ إذا كانت القيادة العسكرية والسياسية بين يدي الحزب الذي ينتهج الخط السوفيتي. ٣ ـ وإذا طلب شي المساعدة من كل الأحزاب الشيوعية في أمريكا اللاتينية».

إنتاب شي غضب شديد، وبدأ يسير جيئة وذهاباً في ضيق، لماذا جاء مونج؟ لقد كان غاضباً جداً لمطالب القيادة، لم يكن شي يوافق أبداً على التنازل عن قيادة الحركة، أبداً.

وقبل أن يرحل، التقى مونج على حدة لمدة ساعتين مع البوليفيين الخمسة عشر الذين انضموا لمجموعة شي وأبلغهم برفض شي لمطالبه. وحاول توعيتهم بالمصير الذي ينتظرهم. وقال للشبان: «أنا واثق من فشلكم، لأنكم تحت قيادة أجنبي» وتوقف قليلاً عن الحديث ثم استطرد: «ستموتون بكل شجاعة لأن لا أمل لكم في النصر».

وهكذا رحل الزعيم الشيوعي البوليفي ولم يتحدث إلى شي مرة ثانية.

وبعد وفاة شي، ذهبت إلى بوليفيا لتتبع خطواته الأخيرة. وفي كاميري، أجريت أول لقاء مع الرجال الناجين الذين حاربوا مع شي. وقالوا لي إن «بونج أبلغ القادمين الجدد بأن الحركة كارثة وفاشلة وأنهم لن

ينجحوا حتى في الوصول إلى رجال حرب العصابات، وأقنعهم بالعودة أدراجهم». كل هذه الأحداث كان لها أثر مباشر وتجمعت لتصنع حركة شي، إذا كان يمكن حتى تسميتها بذلك، تحت إدارة فيدل كاسترو المباشرة والغريبة، بعد أن توقّع مثل هذا الاحتمال في حديثه مع مونج.

ثم كانت هناك تانيا.

بالنظر إلى صورة تانيا، يرى المرء امرأة رفيعة، جذابة ذات شعر أسود، جادة لها ساقان طويلتان وجسم رجالي. كانت معروفة بمهارتها وعنفها حين لا ينظر المرء إليها، تحب الحفلات ومرحة. ويثبت ملفها في المخابرات أنها من أكثر عملاء المخابرات مقدرة على الإطلاق.

كانت رفيقة شي، منذ التقيا عام ١٩٦١، والان في جبال بوليفيا البعيدة، لعبت دوراً رئيسياً، أوالدور الرئيسي، في حياة أو موت شي.

لورا جوتييريز باور، لورا جوتييريز باور دي مارتينيز، لاري أجويليرا، ماريا أجويليرا ألما، اما، ناديا، «ت.»، هذه مجرد بعض الأسماء المستعارة للمرأة التي كان اسمها الحقيقي هو هايدي تمارا «تانيا» بونك بيدر. كانت تانيا هي التي عيّنها شي لإعداد «الثورة» البوليفية. وتانيا هي التي أرسلت إلى بوليفيا قبل شي. وعاشت عدة شهور في لاباز، وهناك أظهرت دهاء وإصراراً صلباً كاد ينافس طبيعة كاسترو.

ولكي تحصل على المواطنة البوليفية، والتحرّك بحرية أكبر في جميع أنحاء بوليفيا، تزوجت من بوليفي ثم أرسلته في «بعثة دراسية» إلى الكتلة الشرقية. وفي وقت ما كانت تانيا تسدي النصائح للعشاق في الراديو، وهي نصائح كانت تبدو أحياناً غبية، لكنها كانت في الواقع رسائل شفرية إلى هافانا، وكانت تانيا هي التي اختارت وأعدّت مزرعة /نانكا هوازو/ البعيدة والقدرية. وتانيا هي التي ختمت مصير شي جيفارا.

فإنه أثناء اصطحابها وريجيس دوبريه والفنان الارجنتيني اليساري روبرتو سيرو بوستوس إلى الجبال لمقابلة زعيم حرب العصابات، توقّف الثلاثة في بلدة كاميري الصغيرة حيث قرّرت تانيا، رغم احتجاج الرجلين، أن تترك سيارتهما الجيب «مغلقة». واتضحت صحة مخاوف الرجلين المنطلقيين ففي بلدة بعيدة مثل كاميري حيث لا يوجد جديد منذ الغزو الإسباني، كان أكثر الجواسيس إهمالاً سوف يعلم أن ترك سيارة جيب بمفردها خاصة وهي مغلقة سوف يجذب الانتباه. وهو ما حدث،

وفيها وجد البوليس مجموعة من الوثائق المدنية التي تركتهـا تانيـا، وهي غلطة مذهلة من جانب امرأة ماهرة.

وبين الأوراق كانت أربع نـوتات صغيـرة مليئة بـأسماء وعنـاوين زعماء وأعـضاء مجموعة شي والاتصالات الشيوعية خارج كوبا، وقائمة بأسماء المصادر السرية للمال الذي يصل من البرازيل وبيرو حتى سويسرا.

من كانت تلك المرأة التي تـدعى تانيـا، التي خطّطت لحيـاة شي تحت رعايـة سيليـا الالمانيـة ـ الارجنتينية. بعـد وفاتهـا في بوليفيـا في صيف ١٩٦٧، رأى ضابط مخابرات الماني شرقي سابق، هو أوبرلوتانانت جونتـر مانيـل بعد هـربه من وزارة أمن الدولة الإلمانية الشرقية، صـورتها في الصحف. وفي ذهـول كشف أنها كـانت تحت إمـرته في وزارة أمن الـدولـة من أجـل التجسّس على شعب كـاسـتـرو وشي لحسـاب المـانيا الشـرقية والكي.جي.بي. الـروسية أيضـاً! ولا تحمل القصص النـافية لهـذه الصلة، سمة الصدق، حتى ريجيس دوبريه صديق كاسترو أخبر سولز برجر الصحفي بالنيويورك تايمز والأديب الفرنسي أندريه مـالرو عـام ١٩٧١ في باريس أن «جـزءاً من السبب في الفشل التام هو الخيانة في صفوف جيفارا. تانيا، الفتاة الالمـانية الشـرقية التي تقاتل في المجموعة الصغيرة هي عميلة سوفيتية».

السؤال الـوحيد هـو هل كـان كاستـرو على علم بـذلـك، وبينمـا يبدو أنه لا يشعـر بأدنى خداع، كان على الأقل سوف يشتبه في أنها ربما تكون عميلة ويظل السؤال بلا إجابة. أولاً إذا كان كاسترو شخصياً لم يرسل تانيا فإنه بالتأكيد أرسل ريجيس دوبريه الأرستقراطي الفرنسي الذي كان نجم مجموعة كاسترو.

حين وصل دوبريه وبـوستوس إلى «نـانكا هوازو» في مـارس ١٩٦٧ مـرسلين مبـاشـرة من جـانب كـاسـترو، كـانـا يشعـران بقلق لكـونهمـا هنـاك، كمـا قلق شي لاستقبـالهما. أصرّ دوبريه على حمـل السلاح، لكن شي رفض السمـاح لـه، وهـو الصحفي، بالانضمام إلى حـرب العصابـات وحين رحـل الرجـلان، وصـلا إلى بلدة ميوبامبـا الصغيرة حيث ألقي القبض عليهمـا، وبدون تـردّد كشف دوبريه وبوستوس للجنود والمحققين البوليفيين عن وجود شي جيفارا في بوليفيا.

ونقل الغريبان بسلام إلى السجن حيث أثار الفـرنسي الدنيـا وأقعدهـا. وكانت محاكمته قضية مشهورة في صالات الرسم في باريس. وتدخّـل الرئيس شـارل ديغول لصالحه، وأشاد بهما اليسار العالمي. وقـد أطلق سراحهمـا وعاد دوبريه إلى باريس

بعد أن انتهى وهمه عن التوره بصمه عامة، وعن فيدل كاسترو بصفة خاصة.

وازداد موقف شي سوءاً باستمرار، وأحد الأسباب كان كاسترو شخصياً. فهناك حقيقة غير معروفة جداً، وهو أنه في أواخر مارس ١٩٦٧، توقّف كاسترو عن إمداد شي بأحتياجاته. وتشير مذكرات شي ومذكرات البوليفيين الذين حاربوا معه، وشهادة كل المشتركين فيما بعد، بأن الإمدادات لم تصل على الإطلاق. ولم يكن هناك تقريباً اتصال بهافانا بعد «معارك» مارس الأولية، واشتكى شي «من عزلته» لأول مرة في مذكراته من إبريل ١٩٦٧. وفي مايو تحدث عن «فقد الاتصال نهائياً مع مانيلا» (ومانيلا هي الاسم الشفري لهافانا)، وفي يوليو تلقى شي أخيراً رسالة طويلة من هافانا وبعدها، لا شيء.

في غمار يأسه كان شي يعود أكثر إلى ذاته. في الأيام الأخيرة من حياته، تصف مذكراته عالماً حاقداً إثر «نوبات» الرعب واستخراج ردود الفعل بالقوة من الفلاحين الذين كانوا مجرد «حيوانات صغيرة... لا يمكن اختراقها مثل الصخور...». وأخيراً تخلّى شي عن أي محاولة لإلهام أو تحرير البوليفيين قائلاً انه «من خلال الرعب المخطط يمكن أن نحيد بعضهم».

في ١١ أغسطس أشاد كاسترو بشي بإعتباره «مواطن شرف أمريكا اللاتينية». في ١٤ أغسطس، بعد أن خسر رجال حرب العصابات محتويات هامة وأساسية لأحد أوكارهم، كتب شي: «يوم أسود... إنها أقسى ضربة وجّهوها لنا، شخص ما نحدث، من؟».

ولم يزدد الأمر إلاّ سوءاً. وفي ٢٨ سبتمبر كان يكتب «يوم ضيق، في بعض الأحيان يبدو كأنه يومنا الأخير...». كان الرجال يهذون؛ وبلغ شي درجة من المرض أنه لطخ نفسه. والفلاحون بدلا من الترحيب بهم كمحررين لهم، هربوا لدى رؤية هؤلاء الغرباء الملتحين المثيرين للذعر في القلوب.

وفي أكتوبر اقتربوا من النهاية.

كان الإنفعال والذهول يبدوان واضحين على كاسترو في أواخر أكتوبر وهو يعلن للعالم مصرع رفيق سلاحه شي جيفارا. وكما جاء يوم ١٩ أكتوبر في صحيفة /جرانما/ جلس كاسترو تلك الليلة إلى مكتب خشبي أمام خلفية قطيفة حمراء في ستوديو التليفزيون، وتجمّع أعضاء القيادة الحكومية في مجموعات صغيرة، يتحدثون بهدوء. وعلى مدى ساعتين كاملتين، تحدث كاسترو إلى الشعب. الآن جاء دوره

لوداع صديقه الذي سقط في أراضي الأنديز العليا الغامضة. لكن كاسترو ذكّر الشعب الكوبي بحذق (ثانية) «بضعف شي». وقال كاسترو في تلك الليلة: «لقد عرفناه طول الوقت، كان دائماً يتميز بالتهوّر غير العادي، والإزدراء التام للخطر. . . حاولنا حمايته من مخاطر السقوط في معركة ليس لها أهمية استراتيجية كبيرة، ونستطيع أن نقول اننا كنّا دائماً قلقين بصدد احتمال أن يقوده اندفاعه وهذا السلوك في مواجهة الخطر، إلى ملاقاة حتفه في أي معركة. . .».

في الحال بدأت «عبادة شي» في كوبا ـ وحول العالم. وأصبحت صور /شي/ بسرعة القوت الرئيسي للثوريين الشبان واليساريين الجدد من بركلي إلى برلين إلى بغداد. وفي قصر الثورة في هافانا، ارتفعت صور شي ولينين إلى ارتفاع أربعة طوابق، وأحرق جسده في أدغال فاليجراندي ولكن اليدين قطعتا في انتظار تأكيد أخصائيين تمّ جلبهم من الأرجنتين لهويته. لذلك فإنه في «أسطورة شي» أن يديه انتهتا في هاڤانا، في حجرة صغيرة لتذكارات مارتي في قصر الثورة وقد أحيطتا بكمي زيّه العسكري مع نجومه الرئيسية.

والآن أصبحت هناك وثائق عن أسر ووفاة شي. بعد أن أسر في ٧ أكتوبر ١٩٦٧، سرعان ما وجد شي نفسه وجهاً لوجه مع الضابط البوليفي المسؤول، كابتن جادي برادو سالمون، وهو ذو أنف معقوفة وتلقّى تدريبه في أمريكا. وبرادو أخبرني بعد سنوات، وكان قد أصبح جنرالاً: «حين أسرته كان يجب أن أسأله من أنت؟ فقال أنا شي»، وحينئذ بدأت أقول لرجالي أن يغطوا التلال، لكنه قال: «لا تقلق، لقد فشلنا»، ثم تحدثنا فترة وبدأت معنوياته تتحسن. سألته لماذا جاء إلى بوليفيا؛ تحدث عن الثورة العالمية، وعن شعب مستعد للقتال. لكني قلت له أنه أغفل شيئاً، أنه أساء فهم بوليفيا. وعندئذ قال: «القرار لم يكن قراري تماماً. . . وأخيراً قال له: كان قرار كاسترو. . .».

واستطرد برادو: «حتى النهاية كان الأمل يراوده. في منتصف سبتمبر تلقّى رسالة من كاسترو تقول انه استقبل مجموعة من طلاب بوليفيا في هافانا، وينظم مجموعة أخرى في تشيكوسلوفاكيا ليرسلهم إلى رجال حرب العصابات. . .». وتوقف برادو لحظة وهزّ رأسه: «لكن إذا فكرت فيما حدث، كانت المجموعة المقاتلة قد تبقّى منها رجال قليلون، كانوا يتلقّون فقط الرسائل بالراديو ولا يرسلونها لكنهم كانوا يأملون في ألا يتخلى عنهم كاسترو، فأين كان يمكن أن يجدهم كاسترو؟ لم يعد

جيفارا يمتلك أي معونة بعد رحيله عن هافانا، لا معونة على الإطلاق، كان معزولاً تماماً».

وجاء الأمر بقتل شي جيفارا الشهير بالـلاسلكي من لاباز وقد وافقت عليه وأعطته القيادة العليا للجيش البوليفي. لذلك قتل شي في كوخ صغير على يد ضابط يسمى ماريو تينان، أطلق النار على الثوري تسع مرات وعاش في سلام بعدها في سانتا كروز. ورقد شي «في عظمة» على منضدة عمليات في بلدة فاليجراندي البوليفية الإسبانية الطراز، حيث تخيّل البوليفيون المؤمنون بالخرافات، الذين رأوه هناك، في وجهه نفس الهدوء المخيف الشبيه بالمسيح كما كان كاسترو يوحي دائماً.

وتساءل الناس لماذا كان كاسترو كريماً هكذا مع ذكرى شي، ليحوّلها إلى عبادة غزت الجامعات الإنسانية مثل حملة ثقافية لحرب العصابات. كان هناك القليل للتساؤل عنه؟ ما الذي يخيف كاسترو في رجل ميت كان يكمله في حياته؟.

* * *

كانت وفاة شي لحظة تغيّر لكاسترو الذي بدأ يأخذ موقفاً أكثر ملاءمة إزاء السوفيت، وانسحب (مؤقتاً على الأقل) من شبكته الهائلة لحرب العصابات. وأخبرني أركادي شفشينكو الرجل الثاني في بعثة الاتحاد السوفيتي لدى الأمم المتحدة في تلك الأيام، أنه«في فترة الستينات كلها كان الكوبيون مشكلة، لم يكونوا راغبين في مشاركتنا، كنّا نعلم أنهم يقومون بأشياء في العالم الثالث لكنهم لم يقولوا لنا عما يفعلونه وكنا نعرف بالأمر من آخرين. لقد بذلنا قصارى جهدنا للحصول على مساعدتهم وحاولنا إرضاءهم بقدر المستطاع، ولم نبذل هذا القدر من الجهود الشخصية لإرضاء أي شخص آخر». وتوقف عن الكلام برهة ثم هزّ رأسه في تعجّب «بالطبع، كانوا أكثر تأثيراً على العالم الثالث من السوفيت».

لم «يقتل» كاسترو بالفعل شي، كما لم «يقتل» داوود أورياه حين أمره بخوض الحرب «آملاً» أن يموت لكي يحصل على باتشيبا زوجة أورياه. معظم قصص الحب والخيانة قديمة جداً، لكن بعد سماع كلمات «شي» الأخيرة، شعر كابتن جاري برادو سالمون الضابط الذي أسره، بأن كاسترو كانت له فكرتان أساسيتان بصدد العملية البوليفية. وقال برادو لي: «إذا نجحت العملية، سيكون فضلها يعود إلى كاسترو، وإذا فشلت، كما حدث، فقد تخلّص من شي. كاسترو لم يكن سيخسر أي شيء». وقد أورد برادو هذه النظرية في كتابه هو شخصياً عن أسر شي، وحين قرأ كاسترو الكتاب قال لصحفي أوروبي أن برادو فهم الأمر على وجهه الصحيح.

والآن وقد مات شي، يستطيع كاسترو أن يجعله «يعيش» كما يريد له بالضبط. في هذه الحياة الجديدة، وتحت أصابع كاسترو البارعة في التغيير، أصبح أرنستو جيفارا //شي في الصورة البطولية// لكنها كانت صورة مشوّهة. وقال السفير أوجينيو سولر صديق جيفارا، بعد سنوات في فنزويلا: «هذه الصورة التي كانت في حجرة نوم كل شاب في الستينات والسبعينات، لم تكن جيفارا، كانت أسطورة».

وهذا بالضبط الهدف.

في ٣ يناير ١٩٦٦، بُعَيد عودة شي إلى كوبا من مغامراته الفاشلة في الكونغو، أفتتح كاسترو المؤتمر الأول لتضامن شعوب إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، أو //القارات الثلاث// وبالطبع لم يحضره شي بل ولم يذكر حتى آسمه.

وحضر المؤتمر حوالي ٥١٢ مندوباً و ٦٤ مراقباً و ٧٧ مدعواً يمثلون ٨٢ دولة وإقليم في هيلتون هافانا تحت رعاية وتمويل الاتحاد السوفيتي. وكان من المنتظر أن يكون مؤتمر كاسترو، كما تقول كلير سترلينج الباحثة في شؤون الإرهاب، «بداية لتجمّع ضد الرأسمالية الغربية بصفة عامة وضد الولايات المتحدة بصفة خاصة عن طريق تشكيل حرب عصابات عالمية»، كان الجميع هناك: الفيتكونج، القوات المسلحة المتمردة بجواتيمالا، ستوكلي كارمايكل وحتى منظمة التحرير الفلسطينية الجديدة والمجهولة نسبياً. كان كرنفالاً حقيقياً للمنبوذين الغاضبين، المقطوعي الجذور الباحثين عن سبل للإستيلاء على السلطة عن طريق العنف. كما شهد المؤتمر الثلاثي «مولد» الثوري الفنزويلي الذي أصبح أشهر إرهابي في العالم، كارلوس، واسمه الحقيقي اليتش راميريز. وفي معسكر ماتانزاس خارج هافانا، الذي أسّسه كاسترو شخصياً، تلقّى كارلوس دروسه في الإرهاب على يد الكولونيل فيكتور سيمنوف من المخابرات الروسية. ومن كوبا، من معسكر ماتانزاس، من كاسترو، توجّه «كارلوس» إلى العمل مع السياسي الفلسطيني وديع حداد ليدخل دبلوماسية احتجاز الرهائن إلى أوروبا وليقود هجمات إرهابية شائنة خلال السنوات الخمس عشر التالية مثل حادثة ميونيخ.

وجاء أول فلسطينيين «للدراسة» في كوبا منذ ١٩٦٦، أتوا سراً وعدة مئات في كل مرة، وقام ياسر عرفات وجورج حبش الراديكالي الأشد تطرفاً بزيارات رسمية لهافانا وفي المقابل فتح الفلسطينيون الشرق الأوسط لكاسترو. وسرعان ما كان هناك كوبيون يقومون بتدريس لغة الباسك الإسبانية، ومقاتلون كوبيون يدربون رجال حرب العصابات في جبهة بوليساريو المناهضة للمغرب في الجزائر، وكوبيون

يقاتلون في معارك الشرق الأوسط، ومدربون كوبيون على حرب العصابات في كل أنحاء الشرق الأوسط المضطرب، وفي وقت لاحق كان كاسترو يردّ هذه الجمائل، بالمساعدة على دخول منظمة التحرير الفلسطينية إلى انجولا عام ١٩٧٥ وإلى السلفادور ونيكاراجوا بعد ذلك بأربع سنوات.

وهذا التحوّل نحو العالم العربي الراديكالي كان يعني تخلي كاسترو أخيراً عن إعجابه (بل ومعاملته التفضيلية) للطائفة اليهودية الكوبية العالية التنظيم والمبتكرة، والتي كان تعدادها ١٢ ألف شخص حين وصلت الثورة إلى العالم. ويبدو أن بعض المراقبين مقتنعين بأن كاسترو كان في البداية يفضل اليهود الكوبيين لأنه أعتقد أن بعض أسلافه من اليهود الأسبان الذين تحوّلوا إلى المسيحية في فترة التفتيش (في جاليسيا، يطلق اسم كاسترو عادة على اليهود). وأياً كانت مشاعره الشخصية فإن كاسترو نحّاها جانباً بسهولة في سعيه وراء العالم الثالث، خاصة العرب. في ١٩٧٣ بعد حرب /يوم كيبور/ (حرب ٦ أكتوبر) قطع العلاقات مع دولة إسرائيل. ومن هذه اللحظة أصبح كاسترو مناهضاً شديداً لإسرائيل، على الأقل بأسلوب مسرحي. في الواقع أن أفتقاره المبكر لأي مشاعر ضد اليهود ثم مواقفه العنيفة المناهضة لإسرائيل بعد ذلك تعكس على الأرجح قلة إلتزامه الإيديولوجي والديني أو حتى السياسي بصدد أي شيء، إلاّ إذا ثبت ملاءمته لأهدافه الخاصة.

وبعد المؤتمر الثلاثي بذل كاسترو أولى محاولاته الحقيقية الجادة لاستقطاب الأمريكيين السود والتأثير على الشباب في أمريكا الذين أبعدتهم حرب فيتنام عن النظام. وقبل أن تنتهي، تمّ أختيار ٢٥٠ شاب أمريكي لزيارة كوبا في الوية /فنسيرموس/ بين ١٩٦٩ و١٩٧٧ وتمّ التسلّل إلى أمريكا السوداء على كافة المستويات الممكنة الضعيفة. كان الهدف الأول مرة أخرى هو زعزعة استقرار الولايات المتحدة واستغلال كراهية حرب فيتنام «لإحضار الحرب إلى الوطن» وتدريجياً تحييد الإرادة الداخلية الأمريكية نفسها.

وكالعادة كانت أساليب كاسترو لا تشوبها شائبة. كان رجال يأخذون الشبان الأمريكيين لجلسات على شاطىء جيباكوا، وهو شاطىء رائع قرب هافانا، حين ينير القمر الكاريبي، وتهب نسمة رقيقة. لقد كان مكاناً رومانسياً وشاعرياً بالنسبة للواقعيين أمثال ألدريج كليفر، جيري روبنز وبرناردين دورنز من أمريكا. كان الأمريكيون الشبان يستمعون إلى رجال حرب عصابات سييرا مايسترا وهم يسردون

قصصهم الجميلة عن «الثورة». وعلى ضوء القمر، كان الأمريكيون يجلسون في حالة إثارة بالقرب من قائد ثوري يرتدي زي الحرب الأخضر الزيتوني الذي يرمز إلى هؤلاء «الرجال الجدد» الذين يحكمون كوبا، والمختلفين تماماً عن آبائهم في الوطن.

ويحكي رجل عصابات: «حين كنّا نرغب في تثبيط معنويات نظام باتيستا، كنّا نلقي القنابل على منازل الحرس والأماكن العامة، وغالباً يتوقف المجتمع كله».

ويتدخل قائد آخر: «أرِهم كيف فعلتها».

وسرعان ما يتعلم الأمريكيون كيف يصنعون قنابل مولوتوف، لم يطلب منهم مطلقاً استعمالها، لكنهم فقط كانوا يسمعون باستمرار كيف فعلها الكوبيون.

وهكذا أصبحت كوبا جنة الشباب الراديكالي، بالمياه المتلألئة، القمر، النار في الليل والجاذبية الرومانسيه لحرب العصابات والقادة. ورحبت بهم كوبا، عرف كاسترو تماماً كيف يجعل الراديكاليين يشعرون بأهميتهم، كان يتملقهم ويعطيهم بديلاً بطولياً، وبدلاً من الدولة التي كرهوها كان يعرض عليهم دولته وعقيدته ونفسه قبل كل شيء.

كان أحد أهداف كاسترو الأولى في أمريكا هو حزب «الفهود السود» الراديكالي الذي يتزعمه ألدريج كليفر، وهو رجل ضخم، وسيم، غاضب دائماً وأسود، كان قد قرّر فعلاً أن «فيدل كاسترو بطل عظيم» حين اتصل به الكوبيون لأول مرة عن طريق بعثتهم الدبلوماسية في الأمم المتحدة في نيويورك عام ١٩٦٧. كانت البعثة الكوبية تحت إدارة مباشرة من المخابرات الكوبية وكانت نشيطة ومعقّده، وقد أخبرني كليفر سنة ١٩٨٤ أنه «كان لديهم أناس معينون لمناطق ومدن بعينها، كان البعض يختص بشؤون السود، والبعض للبيض، والبعض للنساء... لقد كانت عملية محترفين، لها تدرّج عسكري».

ذهب كليفر إلى كوبا مع وفد من الراديكاليين السود والبيض. ولأنه كان مطلوباً بتهمة اغتصاب ملفقة، فقد شعر كليفر بالإثارة لفكرة أن يكون على مقربة من أمريكا، وفي ملجأ آمن، ويظل قادراً على بث رسالته الراديكالية من هناك إلى الولايات المتحدة. وفي كوبا مُنِح زياً عسكرياً ومسدساً خاصاً وسيارة وشقة أعلى إحدى البنايات. لقد عاش أوقاتاً سعيدة، بل وصادق فتاة أمريكية تدعى /باتي/ هيرن كانت مثله عاشقة لكاسترو وربما كانت واحدة من قصصه العاطفية.

بدأت باتي الجميلة ذات الشعر البني وهي من الجنوب، تكتب رسائل إلى

كاسترو عن طريق هربرت ماتيوز في النيويورك تايمز، وقد بعث كاسترو برد لرسائلها. والتقيا أخيراً حين ألقى كاسترو كلمته أمام الأمم المتحدة في خريف ١٩٦٠ . وبعدها أنتقلت باتي إلى هافانا حيث كان كاسترو يرسل لها يومياً خساً خاصاً لأرنبها الأليف.

عن طريق هؤلاء الأمريكيين الراديكاليين كان كاسترو ناجحاً تماماً في مساعدة فيتنام الشمالية، لم يكن لدى كاسترو أكثر من بضع مئات من القوات المسلحة في فيتنام، على الرغم من أنه في السبعينات كان لديه حوالي ألف عامل وفني هناك، وزار هو شخصياً فيتنام سنة ١٩٧٣ ، كانت مساعدته لفيتنام الشمالية من غير قتال حربي. لقد جعل هافانا مكان لقاء (مكان اللقاء الوحيد) حيث تستطيع المجموعات الراديكالية الأمريكية مثل /ويذرمان/ اللقاء مباشرة مع الفيتناميين الشماليين. ومنذ سنة ١٩٦٣ ، أسّس لجنة التضامن الكوبية مع فيتنام الجنوبية، وهي الأولى من نوعها في العالم. وطوال الستينات، نظّم إجتماعات مستمرة بين الشباب الأمريكي و «هيونه فان با» الممثل الأول للفيتكونج لدى هافانا، الذي علّم الأمريكيين كيفية تنظيم المزيد من المظاهرات المناهضة للحرب في وطنهم، وإبراز عدد الخسائر الأمريكية وعدد الطائرات التي تمّ إسقاطها، والتشجيع على المقاومة. لقد أصرّ فان با على نقطة واحدة فهمها كاسترو أفضل من أي شخص أخر في العالم، يجب أن يحذر الأمريكيون من استخدام كلمة الشيوعية كما تجنبتها الحركات الثورية في كوبا وفيتنام في مراحلها الأولى من الثورة، وقال انه من الأفضل كثيراً الحديث عن «حياة جديدة» بعد النصر وبعبارات يستطيع الجميع فهمها والموافقة عليها، مثل الرعاية الطبية المجانية وظروف حياة أفضل ولن تصادف المتاعب أبداً مع هذه الشعارات.

هذه اللقاءات بين الشباب الأمريكيين والفيتناميين الشماليين كان لها نتائج عميقة. . . لا يستطيع أحد أن يقول ان اللقاء بين أعضاء ويذرمان الأمريكيين مثل برناردين دورن وبيتر كلاب مع وفد من فيتنام الشمالية وفيتكونج في هافانا في منتصف ١٩٦٩ كان «الإلهام» الوحيد «لأيام الغضب» في شيكاغو التي أعقبت بأسابيع قليلة عودة الأمريكيين إلى «وطنهم» المذنب. لكن مثل هذه الاجتماعات، بإلهامها، وتعليماتها، «بنقل الحرب للوطن» كان لها تأثير عميق على الراديكاليين الأمريكيين الشبان، وعلى غير الراديكاليين، خاصة مع استمرار الحرب دون حل.

وكان كاسترو «يكسب» فيما يتعلق بعرقلة وتعطيل الحياة السياسية الأمريكية، أكثر من انتصاره في «ميادين الحرب» في العالم الثالث. كان محقاً، من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٦ ، وهو يرى الفوضى المناهضة لحرب فيتنام في الولايات المتحدة. بدأ

كاسترو فعلاً في إدراك فكره أن «الثورة» ممكنة هناك. ومن ١٩٦٦ وما تلاها، بدأ يأخذ المبادرة المحركة والجديّة في تشجيع الثورة في أمريكا.

كانت أساليب كاسترو في هذا الوقت لها سوابق تاريخية قوية. فكثير من الحروب الاستعمارية الأصلية في الأربعينات والخمسينات تمّ «كسبها» لا في الدولة المعنية، ولكن في مراكز القوة العالمية أو المدن الرئيسية في العالم القديم، لكن الجديد والمهم في أساليب كاسترو، هو أنه لأول مرة يحدث تزاوج متعمد بين المتمردين وحرب العصابات والمنظمات الثورية/الإرهابية في العالم الثالث وبين الحركة الراديكالية داخل الولايات المتحدة نفسها. بل إن البعض تصوّر أن الحركة الراديكالية والنضال ضد الإمبريالية والحرب ضد العنصرية سوف تتقدم يداً في يد إلى الأمام.

ولكن كما هو الواقع لدى رجال حرب العصابات اللاتينية والإفريقية الذين تدرّبوا في كوبا، كان الموقف الحماسي الأول للشبان الأمريكيين لكن سرعان ما يذوي بقوة الحقيقة المجردة والواقع الذي يجدونه في كوبا. حتى ألدريج كليفر أحسّ بالملل في النهاية من كوبا رغم حقيقة أن كاسترو أدّاه بكل فخر، المنشآت العسكرية التي سيتم فيها تدريب أعضاء «الفهود السود» التابعة لكليفر. وآزداد شعور كليفر بأنه «في مكان بعيد صغير». ولم يبدو أن التدريب الموعود سيبدأ، وأخيراً آتهمه الكوبيون بأنه يحضر لقاءات حركة كوبية سوداء ضد الحكومة.

لكن إذا كان ألدريج كليفر وغيره كثيرون سئموا كوبا، فلم يكن ذلك قبل أن ينعم كاسترو بتأثير تاريخي غير عادي على الولايات المتحدة وهو أثر تغلغل في النفسية الأمريكية والوطنية الأمريكية والثقة الأمريكية بشكل لم يسبق لها مثيل. ومنذ هبوط البروتستانت في أمريكا حاملين معهم فكرة مثالية عن إنشاء «مدينة صغيرة على التل» تضيء كمثال على الإنسانية كلها تدفقت كل الأفكار الإيديولوجية والإصلاحية من الشمال إلى الجنوب في نصف الكرة الغربي. وغيّر فيدل كاسترو كل هذا. فجأة، وقف زعيم لاتيني لا يحلم فقط بتغيير شامل في تيارات التأثير بل بإنجاز هذا التغيير. وإذا أنكر الأمريكيون التفكير في الأمر كله فذلك لأنهم يخشونه، إذ كان فيدل كاسترو يغيّر طبيعة الحرب ذاتها في عصرنا.

في تلك السنوات الحبلى، المنهمرة في الستينات، كان حلف شمالي الاطلنطي، وقوته من الأسلحة النووية يمنعان ويقللان تدريجياً من القوىٰ المجمدة للحرب الباردة. كانت الولايات المتحدة تخوض حرباً تقليدية في فيتنام لتخسرها أمام

حرب العصابات. وكان واضعو الاستراتيجيات في البنتاغون يتحدثون عن «حرب بسيطة الكثافة» دون أن يفهموا على الأقل ما يتحدثون عنه. في الوقت نفسه، فمن بين ٨٠ حرب نشبت بعد سنة ١٩٤٦ أخذت ٢٨ فقط الشكل التقليدي للقتال بين القوات المسلحة النظامية لدولتين أو أكثر، و ٤٦ حرب كانت حروب أهلية، أو نزاعات حرب عصابات و ٦ حروب كانت تمرّد وإنقلاب. وفي ١٩٨٤، كان هناك ما لا يقل عن ٤٠ حرب مستعرة في كافة أنحاء الكرة الأرضية، متورطة فيها ٤٥ دولة مختلفة، بل وكيانات وحركات متعددة. لقد كان عصراً جديداً، عصر «الحركة»، عصر عصابة الشوارع، عصر لجان الاقتصاص من المجرمين، حرب العصابات، والإرهاب. لقد كان، بأختصار، عصر فيدل كاسترو.

الفصل الثالث والعشرون
ديكتاتور الأبقار

«كنت أفضل محاولة لدراسة الطبيعة ومعرفة كيف يمكن، بالإضافة إليها، تحقيق أقصى استفادة من مواردها وإمكاناتها. لا، في هذا المجتمع العسكري، يقود الإنسان ويسيطر ويغتصب الطبيعة».

رينيه ديمون

كان يجب أن تكون السنوات التي أعقبت مصرع شي وتقارب كاسترو مع الروس فترة رخاء وأمن جديدة للزعيم الكوبي. كان الاتحاد السوفيتي، صديق كاسترو، في مرحلة عودة إلى الستالينية في عهد ليونيد بريجنيف، بعد سنوات التجدد في عهد خروشوف المبعد. وكانت الولايات المتحدة عدو كاسترو الأبدي تزداد إنغماساً يوماً بعد يوم في أسوأ عصور تاريخها المعاصر، بتحوّل الحرب الفيتنامية إلى رعب يثير حالة قطيعة على المستوى القومي يستغلّها كاسترو بكل براعة، ومع ذلك لم تكن هذه السنوات في صالح فيدل.

ففي وطنه، كانت كوبا، العاصفة ذات يوم، قد بدأت تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى الصورة الصارمة القاسية لأبناء عمومتها في الكتلة الشرقية. ربما كانت كوبا، الجميلة، والمعبّرة، هي أفضل انعكاس للتدهور المتزايد لكوبا؛ فمبانيها الجميلة بدأت تلتوي مثل الثعابين، وطلاؤها يسقط بسبب الافتقار إلى الرعاية، وحدائقها، مثل أرواحها، انهارت. بالنسبة للكوبيين المعتادين على الأقل على أسلوب الحياة الأمريكية لم يتبق منها سوى عجز الموارد. وهناك «شيف» (طاهية) شهيرة أسمها نيتزا فيلابول كانت تقدم وصفات للطعام في التليفزيون آعتادت أن تطلب من المشاهدين إعداد أفضل أنواع اللحوم وتستطرد قائلة انه إذا لم يتمكنوا من الحصول على هذه القطعة بالذات فبإمكانهم أن يستخدموا قطعة أخرى أو حتى دقيق القمح.

كيف تقدم طبقاً رئيسياً كوبياً بدون إستخدام اللحم؟ كان هذا هو التحدي السحري أمام كوبا التي يبنيها كاسترو. وخلف الستار الحديدي كانت قمة المأساة تتمثل في وجود كوبا وسط بقعة بترول هائلة تغطي شوارع المدن كأنها طبقة من الطلاء. كان البترول الروسي على درجة كبيرة من السوء لدرجة أنه كان يتسرب في كل مكان بفعل الحرارة، وكان كثير من الكوبيين يتساءلون كيف أن الثورة الكوبية لها مثل هذا السحر بينما الدولة الكوبية الثورية على هذا القدر من الغباء.

وبينما تتغلغل داخل كوبا مشاعر وواقع الكتلة الشرقية، كان كاسترو يعمد إلى تدمير كل أثر للماضي بانتظام: تماثيل الرؤساء السابقين تحطم إلى شظايا، الكتب تحرق، وعندما غادر رولاندو أمادور صديق طفولة كاسترو، وطنه بعدما تكشّفت له الأمور، ترك وراءه مكتبة تضم عشرين ألف كتاب، وأستولت الثورة عليها وأحالتها إلى ورق. وأزدادت حيرة الرجال أمثال أمادور، حين انتهت محتويات متحف فريد من نوعه في كارديناس، التي كانت تضم مجموعة رائعة من القواقع والفراشات والعملات الرومانية إما إلى الدمار أو إلى شحنها لروسيا. وعندما علم أمادور بهذا، أوضح لي فيما بعد «السماع بأخبار فيدل الجديدة كأنه يسمع أخبار رجل لم يعرفه من قبل يحيط به أناس ليس لهم علاقة بالشعب الكوبي».

وفي لحظة ما، خفض الروس الغاضبون معدل ما يرسلونه من بترول إلى كوبا تخفيضاً كاد يصل إلى درجة التوقّف. وبلغ الموقف حداً من السوء حتى أن الشيوعيين الأوروبيين المتعاطفين أمثال سانتياجو كاريللو الإسباني خاطروا بقولهم لكاسترو «لقد قطعت علاقتك بأمريكا والصين. . . وأي نزاع مع الاتحاد السوفيتي سيكون كارثة». وفجأة ودون سابق إنذار، في ٢٠ اغسطس ١٩٦٨، عبرت القوات السوفيتية الحدود التشيكوسلوفاكية، وأستيقظ العالم ليجد ٢٠٠ ألف جندي ودبابات روسية تتخذ مواقعها في قلب مدينة براج القديمة، وأنتظر الكوبيون توضيحاً من كاسترو الذي لا يحبّذ التدخّل في الشؤون الداخلية للدول، وجلس كاسترو على مكتبه تلك الليلة، ودائماً ما كان يجلس على مكتب كما لو كان مدرساً - يواجه ستوديو تليفزيون وفي خطبته التي استغرقت ساعتين ونصف الساعة واشتملت على ١٣ ألف كلمة، أدخل في رسالته المعقدة، والتكتيكية الخطأ الأساس في غزو دولة خرى - «لقد تمّ إنتهاك سيادة دولة تشيكوسلوفاكيا». إلاّ أنه تقبّل الإدعاء الروسي بأن لغزو له ما يبرره بسبب «بداية شهر العسل بين الليبراليين التشيكوسلوفاكيين الإمبريالية».

وهكذا وضع كاسترو نفسه بعناد في جانب «نظرية بريجنيف» التي كانت تسمح للاتحاد السوفيتي بآتخاذ إجراءات عملية إذا كانت دولة اشتراكية أخرى «تهددها الرأسمالية». لكن كاسترو لا يتنازل عما يمكن بيعه، وآنتهز الفرصة للدعوة إلى إعادة تحديد العلاقات السوفيتية ـ الكوبية وليطلب أن تمتد نفس «الحماية» التي قدمها السوفيت لتشيكوسلوفاكيا لتشمل فيتنام الشمالية وكوريا الشمالية وكوبا إذا ما تعرضت لخطر الغزو من الداخل. كان استهلالاً دبلوماسياً لأزمة الصواريخ من جديد.

وعلى الفور تقريباً، ويا للغرابة، آزدادت المساعدات السوفيتية إلى كوبا وبدأ تدفّق البترول مرة أخرى، في الوقت المناسب لما أصبح هاجساً لدى كاسترو، وهو رفع حصاد قصب السكر إلى عشرة ملايين طن.

وعلى الرغم من عدم آعتراف العالم الخارجي تقريباً، فقد اتضح أن أحلام كاسترو بصدد إقتصاد كوبا ملازمة لأحلامه في غزو العالم. وتأسيساً على التراث الإسباني الكاثوليكي القديم بشأن إحتقار المال، بدأ يتحدث الآن عن القضاء على أسطورة المال بل وإلغائه تماماً وحتى خلق «حضارة عظيمة بدون مال». وكانت مثل هذه الأفكار تطرأ على عقل كاسترو مثلما ينمو نبات عش الغراب بعد المطر. وبدأ كاسترو حملة للقضاء على كل الأعشاب البرية «وأصبحت الدعوة إلى كوبا الخالية من الأعشاب البرية الضارة هي نداء اليوم». وفي يوم آخر طرأت على ذهن كاسترو زراعة كوردون من أشجار البن في دائرة تحيط بهافانا كلها، وفي الحال أرسل العمال كما لو كانوا ذاهبين إلى معركة خليج الخنازير أخرى، ولكن الأرض هناك لم تكن صالحة لنبات البن الرقيق وفي ظرف عام حطمت الطبيعة بقسوتها هذا الحلم لحالم كوبا الأول.

ويحتفظ أوسكار موري متعهد حفلات شاطىء فاراديرو بذكريات حيّة لرئيسه أثناء هذه السنوات.

في إحدى المرات كانوا يقودون السيارة في نهاية شبه جزيرة فاراديرو النائية، التي تذروها الرياح حيث لا يستطيع «الشعب» الوصول إليها. كانوا يقطعون الطريق حين صادفوا شجرة صنوبر مقطوعة، ويتذكر موري قائلاً: «وعندها جنّ جنون كاسترو فترجّل وقال لحراسه أن يعطوه بندقية أوتوماتيكية، فقد ثارت ثائرته لوجود أي شخص يمكن أن يقطع شجرة صنوبر في ذلك المكان»، فقلت: «سيدي الرئيس إن الذي قطع هذه الشجرة هو الرجل الذي سيقوم بتركيب التليفونات هنا»، فكال لي الإهانات ثم أخذ البندقية وأطلق الرصاص على كابلات الهاتف وأصاب واحداً فسقط ثم

آستدار ناحيتي وقال: «يجب أن أقتلك»، فأجبته «سيدي القائد لست ملاماً على هذا». هذا هو كاسترو الذي يطلق الرصاص على كابلات التليفون من بندقية آلية مثل دون كيشوت كوبي مجنون.

ويتذكر العالِم البيولوجي الكوبي الشهير بروفسير خوسيه روك ليون أنه حين كان كاسترو يظهر في مصنع «كان يحيط به ناس لم يكونوا مستشعرين له ولكن منفذون لنزواته، جوقة تردّد ما يقوله. وعندما يأتي إلى المعمل البيولوجي، كان يصدر أوامره فقط، فيدخل وينظر حوله ويقول: «لا يجب وضع ماكينة التصوير الصغيرة بجانب النافذة بل في مكان ظليل»، وكانوا ينقلونها حتى لو كان رأيه خاطئاً». فماذا كان رأي الأساتذة. قال لي ليون: «كانوا كمن يرتدون أقنعة، لا يتحدثون كثيراً في جلسات خاصة، فكما ترون، لم يكن مفروضاً على كاسترو أن يتفق مع العلم بل كان المفروض أن يتفق العلم معه».

كان كاسترو يتحوّل إلى نسخة كوبية عن تروفيمو ليسنكو البلاشفة، مخترع الجينات الجديدة. كان موسى الذي يشق البحر الأحمر، كان ملك تاي صانع المطر. كان على حد قول رفائيل ديل بينو الذي أصبح واحدًا من أهم ضباط سلاح الطيران: قد أصبح رجلاً يحلم «مثل بيضاء الثلج (سنووايت)، رجلاً تملّكته فكرة أن يصبح (الطلبة أساتذة)، أن يبني مطاراً جديداً على بعد خمسة أميال جنوبي المطار الحالي الذي لم يكن يستقبل أكثر من ثلاث أو أربع رحلات يومياً. . .».

ولكن الأبقار هي التي جذبت أنظاره فعلاً، الأبقار التي أصبحت أساس هاجس تسلط عليه ليسيطر على كل شيء حتى في جزيرته إن لم يكن في العالم، لأنه في صحبة الأبقار كانت «خططه الخاصة» تتحوّل إلى مستويات جديدة غير مسبوقة في مجال الهندسة الوراثية. فمع الأبقار كان كاسترو يستطيع أن يحسّن من الطبيعة ليحل التلقيح الصناعي المخطط محل عملية التزاوج الطبيعية، العفوية. وكالعادة لم تكن أهدافه تقتصر على أحلام متواضعة، فلم يكن يسعى لأقل من تكوين مخلوق بشري جديد، حيوان جديد يحمل اسمه إلى آفاق جديدة. لقد خلق ثورة ضد كل ما هو غريب وبعيد عن أحلام أي رجل، الآن يعمل على خلق حياة جديدة أغرب من الخيال. لقد أصبح البرنامج بأكمله فكرة متسلطة عليه لدرجة أن أقرب وأخلص أصدقائه، جابرييل جارسيا ماركيز (الذي كرّس حياته الأدبية للكتابة عن البطاركة والمزارعين في أمريكا اللاتينية) اقترح عليه حباً، وهو يمزح مزاحاً أدبياً على روايته

الشهيرة «خريف البطريرك»، أن يكتب عملاً جديداً عن صديقه كاسترو بعنوان «ديكتاتور الأبقار».

وتحوّلت كوبا إلى مركز للأبحاث على الجينات وأصبح كاسترو هو «أبو الجينات». كيف؟ بمزاوجة بقرتي الكيبو والهولستين لخلق بقرة جديدة تماماً /أف ـ١/ لتزوّد كوبا بالمزيد من اللبن واللحم وتثير حيرة العالم. وحين أخبره عالم إنكليزي بأنه، نعم، يستطيع أن يهّجن الكيبو والهولستين وسيؤتي نتيجة في الجيل الأول لكن «الجيل الثاني سيحمل أسوأ عيوب الأب والأم»، تمّ ترحيل الرجل على الفور من كوبا. كان العالم محقاً، بالطبع. وقد نجحت بقرة، هي «نجمة البقر» لدى كاسترو التي سميت «الضرع الأبيض». وأصبحت شهيرة لدرجة أنه حين نفقت قام كاسترو الحزين بتحنيطها ووضعها في متحف حيث «تستطيع الأجيال القادمة تأمّل ضرعها الرائع».

بطرق كثيرة، أصبحت بقرات كاسترو أكثر واقعية وشخصية، مما كان عليه البشر. في المزارع كان يطلق على الحيوانات أسماء. (و «لكن هل من الطيب أو السيء أن تعرف البقر بالاسم»، هكذا كان يتساءل المتفرجون الحائرون أمثال كارلوس ألبرتو مونتانز). لم تكن الأبقار وحدها لكن كل حيوانات المزرعة مثل (المحظور تنقلهم) لديها «جوازات سفر حيوانية» أو بطاقات معدنية صغيرة تعرف ماهية المخلوق ومتى أنتج ومن أنتجه. كان لبعض الثيران إسطبلات مكيّفة الهواء. وحين يموت حيوان كان على مدير المزرعة مهمة الذهاب إلى البوليس للإبلاغ عن الوفاة لكي يتم رفع اسم الحيوان من قوائم الشرطة.

في هذه السنوات وفي هذا العالم من العلم الساحر كان كاسترو يدأب على جلب العلماء الأجانب ليأمرهم بأن يكونوا سحرة وحين وصل العالم الفرنسي، المزارع والمعلم والمهندس الزراعي أندريه فوازون إلى مطار هافانا وجد الزعيم الكوبي واقفاً في انتظاره. رئيس دولة يقف في المطار «لتحية عالم فرنسي متواضع في الثانية صباحاً!» هكذا وصف فوازون المذهول الأمر. زارت ناتي فوازون المتواضع، في فرنسا فسحرت واقنعت، خبير عشب المراعي بزيارة هافانا. والآن تولّى كاسترو المهمة، دخل فوازون دوامة من الإغراء والتمجيد والتبجيل. وبدأ كاسترو حملة مكثفة «لترسيخ مذهب العشب» للشعب الكوبي كله، ودون توقّع أصبح فوازون وهو في الستين من عمره البطل الوحيد بلا منازع لكل أبقار كوبا المقدسة.

وحضر دكتور رينيه ديمون المهندس الزراعي الفرنسي الشهير والعالم إلى كوبا

ليتفقد الأحوال وعـاد مرات ومـرات. . . لرغبتـه الدائمـة في الإيمان بـزراعة كـاسترو «الثورية» لكنه دائماً وأبداً كان يعود إلى الواقع العلمي. عند كـل منحنى كان ديمـون التعيس يرى خسارة وعلماً زائفاً. ديمون لم يستـطع مطلقاً أن يفهم الأمر على حقيقته حين أبلغ أن الفلسفة الإقتصادية الفيداليـة تعني أن «الإخلاص للمجتمـع هو القـاعدة الأساسية لخلق الثروة»، بدلاً من ذلـك رأى ديمون «ميـلاً بعد ميـل من مزارع المـوز حيث تمـوت الأشجار لأنهـا زرعت في أراضٍ سيئـة الصـرف وحيث الميـاه مخلوطـة بأملاح الماغنسيوم». ولكن أهم تجـربة رآهـا ديمون كـانت تلك الخاصـة بمنع تـآكل التربة في بينـار دل ريو. هنـا فكّر كـاسترو في بنـاء مسطحـات متوازيـة عريضـة على خطوط دائرية على سفح الجبل. وأخيراً فهم ديمون: لم يكن هدف التجربة مكـافحة تآكل التربة بل تحدي الطبيعة نفسها، «السيطرة على الجبل».

وفي النهاية نـدّد كاستـرو وسبّ وطرد كـل العلماء المكـروهين الذين فشلوا في التعرّف على عبقرية «الجينات الجديدة» و «الـزراعة الجـديدة». ومن حسن الحظ أن أنقـذ القبر البـروفسير فـوازون رغم معـارضتـه للفكـرة. فقـد تـوفي بـأزمـة قلبيـة في ٢١ ديسمبر من نفس عام وصوله إلى كـوبا. (ويقـولون ان السبب هـو شدة الإثـارة). وتصـدّر أبو عشب المـراعي الكوبي الصفحـة الأولى بصحيفة ريڤـولوسيـون وشيّعت جنازته رسميـاً. وألقى كاستـرو شخصياً كلمـة الرثـاء. وأثمر إعجـاب كاستـرو العنيد بالهندسة الوراثية فقط وإلى حد ما في مجال أبحاث السرطـان. وكما أعجب بـالأبقار وعشب المـراعي أبـدى كـاستـرو اهتمـامـاً مفـاجئاً لا ينضب بعقـار الانتـرڤيـرون. والانترڤيرون بروتين تنتجه معظم خلايـا الجسم ويعد خط الـدفاع الأول ضـد العدوى الڤيـروسية وكـان يعتقد أن من خصائصه وقف تحـوّل الخـلايـا العـاديـة إلى خـلايـا سرطانية. وبدأ كاسترو يسعى في كل الاتجاهات ليجعل كوبا مـركزاً لـلأبحاث حـول الانترڤيرون.

كان البروفسير الأخصائي بأبحـاث الانترڤيرون بهلسنكي، كارل كنتل، جـالساً في مكتبه في المدينة الفنلندية القديمة حين اتصلت به السفارة الكوبيـة: هل يتفضـل بزيارة كوبا؟ كان الكوبيون قد حوّلوا فيلا فاخـرة في ضواحي هـافانـا إلى معمل وبنـوا معهد أبحاث جديد. كانوا يريدون حضور البروفسيور كنتل في حفل الافتتاح. ويتذكر العالِم الشاب في هلسنكي ذات يوم: «كوبا دولة فقيرة ولكن حين يريد ديكتاتـور شيئاً ما، فكل شيء ممكن. ذهبت هناك وقضيت بضعة أيام والتقيت بفيدل كاسترو، وحين رأيت فيـدل كان هنـاك دائماً مصـور معنا ـ حتى ونحن نتنـاول الشـراب كـانـوا دائمـاً

يلتقطون الصور. كان لديهم معهد ضخم للبقر ورأيت البقرة «الضرع الأبيض» هناك. أعتقد أنهم عالجوها بالانترڤيرون لأنها كانت تحمل ورماً خبيثاً».

وفي النهاية ورغم أن العمل العلمي الذي أدّاه الأطباء الكوبيون كان سليماً فقد نالوا اهتماماً عالمياً بسيطاً لمجرد أن كاسترو لم يكن ليسمح لهم بنشر نتائج أبحاثهم في الصحف العالمية. فقد كان إغلاقه الجنوني لكوبا يتعارض مع أحلامه بالمجد.

ولكن رفع محصول السكر إلى ١٠ ملايين طن كان الهاجس الأعظم الذي يسيطر على أحلام كاسترو بنصر علمي ساحق. وقد ركّز طاقته الجبارة التي تحوّلت مؤقتاً عن التوسع العسكري الخارجي على هذا الجهد الذي جمع قوة إرادته للتغلب على حقيقة العلم الجامدة. وفي الواقع أنه عبّأ كوبا كلها لتحقيق هدفه كما سبق له أن عبّأها عسكرياً من أجل حرب العصابات الدولية.

وكشف كاسترو عن داخليته من خلال إختياره للاستعارات وقال إن الحصاد «جعل من دولتنا رجلاً... جعلها تنضج... جعلها عملاقاً» ولو كانت التعبئة الاقتصادية من أجل الحصاد تعبئة لحرب لاعتُبرت أعظم تعبئة عسكرية على مر الزمان. ودعا السيد الواهم الدولة كلها إلى هوسه الكبير. وفي ١٩٦٩ استمر الحصاد ٣٤٤ يوماً (عام حصاد مدته ١٨ شهراً) لقد اشترك فيها الجميع، لم يتم الاحتفال بعيد الميلاد بسبب «النشاط في حقول قصب السكر». وجعل كاسترو يوم ٢٦ يوليو المقدس الثوري هو «عيد الميلاد الجديد». وهكذا لم تعد كوبا تحتفل بعيد الميلاد أبداً. وبدلاً من العطلات القديمة كانت تنظم مظاهرات هائلة يشترك فيها مئات الآلاف الذين يملأون الميدان ولكن كان هناك آنفعال يائس بصدد هذه المظاهرات لأنه في الواقع لم يعد هناك ما يستحق الاحتفال.

عمل الجميع على حصاد قصب السكر. شارك الوجهاء الأجانب أندريه جريشكو وزير الدفاع السوفيتي وحتى زوجات الشعراء، وعندئذ فشل المشروع. كان أقصى إنتاج ٩ ملايين طن ولكن حتى هذا الرقم يحمل مبالغة لأن معظم القصب كان في الواقع مهملاً من الحصاد السابق أو قطع قبل ميعاد الحصاد التالي. كيف ينجو فيدل كاسترو الفخور من هذا المأزق؟.

في ٢٦ يوليو ١٩٧٠ في الذكرى السابعة عشر لهجوم مونكادا وقف كاسترو أمام الشعب الكوبي أستاذاً للتعمية والتلاعب كما لم يكن من قبل. في الماضي كان يلجأ عاطفياً ونفسياً إلى تبادل الأمكنة مع جماهيره ليتوحدوا معه. والآن توحّد هو معهم

لينقل إليهم الإحساس بالتبعية كما حول الشرعية. لقد حوّل المزارع العظيم نفسه مؤقتاً إلى إنسان متواضع نادم «رجل لم يعد بوسعه القيام بمعجزات». وقال لشعبه أنهم جميعاً مسؤولون عن الفشل لكن مسؤوليته أكبر. لقد أصبح في النهاية أحد الأميين. إعترف بأخطائه ثم، بذكاء، عرض الإستقالة. كان هذا تكتيكاً مرهفاً يستخدم فقط في لحظات الخطر واللحظات الحبلى كما حدث مع أوروتبا وهو ما يعلمه كاسترو جيداً. والآن مرة أخرى عرض نفسه للرفض. وكانت هذه مخاطرة لأنه، كما عرف ماكس ڤيبر عقلياً وعرف فيدل كاسترو غريزياً، «تنهار كاريزماتيه الزعيم إذا لم يعترف الأشخاص الذين يشعر أنه أرسل إليهم بمهمته». ولكن حكم كاسترو بأن الجماهير لا يمكن (ولا تستطيع) أن ترفضه كان صحيحاً كالعادة.

وصرخت الجماهير في ذروة اعتمادها على الزعيم «لا لا لا».

في النهاية حقق الكيماوي السياسي المسيطر نصراً من فشله الذريع. لقد عاد مرة أخرى أقوى مما كان. وقد أوضح خوسيه لويس لوفيو المنشق الكبير أن «فيدل كان يتلاعب جيداً بالكوبيين، لقد أخبرهم أنه كان على علم بالأمر منذ إبريل لكنه لم يرغب في أن يقول شيئاً للشعب». وهكذا ظهر كاسترو بمظهر من حاول أن يغنيهم عن معرفة الفشل لشدة قلقه على شعبه، ومرة أخرى أصبحوا مرتبطين معاً للأبد بلا دفاع أمام عالم خارجي سوف ينتقدهم ويسخر منهم أكثر من قبل. لقد حماهم وجعلهم راغبين في حمايته إذ ظهر فجأة بمظهر الضعيف الهش.

ولم يكن هذا الجهد بلا مقابل، فحين انتهى الحصاد كانت جزيرة كاسترو قد تحوّلت إلى معسكر إقتصادي حربي يدار على أسس عسكرية بحتة وأوسع نطاقاً من أي دولة «شيوعية» في العالم. لقد نظم الاقتصاد الان ليتماثل مع نظام الجيش المتمرد في سييرا مايسترا. ولأن كاسترو شخصياً كان مرعوباً من أدنى فوضى فقد وجد في التعبئة الشاملة الأمن والصواب.

كان المحللون والزائرون في تلك السنوات يشعرون بقلق بشأن تسمية نظام كاسترو. وأبتكروا تعبيرات مثل «الاشتراكية النموذجية مع البيرقراطية الوطنية»... «الأبوة الرومانسية»... «عقلية هجوم مونكادا وتعقيد سييرا مايسترا»... «الأخلاقية الثورية التي يسعى من خلالها إلى ثغرات استراتيجية»... «الشيوعية الكاريزماتية»... وأياً كان ما اعتقده العلماء الاجتماعيون وهم يبحثون عن كلمات لوصف ظاهرة الطبيعة السياسية الممثلة في فيدل كاسترو فقد انتهوا جميعاً إلى «إرادة... إرادة... إرادة». وحين ربط إرادته الصلبة التي لا تصدق بالاقتصاد امن

تماماً بأن النتائج ستكون «علمية» أو نوعاً من الفيدلية العلمية متلاعباً بهذه التسمية على «الاشتراكية العلمية» المقدسة لدى السوفيت.

حتى في الفشل كان كاسترو يبدو منتصراً، لقد خرج من سنوات الستينات كأنه الزعيم الأوحد والوحيد وبقوة شخصية لا يمكن تجاوزها حتى في الدول الشيوعية الأخرى. لقد أصبح سكرتيراً للحزب الشيوعي، وقائداً عاماً للقوات المسلحة، ورئيساً لمجلس الدولة ولمجلس الوزراء، وتولّى منصب الزعامة العليا للحزب والدولة والقوات المسلحة. كانت قوته تبدو مطلقة.

وقضى كاسترو فترة على شاطىء فيراديرو في هذه الأثناء وعمل على أن يحظى رجاله من المسؤولين بفيلات جميلة هناك. وكعادته في ألاّ يدع مجالاً لتوقّع تصرفاته كان كاسترو يصل فجأة في فيراديرو ولكن أوسكار موري كان دائماً مستعداً. وأخبرني موري وهو يصف مخبأ كاسترو أنه: «كان هناك جراج ومطبخ صغير. كانت هناك أريكة في حجرة المعيشة كان يجلس عليها كثيراً ويتأمل البحر، كانت بالفيلا ثلاث حجرات نوم في الدور العلوي وكان ينام قليلاً جداً. . . توقف موري عن الكلام وضحك. . . لم يكن لديه نظام للنوم. كان سواء عنده أن ينام في السادسة صباحاً أو الثالثة بعد الظهر. كانت هناك ليالي نقيم فيها حفلات ونشرب قليلاً لكن لم أره أبداً يكثر من الشراب وكان يفضل كونياك كورفوازييه. كانت هناك أيام يبدو فيها سعيداً ويذهب إلى الملهى الليلي في الفندق. كانت نساء القائد تحت أمره دائماً في بعض الأحيان يذهبن إلى منزل فيدل ولكن حين يدعو أو يرسل في طلبهن ولم يكن يذهبن من تلقاء أنفسهن فذلك أمر لا يستطيع أحد القيام به».

النساء؟ راقصة التروبكانا المفضلة لدى السياح الأمريكيين في الأيام الماضية وفي الملهى الليلي المزدهر في عهد كاسترو قالت انه يقرأ وهو يمارس الحب وقالت الممثلة الفرنسية أنه كان يدخن. وشكت النساء الأوروبيات من أنه لم يكن يخلع حذاءه أبداً ـ المرأة الأمريكية الشابة التي ذهبت مرة بسعادة وهي مليئة بالتوقّعات في منتصف إحدى الليالي اشتكت من أنه جلس لمدة ثلاث ساعات «يتحدث فقط» (مفاجأة) «بلا توقّف» (ليست مفاجأة) عن الإصلاح الزراعي. واشتكت سيدة جميلة عرّفها عليه خوسيه باردو لادو نفس الشكوى. وقد ذهبت الاثنتان إلى الشاطىء حيث قضينا ساعات قليلة ذات ليلة كوبية جميلة. وحين سأل باردو لادو الكوبية مرة عن الأمر أخبرته أنه كان غريباً جداً لأني «بدأت أداعب شعره ولم يفعل سوى الكلام. . .».

لقد أصبحت علاقات كاسترو معروفة. كانت الزهور تظهر فجأة في عيد ميلاد المرأة وكانت أمها في عيد ميلادها تتلقى هدية نادرة أيضاً وكلها ترسلها سيليا سانشيز التي كانت على علاقة بنفس الرجل. وأحياناً كان صبي في مدرسة ما يرى صور كاسترو ويصيح «هذا هو أبي» ولأن كاسترو كان «والد» الدولة كلها فالتصريح لم يلفت نظر أحد.

وخلال هذه الفترة تورّط كاسترو مع امرأة أعطته إحساس الأسرة الحقيقية وعرفها الأصدقاء المقربون «المرأة من مدينة ترينيداد». كانت داليا سوتو دل ڤالي جورج امرأة أخرى جميلة ذات شعر أسود وعينين خضراوين. انحدرت داليا من أسرة معروفة كان والدها إنريك شريكاً في مصنع سيجار كبير وهي كانت تعمل سكرتيرة في اتحاد عمال السكر حيث من المرجح أنها التقت بكاسترو. في الأيام الأولى ذهبت إلى قارىء الطالع نظر إليها بطريقة غريبة وقال لها «ستقعين في حب رجل عظيم» وحين بدأت علاقتهما عام ١٩٦٢ إلى ١٩٦٣ اعتبرتها أسرتها «سجينة» لفيدل وقال والدها لأصدقائه أنه فقد إبنته ولأن العلاقة استمرت فترة كان جيرانه في ترينيداد يعايرونه بدعوته «الحمو» ثم علاوة على ذلك بأن يتوقعوا منه أن يحصل لهم على خدمات من كاسترو.

وفي أوائل السبعينات كانت داليا قد أنجبت خمسة صبية من كاسترو، أربعة منهم يحملون اسم اليخاندرو وهو اسم كاسترو الأوسط ضمن أسمهم. ومثل فيدليتو، تلقوا تعليمهم في الاتحاد السوفيتي وكان أحدهم يحمل كل طباع كاسترو لذلك كان الطفل المفضل عند كاسترو. ورغم أنه كان معروفاً في بعض الدوائر أن أولاد داليا هم أبناء كاسترو فإن داليا نفسها ظلّت مجهولة. وكانت ڤيلما زوجة راوول هي التي تظهر في المناسبات العامة باعتبارها سيدة كوبا الأولى ـ حتى بعد طلاقها من راوول.

ورغم كل الأسلحة والسلطات بين يدي كاسترو فإن فشل مشروع قصب السكر تركه ضعيفاً إلى حد الخطر ليشن هجوماً في مجال جديد لم يفهمه تماماً وهو الاقتصاد، لأنه كان السلطة الجديدة في العالم. وفي ديسمبر ١٩٧٠ توجّه كارلوس رفايل رودريجز إلى موسكو على رأس اللجنة الكوبية للتجارة مع الاتحاد السوفيتي بهدف تجديد المعاهدة الاقتصادية الخمسية مع السوفيت. وكانت هذه الرحلة والمفاوضات من أجل تجديد المعاهدة التي اظهرت اكثر من أي وقت مضى نهاية أوهام السوفيت بشأن شريكهم الثوري الشيوعي وأعطت للسوفيت ولأول مرة الصوت الحاسم في صنع القرار بصدد الشؤون الاقتصادية الكوبية. وفي الواقع سيطر

السوفيت على تخطيط الاقتصاد الكوبي عن طريق تأسيس «اللجنة الكوبية السوفيتية للتعاون الاقتصادي والعلمي والفني»، وعلى رأسها كان كارلوس رفايل رودريجز.

ولم تستوعب واشنطن هذا التغيير لانغماسها في الاضطرابات الداخلية بسبب مناهضة الحرب ومفاوضات باريس لإخراج الولايات المتحدة من فيتنام. والأهم أن العلاقات بين كوبا وروسيا كانت تبدو جيدة ظاهرياً. فحين أنها لم تكن كذلك، على سبيل المثال حين حلّ ألكسندر سولداتوف الجاد محل الكسييف كسفير في كوبا ثم طرده كاسترو في آخر ١٩٧٠ شعر الروس بغضب شديد. وحكى أركادي شيفشنكو المنشق الروسي أن العلاقات تدهورت إلى أدنى مستوياتها. «وأخبرني سولداتوف بعد ذلك أن مهمته كانت مهمة مستحيلة. لقد أرسل إليهم ليعتصرهم ويقطع المساعدة الاقتصادية. . . والذي حدث أن كاسترو لم يستقبله لمدة طويلة. وحين عاد من كوبا، ظلّ عاماً كاملاً بلا عمل. كان ملحقاً بمكتب جروميكو لكن لم يجد ما يعمله. وأعتاد أن يحضر إلي راغباً في تبادل الحديث. كان أمراً مثيراً للشفقة فكوبا كانت نهاية مهنته».

ولكن العالم لم ير الصراعات داخل العالم الشيوعي وبشكل خاص اختار المثقفون والصحفيون والراديكاليون والليبراليون الأمريكون ألا يروا الخلاف، وهم يتدفقون على هافانا. وكم نجح كاسترو في اجتذاب كل هؤلاء! كم من المزايا وعدهم في مجتمع بلا مزايا. وفي المقابل أدّوا وظائفهم، فقد عملوا على بناء التعاطف مع كوبا داخل الولايات المتحدة ليقيموا حائط حماية آخر يدرأ عنه أي تحرك أمريكي. وفي الوقت نفسه كانوا عاملاً في تحييد قدرة أمريكا على التصرف بأي مكان في العالم.

ومن أغرب الأحداث في غزل كاسترو لهؤلاء الأمريكيين ما حدث عام ١٩٧٧ خلال حكم جيمي كارتر حين دار الحديث في واشنطن حول انفتاح جديد لكوبا. وأنتهز كاسترو فرصة هذه الروح وبعث برسالة إلى السيناتور فرنك تشيرس رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ تقول انه لو جاء إلى كوبا فإن الإدارة الأمريكية //ستسرّها نتائج هذه الزيارة//.

وبعد لقاء مع سايروس فانس وزير الخارجية أعد السيناتور تشيرس وفريقه لائحة بمطالبهم من كاسترو تضمنت إطلاق سراح ثلاثين أمريكياً في السجون الكوبية وضمانات بانسحاب كوبا من مغامراتها الإفريقية. ثم استقلوا الطائرة الأولى في السلاح الجوي، وهي طائرة الرئيس ونفس الطائرة التي حملت جثمان جون كينيدي

وآمال الأمة الأمريكية من دالاس إلى واشنطن بعد الاغتيال، وطاروا إلى هافانا، واعتبروا الإختيار العمدي لهذه الطائرة نوعاً من هدايا الاحترام الشديد لكاسترو.

وما أن وصلوا إلى كوبا، بدأ كاسترو في اللعب على وتر الإحساس بالذنب مثل عملية خليج الخنازير وأيامه في سييرا مايسترا. وتتذكر قرينة فرانك تشيرس أنه كان هناك إنطباع صبياني بأنه أنتصر في مسلكه. وحين كان سينانور تشيرس يسبح مع فيدل في إحدى جزره الخاصة طرأت على مخيلته «محاولات المخابرات الأمريكية لتصفية كاسترو وهو يمارس السباحة بكامل ملابسه كما هي عادته. «وأخيراً اقترح كاسترو الصعود إلى متن الطائرة الأمريكية ـ كان يريد رؤيتها.

وما أن صعد إليها حتى بدأ مارك موران مساعد تشيرس في إلتقاط الصور لكاسترو جالساً على مقعد الرئيس، لأن «فيدل أراد بصفة خاصة صورته في هذا المقعد». ويتذكر موران أنه وهو في الطائرة: «عرض على كاسترو والتليفون ذي الأزرار الحمراء والزر الأخضر المستخدم في الاتصال مباشرة بالرئيس في البيت الأبيض». لم تكن كوبا شديدة الواقعية مثلما كانت في اللحظة التي جلس فيها الزعيم الكوبي على كرسي الرئيس في الطائرة التي حملت جثمان جون كينيدي. رغم أن تورّطه في إغتياله لم يستبعد تماماً.

وهذا الترحيب الحار ظاهرياً بضيوفه كان يمكن أن يتحول إلى سلاح قاتل ما أن علم بسلطته المطلقة عليهم. ولأن الصحفي هربرت ماتيوز كان مصراً على ترديد أنه الوحيد الذي يتحدث معه كاسترو فعلاً، فقد ازدادت دناءة أسلوب معاملة فيدل له باستمرار. وأخيراً انتهت حياة ماتيوز المهنية بسبب تورطه مع كاسترو. فقد «رفضت» التايمز نشر مقالاته حول كوبا. وقرّر تيريز كاتليدج مدير تحرير التايمز أخيراً: أن ماتيوز فقد مصداقيته كصحفي حول كاسترو رغم التغييرات الواضحة في الحكم.

في ١٩٧١ بدأ كاسترو دائرة أخرى مختلفة من التغيير الثوري على السطح حين وصل إلى سانتياجو شيلي في ١٠ نوفمبر كان يقوم بزيارة «لصديقه العزيز» الرئيس الشيلي سلفادور الليندي لكنه بقي حوالي شهر وكانت الرحلة تحمل أكثر من ظاهرها، وألمح كاسترو إلى أهميتها في حديث صحفي وهو يغادر هافانا، حين قال بوضوح إنها «زيارة رمزية... بين عمليتين تاريخيتين».

«عمليتان تاريخيتان» ـ كوبا وشيلي. كوبا ارتحلت نحو الطريق الماركسي، وشيلي لا تزال في بداية طريق آخر، أكثر ميلاً للماركسية التقليدية مع أول رئيس ماركسي

منتخب، الليندي البورجوازي الذي كان يمنح العالم، «أول دولة في العالم تبتكر نموذجاً جديداً في الانتقال إلى المجتمع الاشتراكي». وكان «الماركسيان» و«الماركسيتان» أبعد ما يكون عن بعضهما البعض ولكن رحلة كاسترو حققت نجاحاً هائلاً، والزعيم الكوبي يتجول في أنحاء شيلي الجميلة مثل قيصر حديث يتحدث إلى الحشود المعجبة به ويقوم بزيارات ويستخدم أساليبه الذكية الساحرة في كل مكان. وحين ألقى خطبة في سانتياجو، طلب «الإذن» من الحشد. وسأل بأسلوب غريب: «ربما تهتمون بسماع رأي زائر سائح، هل لي الإذن في الإعراب عنه؟» وبعد أن سمع صيحات «نعم، نعم» بلغت «ديمقراطية كاسترو المباشرة» ذروتها في سانتياجو. على صيحات «فيدل فيدل فيدل». بدأ يقول «حسناً، لأنكم منحتوني الإذن بالحديث بهذا الوضوح. . .».

إستمتع كاسترو في شيلي، بل واسترخى أحياناً. وأدلى ميشيل تورجي مراسل وكالة أنباء فرانس بريس بملاحظة مدهشة: «في بعض الأحيان كان يجلس ويتحدث مثل شخص طبيعي، ذات ليلة في سانتياجو، كان تعباً. في هذه الليلة، جلس يتحدث، وبجانبه مقاتل ملتح وأسقفان ملتحيان. وأخذت صورة لهم، وحين نظرت إليها بدت كأنها للمسيح مع حوارييه».

لكن كاسترو لم يزر شيلي من أجل المتعة التي بدا أنه يجدها، لقد كان هناك لترسيخ علاقات معينة لها أهمية حاسمة على المدى الطويل. من أهم هذه العلاقات علاقته مع مجموعة جديدة «المسيحيون من أجل الاشتراكية» وهي تضم ماركسيين مسيحيين يكونون العمود الفقري «لديانة التحرير» وقد أيّدت الساندينيستا النيكاراجوية حين آستولت على السلطة عام ١٩٧٩. وهكذا فإن جانباً من المستقبل الذي سيؤرق أمريكا في الثمانينات كانت ترسى قواعده في شيلي عام ١٩٧١.

في الواقع أنه إذا كانت رحلة كاسترو محل دراسة عن قرب أكثر في هذا الوقت، ولم تغط فقط لأحداثها العديدة، لربما إتضح أن صانعين جدد على درجة كبيرة من الأهمية يتم إعدادهم. وحين سئل عما إذا كان الماركسيون والمسيحيون سوف يكونون «تحالفاً استراتيجياً» من أجل المستقبل أجاب كاسترو: «لا، تحالفاً إستراتيجياً لتحقيق التغييرات الاشتراكية الضرورية للفقراء». كان أيضاً يريد التأثير على الليندي وكانت نصيحته لألليندي نذيراً للنصيحة التي قدمها فيما بعد للساندينيين. لقد أخبر الليندي بالاستمرار في بيع النحاس بالدولار وعدم تشجيع العمال المهرة على ترك شيلي وأخبره أن العلاقات الطيبة مع العسكريين ضرورية

حتى يعزز موقفه. لقد أصبح كاسترو أكثر عملية، وأقل «إيديولوجية».

لكن هناك سبب آخر للرحلة أهم، كما يجب، أن يكون في كل ما يستثمر فيه كاسترو طاقاته ووقته. وهو إعتزامه استخدام شيلي سلاحاً جديداً في محاربة الولايات المتحدة. كان يركز على المحيط ويتحدّى الولايات المتحدة من هناك. لقد التقى كاسترو وأمريكا مرة أخرى، على مسرح مختلف في مسرحية اعتزم تماماً تحويلها إلى سلسلة من المواعيد التي لا تنتهي حول الكرة الأرضية. وفي اعتراف غير عادي قال للدبلوماسي الشيلي جورج إدواردز «مع كوبا، والآن مع شيلي، التي يعتبر نموذجها معدياً، كان المحيط الأمريكي يتعرض للخدش لأول مرة».

وعمل كاسترو على أن يصب الثوريون من كل مكان في شيلي. ولأن الإمبرياليين كانوا متيقظين، فقد تحتم على شيلي أن تشهد حرباً أهلية تحاول خلالها الفاشية العالمية والثورة استخدام أسلحتهما. وخشي جورج إدواردز الأسوأ على وطنه. الأرجح أن تمر بمرحلة دامية، ألم يقل شي أنه من الضروري خلق «فيتنام أخرى وعديدة» في أمريكا اللاتينية؟ وهكذا كانت شيلي هي أول فيتنام في أمريكا الجنوبية.

وكاشفني ويليام كولبي رئيس المخابرات الأمريكية بعد سنوات بأن «في شيلي، لم تكن مشكلتنا الليندي، ولكن فيدل كاسترو». زيارة فيدل؟ «لقد اعتبرناها دليلاً واضحاً على تحالف بين الدولتين لاستمرار الثورة». وهكذا ورّطت الولايات المتحدة نفسها إلى حد أكبر في شيلي. ساعدت المخابرات إضرابات سائقي النقل في شيلي والديمقراطيين المسيحيين مما أثار انتقاد العالم. ولكن كما أوضحت لجنة فرنك تشيرس فيما بعد، لم تقم بدورٍ مباشرٍ للإطاحة بالليندي كما زعم اليسار.

حين أطاح جيش شيلي المحافظ بالليندي عام ١٩٧٣ ـ مؤكداً إيمان كاسترو بأنك لا تستطيع القيام بثورة رغم أنف الجيش ـ ماتت الاشتراكية في شيلي وللأسف ماتت الديمقراطية كذلك. وتحت تأثير الهجوم على قصر الرئاسة ارتدى الليندي خوذة وقناع غاز وسترة واقية من الرصاص وهو يركض عبر غرف القصر الخالية. ومع تقدّم الجنود، أطلق الرصاص على نفسه من مسدس أهداه له فيدل كاسترو، وحفر عليه الكلمات: «إلى صديقي ورفيق السلاح، سلفادور». وغرقت البلاد في ديكتاتورية اليمين. لقد فشل كاسترو في خلق اشتراكية في شيلي، لكنه نجح في لعب دور حاسم في القضاء على الديمقراطية الشيلية.

ومن المثير أن أياً من هذه المعوقات، لم تعق كاسترو لأن اليسار رفض بعناد أن يؤمن بأن «الاشتراكية المثالية» لا يمكن أن تنجح. . . لذلك ففي أول السبعينات أظهرت سياسة كاسترو الخارجية معنى جديداً معقداً للتوسّع والتكاثر والتطور. لم يعد كاسترو يقاتل الديكتاتوريات وحدها، بل يقدّم مساعدته لمحاربة الديمقراطيات ليس فقط في شيلي، ولكن أيضاً في كوستاريكا، الأرجنتين، أوروجواي، وجامايكا بصفة خاصة. وأقام علاقات أخوية مؤثرة مع دول «ثورية» أخرى: «اليسار العسكري الديكتاتوري» الذي استولى على السلطة في بيرو عام ١٩٦٨، وفوربس بورنهام في جويانا حين أعلن في السبعينات أن جيانا «جمهورية تعاونية» وأمم مؤسساتها المملوكة لأجانب. وفي الوقت نفسه بدأت لغة ثورية جديدة مختلفة تظهر. كانت بنما على سبيل المثال، نظاماً «تقدمياً» باقتراب «تدريجي» قد يسمح «للقوىٰ التقدمية» ببناء تحالفات تستطيع تحدي النفوذ الأمريكي. لقد أصبحت أساليب كاسترو أكثر تعقيداً بكثير من أفكاره المبكرة، التي اتسمت بميولها العسكرية فقط خاصة حول حرب العصابات.

وأصبحت جزيرة جامايكا الفاخرة المجاورة اختياراً واضحاً لأن يمارس كاسترو سياسته الخارجية الجديدة، المعقدة حين أصبح «صديقه» مايكل مانلي رئيساً للوزراء سنة ١٩٧٢. كان مانلي قد بدأ منصبه وكل النجوم في صالحه. لقد كان ابناً لمؤسس الدولة، وكان قادراً على دفع الشعب إلى حد البكاء مع كل كلمة يقولها. وكان المتدينون يسمونه جوشوا، على اسم القائد المحبوب في العهد القديم (التوراة). لكن جوشوا هذا أدار ظهره لاقتصاد جامايكا المتعب وبدأ يلعب دور المرح السعيد في بلاط العالم الثالث الحديث. ومثل كاسترو بدا أنه يعتقد أن الثروة مِنّةٌ من السماء وأن مهمته التي أرسله الله لتحقيقها هي تقسيمها. وبدأ يتردد على كوبا، غالباً سراً، وفي إحدى الزيارات قال إنه: «سيسير إلى أعلى الجبل مع فيدل كاسترو».

ومن جانبه تمتع كاسترو بنفوذ هائل ومذهل وسلطة في جامايكا. أصبحت السفارة الكوبية مركز النشاط لتحويل الجزيرة من ديمقراطية برلمانية إنكليزية الأسلوب إلى اشتراكية جاماكية. وبدأ مانلي يتجاهل البوليس والجيش ويدرب عشرين ألف «حرس وطني» وتمّ إعداد وحدة مخابرات مالية للتعامل مع «الجرائم» الاقتصادية لكن في وجود مستشاريها الكوبيين، بدأت الوحدة تستهدف الأشخاص «غير المقتنعين» في الوزارات وأرسل الصبية الفقراء الطموحين إلى كوبا ليعودوا مقاتلين ينتظرون الثورة، وأعطى إلغاء قانون الجريمة سلطات خاصة لقوات الأمن

بهدف حرمان القضاء من السلطة، كما فعل كاسترو في كوبا، وشكلت هياكل متوازية في انتظار اليوم الذي تصبح فيه هي الشرعية الجديدة.

حين تردّد مانلي مراراً على كوبا في النصف الأول من السبعينات، حضر كل اجتماعات كاسترو وتصرّف كعضو في المكتب السياسي الكوبي لديه مسؤوليات خارجية. وقال لي سيرادجرتون ريتشاردسون الدبلوماسي الجامايكي الذي كان يرافقه دائماً، «لقد كان أقرب إلى أحد ضباط كاسترو أو جنوده». كان يجلس يوماً كاملاً في انتظار انتهاء كاسترو من الكلام ليتحدث هو، ولم يختلف أبداً مع كاسترو، وكيف كان يمكنه؟ لقد كان يرى نفسه كاسترو آخر. ويعتقد ريتشاردسون أن مانلي كان يتطلع إلى «نقل التكنيك من أحدهما إلى الآخر». ونقل النفسيات كذلك ربما، وابتسم حين قلت له ذلك وأومأ برأسه موافقاً.

في هذه الأيام كان جوشوا وصديقه فيدل يخططان بأوقات طيبة معاً، فيطيران إلى إفريقيا، على سبيل المثال، لحضور أحد اجتماعات عدم الإنحياز وينوقفان في ترينيداد للعشاء مع إيريك ويليامز رئيس الوزراء. وسرعان ما انضم إليه فوربس بودنهام رئيس جويانا في عشاء أخوي بعد تحوله الحديث إلى اليسار. ثم يستقل جوشوا وفيدل طائرة أخرى يتحدثان مثل تلميذين متشوقين عن جنوب إفريقيا والتوتر السوفيتي ـ الأمريكي والبقر ـ حتى يريا فجأة من طائرتهما الساحل الإفريقي الأخضر في كوناكري يتألق في ضوء الشمس. وفي الوقت نفسه كان ابن مانلي يعيش في هافانا، لديه منزله وخدمه وسائق سيارة كلها توفرها الشيوعية.

لكن جامايكا لم «تنجح» أيضاً. بعد ٨ سنوات ازدادت الأمور غرابة على الجزيرة. وبدلاً من ازدياد الثراء، ازداد الفقر. وكاد مايكل مانلي، تحت سحره الكوبي، أن يقتل بلده اقتصادياً. ولم يكن يقصد ذلك، ولم يقل أبداً كما لم يقله كاسترو، أن الاقتصاد لا يلائمه. لقد حدث، وذلك في الوقت الذي كان قادة آخرون أقل كاريزماتية واعتماداً ومسرحية ولكن يفهمون في الاقتصاد، يدفعون بلادهم إلى الأمام. لكنهم لم يحظوا مثل كاسترو وجوشوا، بعالمية. لم يستمتع الآخرون. لم يذهبوا إلى قمم الجبال، لقد عملوا في الوديان فقط، رتابة، رتابة، رتابة.

في النهاية بدأ عنف الجامايكيين المدربين في كوبا يتحوّل إلى مذابح في الشوارع، وانهارت صناعة النحاس وأصبح السكان غاضبين على السفارة الكوبية، بحيلها وأوامرها لدرجة أنهم كانوا يتعلقون في الأشجار أمام السفارة للتلصص على ما يجري في الداخل. وما لم يعرفوه أنه قبل انهيار كل شيء وتولّي إدوارد سيجا

المحافظ منصب رئيس الوزراء سنة ١٩٨٠ كان كاسترو قد قرّر نقل فرع المخابرات الكوبية لشؤون أمريكا إلى جاماكيا وهو تصرف غير عادي يعني توسّع النفوذ الكوبي في أنحاء الكاريبي. ولم يحدث ذلك، لكن هذا الفشل لم يؤثر على خطط كاسترو الشاملة. فقد كانت هناك دائماً «مرة أخرى» في اشتراكيته.

كانت سيطرة كاسترو الكاريزماتية على اجتماع عدم الإنحياز في الجزائر سنة ١٩٧٦ غير عادية، فقد رفض فكرة وجود «إمبرياليتين» الأمريكية والسوفيتية التي طرحها المعتدلون، ليتقرب مرة أخرى من الروس. في الواقع أن هذا الاجتماع كان بداية جهوده لتحويل حركة عدم الإنحياز إلى حركة أكثر راديكالية ومناهضة للإمبريالية (اقرأها مناهضة للغرب ولأمريكا) استعداداً لإستضافة المؤتمر القادم للحركة في هافانا سنة ١٩٧٩. كان كاسترو يستعد ليكون وسيطاً واضحاً بين المعسكر السوفيتي والعالم الثالث.

في العام السابق على لقاء الجزائر، مات الجنرال فرانشيسكو فرانكو. لو أن أحداً درس رد فعل كاسترو على وفاة الديكتاتور الإسباني بدلاً من الاستماع فقط إلى ما يقوله، للاحظ إحدى المرات النادرة التي يكشف فيها الزعيم الكوبي عن داخليته.

بالنسبة لكثيرين كان من الطبيعي أن يتبادل كاسترو وفرانكو الكراهية. فأحدهما الشيوعي والآخر الفاشي الذي هزم التهديد الماركسي التقليدي في الحرب الأهلية الإسبانية ثم حكم بلده بيد حديدية. لكن مثل هذا التصنيف الإيديولوجي يكذب في معظم الأحيان. فالواقع أن رجلي القرن العشرين القويين، ذوي الجذور التي تمتد إلى نفس المدينة في القرن الـ ١٩ أعجبا ببعضهما لسنوات طويلة. لقد تاقا للقاء، وحين مات فرانكو أعلن كاسترو الحداد الرسمي في كوبا أسبوعاً كاملاً.

وكانت هناك مؤشرات لإعجابهما. ففرانكو لم يشترك على الإطلاق في الحظر الأمريكي ضد كاسترو وظلّت الخطوط الجوية الإسبانية /إيبريا إيرلاينز/ تسافر إلى كوبا، لتكون الخط الجوي الوحيد بين كوبا والغرب. وازدهرت التجارة بين بلديْ القائدين اللذين يفترض أنهما «يكرهان» بعضهما. حتى في عام الثورة الأول، حين التقى خوسيه ميرو كاردونا سفير كوبا في مدريد مع فرانكو، قال لأصدقائه أن الجنرال سأله في نهاية اللقاء «كيف حال فيدل؟» ثم قال له بصوت عال: «قل لفيدل أن يري الأمريكيين الجحيم».

وبصدد كاسترو، كان فرانكو يقول للصحفي الإسباني أنطونيو أورلاني

«صديقك ذكي جداً واستراتيجي عظيم وإن كل ما فعله تصرفات رجل عسكري حقيقي وأن كوبا كانت في حاجة فعلاً إلى فرصة». ومن جانبه قال كاسترو لأورلاني أن «فرانكو محق لأنه يعرف الحرب وحرب العصابات تمام المعرفة. وإنه كان يعرف خلال سنوات سييرا مايسترا أين المقاتلين في كل لحظة، لكنه رفض الإفصاح عن المعلومة للحكومة».

كان إعجاب الرجلين المتبادل بالحرب الإسبانية القديمة لحرب العصابات هو مفتاح إعجابهما ببعضهما البعض، مثل كراهيتهما المشتركة للولايات المتحدة التي تجري في الدماء الإسبانية منذ ما قبل «كارثة» ١٨٩٨. كان فرانكو أصغر جنرال منذ الإسكندر الأكبر، وكاسترو يليه. كان فرانكو محافظاً، له صوت حاد ينظر إلى محدّثه مباشرة بنظرة باردة، وكاسترو هو المتكلم والمعبِّر الأول في العالم.

لكن حرب العصابات هي التي صهرت الصلة بين الاثنين. أعجب فرانكو بثلاثة رجال في التاريخ الحديث: ماوتسي تونج وهوشي مينه وفيدل كاسترو وكلهم اعتادوا على الحرب وخاضوا حرب العصابات، وأخيراً حين مات فرانكو أعجب به كاسترو أكثر ـ لقد مات فرانكو الرجل العسكري، في فراشه.

الفصل الرابع والعشرون

خليج الخنازير... مرة بعد مرة

لا بدّ أن تكون مخابراتنا قد تدهورت لأننا اكتشفنا أن الكوبيين سيذهبون إلى أنجولا بعد أن دخلوها فعلاً».

هنري كسينجر
وزير الخارجية الأمريكي

كان شهر سبتمبر من عام ١٩٧٤ شهراً لا مثيل له. وكانت سلطة العاصمة الجميلة لشبونة من الضعف بحيث أصبح ممكناً لأي فرد أن يدخل ببساطة ويتجوّل داخل قصور الرئاسة الخالية، ويرى أي فرد من الحكام اليساريين المغتصبين وهم مشغولون بحل الإمبراطورية البرتغالية. فقد كانت الإمبراطورية البرتغالية ذات التاريخ والسلطان تسقط. ولكن في أيدي من؟ لقد وقع حادث صغير غريب في أحد الأيام في بلد في جنوب شرقي أفريقيا هي موزمبيق، إذ بينما كان المستعمرون البرتغاليون يجلسون في إحدى مقاهيهم المفضلة إذ فجأة سمع صوت ينادي «مستر فيدل كاسترو... مكالمة تليفونية لك...» تلت ذلك فترة صمت ثم دوى صوت ضاحك مجلجلاً: «إنه ليس هنا، ولكنه لن يتأخر».

كان ذلك الصوت يحمل نبوءة، فبينما كانت «البرتغال الأم» تتوقف وهي غارقة في أرتباك هائل في تلك اللحظة المصيرية التاريخية، كانت «حركات التحرّر» في المستعمرات قد سعت طويلاً على مدى السنين من أجل هذه اللحظة، تدب فيها الحياة لتجد لها مكاناً في النصر النهائي. أما ما غفل عنه العالم تماماً في ذلك الوقت فقد كان درجة استعداد فيدل كاسترو ـ الذي كان ينتظر ويرقب وهو في هافانا كيف أنهارت إمبراطورية البرتغال ـ من أجل الدور الذي سيلعبه في إفريقيا والذي خطّط له طويلاً. إن مئات المستشارين العسكريين الذين تركهم شي في الكونغو برازافيل

عام ١٩٦٥ كانوا يضعون الخطط على مدى عشر سنوات تقريباً. والآن حان وقت إشتعال نار الثورة.

وعلى ساحل إفريقيا الجنوبي الغربي، مقابل موزمبيق تقريباً، كانت دولة أنجولا تتحرر من استعمار البرتغال الذي استمر ما يقرب من أربعمائة عام. كانت مرحلة التحوّل طويلة باهظة حيث حدثت معركة المواجهة بين حركتين مؤيدتين للغرب هما الجبهة القومية لتحرير أنجولا و«يونيتا» أي الاتحاد الوطني لاستقلال أنجولا التام من ناحية، وحركة ماركسية يؤيّدها الاتحاد السوفيتي هي الحركة الشعبية لتحرير أنجولا من ناحية أخرى، وذلك في معركة أخيرة للقضاء على النفوذ البرتغالي. ولكن الذي حدث هو انتصار قوتين خارجيتين هما المنشقون العسكريون الشيوعيون البرتغاليون وفيدل كاسترو.

وفي خلال عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ الحالكين، تسلّل رجال الحركات السرية في أوروبا وأمريكا من الظلام إلى النور كمخططين ومتآمرين يمتدون من لشبونة إلى هافانا، ومن أنجولا إلى الكونغو برازافيل إلى غينيا بيساو، ثم إلى هافانا مرة أخرى. وكان الشيوعيون العسكريون البرتغاليون على وجه خاص يتحركون بطريقة مسرحية متعمدة من وإلى كوبا ليعقدوا صفقاتهم. وكان أحد المنشقين، وهو ضابط ذو رتبة عالية أصبح فيما بعد الموجّه للقوة الإرهابية البرتغالية ويدعى الجنرال أوتيللوسارايفا دي كارفالو - في كوبا في الفترة من ٢١ - ٢٣ يوليو ١٩٧٥. وفي ذلك الوقت طلب منه كاسترو الإذن بهبوط القوات الكوبية في أنجولا. وعندما عاد أوتيللو من هافانا، انفجر فعلاً في البكاء في مطار لشبونة وهو يقول بصوت مرتفع مسموع: «لو أن لديَّ الثقافة السياسية لأصبحت فيدل كاسترو البرتغال».

ولكن الشخصية الرئيسية التي اعتمد عليها كاسترو في إفريقيا كان الرجل الذي أصبح يدعى فيما بعد «الأميرال الأحمر».

لقد وجد الأميرال أنطونيو روزا كوتينو، الذي اعتبره المنشقون البرتغاليون الحاكم بأمره في أنجولا، أن أساليبه تتفق تماماً مع أساليب كاسترو. ومن مكمنه المؤقت القوي في أنجولا، قرّر على الفور أن الحركة الشعبية لتحرير أنجولا بكل من تضمهم من أطباء ومدرسين ومفكرين هي «القوة السياسية الحقيقية الوحيدة». ولم يعترف إلاّ بهم... وبإغداق الأموال عليهم وتسهيل دخول القوات الكوبية كانت هناك بداية نصر آخر. وبعد سنوات أخبرني هذا الرجل القوي ذو العينين اللامعتين والرأس

الأصلع دون أدنى مراوغة: «لولا تأييدي للكوبيين لتمت إبادة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا».

وفي خريف ١٩٧٥، كانت تحركات كاسترو العسكرية نذيراً بخططه البعيدة المدى. ففي أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر، بدأ ظهور القيادات الكوبية العليا فجأة في أنجولا. وفي كوبا نفسها بدأت تدريبات الحرب تؤكد ليس فقط التمسّك بالمواقع التي تمّت السيطرة عليها ولكن أيضاً «المسيرات الطويلة لاحتلال مناطق شاسعة وفي نفس الوقت استخدام أعداد هائلة من القوات من مختلف الجيوش والوحدات العسكرية. وتمّ تجميع القوات الكوبية من مختلف المحافظات وقام كاسترو بتشكيل مؤسسة عسكرية مزدوجة من كبار الضباط واحدة في كوبا والأخرى في أنجولا».

ولم يكن كل هذا ممكناً لولا وجود الروس. فليس صحيحاً أن كوبا كانت تتصرف منفردة في أنجولا، في أحسن الحالات ساخرة من الرفاق الروس، وفي أسوأها مغتنمة الفرصة. واعتباراً من عام ١٩٦١، عندما بدأت موسكو تأييدها للحركة الشعبية لتحرير أنجولا لم يتردد النظام الروسي في هذا التأييد إلّا مرتين، في ١٩٦٣ وفي ١٩٧٤ لفترة قصيرة في كل مرة حين بدا أن الحركة الشعبية على وشك أن تخسر المعركة.

أما عن الأسطول الكوبي (الأرمادا) الذي أرسله فيدل كاسترو شخصياً إلى أنجولا فجر يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٥، فكان بُعَيْد ذكرى الأرمادا الإسباني الذي أبحر من جاليسيا في ١٥٨٨ أي قبلها بحوالي أربعمائة عام. لقد كان منظراً جديراً بالمشاهدة: كائن جديد من العالم الثالث يفرد عضلاته بطريقة جديدة مدهشة. فقد تحركت أولاً كتيبة من «القوات الاحتياطية لرئيس الوزراء» الخاصة بفيدل كاسترو شخصياً، وكذلك «القوات الخاصة بالقائد العام» وتمّ إرسال حوالي ٦٥٠٠ فرد بالطائرات. وعلى مدى ثلاثة عشر يوماً كاملة من الرحلات المستمرة عبر أجواء معادية لم تتوقف فيها الطائرات إلّا في بربادوس، تابعت رحلاتها إلى غينيا بيساو ثم سراً إلى الكونغو برازافيل حيث هبطت دون أية إضاءة. ونزل منها الرجال الذين لوحتهم الشمس مرتدين الملابس الرياضية فبدوا أقرب من السياح منهم إلى الثوار الدوليين (كانوا يخفون بنادقهم الآلية داخل حقائبهم).

وبعد هذه الموجة من الطائرات، تمّ إعداد سفينتي ركاب حمولة كل منهما أربعة آلاف طن لكن تضاعفت حمولتهما المعتادة إلى حوالي ثلاثة أضعاف، وتمّ إعداد أسرّة في كل مكان، ودورات مياه في الملهى وتبعثرت الأسلحة فعلاً لا مجازاً

في الصالونات. أما سفن الشحن التي كان يبلغ عدد طاقمها عـادة ثمانين فـرداً، فقد أقلعت وهي تحمـل ألف جندي، بـالإضـافـة إلى العـربـات المـدرعـة والأسلحـة والمتفجرات. وكانت الأحوال بالغة السوء لدرجة دعت أحد حراس كاسترو لأن يعقـد مقارنة بين «الظروف غير الإنسانية» على هذه السفن وسفن «العبيد الذين يتم بيعهم». أما بالنسبة لكاسترو فقد كان يجد متعة ما تتسم بالسادية في هذا المشهـد إذ ردّ قائـلاً دون أن يبتسم: «لقد كانت الأحوال أسوأ بكثير على السفينة، كلها أسوأ بكثير من ظهر السفينة /جرانما/».

وطبقاً لملاحظة أوردها جابرييل جارسيا ماركيـز قال: «لقـد ودع كل السفن، وقبـل أن تبحر كل واحـدة ألقى كلمة في الجنـود في مسرح لاكـابان. لقـد قام هـو شخصياً بـاختيار قـادة الكتائب من القـوات الخـاصـة التي أقلعت في رحلة الـطيـران الأولى، وأصطحبهم بنفسه في سيارته الجيب السـوفيتية الصنـع إلى مدرج الطائرة». لقد كان جارسيا ماركيز يظن أن صديقـه الكوبي كـان يكبت شعوراً عميقـاً بالحسـد من أولئك الذاهبين إلى حرب لا يستطيع هو نفسه أن يشارك فيها. ولم تكن هناك أي بقعة على خريطة أنجولا لا يستطيع أن يتعرف عليها، ولا أي مكان لم يحفظه عن ظهر قلب. . . كـان يستطيـع أن يدلي بـأية أرقـام عن أنجولا كمـا لـو كـانت كـوبـا، وكـان يتحـدث عن المدن والعادات والناس في أنجولا كما لو كان قد عاش فيها طوال حياته.

كانت استراتيجية كاسترو واضحة، فمع الدعم العسكري السوفيتي كان يستطيع أن يدحر قوات جنوب إفريقيا التي دخلت أنجولا مؤخراً عبر الحدود الجنوبية لناميبيا. وفي نفس الوقت يلقي بتبعة تدخله ـ هو نفسه على حكومة جنوب إفريقيا العنصـرية. وفي قيادته ـ لا تبعيته ـ للحركة الشعبية لتحرير أنجولا السيئة الطالع والني كانت تتكون من المفكرين الأفارقة الماركسيين سكان المدن، كان يؤكد أن لواندا عـاصمة أنجـولا سوف تقع في أيـدي الحركـة الشعبية قبـل «يوم الاستقـلال» الذي أعلن البـرتغاليـون المسيحيون أنه سيكون يوم ١١ نوفمبر. وعندئذ تكـون الحركـة الشعبية هي في واقـع الأمر حكومـة أنجولا، وبـذلك تتفـادى الاصطدام في الانتخـابات التي اتفقت عليهـا الحركات الأنجولية الثلاث.

ولعدة سنوات كان كاسترو يجادل بقوة في المحافل الدوليـة في أن عملياتـه في أنجولا كانت مختلفة عن غيرها من «التدخـلات» لأنه دخـل أنجولا استجـابة «لنـداء» شرعي وجهّته إليه «حكومة أنجولا الشرعية». ويتذكر مايكل مـانلي بحق، وهو يعتقـد أن كاسترو قد دحض الروس في أنجـولا: «لقد قـال لي كاستـرو في معرض حـديث

خاص إنه فهم أن موسكو لن تستطيع أن تفعل شيئاً بعد أن يدخل هو إلى أنجولا»، لقد أخبرني فيدل أنه قد دعا اللجنة المركزية في الثامنة مساء وأنهم تبادلوا الحديث حتى الساعات الأولى من الصباح الباكر، وعندما بدأت طلائع القوات الكوبية رحلاتها عبر الأطلنطي، كان راؤول على متن طائرة تتّجه به إلى موسكو، وقد وجد السوفيت في حالة غضب شديد مما حدث حتى أن الأمر استغرق يومين كاملين لتهدئتهم.

أما بالنسبة «للمعطيات» الأخرى بشأن كاسترو، فقد كان العالم يؤمن بشيء في غاية الغرابة بل من السهل إثبات نقيضه، فلم تكن هناك حكومة في أنجولا، حين أرسل كاسترو قواته. بل كانت مدينة لواندا الجميلة تعاني من الفوضى، وكان كاسترو يعلم من واقع خبرته أن الحكومة سيتم «انتخابها» بواسطة أولئك الذين سيستولون على لواندا أولاً، وعلى ذلك في يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٥، دخلت الجبهة الشعبية لتحرير أنجولا، العاصمة بعد أن نجحت القوات الكوبية في التدخّل لتحول دون دخول كل الحركات الأخرى إلى المدينة. وهكذا استطاع محترفو الشرعية السياسية الجديدة المتمثلين في الجبهة الشعبية لتحرير أنجولا وبمساعدة كاسترو التي كانت ضرورية للغاية أن يوجدوا «شرعية» ثورية أخرى، ومرة أخرى تمثل هذه تهديداً مباشراً وفريداً للولايات المتحدة.

وعن النشوة التي شعر بها كاسترو في ذلك الوقت يذكر جارسيا ماركيز بسعادة كيف أن كاسترو استطاع مرة أخرى أن يسخر من الأمريكيين إذ أنه في ٢٤ نوفمبر ١٩٧٥ كان هناك في أنجولا من الجنود الكوبيين والخبراء العسكريين والفنيين المدنيين أكثر ممن يعلم عنهم هنري كيسنجر أي شيء.

وخرجت كوبا منتصرة من أنجولا وبحلول ربيع ١٩٧٧، كان كاسترو يقوم بجولة واسعة في أفريقيا صحبتها حملة دعاية واسعة شملت بعض دول الشرق الأوسط والصومال وأثيوبيا وتنزانيا وموزمبيق وأنجولا، وتماماً كما لو كان قيصر يقوم بجولة تفقدية للمناطق المتاخمة لروما، تحدث كاسترو عن اليوم الآتي قريباً والذي «ستتجه فيه المشاعر إلى أبعد من الآفاق الضيقة التي تمثل حدود البلد».

ولكن رحلة كاسترو إلى لواندا في ذلك الربيع هي التي حددت معالم الطريق الذي قطعه فعلاً. وقد التقى بحوالي ٥٠٠ من رجاله خارج العاصمة في قاعدة كانت تتبع البرتغال من قبل. كانت الشمس متوهجة تبعث بموجات من الحرارة تغطي

الأراضي الخضراء الخرساء الراقدة في طعام الثورة. كانت الشوارع المتعرجة المغطاة بالأحجار في المدينة الجميلة لواندا، تحدّها المباني ذات الألوان المتعددة، صامتة صمت القبور، وحتى سكانها السود الفقراء هربوا إلى الضواحي حيث قبعوا ينتظرون مثل خيالات تجمّدت في أماكنها في أعلى التلال المطلة على مدينة كانت صاخبة، سعيدة. ولكن رغم كل هذه التعاسة التي عمّت البلاد، بدا كاسترو بطلاً في نظر رجاله في ذلك اليوم وهو يخطو جيئة وذهاباً أمامهم. فلم يسبق أن رأوه في هذه الحالة من قبل، لم يسبق أن رأوا ذلك الرجل المليء بالغموض بطبعه منشرحاً كما رأوه في ذلك اليوم. حقاً، إن مثل هذه اللحظة من لحظات الانتصار الكامل، وعندما يكون وسط رجاله عندها فقط يمكنه أن يفصح عن مشاعره بهذا الوضوح الخطير.

بعد ذلك بعشر سنوات بالضبط في ربيع ١٩٨٨، تحدثت مع أحد ذوي المكانة المرموقة في المخابرات الكوبية ويدعى فلورنتينو أسبيلاجا، وهو أحد الرجال الذين كانوا مع كاسترو في ذلك اليوم، وآستعاد أسبيلاجا ذكرياته فقال: «كان كاسترو في غاية الرضا فقد انتصرت القوات الكوبية، وعندما وصل كانت هناك حالة من النشوة ـ كما لو كان نابليون قد وصل، بدا كأن نابوليون وصل إحدى البلاد التي يحتلها». في ذلك اليوم قال لنا: «أستطيع أن أتحدث لأول مرة بكل أمانة. هنا، لا يوجد أي شخص يعمل لحساب المخابرات المركزية الأمريكية، أستطيع أن أتحدث بصراحة. وبعدها تحدث عن قدرته على التأثير على الأخرين وعن طبيعة سيطرته على الشعب الكوبي، وأيضاً عن هيبته وذيوع صيته الآن في أفريقيا، وكيف حقّق النصر في أنجولا وفي موزمبيق، كانت المرة الأولى التي أراه فيها يتحدث عن نفسه هكذا. وأذكر جيداً أنه تحدّث عن قدرته على التأثير في الأخرين كواحدة من أهم صفاته، تحدّث حوالي ساعة ونصف الساعة، تحدث عن أبرز صفاته وهي: «قدرته على التأثير في الجماهير. . .». كان المستمعون في حالة نشوة. فعندما تنظر إليه فإنك تدرك أنه جاليجي أكثر منه كوبياً، كان يتحدث تماماً كأحد الفاتحين». وقال أيضاً إن حلمه الحقيقي هو في وجود: «أمريكا متحدة تحت قيادة رئيس واحد». كان يرى نفسه رئيساً لكل أمريكا اللاتينية.

كان فعلاً غازياً من طراز حديث. فبدخوله أنجولا مستخدماً القوات والنفوذ اللذين خلفهما شي وراءه كقاعدة إنطلاق أستطاع كاسترو أن يصنع تاريخاً سياسياً وعسكرياً، لم يدرك أحد كنهه تماماً في ذلك الوقت. لقد كان أول غزو عسكري باتجاه الشرق عبر المحيط الأطلنطي الجنوبي، وقد أوضح ذلك قدرة الكوبيين على

خوض المعارك فيما وراء البحار، كما أوضح الدرجة التي وصلت إليها كوبا بعيداً عن كونها مجرد تابع فقير للاتحاد السوفيتي، فقد أثبتت فعلاً أنها شريكة للقوة العظمى وأن لها أهمية لا يستهان بها بالنسبة لتلك الدولة العظمى، ولكن الأهم من ذلك كله أن كاسترو كان متواجداً في أنجولا لأنها واحدة من ثلاثة أماكن في العالم كانت فيها القوات التي تدعمها الولايات المتحدة تشتبك في حرب مع القوات التي يدعمها السوفيت، كانت أنجولا ببساطة مرحلة جديدة للحرب ضد الولايات المتحدة.

وخلف هذه الحقائق الجديدة المذهلة، كان كاسترو يؤمن بجملة معتقدات بصدد الجغرافيا السياسية لا تقل شططاً عن أحلامه. فقد انتهى كاسترو إلى الاعتقاد بأن العلاقات المتبادلة بين القوىٰ في العالم قد أصبحت الآن ضد الولايات المتحدة. وقد رأى أن هزيمة الولايات المتحدة في فيتنام التي تزامنت مع المد الاستراتيجي المتزايد للاتحاد السوفيتي والحظر البترولي في سنة ١٩٧٣ كلها قد رجحت كفة العالم الثالث والمعسكر الاشتراكي. وعندما نفضت الولايات المتحدة يدها بسرعة من أنجولا ورفض الكونجرس منح أي مساعدات أمريكية لها بعد أن أنهكته فيتنام ازداد اعتقاد كاسترو ومعه السوفيت بأن أمريكا في حالة عجز سياسي وفي سبيلها إلى مصير محتوم تفقد معه قوتها ولم يكن كاسترو ليتوقع مطلقاً مثل هذه الهدية من عدوه.

ولكم أعاد تاريخه نفسه مرات ومرات، وهو دائماً يحوم حول نفس النقطة وهي كراهيته للولايات المتحدة، تماماً كدورة حياة الرهبان البوذيين. وفي الذكرى الخامسة عشر لانتصار كوبا في خليج الخنازير، تحدث كاسترو في مسرح كارل ماركس في هافانا عن انتصاره في جيرون (الساحل الأحمر في خليج الخنازير). «النصر في أنجولا هو «توأم» الانتصار في خليج الخنازير. فبالنسبة للإمبريالية الأمريكية فإن أنجولا تمثل جيرون إفريقية».

وفي النهاية، فإن انقضاض كوبا على أنجولا أنهى «ربيع» علاقات جديدة وليدة بين إدارة جيرالد فورد وكوبا في سنة ١٩٧٥. وتوقفت المحادثات السرية التي بدأها وزير الخارجية هنري كيسينجر في هافانا، وقد عبّر عن ذلك دبلوماسي أمريكي هو واين سميث بقوله: «وتبعاً لذلك فقد كانت الإدارة الأمريكية تشير إلى موضوع أنجولا كدليل على أن المحادثات مع الكوبيين غير ذات جدوى». وفي الحقيقة كان الأمر كذلك.

أكثر من هذا، طوال الوقت الذي أمضاه كاسترو في أنجولا كان بمثابة ستار من

الدخان لا تقدر بثمن يخفي وراءه دور السوفيت هناك. كان ستاراً لا بدّ منه لإقناع الأمريكيين بأن السوفيت لا يقومون بأي نشاط هدام في إفريقيا، وهي حقيقة لو عرفت لكانت ذات تأثير سيء على الوفاق الوليد بين الدولتين العظميين، ناهيك عن مؤتمر الأمن الأوروبي الذي عقد سنة ١٩٧٥ لتجميد حدود دول أوروبا الشرقية التي قامت روسيا بضمها بعد الحرب العالمية الثانية. فوجود شخص مثل فيدل كاسترو يتصرف (من تلقاء نفسه)، كان يخدم بالتأكيد أهداف الروس. ولكن هذه القصة أيضاً خدمت أهداف كاسترو نفسه إذ أكّدت صورته كقوة مستقلة لا تقهر في نظر العالم الثالث.

ولأول مرة بدأ النفوذ يتدفّق ليس فقط من موسكو إلى هافانا، ولكن أيضاً من هافانا إلى موسكو. فقد كانت هافانا هي التي دفعت السوفيت للقيام بدور أكبر في إفريقيا. هافانا التي أحدثت تغييراً جذرياً في السياسة الخارجية السوفيتية وبالرغم من أنها لم تكن ظاهرة في تلك السنوات، فقد كانت هافانا هي التي قادت الروس إلى بداية بسط نفوذهم الذي عقلَهم في النهاية.

وإذ صمد كاسترو في أنجولا لكي يبقى ويستمر فيها، فإن تواجده فيها قد أوضح بما لا يدع مجالاً للشك أنه قادر على تصدير ليس فقط المحاربين، ولكنه أيضاً قادر على تصدير وإلهام وفرض الهياكل التي أنشأها في كوبا. لقد فرض على أنجولا «المحررة» أن تصب في نفس قالب كوبا «الثورية» من حيث الهياكل والإيديولوجية. فقد تشكلت «القوات المسلحة الشعبية لتحرير أنجولا» على نفس نمط الجيش الكوبي. وقد سكّ كاسترو نقوداً جديدة لأنجولا هي «الكوانزا» تحية لذكرى المعركة التي خاضها الكوبيون (وليس الأنجوليون) عند ذلك النهر. وسرعان ما أنشأ «محلات خاصة» بها بضائع من فرنسا وإنجلترا وغيرهما من دول أوروبا من أجل المهيمنين على الثورة فقط، كما كانت المستشفيات والمباني الضخمة محجوزة من أجل كبار الموظفين الكوبيين دون غيرهم لدرجة أن أحد الجنود الكوبيين لاحظ أن الأنجوليين لم يكن باستطاعتهم المبيت في الفنادق «ولو لليلة واحدة في شهر العسل» كما خصّصت أفضل الشواطىء من أجل الكوبيين فقط. وسرعان ما ارتفعت عليها لافتات: «خاص»، تماماً كما كان يحدث في شركة الفاكهة المتحدة على شاطئ بورتوريكو أيام شباب كاسترو.

وقد أحاط كاسترو الرئيس الأنجولي نيتو بجهاز مخابرات ومخابرات مضادة وبحرس تلقوا تدريبهم في كوبا. ولم يكن الرئيس نيتو بحاجة لأن يعرف أن هذا يعني أن المخابرات السوفيتية ومخابرات المانيا الشرقية، بل أن كوبا صدرت حتى

اقتصادها التعس: ففي بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٧ انخفض معدل إنتاج أنجولا· بمقدار ١٥٪.

وكما هو الحال دائماً استخدم كاسترو «التجربة الإفريقية» على عدة مستويات تتضمن بالتأكيد المستوى الروحي. ففي كوبا كان قد انتهى إلى حد كبير من تجريد عقيدة السنتيريا الإفريقية من مضمونها الديني. ولم يعد لها زعيم وبذا لم تعد تشكل تهديداً له، وعلى ذلك فقد مضى قدماً في تحويل العقيدة إلى فولكلور شعبي، والآن استخدم هذا «الفولكلور» الجديد لترسيخ العلاقات الكوبية - الإفريقية. وقد تذّكر واحد من أتباع هذه العقيدة بعد ذلك بسنوات ويدعى بيكاردو في ميامي إذ يقول: «لقد بدأ فيدل مبكراً منذ ١٩٦٣ في تجنيد الناس ليتحولوا من نمطنا في العبادة إلى رقصات شعبية ولم يكن ينظر إلى سانتيريا كنوع من العبادة، بل كان في الواقع يبيع الفولكلور باعتباره روح كوبا وهكذا انتقلنا من العبودية إلى نوع أسوأ من القهر، فكما ترين، كان فيدل يريد أن يجد شيئاً مشتركاً يربطه بالقارة الإفريقية، وحديثاً ذهب أحد ملوك إفريقيا ليقابل كاسترو. لقد كان شيئاً جديراً بأن يقول للملك «أنظر إليَّ، إلى هذا الرجل اللطيف الذي ساعد العقيدة الإفريقية في كوبا».

ثم أعطى كاسترو لأنجولا المهمة المنوطة بها: لقد أصبحت الآن المركز الإقليمي في إفريقيا لتنطلق منه الثورة في حملات تغلغل وتخريب في الدول الأخرى. وقد لاحظ د. هرمينيو هورتيل فيلا أستاذ كاسترو القديم أن «العديد من الدول الإفريقية بل وبعض الدول الاسيوية قد اكتشفت فجأة كوبا التي يتيح لها تأييد الاتحاد السوفييتي رغم بعده عنها بآلاف الأميال، أن تتحدّى القوىٰ العظمى. واستخدم كل ديكتاتور في إفريقيا أو من هو على وشك أن يصبح ديكتاتوراً آسم فيدل كاسترو كما لو كان إلهاً حامياً. واستخدموا آسمه للتهديد وكدرع للحماية وبذلك نجحوا في الوقوف ضد الأمم المتحدة وواشنطن وبون ولندن وباريس وروما ومدريد وغيرها ممن لم يبذلوا أي جهد لوقف المد الاشتراكي».

وأخيراً نجح كاسترو في تحقيق شيء آخر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنفوذه وثورته، فقد أرسل الدبلوماسي الأمريكي توماس رستن إلى هافانا خلال حكم كارتر ولديه تعليمات بأن يخبر الكوبيين أن واشنطن جادة تماماً فيما يتعلق بخروجهم من إفريقيا وقال رستون: «لقد أجريت حديثاً في ذلك الوقت مع موظف كبير في معهد الفيلم الكوبي وقد أخبرني قائلاً: «اننا لن نسحب قواتنا من إفريقيا»، «لماذا؟» والرد: لقد مرّت أجيال على هذه الثورة، الجيل الأول كان ذلك الذي قام بها في

سنة ١٩٥٩. وفي سنة ١٩٦٢ بدأت حملة التعليم في ظل الجيل الثاني من الصبية. تلى ذلك حصاد «العشرة ملايين طن» والجيل الحالي هو جيل أنجولا وهذه هي التجربة الثورية لهذا الجيل، إنها الطريقة التي تلقوا بها الحماس الثوري».

لكن ما عجز كاسترو، الغارق في ذاتيته، عن رؤيته هو بداية الجدل الثوري ضده، والذي طالما استخدمه بكل أستاذية ضد أعدائه. الآن فجأة، بدأ الآخرون يدرسونه كما قام هو في صباه بدراسة هتلر وموسوليني وبريمو دي ريفيرا لمعرفة الطرق التي قادتهم إلى السلطة. وحتى عندما كان كاسترو في قمة انتصاره في أنجولا فإن رجال حرب العصابات المؤيدين للغرب في حركة يونيتا الذين ظنّ أنه قد هزمهم بدأوا «مسيرة ضخمة» على طريقة ماوتسي تونج عبر السافانا والصحاري في أنجولا، لقد ساروا لمدة أربعة أشهر وكانوا في البداية ألفي رجل لم يتبق منهم إلاّ ٦٩ رجلاً. وأثناء تجوّلهم في هذه السهمة كانوا يقومون بدراسة الكوبيين واكتشفوا أن الكوبيين كانوا يعتمدون في نصرهم في أنجولا /على تجربة سييرا مايسترا مثلاً/ لم يكن يتناسب معهم، الانجوليون.

واخيراً صرّح بيدرو نجويف جوناتا وشيجونجي وزير خارجية اليونيتا بأن «تجربة سييرا مايسترا كانت قصيرة جداً» وباعتباره رجل حرب عصابات يدرس رجلاً اخر من أجل الدروس المستفادة من الحرب. وأضاف: «لقد كانت مجرد وضع معين في ظروف تاريخية. كانت ناجحة ضد مناخ سياسي موات وحين انتقل الكوبيون إلى أنجولا وجدوا عرضا مشابهاً ورأوا نجاحاً سهلاً. كان الكوبيون يحاربون شبح نجاحهم في سييرا مايسترا. كانوا يلعبون دور الفائزين الكبار، المنتصرين ينوّهون بالأسلحة الكبيرة لكن لا بعرفون فعلاً سبل حرب العصابات. الكوبيون، وهم يطيرون إلى أنجولا، كانوا يتبعون الأنهار... ونحن ـ نحن كنّا نبدأ خوض حروب عصابات حقيقية».

لكن في الوقت الحالي كان فيدل كاسترو هو الذي يحصد كل ثمار النصر. بعد أنجولا نقل المزيد من قواته ـ لكن تحت قيادة الروس هذه المرة ـ إلى أثيوبيا، ليصبح بإمكان القائد «الماركسي» المتعطش للدماء مينجستو البقاء في السلطة. وفي أثيوبيا فقط، أسقط الروس أدعاء أنجولا بأنهم في الواقع يتبعون فقط الكوبيين، ليدخلوا بذلك «نموذجاً» ثورياً أخر إلى بثر التوسعية الكوبية الفريدة في العالم الثالث. حتى الجمعية العامة للأمم المتحدة أعطت كاسترو موافقتها بالاعتراف «بشرعية» الكفاح من أجل «التحرر الوطني» في إفريقيا وحثّ الدول الأخرى على

تقـديم «مساعـدة معنويـة وماديـة» مماثلة. كـان كاسترو قد بلغ قمـة سلطاته المثيـرة للدوار ـ قيصر العالم الثـالث الحقيقي. وبرؤيـة أقـاليمـه وأراضيـه وقبـائله النـائيـة، أصبحت احتيـاجاتـه أكبر بكثيـر من مخبأ أنجيـل كاسترو فوق منـزله في منـزل بيران القديم، وكان المزيد أمامه.

كما أن الحركة الشعبية لتحرير أنجـولا لم تكن لتعرف النجـاح في أنجولا دون كوبا، فكذلك أيضاً الثورة الساندينية الماركسية في نيكاراجوا التي لم تكن ليصبح لها وجود بدون فيـدل كاسترو. كان هؤلاء هم النيكـاراجويـون الشبان الـذين توددوا إلى هـافانـا فور قيـامهم بتشكيل جبهـة سانـدينيستا للتحـرير الـوطني في منطقـة فقيرة في تيجـو سيجـالبـا يـوم ٢٨ يـوليـو ١٩٦١. وقـد سميت الحـركـة على آسم المقـاتـل النيكاراجوي الشهير أوجوستو ساندينو الذي كان يحارب الأمريكيين، والذي سقط في حرب عصابات مع العسكـريين النيكاراجـويين الذين تؤيّـدهم الولايـات المتحدة في الثلاثينات. ولا شكّ هناك أن سـاندينـو كان أحـد الملهمين بالنسبـة لكاسترو، والآن كان كاسترو بدوره إلهاماً لحاملي آسم ساندينو. وبلغ من الارتباط العاطفي والسياسي بين الجبهة وكوبا أن مقاتليها آختاروا العلم ذي اللونين الأحمر والأسود المميّـز لـ ٢٦ يوليو لهم، وأشاد توماس بورج الساندينى بكاسترو باعتباره «تجسيداً تاماً لساندينو».

لكن كاسترو لم يلعب دوره الحاسم النهائي في نيكـاراجوا إلاّ في العام الأخير قبل انتصار الجبهة التاريخي في يوليو ١٩٧٩، النصر الذي أصبـح موضـوع السياسـة الخـارجية الأول في إدارة رونـالد ريغـان. لقد دعـا كاسـترو هيئـة قيـادة مجمـوعـات السـاندينيستـا الثلاث إلى هـافـانا لعقد سلسلة لقـاءات، ووجّه للزعمـاء المنقسمين إنـذاراً كئيباً، لقـد أخبرهم أنـه سوف يسـانـدهم فقط إذا اتحـدوا، وحـدة سيـاسيـة، مع اعتدال اقتصادي، وتجنّب المواجهـة: كانت تلك هي الـوجوه الثـلاثة للنصيحـة التي قدّمها لهذا الجيل الجـديد من الثـوريين. واستمر اجتمـاع لمدة ٤٨ سـاعة وفي هـذه الساعات الطويلة، الإرشادية قال كاسترو للساندينيين بتجنّب المواجهة مـع واشنطن، وبالتالي الحصول على مساعداتها، وعدم تحطيم العلاقات مـع الكنيسة الكـاثوليكيـة والحفـاظ على القطاع الخـاص وبالتـالي تجنّب الإجـراءات التي لا تحـظى بـرضـاء شعبي.

كانت تحركات كاسترو تكتيكية إلى حد بعيد، لكنـه أيضاً لم يكن واثقـاً من أن السوفيت سوف يدعمون دولة ثورية أخرى في المنطقة خاصة مـع التكاليف المستمـرة في الارتفاع من أجل «حب» كوبا. وكان يعرف أنه لا يستطيع إرسال أعـداد هائلة من

الجنود المسلحين إلى نيكاراجوا، كما فعل في إفريقيا، دون أن ينتهي إلى مواجهة مع الولايات المتحدة. لذلك، وبينما الساندينيون يتوجهون نحو خلاصهم الثوري، بدا للعالم أن الكوبيين يلعبون دوراً بسيطاً لحد الدهشة. وهذا غير حقيقي. خلف الستار كانت هافانا هي الوسيط والمنسق لتقريب كل خطوة في التمرد النيكاراجوي. حتى خلال القتال الفعلي، كان كاسترو شخصياً يرقب القتال، حاضراً دائماً في مركز اتصالات وزارة الداخلية الكوبية ويحرك الإذاعات حول انحدار ووحشية جيش سوموزا ويمرر المعلومات ـ والأوامر المحددة ـ إلى الساندينيين.

ودخل الساندينيون المنهكون من الحرب بزيّهم الأحمر والأسود إلى ماناجوا، وتدفّقوا عليها في ١٩ يوليو ١٩٧٩ ليطيحوا أخيراً بالدكتاتور أناستاسيو سوموزا المكروه، الذي تؤيّده أمريكا. كانت القيادة الداخلية لا تزال تخفي بدهاء معتقداتها الماركسية وراء تشكيل جبهة واسعة يرأسها «الاثنا عشر»، وكلهم من المواطنين البارزين «المقبولين» على الصعيد الإيديولوجي. كانوا مجرد رمز آخر.

وفي الذكرى السادسة والعشرين لانتصار مونكادا في ٢٦ يوليو من ذلك العام شرب فيدل نخب الساندينيين بكلمات موحية مؤكداً أن انتصارهم «لم يكن فقط على حكم سوموزا الذي استمر أكثر من خمسة وأربعين عاماً. . . ولكن على مائة وخمسين عاماً من الهيمنة الأجنبية». وفي هجومه الجديد على الولايات المتحدة، يتذكر الساندينيي هومبرتو بيللي أنه شاهد «نوعاً من الابتسامة الساخرة على وجهه».

ورغم أنه أمر غير معروف كثيراً في كوبا أو نيكاراجوا، فكثيراً ما كان كاسترو يطير سراً إلى ماناجوا، ويهبط في مطار خاص في مونتليمار في إحدى أكبر ممتلكات سوموزا الأنيقة. (في البداية قدم الساندينيون عرضاً كبيراً لفتح مسكن سوموزا الفاخر يوم الأحد «للشعب» لكي يستمتع بحمام السباحة، ولكن سرعان ما أغلق خلف «جدار السرية العسكرية»). وفي العيد الأول للثورة النيكاراجوية، لم يعد كاسترو يحتفظ بزياراته سراً، لقد كان الآن مستعداً بوضوح لتحدّي الولايات المتحدة، التي أصبح اضطرابها وقلقها يزداد بصدد التوجّه الماركسي للساندينيين.

في ١٩٨٠، وصل كاسترو في يوم حار إستوائي من أيام يوليو إلى مطار أوجوستو سيزار ساندينو الدولي في ماناجوا ليجد استقبالاً كبيراً وهو يهبط بثقة سلم الطائرة ويحتضن كل من استقبلوه. وزيّنت المدينة بلافتات سوداء وحمراء، وحين تقدم كاسترو إلى ما بعد القادة الساندينيين التسعة الذين وقفوا لتحيته، لم يكن بوسع الناظر أن يخطىء ملاحظة أنهم كانوا يرتدون أزياء مطابقة تقريباً لزيّه. ووعد بألا يسود

الحفـل، لذلـك تحدث قـرابة الأربعين دقيقـة، مشيـراً إلى الـزمن البعيـد حين أبحـر مقـاتلو خليج الخنازير من هذه الأرض ذاتها ليحضروا بعض «الشعر من لحيته». وقال للجمـاهير إن لحيتـه لم تبق فقط سليمة، ولكن لحيتـه في هذه اللحـظة بـالـذات في ماناجوا، وقال إن قتال أمريكا مع الساندينيين كان «جيرون آخر مستمر».

في منتصف ١٩٨٢، كـان لـدى كـاسترو ألفـان من المستشـارين العسكـريين وأربعـة آلاف مدني يعملون في كـافة أنحـاء نيكـاراجـوا، في مجمـوعـة متنـوعـة من الأنشـطة فـي ١٩٨١، أعطى نيكـاراجوا السـاندينيـة ٦٤ مليـون دولار أمـريكي، في ١٩٨٢منحها ١٣٠ مليون دولار. في الوقت نفسه كان يجلب ١٢٠٠ نيكاراجوي سنوياً لتلقي التـدريب في كوبـا. وفي كل من مـاناجـوا وهافـانا، كـان الكـوبيـون يعلمـون النيكاراجويين أساليب «ضيافـة» الزائـرين وكيفية التعـرّف على الفراغ الاجتمـاعي في الولايات المتحدة وأوروبا لكي يملأوه، وبسبب المعرفة التي تدفقت من مـوسكو إلى بكين إلى براج إلى برلين الشرقية إلى هافانا إلى ماناجوا سـرعان مـا فهم السانـدينيون أساليب كاسترو السياسية المعقدة، واستخدموها بكل فاعلية ضد الولايـات المتحدة. ويقول دوجلاس باين خبير شؤون أمريكا اللاتينية في تحليله للوضـع إن «السانـدينيين حين يـرون منطقـة يريـدون دخولهـا ينظرون إلى كـل اللاعبين ـ الـطبقة المتـوسطة، الطلاب، رجال الدين ـ القوىٰ التي تخلق السياسة الخارجية الأمريكية».

في نفس الـوقت، لم تكن الـولايـات المتحـدة تفهم هـذا النـوع من الخـداع والتخـريب المتعمد بـل وكذلـك كل قـواعدهـا في العالم أنكـرت وجوده حتى، ممـا وضعها في تأخّر رهيب. من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٥، تمّ جلب حوالي مائة ألف أمـريكي فقط إلى نيكاراجوا، في إطار برامج التحييد الإيديولـوجي. وكانـوا يحملون أفكارهم الجـديدة إلى الـوطن لتكوين (لـوبي) في الكونجـرس الأمريكي لصـالح السـاندينيين وضد السياسة الأمريكية الخارجية في نيكاراجوا.

بل وظهرت كلمة بالإسبانية لمثـل هذا الإحبـاط المنظم بـآسم الثورة. وكـانت /مانتو/ أو /عباءة/ تحمل كل معاني الحقيقة المختفية. وبعد دراسة شبكـات خداع السـاندينيستـا، لاحظ المحلل السياسي دوجـلاس باين أن المـانتو كـان «مركـز نجاح وبقاء أي مجموعة ثورية ماركسية ـ لينينية كانت تسعى إلى تـأمين ومد سيـطرتها على مقربة من عدوها القوي الواعي».

والأهم أن نيكاراجوا وكوبا كانا يشتركان في نفسيـات متشابهـة تعود إلى وحـدة الأصل، فكلاهـما إسباني والوعي القومي يقوم على أساس المنطق الاستدلالي، الذي

يخرج بحقائق من تعريفات الحقيقة القائمة على الإيمان، وليس التجربة والدليل القاطع. كان الساندينيون، مثل كاسترو، يؤمنون فقط بالتحوّل الثوري وليس الإصلاح. ويقول ديفيد نولان محلل شؤون الساندينيستا «أنهم عرفوا الإمبريالية بأنها العدو الخارجي الذي يجب أن تنتصر عليه الثورة» ورأوا «في الوعي البورجوازي عدواً داخلياً»، واعتقدوا أولاً أن «وقود الثورة هي التحوّل الروحي».

وتثير درجة تدفّق الاستراتيجيات والتكتيكات والأساليب من كاسترو وكوبا إلى نيكاراجوا الساندينية دهشة أكبر مما تثيرها درجة تدفّقها إلى أنجولا. عرف كاسترو حدود التعبير الثوري بأنه «داخل الثورة كل شيء، خارج الثورة، لا شيء». وعكس توماس بورج وزير الداخلية الساندينى هذه الفكرة بكلمات متطابقة تقريباً: «أي شيء داخل الثورة، لا شيء خارج الثورة». واستخدم كل من كاسترو والساندينيون عبارة «الديمقراطية المباشرة» لوصف ما كان في الواقع سيطرة تامة من أعلى وأضاف النيكاراجويون نوعاً جديداً إلى حد ما من الاجتماعات أطلقوا عليه «مواجهة الأمة» يواجه خلاله القادة الشعب بأسلوب في الواقع إقطاعي «الإقطاعي ينشر العدل مقابل الولاء». في كوبا كانت الحشود تصيح «قائدنا الأعلى، إامرنا!» في ماناجوا يقولون «الهيئة الوطنية أوامرك». أخيراً بنى كلاهما «حضارتين عسكريتين» متطابقتين تقريباً.

لكن كان هناك عامل جديد مميّز في الثورة النيكاراجوية وقد فهمه كاسترو والساندينيون وعرفوا أهميته في الحال - في ماناجوا كان هناك مسيحيون انضموا إلى الثورة وأعطوها احتراماً جديداً وقوة في الولايات المتحدة وفي الغرب. وهناك دلالة هامة في أن مسيحيي «عقيدة التحرر» في نيكاراجوا كانوا منحدرين مباشرة من «المسيحيين من أجل الاشتراكية» الذين التقى بهم كاسترو واجتذبهم في شيلي سنة ١٩٧١. وبهذا التحوّل لليسار المسيحي، خلق كاسترو لنفسه بذكاء «مساحة سياسية» جديدة وأعمق في حياة نصف الكرة في نفس اللحظة التي بدأت فيها تيارات جديدة من التفكير العقائدي في التقريب بين «عقيدتيّ» المسيحية والماركسية المتناقضتين بشدة.

ولا يجب أن نُدهش لأن الساندينيين حاولوا التشبّه بكوبا كاسترو، لأنه في تلك الأيام «المجيدة» رأوا كوبا منتصرة في كل مكان على الرأسماليين، بل واعتبروا حرب كاسترو في أنجولا نصراً كوبياً على جنوب إفريقيا، مؤمنين كما قال أرتورو كروز الابن، بأنه «لأول مرة في التاريخ، تلتقي قوة من العالم الثالث، بقوة من العالم الأول، وتنتصر عليها». وهكذا «تغيّرت صورة كوبا من قاعدة بحرية سوفيتية في البحر

الكاريبي، إلى قوة عالمية حقيقية، وقرّر الساندينيون أن الولايات المتحدة تخشى كوبا لدرجة كبيرة فلن تتدخل في نيكاراجوا».

أما عن السوفيت، فقد رأوا في الانتصار في نيكاراجوا، هزيمة للولايات المتحدة وفي هذه المرة في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وفي بادرة هامة في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٨٠ أضافت اللجنة المركزية السوفيتية رسمياً أراضي أمريكا الوسطى إلى لائحة دول إفريقيا وآسيا التي من المتوقع أن تشهد تغييرات ثورية «ذات توجّه اشتراكي». وقد دانوا «لابنهم» الثوري فيدل كاسترو بقدر كبير ـ وقد عرف ذلك تماماً.

وبالطبع كانت لدى كاسترو خططه الخاصة في نيكاراجوا، وكما فعل في أنجولا، أعطى كاسترو، مهمة لنيكاراجوا. كان من المقرر أن تصبح نقطة القيادة الجديدة لحركات التحرر في أمريكا اللاتينية، كما كانت لواندا للحركات الثورية في إفريقيا. وأصبحت مدينة ماناجوا الصغيرة، التي دمّر قلبها في زلزال ١٩٧٠، تخفي الآن مراكز سرية لمجموعات حرب العصابات الإرهابية من كل أنحاء العالم، غالباً في مراكز التسوّق الأمريكية الطراز، التي ظهرت بين حطام الزلزال.

ومثل الكثير ممّا حدث في أمريكا اللاتينية، كان لانتصار الساندينيستا أثره الكبير الذي مدّ هزات الثورة إلى أبعد كثيراً من حدود أمريكا الوسطى. وأحد أهم النتائج هو أنه لأول مرة تجد منظمة التحرير الفلسطينية طريقها إلى أمريكا الوسطى ونصف الكرة الأمريكي، بعد أن تعهّدها كاسترو وساعدها منذ مؤتمر القارات الثلاث سنة ١٩٦٦. وحين تولّى الساندينيون السلطة في نيكاراجوا، قاموا بمبادرة لم يسبق لها مثيل إذ أعطوا المنظمة «سفارة» فعلية في ماناجوا وليس مبنى عادي مثل «حركات التحرّر» الأخرى، مما زاد في المقابل من نفوذ المنظمة ومساعدتها لحركات حرب العصابات الأخرى في أمريكا الوسطى. كانت الصلة بين الساندينيين ومنظمة التحرير الفلسطينية في قوة الحديد ـ كانت في كراهيتهما للولايات المتحدة.

كانت الاجتماعات بين زعماء منظمة التحرير الفلسطينية وكاسترو في هافانا تتأرجح بين الواقعية الساخرة والنذير التنبوئي للزعيم الكوبي، ويتذكر الشاب حسن رحمن المتحدث باسم منظمة التحرير الفلسطيية في واشنطن أنه حين زار هافانا «احتضنني فيدل وكان لدي إحساس أن يديه في وسطي تبحثان عن مسدسات». وفي يوم اغتيال المتطرفين المسلمين في القاهرة للرئيس أنور السادات يتذكر رحمن رد فعل كاسترو: «حصل على خمسة، ستة، سبعة شرائط فيديو من تليفزيونات العالم،

لحادث إطلاق النار وجلس هناك يراها المرة تلو المرة بلا كلل». كان كاسترو سيلقى ربّه في الفراش مثل الأب فرانكو.

قدمت منظمة التحرير الفلسطينية كاسترو إلى الشرق الأوسط، حيث حارب ٣ آلاف كوبي بجانب السوريين ضد إسرائيل في حرب ١٩٧٣ (وفي وقت ما طلبت واشنطن من الإسرائيليين إعداد هجوم خاص لتدمير القوات الكوبية هناك لكن مساعيها ذهبت سدى). كما قدمته إلى ثورة الخميني في إيران. كان كاسترو يتعاطف كثيراً مع الخميني وثورته. وكانت هناك صلات درامية بين الرجلين وثورتيهما. أولاً، كانا يتقاسمان كراهية شديدة للولايات المتحدة ـ وللرأسمالية والتحديث والتكنولوجيا والثقافة الشعبية، وفقدان الهوية العميق الذي تؤدي إليه كل هذه الأدوات الحديثة للتغيير. وما جمع ثورتاهما معاً هو أن أيهما لم يكن في الواقع من نوع الثورات الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية حين حاربت كينيا والكونغو والجزائر كلاً من إنجلترا وبلجيكا وفرنسا في معارك سياسية نقية، وفازت لتخرج الاستعمار ثم تستأنف بطريقة طبيعية تماماً بل وودية العلاقات مع هذه الدول فيما بعد. كان الزعيمان، كاسترو وخميني ـ يشبهان بعضهما إلى حد غريب، ويقول البروفسور موريس هالبيرين الذي عرف كاسترو إلى حد بعيد في هافانا في الستينات: «حين رأيت الخميني في التليفزيون قلت ان هاتيك هما عينا كاسترو».

لا، كانت الثورتان الكوبية والإيرانية شيئاً مختلفاً، ولكن كلاّ من الزعيمين أحسّ بالرابطة. كانت ثورتاهما من نوع جديد تماماً، تقاتلان ضد الولايات المتحدة لا للفوز بالاستقلال ولكن لإنقاذ بعض آثار الهوية الأصلية. وكانت «ثورتا الهوية» الجديدتان أكثر شراسة وعصبية وغضباً من الثورات السياسية/العسكرية القديمة الطراز/ لأنه، كما قال الباحث الإيراني ماجد طهراني «كانت سياسات الهوية الجديدة تميل إلى شمولية الفكرة وتدعو لإبادة العدو».

ولم تكن أي من الدولتين قد تعرضت لقمع حقيقي من الولايات المتحدة. بل كانت الولايات المتحدة، باعتبارها أول أمة حديثة فعلاً، وأول دولة عالمية معاً، قد تغلغلت في روحيهما على أجنحة سيطرتها الثقافية المستمرة. كانت «الإمبريالية الثقافية» الأمريكية تطير عبر موجات الأثير، تسممهم بتليفزيونها وكتبها «الشعبية» وتلوّث أرواحهم بغموض مؤثراتها. كانت الولايات المتحدة هي المثل وعامل التغيير الذي يكرهونه ولكن يتطلعون إليه دون الوصول إليه.

ورغم الأهمية الدولية لفتح أمريكا الوسطى لمنظمة التحرير الفلسطينية كان

لانتصـار السانـدينيستا نتيجـة فوريـة وممتدة الأثـر حيث انتقل كـاسترو لتـأييـد جبهـة فارابوندو مارتي الوطنية الماركسية لحرب العصابـات في السلفادور وهي الجبهـة التي تتحدّى التحالف اليميني السلفـادوري القديم للطبقـات العليا والجيش. وكـان الأمر مـع المتمردين السلفادوريين تماماً كما كان مع الساندينيين: فرض كاسترو وحـدة مزعـومة وغير مريحة ولكن فعالة، من جانبهم، مقـابل أن يمنحهم الأسلحة. وسرعـان ما أصبحت مـاناجـوا بمراكـز تسوّقهـا مركزاً للسلفادور. وبعـد قـرابـة أربعـة شهـور على انتصـار السـاندينيين، أخبـر كاستـرو رجال حـرب العصابـات السلفادوريـة أنهم وجـواتيمـالا سيكونان «التـاليين» وأن هندوراس ستتحـول الآن إلى «هـوشي منـه هائلة». وبتـدفق الأسلحة من روسيا وأوروبـا وحتى أثيوبيـا (ولكن دائماً عن طـريق نيكاراجـوا) فتحت وساطة كاسترو الـراعية أمـريكا الـوسطى لـدخول السـوفيت إلى نصف الكرة الغـربي بشكل لم يسبق له مثيل.

لكن حقيقة أن كاسترو لم يكن أبداً مهتماً فقط بالديكتاتوريات برزت مرة أخرى في عزمه على الإطاحة بالنظام الديمقراطي في كوستاريكا. ففي السنة التالية لانتصـار الساندينيين شكّل مجموعة من رجال حرب العصابات الكوستاريكيين، بدأت تـدريبها في ريوسان خـوان على الجانب الآخـر من الحدود مـع نيكاراجـوا. وقد أيقن ألفـارو خـوسيه بـالديـزون ضابط المخـابرات السـانديني البـارز أنهم «يعدّون لثـورة أمريكـا الوسطى. كانوا يتوقعون تحويلها إلى فيتنام أخرى». وحين زار كاسترو مناطق الحدود في إحدى زياراته لنيكاراجوا، وقف هناك ينظر إلى كوستاريكا الصغيـرة الآمنة وسخـر قائلاً: «لو قامت الممرضات بإضراب لانهار كل شيء».

وفهم هرمينيو بورتل فيلا أستاذ التاريخ الذي علم كاسترو، سياسـة كاستـرو في بنما حين سمعه يتحدث عن «الأراضي الرهينـة» وقال: «الفكـرة كانت في الـربط بين قناة بنما وخوانتانامو كأراضٍ رهينة يجب إنقاذها من الولايات المتحـدة». في الواقـع كانت الضغوط على واشنطن، من كاسترو ورجل بنما القوي صديقه عمر توريجاس، هي التي أرغمـت واشنـطن فـي النـهـايـة على الـمـوافقـة لـلتخلّي عن الـقنـاة عام ١٩٧٨. ولم يحدث في تاريخ الإنسان أن تخلّت أمة عظيمة وقـوية عن مثـل هذا الكنز الجغرافي السياسي والهيكلي إلى دولة صغيرة و «ضعيفة» مثل بنما!.

خلال هذه السنوات تراخت السيـاسية الأمـريكية بصفـة مستمرة، وكـان الوقت دائماً قليلاً جداً، ومتأخراً جداً ولا يصح للتصرف من أجل الحيلولة دون تنفيـذ خطط كاسترو المخططة منذ زمن بعيد والاستراتيجية الذكية. بالنسبـة لبعض الأمريكيين من

أصل كوبي في مدينة ميامي الأمريكية، لم يكن هناك أمل. في ١٩٧٧، التقى الرئيس الكوبي السابق كارلوس بريو وستة من كبار الأمريكيين ـ الكوبيين مع سايروس فانس وزير خارجية كارتر ومرة ثانية ملأهم الأمل المؤقت والإيمان بأن الولايات المتحدة ستتخذ في النهاية إجراءات قوية ضد كوبا. ولكن فانس أخبرهم أنه رغم الاستفزازات، فالولايات المتحدة غير مستعدة للقيام بأي شيء. وأصرّ بريو بملامحه الوسيمة المسنة، على أنه «رغم ذلك سوف نواصل القتال»، لكنه لم يكن يعني ذلك، لقد انتهى كفاحه أخيراً. وبعد فترة قصيرة من هذا اللقاء، التقط بريو الحزين، الذي كان يمكن أن يكون منقذ كوبا التي قادها طويلاً، مسدسه عيار ٣٢ ملم، وأطلق النار على نفسه في صدره منتحراً، مثل إيدي شيباس، مثل الكثير من الكوبيين اليائسين. وكتب جيلرمو كابريرا انفانتي مؤرخ حالات الانتحار المهداة لكوبا يقول: «الطريق الوحيد الحقيقي، للرحيل من التاريخ، والميناء الوحيد لدخولنا الأبدية... الذي يحلنا من وعدنا».

ومرّت مناورة كاسترو الوحيدة، التلاعب، الحدث الذي اتضح أنه خطأ في تلك السنوات، دون أن يلاحظه أحد. وهو نسخته المضادة الحقيقية من «خليج الخنازير» التي تحوّلت إلى شيء غير متوقع. ذلك كان حين وافق فجأة، من خلال رعاية الكوبيين الموالين لكوبا في ميامي أمثال برناردو بينيز المشبوه، على السماح للمنفيين الكوبيين بالعودة. لقد اعتقد كاسترو فعلاً أن هؤلاء الرجال والنساء الذين يركبون سيارات مرسيدس بنز ويرتادون مقاهي كالي أوخو وبنوك ميامي في ناطحات السحاب، وصالونات اليزابيث أردن، بثيابهم الحديثة وشعرهم المجمل، سوف يتأثرون ويعجبون بكوبا الثورية. وبدلاً من ذلك، أوهن وجودهم عزيمة الجزيرة تماماً وبشكل فريد.

لقد قرّر كاسترو أخيراً أن «المساكين» المكروهين الذين طردهم من بلدهم يمكن السماح بعودتهم، مستجيباً في قراره للسياسات الليبرالية للرئيس جيمي كارتر في محاولته «لحل المشكلة الكوبية» وخاصة لتوقيع اتفاق بحري وخاص بالصيد بين الولايات المتحدة وكوبا والتخفيف من الحظر. وبسرعة تحوّل الحديث عنهم من المساكين إلى «المجتمع الخارجي» بل ودُعيوا للاشتراك في «حوار» جاد يجريه كاسنرو.

وفي ١٩٧٩ عاد ما لا يقل عن مائة ألف من هذه المجموعة من المنفى إلى «كوبا الجديدة» حيث الخمول والبلادة. وليتجولوا في كآبة وحزن بين أصدقائهم

القدامى ومنازلهم العتيقة. وحين غادروا كوبا، كانوا قد أنفقوا نحـو مائـة مليون دولار في كوبا كاسترو (لقد أعدّ لهم متاجر خاصة تبيـع بالـدولار بأسعـار باهـظة). لكنه سـرعان ما تعلّم أن هذه الأموال كانت باهظة فعلاً. إذ أنها غيّرت للأبد نظرة الكـوبيين الباقين في كوبا إلى بلدهم وإلى أنفسهم. ويتذكر مانويـل أنطونيـو سانشيـز بيريث أحـد كبار المسؤولين في ذلـك الوقت: «لقـد اعتقدنـا أننا سنـرى ناسـاً متحيـزين ضـد الشعب المسكين. أي نوع من الكوبيين جاء من أمريكا؟ لقد كانت لديهم منازل. . . درجات جامعية. . . كانوا يسألوننا عما نحتاجه؟ مروحة؟ راديو؟ كان أمراً مهيناً بـالنسبة لنـا». واستطرد قائلاً بعد سكوت: «وشعرنا أن أحداً ما كذب علينا».

أما من عادوا فقد وجدوا وطنهم «كئيبـاً وبشعاً». حين زارت فيـرجينيا سكـوفيلد مسكنهـا قرب منـزل كاستـرو في أوريانتي وجـدت أن كوبـا مـوجـودة: «كـأن الـزمن توقف. . . كأنها بولندا استوائية. . . كأنك تعيش داخل الرحم. . .».

الفصل الخامس والعشرون

جرينادا فيدل ـ الموت في مكان صغير

«وحينئذ تلا علينا القومندان جيل فقرة لكارل ماركس:
لقد اخترنا طريقاً نستطيع فيه تحقيق الكثير للإنسان، ثم لا يستطيع أحد أن يرينا لأن الجميع يضحي للجميع. ثم نستمتع دون حدود ضيقة أنانية لأن سعادتنا ملك الآلاف. سوف تعيش أعمالنا للأبد».

بالحرف من وثائق جرينادا من الاجتماع الطارىء للجنة المركزية لحركة نيوجويل في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٣.

في الوقت الذي تركزت فيه أنظار العالم على النصر المفاجىء للساندينيين في نيكاراجوا في يوليو ١٩٧٩، قليلون الذين أدركوا أن ثورة أخرى مستلهمة من كاسترو تحجب في منطقة فريدة، ولا تخطر على البال الثورة في الكاريبي بأكمله: جرينادا.

في مارس من هذا العام أطاحت مجموعة صغيرة تتكون من أربعين رجلاً فقط بالحكومة الغريبة للزعيم الغريب الأطوار سيرايربك جيري، وهو رجل مظلم الروح غالباً ما كان يخرج من ظلام الليل تاركاً عصابته المتوحشة تروّع أمن شعب جرينادا اللطيف.

لكم بدا ثوريو كاسترو الشبان مختلفين عن جيري الشرير. «الحلم» كما أطلق المتمردون على التغيير حباً منهم، أعلن نفسه عبر محطة الإذاعة المحلية حين توقفت موسيقى الريجا فجأة. ثم استولى المتمردون على مقر قيادة الجيش المخلص، وانتهى كل شيء خلال ٤٨ ساعة ـ من «الجيش المخلص» إلى «الحلم» في ليلة واحدة رائعة.

كان زعيم الانقلاب هو شاب رشيق وسيم ذو لحية يسمى موريس بيشوب، ثوري رومانسي، «الأخ موريس» تدرّب كمحامي (وفي السياسة الراديكالية البريطانية) في لندن حيث استوعب تماماً «كلمات لندن وتجريدات لندن، القادرة على تحمّل أي

معنى» والتي كان يـردّدهـا الـترينيـدادي ف. س. نيبـول. وهمس بعض الأشخـاص المهتمين بـالتاريـخ في مجموعـة الجزر التي يتكـون منها أرخبيـل جرينـادا يقول إن، بيشـوب أنجز شيئـاً هامـاً في جرينـادا ـ كان هـذا هـو أول انقـلاب في تـاريـخ جـزر الهند الغربية البرلماني البريطاني القح ـ والإنقلابات لم تكن بريطانية، كانت لاتينية. الواقع، إن خبراء «حركة نيوجويل» (الجوهرة الجديدة) بزعامة بيشوب كـانوا يتبـاهون بـلا كلل أن ثـورتهم لم تكن شيئـاً أقـل من أول ثـورة مـاركسيـة في العـالم الناطقة بالإنكليزية.

كثيراً ما كانت والدة بيشوب تقول إن بيشوب الساحر كان ينـظر في البدايـة إلى فيـدل «مثل أب» وفي أكتـوبر من هـذا العام، حين ألقى كـاستـرو كلمتـه أمـام الأمم المتحـدة لأول مرة منـذ خطبتـه المذهلة هنـاك في ١٩٦٠، وثـب بيشـوب من مقعـده وجرى إلى كاسترو واحتضنه بشدّة على طريقة خروشوف والتصفيق يدوي في القاعة.

لكن شعور الاضطهاد الحتمي من الثورة الكوبية بدأ ينضح في جرينادا، الجـزيرة التي لم يكن بهـا أبداً أي شعـور مناهض للولايـات المتحدة. في ١٩٨٠، بعـد عـام بـالكاد من الثـورة، توجّهت يـوم عيد العمـال إلى بلدة جويـاف الجميلة على شـاطى البحـر حيث تتعلق بيـوتهـا القـديمـة على زوايـا الجبـال المطلة على البحـر. وكـان «الخليط» المثـالي للحشد غيـر عادي، حيث يقـوم أعضاء اتحـاد التجارة الجـرينادي بمسيـرة على أحد جـانبي الحقل وهم ينشـدون «نشيد الجهـاد للجمهـوريـة» وقسيس كاثوليكي، لا يـرغب بعد في الإختيـار، يقول للجمهـور «يا رفـاق، صلاة. . .» حين وقـف بيشوب أمامهم، ليقول للجماهير التي تحبس أنفاسهـا انه سـوف يطيـر مباشـرة إلى كوبا لتوقيع معـاهدة «عـدم اعتداء» مـع كاستـرو، لأن كوبـا على وشك التعـرّض لهجوم من الولايات المتحدة. وقال بنوع من الهستيريا في صوته، أنه ربّما تقوم كوبـا وجرينادا بمهاجمة الولايات المتحدة.

وبـالصدفـة، التقيت بيشوب في اليـوم التـالي حين عـادت طـائـرتـه إلى مـطار جرينادا. وفي هذا الوقت كان تهديد اليوم السابق قد مـرّ مثل عـاصفة سـريعة. وحين سألته عن «الحرب» مع الولايات المتحدة، نظر بيشـوب إليَّ وقد ضيّق عينيـه، وكأنـه نسي تقـريبـاً. ثم قـال: متذكـراً فجـأة: «آه، نعم، كـان من المقـرر أن نصـدر بيـانـاً مشتـركاً، لكن لم نحظ بـالوقت الكـافي لبحث الأمر». وأشـار بيده بـأسلوب جميـل وابتعد. بعض الحروب تمر بسرعة.

لكن إذا كـان مزاج مـوريس بيشـوب كـان تقـريبـاً بـشوشـاً على الـدوام، فـإن

الاحتمال في تلك الفترة بالنسبة للثورة في الكاريبي كان حقيقياً تماماً. ففي الجنوب تحوّلت جويانا إلى اليسار في مطلع السبعينات، وسورينام على حافة التحوّل. في ١٩٧٩ بدأت سانتا لوتشيا في التحرّك نحو اليسار. الآن، في جرينادا، لم يضيّع كاسترو وقتاً لتدعيم «وثبته» الثورية في شرق الكاريبي بدعم تكتيكي. وبحلول نوفمبر ١٩٧٩، أرسل ثلاثمائة عامل بناء كوبي لإقامة المطار الجديد الذي تحتاجه جرينادا بشدّة، ووافق على تحمّل نصف تكاليف البناء البالغة خمسين مليون دولار. وانتشرت الشائعات في كافة أنحاء الجزيرة حول وجود حمولات سيارات نقل تحتوي على أسلحة كوبية مخبأة في مكان ما. أما المناطق العسكرية الخاصة، الممنوع دخولها على الجرينادييين والتي يديرها كوبيون، فلم تكن في حاجة إلى شائعات ـ كانت موجودة أمام الأعين، ولكن لا يدخلونها مطلقاً.

وبالنسبة لجرينادا، عمل كاسترو كوسيط لنقل الأسلحة السوفيتية، ليتم تسليمها ليلاً إلى مستودعات مخبأة عبر الجزيرة، عادة، خلال عمليات خطّطها بمهارة مفكرو نيوجويل. في المقابل تقدم جرينادا معلومات حول «حركات التحرّر» الأخرى في الكاريبي. بدت هذه الإتفاقيات غير ذات أهمية، لكنها في الحقيقة وفرت لكاسترو أول انفتاح حقيقي له على هذه المنطقة من العالم المتحدث بالإنكليزية في الكاريبي التي لم تفهمها ذاته اللاتينية أبداً. ومن جانبهم قدّم الكوبيون نافذة جديدة على العالم للجرينادييين، وقدموهم إلى منظمات العالم الثالث والاتحاد السوفيتي. بالطبع، لم يستطع أحد أن يقول إن كل المساعدة الكوبية كانت مثالية، في أحد اجتماعات المكتب السياسي، سجّل في المحضر أنه «من بين عشرة قوارب منحتها لنا كوبا، يوجد إثنان فقط يعملان». وهذان القاربان «يمكن أن ينهارا في أي وقت»، لكن في الحقيقة لا يستطيع كاسترو أن يعطي جرينادا، ما يعجز عن تقديمه لكوبا.

وفي ١٩٨١، حتى الصحف الروسية، بالنيابة عن الحكومة السوفيتية، وضعت جرينادا في إطار خطتها المحكمة للتفكير الإيديولوجي ـ كانت جرينادا وسط ضباب، «تحوّل اشتراكي تدريجي» وحركة نيوجويل كانت في «الطليعة السياسية». كان بوسع الساخرين في الغرب أن يضحكوا، لكن الواقع كان ملموساً: هذه الفئات من الدول الواقعة تحت النفوذ السوفيتي ضمت نحو عشرين دولة يصل مجموع سكانها إلى ٢٢٠ مليون نسمة. كان السوفيت جادين تماماً بشأن إمبراطوريتهم المتنامية في العالم الثالث وكان يمكن معرفة نيّتهم بالمدى الذي سمحوا به لهذه الإمبراطورية لأن تفلسهم. وفي ١٩٨٢، كان الروس يوقعون معاهدات واتفاقات وبروتوكولات

اقتصادية وعسكرية سرّيّة تماماً مع دولة جرينادا الصغيرة كأنها نضجت وتحوّلت إلى دولة كبيرة في ليلة واحدة. وكان مقدار الأسلحة والعتاد الذي قدّمه السوفيت يكفي لتسليح قوة من عشرة آلاف رجل. بالإضافة إلى ذلك طلب الجريناديون العمليون الحصول على سيارات أوتوبيس، مكبرات صوت، ست الات كاتبة إنكليزية ألفي مقعد يمكن تطبيقه وأربعة مفاصل.

سرعان ما بدأت فيتنام كذلك تتحرّك إلى الكاريبي «البحيرة الأمريكية». بدأ الفيتناميون، من خلال سفارتهم في هافانا، في تدريب الجريناديين على سبل الحرب الإشعاعية وعلى «إعادة توجيه» العناصر المناهضة للإشتراكية والثورة، وعلى «تكتيك اليانكي، والأسلحة المستخدمة في فيتنام». وفي مطار بيرل انتظرت طائرة أنطونوف ٢/روسية صغيرة في انتظار اللحظة المناسبة للتحرّك. وبالنسيج على أجنحتها وجسمها المعدني أصبحت الطائرة في أعين الجريناديين رمزاً للتغيرات التي تحدث على جزيرتهم ولم يعودوا يفهموها. والسوفيت، كعادتهم، لم يكونوا مبتكرين. قالوا إن الطائرة لرش المحاصيل في جزيرة ليس بها محاصيل لرشّها. في الواقع كانت الطائرة في انتظار إسقاط وحدات شبه عسكرية صغيرة على سان فنسانت وسانتا لوتشيا ودومينيكا وأنتيجوا، وحدات قادرة بسهولة على الإطاحة بهذه الحكومات الديمقراطية الصغيرة غير المحمية. ويحكي جوزيف أدموندز سفير سانتا لوتشيا لدى منظمة الدول الأمريكية وهو يتذكر إحساس العجز والخوف الذي ساد هذه الجزر في ذلك الوقت: «لقد قاموا حتى بعمليات هبوط تجريبية، ويبدو للبعض أنه أمر بسيط لكنه لم يكن».

لكن أثناء توسّع كاسترو في أنشطة حرب عصاباته في جرينادا، عرقلته الوقائع في وطنه. لأول مرة، في ديسمبر ١٩٧٩، اضطر ليقول للشعب الكوبي الحقيقة فعلاً ـ أنه لن تكون هناك نهاية للأزمة الاقتصادية. كانت كوبا «تبحر في بحر من الصعوبات... والشاطيء بعيد جداً...» قبلها، كان كاسترو قادراً على إبقاء الشعب الكوبي في حالة دائمة من الدوار، عدم اليقين، الحماس الثوري الذي بدا لهم في دولتهم المعزولة البعيدة كأنه نوع من الإتزان. الآن أصبح حتى هو قادراً على رؤية أنهم بدأوا يشعرون بالإرهاق من هذا الضعف اللانهائي.

ولاضطراره إلى التحرر وفتح اقتصاده المغلق، رفع كاسترو الحد الأدنى للأجر، وسمح بقيام عدد محدود من الأعمال الخاصة على أساس قواعد السوق الحرة وأصدر تصاريح عمل للحرفيين والمقاولين. وقال للمستثمرين المحتملين،

بكلمات بدت مرة أخرى أكثر ملاءمة لرجل إقطاعي منها لزعيم حزب شيوعي، وساخرة أكثر مما كان يعني: «أين ستجدون عمالاً على قدر من التعليم ومضمون ألاَّ يقوموا بإضراب، وحكومة تضمن عدم قيام إنقلاب؟».

في الوقت نفسه، في هذه السنوات الأولى من الثمانينات، أنشأ هياكل عسكرية جديدة لتكون قوة عسكرية أخرى بديلة، مليشيا القوات الإقلمية التي كانت جزئياً محاولة أخرى لإعادة الدولة داخلياً إلى فكرة سييرا مايسترا القديمة «لحرب الشعب». وفي وجود قوات مسلحة نظامية قوامها ٢٢٥ ألف واحتياطي ١٩٠ ألف، و١,٢ مليون شخص يجري تسليحهم وتدريبهم في هذه الميليشيات الجديدة، أصبح لدى كوبا، أفضل قوة عسكرية في أمريكا اللاتينية من حيث الاعداد، قادرة على تعبئة قوات تفوق قوات البرازيل أو المكسيك، وكذلك أكبر من الحرس الوطني والإحتياطي العسكري الأمريكي معاً، كما عمدت الميليشيا إلى حمايته من «أصدقائه» السوفيت - فقد كان مقتنعاً أنهم يتآمرون لتغييره، وفي هذه الفترة المتوترة كان على حق.

لكن معظم الناس يقولون ان تغيّر مزاجه، وإنقلاب حظّه، بدأ سنة ١٩٨٠ بسبب الاحتمال الوحيد الذي لم يؤمن أبداً بإمكانية حدوثه: وفاة سيليا. هذه الإنسانة المخلصة رفيقة السلاح والوحيدة التي لا يمكن إيجاد بديل لها، ماتت بالسرطان في الحادي عشر من يناير. منذ لقائهما الأول في هذا الفجر الضبابي من عام ١٩٥٦ في السييرا كانت سيليا أول وآخر صلته الوحيدة الحقيقية بالواقع. والآن ذهبت فجأة. في هذه المناسبات النادرة حين كان يهتم بحضور حفلات الاسْتقبال الدبلوماسية، كان يظهر بعيداً إلى حد غريب، قلقاً بل ولا يعي الأشياء الهامة التي تدور حوله.

في مكتبه، كان يمضي ساعات حزيناً ينظر في تصميمات لتماثيل يجب إقامتها لتكريم سيليا. كان متحيراً بين إختيار تمثال «ثوري» لائق، تظهر فيه سيليا واقفة تحت مجموعة أشجار في السييرا وجسمها النحيف متكىء مثل بطلة رومانسية جميلة ومبتسمة، وبين تمثال يظهرها محاطة بأطفال كوبيين يتطلعون إلى وجهها الإسباني الطويل. وأوقات كثيرة كان يسير على غير هدى في الحجرة المتسعة المجاورة لمكتبه، يتوقف ليدرس ويدرس من جديد النموذج العملاق لسييرا مايسترا الذي وضع فوقه بشكل مسرحي علامات على «معاركهما» ما عدا تلك التي يواجهها بمفرده. وكان الحافظ الوحيد للأسطورة التي كانت أسطورة سيليا أيضاً، ذلك أن هذا الوقت

المحبوب والمثير في حياته كان الشيء الوحيد الذي يستطيع مشاركته معها فقط وهو ما فهمته سيليا تماماً.

ثم في أول إبريل ١٩٨٠، بعد ثلاثة شهور من ذهاب جسد سيليا إلى الموت الذي كان القوة الوحيدة التي لا يستطيع السيطرة عليها، ازداد سوء حظّه في وطنه سوءاً، حين اقتحم ستة كوبيين طالبين اللجوء السياسي بسيارتهم بوابة سفارة بيرو في هافانا ليقتلوا رجل بوليس كوبي كان يحرسها.

وشعر كاسترو بغضب عارم لهذا التحدي الجديد لحكمه، كما كان يغضب بشدة دائماً حين يمارس الكوبيون إرادتهم الخاصة. الآن، ومن أجل أن يؤكد أن الجماهير لن تتركه فعلاً، لجأ إلى مناورة جديدة له: بدلاً من أن يغلق سفارة بيرو، كوسيلة دفاع، انتقل إلى الهجوم، وسحب الحراسة العسكرية عن السفارة، بل وذهب إلى حد إعلان سحب الحرس علانية. هذه المرة كان أسلوبه خاطئاً تماماً. فقد تدفّق تلقائياً مئات الأجساد الكوبية، فوق سور سفارة الدولة المسكينة مثل السيل. وخلال ٧٢ ساعة، تجمّع ١٠ الاف و ٨٠٠ شخص في يأس في حجرات وساحة المبنى، يبحثون يائسين عن سبيل للفرار من وطنهم. وفي القصر، رغى كاسترو وأزبد في موجات غضب، وقال لصديقه الجامايكي مايكل مانلي الذي كان يزور كوبا في ذلك الحين: «سوف أحوّل هذا الهراء ضد الولايات المتحدة». لكنه كان مخطئاً مرة ثانية، لأن في هذه المرة كانت الولايات المتحدة ستقلب الأشياء ضده.

ففي ذلك الوقت، لم يعد كاسترو يعتمد بمفرده على إحساسه الخاص باللحظة. وكانت لديه «إدارة أزمة». في أواخر السبعينات، شكّل مجموعات عمل تتكوّن من فرق من علماء الاجتماع وعلماء النفس يعملون كمقياس للحكومة للتعرّف إلى أي ارتفاع في الاستياء أو الغضب داخل كوبا. وحين ازداد هذا الاستياء إلى حد كبير، أوصى الخبراء: «افتح صمام الأمان!» كما حدث في السنة الأخيرة من العقد التالي حين خفّف نظام المانيا الشرقية الضغط «بفتح السور».

استخدم «انفتاح» كاسترو عدة متغيرات من بينها رفع التهديد الوهمي بحدوث غزو أمريكي وشيك، وتعبئة أعداد كبيرة من الميليشيات الأحدث مثل القوات الإقليمية. ويوضح الجنرال رافيل ديل بينو الذي وقف لسنوات في مركز السلطة العسكرية في كوبا: «بدأ حينئذ سد الدعاية. هذه المرة الأمريكيون قادمون فعلاً... فتحت المخابىء للحماية من الغارات الجوية... ومخابىء الحماية من القنبلة

الـذرية. . . ». ولإحكـام غلق الدائـرة، عضد كـاسترو حينهـا هذه الأسـاليب بسحـره التليفزيوني الخاص ليخلق أنشوطة فريدة من نوعها من السيطرة الاجتماعية والنفسية.

في ٢١ إبـريل، أعلن كـاسترو خـطته الحقيقيـة، هؤلاءالـراغبـون في الـرحيـل يسمح لهم بالسفر بالقوارب إلى فلوريدا من ميناء ماريـيل الكوبي الصغيـر وهو ميناء مفتـوح وصنـاعي أدخلت عبـره السفن السـوفيتيـة الصـواريـخ التي أدّت إلى أزمـة الصـواريخ سنـة ١٩٦٢. في النهايـة هرب مـائة وعشـرون ألف يـأسـاً إلى ميامي في «حملة القوارب» التاريخية ليرتفع عدد الكـوبيين الذين تـركوا بلدهم منـذ ١٩٥٩ إلى ١,٥ مليون كوبي.

كـانت شروط كـاسترو قـاسية وأبعـد من توقعـات هؤلاء الـذين كـرهـوه. كـان يسمح لفرد واحد من كل عائلة بالسفر على كل قارب، والآخرون تختـارهـم الحكومـة الكوبية، وكثيرون كانوا من المجرمين المطلق سراحهم أو المـرضى النفسيين. كانت السفن تحمـل فوق حمـولتها في كل مرة، وكـان الجنود الكـوبيون يـرغمون بـوحشيـة اللاجئين على «تقليد» مسـح أحذيتهم من الأراضي الكـوبية قبـل مغادرتهـا. في ذات الـوقت حمل كـاسترو مـرة أخرى النـزاع إلى حيث يريـده: إلى التليفـزيـون. وأخبـر الشعب الكوبي أنه «لقد سحبنا الحماية من خليج فلوريدا. . . لقد اضطررنـا لسحب الحراسة من شبه جزيرة فلوريدا. . . ».

وعلى غير توقّع ألقت حملة قوارب ميناء ماريـيل الأضواء على أجـزاء من عالم كاسترو المغلق. كـان الركـاب الشواذ جنسيـاً الذين وصلوا إلى ميـامي يطلقـون على أنفسهم «رجال محبطين» وكشفـوا عن أنه في أعمق أعمـاقهم آمنوا بقـرارات كاسـترو الشريرة بشأنهم. وتحدث السجنـاء السابقـون لأول مرة عن سجـون كاسـترو، وعرف العالم بأساليب الضرب السادية، وبالزنازين التي تغمر بالمياه فجأة وبسرعة لدرجة أن السجناء يعتقدون أنهم سيغرقون حتماً، كما عرف بالسجناء السياسيين الذين يرفضون «إعـادة توجيههم» إلى الكاستروية (كـان ذلـك هـو سبيلهم الـوحيـد اليـائس للبقـاء مستقلين) والذين كانوا يجبرون عنـدها على البقـاء عراة لفتـرات طويلة، وهـو عقاب مهين ومـذل بصفة خاصة للرجل الكوبي. بل إن د. ألبرتو دالماو جراح التجميل البارع أجرى عدة جراحـات تجميلية للسجنـاء الذين على وشـك الخـروج. لمـاذا؟ يتـذكـر د. دالماو: «لكي يبدو في صورة أفضل في الخارج، ربما كانوا سيرون زوجاتهم لأول مرة خلال عشرين عاماً. . . لذلـك ابتكرنـا مخدراً محليـاً، وكنت أجري الجـراحات بشفرات الحلاقة».

وما أن أطلق سراح السجناء الكوبيين في الولايات المتحدة، حتى واجه رجال القانون الأمريكيين في كافة أنحاء الدولة على الفور، موجة جريمة شرسة وبلا معايير وضد المجتمع إلى حد أنها أذهلتهم هم أنفسهم. كان يبدو أن سجناء كاسترو لا يؤمنون بشيء، ويعيشون بالفعل خارج الحضارة. ويوضح د. مارشيلينو فيل عالم النفس الأمريكي الكوبي أن «رجال مارييل هم «الرجال الجدد» الحقيقيون في نظام كاسترو».

بدلاً من أن يقف بتكبّر وأمان في جانبه الهجومي المعتاد، حيث وجد الأمان دائماً، بدأ كاسترو يجد نفسه الآن يحارب باستمرار للحفاظ على موقف دفاعي معقول. وفي خطبه، كان يغضب دائماً على «عديمي المهارة والكسالى» في كل مكان بالداخل - عديمو المهارة والكسالى الذين كانوا في الحقيقة شعبه، كان غاضباً على بزوغ الفجر ولم ير الفجر الجديد.

ازداد موقف كاسترو سوءاً، في عام ١٩٨٠ إلى حد بعيد مع انتخاب رونالد ريغان لرئاسة الولايات المتحدة، كانت جهود الرئيس جيمي كارتر المثالية لإحلال السلام مع كاسترو قد فشلت فشلاً ذريعاً، كان الجمهوريون ساخرين - البعض يقول واقعيين - إلى حد كبير بصدد إمكانية التوصّل إلى أي تقارب حقيقي مع كاسترو؛ لقد فهموا شخصيته أفضل بكثير من الديمقراطيين الذين غالباً ما رأوا في كوبا اليوتوبيا المحتملة للرخاء الاجتماعي الذي يسعون إليه بلا توقّف. لكن حين أرسل الرئيس ريغان الجنرال الفطن فيرنون والترز سفيره لدى الأمم المتحدة إلى كوبا سنة ١٩٨٢، حسمت الإدارة نهائياً رأيها حول محاولة أي شيء «جديد» مع كاسترو.

سافر الثعلب العجوز والترز الذي كان في حينها رجلاً عملاقاً أبقته قدراته اللغوية الباهرة وروحه الساخرة قريباً من الجانب الرئاسي للرئيس أيزنهاور (أو أيك)، إلى كوبا «ليرى ما يحدث». وظلّت فحوى ونتائج الاجتماع الهام، الحاسم، طي الكتمان ولم يعرف عنها شيء علانية، وظلّت أمراً شديد السرية حتى الآن. ومع ذلك، ورغم صمته العلني، فإنه قد يكون حكم والترز الشخصي - ونصيحته للرئيس ريغان - التي شكلت رد الفعل الأمريكي الحاسم على العام الأخير من كفاح كاسترو اللانهائي ضد أمريكا.

بدأ الاجتماع، الذي أعيد بناء وقائعه بناء على معلومات مستقاة من عدة مصادر، حين التقى الرجلان المسيطران واللبقان مع كارلوس رفايل رودريجيز الفذ ومساعد لوالترز في مكتب كاسترو الواسع المريح في القصر (ومنه كان يمكن، من

حسن الحظ، رؤية لمحة من نموذج معارك السييرا مايسترا) ثم التقوا في وقت لاحق في حجرة مؤتمراته. ودارت المناقشات كالآتي:

ـ قومندان كاسترو: «إذا كنت جئت هنا لتهددني... لقد هددني كل رئيس أمريكي» (ابتسامة). «وأنا أعرف أن الكونجرس لن يوافق على أي شيء...».

ـ الجنرال والترز: «لقد جئت لأقول لك حقيقة قديمة قدم التاريخ، حين تتعرض المصالح الحيوية للدولة للخطر، عليها أن تفكر في كل الاختيارات».

ـ كاسترو: «إجلس».

كارلوس رفاييل رودريجيز: «ليس لدينا ما نتفاوض بشأنه».

كاسترو: «كل شيء قابل للتفاوض».

ثم توجهوا للعشاء في منزل كارلوس رفاييل، حيث قرص والترز الشيوعي القديم الملتحي، وتألقت عيناه الشبيهتان بعيني راسبوتين، وهو يخبره كم هو جميل منزله، وقال والترز بابتسامة ساخرة: «هدية من البورجوازية بلا شك، وبلا إرادة أيضاً».

ورد رودريجيز وعيناه تلتمعان بنفس الأسلوب.

وسرعان ما أدرك والترز أنه ما أن يفهم كاسترو أن الدبلوماسي والجنرال الأمريكي لم يحضر لتهديده حتى هدأ نفسياً ـ وهو ما حدث. وبدأوا يتحدثون عن الفلسفة الشيوعية، وأخبر كاسترو والترز أنه بعد دراسة متأنية للتاريخ والفلسفة والاقتصاد، توصّل إلى أن الشيوعية تقدم التفسير المنطقي الوحيد للتاريخ الإنساني. ورد والترز بجفاء أن هذا فعلاً أمر مثير للاهتمام خاصة على ضوء حقيقة أن «الروس تحتاجون ٣٢ مزارعاً مقابل مزارعين أميركيين» وحين تحدثا عن «حركات التحرر» قال والترز لكاسترو إن «ما تطلق عليه حركات تحرر نسميه نحن ديكتاتوريات لا سبيل إلى تغييرها».

وأجابه كاسترو: «كل شيء قابل للعكس، أنا قابل للتغيير».

وحنيئذ قال والترز مفكراً بصوت عال: «متى؟».

وفي لحظة ما، ذهب والترز في مزاحه إلى حد أبعد، فقال له في البداية بكل جدية إنه «يوجد بيننا عامل مشترك» وارتفع حاجبا كاسترو عند ذلك، وتابع والترز: «كلانا خريج الجيزويت». واسترخى كاسترو وأومأ برأسه موافقاً ولكن بدون إحساس. فأضاف والترز: «ولكن هناك شيئاً مختلفاً بيننا». فارتفع حاجبا كاسترو في فضول

أكبر. وأضاف الأمريكي بلغته الإسبانية، التي يجيدها إلى درجة أنه يستطيع التلاعب بالألفاظ: فقال: «من كويدي فيبل» متلاعباً على معنى أسم كاسترو. ومعنى الجملة: «لكني بقيت مخلصاً».

ووفقاً لمصادر داخلية غادر والترز كوبا بعد أن ترك انطباعاً طيباً عند كاسترو، لكنه أيضاً غادرها مقتنعاً بأن لا شيء يمكن عمله بشأن الزعيم الكوبي مما يمكن أن يخدم المصالح الأمريكية. كان والترز مقتنعاً بأن الولايات المتحدة، باعتبارها العدو التاريخي الذي يثير روح التحرك عند كاسترو، لا تملك شيئاً يريده كاسترو وأنه إذا انحاز لصالحها فسيكون فقط «كرئيس جمهورية خيالية».

بعد عودة والترز، أخبره دبلوماسي آخر قريب من الكوبيين أن كاسترو تحدث عنه بما يستطيعه من إعجاب بشخص أمريكي. وبصفة عامة، أضاف الدبلوماسي، شعر كاسترو مع ذلك أنه، رغم معرفته بالإسبانية والتاريخ، فإن والترز لديه «عيب خطير جداً». سأل الدبلوماسي: ما هو؛ فأجاب كاسترو بجدية: «لم يدعني أتكلم».

كانت زيارة والترز هي الحدث الوحيد المقنع الذي أدّى إلى تخلي رونالد ريجان عن مجرد التفكير في السعي إلى «الاتفاق» مع كاسترو. وتوالت المبادرات العدائية بعد الزيارة. لكن أشدها تهديداً لكاسترو، كانت، تأسيس راديو، مارتي، وبداية الإرسال إلى كوبا من أمريكا عام ١٩٨٥. وتحت رئاسة أرنستو بيتانكور، عدو كاسترو القديم، أصبح بوسع الشعب الكوبي الاستماع إلى إذاعات لأنباء صادقة وموضوعية، ساعة بعد ساعة وأسبوعاً بعد أسبوع. هذه المرة شعر كاسترو كأنه هو شخصياً يتعرض للغزو؛ هذه المرة كانت حملة خليج خنازير عبر الأثير لا يستطيع حمايته منها حتى قواته المسلحة الخاصة.

في هذه السنوات، بدأ كاسترو يكشف عن مكنون نفسه بعبارات جديدة ومرعبة وهو ينتقل إلى مرحلة جديدة من جنون الاضطهاد «كوبا بمفردها.. لا نستطيع إنتظار مساعدة أي شخص، علينا أن ندافع عن انفسنا بأنفسنا... إنهم يهددوننا بغزو، في الحال... هل يجب أن نخاف؛ لا! يجب أن نعد أنفسنا!».

كانت هذه هي كلمات كاسترو «الحديدة» وهو واقف مرة ثانية في ميدان سانتياجو التاريخي في ٢٦ يوليو ١٩٨٣ بمناسبة العيد الثلاثين لهجوم مونكادا. وقد أحدثت الانفعالات والحرارة وذكرياته عن هذا اليوم انطباعاً هائلاً على الجمهور. ولاحظ الصحفيون الأسبان المتعاطفون أن هذا الرجل ذا الشعر الرمادي الذي بدا

عليه التعب وتقدّم السن في بداية خطبته، تحوّل وهو يتكلم إلى فيدل الشاب، الحيوي، الشديد الثقة بنفسه. أصبح التغيير واضحاً بصفة خاصة حين قارن مونكادا بفيتنام وحين قارن كوبا القديمة بنيكاراجوا الجديدة. بدا مرة أخرى «كأنه عاد إلى شخصيته الخاصة» وهو يتأمل غزواً أمريكياً بل ويحن إليه، كما قد يقول البعض. وتحدث كاسترو فى هذا اليوم عن معاقل سرية في الجبل محفورة في صخور جبال سييرا مايسترا، وفي أعمق أعماق ثورته، ويمكن أن تكون حصناً أخيراً لآخر معارك الثورة، ومثل كهوف ماو البعيدة في بينان و«عش النسر» في فالكيريان الخاص بهتلر، كان كاسترو يخبر العالم أنه مستعد، إذا اقتضت الضرورة، للتقهقر - في إطار «ميلاد عكسي» آخر كما يسميه البعض - إلى البدايات الخرافية للثورة ويقف في مواجهة أبدية وانتحارية ضد الأمريكيين.

لم يهدأ الخوف من الغزو ولا ثانية واحدة. وفجأة، كان الكوبيون يخبرون الدبلوماسيين الأجانب بكل جدية وصرامة أن كل ما يستطيعون عمله هو امتصاص الانفجار الأول، بعدها عليهم أن يستدرجوا الأمريكيين إلى حرب عصابات، مثل الحرس الأحمر لثورة ماو الثقافية، مثل أتباع جيم جونز في جونز تاون، مثل الكوادر المجهولة رغم كثرتها التابعين لبول بوت، وهم يتحدثون في كمبوديا حول «ساعة الصفر»، كانت ميليشيات كاسترو تتدرب من أجل «الآحاد الحمراء» حين يبدأ الغزو من الخارج، حتى الأطفال في هذا المناخ المرعب، بدأوا في حفر الخنادق للوقاية من الغارات الجوية.

في هذه الفترة بالذات، تكشف سيناريو غريب ومنذر في جرينادا، على غرار أسوأ كوابيس كاسترو، وأعدّ المسرح لحرب الإرادات البشعة التي أغرقت كل البريق الأولي لحركة نيوجويل ودمرت «حلم» جرينادا. كان الرومانسي موريس بيشوب قد بدأ ثورته ضد الجانب الآخر من الثورة ممثلاً في برنارد كورد، البارد العينين الذي يحظى بتأييد السوفيت وهو كان يعتبر «تروتسكي البحر الكاريبي»، وكان مصمماً على التخلص من بيشوب. في الحرب الضروس التي نشبت هذا الصيف المؤسف وخريف سنة ١٩٨٣، ألقت سحب الخلاف الإيديولوجي بظلامها على الجزيرة الجميلة ولطختها بالدم.

في الواقع أنه حين عاد بيشوب إلى جرينادا من رحلة إلى كوبا والكتلة الشرقية، راقب كاسترو بقلق عناصر كورد وهي تفرض على بيشوب الإقامة الجبرية. ثم في ١٩ أكتوبر، هذا اليوم الذي سمي في جرينادا «الأربعاء الدامي» اقتحم ما لا يقل عن

عشرة آلاف شخص من جماهير بيشوب «المحبوبة» وأخذت بيشوب وحملت بطلها المأساوي الجائع - الذي لم يكن أبداً قاتلاً، ودائماً الجسور، الذي نسي يوماً أن يعلن الحرب على الولايات المتحدة - إلى فورت روبرت المطل على خليج سانت جورج وهناك أصدر كورد أمره البارد بإطلاق النار عليه. وأوقف بيشوب وحبيبته وخمسة من أقرب معاونيه وعدد آخر غير معروف من الأشخاص أمام حائط وأطلقوا النار عليه ظلماً. وفي هذه اللحظة الحاسمة، كان كاسترو عاجزاً عن التدخل أو فهم أعدائه الذين يزحفون حوله، والأسوأ من هذا أن كاسترو بدأ الآن يراقب برعب متزايد الأمريكيين وهم يستعدون لغزو جرينادا!.

هذه المرة، تحرك الزعيم الكوبي بحذر، استدعى الكولونيل بيدرو تور تولوكوماس وهو ضابط كوبي أسود وماهر تولى بنجاح «قيادة» البعثة العسكرية الكوبية في جرينادا من ١٩٨١ حتى مايو ١٩٨٢، وأعاده إلى جرينادا ليقود القوات الكوبية هناك، وأرسل مائة وخمسين إلى مائتين من الجنود الكوبيين معه. ولكن مع تورتولو المسكين، استدعى كاسترو أحد «رجاله الجدد» الحقيقيين. وهو ضابط لا يمكن الشك مطلقاً في طاعته وولائه المطلقين. ولكنه يفتقر إلى الخبرة القتالية. ووصل تورتولو إلى جرينادا قبل أقل من ٢٤ ساعة من نزول قوات الأمن الأمريكية - الكاريبية. كانوا الآن «مستعدين» فعلاً لما كان في الواقع أول مواجهة حقيقية مباشرة لكاسترو مع الأمريكيين، المعركة التي تنبأ بها لسيليا سنة ١٩٥٨ والتي انتظرها طوال حياته.

في ٢٠ أكتوبر عقدت الدول السبع الأعضاء في منظمة دول شرقي الكاريبي اجتماعاً واستندت إلى البند ٨ من معاهدة التعاون لطلب المساعدة الأمريكية ومن الدول الأخرى «الصديقة». وعلى الفور قرّر الرئيس الأمريكي إرسال قوات.

راقب كاسترو بخوف ولكن أيضاً بإثارة «قوات الأمن الأمريكية - الكاريبية» في الصباح الباكر من يوم ٢٥ أكتوبر وهي تهبط على شواطىء جرينادا. وعلى الفور وبدون تردّد أمر رجاله بأنه من واجبهم أن يلقوا مصرعهم وهم يقاتلون «مهما كانت الظروف شاقة وفي غير صالحهم». وفي مؤتمره الصحفي في هافانا، في نفس اليوم، فقدَ سيطرته تماماً على واقع اللحظة وهو يقول إن «كولونيل تورتولو قائد القوات الكوبية... كتب صفحة في تاريخنا المعاصر جديرة بأنطونيو ماكيو». وكانت مقارنة توروتولو المسكين، التعس الحظ، ببطل الاستقلال العسكري الكوبي العظيم لها تكاليفها.

وبعد أيام قليلة ظهر في التليفزيون الكوبي عامل كوبي في جرينادا، يقول في

حديث «كنت واقفاً بالقرب من القومندان تورتولو وحين نظرت حولي كان قد هرب». ولم يفقد الكوبيون رغم كل شيء روح المرح وسرعان ما انتشرت في هافانا مزحة جميلة تقول: «إذا كنت تريد الوصول أولاً فيجب أن تمتلك حذاء تورتولو».

ورغم المحاولات الأمريكية لتجنب أي قتال مع الكوبيين، فقد وقعت بعض الإشتباكات. وفي النهاية، لقي أربعة وعشرون كوبياً مصرعهم وأصيب تسعة وخمسون.

وفي جريندادا عثر الأمريكيون على آلاف قطع المدفعية والملايين من لفات الذخيرة، وخمس اتفاقيات للمساعدة العسكرية لم تكن معروفة من قبل و «وثائق جريندادا» غير العادية التي كانت في الواقع عبارة عن عدة أطنان من الورق والدفاتر والمذكرات المكتوبة بخط اليد كانت تحتوي على تفاصيل كل العلاقة بين جريندادا والكتلة الشرقية.

كانت جريندادا جزيرة صغيرة غير ذات أهمية، لكن الحقيقة أن العثور على هذه الأوراق يدل على أنها المرة الثانية في التاريخ التي يكشف فيها عن خطط قوية داخلية تعمل للسيطرة على دول بكل دقة (كانت المرة الأولى حين عثرت القوات الالمانية في سمولينسك على وثائق الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية). حين عثر على وثائق جريندادا الخاصة بنظام بيشوب ملقاة بإهمال في الأدراج والمكاتب، تعرضت كرامة كاسترو وتكتّمه لأعين العالم وأنهارت بالكتابات السخيفة والهراء الإيديولوجي السيء الهجاء «لمهرجي الجزيرة» الذين اعتبرهم أبناءه. كانت جريندادا نقطة تحوّل وذلك كما يقول د. فوكوندو ليما، المحلل النفسي الأمريكي الكوبي اللامع، لأنه «بالنسبة لكاسترو كان قبول الهزيمة مستحيلاً، وصورة الذي لا يقهر تحطمت هناك. لم تكن مسألة أنها جزيرة صغيرة ولكن أنه هزم».

كما كشفت وثائق جريندادا عما فعله اجتذاب كاسترو لليسار الأمريكي. أظهرت الأوراق دون أدنى أثر لشك نموذجاً للتعاون الوثيق بين حركة نيوجويل الماركسية ولجنة السود بالكونجرس في واشنطن ـ إلى حد أن رونالد ديللوس عضو الكونجرس الديمقراطي عن ولاية كاليفورنيا وأحد أبرز شخصيات الستينات تقدم بتقرير أعده للجنة الخدمات المسلحة في مجلس النواب إلى نظام بيشوب للحصول على موافقته. أما مسألة أن استطلاعات الرأي للأمريكيين السود في نفس الفترة أظهرت أن ستة من كل عشرة أمريكيين سود أيدوا سياسة ريجان في جريندادا تبرز التناقض بين القمة الإيديولوجية للمجموعات الأمريكية ذات المصالح الخاصة التي عمل كاسترو

على اجتذابها و «جماهير» الشعب من الجرينادييين والأمريكين الذين يفترض أن «قادتهم» يمثلونهم.

وتكشفت هوات جديدة وبدأت أحلام كاسترو تسقط فيها.

كان وجه كاسترو ممسوخاً بشدة في اليوم الذي وقف فيه على مدرج الهبوط في مطار هافانا وهو يحيي الرجال الذين فشلوا وهم يحاربون باسمه في مقاومة العدو الذي وهبه حياته ولو مقاومة رمزية، كانت عيناه تدوران في محجريهما، والوجنات التي كانت تبدو شابة مشدودة وقوية طوال سنوات عديدة بدت الآن مليئة بالتجاعيد. وبينما الرجال يهبطون ببطء من الطائرة، والجرحى يحملون على نقالات، وكلهم أرسلوا إليه مرة أخرى، لا بالنصر، ولكن بحسن أخلاق الجيش الأمريكي، وقف كاسترو بمفرده، وكتفاه المويان يذبلان، لدقائق طويلة، بصامتة أشاعت الخوف في قلب شعبه أكثر مما تفعل شتائمه.

تحرك الرجل الأول الذي هبط من الطائرة بعرج خطير في ساقه، والآخرون هبطوا السلالم على عكازات. كانوا جميعاً في حالة قذارة جسدية، والكثيرون لا يرتدون قمصاناً. وهبط تورتولو الشهير، الذي أصبح مثار سخرية، وهو يرتدي قميصاً رياضياً خفيفاً، وحيّا كاسترو وردّد تلقائياً: «القائد العام... المهمة أنجزت». ووقفت فرقة موسيقية عسكرية تعزف مقطوعات الموسيقى الثورية، وهبطت الميليشيات النسائية في إنهاك واضح إلى مدرج مطار خوسيه مارتى، لكن الرئيس فيدل كاسترو لم ينبس ببنت شفة.

في البداية حاول كاسترو أن يتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. زار الرجال في المستشفيات، حمل لهم الكتب، وتحدّث إليهم. وترددت الإشارة إلى مدى اهتمام القائد العام بجنوده. لكن في النهاية، أنزلت رتب الرجال جميعاً إلى درجات أقل، وقدم تورتولو السيء الحظ، الذي كانت جريمته الوحيدة هي الافتقار المفهوم لروح التضحية، إلى المحاكمة العسكرية وأنزلت رتبته إلى جندي عادي، ونفي إلى أنجولا. وأخيراً في المحاكمة العسكرية كانت المرارة واضحة لدرجة أن راوول كاسترو مزّق الشرائط التي تحمل الرتب وهو ينتزعها من فوق أكتاف الضباط، وهو في حالة غضب شديد. وكان الشعار العسكري لسنة ١٩٨٤، هو «هنا، لا أحد يستسلم».

وأخبرني فلورينتينو أسبيلاجا، ضابط المخابرات الكوبية المنشق: «أترين، في كوبا يتحدثون دائماً عن «عدوان» الولايات المتحدة والمخابرات الأمريكية. هذا

لتحريك الشعب، لتبرير الخسائر الاقتصادية. لكن فيدل كان يعلم أنه لن يكون أي عدوان أمريكي على كوبا ونيكاراجوا. . . لذلك آمن أيضاً بأنه لن يكون ثمة عدوان على جرينادا. لقد سقط في مصيدته الخاصة. لو أنه توقّع غزواً لأرسل آلاف الرجال. لكن قواتنا لم تكن مستعدة لأية مواجهة، ورجالنا في سفارتنا لم يعرفوا بما يحدث مع العسكريين. كان الأمر يشبه وهم يموتون من أجل هتلر. كاسترو أراد أن يموت الشعب الكوبي من أجله، مثل هتلر، ستالين، نابوليون. . . ».

واستطرد أسبيلاجا: «بعد أيام من جرينادا، ألقى كاسترو أخيراً خطبة. أذكر أنه كان يصفق بيديه ببطء، كأنها حركة ذاتية. . . في دوائر المخابرات، كانوا يتحدثون كثيراً عن هذا الأمر، إنه فقد السيطرة على أعصابه، لكنه كان مصدوماً. . . لأن أحداً لم يمت من أجله. ففي الراديو والتليفزيون، ماتوا جميعاً. كل هذه التصريحات عن مصرعهم في سبيل فيدل كانت معدة من أجله. وهؤلاء الرجال الذين لقوا مصرعهم كانوا، كوبيين. . . مقاتلين. . . ». كان كل شيء مكتوباً من أجله، لأنه أعتقد فعلاً أنهم يموتون من أجله. لم يعبأ بالموت، كان يهتم بأن يموتوا في سبيله.

ولا تزال حقيقة غضب كاسترو على هذه العناصر في قضية جرينادا غير معروفة تماماً. هذا الغضب الذي تراوح بين الإحباط والإذلال المميت، مرة أخرى اقتربت حياته إلى حد الخطر من درجة قد تدفعه لمهاجمة الولايات المتحدة. وكما كان الأمر بالنسبة لأزمة الصواريخ، كان كاسترو مستعداً حتى لشن غارة جوية ضد منشأة للطاقة النووية في جنوبي فلوريدا خاصة إذا كانت واشنطن سوف تحاصر كوبا في هذا الخريف.

وذكر الجنرال رفايل ديل بيلو أهم المنشقين الكوبيين، بعد سنوات من الواقعة، أن كاسترو ذهب إلى حد تولي مقاليد قيادته العسكرية العليا، وأمرهم بإعداد الطائرات القتالية للطيران، على الأرجح ضد منشأة /توركاي بوينت/ على بعد ٢٤ ميلاً إلى الجنوب من ميامي. ومرة أخرى أيضاً، يظهر هذا الجانب اللامبالي لأنه، كما يقول ديل بينو، «كاسترو لم يدرك أنه إذا دمّر المصنع، فإنه سيبيد كل الكوبيين في ميامي. . . وسيسقط النشاط الإشعاعي على كوبا كذلك».

وقد ظهر لغز هام هنا. خلال أزمة الصواريخ، كان كاسترو متأكداً أن الولايات المتحدة ستقوم بالغزو ـ ولم تفعل. ولكن في جرينادا، كان قد صار مقتنعاً أن واشنطن لن تقوم بالغزو مطلقاً، لا في أمريكا الوسطى، ولا في الكاريبي ـ وقد غزوهما. لا يمكن للدولتين ـ وللمزاجين ـ أن يفهما بعضهما البعض أبداً.

الجزء الثالث: هو

الفصل السادس والعشرون
هو

«لقد جرؤنا على التحكم في الشمس والقمر لنأتي بيوم جديد... إني ألعن مرور الزمن».

ماوتسي تونج

منذ عام ١٩٨٣ فصاعداً، على الرغم من أن العالم لم يفهم ولا يستطيع أن يفهم، أن كل ما كان بوسع كاسترو أن يفعله هو القتال للحفاظ على مركزه، تدهور الوضع الاقتصادي الكوبي إلى حد عجز الدولة عن إنتاج ما يكفي من السكر للوفاء بحصة روسيا. بل واضطر كاسترو لشراء سكر زهيد الثمن من السوق العالمية، ليعيد بيعه إلى الاتحاد السوفيتي. في ١٩٨٥، حاول كاسترو التعويض بأن يتشبث بمهارة بفكرة ديون العالم الثالث للولايات المتحدة وشبكة البنوك الغربية لإذكاء نيران كفاحه ضد الشمال. وفي ربيع وصيف هذا العام، عقدت في هافانا ما لا يقل عن خمسة مؤتمرات دولية حول «الديون»، التي بلغت في المنطقة رقماً مذهلاً هو ٤٢ مليار دولار. وكانت الوفود التي تصل إلى مطار خوسيه مارتي تجد في استقبالها أطفال المدارس الكوبيين وهم ينشدون: «يجب إلغاء ديون أمريكا اللاتينية والعالم الثالث». لكن الرسالة الأساسية من كاسترو، لم تكن اقتصادية؛ كان ببساطة يعني، مرة أخرى الإستياء التقليدي في أمريكا اللاتينية ضد الولايات المتحدة، مستغلاً أية شكوى، أو عقدة، أو أغنية في متناول اليد.

في نفس هذا العام ١٩٨٥، ازدادت الأمور سوءاً بالنسبة لكاسترو، بعد أن وصل «مجهول» هو ميخائيل جورباتشوف الذي لا يحتمل، إلى السلطة في موسكو. لذلك ففي عام ١٩٨٦، «عام غضب» كاسترو، ردّ الضربات مرات ومرات. فقد ثار ضد

التبذير، ضد سوء الإدارة، ضد المقاولين الأفراد، ضد كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (العنصر الجديد) على حد سواء. وفي المؤتمر العام الثالث للحزب الشيوعي الكوبي في هذا العام، كان مزاجه مريراً وتوقعاته منهارة، ووجهه مسوداً وغاضباً. وفي اجتماع اللجنة المركزية كان يتحدث في إحباط على مدى ساعات، وهو يتحرك جيئة وذهاباً، فيلغي سوقاً حرة هنا، وينهي تجارب مع أسواق المزارع الخاصة وبيع المنازل هناك. وأمام ٣٥٠٠ من مسؤولي الحزب والإدارة، عنف مزارع ثوم يكسب خمسين ألف دولار سنوياً من بيع الثوم لحسابه. وصبّ كل اللعنات والقدح من شخصيته البركانية على رؤوس مسؤولي مؤسسة محلية خاصة في إحدى المدن الكوبية لأنهم اشتروا مخزون فراشي الأسنان كاملاً وأذابوه لتحويله إلى حلى بلاستيكية. هذا ما آل إليه حال الثورة، الصراخ في وجه مزارعي الثوم ومنتجي الحلى البلاستيكية غير المشروعة!.

لا يهم! فقد انتقل الآن إلى «تصحيح» الأمور في كوبا لكي يستطيع مواصلة سياسته التوسعية في الخارج. وكانت «حملة تصحيح الأخطاء» هي ردّه الأول على الجلاسنوت (الانفتاح) والبيريسترويكا (الإصلاحات الهيكلية) اللذين يحاول غورباتشوف تنفيذهما في إطار الشيوعية - أو ربما على حساب الشيوعية. كان المفترض أن يكون البرنامج «الجديد» مثيراً بالنسبة لشعب لم يعرف غير ٢٧ عاماً كاملة من التقشف المؤلم لكي يستطيع رجل واحد تحقيق أحلامه بالعظمة، وهو يستفيد عقده الشخصية. وإذا أرادوا معرفة مستقبلهم، فكل ما عليهم أن يقرأوا كتاباً صغيراً نشره كاسترو عام ١٩٨٥ بعنوان: «على الطريق الصحيح، مجموعة من النصوص».

ومثل الكتاب الأحمر الصغير الذي وضعه ماو، كان كتاب كاسترو يأمر شعبه بالكفاح ضد كل شيء «خاطىء» والنضال أكثر ضد «النظام القديم». وحذرهم بشكل ممل من جديد من أن «هذا الكفاح سيطول». «في النهاية «من الممكن أن نرتكب أخطاء في عملية التصحيح... لكن إذا ارتكبنا أخطاء... يجب علينا أن نتحلى بالشجاعة لتصحيح الأخطاء التي أرتكبناها في هذه العملية أيضاً». ثم أضاف فعلاً (أضاف فعلاً) «نعم يا سيدي!».

في الوقت الذي بدا فيه أنه يجذب زمام السلطة إليه، حدث شيء آخر كشف الكثير من داخليات نفسه للعالم الخارجي. في ٢٨ مايو هرب الجنرال رافيل ديل بينو، نائب قائد القوات الجوية الكوبية وبطل خليج الخنازير، إلى الولايات المتحدة التي حاربها بشراسة سنة ١٩٦١. في ٦ يونيو ١٩٨٧، هرب قائد هام في المخابرات

الكوبية هو الميجور فلورينتينو أسبيلاجا، من السفارة الكوبية في تشيكوسلوفاكيا إلى فيينا، وشرع في كشف كل أسرار جهاز المخابرات الكوبي للغرب. ولم يكتف بذلك بل إن أسبيلاجا دغدغ الرأي العام الأمريكي بمعلومة تقول إنه في عيد ميلاد كاسترو الأخير قدم له عميل كوبي مبلغ ٤,٢ مليون دولار أمريكي حملها العميل الكوبي شخصياً ليضعها في حساب أحد المصارف السويسرية من أجل كاسترو «لتمويل حركات التحرر»، لرشوة الزعماء ولأي «رغبة شخصية لكاسترو». حتى الوسائل السرية التي كان يمول بها الحركات التحررية في كافة أنحاء العالم أصبحت الآن معروفة.

ومثل أي ديكتاتور في سنوات ضياعه، وهو يرى سلطته تضيع منه، جلس كاسترو الآن يحيط به بلاطه الصغير من الحاشية المغالية في النفاق ـ والمتغيرة ـ الذين يمكن التعرّف عليهم من ساعات اليد «الرولكس» وسياراتهم الأجنبية الصنع (هدايا ورموز تفضل كاسترو عليهم) في حين يتحدث العالم بثقة عن الأجهزة الشيوعية الكوبية ـ مكتب سياسي، لجنة مركزية، زعامة جماعية ـ كل ذلك كان قد أصبح سراباً في ذلك الوقت.

كانت كوبا خاضعة الآن لمجموعة وثيقة صغيرة يتزعمها كاسترو هي «مجموعة التنسيق والدعم» أو فقط «الفريق» الذي يضم نحو ١٤ أو ١٥ شخصاً يحومون حوله باستمرار رهن إشارته. كل واحد وواحدة من الفريق يسيطر على وحدة هامة في السلطة، مثل حاشية ملك أو نبيل، وكانوا يبلغونه على انفراد بما يحدث في المصانع والصناعات وفي الطوابير الطويلة المتجهة في الشوارع حيث يهمس الناس باستمرار الآن حول طبقات الحزب المتمتعة بالامتيازات. وكانوا يحرصون تماماً على عدم إبلاغ كاسترو بأي شيء لا يرضيه. وليصل إلى هذه النقطة من كمال الدائرة الداخلية المنظمة كان كاسترو مضطراً للجوء لعمليات تطهير، وإبدال لا تنتهي لكل رفاق سلاحه القدامى و «الموثوق بهم».

إذا كان لكوبا ضابط مثالي حقيقي واحد، فقد كان أرنالدو أوكاوا سانشيز وهو رجل وسيم، من طراز روميل كان يصلح نموذجاً للامتياز والشرف في أي جيش. لقد خدم في سييرا مايسترا مع كاسترو، ودرس في أكاديميتي فرونز وفوروشيلوف العسكريتين الشهيرتين في الاتحاد السوفيتي وكان يتحدث الروسية بطلاقة. وقد خاض الحرب في خليج الخنازير، وفي فنزويلا مع أول مجموعة من رجال حرب العصابات شكلها كاسترو، وفي الكونغو وأنجولا وأثيوبيا ونيكاراجوا، وأصبح في

النهاية القائد الأعلى للقوات في أنجولا: حرب فيدل الخارجية المفضلة. ولكن حين بدأ السوفيت يرغمون كاسترو على إعادة قواته البالغ قوامها ٥٧ ألف جندي من أنجولا إلى الوطن، أصبح أوكوا ليس فقط تهديداً على كاسترو بل التهديد الوحيد. أصبح منزل أوكوا مكان تجمّع قدامى المحاربين المحبطين من مستنقع البيروقراطية واليأس الذي آلت إليه كوبا. وفي العيد الثلاثين للثورة هذا الربيع كان بوسع أي شخص أن يرى الجنود الثائرين وهم يتسكعون في قلق خارج منزل أوكوا، كان السخط والتمرد ملموسين. والسخط شيء لم يكن فيدل يرتضيه أبداً، ولم يضع وقتاً للعمل.

بدأت المأساة، ثم تطورت بسرعة مخيفة في مطلع يونيو ١٩٨٩، حين ألقى راوول كاسترو بخطبة مليئة بالاستطراد والسريالية إلى حد غريب للقوات المسلحة التي يقودها، وكما بدأ كاسترو يفعل مع جماهيره، شرع راوول في تقريع ضباطه، بدلاً من الإشادة بهم أو إلهامهم. وفي توتّر وحدة قال راوول صاحب اللسان اللاذع لضباطه أن عليهم أن يتذكروا أن «فيدل هو والدنا». وأنه إذا كانوا تعساء في كوبا فإنه يستطيع ببساطة أن يرتب أمر حصولهم على تأشيرات دخول «للمجر أو بولندا». وذهب إلى حد أنه في وقت بدأ يهينهم بشدة ويصرخ فيهم، «هل لدينا ديمقراطية هنا؟»، وصرخوا بدورهم كأنهم منومون مغناطيسياً «نعم». فابتسم ابتسامة غريبة وسأل: «هل تقولون ذلك لأني أرغمكم؟» كأن الإذلال الأول لم يكن كافياً. وصرخوا مرددين «لا». ثم نظر إليهم بتعبير الاشمئزاز الشديد وقال: «أنتم تتصرفون مثل تلاميذ المدارس».

وأدت «محاكمة» أوكوا التالية إلى إيقاظ عالم مصدوم رفض من قبل، أن يأخذ على محمل الجد الوسيلة التي يستغل بها كاسترو المحاكم والمحاكمات وأشكال «عدالته» الخاصة، وجلس أوكوا الوسيم الجسور بشعره الأسود المجعد وأنفه المعقوف الطويل، كأنه فاقد الشعور في قاعة المحكمة بزيّه الرمادي الفاتح. كان يبدو كرجل مذهول، أو مخدر، وهو يحملق بخواء في الأرض. وحين اتهمه كاسترو بتجارة المخدرات، لم يستطع أوكوا إلاّ أن يقول في النهاية إنه حتى لو واجه الإعدام «فإن آخر ما سيفكر فيه هو فيدل والثورة العظيمة التي منحها للشعب».

لقد كانت إعادة من جديد لمحاكمات موسكو في أوائل الثلاثينات حين وقف معاونو ستالين المقربون والأبرياء في المحكمة وطلبوا الحكم بإعدامهم. لكن محاكمة أوكوا كانت تحمل مغزى أبعد، لقد كانت محاكمة أخرى من المحاكمات التي يبتدعها كاسترو، منذ مونكادا، وقد غيّرت وبدّلت ثم غيّرت الشرعية مرة أخرى.

وفي عـالم كاسترو البعيد عن الـواقعية الـذي تحوّلت إليه كـوبـا، كـانت المحكمـة العسكـرية التي نـظرت قضية أوكـوا، لا وجود لهـا قانـونـاً. (حـدّد قـانـون المحـاكم العسكـرية، البنـد الخامس، ثـلاث هيئـات قضـائيـة فقط، وتلك المحكمـة لم تكن إحداها). لكن، مـع ذلك، كـانت المحكمة تتكـون أيضاً من أعضـاء لا تتوافـر فيهم شروط الخدمـة، وكانت الشهـادة التي أدانت أوكوا، شهـادته الخـاصة، غيـر مقبولـة قانوناً. وفي النهاية، كان أرنالدو أوكوا، مثل متهمي محاكمة موسكو، مستعداً للموت على أن يعترف أنه عاش حياته في خدمـة فكرة مثـالية وزائفـة ـ وكانت هنـاك بالـطبع مسألة ما إذا كان يرغب في أن يحيا أولاده. . .

وأعدم البطل الثوري الكوبي أرنالدو أوكـوا وثلاثـة من كبار الضبـاط في مواقـع رئيسيـة على يد كتيبـة إعدام فجـر يوم ١٣ يـوليـو ١٩٨٩، بعـد أن وجدوا مذنبين لا بتهريب المخدرات، وهي التهمة الرئيسيـة المزعـومة، ولكن بـالقيام «بعمـل عدائي ضد دول أجنبية» من خلال هذا النشـاط التهريبي. ومن السخـرية أن الـدول الأجنبية الأولى المضادة كانت الولايات المتحدة. وأوضح كاسترو وجهة نظره ـ لن يكون هناك تمرّد ما بعد أنجولا، وفي الحقيقة لا تمرد على الإطـلاق، ضده. كـان قد عمـد إلى توريط رجاله في تجارة المخدرات من أجل سـلامته الخـاصة في أوائـل الثمانينـات، وقد اكتسب بعض المال من هذه العمليات، والآن هذا التكتيك، مثـل كل الأسـاليب الميكيافيلية، أفاده كثيراً.

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فإن الجنرال خوسيه إيراهانتي فرنانديـز وزير الداخلية القوي الذي حلّ محل فالديز وأصبح ثالث الرجال نفوذاً في السياسة الكوبية (بعد فيدل وراوول) أرسل للسجن لمدة عشرين عاماً. ولجأ أوسماني سيانفـويجوس، يد كاسترو اليمنى في إدارة الاقتصاد، إلى سفارة فنزويلا. وفي الوقت نفسه بدأ أتباع عقيدة السنتيريا، يبتعدون عن فيدل ـ فقد كان أحد الرجال الذين أعدموا مع أوكـوا له أخ شقيق، وفي عقيدة السنتيريا، كان إبعاد توأمين نذير شؤم، ما فعله كاسترو بباتيستا من خلال قوة أتبـاع هذه العقيدة يرتد إليه الآن.

في الواقع كان الوضـع أخطر ممـا يبدو، إذ أن محـاكمة أوكـوا وما أحـاطها من مشاعر نفسية كان يمثل على صعيد أوسع نهايـة نظريـة «الفيدليـة العالميـة» التي كان يستغلها بدهاء. كان الأولاد يعودون للوطن، لا منتصرين ولكن في ظـل هزيمـة ثقيلة على ضوء أحلام اتخذت مساراً خـاطئاً، ومعـارك لم تحارب بـالكامـل. كان كـاسترو على مدى سنوات طـويلة قد فـرض بذكـاء واقعاً قـاسياً على الـوطن من أجل أحـلام

المجد البعيدة، والآن انتهى كل شيء وقد فهم جيداً وعرف أن جاذبية شخصيته في الوطن لم تعد قادرة على إخفاء الحقائق الدنيئة الاجتماعية والاقتصادية التي لم تعد تخفيها أمجاد «أنجولا... فيتنام... أثيوبيا». الآن وعلى ضوء إجهادهم المتزايد فإن الجماهير في هافانا، سانتياجو وسيانفويجوس «فهمت» لأول مرة منذ ثلاثة عقود.

ثم بعد خمسة شهور بالضبط، غزت أمريكا بنما وكشف النقاب عن واحدة أخرى من تنظيمات كاسترو العسكرية الموازية أو البديلة المقامة بعناية. وفي نفس يوم الغزو، ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩، تداعت قوات دفاع نورييجا، وظهرت «كتيبة الكرامة» الغامضة التابعة لكاسترو. وقد سيطر هذا «الجيش» الموازي الغامض بأعضائه الذين يخفون وجوههم، على الشوارع بكل عنف. وتحوّل غزو بنما من هجوم عسكري واضح ضد نورييجا إلى قتال ضد جيش جديد غير واضح المعالم كان ينتشر في الشوارع مثل زئبق يتدفق وبهدف تلطيخ الولايات المتحدة بالدم لأطول وقت ممكن لكي تصبح هذه الحرب غير مقبولة شعبياً في الولايات المتحدة ولتعبئة نصف الكرة ضد الأمريكيين.

إلّا أنه على المدى الطويل، لم تفلح الخطة أيضاً، فنورييجا كان أبعد ما يكون عن البطل الذي تمناه كاسترو لمنطقة بنما الحساسة. وأخيراً دخل حزيناً إلى سفارة الفاتيكان في ملابس داخلية حمراء ليتجنب التعويذات السحرية. وفي غضون أيام قليلة كانت «كتيبة كرامة» كاسترو قد اندحرت وفي الثالث من يناير ١٩٩٠ خرج نورييجا من سفارة الفاتيكان مباشرة إلى الأذرع المنتظرة للجيش الأمريكي، تاركاً كاسترو وحيداً أكثر من أي وقت وحتى، في منطقة الكاريبي والعدو الأمريكي فارضاً كامل سيطرته.

مع «فقد» بنما، بقي لكاسترو نيكاراجوا فقط لتكون عزاء له، لكنها لم تكن على الإطلاق تداني الجائزة الاقتصادية التي كانت بنما، لأن الساندينيستا كانوا أكثر عجزاً منه فيما يتعلق بالاقتصاد. (وقد بلغ التضخم ٣٣ ألف في المائة عام ١٩٨٨ في نيكاراجوا). لكن الأهم، أنه لم تكن هناك ضمانات في عهد جورباتشوف (لقد اختارته مجلة ـ تايم ـ الأمريكية في عيد الميلاد عام ١٩٨٩ ليس فقط «رجل العام» ولكن «رجل العقد»). والسوفييت لن يواصلوا مساندة أو حتى تحمّل هذه المستعمرات المشاغبة التي لم تعد تنتمي إليهم ولو بالمنطق المزيف أو الإيديولوجية المتصنعة. بل إن الأمور ازدادت سوءاً لأنه في ذلك العام المضطرب ١٩٨٩، «حررت» أوروبا الشرقية نفسها من السيطرة السوفيتية وعدلت عن الشيوعية تماماً. لقد

ضاعت تماماً أراضي كاسترو فيما وراء البحار إيديولوجياً ومادياً ـ لقد تلاشى خط حياته العسكري الأوروبي الشرقي في غضون شهور قليلة. أين يتجه الآن للحصول على الأسلحة التي كانت تأتي من تشيكوسلوفاكيا؟ والمخابرات وأجهزتها الغامضة التي كانت تأتي من المانيا الشرقية؟ ومن أين يحصل على المساعدة للساندينيستا وللأنجوليين في العالم التي كانت تصل من بلغاريا ورومانيا والاتحاد السوفيتي؟.

ثم جاءت الضربة القاضية: الانتخابات في نيكاراجوا في ٢٥ فبراير ١٩٩٠. لقد وقع الساندينيون في شرك هذه الانتخابات من جراء التدابير الطويلة والملتوية للرئيس الكوستاريكي أوسكار أرياش، و«خطة السلام» في أمريكا الوسطى التي قام بإعدادها. إلّا أن الساندينيين لم يسمحوا بإجراء انتخابات إلّا لثقتهم المطلقة في قدرتهم على السيطرة عليها والفوز بها. وكانت الانتخابات سوف تحسّن صورتهم بين الأوروبيين الذين تحتاج نيكاراجوا بإلحاح إلى أموالهم واستثماراتهم. وفي النهاية سوف تضفي الشرعية على الحكم الساندينى أمام العالم. والحقيقة أنه لم يبد أن هناك أي خطر.

في الأسابيع السابقة على الانتخابات سادت الخلافات صفوف المعارضة حتى نجمعت في النهاية في جبهة واحدة بزعامة سيدة في الستين من عمرها هي فيوليتا شامورو. لم تكن تعتبر تهديداً، كما فشلت المعارضة وتعثرت في كل طريق، لم يكن لدى المعارضة نقود. وكان الساندينيون يسيطرون على التليفزيون وسيارات الحملة والشوارع. وحوّل الرئيس الساندينى دانييل أورتيجا نفسه بسرعة من رجل عسكري بزي وأسارير عسكرية، إلى مرشح رئاسي من نجوم البوب، يرتدي الجينز الضيق، وقد سادت موسيقى الروك حملته. ولاحظ بعض المراقبين عن قرب أن النيكاراجويين كانوا يذهبون إلى الاجتماعات السياسية للساندينيين، لكن لم يتحدثوا فعلاً عن الموضوع بأكمله.

لكن في مساء ذلك الأحد ٢٥ فبراير بات واضحاً أن الشعب النيكاراجوي أضمر غضبه لسوء الإدارة والقمع الذي يمارسه الساندينيون، وحين حانت اللحظة المناسبة، أعربوا عن أنفسهم. فازت فيوليتا شومورو مكتسحة الانتخابات ووقف الساندينيون جانباً مثل مخلوقات تشعر بدوار، لا يفهمون الذي حدث لأحلامهم. أما عن كاسترو، فإن «ابنه الثوري» ذهب الآن، هو أيضاً، وظهر رسم كاريكاتوري أمريكي لكاسترو غاضباً على دانييل أورتيجا اللعين بعد الهزيمة وهو يقول له: «أنت ماذا؟».

وفي الوقت الذي بدأت إمبراطورية كاسترو تغلق من حـوله، أصبح واضحاً أن مزاعمه المبالغة ـ أنه قدم أشياء عظيمة لكوبا في مجالات التفـرقة العنصـرية والتعليم والصحة ـ أبعد مـا تكون عن الصـدق. حقيقي أنه قضى على التفـرقة العنصـرية إلى درجة كبيرة وزاد مساحات المسـاواة أمام ٣٥٪ من السكـان الكوبيين من المخلطين أو السود. كما أشرف على إدخال تحسينات ملموسة في نشر الرعاية الصحية إلى الريف الفقيـر، ممّا أدى إلى تـراجع وفيـات الأطفال وارتفـاع متـوسط العمـر والتعليم. لكن الحقيقة الرهيبة والمريرة بعد كل هذه السنوات من التضحية أنه في حين كوبـا ١٩٥٩ كانت متقدمة على كل دول الكاريبي والعالم الثـالث بما لا يـدع مجالاً للمقـارنة بـل إنها بلغت مرحلة «الإنطلاق» الاقتصادي، كانت كوبا ١٩٩٠ قد تـراجعت إلى ما وراء حتى أكثر دول أمريكـا اللاتينيـة تخلفاً. في ١٩٥٢ جـاءت كوبـا الثالثـة بعد فنـزويلا الثرية بالبترول والأرجنتين الغنية بالأراضي فيما يتعلق بمؤشرات الأوضاع الاجتماعية، وبحلول ١٩٨١، تقـول إحصاءات البنـك الدولي، أن كـوبـا بـالكـاد بلغت المـرتبـة الخامسة عشر.

لقد فشل الاقتصاد الكوبي في ظل كاسترو، باعتماده التام على الكتلة السوفيتية ونجاحها أو فشلها، في التوصّل إلى منتجات وصناعات قادرة على التنافس في الغرب أو في الأسواق العالمية وجلب العملات الصعبـة، وبإقـدام كاستـرو على إنشاء نـظام التخطيط المركزي على نهج ستالين، ووضعه كاملاً تحت إشرافه وإرغامه على تمويل كل نزوة في خططه الخاصة، وأبقاره الخاصة وزواره الخاصين، فإنه أخمد كـل دافع في الإرادة المستقلة التي تتطلبها الدول الحديثة من أجل نجاح اقتصادها. الأسوأ من كـل هذا وبـدافع إستيـاء عميق وغضب عارم، قـام كاستـرو بتحويـل كوبـا بعيداً عن النموذج الحديث الكامل في العالم، الولايـات المتحدة، إلى دولـة قديمـة، شموليـة ومقيدة، وبإيديولوجية حملت كوبا إلى الوراء إلى العصور الوسطى الإسبانية بـدلاً من أن تحملها إلى الأمام، إلى العالم الحديث. ووصف كاتب كوبي الواقع بـأنه «ميـلاد مزيف» آخر لكاسترو. لقد كانت سياسته تقـوم على العقد النفسيـة وليس المصالـح. ولكن الآن لم يعـد هـذا كـافيـاً ـ ولا حتى لـطيفـاً ـ لفيـدل أن يـظهـر على شـاشـات التليفـزيون بسحـره الصبياني حـاملاً كـوبـا من الـزبـادي الجـديـد المصنـوع من لبن الجاموس البري ليقول للشعب الكوبي مباشرة: «إنه رائع، من تذوقوه يقولون إنه جيـد جداً، إن مذاقه يشبه. . . جوز الهند».

وبينما هو يرقب أحلامه تتمزق، فأين أصبح الآن الحالمون الآخـرون؟ لا تزال

ميـرتا الجميلة والهشـة تعيش كما هي منـذ سنوات في شقـة في مـدريـد مـع زوجهـا المحـافظ الذي عـانى كثيراً، وهي تـرى فيدليتـو من حين لآخـر وسـراً في العـواصم الأوروبية وهي تعرف أنها لو «تحدثت» عن فيدل أو حياتها معه فإنها لن ترى ابنها مرة ثانية. وحين يأتي الزوار لرؤيتها في مـدريد ويخـرج زوجها أميليـو من الحجرة، تبـرز خلسة صور أحفادها في كوبا ـ أبناء فيدليتو من زوجته الروسية، كلتا بنتيها من زوجهـا الثاني يساريتان وإحداهما تزوجت من عضـو في الحزب الشيـوعي الإسباني. ويحب الضـاحكون في مـدريد أن يقـولوا، إن زوجهـا الثاني يعيش مـع ثـلاث نسـاء «كلهن تعشقن كاسترو».

أما عن فيدليتو، فهو عاش مجهولاً تقريباً في كوبا، مع زوجته الروسية الشقـراء وأبنائهما الثلاثة، حتى وقـع حادث مـا عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٤ دفـع كاستـرو فجأة إلى السماح لابنه الشرعي الوحيد بالظهور في المجتمع الكوبي. فجـأة ظهر آسم فيـدليتو وصوره في الصحف أحياناً تحت آسم ديازبالارت فجأة، بآعتباره رئيساً لمنظمة نووية كوبية، كان يحضر اجتماعاً علمياً هنا، ولقاءاً علمياً هناك. وتقول مدرسة تفكيـر معينة أن كاسترو يعده هو، وليس راوول، ليخلفه، وهؤلاء المؤيدون للفكرة يخشونه تماماً، ويقولون ان لديه شخصيـة متفجرة، وجهـاز مخابـراته الخـاص، وسلطة وطموحـاً غير عاديين.

ألينـا فرنـانديـز، إبنة نـاتي، أرادت أيضـاً مغـادرة الجـزيـرة، لكنهـا لم تفلح، لـذلك ألهت نفسهـا بالانضمـام إلى مجموعـة من الشبان عـديمي الفائـدة من صفـوة المجتمع، أبناء المسؤولين الهامين في كوبـا مثل السفـراء والجنرالات. لكنهـا ليست من «أبناء الثورة»، وأصدقاء ألينا من أبناء الفيـديو الأمـريكي وموسيقى الـروك والتطلع الدائم إلى العالم الخارجي. فوق كل شيء فإنهم يبحثون دائماً ـ وبأسلوب مسرحي ـ عن «المشاعر القوية». في كل ساعة من اليوم ـ يبحثون عن المشاعـر القويـة ـ كم هو صعب أن تكون واحداً من الأبناء المميزين في كوبا!.

عاش رفاييل دياز بالارت شقيق ميرتا، في رخاء وسعادة في مدريد ناعمـاً بثروة صغيرة حقّقها بطرق عديدة. في حين حاول رامون شقيق فيدل الأكبـر، مراراً الهـرب إلى الولايات المتحدة، لكنه استسلم أخيراً وبدأ في هدوء يدير مزرعة في كوبا.

في حين لا تزال جلوريا جيتان الجميلة الغريبة الأطوار أحيـاناً تعيش في هـدوء في بـوجوتـا مع بنـاتها، تـرعى متحف والدهـا وتفكر كثيـراً في «الأيام الخـوالي» في هافانا. ذات يوم في ١٩٨٨، أمرت فجأة بإخراج جثمان والدهـا من قبره وإعـادة دفنه

في وضع الوقوف، بأسلوب هنود شابشا الكولومبيين، في فناء منزلها الخلفي، لأنها تعتقد أن هذا سيجلب له السعادة. وفي هذا الحين كانت قد فهمت، بحزن، لماذا فقد كاسترو اهتمامه بها: «لقد عاش ألف عام، وأنا كنت قد عشت ثلاثين عاماً فقط».

أما الجميلة إيزابيل كوستوديو فقد أصبحت سيدة مطلقة متوسطة العمر، تكتب في شؤون المرأة وقضاياها في صحيفة /أكسلسيور/ المكسيكية. لقد عادت هي أيضاً، كفراشة أخرى تحوم حول النار، إلى كوبا في الثمانينات وقابلت كاسترو ثانية لأول مرة منذ ١٩٥٦. وتتذكر: «حين رأيته استعدنا لحظات هامه جداً عشناها في مكسيكو».

في كالي، كولومبيا، لا يزال خوسيه باردو لادا الكبير الوسيم يبدأ برنامجه الإذاعي الشعبي اليوم بالأغنية الشهيرة في كوبا التي تركها خلفه «جوانتا ناميرا».

كارلوس فرانكي، الصحفي الكبير، ظلّ يتردد جيئة وذهاباً بين كوبا وأوروبا وصحوته تتزايد في مطلع ومنتصف الستينات وأخيراً غادر كوبا للأبد في عام ١٩٦٨. وظلّ يكتب الكتاب تلو الكتاب ويظهر كثيراً في المؤتمرات، دائماً كان يكتب ويتحدث عن شخص واحد هو صديقه السابق فيدل كاسترو.

حين أطلق كاسترو سراح جورج فالس مدير هيئة المخابرات من السجن أخيراً عام ١٩٨٤، بعد معاملة وحشية غير عادية، أخذه ضباط أمن الدولة في جولة في هافانا لأنهم أرادوه أن يرحل «بإنطباع طيب عن كوبا». وفي حديقة الحيوانات، أوضحوا لفالس المتحير، «نحن نبني حديقة تستطيع فيها الحيوانات أن تجري حرة، والناس قادرة على مشاهدتها من هذه الأوتوبيسات».

أما عن راوول، فقد أختير خليفة لكاسترو، ولكن هذه التسمية كانت هدية عدم توريث، لأن فيدل كان يعي بالفعل أن أحداً لا يجب (ولا يمكن) أن يخلفه، ومحاولة تسمية خلف كانت تعني أن سلطة الزعيم العظيم يمكن نقلها أو الاستيلاء عليها، ولأن الزعيم الكاريزماتي علم أنه لا يمكن، ولا يجب أن يحدث ذلك فالواقع أن المسألة هي: «أنا، ومن بعدي الطوفان». لقد كانت تلك وسيلة لربط الشعب به إلى الأبد. سوف يكرس مع ثبات القبر أنهم لا يستطيعون العيش من دونه. في الوقت نفسه، فإن حياة راوول، التي كانت حياة مفتوحة، أصبحت الآن تقريباً مغلقة مثل حياة شقيقه. كان الكوبيون يستطيعون وهم يمرون بسياراتهم الإشارة إلى «شقة

راوول وفيلما»، معتمدين أنهم يعرفانهما أيضاً. ما لا يعرفونه أنه رغم ظهور فيلما دائماً مع راوول علناً، فإنهما انفصلا بالطلاق منذ بعض الوقت، وراوول لديه زوجة جديدة، لا يشاهدها، ولا يعرفها أحد مثل نساء كاسترو.

*** *** ***

في ذات الوقت، استمر العالم في تعريف فيدل كاسترو الغامض بوسائل خيالية ولا تحصى: لقد كان نابوليون العالم الثالث، رئيس أول نظام فاشي يساري في التاريخ، زعيم مريض نفسياً، زعيم اشتراكي، المسيح على الأرض، قائد عجوز، الحارس المنفرد، بائع متجول اشتراكي، ديكتاتور، أمير، ثوري، ديمقراطي خائب الأمل، شيوعي، أمير ميكيافيللي، رجل حرب العصابات التقليدي لفرانشيسكو فرانكو، أسقف محاكم التفتيش الإسبانية بروتس الكاريبي، ممثل من نوع جديد على مسرح العالم، شيوعي حاكم، بابا العالم الثالث، نموذج العالم الثالث الجديد، إنتهازي كلاسيكي ملعون. . .

لكن بقدر ما كذب وحرّف الحقيقة، كانت هناك أوقات صدق تام كشفت أخيراً عن مكنون الرجل وحقيقته. حين اقترح دان راذر المعلق التليفزيوني عام ١٩٨٥، أن كاسترو جعل كوبا «واحدة من أكثر الدول المعتمدة على غيرها في العالم»، ابتسم كاسترو بفهم وقال: «إني اتفق معك، لكن على العكس، لأننا أكثر دولة مستقلة في العالم» لماذا؟ «لأننا لا نعتمد، على الإطلاق، على الولايات المتحدة». حين تحدثت معه ماريا شيريفر مذيعة محطة /ان. بي. سي. / سنة ١٩٨٨، كرّر هذا الكلام. وقال لها: «نحن اليسار، مع شرف أن نكون أحد القلائل المناهضين للولايات المتحدة». وسألت إذا كان ذلك شرفاً فعلاً. فأجاب: «بالطبع هو شرف، لأن نجاح دولة صغيرة مثل كوبا في جعل دولة عملاقة كالولايات المتحدة تحيا وهي مهتمة بها كل هذا الاهتمام ـ دولة لم تعد تعتبر نفسها عدوا للاتحاد السوفيتي أو للصين، ومع ذلك لا تزال ترى نفسها عدوة لكوبا ـ إنه شرف لنا». وحين سألته باربارا والترز عن فكرة أنه «لقد دفعناك إلى الشيوعية» قال ببساطة وصراحة: «لم يدفعني أي شخص إلى أي مكان». في كل هذه اللحظات كان يركّز على العدو الوحيد والمتفرد والضروري في حياته: الولايات المتحدة الأمريكية و«أمركة» الروح الكوبية.

لأن فيدل كاسترو عاش حياته كلها وقد تسلطت عليه تماماً الولايات المتحدة، ولو أن بمقدوره تدميرها لفعل. وبقدر ما كان يستطيع تحييد قواها، في كوبا

وخارجها، فعل. ويرجع هذا التسلّط من جانب إلى المقت الكاثوليكي الإسباني القديم للروح البروتستانتية في الشمال، لقد كانت تلك الكراهية تسري في دماء أنجل كاسترو، الذي حارب ضد الأمريكيين مع إسبانيا الأم، وقد انتقلت إلى دماء أبرز أبنائه. لكن هذا الاهتمام المبالغ فيه يعود أيضاً إلى أن كوبا الجميلةكانت نصف منتهية، غير مكتملة. شعب يائس، شعب لم يكتمل، شعب يحتاج بشدة إلى تعزيز مجتمعه، شعب أصبح مدعماً في شخص واحد، فيدل كاسترو. لقد منحهم إحساساً بالكمال، الإحساس بشمولية حب عظيم. لقد منحهم ثقافته الخاصة. لذلك أبعد الطبقة المتوسطة المسيحية وذات الميول الغربية في كوبا بعيداً عن الوطن، ولذلك أرسل العذارى الصغيرات الضعيفات للعمل في الحقول، وبالتالي زرع دمار الأسرة الكوبية التقليدية، ولذلك أيضاً هشم التماثيل القديمة ودمر مكتبة رولاندو أمادور. لقد كان السبيل الوحيد لكي يسوي حساباته القديمة مع الولايات المتحدة. لأنه في اللحظة التاريخية التي ضعفت فيها كوبا، تسلّلت أمريكا إلى روحها. لذلك اضطر لإغلاق كوبا، ليس لأن الأمريكيين أداروا ظهورهم له، ولكن لكي يتجنب أحاسيس النقص المؤلمة، لكي لا يضطر إلى التنافس مع ثقافة كانت غير محتملة بالضبط لأن الشعب الكوبي يريدها. كما خلد كاسترو كوبا جديدة ـ بديلة ـ وكما يوضح الطبيب النفسي فاكوندو ليما أنه خلق «تمييزا» مع المعتدي، (والده أساساً، وأيضاً باتيستا والجيزويت). لقد كان والده يمتلك مساحات أرض كبيرة، أصبح فيدل بتعمد مالك كوبا. كان لأنجل كاسترو عدداً من الأبناء غير الشرعيين: كان لدى كاسترو عدداً أكبر من الأطفال غير الشرعيين. كان لوالده «أسرة مقسمة»، واحدة شرعية والأخرى أبناء سفاح: فقسم كاسترو الأسرة الكوبية، فمن جهة هناك الثوريون (الأسرة الشرعية) ومن جهة أخرى مناهضو الثورة (أبناء السفاح). الماركسية حوّلها إلى نوع جديد من الإيمان المسيحي وكان «الرجال الجدد» لهذا الإيمان سوف يلغون كل تاريخ ماضيه غير الشرعي.

لكن في الأساس، كان كاسترو مدمراً دائماً، يصعب تقدير عدد الأشخاص الذين لقوا حتفهم بسببه. كان نفوذه وسلطته عديمي الشكل إلى حد بعيد، ولكن في الوقت نفسه حاسمين، لكن حين يكشف المرء عن نفوذه في دول مثل أنجولا، موزمبيق، نيكاراجوا، السلفادور وأحياناً أماكن بعيدة ومنسية مثل زنجبار (ناهيك عن الكوبيين أنفسهم الذين قتلوا وأكثر من مليون كوبي نُفيوا بسببه)، فإنه يصل إلى نتيجة مفادها أنه مسؤول شخصياً عن وفاة مئات الآلاف من الأشخاص.

لكنه لا يزال يقتل الكثيرين، إنه مسؤول تماماً عن تحويل مواقف متأزمة إلى

صراعات لا نهاية لهـا. دون تورطـه، كانت هـذه النزاعـات ستنتهي بسرعـة أكبر بكثيـر، وبحسم أشد وبقدر أقل من المعاناة. في النهاية قتل فيـدل الثقافـة كذلـك، قتل كـل قيمة إنسانية، قتل كوبا التي كان بوسعها، بمفردها وفي ظل إصلاح حقيقي، أن تتطور إلى دولة متقدمـة يسودهـا العدل بقـدر كاف، في الـوقت الذي حكم لتـدميرهـا. في النهاية، ترك فقط الصمت، الخوف، الكراهية، التسلّط والإرهاق.

لكن أحياناً تحدث أمور غريبة. فعلى الـرغم من حقيقة أن الـولايات المتحـدة فشلت تقريباً في كل مواجهـة دبلوماسيـة، سياسيـة، وعسكريـة مع فيـدل، فإنهـا في النهاية «انتصرت» في النضال الطويل. لقد فازت في ذات المنطقة التي حاول كاسترو يائساً السيطرة عليها، لكن لم يستطع: الثقافة، الثقافة الأمريكيـة لا يمكن هزيمتهـا، لأنهـا ثقافـة التحديث والمستقبـل، الواقـع أنه في النهـاية كـانت السخريـة والمهـانـة الحقيقية أنه في تـدميره لكـل أساس أخـلاقي تقليدي للمجتمـع الكوبي، أصبـح هو نفسه الطاغيـة. وفي رغبته في عـدم التحرّر من «الـطاغية الخارجي» (وبذلـك تحريـر نفسه) لكن أن يكون فعلاً «الطاغية» (وبالتالي يندمج به)، فإنه في النهـاية أصبـح ما يراه هو في الأمريكيين، ولذلك لم يصبح مطلقاً مؤسساً لبلده، كما كان عدوه القـديم رومولو بيتانكور في فنزويلا، لكن فقط مدينة منافسة «لأمريكا» و«الاتجاه نحو الـطابع الأمريكي» في العالم.

وبمضي العام الأول من العقد الجديد، ازدادت ثورة كاسترو، وازداد إحساسـه بالاضطهاد، مع تزايد عزلته وانعزاله وأصدقاؤه يتساقطون حوله. سوف «تغرق» هافانـا في البحر. سيعود الشعب الكوبي إلى الجبال وسيتم تشغيل المصانـع بالخشب وليس البتـرول. وازدادت خطبـه تشاؤمـاً وتحذيـراً من نهايـة العالم. لقـد انغلق على ذاته، كذئب يطارد نفسه تحت أقمار لم يعد قادراً على سبر أغوارهـا. بل إنـه أوجد بـالفعل «مناطق تجريبية» حيث يستطيع الكوبيون الذين يتـوقعون الهجـوم الأمريكي النهـائي، اللجـوء إلى الريف والعيش بعيـداً عن الأرض. في سان كـريستوبـال، أقـام مـزرعـة المـانجو حيث تحـل الأدوات القديمـة محل الجـرارات المعطلة، والحيـاكة اليـدوية الصنع محل الخياطة الآلية وتربية الفئران الجبلية لتعويض اللحم حين ينفد الطعام.
لا مـزيد من الأحـلام عن الأبقار، لقـد انحدرت أحـلام الثورة حتى الفئـران! الشيء الوحيد الذي لم يفقده كاسترو هو إحساسه الساخر بالرمز: سان كريستـوبال هي نفس المنطقة التي أقيمت بها صواريخ ١٩٦٢.

لقد كان ينهي أيامه في هزيمة تختلف تماماً عن قمم الجبال التي وصلها، وهو

من يختفي في هدوء في قلب الليل، وإذا لم تأته المنية طبيعياً، فإنه سينتهي في جوترداميرونج (حيث انتحر هتلر). في المستقبل ضربة مرعبة في الانتظار ـ هجوم على الولايات المتحدة، انتحار جماعي، حرب مريرة بين العسكريين من الأجيال المختلفة، شيء يساوي عظمة ومأساة فيدل كاسترو. في الوقت نفسه، في ميامي، عاد الكوبيون من المنفى إلى ماضيهم ـ لقد تمّ تنظيمهم، ونعبئتهم، وبدأ التخطيط والتدريب والحلم بالعودة إلى كوبا، باستعادة أراضيهم، بإصلاح «عظمة» كوبا الماضية التي بدأت تختفي . . .

في البداية، دعاه الشعب الكوبي «فيدل» ـ وبعادة، وإحساس بالخلاص، وبحب مثل امرأة إسبانية مع حبيبها قبل الزواج. بعد روعة النصر، كما بعد الزواج، بدأوا على الفور ينادونه «كاسترو» في رزانة واحترام وخوف. في النهاية ينادونه «هو» فقط، لأنه أصبح أخيراً مخلوقاً مختلفاً متواجداً بعيداً عنهم. أصبح هذه الشمس الشديدة الحرارة التي تحرق من يقترب منها.

لقد فهموا، وفهم هو أخيراً، في كلمات سان مارك (القديس مرقص) أنه «عرف أن هذه الفضيلة ضاعت منه». لهذا يستطيعون الآن أن يردّدوا «هذا الرجل مجنون» ويمكنهم أن يبدأوا ـ فقط يبدأوا ـ في الحلم بوقت يستطيعون فيه الانفصال بأنفسهم عنه.

وهكذا، كما قضى ميخائيل جورباتشوف على شيوعية عالمه الخاص، فيدل كاسترو انتهى إلى الوقوف بمفرده «كآخر الشيوعيين». إنه يتمسك بعناد بالحكم العسكري، في الوقت الذي يحوّل فيه العالم بأكمله نفسه بأسم الحريات الفردية. في الحقيقة إنه بشخصيته التي تتسم بجنون العظمة وبالفخر الذي يتملكه، كان دائماً آخر شيوعي على وجه البسيطة.

لكن الحقائق أشباح خادعة، وغالباً ما تغيّر لونها مع أنوار التاريخ الساقطة بزوايا هندسية أو موسمية، وهكذا في النهاية اتضح أنه فعلاً «شيوعي» ما كان دائماً. حقيقة ـ آخر الشيوعيين.

لا معك، ولا بدونك
تجد أحزاني نهاية
معك، لأنك تقتلني
بدونك، لأني أموت

(أغنية قديمة يتغنّى بها الغجر بلا عنوان، وكانت دائماً
شعبية في كوبا قبل زمن من مجيء فيدل كاسترو)

المصادر

CHAPTER 1. THE THIRTIETH YEAR

Books, brochures, papers, and documents. Jiri Valenta, "Perspectives on Soviet Cuban Relations," paper, 1-10-89, The Cuban American National Foundation, Washington, D.C., Maurice Halperin, "Summary Outline of Perspectives on the Cuban Revolution Post Revolution," paper, 7-29-85, Regis Debray, , *Revolución en la Revolución*', video of interviews of two hundred Cuban youths, prepared by the Directorate Nacional de Policia, para el Comite Central del Partido Comunista de Cuba, 1986, Guillermo Cabrera Infante, "Suicide in Cuba," paper; Rigoberto Milan, *Farsa y Farsantes*, Juan Arcocha, *Fidel Castro*, Luis Conte Aguero, *Fidel Castro. Psiquiatria y Politica*. "Chronology of Cuba's Ties to Panama's General Manuel Noriega," paper, The Cuban American National Foundation, Rafael del Pino, "General del Pino Speaks," booklet, Ernesto Betancourt, *Revolutionary Strategy: A Handbook for Practitioners*

Magazine and newspaper articles. *The Atlantic*, "Havana's Military Machine," by John Hoyt Williams, August 1988, *Strategic Review*, "The Cuban Military Under Castro," reviewed by Douglas W. Payne, *El Alcázar*, Madrid, Spain, "La Habana Tal Como Era," by Emilio Garcia Meras, 12/14/86; *New York Times*, "On Castro's Ship of State, Is the Ideology Leaking?" by Joseph B. Treaster, 2/7/89; *Wall Street Journal*, "A Visit with Fidel," by Arthur Schlesinger, Jr., 6/7/85; *Time* magazine, "No Cigar," 1/9/89; *Foreign Affairs*, article on Mikhail Gorbachev, by Richard Nixon, 1/9/89, *Harper's* magazine, "Debray: Beyond the Soviet Threat," vol. 272, no. 1631 (April 1986), *Washington Post*, "Restless Cuban Youth Disdaining Revolution," by Julia Preston, 1/16/89, *The World & I*, "Castro: El Supremo," by Dolores Moyano Martin, April 1987.

Original interviews and oral histories. Fidel Castro, July and August 1966, Havana, Banao, and Pico Turquino, Cuba, Robert Francis Jordan, 4/13/87, Manila,

Philippines; Emilio García Meras, 12/13/86, Madrid, Spain; Teddy Cordoba-Claure, 7/18/86, Caracas, Venezuela; Brian Latell, 11/18/87, Washington, D.C.; Miguel Antonio Bernal, 12/25/89, Washington, D.C.; Roberto Eisenmann, 12/25/89, Washington, D.C.; Gilberto Arias, 1/30/90, Panama City, Panama; Ricardo Arias Calderón, 3/1/90, Panama City, Panama; Major Steve Slade, 2/3/90, Vulcan, Panama; Régis Debray, March 1968, Camiri, Bolivia; José Luis Llovio, 8/9/87, New York; Waldo Balart, 10/26/85, Madrid, Spain; Rafael Díaz-Balart, 11/9/85, Madrid, Spain; Isabel Custodio, 1987, Mexico City, Mexico; Antonio Valle Vallejo, 7/12/88, Washington, D.C.; Gloria Gaitán, 7/11/86, Bogotá, Colombia; Vicente Echerri, 11/25/86, New York; Juan Arcocha, 7/9/86, Paris, France; Ambika Soni, 3/17/86, New Delhi, India; Francisco "Pepe" Hernández, 3/22/86, Miami, Florida; Edmundo Flores, 2/12/86, Mexico City, Mexico.

CHAPTER 2: GNARLED ROOTS

Cuban history was culled from: Hugh Thomas, *Cuba;* Jaime Suchlicki, "The Intellectual Background of the Cuban Revolution," *Annals of the Southeastern Conference on Latin American Studies,* volume III, no. 1 (March 1972); Justo Carrillo, "Vision and Revision: U.S.-Cuban Relations, 1902 to 1959," paper; Carlos Alberto Montaner, "The Roots of Anti-Americanism in Cuba," *Caribbean Review,* vol. XIII, no. 2 (Spring 1984); W. Raymond Duncan, "Nationalism in Cuban Politics," in Suchlicki, *Cuba, Castro and Revolution;* Samuel Farber, *Revolution and Reaction in Cuba, 1933 to 1960;* Hubert Herring, *Latin America;* Rafael Fermoselle, *The Evolution of the Cuban Military: 1492–1986;* and Tad Szulc original interview with Antonio Núñez Jiménez, 4/4/85, Havana, Cuba.

Materials on José Martí were taken from: Richard Butler Gray, *José Martí, Cuban Patriot;* Jorge Mañach, *Martí: Apostle of Freedom;* Ramon Eduardo Ruiz, *Cuba: The Making of a Revolution;* Robert Freeman Smith, *Background to Revolution,* essay by William Rex Crawford, "The Development of Cuban Thought"; Carlos Ripoll, *José Martí;* and Carlos Alberto Montaner, *Cuba, Castro and the Caribbean.*

Books, brochures, papers, dramatizations, and documents: Rosalía de Castro, *En Las Orillas del Sar;* Carlos Franqui, *Vida, aventuras y desastres de un hombre llamado Castro;* Alvaro Cunqueiro, *Ver Galicia;* V. S. Pritchett, *The Spanish Temper;* Fidel Castro/ Frei Betto, *Fidel e a Religião, Conversas com Frei Betto;* Carlos Franqui, *Family Portrait with Fidel;* Guillermo Cabrera Infante, *Suicide in Cuba;* Peter Ustinov, public television series, *Russia,* 1/18/88.

Magazine article: *World & I,* "Castro: El Supremo, In Castro Latin American Virtues are Embodied, and Perverted," by Dolores Mayano Martin, April 1987.

Original interviews and oral histories: Salustiano Castro, 8/25/85, Lugo, Galicia, Spain; Rafael Díaz-Balart, 12/14/84, Madrid, Spain; Enrique Trueba, 12/13/84, Madrid, Spain; Dr. Marcelino Feal, 7/25/84, Miami, Florida; Don Hodgkins, 3/26/86, Daytona Beach, Florida; Waldo Balart, 10/26/85, Madrid, Spain; Sandra Hodgkins Francis, 4/24/86, London, England; Barbara Gordon, 4/8/85, Washington, D.C.;

José "Pepe" Figueres, 5/27/85, San José, Costa Rica; Luis Ortega, 3/3/87, Miami, Florida; Raymundo Masferrer, 1/25/90, Washington, D.C.

CHAPTER 3: PRAYING TO WIN

Books, brochures, papers, and documents: Luis E. Aguilar, *Cuba 1933;* José Pardo Llada, *Fidel de los Jesuitas al Moncada;* Carlos Franqui, *Diary of the Cuban Revolution;* Fidel Castro/Frei Betto, *Fidel e a Religião: Conversas com Frei Betto;* Samuel Farber, *Revolution and Reaction in Cuba, 1933-1960;* Justo Carrillo, "Vision and Revision: U.S. Cuban Relations, 1902 to 1959," paper; Emil Lederer, *State of the Masses,* Jeffrey W. Barrett, *Impulse to Revolution in Latin America; C. J. Jung Speaking, Interviews and Encounters,* interview by H. R. Knickerbocker; Emil Ludwig, *Talks with Mussolini,* Raymond Carr, *Spain,* Belén Yearbook, supplied by Father Juan Manuel Dorta Duque, Miami, Florida

Magazine articles: *Caribbean Review,* "The Roots of Anti-Americanism in Cuba," vol. XIII, no. 2 (Spring 1984); *Newsweek,* Perspectives column, 11/16/87, from State Department files and originally published in *American Archivist Magazine; World Politics,* "The Dictator and Totalitarianism," by Robert C. Tucker, vol. XVII no. 4 (July 1965).

Original interviews and oral histories: Pepín and Manolo Rodriguez, 1/22/85, Miami, Florida; Carlos Alberto Montaner, 12/13/84, Madrid, Spain; Dr. Rubén Darío Rumbaut, 2/27/85, Houston, Texas; original Tad Szulc interview with Max Lesnick, University of Miami Archives; Luis E. Aguilar, 2/27/85, Washington, D.C.; Father Armando Llorente, 1/22/85, Miami, Florida; José Ignacio Rasco, 1/11/85, Coral Gables, Florida; Ramón Mestre, Sr., 1/25/85, Miami, Florida; Emilio Caballero, 3/20/86, Miami, Florida; Enrique Trueba, 10/28/85, Madrid, Spain; Otilio "Capi" Campuzano, 3/25/86, Miami, Florida; Jack Skelly, 9/29/84, 10/4/84, and 11/28/84, Washington, D.C.; Dr. Marcelino Feal, 1/24/85, Miami, Florida; Antonio Navarro, 4/25/85, New York.

CHAPTER 4: THE UNIVERSITY YEARS — "YOU AND I"

Books, brochures, papers, and documents: Hugh Thomas, *Cuba;* Jaime Suchlicki, *Cuba, Castro, and Revolution, From Columbus to Castro,* and *University Students and Revolution in Cuba, 1920-1968;* José Pardo Llada, *Fidel de los Jesuitas al Moncada;* Juan Arcocha, *Fidel Castro;* Herbert Matthews, *Fidel Castro;* Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel.*

Newspaper article: *Revolución,* Fidel Castro speech of 4/10/61, Havana, Cuba.

Original interviews and oral histories: Luis E. Aguilar, 2/27/85, Washington, D.C.; Bernardo Viera, 7/22/86, Caracas, Venezuela; Rafael Díaz-Balart, 12/14/84, Madrid, Spain; Alfredo "Chino" Esquivel, 4/28/85, New York; Dr. Mariano Sorí Marín, 9/25/85, Lexington, Kentucky; Dr. Herminio Portell Vilá, 3/22/86, Miami, Florida; Tad Szulc original interviews with Alfredo Guevara, 1/26/85, Havana.

Cuba, and Max Lesnick, 8/10/84, Miami, Florida; Antonio Varona, 1/21/85, Miami, Florida.

CHAPTER 5: REDEMPTIVE VIOLENCE

Books, brochures, papers, and documents: Samuel Farber, *Revolution and Reaction in Cuba, 1933–1960;* Herbert Matthews, *Fidel Castro;* Gerardo Rodríguez Morejón, *Fidel Castro, Biografía;* Lionel Martin, *The Young Fidel;* Rolando Bonachea and Nelson Valdés, *Revolutionary Struggle 1947–1958;* Jaime Suchlicki, *University Students and Revolution in Cuba, Cuba from Columbus to Castro,* and *The Intellectual Life of Cuba;* Nathaniel Weyl, *Red Star Over Cuba;* Theodore Draper, *Castroism, Theory and Practice;* Fidel Castro/Frei Betto, *Fidel e a Religião, Conversas com Frei Betto;* Ramón Bonachea and Marta San Martín, *The Cuban Insurrection 1952–1959;* Luis E. Aguilar, *Cuba 1933;* Guillermo Cabrera Infante, paper, "Suicide in Cuba"; José Pardo Llada, *Fidel de los Jesuitas al Moncada;* Juan Bosch, "Cuba: La isla fascinante": "La Lucha Contra Trujillo," a seminar organized in the Dominican Republic at the National Library, 6/6/1981, among the Cayo Confités survivors, published in *Política: Teoría y Acción,* vol. 4, no. 44 (November 1983): and Teresa Casuso, *Cuba and Castro.*

Original interviews and oral histories: Rafael Díaz-Balart, 12/14/84, Madrid, Spain; José Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia; Dr. Santiago Touriño, 1/26/85, Miami, Florida; Juan Bosch, 7/24/86, Santo Domingo, Dominican Republic; Carlos Zayas, 3/4/87, Miami, Florida; Vicente Baez, 5/15/85, San Juan, Puerto Rico; Dr. Richard Ferrer, 1/22/85, Miami, Florida; Alfredo "Chino" Esquivel, 11/23/86, New York; José de Jesus Ginjaume, 7/18/86, Caracas, Venezuela; and original Tad Szulc interviews with Alfredo Guevara, 1/26/85, Havana, Cuba, and Max Lesnick, 8/10/84, Miami, Florida, from the University of Miami Archives.

CHAPTER 6: A PARENTHESIS

Books, brochures, papers, and documents: Carlos Franqui, *Vida, aventuras y desastres de un hombre llamado Castro;* Tad Szulc, *Fidel: A Critical Portrait;* José Pardo Llada, *Fidel de los Jesuitas al Moncada;* Gerardo Rodríguez Morejón, *Fidel Castro, Biografía;* H. R. Knickerbocker, *C. G. Jung Speaking, Interviews and Encounters,* interview of C. G. Jung.

Magazine article: *Human Behavior,* "Analyzing Fidel," by Gene Vier, July 1975.

Original interviews and oral histories: Emilio Caballero, 3/20/86, Miami, Florida; Tad Szulc original interview with Max Lesnick, 8/10/84, Miami, Florida; Waldo Balart, 10/26/85, Madrid, Spain; Rina Garcia, 1/24/85, Miami, Florida; Barbara Gordon, 4/8/85, Washington, D.C.; Jack Skelly, 9/29/84, Arlington, Virginia; Rafael Díaz-Balart, 12/14/84 and 11/9/85, Madrid, Spain; Rolando Amador, 3/20/86, Miami, Florida; Marjorie Lord, 1/9/85, Fort Lauderdale, Florida; Alfredo "Chino" Esquivel, 4/28/85, New York; José Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia;

Jorge Valls, 7/4/86, Washington, D.C.; Dr. Marcelino Feal, 7/25/84, Miami, Florida.

CHAPTER 7: THE *BOGOTAZO*

Books, brochures, papers, and documents: General history of Colombia and the *Bogotazo* was taken from: Hugh Thomas, *Cuba;* Hubert Herring, *A History of Latin America;* Jaime Suchlicki, *Cuba from Columbus to Castro;* Carlos Franqui, *Vida, aventuras y desastres de un hombre llamado Castro* and *Diary of the Cuban Revolution;* Arturo Alape, *El Bogotazo, Memorias del Olvido;* Jules Dubois, *Freedom Is My Beat;* Lionel Martin, *The Early Fidel;* and Robert Alexander, *Communism in Latin America.*

Magazine and newspaper articles: *El Espectador* Bogotá, Colombia, "Que hizo Castro en 1948 en Colombia?" by Carlos Reyes Posada, 12/12/61; *Bohemia*, Havana, Cuba, "Fidel Castro en el Bogotazo (April 1948)," by Mario Mencía, April 1978; *La República*, Bogotá, Colombia, "El primer plan comunista en América," 4/10/61; *El Nuevo Herald*, Miami, Florida, "El Bogotazo, Castro: agente del peronismo," by Santiago Tourino and Enrique Ovares Herrera, 4/9/88.

Original interviews and oral histories: Enrique Santos Calderón, 7/11/86, Bogotá, Colombia; Guillermo B. Belt, 3/2/85, Bethesda, Maryland; Gloria Gaitán, tape prepared for the author, July 1986, and interview, 7/11/86, Bogotá, Colombia; Roy Rubottom, 5/12 13/86, Dallas, Texas; General Alvaro Valencia Tovar, 7/8/86, Bogotá, Colombia; Carlos Lleras Restrepo, 7/11/86, Bogotá, Colombia; Enrique Ovares and Fernando Hurtado, 3/10/87, Miami, Florida

CHAPTER 8: SUICIDE BY MICROPHONE

Books, brochures, papers, and documents: General information on the life and suicide of Eduardo "Eddy" Chibás and on the period of Fidel's electoral campaign was taken from: Jaime Suchlicki, *The Intellectual Background of the Cuban Revolution;* José Pardo Llada, *Fidel de los Jesuitas al Moncada;* José Duarte Oropesa, *Historiología Cubana*, Lionel Martin, *The Early Fidel;* Guillermo Cabrera Infante, *Suicide in Cuba;* Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel;* Warren Hinckle and William W. Turner, *The Fish Is Red: The Story of the Secret War Against Castro.*

Original interviews and oral histories: Manuel Marquéz Sterling, 3/14/87, Miami, Florida; José Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia; Alfredo "Chino" Esquivel, 11/23/86, New York; Waldo Balart, 10/26/85, Madrid, Spain; Rolando Amador, 3/20/86, Miami, Florida; Tad Szulc, original interview with Max Lesnick, 8/10/84, Miami, Florida, and with Conchita Fernández, 4/24/85, Havana, Cuba, from the University of Miami Archives; Salvador Lew, 3/4/87, Miami, Florida

CHAPTER 9: THE MOVEMENT

Books, brochures, papers, and documents: Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel;* Hugh Thomas, *Cuba;* Samuel Farber, *Revolution and Reaction in Cuba,*

1933–1960; Ruby Hart Phillips, *The Cuban Dilemma;* José Pardo Llada, *Fidel de los Jesuitas al Moncada;* Herbert Matthews, *Revolution in Cuba;* Tad Szulc, *Fidel: A Critical Portrait;* Robert Merle, *Moncada, premier combat de Fidel Castro;* Eric Hoffer, *The True Believer;* Ramón Bonachea and Marta San Martín, *The Cuban Insurrection, 1952–1959;* Lionel Martin, *The Early Fidel;* Max Weber, *On Charisma and Institution Building;* Jerrold M. Post, *Narcissism and the Charismatic Leader-Follower Relationship;* Rafael Moses, "The Leader and the Led: A Dyadic Relationship," paper; and Marta Rojas, "La manifestación de las antorchas y el desfile del 28 de Enero de 1953 (Enero, 1953)."

Magazine and newspaper articles: *Verde Olivo,* "Siempre supimos que el asalto al Moncada culminaría en la victoria," by Melba Hernández, 7/28/63, Havana, Cuba. Original interviews and oral histories: Rafael Díaz-Balart, 12/14/84, Madrid, Spain; María Camella, 7/19/85, Madrid, Spain; Carlos Bustillo, 4/27/85, New York; Ramón Mestre, Sr., 1/25/86, Miami, Florida; Herminio Portell Vilá, 3/22/86, Miami, Florida; and Tad Szulc, original interviews with Max Lesnick, 8/10/84, Miami, Florida, Melba Hernández, 5/2/85, Havana, Cuba, Pedro Miret, 4/29/85, Havana, Cuba, Ramiro Valdés Menéndez, 6/5/85, Havana, Cuba, all from the University of Miami Archives; Martha Frayde, 7/20/85, Madrid, Spain.

CHAPTER 10: MONCADA

Reconstruction of the Moncada attack was drawn from: Luis Conte Agüero, *Dos Rostros de Fidel;* Fred Judson, *Cuba and Revolutionary Myth;* Herbert Matthews, *Revolution in Cuba;* Hugh Thomas, *Cuba;* Ramón Bonachea and Marta San Martín, *The Cuban Insurrection 1952–1959;* Robert Taber, *M-26, Biography of a Revolution;* José Pardo Llada, *Fidel de los Jesuitas al Moncada;* Haydée Santamaría, *Moncada;* Carlos Franqui, *Diary of the Cuban Revolution;* Marta Rojas, *La Generación del Centenario en el Juicio del Moncada;* Enrique Meneses, *Fidel Castro;* Jules Dubois, *Fidel Castro, Rebel, Liberator or Dictator?;* Fidel Castro, "La estrategia del Moncada," Casa de las Américas, Havana, July–August 1978; Robert Merle, *Moncada;* Ernesto Cardenal, *In Cuba;* James H. Billington, *Fire in the Minds of Men, Origins of the Revolutionary Faith;* Guillermo Cabrera Infante, *Suicide in Cuba;* Ward M. Morton, *Castro as Charismatic Hero;* and Edward González, *Cuba under Castro: Limits of Charisma.*

Magazine and newspaper articles: *Granma,* "Background on the Assault on Moncada and Bayamo Garrisons," by Thomas Toledo, 7/18/67; *Latin American Research Review,* "The Cuban Revolution: The Road to Power," by Andrés Suárez, vol. VII, no. 3 (Fall 1972).

Original interviews and oral histories: Raúl Martínez Arará, 1/12/85 and 1/19/85, Miami, Florida; Héctor de Armas, 1/26/85, Miami, Florida; Carlos Bustillo, 4/27/85, New York; Gerardo Perez Puelles, 7/15/86, Caracas, Venezuela; Haydée Santamaría, Havana, Cuba, August 1966; Ramón Mestre, 7/25/84, Miami, Florida; Arturo Villar, 1/16/85, Miami, Florida; Rolando Amador, 3/20/86, Miami, Florida; Tad Szulc, original interviews with Antonio Núñez Jiménez, 4/4/85, Blas Roca, 6/

4/85, José Ramón Fernández, 4/11/85, Melba Hernández, 5/2/85, Pedro Miret, 4/29/85 and 6/5/85, from the University of Miami Archives.

CHAPTER 11: THE ISLE OF PINES, PRISON AS CLASSROOM

Books, brochures, papers, and documents: In addition to the books named in Chapter 10, these sources were also drawn upon for Chapter 11: Samuel Farber, *Revolution and Reaction in Cuba;* José Duarte Oropesa, *Historiología Cubana;* Gerardo Rodríguez Morejon, *Fidel Castro;* Maurice Halperin, *The Rise and Decline of Fidel Castro;* Theodore Draper, *Castro's Revolution;* Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel;* Lionel Martin, *The Early Fidel,* Rolando Bonachea and Nelson Valdes, *Revolutionary Struggle;* Haydée Santamaria, *Moncada; El Abogado,* Boletin Oficial del Colegio Nacional de Abogados de Cuba en el Exilio, "La Historia Me Absolvera, La Mentira del Siglo," by Dr. José F. Valls; Luis Conte Agüero, *Cartas del Presidio;* William L. Shirer, *The Rise and Fall of the Third Reich;* Tad Szulc, *Fidel: A Critical Portrait.*

Magazine article: *Latin American Research Review,* "The Cuban Revolution: The Road to Power," by Andres Suárez, vol. VII, no. 3 (Fall 1972).

Original interviews and oral histories: Haydée Santamaría, August 1966, Havana, Cuba; Jorge Valls, 12/1/86, New York; Dr. Marcelino Feal, 1/21/85, Miami, Florida; Tomás Regalado, Sr. and Jr., 1/17/85, Miami, Florida; Jack Skelly, 9/29/86, Arlington, Virginia; Rafael Diaz-Balart, 10/20/85, Madrid, Spain.

CHAPTER 12: THE MEXICO YEARS

Books, brochures, papers, and documents: Rolando Bonachea and Nelson Valdes, *Revolutionary Struggle 1947–1958;* Jules Dubois, *Fidel Castro: Rebel-Liberator or Dictator?;* Fidel Castro/Frei Betto, *Fidel e a Religião, Conversas com Frei Betto;* Luis Conte Aguero, *Fidel Castro;* Teresa Casuso, *Cuba and Castro;* Richard Gott, *Guerrilla Movements in Latin America,* Ramón Bonachea and Marta San Martin, *Cuban Insurrection, 1952–1959;* Herbert Matthews, *Revolution in Cuba;* Samuel Farber, *Revolution and Reaction in Cuba, 1933–1960;* Carlos Franqui, *Diary of the Cuban Revolution;* Mario Llerena, *The Unsuspected Revolution;* Warren Hinckle and John W. Turner, *The Fish Is Red: The Story of the Secret War Against Castro;* Hilda Gadea, *Ernesto, A Memoir of Che Guevara.*

Magazine and newspaper articles: *Ejercito Rebelde,* Havana, Cuba, "Mi aporte a la Revolución," by General Alberto Bayo, January 1960; *Granma,* Havana, Cuba, "Che en Guatemala, de una entrevista del periodista argentino Jorge Ricardo Masetti con Che en la Sierra Maestra," 10/29/67; *Vida Universitaria,* "Una revolución que comienza," by Ernesto "Che" Guevara, vol. 20, no. 214 (January–March 1969); *New York Times Magazine,* "The Making of a Revolutionary, A Memoir of the Young Guevara," by Dolores Moyano Martin, 8/18/68; *El Nacional,* Caracas, Venezuela, article by Lucila Velasquez, 1967; *Diario 66,* Madrid, Spain, "Entrevista

Alina Fernandez, Tengo el derecho a decir que soy la hija de Fidel," 1/26/89; *El Diario de Nueva York*, New York, "Secuestran A Fidelito En Mexico," by Emma and Lidia Castro, 4/29/57.

Original interviews and oral histories: Dr. Mariano Sorí Marín, 9/25/85, Lexington, Kentucky; Jorge Valls, 7/4/86, Washington, D.C., and 12/1/86, New York; Orlando de Cárdenas, 1/24/85, 2/22/86, and 3/22/86, Miami, Florida; Dr. Facundo Lima, 5/2/87, Washington, D.C.; Luis Alberto Monge, 2/6/90, San José, Costa Rica; Sacha Volman, 10/15/86, Washington, D.C.; Ben Stephansky, 10/27/86, Washington, D.C.; Isabel Custodio, 1987, Mexico City, Mexico; Alvaro Custodio, 12/11/86, San Lorenzo de Escorial, Spain; Justo Carrillo, 1/16/85 and 3/27/86, Miami, Florida; Rafael Díaz-Balart, 12/14/84; Manolo Rodríguez, 1/22/85, Miami, Florida; César Gómez, 7/8/86, Bogotá, Colombia; Tad Szulc original interview with Universo Sánchez Durante, 7/4–5/85, Havana, Cuba, from the University of Miami Archives; Mario Llerena, 1/18/85, Miami, Florida; Esther López Castro, 2/9/86, Mexico City, Mexico; Manuel Arques, 3/27/86, Miami, Florida; Lomberto Díaz, 1/22/85, Miami, Florida; Pat Kegan, 1/24/85, Fort Lauderdale, Florida.

CHAPTER 13: THE LANDING

Books, brochures, papers, and documents: Tad Szulc, *Fidel: A Critical Portrait; De Tuxpan a la Plata*, the Castro regime official report of the trip of the *Granma*, with research done by the Sección de Historia de las Fuerzas Armadas Revolucionarias de la República de Cuba; Ruby Hart Phillips, *Cuba, Island of Paradox;* Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel;* Carlos Franqui, *The Twelve;* Ernesto "Che" Guevara, *Reminiscences of the Cuban Revolutionary War.*

Newspaper article: *El Diario de Nueva York*, "Desembarco y Combates en Sierra Maestra, Historia de Fidel Castro," by Emma and Lidia Castro, 5/1/57.

Original interviews and oral histories: Dr. Rubén Darío Rumbaut, 2/27/85, Houston, Texas; Rafael Díaz-Balart, 12/14/84, Madrid, Spain; Dunney Pérez Alamo, 3/5/87, Miami, Florida; Tad Szulc original interview with Faustino Pérez, 6/1/85, Havana, Cuba, from the University of Miami Archives.

CHAPTER 14: GUERRILLA THEATER

Books, brochures, papers, and documents: Herbert Matthews, *The Cuban Story, Fidel Castro,* and *Revolution in Cuba;* Robert Taber, *M-26, Biography of a Revolution;* Frank Mankiewicz, *With Fidel;* Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel;* Ramón Bonachea and Marta San Martín, *The Cuban Insurrection, 1952–1959;* Michael S. Radu, "Revolutionary Violence in Latin America," paper; Ernesto "Che" Guevara, *Reminiscences of the Cuban Revolutionary War;* Carlos Franqui, *Diary of the Cuban Revolution;* John Dorschner and Roberto Fabricio, *The Winds of December;* Manuel Rojo Del Río, *La historia cambió en la sierra.*

Magazine article: *Parade* magazine, "The Woman Behind Fidel Castro," by Andrew St. George, 4/11/65.

Original interviews and histories: Felipe Pazos, 7/17/86, Caracas, Venezuela; Dr. Alberto Dalmau, 7/22/85, Madrid, Spain; Michel Tourguy, 12/5/84, Warsaw, Poland, Eugenio Soler, 7/19/86, Caracas, Venezuela; Victor Mora, 3/14/87, Miami, Florida; Agustin País, 3/22/86, Miami, Florida; Raúl Chibás, 5/17/85, San Juan, Puerto Rico, Manuel Ray, 4/13/85, San Juan, Puerto Rico; Javier Pazos, 7/21/86; Caracas, Venezuela; Dunney Pérez Alamo, 3/5/87, Miami, Florida; Rogelio Cisneros, 7/22/86, Caracas, Venezuela.

CHAPTER 15: A NATION IS DYING

Books, brochures, papers, and documents: Ramón Bonachea and Marta San Martín, *The Cuban Insurrection, 1952 1959;* Teresa Casuso, *Cuba and Castro;* Lucas Moran Arce, *La Revolucion Cubana (1953 1959), una version rebelde;* Jules Dubois, *Rebel Liberator or Dictator?* Robert Taber, *M-26, Biography of a Revolution;* Enrique Meneses, *Fidel Castro,* Theodore Draper, *Castroism, Theory and Practice;* K. S. Karol, *Guerrillas in Power;* Lionel Martin, *The Early Fidel;* Carlos Franqui, *Family Portrait with Fidel,* Roger W Fontaine, *Terrorism. The Cuban Connection;* Edward Gonzalez, *Cuba Under Castro.*

Song. "Los Caminos de mi Cuba," famous melancholic song of these years, sung nightly in the 1950s by its popular composer, Carlos Puebla, at La Bodeguita del Medio, the favorite bohemian restaurant off the Plaza de la Catedral.

Magazine, newspaper, and journal articles: *Reader's Digest,* "The Complete Book of the Olympics," by David Wallechinsky; *National Review,* "Huber Matos, The Undefeated," by Lorrin Philipson; *Review of Politics,* "The Peasantry in the Cuban Revolution," by Gil Carl AlRoy, vol. 29, no. 1 (January 1967).

Intelligence reports: Special National Intelligence Estimate No. 85-58, "The Situation in Cuba," 24 November 1958, submitted by the Director of Central Intelligence, obtained through the Freedom of Information Act; Special National Intelligence Estimate No. 85 1-58, "Developments in Cuba Since Mid-November," 16 December 1958, submitted by the Director of Central Intelligence, obtained through the Freedom of Information Act.

Original interviews and oral histories: Robert Wiecha, 7/16/87, Washington, D C.; Carlos Franqui, 7/23/85, Madrid, Spain; Roy Rubottom, 5/12 13/86, Dallas, Texas; Jose Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia; Fr. Armando Llorente, 1/22/85, Miami, Florida; Víctor Mora, 3/13/87, Miami, Florida; José Ramón Gonzalez Reguera1, 10/30/85, Madrid, Spain; Carlos Castañeda, 4/17/85, San Juan, Puerto Rico.

CHAPTER 16: FIDELFIDELFIDELFIDELFIDELFIDELFIDELFIDEL

Books, brochures, papers, and documents: Ruby Hart Phillips, *Cuba, Island of Paradox* and *The Cuban Dilemma;* Hugh Thomas, *Cuba;* Ramón Bonachea and Marta San Martín, *The Cuban Insurrection, 1952 1959;* Wayne Smith, *The Closest of Enemies;* José Pardo Llada, *Memorias de la Sierra Maestra;* John Dorschner and Robert Fabricio, *The Winds of December;* Jules Dubois, *Fidel Castro;* Carlos

Franqui, *Family Portrait with Fidel;* Maurice Halperin, *The Rise and Decline of Fidel Castro;* Lionel Martin, *The Early Fidel;* Paul Bethel, *The Losers;* Jean Paul Sartre, *Sartre on Cuba;* Ward M. Morton, *Castro as Charismatic Hero;* Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel;* Luis Conte Agüero, *Fidel Castro: Vida y Obra;* Migene González-Wippler, *Santería, African Magic in Latin America;* Samuel Farber, *Revolution and Reaction in Cuba, 1933–1960;* Max Weber, *On Charisma and Institution Building;* Jerrold M. Post, *Narcissism and the Charismatic Leader-Follower Relationship.*

Magazine and journal articles: *Revista/Review Interamericana,* "Fidel Castro: Apuntes sobre un caudillo socialista," by Luis E. Aguilar, vol. III, no. 3 (Fall 1977); *The Nation,* "Revolution Without Generals," by Carleton Beals, vol. 188 (January 1959).

Original interviews and oral histories: Lázaro Asencio, 3/11/87, Miami, Florida; Emilio C. Caballero, 3/20/86, Miami, Florida; Jack Skelly, 9/29/84, Washington, D.C.; Juan Arcocha, 7/9/85, Paris, France; Cecilia Bustamente, 6/4/87, telephone from Austin, Texas; Armando Fleites, 1/23/85, Miami, Florida; Father. Juan Manuel Dorta-Duque, 3/19/86, Miami, Florida; Huber Matos, 1/21/85, Miami, Florida; Rolando Cubela, 10/26/85, Madrid, Spain; Lydia Cabrera, 3/18/86, Coral Gables, Florida; Orlando Jiménez-Leal, 11/24/86, New York.

CHAPTER 17: THE FIRST MONTHS—THIS TRAIN KNOWS WHERE IT IS GOING

Books, brochures, papers, and documents: Herbert Matthews, *Fidel Castro* and *The Cuban Story;* Ruby Hart Phillips, *The Cuban Dilemma;* Ramón Bonachea and Marta San Martín, *The Cuban Insurrection, 1952–1959;* Peter Bourne, *Fidel;* Armando Valladares, *Against All Hope;* Teresa Casuso, *Cuba and Castro;* Charles D. Ameringer, *Don Pepe, A Political Biography of José Figueres of Costa Rica;* Luis Conte Agüero, *Fidel Castro: Vida y Obra;* José Pardo Llada, *The Che I Knew;* Pamela Falk, *Cuban Foreign Policy;* Shirley Christian, *Nicaragua;* Carlos Franqui, *Family Portrait with Fidel;* Theodore Draper, *Castro's Revolution.*

Magazine and newspaper articles: *Life* magazine, 2/2/59; *Time* magazine, 2/23/59; "El 14 de Junio: La Raza Inmortal," by Hugo A. Ysalguez, report published by the survivors of the June 14, 1959, attack to overthrow Generalissimo Rafael L. Trujillo; *Confidential,* "Castro Raped My Teen-Age Daughter," by Alice J. Lorenz, 5/31/60; *New York Sunday News,* "American Mata Hari Who Duped Castro," by Paul Meskil, 4/20/75; *New York Daily News,* "How an Invasion of the Canal Zone Was Foiled, Secrets of the CIA" by Paul Meskil, 4/22/75.

Original interviews and oral histories: José Ignacio Rasco, 1/11/85, Coral Gables, Florida; Eugenio Soler, 7/19/86, Caracas, Venezuela; Josefina Ache, 7/18/86, Caracas, Venezuela; Armando Fleites, 1/23/85, Miami, Florida; José "Pepe" Figueres, 5/2/785, San José, Costa Rica; Gonzalo Facio, 5/2/85, San José, Costa Rica; Carlos Castañeda, 5/17/85, San Juan, Puerto Rico; Agustín Tamargo, 1/8/85, Miami, Florida; José Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia; Sacha Volman, 1/17/86, Washing-

ton, D.C.; Frank Aldrich, 2/8/87, Washington, D.C.; Gloria Gaitán, 7/11/86, Bogota, Colombia, and tapes prepared for the author by Gloria Gaitán, Felipe Pazos, 7/17/86, Caracas, Venezuela; Huber Matos, 1/21/85, Miami, Florida; Ernesto Betancourt, 11/29/84, Washington, D.C.; Manuel Ray, 5/15/85, San Juan, Puerto Rico; Guillermo Martinez Marques, 1/17/85, Miami, Florida; Maurice Halperin, 1/16/86, Vancouver, Canada, Gonzalo Facio, 4/28/85, San José, Costa Rica; Clarence Moore, 4/11/85, Washington, D.C.; Ramon Barquin, 4/14/85, San Juan, Puerto Rico; Emilio Guede, 4/15/85, San Juan, Puerto Rico, Marco Falcón Briceno, 7/23/86, Caracas, Venezuela, Hilda Felipe de Escalona, 3/10/87, Miami, Florida.

CHAPTER 18: CASTRO MEETS *EL NORTE*

Books, brochures, papers, and documents: Pablo Neruda, "There Is No Forgetfulness," in *Twenty Poems*, Rufo Lopez Fresquet, *My 14 Months with Castro;* Christian Herter, *American Secretaries of State*, original Richard Nixon confidential memo, "Summary of Conversation Between the Vice President and Fidel Castro," 4/19/59, provided by Richard Nixon to the author, Teresa Casuso, *Cuba and Castro;* Carlos Franqui, *Family Portrait with Fidel*, Jorge Edwards, *Persona Non Grata;* Norman Mailer, "The Letter to Castro" in *"Presidential Papers";* Ruby Hart Phillips, *The Cuban Dilemma*, Tad Szulc, *Fidel: A Critical Portrait.*

Newspaper articles, *Daily Princetonian*, Princeton, N.J., "The Story Behind Castro's Visit Here, Ely Makes Trip to Cuban Palace," by Jose M. Ferrer III, 4/17/59; *Daily Princetonian*, Princeton, N.J., "Castro Schedules Address Here, Cuban Leader to Visit ACP Seminar Monday," by Jose M. Ferrer III, 4/15/59

Original interviews and oral histories, Jose "Pepin" Bosch, 1/17/85, Miami, Florida; Ernesto Betancourt, 9/25/84, Washington, D.C., Roy Rubottom, 5/12-13/86, Dallas, Texas; William Wieland, 8/4/87, telephone from Maryland; Richard Nixon, 8/11/87, New York, Vernon Walters, 3/13/85, Washington, D.C.; Carlos Castaneda, 5/17/85, San Juan, Puerto Rico; Manolo "Manolin" Rodríguez, and Manolo Rodriguez, Sr., 1/18/86, Pompano Beach, Florida; Betty Dukert, 2/24/85, Washington, D.C., Luis J. Botifoll, 1/25/86, Miami, Florida; Roland Ely, November 1974, Teheran, Iran, Robert Goheen, 2/2/87, telephone from Princeton, New Jersey; John Palmer, 2/2/84, telephone from Princeton, New Jersey; Sally Aall, former Mrs. Roland Ely, 10/21/87, telephone from Colorado; Jack Skelly, 10/4/84, Washington, D.C.; Mariano Sorí Marin, 9/25/85, Lexington, Kentucky; Tad Szulc original interviews with Fabio Grobart, 6/6/85, Pedro Miret Prieto, 6/5/85, Alfredo Guevara, 4/30/85 and 1/26/85, and Blas Roca, 6/4/85, Havana, Cuba, from the University of Miami Archives

CHAPTER 19: AN IRON FILING

Books, brochures, papers, and documents: Ruby Hart Phillips, *The Cuban Dilemma;* Paul Bethel, *The Losers;* Ricardo Rojo, *My Friend Che;* Hugh Thomas, "Cuba: The United States and Batista, 1952-58," paper prepared for Public Policy Week 1985,

American Enterprise Institute; Philip Bonsal, *Cuba, Castro and the United States;* Nikita Khrushchev, *Khrushchev Remembers;* Carla Robbins, *The Cuban Threat;* David E. Apter, "Political Religion in the New Nations," in *Old Societies and New States, the Quest for Modernity in Asia and Africa,* edited by Clifford Geertz; Carlos Franqui, *Family Portrait with Fidel;* Arkady N. Shevchenko, *Breaking with Moscow;* Maurice Halperin, *Rise and Decline of Fidel Castro;* Fred Ward, *Inside Cuba Today,* Tad Szulc, *Fidel: A Critical Portrait.*

Magazine, newspaper and journal articles: TASS, Moscow, Russian-language article on "The Missile Crisis," by Alexander Alexeev, November 1988; *América Latina,* printed by Editorial Progresò, Moscow, "Encuentros con Che Guevara, Notas del Periodista," by Sergo Mikoyan, Spanish-language publication of the Soviet government; *Life* magazine, "My Brother Is a Tyrant and He Must Go," by Juana Castro, 8/28/64; *Casa de las Américas,* Havana, Cuba, "Carlos el amanecer ya no es una tentación," Tomás Borge Martínez (May/June 1979); *Inter-American Economic Affairs,* "U.S. Claims Against the Cuban Government: An Obstacle to Rapprochement," by Lynn Darrell Bender, vol. XXVII, no. 1 (Summer 1973); *New York Times Magazine,* "Fidel Castro's Years as a Secret Communist," by Tad Szulc, 10/19/86.

Original interviews and oral histories: Antonio Orlani, 10/31/85, Madrid, Spain; Juan Arcocha, 7/13/85, Paris, France; Sergo Mikoyan, 2/5/88, Alexandria, Virginia, and 4/18/89, Washington, D.C.; Manolo "Manolin" Rodríguez and Manolo Rodríguez Sr., 3/18/86, Pompano Beach, Florida; Dr. Marcelino Feal, 1/21/85, Miami, Florida; María Camella, 7/19/85, Madrid, Spain; Dr. Gerardo Canet, 1/10/85, Bethesda, Maryland; Jorge Beruff, 12/21/84, Washington, D.C.; Santiago Carrillo, 10/23/85, Madrid, Spain; José Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia; Jorge Valls, 11/24/86, New York; Mustapha Amin, 2/15/86, Cairo, Egypt; Sunil Kumar Roy, 3/4/86, New Delhi, India; Sara McClendon, 2/21/86, Washington, D.C.

CHAPTER 20: THE BAY OF PIGS

Books, brochures, papers, and documents: Arthur Schlesinger, Jr., *Robert Kennedy and His Times* and *A Thousand Days;* Herbert Matthews, *Fidel Castro;* Peter Wyden, *The Bay of Pigs;* Lionel Martin, *The Early Fidel;* Nikita Khrushchev, *Khrushchev Remembers;* Hugh Thomas, *Cuba;* Haynes Johnson, *The Bay of Pigs;* Warren Hinckle and John W. Turner, *The Fish Is Red; Playa Girón, Derrota del Imperialismo,* La Habana, 1961, tomo I; Fidel Castro, *Historia de la Invasión a Cuba, En Pié de Guerra por La Soberanía,* Lima, Peru, Editorial Libertad, Agencia Noticiosa Peruana; Maurice Halperin, *Rise and Decline of Fidel Castro;* Ruby Hart Phillips, *The Cuban Dilemma;* John Prados, *Presidents' Secret Wars;* Archibald Roosevelt, Jr., *For Lust of Knowing;* Richard E. Neustadt and Ernest R. May, *Thinking in Time, The Uses of History for Decision Makers;* Hans Morgenthau, *A New Foreign Policy for the United States.*

Intelligence documents: "A Program of Covert Action Against the Castro Regime," CIA Documents, approved by the President, 16 March 1960; CIA Document

21, "Cuban Operation," for General Maxwell D. Taylor, Signed C. Cabell, General USAF, Deputy Director, 9 May 1961; "Memorandum for the President," Subject: Cuba, 3/15/61 from Arthur Schlesinger, Jr. to President Kennedy.

Film: *Fidel Castro*, film prepared by Kirby Jones.

Magazine and newspaper articles: *Washington Post*, "Why The CIA Leaves Its Contras Hanging," by David Atlee Phillips, 4/6/86; *Life* magazine, "My Brother Is a Tyrant and He Must Go," by Juana Castro, 8/28/64.

Original interviews and oral histories: Dr. Andrés Vargas Gómez, 1/16/85, Miami, Florida; Richard Nixon, 8/11/87, New York; Dr. Mariano Sorí Marín, 9/25/85, Lexington, Kentucky; Tad Szulc original interview with Norberto Fuentes, 5/22/85, Havana, Cuba, from the University of Miami Archives; William Colby, 10/8/87, Washington, D.C.

CHAPTER 21: THE MARXIST-LENINIST

Special conferences: Missile Crisis meeting at the Kennedy School of Government, Harvard University, Cambridge, Massachusetts, 10/11–13/87, with Russian and American officials attending; Missile Crisis followup meeting at Harvard University, 2/14/89.

Books, brochures, papers, and documents: *The Algonquin Wits;* K. S. Karol, *Guerrillas in Power;* Carlos Franqui, *Family Portrait with Fidel;* Jaime Suchlicki, *University Students and Revolution in Cuba;* Orlando Castro Hidalgo, *Spy for Fidel;* Maurice Halperin, *The Rise and Decline of Fidel Castro;* Nikita Khrushchev, *Khrushchev Remembers;* Carla Robbins, *The Cuban Threat;* Jan Sejna, *We Will Bury You;* C. L. Sulzberger, *An Age of Mediocrity;* Ricardo Rojo, *My Friend Che; El Viaje de Fidel Castro a la Unión Soviética, Discusos de N. S. Jrushchev y Fidel Castro, en el Mitin Dedicado a la Amistad Cubano-Soviética, Celebrado en Moscú, el 23 de Mayo de 1963*, Moscow; Juan Arcocha, *Fidel Castro;* Warren Turner and John W. Hinckle, *The Fish Is Red;* Arthur Schlesinger, Jr., *Robert Kennedy and His Times;* Cecil B. Currey, *Edward Lansdale: The Unquiet American;* Igor Yefimov, *Kennedi, Osval'd, Kastro, Khrushchev;* James G. Blight and David Welch, *On the Brink*, first and second editions; Elie Abel, *The Missile Crisis;* Graham Allison, *Essence of Decision;* An Introduction to the ExComm Transcripts, tapes made of the meetings of the Executive Committee of the National Security Council during the Missile Crisis, by David A. Welch and James G. Blight, Harvard University; *Cuban Communism*, edited by Irving Louis Horowitz, chapter, "The Missiles of October: Twenty Years Later"; Maurice Halperin, *The Rise and Decline of Fidel Castro*.

Magazine and newspaper articles: *The New Republic*, "Lights, Camera, Communism, What Castro is doing to the Cuban Cinema," by Nestor Almendros, 2/29/88; *Journal of Interamerican Studies and World Affairs*, "Party Development in Revolutionary Cuba," vol. 21, no. 4 (November 1970); *Proceso*, Mexico City, Mexico, Interview with Fidel Castro by Julio Scherer García, 1/12/81; *Revolución*, Havana, Cuba, articles on Fidel Castro's Moscow trip, 4/30/63; *The New Republic*,

"When Castro Heard the News," by Jean Daniel, 12/7/63; *The News American*, "Castro Had JFK Killed?" by Marianne Means, 4/22/75; TASS, Moscow, article on the Missile Crisis, by Alexander Alexeev, November 1988; *Boston Sunday Globe*, "Avoiding Another Missile Crisis," by Graham Allison, 2/5/89; *Washington Post*, "Was Castro Out of Control in 1962?" by Seymour M. Hersh; *New York Daily News*, "Our Havana Triple Spy Helped & Hurt Castro," by Paul Meskil, 4/21/75; *Chicago Sun-Times*, "A Timely Talk with Castro," by Joseph N. Gomez, 12/11/88; *New York Times*, "Warheads Were Deployed in Cuba in '62, Soviets Say," by Bill Keller, 11/29/89; *Rolling Stone*, "The Hughes-Nixon-Lansky Connection: The Secret Alliances of the CIA From World War II to Watergate," by Howard Kohn, 5/20/76; *New York Daily News*, "How U.S. Made Unholy Alliance With the Mafia," by Paul Meskil, 4/23/75; *New York Times*, "The Day Castro Almost Started World War III," by Daniel Ellsberg, 10/31/87; and *Foreign Policy*, "Kennedy and the Cuban Connection," by Donald E. Schulz, Spring 1977.

Original interviews and oral histories: Juan Benemelis, 6/29/85, Washington, D.C.; Arkady Shevchenko, 10/14/87, Washington, D.C.; Theodore Shackley, 2/23/88, Washington, D.C.; David Atlee Phillips, 10/18/87, Washington, D.C.; Robert MacNamara, 1/11/88, Washington, D.C.; Oscar Mori, 10/28/85, Madrid, Spain; Juan Arcocha, 7/13/85, Paris, France; Fedor Burlatsky, Joseph Nye, Jr., Graham Allison, Sergo Mikoyan, Jim Blight, and Sergei Khrushchev, 2/14/89, Cambridge, Massachusetts; Radio Martí interview with Carlos Franqui, 12/8/87; Jack Anderson, 7/20/89, telephone interview, Washington, D.C.; Tad Szulc original interviews with Fabio Grobart 6/6/85, Havana, Cuba, and Fidel Castro, 1/28/84, Havana, Cuba, from the University of Miami Archives.

CHAPTER 22: GUERRILLA TO AN AGE

This chapter in particular drew upon three major series of articles done by the author for the *Chicago Daily News*. The first involved following in Ernesto "Che" Guevara's footsteps all across Bolivia in March 1968, to trace his last months and his death in October 1967. At that time, I interviewed at length Régis Debray, Ciro Bustos, and all the guerrillas in Che's band. The second was a weeks-long stay in Guatemala in October 1966, which included living for a week in the mountains with the Marxist Fuerzas Armadas Rebeldes, or Rebel Armed Forces, and interviews with its leader Cesar Montes and all of the guerrillas. The third was a series of articles on Cuba's influence on American radicals, "Cuba: School for U.S. Radicals," five parts, in collaboration with Keyes Beech, printed in October 1970, and culled from scores of interviews with American radicals, diplomats, and intelligence officers.

Books, brochures, papers, and documents: Luis Ortega, *El Sueño y La Distancia;* Mario Vargas Llosa, *The Real Life of Alejandro Mayta;* "Castro's Americas Department," booklet, the Cuban American National Foundation; Orlando Castro Hidalgo, *Spy for Fidel;* Lee Lockwood, *Castro's Cuba, Cuba's Fidel;* Enrique Meneses, *Fidel Castro;* Jay Mallin, *Fortress Cuba;* Raymond Carr, *Spain 1808–1975; The Guerrilla Reader, A Historical Anthology,* edited by Walter Laqueur; Eric

Hoffer, *The True Believer;* Robert J. Alexander, *Romulo Betancourt and the Transformation of Venezuela;* Carla Robbins, *The Cuban Threat;* K. S. Karol, *Guerrillas in Power;* Mohamed Hassanein Heikal, *The Cairo Documents;* Ricardo Rojo, *My Friend Che;* Daniel James, *Che Guevara* and *The Complete Bolivian Diaries of Che Guevara;* Maurice Halperin, *The Rise and Decline of Fidel Castro* and *The Taming of Fidel Castro;* Leo Sauvage, *Che Guevara, The Failure of a Revolutionary;* Richard Gott, *Guerrilla Movements in Latin America;* Marta Rojas and Mirta Rodríguez Calderón, *Tania, la guerrillera;* C. L. Sulzberger, *An Age of Mediocrity;* Régis Debray, *Revolution in the Revolution?;* Yehoshophat Harkabi, *Israel's Fateful Hour;* David J. Kopilow, *Castro, Israel and the PLO;* Ernest Halperin, "The End of Guevarism?" paper, conference, Revolutionary Violence in Latin America, 12/4/85, Washington, D.C.; and Juan Benemelis, *Castro Subversión y Terrorismo en África;* Roger Fontaine, *Terrorism: The Cuban Connection.*

Magazine and newspaper articles: *Studies in Comparative Communism,* "The Cuban Military in Africa and the Middle East, From Algeria to Angola," by William J. Durch, vol. XI, nos. 1 and 2 (Spring/Summer 1978); *Chicago Tribune Magazine,* "The Girl Who Betrayed Che Guevara," by Daniel James, 9/21/69; *Insight* magazine, "Skewering the Sixties' Leftover Left," by Peter Collier and David Horowitz, 4/3/89.

Original interviews and oral histories: David Atlee Phillips, 6/6/86, Washington, D.C.; Fausto Amador, 10/19/87, Washington, D.C.; Victor Meza, 5/4/86, Tegucigalpa, Honduras; Orlando García, 7/24/86, Caracas, Venezuela; Gerardo Canet, 1/1/85, Washington, D.C.; Juan Arcocha, 7/13/85, Paris, France; Hamdi Fouad, 6/12/86, Washington, D.C.; Dolores Moyano Martin, 9/15/87, Washington, D.C.; General Gary Prado Salmón, 12/17/87, Washington, D.C ; Felix Rodríguez, 4/12/89, Washington, D.C.; Arkady Shevchenko, 10/14/87, Washington, D.C.; Eugenio Soler, 7/19/86, Caracas, Venezuela; Eldridge Cleaver, 10/14/84, Berkeley, California; James Pringle, 7/7/86, letter from Beijing, China; Francisco Teira, 1/15/85, Miami, Florida; Lutfi Al Kholi and Ihsan Abdul Kuddous, 2/4/86, Cairo, Egypt; General Alvaro Valencia Tovar, 7/8/86, Bogotá, Colombia; Brian Jenkins, 10/9/84, Santa Monica, California; Edward Gonzalez, 10/9/84, Santa Monica, California; Maurice Halperin, 1/16/86, Vancouver, Canada.

CHAPTER 23: THE DICTATOR OF THE COWS

Books, brochures, papers, and documents: René Dumont, *Is Cuba Socialist?;* Carla Robbins, *The Cuban Threat;* Maurice Halperin, *The Taming of Fidel Castro;* Edward Gonzalez, *Cuba Under Castro: The Limits of Charisma* and *Castro, Cuba and the World;* Jorge Edwards, *Persona Non Grata;* K. S. Karol, *Guerrillas in Power;* Carlos Alberto Montaner, *Fidel Castro y La Revolución Cubana;* Theodore Draper, *Castroism, Theory and Practice;* Castro speech, 4/22/86, FBIS, Hugh Thomas, *Cuba;* Paul Hollander, *Political Pilgrims;* Turner Catledge, *My Life and The Times; Fidel in Chile, A Symbolic Meeting Between Two Historical Processes, Selected Speeches of Major Fidel Castro During His Visit to Chile,* November 1971;

Nathaniel Davis, *The Last Two Years of Salvador Allende;* Fidel Castro/Frei Betto, *Fidel e a Religião, Conversas com Frei Betto;* Paul E. Sigmund, *The Overthrow of Allende and the Politics of Chile, 1964–1976;* The Church Report, The Senate Foreign Relations Committee report on Chile; Raymond Carr, *Spain, 1808–1975.*

Magazine and newspaper articles: *U.S. News and World Report,* March 1, 1964, and August 31, 1964; *El Miami Herald,* "Otoño del Patriarca," by Thomas Regalado Jr., 10/7/85; *The American Spectator,* "Revolution's End," by R. Bruce McColm, vol. 13, no. 5 (May 1980); *Washington Post,* "Cuba Researchers Test Interferon," by Edward Cody, 8/4/85; *Current,* "The State of Castro's Cuba," by Edward Gonzalez, December 1970; *Estudios Cubanos/Cuban Studies,* "Continuity and Change in the Cuban Political Elite," vol. 8, no. 2 (July 1978); *The Monthly Review,* "Continuities in Cuban Revolutionary Politics," by Richard Fagen, vol. 23, no. 11 (April 1972); *International Herald Tribune,* "Castro Starts Visit to Russia with Top Official Welcome," 6/2/72; *Time* magazine, "Bienvenido, Brezhnev," 2/11/74.

Original interviews and oral histories: Fidel Castro, four interviews, July and August 1966, Havana, Banes, and Pico Turquino, Cuba; Salvador Allende, four interviews, July 1966, 1968, 1969, Santiago, Chile, and Havana, Cuba; Rolando Amador, 3/20/86, Miami, Florida; Santiago Carrillo, 10/23/85, Madrid, Spain; José Roque León, 7/20/85, Madrid, Spain; General Rafael del Pino, 8/26/87, Washington, D.C., Ambika Soni, 3/17/86, New Delhi, India; Mickey Leland, 4/2/85, Washington, D.C.; Dr. Karl Cantell, 11/9/88, Helsinki, Finland; José Luis Llóvio, 10/9/87, New York; Oscar Mori, 10/25/85, Madrid, Spain; Eduardo Manet, 7/12/85, Paris, France; José Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia; Juan Arcocha, 7/13/85 and 7/16/85, Paris, France; Vicente Echerri, 11/25/86, New York; Vicente Mateev, 12/28/84, Warsaw, Poland, and 11/20/88, Moscow; Dusko Doder, 12/28/84, Warsaw, Poland; Arkady Shevchenko, 10/14/87, Washington, D.C.; George McGovern, 1/7/85, Washington, D.C.; Mark Moran, 4/1/87, Alexandria, Virginia; Michel Tourguy, 11/30/84, Warsaw, Poland; William Colby, 10/8/87, Washington, D.C.; Michael Manley, 3/27/86, Kingston, Jamaica; Winston Spaulding, 3/26/86, Kingston, Jamaica; Sir Edgerton Richardson, 3/25/86, Kingston, Jamaica; Edward Seaga, 3/23/86, Kingston, Jamaica, Eugenio Soler, 7/21/86, Caracas, Venezuela; Antonio Orlani, 10/31/85, Madrid, Spain; Mrs. Frank Church, 5/27/86; Florentino Aspillaga, 4/14/88, Washington, D C.; Alberto Miguez, 11/5/85, Madrid, Spain; Gerardo Canet, 1/10/85, Washington, D.C.

CHAPTER 24: THE BAY OF PIGS, AGAIN AND AGAIN

Books, brochures, papers, and documents: Michael Manley, *Jamaica: Struggle in the Periphery;* Gabriel García Márquez, "Operation Carlota," in *Fidel Castro Speeches* and *Operación Carlota, Los Cubanos en Angola, El Che Guevara en Africa, La Batalla Contra El Reich Sudafricano;* Rigoberto Milan, *Farsas y Farsantes;* Carla Anne Robbins, *The Cuban Threat;* H. Michael Erisman, *Cuba's International Relations;* Robert Leiken, *Soviet Strategy in Latin America;* Cole Blasier and Carmelo Mesa-Lago, *Cuba in the World;* General Rafael del Pino, "General del

Pino Speaks," booklet; Pamela S. Falk, *Cuban Foreign Policy;* Humberto Belli, *Three Nicaraguans on the Betrayal of Their Revolution* and *Breaking Faith;* Wayne Smith, *The Closest of Enemies,* Shirley Christian, *Nicaragua, Revolution in the Family;* Robert Pastor, *Condemned to Repetition, The United States and Nicaragua;* Ernesto Cardenal, *In Cuba;* David Nolan, *FSLN, The Ideology of the Sandinistas and the Nicaraguan Revolution;* Jiri Valenta, *The Soviet-Cuban Intervention in Angola, 1975,* and *The USSR, Cuba and the Crisis in Central America;* Roger W. Fontaine, *Terrorism: The Cuban Connection,* David J. Kopilow, *Castro, Israel, & the PLO;* Gianni Minà, *Un Encuentro con Fidel;* "Inside the Sandinista Regime; A Special Investigator's Perspective," U.S. Department of State; Guillermo Cabrera Infante, *Suicide in Cuba*

Magazine, newspaper, and journal articles: *Cuban Studies/Estudios Cubanos,* "The Cuban Operation in Angola. Costs and Benefits for the Armed Forces," by Jorge I. Dominguez, vol. 8 no. 1 (January 1978); *Studies in Comparative Communism,* "The Cuban Military in Africa and the Middle East, From Algeria to Angola," by William J. Durch, vol. XI, nos. 1 and 2 (Spring/Summer 1978); *Policy Papers in International Affairs,* "Cuba's Policy in Africa, 1959–1980," by William M. LeoGrande, Institute of International Studies, University of California at Berkeley, *Current Problems of Underdeveloped Countries,* Fidel Castro speech text, "Internationalism and Socialism: A Condition for Humanity's Survival," Oficina de Publicaciones del Consejo de Estado, Havana, 1979; *Problems of Communism,* "Complexities of Cuban Foreign Policy," by Edward Gonzalez, vol. XXVI (November December 1977), *International Security Review,* "Castro's Adventure in Africa," by Dr. Herminio Portell Vila, Spring 1979, *Foreign Affairs,* "The Uses of American Power," by Stanley Hoffman, vol. 56, no. 1 (October 1977); "Revolutionary Violence in Latin America," by Douglas Payne, conference of the Foreign Policy Research Institute, 12/4/85, Washington, D.C.; paper, by Arturo Cruz Jr., "Second Thoughts" conference, 10/17–18/87, Washington, D.C.

Original interviews and oral histories: Luis Da Sousa, 11/13/86, Washington, D.C., Almirante Antonio Rosa Coutinho, 6/18/88, Lisbon, Portugal, and interview on film, Stornaway Productions television show on Angola, by Rob Roy, Toronto, Canada, Michael Manley, 3/27/86, Kingston, Jamaica; Florentino Aspillaga, 4/14/88, Washington, D.C., video interview, Cuban *santero,* Pichardo, from University of West Florida, Program on Cuban Studies, Pensacola, Florida; Blanca del Valle, 3/11/87, Miami, Florida, Tom Reston, 8/28/86, Washington, D.C., Pedro Ngueve Jonatao Chinpunji, 10/29/87, Washington, D.C.; Sergio Ramirez, 5/14/85, Fr. Ernesto Cardenal, 8/4/79, Tomas Borge and Daniel Ortega, 8/5/79, Managua, Nicaragua; Rafael del Pino, 8/26/87, Washington, D.C.; Eden Pastora, 3/6/86, McLean, Virginia, Hasan Rahman, 7/24/87, Washington, D.C., Napoleon Romero, 3/21/86, Miami, Florida; Zeev Schiff, 9/20/88, Tel Aviv, Israel; Majid Tehranian, 11/19/88, Vyborg, U.S.S.R.; eight interviews with Dr. Heinz Kohut, between 1969 and 1980, Chicago, Illinois, Alejandro Montenegro, 7/10/84, Washington, D.C., Alvaro José Baldizon Aviles, 9/20/85, Washington, D.C.; Arturo Cruz, Jr., 3/1/89, Washington, D.C., Jack Vaughan, 6/13/86, Washington, D.C.; Cesar Gomez, 7/9/86, Bogota,

Colombia; Manuel Antonio Sánchez Pérez, 12/10/86, Madrid, Spain; Mayín Correa 5/24/85, Panama City, Panama; Virginia Schofield, 5/28/86, Washington, D.C.; T. N. Kaul, 1/31/86, New Delhi, India; Imr Musa, 1/29/86, New Delhi, India; Tabarak Hussain, 10/15/86, Washington, D.C.; Sumil Kumar Roy, 3/4/86, New Delhi, India; Bernardo Benes, 3/21/86, Miami, Florida; Roger Miranda, 1/15/88, Washington, D.C.; Paul Hollander, 8/7/86, Washington, D.C.; Beatrice Rangel, 11/18/86, Washington, D.C.; Jonas Savimbi, 7/1/88, Washington, D.C.; Holden Roberto, 1/29/86, Washington, D.C.

CHAPTER 25: FIDEL'S GRENADA — DEATH IN A SMALL PLACE

Books, brochures, papers, and documents: Jiri Valenta and Herbert J. Ellison, *Grenada and Soviet-Cuban Policy, Internal Crisis and U.S./OECS Intervention;* Pamela Falk, *Cuban Foreign Policy;* "Grenada Documents, An Overview and Selection," released by the Department of State and the Department of Defense, September 1984, Washington, D.C.; Mark Falcoff and Robert Royal (eds.), *Crisis and Opportunity, U.S. Policy in Central America and the Caribbean;* Vernon V. Aspaturian, *Grenada and Soviet/Cuban Policy;* "Grenada, A Preliminary Report," released by the Department of State and the Department of Defense, December 16, 1983, Washington, D.C.; "Grenada Documents, Report on Meeting of Secret Regional Caucus, Held in Managua from the 6th–7th January, 1983"; "The 1982 Cuban Joint Venture Law: Contents, Assessment and Prospect," monograph by Jorge F. Perez-Lopez; Wayne Smith, *The Closest of Enemies; Cuban Communism,* fifth edition; Fidel Castro, *Fidel Castro Speeches;* Robert Lifton, *Revolutionary Immortality;* "Cuba, The Truth About the U.S. Invasion of Grenada, Statement by the Cuban Party and Government on the Imperialist Intervention in Grenada," Havana, Cuba; H. Michael Erisman, *Cuba's International Relations;* Dr. Shahram Chubin, paper, "Trends in Regional Conflict and Implications for World Strategic Order: Towards the Decline of Super-Power Military Involvement"; General Rafael del Pino, "General del Pino Speaks," booklet.

Magazine and newspaper articles: *Caribbean Review,* "Cuba and the Commonwealth Caribbean Playing the Cuban Card," by Anthony P. Maingot, vol. IX, no. 1 (Winter 1980); *New York Times,* "Cuba Says Its Militia Forces Now Exceed a Million," by Joseph B. Treaster, 5/2/84; *El País,* Madrid, Spain, "Castro asegura que Cuba es un país en pie de guerra que se defendera solo," by Enrique Muller, 7/28/83; *Washington Post,* interview with Einstein Louison, 11/9/83.

Film: *Improper Conduct,* pictures from Cuban television.

Original interviews and oral histories: Maurice Bishop, 4/5/80, St. George's, Grenada; Joseph E. Edmunds, 5/8/87, Washington, D.C.; Michael Manley, 3/27/86, Kingston, Jamaica; Dr. Alberto Dalmau, 7/22/85, Madrid, Spain; Rolando Cubela, 10/26/85, Madrid, Spain; Dr. Marcelino Feal, 1/21/85, Miami, Florida; Vernon Walters, 3/13/85, Washington, D.C.; Dr. Facundo Lima, 8/27/88, Washington,

D.C., Wolf Grabendorff, 12/15/86, Madrid, Spain; Florentino Aspillaga, 4/14/88, Washington, D.C.; Rafael del Pino, 8/26/87, Washington, D.C.

CHAPTER 26: *EL* — HE

Books, brochures, papers, and documents: Robert Lifton, *Revolutionary Immortality;* background brief, Foreign and Commonwealth Office, London, "Cuba: Party Congress and Rectification," February 1987; Fidel Castro, *Por El Camino Correcto, Compilacion de Textos;* Hugh Thomas, Georges Fauriol, and Juan Carlos Weiss, *The Cuban Revolution 25 Years Later*, Fidel Castro speech, 10/3/86, printed in *FBIS*, Jorge Valls, *Twenty Years and Forty Days Life in a Cuban Prison;* Rafael Moses, "The Leader and the Led. A Dyadic Relationship," paper; Fidel Castro interview, *60 Minutes*, 3/17/85; Fidel Castro interview with NBC Reporter Maria Shriver, 2/28/88, Havana Television Service in Spanish; James V. Downton, *Rebel Leadership, Commitment and Charisma in the Revolutionary Process;* J. L. Talmon, *The Origins of Totalitarian Democracy*, Fidel Castro speech, 12/13/89, reported by *FBIS*, Leopoldo Zea, *The Latin American Mind*, Ernesto Betancourt, "Cuban Leadership after Castro," paper, and *Revolutionary Strategy. A Handbook for Practitioners*, Gustavo Perez Cott, "Cuba sin Censura," paper.

Magazine and newspaper articles *New York Times*, "Castro Recoils at a Hint of Wealth," by Joseph B Treaster, 2/8/87; *Listin Diario*, Santo Domingo, Dominican Republic, "Imagen de Fidel Sutre," by Noel Lorthios, 7/26/86; *The World & I*, "Castro El Supremo," by Dolores Moyano Martin, April 1987

Original interviews and oral histories Major Florentino Aspillaga, broadcast by Radio Marti, 8/7-10/87; Gloria Gaitan, 7/11/86, Bogota, Colombia, Isabel Custodio, 1987, Mexico City, Mexico, Jose Pardo Llada, 7/12/86, Cali, Colombia, Jorge Valls, 10/23/87, New York, Antonio Valle Vallejo, 7/12/88, Washington, D.C; Dr. Facundo Lama, 5/28/87, Washington, D.C

Information on the trial of General Arnaldo Ochoa was drawn from several interviews with Ernesto Betancourt, spring of 1989; paper, "Behind Castro's Narcogate," by Ernesto Betancourt, *Granma*, "Concluyó sus Sesiones el Tribunal de Honor Militar," 6/27/89, Havana, Cuba, *New York Times*, 6/25,27,29/89; *Wall Street Journal*, 6/23/89, *Washington Post*, 6/26,29/89, 7/7,13,26/89 and 8/1,4/89; two research papers, "Legal Aspects of the Ochoa Trial" and "Castro and the Ochoa Affair," prepared by Freedom House, June 1990, *New York Review of Books*, "The Trial That Shook Cuba," by Julia Preston, vol XXXVI, no. 9 (Dec. 7, 1989).

المحتويات

أمير حرب العصابات

القصة التي لم تُرو عن فيدل كاسترو

ما أكثر النعوت المتناقضة التي أُطلقت لتوصيف فيدل كاسترو من قبل أجهزة الاعلام والصحافة على مدى يجاوز الثلاثين عاماً، ولو أصغينا لما قيل فلن نقبض إلّا على الحيرة:

هل هو ديكتاتور مستبد أم ديمقراطي فتح أبواب الأمل لشعب بائس؟ أهو مسيح جديد أم إرهابي لا يقرّ إلّا بالعنف والدم لغة وحيدة؟ هل هو نموذج مغاير لقيادات العالم الثالث أم أنه نسخة أخرى لا تختلف عن أولئك الزعماء الذين استولوا على السلطة في غفلة من الشعوب والتاريخ ومكّنوا لأنفسهم بالحديد والنار والخطابة وخيانة مصالح الشعب؟

لكن كيف تسنّى لكاسترو، الزعيم الكاريزمي الساحر لجزيرة كوبا الصغيرة التي تبعد عن الولايات المتحدة تسعين ميلاً فقط، أن يستمر في قمة هرم السلطة دون منازع حتى اليوم رغم تحديه السافر والمتواصل للجارة القوية ليس فقط في أميركا اللاتينية - حيث حقل نفوذها التقليدي - وإنما في أفريقيا وآسيا أيضاً؟

ثم، ما هو مصير كاسترو، ذلك الذي ألهب ذات يوم - مع رفيقه غيفارا - مخيلة شبيبة العالم وحركات الطلبة والثوريين المثاليين على امتداد القارات، في عالم اختلفت فيه قوانين ومنطق اللعبة الدولية التي استند إليها كاسترو لإقامة سلطته في كوبا والقيام بمغامراته في العالم؟

هذا الكتاب يحاول أن يفكّ أطراف الأسطورة وأن يحلّ أسرار اللغز من خلال رصد دقيق وشامل لعقل وسلوك وتاريخ شخصية منفردة قلّما شهد لها التاريخ مثيلاً

دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث